أرنست دوبلهوفر

رموز و معجزات

دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة

ترجمة ودراسة

د. عماد حاتم

دار علاء الدين

Ernst Doblhofer

ZEICHEN UND WUNDER

ارنست دوبلهوفر

رموز ومعجزات

دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة

ترجمة ودراسة

د. عماد حاتم

منشورات دار علاء الدين

- رموز و معجزات.

دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة.

- تأليف: ارنست دوبلهوفر.
- ترجمة ودراسة: د. عماد حاتم.
- الطبعة الأولى 2007.
- عدد النسخ /1000/ نسخة.

- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين:**
  - الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
  - التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
  - الغلاف: أمل كمال البقاعي.
  - المتابعة الفنية والإخراج: أُسامة راشد رحمة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: 30598

هاتف: 5617071، فاكس: 5613241

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

مقدمة

إذا كان القرنان الخامس عشر والسادس عشر قد تميّزا بالكشف عن عوالم جديدة في المكان، ففي القرنين التاسع عشر والعشرين اكتشفت ولا تزال تكتشف عوالم جديدة في الزمان. فمنذ بداية القرن التاسع عشر، القرن الذي هيأ الأرضية لولادة تكوين جديد للبشر بدأ الباحثون من مختلف الأمم يتطلعون إلى إيجاد المفاتيح لكشف حجب رموز الماضي البعيد المطروحة في غياهب النسيان.

الكتابَة أصلُ جميع حضارات العالم، ولهذا كان تاريخ فك رموز الكتابات القديمة واحداً من أهم الموضوعات الحيوية التي يبسطها العلم التاريخي أمام الباحثين. ومن المؤسف أنه ليس لنا أن نزعم بأن علم التاريخ لدينا قد كرس الكثير من الدراسات لهذه القضية. فمنذ فترة قصيرة فقط - عام 1961 - بدأت لدينا، وعلى أساس مادة موسعة، محاولة تفسير الشروط الخاصة بولادة مختلف أنماط الكتابة ومتابعة المراحل الأساسية لتطوّرها[1]! وبطريقة عابرة يقوم ف. آ. ايسترين، مؤلف الكتاب المخصص لتاريخ الكتابة، بدراسة حل رموز بعض النظم الكتابية المنسية[2]. كما أن قسماً وافياً من الكتاب المخصص لمؤسس الدراسات المصرية، اللغوي ج. ف. شامبليون قد كرس لدراسة قراءة الكتابة المصرية القديمة، القراءة الأكثر ريادية والأكثر ألقاً دون ريب[3].

بين الكتب المترجمة تجدر الإشارة إلى كتاب العالم التشيكي تشيستمير لووكوتكا «تطور الكتابة»، والذي لم يبرأ، للأسف من الأخطاء، وقد تم فيه تناول مشكلات فك

1- В.А.Истрин,Развитие письма.М.,1961.

2- كرس كتاب البروفيسور بـ فـ كازانسكي، الذي صيغ بأسلوب عبقري حي، لدراسة تاريخ فك رموز الكتابة بشكل خاص، إلا أن الكتاب موجّه للأطفال، انظر:

Б.В.Казанский,Разгаданная надпись,Л.,1931.

3- Ж.-Ф.Шампольон,О египетском иероглифическом алфавите, перево д, редакция и комментарии И.Г.Лившица,1950.

الرموز الكتابية. ومع كل ذلك فينبغي الإشارة إلى أن مزية الكتاب هي اشتماله على فصل يتعلق بكتابات أمريكا القديمة[1].

وفي سنة 1961 اغتنت أدبياتنا المتعلقة بتاريخ كشف أسرار كتابات الشعوب القديمة بترجمة كتاب العالم الألماني المرموق يوهانيس فريدريك[2] وعلى الرغم من القيمة الكبرى لكتاب ي. فريدريك فليس لنا إلا أن نرحب بترجمة عمل آخر يتناول تاريخ الجهود البطولية للباحثين العباقرة الذين أنطقوا الآثار الكتابية الغابرة والتي بدت وكأنها استسلمت للصمت الأبدي - وهو كتاب ارنست دوبلهوفر «رموز ومعجزات». ويمتاز هذا الكتاب عن كتاب ي. فريدريك، بكون مادته قد صيغت بأسلوب أكثر شعبية. يضاف إلى هذا أن دوبلهوفر يتطرق لموضوعات لا يتصدى لها فريدريك ففي الفصل الأول من كتابه يتعرض لموضوع البدايات الجنينية للكتابة والتي تعود بأصولها، إذا ما استخدمنا مصطلحاتنا المعاصرة، إلى مرحلة المجتمع الفطري المشاعي، فهو يتحدث عن «الكتابة بالأشياء» التي تضم البيركا، الخيوط ذات العقد، صولجانات الرسل، حزام الفامبوم الخاص بهنود أمريكا الشمالية وما شاكل ذلك.

وبما أن الكتابة بالأشياء تطرح إمكانات كثيرة جداً للتفسير فإنها تستبدل بالبيكتوغرافيا[3] - الكتابة التصويرية التي يمكنها أن تلبّي احتياجات متطلبات التفاهم لدى مجموعة صغيرة من البشر. ويشير المؤلف إلى الحالات المنفردة لاستخدام مثل هذه الكتابة ضمن شروط الحضارة المعاصرة. ثم، وعلى أساس منطقي قوي، يفترض أنه بتجمع الإنسانية في مجموعات كبيرة الأعداد تتهيأ الضرورة لتوسيع التواصل عن طريق الكتابة ويتولد مطلب التوصل إلى صيغة من الرموز الكتابية توضع لجماعة كبيرة من البشر. ويدرس المؤلف هذه العملية من خلال مثال تطور الكتابة السومرية «من الصورة إلى الإسفين». والانتقال من الصورة الأولية للرمز - الرسم، قد تم التسريع بها هنا، جنوبي ما بين النهرين، بتأثير المادة المخصصة للكتابة وهي اللوح الطيني الذي كانت الرموز الإسفينية تنطبع فوقه بصورة بديعة بشكل خاص. كما ويقدّم مثلاً آخر لتحول صورة الرمز الكتابي تحت تأثير المادة الكتابية، فالكتابة الهيروغليفية التي خلّدت في مصر على الحجر أخذت تفقد جماليتها المحدّدة عندما بدأت تنقل إلى البردي الذي يعد الصورة الأولى لورقنا، والذي استولد الرموز المائلة الأشكال والأقرب إلى الاستدارة.

1- Ч.Лоукотка,Развитие письма,перевод с чешского Н.Н.Соколова,М.1950.

2- И.Фридрих, Дешифровка забытых писменностей и языков,перевод с немецкого И.М. Дунаевской, М.,1961.

3- البيكتوغرافيا: باللاتينية «Dictus» التي تعني رسم و «Graphō» التي تعني يكتب

إن مثل هذا التعرّف على البدايات الجنينية للكتابة، والذي يعدّ أمراً ضرورياً لفهم نظم الكتابة التي ظهرت ضمن ظروف الحضارة، يعد المأثرة التي لا تناقش للمؤلف. وإلى جانب هذا يحسن بالقارئ أن يعرف أن الفصل الأول يتضمن بعض وجوه النقص وسببها كون المؤلف لا يرى إلا طريقاً واحدة لتطور الكتابة انتهت باختراع الأبجدية في الشرق الأدنى واليونان. ودوبلهوفر لا يتحدث بأي شيء عن تطور الكتابة الايديوغرافية التي لقيت تتويجها البديع في كتابة ايديوغرافية الصين. فهو يقصر وصفه على الصور الأولى للكتابة الايديوغرافية ويشير إلى اقتصار انتشارها لدى الاسكيمو وهنود أمريكا الشمالية بالإضافة إلى أفريقيا وجزر المحيط أي في التجمعات التي تعيش ضمن شروط النظام البدائي المشاعي.

من الطبيعي أن بوسع دوبلهوفر الاعتراض على ذكر الكتابة الصينية في مؤلّفه ما دامت الكتابة الصينية لم تتعرض للنسيان بينما هو يكرّس كتابه للكتابات المنسية دون سواها. ومع كل ذلك فبالإضافة إلى الكتابة الموجهة إلى كافة ممثلي الأوساط الشعبية بغض النظر عن أهليتهم الثقافية، كان على مؤلف كتاب يتناول مشكلة أصل الكتابة أن يتحدث أيضاً عن تلك الكتابة الموجهة إلى الفئات المثقفة من الشعب بغض النظر عن انتماءاتهم (فلنتذكر أن ليبنيتس العظيم قد أسمى كتابة الصين الايديوغرافية بالـ «باسيوغرافيا» أي «الكتابة للجميع»). ولو أن دوبلهوفر توقف عند خصائص الكتابة الصينية لكان من الأيسر عليه أن يدفع في الفصل الثاني عن أفاناسي كيرخير، العالم اللغوي في القرن السابع عشر، تهمة الجري دون أساس وراء «أكثر التخيلات هذياناً» لدى كاتب القرن الخامس، غورأبولون، حتى أوصل حل رموز الكتابة المصرية إلى طريق مسدود. فبما أن أفاناسي كيرخير كان مطلعاً على الكتابة الايديوغرافية الصينية، فقد افترض أن غورأبولون كان يملك كامل الحق عندما أعلن في دراسته للكتابة الهيروغليفية المصرية أن الهيروغليفيات المصرية ايديوغرامات وليست رموزاً لفظية. والاستشهاد بكتابة مصر الايديوغرافية كان ينبغي أن يكون عوناً للمؤلف على أن يعي بصورة أكبر ذلك الطريق الذي سار فيه أفاناسي كيرخير عند شرحه لكتابات مصر الهيروغليفية.

في الجزء الصميمي من الكتاب يشرح دوبلهوفر عملية حل رموز الكتابات القديمة في مصر، إيران، ما بين النهرين، آسيا الصغرى، أوغاريت، جبيل، قبرص، الكتابة الخطوطية الكريتية - الميكينية - والكتابة التيوركية الرونية القديمة. وبهذا يكون قد تم في هذا الكتاب تناول جميع نظم الكتابات المنسية خلال تراكم العصور باستثناء عدد قليل جداً منها، مثل الكتابة الأبجدية النوميدية. وربما كان ذلك مرتبطاً إلى حد ما بكون حل هذه الكتابة لا يمثل

طرافة كبيرة من الناحية المنهجية. والحق أن توفر الثنائيات البونية - النوميدية واللاتينية النوميدية على عدد كبير من أسماء العلم يمكننا من تحديد مجموع الأبجدية النوميدية دون صعوبات تذكر. وفضلاً عن ذلك فإن نتائج هذه القراءة لم تكتسب سوى أهمية متواضعة بالنسبة للعلم التاريخي. فـ «المدونات النوميدية» على حد قول فريدريك «سواء منها الوحيدة اللغة أو العديدة اللغات تقتصر على تعداد أسماء الأعلام ولا تتضمن أي معطيات أخرى»[1].

يضمّن دوبلهوفر كتابه وصفاً للطريق الذي انتهى بالعالم التشيكي الكبير ب. غروزني إلى «تفسير» اللوحات الحثية المسمارية. ويقصد دوبلهوفر بمصطلح «التفسير» عملية تحديد اللغة المجهولة، التي وضع بها نص خط بكتابة تم التعرف عليها[2]، وذلك بخلاف عملية فك الرموز المتعلقة ليس فقط بلغة نص من النصوص القديمة بل وبكتابته أيضاً. والحق أن من الضروري الإشارة إلى أن دوبلهوفر لا يستخدم بطريقة منطقية تماماً مصطلح «التفسير» الذي وضعه. وفي واقع الحال فإنه في بداية الفصل الخامس يقابل بصورة صحيحة «تفسير» النصوص المسمارية بـ «فك رموز» الكتابة الهيروغليفية الحثية ثم يصرح فيما بعد بأن قراءة غروزني لجملة واحدة في النص المسماري الحثي صارت «حجر الزاوية بالنسبة لفك الرموز» ويقارن بين هذه القراءة وبين قراءتي شامبليون وغروتيفيند.

يمكننا في واقع الحال الاعتراف دون تحفظ بالدور الخارق للعادة لقراءة ب. غروزني المشار إليها، إذ إنها استقرت في أساس كشفه الخارق للعادة، إقرار انتماء لغة اللوحات الحثية المسمارية إلى المجموعة الهندأوروبية ثم تبيّن، بالإضافة إلى ذلك، أن اللغة الهندأوروبية للنصوص المسمارية الحثية تمت بصلة القربى إلى لغة المدونات الحثية الهيروغليفية، ويمكنها بفضل ذلك أن تساعد على فك رموز هذه الأخيرة. هذا الظرف هو الذي اشترط وجود نصيب من عدم الدقة لدى دوبلهوفر في استخدامه لمصطلحي «تفسير» و «فك رموز» عند استخدامه في تحديد ب. غروزني للغة النصوص المسمارية الحثية. ومما لا شك فيه أن المؤلف كان يملك تصوراً واضحاً عن الفرق القائم بين عملية تحديد لغة اللوحات المسمارية الحثية التي كانت كتابتها معروفة وبين حل رموز المدونات الهيروغليفية الحثية، التي كانت كتابتها مبهمة مثل لغتها. وهذا ما يشهد عليه العنوان الفرعي للفصل الخامس من الكتاب «قراءة لغة المدونات الحثية الإسفينية وحل رموز النقوش الهيروغليفية الحثية».

1- И.Фридрих, Дешифровка забытых письменностей и языков.

2- يستخدم إ. فريدريك مصطلح «Deutung» («تفسير») لتحديد لغة النص الذي عرفت كتابته ويعبر إ. م. دونايفسكي في ترجمته لكتاب فريدريك عن هذا المطصلح بكلمة «معالجة».

وبكل تدقيق يصف المؤلف المراحل المتتالية لفك رموز الكتابة الهيروغليفية الحثية والتي اشتملت على بضع عشرات من السنين. والقرارات التي توصّل إليها خلال هذه السنوات أمثال هؤلاء العلماء الكبار مثل ميريدجي، غروزني، غيلب، فورّير وبيسيّرت، تأكدت بعد عام 1947 عندما عثر العالم الألماني خ. ت. بيسيّرت أخيراً، فوق هضبة قره تيبي في كيليكيا على المدونة المزدوجة اللغة التي طال انتظارها. وقد كتبت إحدى صيغتي الثنائية باللغة الفينيقية[1] وكتبت الأخرى بالهيروغليفيات الحثية. وقد قارنوا أحياناً دور هذه الثنائية بالدور الذي لعبته مدونة حجر رشيد في تاريخ فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية. ودوبلهوفر، شأن فريدريك[2]، يرفض هذه المقارنة، إذ إن مدونة قره تيبي، على عكس ما هو الأمر في حجر رشيد، لا تشير إلى بداية فك رموز الهيروغليفات الحثية، بل على العكس من ذلك، إلى خاتمتها. وبذكاء يقارن دوبلهوفر الأهمية العلمية لمدونة قره تيبي بأهمية أثرٍ ثلاثي اللغات من مصر وهو ميثاق كانوب العائد لبطليموس الثالث. والحق أن كلاً من الأثرين المكتوبين قد صار حسب كلمات المؤلف «حجر المحك الذي على أساسه ثبتت صحة الكشوفات الكبرى في ميدان فك الرموز و «الخاتم الرسمي» الذي ختم العلم به وثيقته المؤكدة بأن الأعمال التي تم إنجازها حتى ذلك الوقت لم تكن ضرباً من العبث».

يستحق الفصل الثامن من كتاب دوبلهوفر اهتماماً خاصاً بين الفصول الأخرى لأنه مخصص لواحد من الانجازات المتأخرة زمنياً في ميدان فك الرموز. وهو قراءة ما يسمى بكتابة «ب» الكريتية - المنيوسية، والتي أنجزت في الخمسينيات. وعندما كان أ. فريدريك يقوم بنشر كتابه عام 1954 لم يكن قد حزم أمره على الاعتراف غير المشروط بالقراءة التي تم اقتراحها قبيل ذلك بفترة قصيرة، ولهذا السبب أغفل وصف هذا الاكتشاف الضخم والذي بنتيجته تم التوصل إلى قراءة كتابة «ب» الخطوطية التي كانت معاصرة للمرحلة الأقدم من التاريخ الطبقي للشعب اليوناني[3].

1- أعاد إ. ن. فينّيكوف عندنا إصدار الصيغة الفينيقية لهذه الثنائية مرفقة بتدقيقات مهمة:

И.Н.Винников (Вновь найденные финикийские надписи,-"Эпиграфика Востока", V,1951).

2- И.Фридрих,Дешифровка забытых письменностей и языков.

3- انظر الملحق الذي كتبه إ.م دياكونوف للطبعة الروسية لكتاب فريدريك والذي ثوت في أساسه دراسة

J. Chadwick, The Decipherment of Linear B, Cambridge, 1958.

كما أن دراسة

С.Я.Лурье, Язык и литература Микенской Греции, М.-Л., 1957.

تعد ذات قيمة بالغة الأهمية بالنسبة لموضوع فك رموز كتابة «ب» الخطوطية.

وبكل تدقيق وتعاطف يعرض أ. دوبلهوفر تاريخ المأثرة العظمى التي قام بها مايكل فينتريس. ويشير إلى أن القوى الخلاقة للباحث الانكليزي الشاب، كانت قد كبلت خلال فترة بقيود الأطروحات الدوغماتية التي كانت مسيطرة في العلم التاريخي لعشرات السنين السابقة عندما كان «مجرد التفكير باللغة اليونانية يعد في مفهوم التاريخ وعلم الآثار المدرسيين أمراً يقترب من الهرطقة «على حد تعبير دوبلهوفر ومن هذا المنظور فإن الصعوبات التي كانت تعترض الطريق الإبداعي لفينتريس تذكر إلى حد ما بتلك العقبات التي كان على شامبليون العبقري أن يزيحها ليتمكن من قراءة كتابات مصر الهيروغليفية المنسية. والحق أن شامبليون، الذي سار على هدي إشارات غورأبولون وتابعيه ما كان يرى في هيروغليفات مصر إلا الايديوغرامات المجردة دون سواها، أما فينتريس، فما كان بمقدوره، وهو يسير على هدي إشارات مؤرخي عشرات السنين السابقة، أن يسمح بالنسبة لكتابة اللوحات الفخارية لليونان وكريت إلا «بإمكانية القراءة» الإيجية «والإيتروسكية للمفردات» وما كان لشامبليون وفينتريس أن يكتشفا العوالم الجديدة في تاريخ الإنسانية إلا بعد أن تحررا من أصفاد الماضي.

وفي حين يشير دوبلهوفر إلى كل عظمة اكتشاف فينتريس، يؤكد إلى جانب ذلك الأهمية التي قدمها له جون تشيدويك المتخصص في ميدان الفيلولوجيا الكلاسيكية والذي كان قد اهتم أيضاً بكتابة ألواح كريت الفخارية واستطاع دوبلهوفر أن يبين في كتابه كل صفاء وتواضع جون تشيدويك الذي كان لا يكف عن التوكيد على أن كشف أسرار ولغة اللوحات الكريتية الميكينية التي كانت مجهولة حتى ذلك الحين إنما كانت مأثرة فينتريس دون أي شخص سواه.

تأكدت قراءة فينتريس بعد حفريات 1953 في بيلوس. فبين اللوحات التي عثر عليها في أنقاض القصر العظيم العائد للعهد الميكيني عثر عالم الآثار الأمريكي كارل أ. بليغين على ثنائية طريفة. كانت تتضمن نصاً كريتياً - ميكينياً يَجْرد حسبما تدل عليه القراءة، أوانٍ مختلفة: ركائز وأكواز ذات ثلاث آذان أو أربع وأكواز بلا آذان، يضاف إلى هذا أن النص كان مرفقاً برسوم مطابقة[1]. وعلى هذا فإن بإمكاننا، وبكل أساس، أن نقارن تلك اللوحة البيلوسية العاطلة من الجمال بميثاق كانوب وبثنائية قره يتي.

1ـ أرى أن مما هو جدير بأكبر نصيب من التقييم الإيجابي إيراد دوبلهوفر للوحة التي نظمها الباحث الفييني فد مارلينغ. إن نص الجرد البيلوسي الذي كان قد نشره بليغين قد وزع فيها على فقرات جرى فيها وصف كل واحدة من الأواني بمفرده وإلى جانب الوصف الكلامي للإناء ترد في الفقرة صورته التي رسمها الكاتب البيلوسي القديم.

وإذ أؤكد ذلك التثمين الذي أضفاه دوبلهوفر على القيمة المعرفية للوحة بيلوس فإنني لا أستطيع الموافقة بأي حال على تحديد المؤلف لمهمة مجموع تلك الوثائق المتعلقة بجرود الحياة اليومية، والتي عثر بليغين عليها في قصر بيلوس. فدوبلهوفر يرى أن تلك الرقم كانت في مجموعها مؤقتة، وأنها بطاقات مساعدة كانت، حسب أقرب الاحتمالات، تنقل عبر فترات معينة من الزمن، عند نهاية كل عام جردي، إلى قوائم وجرود ويصار إلى إتلافها بعد ذلك. وأرى أن مثل هذا الافتراض لا يمكن أن يتفق مع الحياة العملية التي كانت تمارس في الماضي بالنسبة لمواد الأرشيف. فكما هو معروف بالنسبة لنا من الوثائق التي وصلتنا من أرشيفات المعابد أو الأرشيفات القديمة في سومر أن الأخيرة منها ما كانت تختزن الأضابير والجرود فقط بل وأيضاً وثائق جرود الحياة اليومية لبضع عشرات من السنين. وحقيقة الكشف في قصر بيلوس عن لوحات لا تعود إلا إلى سنة واحدة ليست دليلاً على إتلاف الوثائق الخاصة بجرود الحياة اليومية في نهاية كل جرد سنوي بل على حقيقة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى. من البيّن أنه ما كان يحفظ في القصر نفسه، في مكتب الحاكم، إلا وثائق العام الجاري أو، على أكبر تقدير، العامين أو الأعوام الثلاثة الأخيرة. (ومن المحتمل أن هذه الوثائق كانت مطلوبة للتثبّت). أما وثائق السنوات السابقة فكانت تنقل إلى أرشيفات خاصة تحفظ فيها على مدار عشرات السنين.

وبمشيئة الأقدار فإن الحفريات الجارية في لاغاش، أومّا وأور وغيرها من مدن سومر فتحت أمامنا الأرشيفات التي كانت تحفظ فيها وتعكس الحياة البيتية خلال عشرات السنين السابقة، أما حفريات بيلوس فوهبت العلم التاريخي وثائق تتعلق بالحياة اليومية للعام الجاري. وما دامت هذه الأرشيفات البيلوسية لم تتضمن تاريخ سنة وضعها فمن المحتمل أنها قد نقلت إلى الأرشيف وأنها كانت تحفظ هناك في سِلال أو جرار سجل عليها التاريخ المناسب. ويمكن عقد الآمال على أن يتم الكشف مستقبلاً في اليونان عن أمثال هذه الأضابير المؤرخة وفقاً للعهد الميكيني وأن يتم الكشف في سومر عن مجموعات وثائق لم تدخل بعد في ملاك الأرشيف ولا تزال محفوظة في قصر الحاكم.

لا بد من التوقف أمام الفصل التاسع. وهو مخصص لفك رموز الكتابة الرونية التيوركية القديمة التي تم تخليدها على الشواهد الصخرية المهيبة التي أقيمت في القرن الثامن في حوض الأورخون، جنوبي البايكال (وهي الآن أراض تعود لجمهورية منغوليا). وينبغي الإشارة إلى أن مقاطعات آسيا الوسطى التي كانت داخلة ضمن الاتحاد السوفييتي سابقاً والدول المجاورة له، هي موطن الغالبية الكبرى من الشعوب التيوركية، ولهذا فإن كل

ما يتعلق بثقافة هؤلاء لا بد وأن يستأثر باهتمامنا. كما أن اهتمام الشعب الروسي بالتيوركي محكوم أيضاً بترابط مصائر هذين الشعبين منذ أقدم العصور. وفي الوقت نفسه فإن سبب الاهتمام بالتيورك في الغرب كان، في رأي دوبلهوفر، مشروطاً بظروف متضاربة. فقد ظلوا هناك فترة طويلة لا يعرفون عن التيورك أي شيء على الإطلاق، بل وأنهم اليوم أيضاً لا يعرفون عنهم إلا القليل الأقل. وبمناسبة ذلك قدم دوبلهوفر لاستعراضه فك رموز الكتابة التيوركية القديمة ببسطة تاريخية وافية.

والشواهد المكتوبة التي عثر عليها في وادي أورخون أقيمت بنتيجة الصداقة الحميمة التي كانت تجمع الأتراك الشرقيين تحت حكم بيلغي - خاقان وأخيه كول - تيغين مع الصين.

بعد وفاة كول - تيغين أقام بيلغي - خاقان بمساعدة الإمبراطور الصيني شاهداً قبرياً فاخراً. فلما أكمل بيلغي - خاقان نفسه طريقه الحياتي قام وريثه، بمساعدة الإمبراطور الصيني، فرفع على قبره شاهداً فاخراً من المؤسف أنه قد حفظ بطريقة أسوأ من سابقه. وقد خطت على الشاهدين كتابات بلغتين: - بعضها بهيروغليفات باللغة الصينية والأخرى - بكتابة مجهولة للغة مجهولة. وقد حطم الشاهدان العظيمان وقُذف بهما في غياهب النسيان بعد سنة 745 عندما دمر الاويغور دولة تيورك الأورخون.

والفضل في تعريف عالم العلم بالكتابات المزدوجة اللغة في وادي أورخون يعود إلى العالم المحلي والرحالة السيبيري ن. م. يادرينتسيف الذي درس سنة 1889 تلك المنطقة غير المعروفة إلا قليلاً. وفي السنة التالية توجهت إلى ذلك المكان بعثتان: إحداهما برئاسة الباحث الفنلندي آ. غيكل والثانية - بإشراف العالم الروسي الشهير ف. ف رادلوف، مؤسس الدراسات التيوركية في بلادنا، والذي أدخل ن. م. يادرينتسيف أيضاً في عداد المشاركين في البعثة. وفي سنة 1892 نشرت نتائج كلتا البعثتين في أطلسين كبيرين تضمنا صوراً لجميع الكتابات. وبهذه الطريقة هيئت الإمكانية لعلماء العالم بأسره لتقديم إسهامهم في العمل الصعب ولكن الجذاب والمتعلق بفك رموز الكتابة المجهولة على الشواهد في وادي أورخون وينيسي[1].

حتى ذلك التاريخ كان النص الصيني للمدونات قد قرئ، وهو ما هوّن إلى حد ما من صعوبات فك الرموز، ومن خلال ذلك النص كان يمكن معرفة أسماء الحكام الذين أقاموا

1- قام س. ي. مالوف بتقديم عرض دقيق لتاريخ دراسة المدونات الأورخوبينيسيه في
С.Е.Малов "Памятники древнетюркской письменности",М.-Л. 1951.

الشواهد، بالإضافة إلى اسم الشعب الذي ينتمي إليه أولئك الحكام. وبالإضافة إلى ذلك ينبغي الإشارة إلى أن الشواهد الاورخونية المكتوبة لم تكن ثنائيات بالمعنى الدقيق للكلمة. وتؤكد ذلك أحجام الكتابة الصينية والنص المطابق لها، والذي وضع بكتابة مجهولة: كانت الأولى أقصر من الثانية بثلاث مرات أو أربع. ولهذا كانت تعترض طريق قارئ الرموز الكتابية الاورخونية المزدوجة اللغة عقبات كأداء ما كان قادراً على إزاحتها غير اللغوي المتمرس الذي أُعد إعداداً شاملاً والذي يتمتع بمعارف واسعة في ميدان مختلف اللغات، والتيوركية من بينها.

ذلك الباحث كان العالم الدانماركي ويلهيلم تومسين، أستاذ قسم علم اللغات المقارن في جامعة كوبنهاغن و «في الـ 25 من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1893 قدر له - حسب كلمات س. ي. مالوف - أن يجد المفتاح الكامل لمجموع أبجدية تلك المدونات من شواطئ اليينيسي وأورخون»[1] والتي لم تسبق معرفتها لأحد. بالطبع ما كان لـ ف. تومسين أن يحقق مثل هذا النجاح في مضمار فك رموز المدونات الأورخونية إلا باعتماده على فرضية مسبقة لم تلبث أن أصبحت أمراً مؤكداً بعد التعمق في دراسة معطيات النص الصيني لهذه الشواهد، وتؤكد الفرضية أن اللغة التي كتبت بها تلك المدونات المجهولة تدخل ضمن مجموعة اللغات التيوركية. والتقارب بين اللغات التيوركية أكبر من التقارب بين لغات المجموعة الهندأوروبية، وهذا ما ساعد أيضاً على النجاح المذهل السرعة لقراءة ف. تومسين. كما أن العالم الروسي ف. ف. رادلوف، ناشر المدونات الاورخونية، كان قد حدد، منذ خريف 1893، انطلاقاً من أطروحة الطابع التيوركي للغة المدونات، نحو الـ 15 رمزاً أبجدياً (من 38). أما هذا التخلف من طرف ف. ف. رادلوف فسببه أن ذلك العالم الذي كان شخصية معترفاً بها في ميدان الفيلولوجيا التيوركية، لم يكن متخصصاً في ميدان علم اللغة مثل زميله الدانمركي ف. تومسين.

ولهذا فإن على قارئ هذا الكتاب أن يوافق كلياً مع مؤلفه إ. دوبلهوفر على أن فك رموز الكتابات الاورخونية - مأثرة تسجل لـ ف. تومسين دون تحفظ. وفضلاً عن هذا فلا يمكن إلا معارضة المؤلف عندما يسجل المعالجة الأولى للمدونات الاورخونية الكبرى لتومسين أيضاً. ذلك أن أول من عالج هذه المصادر التاريخية البالغة القيمة كان ف. ف. رادلوف الذي، بعد أن تعرف على الأبجدية التيوركية القديمة المكتشفة

1- المصدر السابق ص 12.

من طرف ف. تومسين، قام سنة 1894 بتقديم أول ترجمة لنص الشاهد الذي أقامه لكيول - تيغين أخوه (وقد ألحق ف. رادلوف بتلك الترجمة النص مكتوباً بالحروف اللاتينية والروسية). وفي الطبعة التي نشرت في ثلاثة أجزاء في نهاية 1894 وفي 1895 تم تقديم الترجمة الثانية للكتابة على شاهد كيول - تيغين، بالإضافة إلى غيره من الشواهد الاورخورييتيسية، ولم يقم ف. تومسين بنشر ترجمته إلا سنة 1895. ومن المؤسف أن إ. دوبلهوفر لم يعرض بأي إشارة لترجمات ف. ف. رادلوف الأسبق عهداً.

وقد سمح مؤلف الكتاب لنفسه بمثل هذا الظلم إذ نسب فك رموز النصوص الأوغاريتية للعالم الألماني غ. باوير ناسياً مآثر الباحثين الفرنسيين إ. دورم وش. فيرولو (الباب السادس)[1] والحق أن علينا أن نعترف، باسم العدالة نحو دوبلهوفر نفسه، بأن حالات التقييم غير الموضوعي في كتابه كانت استثناءً.

في الباب الأخير، العاشر، المسمى «مستقبل قراءة الكتابات القديمة» يعرّف المؤلف قارئه بثلاث مشكلات جادة تحتل مكانها في ميدان فهم وقراءة رموز الآثار المكتوبة، وهي مشكلات استعصت حتى يومنا هذا على الحل: المشكلة الإيتروسكية، فك رموز كتابة الشعوب القديمة في وادي الهند وأخيراً سر كتابة جزيرة الصيام.

أما أولى هذه القضايا، الإيتروسكية، فتَمثُل واقفة أمام العلم منذ قرون. وخلال هذه المرحلة الطويلة كانت الأبجدية الإيتروسكية قد حددت بشكل نهائي وبذلك تكون رموز كتاباتها قد فكت، إلا أن لغة الإيتروسكيين بقيت كالسابق عصية على التفسير على الرغم من الاهتمام الشديد بتاريخ وثقافة الشعب الإيتروسكي الذي كان وثيق الارتباط بروما العظمى.

وتجري المحاولات لتبرير هذا الإخفاق بأسباب عديدة، أحدها - الافتقار إلى وجود ولو ثنائية وحيدة، لكن علينا الإشارة إلى أن نصوص جبيل، أوغاريت، كريت وبيلوس قد قرئت مع انتفاء وجود الثنائية، بل إن تفسير الكتابة الهيروغليفية الحثية قد تم بصورة ناجحة على العموم على الرغم من أن العلم ما كان، خلال فترة طويلة، يمتلك الأثر الثنائي اللغة الموسّع.

1- في هذه المسألة كان إ. فريدريك أكثر موضوعية فهو يشير إلى إسهام باوير وإلى إسهام دورم وفيرولو ويقرر أن باوير قد تمكن من قراءة 17 رمزاً من رموز الأبجدية الأوغاريتية الثلاثين.

كما تجري الإشارة أيضاً إلى العدد الزهيد من المدونات الكبيرة التي وصلت إلينا[1]. ومن الصعب علينا أن نوافق دون تحفظ على مثل هذا التفسير للمعالجة الفاشلة للنصوص الإيتروسكية. والحق أن العلم يمتلك من النصوص الإيتروسكية الموسَّعة ما لا يقل عما يمتلكه من نصوص الشواهد الجبلية (ما قبل الجبيلية) الايبيغرافية[2]. ومع كل ذلك فقد حلت رموز تلك الأخيرة وقرئت في فترة قصيرة نسبياً من قبل الباحث الفرنسي إ. دورم. وهذا يعني أن السبب الرئيس على ما يبدو يشتمل في أساسه على شروط تحول دون استخدام ذلك المنهج الذي تم استخدامه بنجاح في حالات عديدة عند معالجة نصوص كانت كتابتها، أو أصبحت، معروفة. وهذا المنهج يفترض طريقتين أولاهما - ما يسمى بالمنهج التجميعي - وهو منهج تفسير ومعالجة النص على أساس تلك الثوابت التي يمكن استخراجها من النص نفسه الذي قد يقرأ لكنه لا يترجم. كما يستخدم هذا المنهج التجميعي أيضاً لدى حل الرموز التي لم تقرأ بعد إذ إنه يعتمد على المحاكمات العقلية التي تمت من خلال مراقبة بناء مختلف مجموعات الرموز بغض النظر عن دلالاتها اللفظية. أما الطريقة الأخرى - الايتيمولوجية - فتقوم على أساس مقارنة مفردات النص الخاضع للمعالجة مع مفردات لغة مفترضة قريبة في النسب.

أما بالنسبة للنصوص الإيتروسكية فلم يستخدم فيها إلا الطريقة التجميعية، ولكن للأسف فإن علينا أن نعترف مع الباحثين الذين يتمتعون بالحذر المنهجي المطلوب بأن استخدام هذا المنهج لن يفضي إلى نتائج ملموسة. أما ما يتعلق بالطريقة الثانية للمعالجة، الايتيمولوجية، فإن من المستحيل استخدامها في هذه الحالة إذ إن لغة الإيتروسكيين، حسبما يؤكد دوبلهوفر، هي لغة معزولة بشكل مطلق ولم يجر إدخالها حتى الآن في أي منظومة لغات معروفة بالنسبة للعلم.

وأظهرُ شاهد على انعزالية اللغة الإيتروسكية هو المدونات على حجرين من أحجار اللعب تمّ العثور عليهما أثناء حفريات سنة 1848. وقد نقشت كلمة واحدة على كل من الوجوه الستة للحجر، فالفرضية الوحيدة المحتملة تنحصر في أن هذه الكلمات الستّ هي أرقام من «واحد» إلى «ستة»، إلا أن الباحثين عجزوا حتى الآن، على الرغم من كل ما بذلوه من جهود، عن تحديد الرقم الذي يطابق كل واحدة من المفردات.

1- يتوقف إ. فريدريك عند هذه النقطة بالذات في:

И.Фридрих (Дешифровка забытых письменностей и языков).

2- الجبليّة مصطلح يطلقه دوبلهوفر على الكتابة التي وضعت في جبيل على الشاطئ الشمالي للساحل الفينيقي في بداية الألف الثاني ق.م ويسميها فريدريك في كتابه: بـ «ما قبل الجبيلية».

إن انعزالية اللغة الإيتروسكية هي التي تجعلنا نعلنها، مع دوبلهوفر، السبب الرئيس لكل أمثال هذه الإخفاقات المتكررة عند محاولات تفسير النصوص الإيتروسكية، ذلك أن جميع النجاحات المعروفة بالنسبة لنا عند حل رموز النصوص قد تحققت عندما كانت لغة الأخيرة تنتمي إلى أسرة من الأسر اللغوية التي تمت دراستها جيداً. فشرح النصوص البابلية، الآشورية، الأوغاريتية، والجبيلية ساعدت عليه الدراسات السامية أكبر مساعدة مثلما ساعدت الدراسات الإيرانية على شرح المدونات المسمارية للأخيمينيين.

بعض الصعوبات المتعلقة بتفسير النصوص المصرية كان مشروطاً باشتمال اللغة المصرية على عناصر مما يسمى باللغات الحامية، التي، على عكس اللغات السامية، تختلف فيما بينها إلى حدود ملموسة[1].

في مثل هذه الوضعية، الشبيهة بتفسير النصوص الميروية نجد تفسير المدونات الميروية - الكتابة التي أنشئت في الدولة التي قامت قبيل فترة قصيرة من التاريخ الميلادي جنوبي مصر. وقد تمكن عالم المصريات الإنكليزي ف. غريفيت من قراءة الكتابة الميروية، إلا أن قراءة النصوص لم تتقدم تقريباً إذ لم تتحدد بعد قرابة اللغة الميروية بغيرها من اللغات.

هذا بينما حققت نتائج ملموسة دراسة اللغة السومرية، التي تميَّزت بمعزولية الإيتروسكية والميروية. أما الشروط التي مكنت من التفسير الناجح للنصوص السومرية فقد تهيأت منذ بضعة آلاف من السنين في مدارس الكتبة في بابل وآشور. فقد تم الكشف خلال الحفريات عن الكتب التعليمية القديمة للغة السومرية، والتي لعبت في مدارس بابل وآشور الدور الذي لعبته اللغة اللاتينية في مدارس الأديرة في أوروبا العصور الوسطى.

لم تقدم الحفريات في إيطاليا للعلم أمثال هذه الكتب التعليمية لدراسة اللغة الإيتروسكية، وربما لم تكن وجدت على الإطلاق، ذلك لأن قراءة النصوص المكتوبة بحروف أبجدية لا تتطلب كتباً معقدة.

تجدر الإشارة إلى أن من بعض وجوه النقص في كتاب دوبلهوفر أنه يغفل الإشارة إلى المحاولة الشديدة الجاذبية التي قام بها الباحث أولتش من أجل العثور على نصوص إيتالية مقابلة للنص الأكثر إسهاباً من بين النصوص الإيتروسكية المعروفة بالنسبة لنا، وهو ما يسمى بنص خرقة زغرب. هذا الأثر الكتابي البالغ الأهمية تم تفسيره مبدئياً كمجموعة صلوات إلى مختلف الآلهة الذين دونت أسماؤهم فوقها. وبعد كل صلاة يرد نص قصير يشتبه

1- فيما يتعلق ببناء اللغة المصرية انظر:

Н.С.Петровский, Египетский язык, Л.,1958, М.А.Коростовцев, Египетский язык, 1961.

في أنه مختلف عن الصلاة. مثل هذا الجمع بين الصلوات لمختلف آلهة البانتيون وما يليه من نص قصير مستقل يرد في شاهدين ايتاليين - أومبري ولاتيني. وفي نصوصها التالية للصلوات دُوّنت تعليمات ترتبط بإجراءات طقوس تقديم الأضحية، ولهذا فهناك أساس للافتراض بأن النصوص المكتوبة على خرقة زغرب والتي ترافق الصلوات، ترتبط أيضاً بالتعليمات الأولية لطقس التضحية. وتفاسير أولتسشا تشير إلى أنه «قد تمكن على ما يبدو من أن يفتح طريقاً جديدة للنفاذ في ثنايا هذه اللغة الوعرة المسالك»[1].

لا يزال الطريق بعيداً، بالطبع، عن بلوغ الفهم الصحيح للمدونات الإيتروسكية، ولا يزال علينا أن ننسب الكتابة الإيتروسكية إلى النظم التي لا تزال، مثل كتابات المدن الغابرة في حوض الهند، تنتظر تفسيرها وحل رموزها. ومن المؤسف أن دوبلهوفر عند حديثه عن محاولات حل رموز كتابة هذه المدن لم يتطرق إلى الحل الذي اقترحه ب. غروزني سنة 1939. ويزيد من الأسى بسبب ذلك أن دوبلهوفر الذي لم يتحدث بشيء عن مضمون دراسة العالم التشيكي الكبير، يقابل النتائج التي توصل إليها ذلك العالم بكثير من الاستعلاء[2].

وعند تقييمنا لعمل إ. دوبلهوفر علينا أن نشير إلى علاقته الحميمة التي يحس بها نحو الباحثين ذوي المواهب العالية، الذين كرسوا حياتهم لكشف أسرار الكتابات التي بقيت منسية على مدار آلاف السنين وبذلك وسعوا معلوماتنا عن تاريخ الحضارة الإنسانية. وفي هذا الأسلوب البسيط والعبقري للعرض الذي يقدّمه المؤلف يظهر أمامنا، وبوضوح تام، أبطال كتابه، كشّافو العوالم الجديدة، بدءاً من جان - فرانسوا شامبليون وانتهاء بمايكل فينتريس. ويعيش القارئ معانيات الإبداع وأفراحه لدى هؤلاء الباحثين الذين اقتحموا بجرأة الدروب التي لم يطرقها أحد.

وقد استطاع إ. دوبلهوفر أن يصور الحماسة المندفعة للعالم الشاب غيورغ غروتيفيند الذي أرسى الأساس نحو العالم اللا محدود للنصوص المسمارية، والطاقة التي لا تنضب لارتشيبالد سايس، الباحث الذي لا يكل في ميدان حل الرموز وتفسير الآثار المكتوبة لآسيا الصغرى والميادين المتاخمة لها.

---

1 ـ И.Фридрих,Дешифровка забытых письменностей и языков.

2ـ دراسة بـ غروزني تستحق الاهتمام على الرغم من اشتمالها على بعض وجوه النقص. انظر :
В.В.Струве, Дешифровка протоиндийских письмен,-"Вестник Академии наук СССР", 1947, №8.

وبحب خاص يصور المؤلف الحياة القصيرة والمليئة بمآثر العمل لعالم الآشوريات الإنكليزي الشهير جورج سميث، الذي شارك في حل رموز الكتابة القبرصية أيضاً. لقد كان جورج سميث في صباه مجرد طارق بسيط على النحاس، فصار عالماً مرموقاً بفضل موهبته الخارقة للعادة وحب العمل الذي لا يعرف لديه الحدود.

أرى أن كتاب إ. دوبلهوفر الجذاب والمكتوب بلغة حية سيلقى لدى القراء قبولاً محفوفاً بالاهتمام.

الأكاديمي فـ ستروفي.

الفصل الأول

نبذة عن الكتابة

بديلاً عن المدخل

«مبارك ذاك الذي أبدع الكتابة»

كلمة مأثورة عن قدماء الهنود، وفقاً لجان بول

«الكلام ينظم العالم ويرتبه. واللفظة شرارته الإلهية - وهي التي سمت بالإنسان منذ البداية فوق جميع المخلوقات الأخرى في هذا الكون. فباستعمالها صار يدعو جيرانه إلى مشاركته أفكاره ومشاعره الخاصة ويسير بهم نحو التلاحم في مجتمع. ومع كل هذا فإن الكلمة التي كانت تتسامى نبأً فوق الآماد الكبيرة بقيت محصورة ضمن الأطر الضيقة في المكان والزمان. وتُركت الإخبارية والقانون لتلاعب النَّقَلَة؛ وما كان أي شيء ليضمن الحفاظ المطلوب على الكلمة المنطوقة. فلم يتم التوصل إلى ذلك الاّ بعد أن اخترع الإنسان الكتابة»[1].

ولا يمكن أن نعزو الكتابة إلى المخترعات القديمة بل هي أقرب إلى أن تكون واحدة من المستحدثات ذات الانعطاف الحضاري الأعظم الذي قام به الإنسان في يوم من الأيام. وستظل قائمة على الرغم من أن ملاحظاً سطحياً قد يزعم بأن السينما الوثائقية والتلفزيون وجهاز التسجيل والمذياع يمكن أن تلغي الكتابة إلى حد ما، وان الاتجاه المعاصر في الانتقال من الكلمة نحو التحشيد المبسط للمؤثرات السمعية والبصرية سوف يزاحم الكلمة على دورها السيادي على مدار آلاف السنين بل وسوف يزحمها في يوم من الأيام.

إن الكتابة جعلت الإنسان يفكر في نفسه. فبفضلها فقط صار التفكير العقلاني الجماعي ممكناً وتأمل الإنسان في أصله وفي ماهية وجوده ومغزاه، كما أن الثقافة الروحية والتعاليم الفلسفية وديانات الإنسانية العظمى صارت ممكنة أيضاً. وكانت الكتابة أيضاً

1- F. Miltner , Wesen und geburt der Schrift , - Hisatria mundi , bd III , Bern , 1954 , s. 27.

ذاك الإسمنت الذي استعمله مؤسسو الإمبراطوريات العظمى وبُناتها وعليها يقوم التاريخ كعلم، واستدعت الانطلاقة الكبرى لجميع فروع المعارف البشرية بما في ذلك علوم الطبيعة كما أهدت الإنسانية الخيرات الأخرى من الثقافة والحضارة واللتين ما كان لهما معنى من دونها.

وعلى ما يشير مؤرخ الحضارة الإنكليزي المعروف - ارنولد توينبي - في كتابه الأخير[1] بكل إصرار فإن الإنسان قضى الشطر الأعظم من مجموع وجوده على الأرض والذي يقدرونه الآن بـ 600 ألف الى مليون سنة في حالة الهمجية، وفقط بنتيجة الازدهار «الحديث» للحضارة خلال الستة آلاف سنة الأخيرة تحقق إيجاد الطرق المختلفة لوضع الملاحظات المدونة والمحافظة عليها - ذلك الفن الذي وضع في أيدي الإنسانية وعي «المعاصرة الفلسفية» لجميع الأجيال.

وطبيعي أن المهم ليس في كون ذلك الفن قد ساعد الإنسان على كشف الحقيقة القائلة بـ «أن ما هو كائن قد كان» وأن «لا جديد تحت الشمس»، فقد راح يغوص خطوة بعد خطوة في لانهائية ماضيه المليئة بالآلام، ويتسامى نحو ذرى الفكر الإنساني. فراح يستعين بالكنوز التي كدّستها أجيال لا حصر لها واختزنتها عبر تعاقب العصور. وها هو ذا أخيراً وقد اغتنى بانتصارات العقل الذي لا يكلّ، وترعرع روحياً، يمسك بكامل الماهية الإنسانية في عظمتها وفي زخرفها واستطاع على حدّ تعبير المفكر الفرنسي باسكال أن يقيس «عظمة وتفاهة البشر».

إن التصور المتعلق بالمغزى الهائل للكتابة كان أمراً بالغ الحيوية في الأزمنة القديمة الغابرة ولقي انعكاسه في عدد من الأساطير التي تجزم بالمصدر الإلهي للكتابة فنيبو البابلي وتوت المصري - إلهان كاتبان وهما في الوقت ذاته يمسكان بمقادير البشر التي يسجلانها «بريشة القدر». وكان قدماء العبريين يعتبرون كتابة الأسباط الأول «كتابة إلهية» بعكس كتابة البشر (ويدور الحديث عنها في كتاب إشعيا، 8، 1) ويعلمنا الإسلام أن الحروف خلقها الله ثم علمها آدم بينما حجبها حتى عن الملائكة، كما أن للكنائس المسيحية قديسيها الذين يلعبون أدوار مبدعي الكتابة ومخترعيها فالقديس ميسروب والكاثوليكوس ساحاق صاغا الأبجدية الأرمنية - وهي الكتابة الجديدة التي سرعان ما استضاءت بكون ترجمة الإنجيل كتبت بها. ومن الأمور الذائعة الشهرة اختراع الكتابة من قبل القديسين كيريل وميتودي ثم ولفالله.

1- A. Toynbee , An Historian's Approach to Religion , Oxford , University Press , 1956 , p. 3.

ولعل اليونانيين كانوا الوحيدين الذين يبدون تناقضاً طريفاً، وفي ذلك ينعكس الفرق بين الشرق والغرب[1]. فهم الوحيدون الذين يشرّفون في تقاليدهم الفنية مجموعة كبيرة من مخترعي الكتابة وهم - من دون استثناء - من البشر فلا يوجد بين مبدعي كتابتهم المجدّدين إلا واحد يُصادف مرة واحدة وهو هرمز، الإله الحاذق المتعدد المواهب الذي يسجَّل له اختراع الكتابة كمأثرة بين مآثره وهي ليست الأهم بينها.

وإذا كانت الفكرة القائلة بأن كل كتابة ظهرت على أساس التصوّر الملموس للمفكّر به وأنها قطعت الطريق الذي حدّده المشرق - ومن الصورة إلى الحرف - فكرةً لا تقبل المناقشة حتى عهد قريب فإن الكثيرين يتحدثون الآن بأن الحرف كان السابق وأن المأثرة الكبرى لاكتشاف الأصوات المنفصلة من قبل كبار المخترعين «الغربيين» للكتابات (الأناضولية، الألبينية، وربما كانت الأيبيرية القديمة أيضاً) كانت قد تلاشت حتى ذلك الوقت الذي قام فيه اليونان باستعارة وتحوير الأبجدية الفينيقية ووصل الأمر الى اللقاء التاريخي حقاً بين الشرق والغرب حتى الإخصاب المتبادل والتداوب بين «الصورة» و «الحرف»[2].

ومن المعروف في أيامنا هذه ما يقارب الأربعمئة نمط من أنماط الكتابة دون أن ندخل في ذلك ما يسمى بالخطوات الأولى للكتابة ولا تلك الأشكال البسيطة لهذه أو تلك. فالأوروبي مثلاً يعرف رموز الكتابة اليونانية من خلال ملامحها العامة، كما أن بإمكانه أن يلاحظ الحروف العبرية على جدران الكنائس ومعابد اليهود وفي دواخلها، كما أن مُواطن أوروبا الغربية قد سمع عموماً بالكيريليتسا السلافية، وإذا كان ممن يجمعون الطوابع فلعله يتذكر أيضا الكتابة العربية الواسعة الانتشار كما توقفت أنظاره أكثر من مرة على رموز الكتابتين الصينية واليابانية التي حدّقت به من خلال الكتابات التي ترافق اللوحات والرسوم العائدة الى بلاد الشرق الأقصى. ومنذ فترة غير بعيدة حاول الألمان والنمساويون أن يعيدوا الاهتمام - بصورة مفتعلة - بالكتابات الرونية دون المطالبة بمعرفتها بصورة حقيقية أصلية، ولكن القلائل يعرفون أن الكتابة الرونية لم تكن وقفاً على قدماء الجرمان،

1- يبالغ المؤلف قليلاً في تصوير هذا «الفرق بين الشرق والغرب» وفي نسب الكتابة عند اليونان إلى البشر. فقدموس الفينيقي الذي حمل الحرف من سوريا إلى اليونان - إله، أو بطل رفع إلى مصاف الآلهة وترتبط بمأثرته هذه «أساطير طيبة» اليونانية- أما هرمز فهو ح ر - م س أي ابن حر وهو طائر«الحر» المعروف وكان واحداً من أكبر آلهة مصر القدماء- (المترجم).

2- F. Meltner , Wesen und Geburt der Schrift , S. - 27 , Anm 1.

الإسكندنافيين والانغلوساكسون، بل، - وهو ما نبدأ بالإشارة إليه هنا - وكتب بها أيضاً قدماء التيورك والمجريين بل وقدماء السلافيين حسب تأكيدات بعض الباحثين. وإن القلائل يعرفون أن بعض الشعوب كانت تدون لغاتها لا عن طريق الأحرف بل بالصور وبالكلمات - الرموز وبالرموز المقطعية واللفظية وأن هناك أخيراً كتابات يمكن قراءة بعضها وإن كان فهمها مستحيلاً رغم كل الجهود المبذولة بينما لا يزال بعضها مستعصياً على القراءة. وإننا، إذ ننوّه الى ذلك فلكي نستعرض اتساع وتلوّن ذلك الحقل الذي يلجه كل راغب في دخول تاريخ قراءات رموز الكتابات القديمة.

يبقى من الضروري الآن توضيح ماهية المفاهيم المتفرقة التي سوف نستعملها بصفة دائمة في دراستنا هذه.

إننا لا نستطيع الحديث عن الكتابة بالمعنى المباشر إلا إذا توفرنا على سمتين من سماتها ونقصد بهما - أن يكون عمل الرسم قد أنجز بأوسع معاني الكلمة (كرسم الرموز أو سحجها، رقشها، حزّها وما إلى ذلك) ومن الجهة الثانية - أن تكون الغاية إخبارية، والإخبارية توجَّه في هذه الحالة إلى الآخرين أو إلى شخص الكاتب نفسه بغية استذكارها.

أما في الحالة التي يدور فيها الحديث عن الأولى من السمتين المذكورتين ويُتوصل الى الغاية الإخبارية بواسطة وسائل أخرى فإن الباحثين يتحدثون عما يسمى بالكتابة عن طريق الأشياء - وهي الخطوة الأولى والأكثر أهمية والسابقة للكتابة. والكتابة بالأشياء تمثل في كثير من الأحيان بالبيركا[1] الواسعة الانتشار والتي جرى استخدامها في جميع العصور وتستعملها الآن مختلف الشعوب بهدف تسجيل الأرقام في معظم الحالات. فهذه الرقع تستعمل كتقاويم عن طريق تقطيع عدد الأيام والأسابيع وما الى ذلك. ولكن سجلات الديون والجرود تتخذ أيضاً صورة الرقع الحقيقية حتى يمكن من خلالها معرفة «ما مقدار ما يملك كل واحد في الرقعة»، وهي وثيقة تملك قوة إقناعية لا جدال فيها وبخاصة في الحالات التي يكون قد تم فيها خلال وضع البيركا التي حزّت فوقها خطوط تطابق وحدات الدين النقدية ثم شقت بطريقة يحتفظ الدائن فيها بنصف «كأصل» ويأخذ الآخر نصفاً «كنسخة» وعند الضرورة يكشف أي نوع من الكذب بسرعة وسهولة ويُزال كل التباس عن طريق الجمع بين جزأي اللوحة.

كما أن ما يسمى بصولجانات الرسل - شكل من أشكال الكتابة بطريقة الأشياء، وهي لم تكن معروفة فقط في أوروبا القديمة حيث تواصل استعمالها حتى الماضي القريب بل

1- البيركا - نوع من «البطاقات» الخاصة بالبضائع والمعاملات التجارية. وهي لوحات من الخشب تحز فوقها خطوط ثم تشطر الى شطرين يحتفظ كل من الجانبين المتعاملين بأحدهما. (المترجم).

وقبل كل شيء في أستراليا والصين القديمة. فعلى الصولجانات المعطاة للرسل كانت تحز مختلف الرموز والخطوط. وكان على هذه الخطوط المرسومة على العصا أن تكوّن وهي في صيغتها البسيطة تذكرة للرسول الذي عليه، وهو ينظر إليها، أن يتذكر عدد المهمات التي عهد بها إليه. وكانت نظم الخطوط الأكثر تعقيداً تعبّر عن مجموعات من الرموز اتفق عليها بين الطرفين، تلك الرموز التي كان يمكن بواسطتها التعبير عن مركبات محدّدة من المفاهيم.

ولعل الشكل الأكثر انتشاراً، وفي الوقت نفسه الأكثر طرافة من أشكال الكتابة عن طريق استعمال الأشياء هو الخيوط ذات العُقَد، ونذكر من بينها قبل كل شيء كيبو قدماء الإنكا وهم سكان البيرو الأصليون. وإننا، إذ نستعرض هنا الكيبو في صورة نموذج لكتابة العقد فإننا لا نريد الجزم بأن مثل هذه الكتابة كان مقصوراً على الإنكا دون سواهم. فحتى أن الحكيم الصيني لاوتسزي أشار في حينه إلى ذلك الدور الذي كان يعطى في الصين القديمة لكتابة العقد كطريقة من طرق نقل المعلومات؛ ويقول هيرودوت (4-98) إن داريوس، ملك الفرس، عرض على الإيونيين تقويماً في غاية البساطة يقوم على أساس الكتابة بالعقد، كما إن المسابح الكاثوليكية تقوم على هذا الأساس. أما في وقتنا الحاضر فإن العقد وما يشابهها من أدوات الاستذكار يمكن أن تصادف في جزيرة هاينان وفي البنغال وفي جزيرة ريوكيو اليابانية وفي المحيط الهادي وأفريقيا الوسطى

الشكل -1- الاينكا توباك يوبانغي يصغي إلى إخبارية ينقلها إليه واحدٌ من أتباعه (يقرؤها بواسطة الكيبو).

والغربية وكاليفورنيا والأقسام الجنوبية من البيرو، والطريف أن الشرائط ذات العقد والحلقات لا تزال حتى يومنا هذا تستعمل من أجل نقل الأخبار في جزائر سولومون وكارولينا والمركيز.

إلا أن أفضل ما لدينا من معلومات هو ما يتصل بالكيبو. وكان الرأي السائد منذ عهد بعيد يقول بأن هذه الوثائق لا تتضمن غير معلومات عددية مختلفة الطابع. وتبدو وجهة النظر هذه أوفر قدرةً على الإقناع إذا ما أخذنا بالحسبان خصائص المادة. فالكيبو يتكون من خيط متين واحد وبضعة خيوط مثبتة فوقه. أما المعنى الدلالي للكتابة بالعقد فيرتبط بلون الخيوط وبنوعية وعدد العقد مثلما يتعلق بتوضع الخيوط بالنسبة للخيط الرئيسي وبترتبها ونمط تشابكها، وبين الكيبو الثقيلة الوزن، والتي عثر عليها في المدافن بصورة شبه مطلقة، وجد واحدٌ يكاد وزنه أن يبلغ الأربعة كيلو غرامات، بل ويمكن القول بأن التوضعات والتوحّدات المختلفة وألوان الخيوط والعقد كان يسمح بتشكيلات كاملة من التراكيب، ومع كل هذا فإن من الصعب تصوّر كيف كان يتم بهذه الطريقة تناقل الأفكار المعقدة في صيغة جمل. وهنا على ما يبدو تتكشف حدود مثل هذه الكتابة بالأشياء، وهو ما قدم الذريعة لمثل ذلك التأكيد الذي سلفت الإشارة إليه والمتعلق بالطابع العددي المجرد للكيبو. وإن شهادة غارسيلاسو دي لا فيغا، مؤرخ فترة العصور الوسطى، لم تكن شديدة البعد عن مثل هذا الأساس، وقد كان ذلك المؤرخ شخصية طريفة إلى حدّ كبير، فأبوه - قبطان أسباني، وأمه ابنة أحد القادة المحليين. وقد أكد ذلك الغارسيلاسو بصورة جازمة في كتابه الصادر عام 1617 في قرطبة بعنوان «تاريخ البيرو العام» أن أهل البيرو كانو يتعرفون، عن طريق الكيبو على عدد المعارك والسفارات والقرارات الملكية لكنهم ما كانوا قادرين على قراءة نص المِرْسال كلمة بكلمة. إلا أن هناك نظرية أخرى طرحها باحثون مشاهير ولم تدحض بعد وتقول بأن الكيبو لم تكن تتضمن المعطيات الإحصائية المباشرة بل وكانت أقرب إلى أن تتضمن مركبات عددية سحرية تحمل تصوّرات عن الكواكب التي تسهر على راحة الموتى.

ولعل الفرضيتين يمكن أن تتعايشا إلى حدّ بعيد، والثانية منهما لا تعدّ فقط خطوة نحو الأمام بالنسبة لنظرية الطابع العددي للكيبو بل وأنها تدعمها من ناحية المبدأ على ما يبدو. وعلى أيّ حال فإن الرحالة والباحث السويسري تشودي يمضي بعيداً جداً عندما يؤكد إنهم كانوا قادرين عن طريق «كتابة» الكيبو أن يدونوا مجموعات القوانين والمحفوظات بل وحتى القصائد الشعرية.

ويعتبر حزام الفامبوم العائد لهنود أمريكا الشمالية أقل شهرة بين أنماط الكتابة بالأشياء. وتتكون هذه الأحزمة من أربعة أو خمسة حبال دقيقة رتّبت إلى جانب بعضها وقد عشّقت بها أصداف متعددة الألوان مثقوبة من الوسط. وسميت هذه الأصداف عند اليروكيز بالفامبوم. وبما أن لون الصدفة كان يُحمِّل معنىً خاصاً (الأسود والبنفسجي للخطر والعداء، الأحمر - للحرب والأبيض - للصلح والسلام) فقد كان واضحاً أن من الممكن إرسال مراسيل كاملة من قبيلة إلى أخرى على هيئة مثل هذه الأحزمة. و (الشكل رقم 2) يقدم نموذجاً غدا كلاسيكياً - وهو فامبوم بينّ الشهير (وهو الآن ضمن مقتنيات الجمعية التاريخية البنسلفانية) وقد قدم هذا الفامبوم سنة 1682 إلى ويليام بينّ، مؤسس بنسلفانيا، من طرف قبيلة ليني - لينابي الهندية. والفامبوم أبيض اللون يظهر في وسطه شخصان أسودا اللون أما الأيسر منهما فيمثل هندياً يقدم يده لأوروبي (صوّر يعتمر قبعة) وينحصر المغزى التاريخي لهذا الحزام في كونه يمثل الخاتم الذي يرسخ الاتحاد الودي المعقود بين بينّ والديلافار سنة 1682.

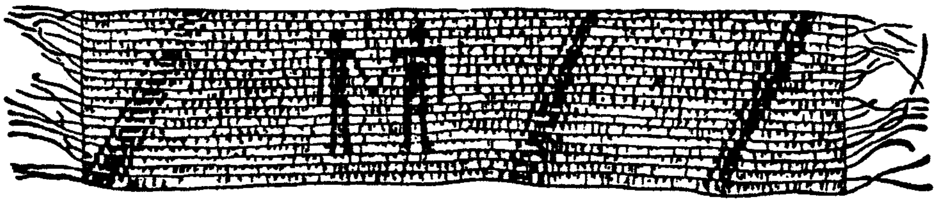

الشكل -2- فامبوم بين العائد لقبيلة ليني - لابي.

وأخيراً عن النمط الأخير من أنماط الرسائل بالأشياء وهو يجسد ما نسميه بالكتابات الشيئية والتي تلقى نماذجها انتشاراً أكبر في أيامنا من خلال كتابات القبائل الزنجية في أفريقيا الغربية، و (الشكل 3) يمثل كتابة من هذا النوع لدى زنوج قبيلة ييبو وهي تسمى آروكو في الصورة التي أوردها بها غ. يينسين بالاعتماد على فيلي. وهي رسالة وجهها رجل اشتدت عليه الأمراض إلى ذويه وأصحابه «تقرأ» هكذا: «المرض يستشري بصورة غير مُرْضية والحال تزداد سوءاً، واتكالنا الوحيد على الله[1]» وللأسف فإن أيّاً من الباحثين السالفي الذكر لا يكشف المبادئ التي يعتمد عليها في «قراءة» مثل هذه الرسالة ولا الوسائل التي تمكن من ذلك.

وعلى ما هو واضح من (الشكل 3) ومن «القراءة» التي قدمت يمكن التطرق لهذه الوسائل بصور مختلفة، وتحتاج مثل هذه الكتابة بالأشياء إلى الكثير لتصبح وسيلة إخبارية، وقد لمست عيوب مثل هذا النمط من الكتابة وأحست به نفس تلك الشعوب التي كتبت بها، وللتخلص من

1- H. Jensen, Die Schrift in Vergangenheit und Gegenwart, Glückstadt, 1935, S. 16.

هذه العيوب قامت بخطوة سندرس ماهيتها ومعناها بصورة أكثر تفصيلاً فيما بعد (بمناسبة الكتابة بالذات) فأضفي على بعض هذه «الكتابات» طابع الأحجية اللفظية؛ ويقدم بينسين نفسه مثالاً ذا مغزى معتمداً في هذه المرة على غولمير فيقول: «إن كومة من ستة أصداف من الكاوري تتخذ لدى يوروب (في نيجيريا أيضاً) دلالة أساسية هي رقم «ستة» - *efa*، ولكن بما أن *efa* تعني أيضاً «عاشق» من *fa* «أغوى» فإن خيطاً يضم ستة أصداف من الكاوري يرسله شاب إلى فتاة يحمل معنى «أحس نحوك عشقاً، أحبك» وثمانية أصداف من الكاوري تعني ثمانية *ejo*، لكن هذه الكلمة تعني أيضاً «موافق» (من *jo* «طابق»، «وافق»، «شابه») وانطلاقاً من هذا فإن مرسالاً ترسله فتاة إلى فتاها مكوّناً من ثمانية أصداف يعني: «أحسّ بما تحسّ به، أنا موافقة[1]».

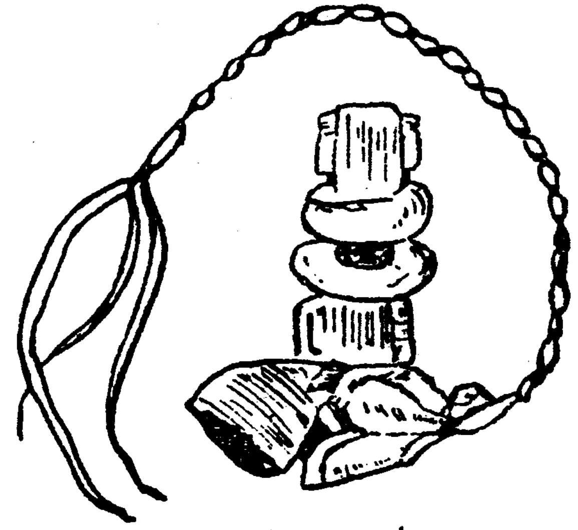

الشكل -3- «أروكو» ييبو (شمال لاغوس، نيجيريا)

ولكن لكي لا يخيل لنا أن انتشار مثل هذه الكتابات بالأشياء محصور فقط ضمن إفريقيا وفي العصر الحديث والحاضر فحسب فإننا نسوق من جديد شهادةً لهيرودوت - قصته المسلّية وذات المغزى والمتعلقة بلوحة من لوحات تاريخ حملة ملك الفرس الأعظم داريوس الأول ضد الصقالبة. وهيرودوت، شأن داريوس، يقابلنا للمرة الثانية - والحق أن من الأمور المذهلة ذلك الارتباط الوثيق بين اسميهما وبين تاريخ الكتابة، وكم نحن مدينون لكليهما بمعرفتنا بهذا التاريخ، لذلك الرحالة اليوناني العالمي الشهرة وذلك الغازي الفارسي ومجدّد الدولة. وهكذا فإن هيرودوت قدّم للغرب الإخبارية الشهيرة عن أول رسالة بالأشياء:

«131.... داريوس.... بدا في مأزق صعب وقد لاحظ ملوك الصقالبة ذلك فأنفذوا إلى داريوس رسولاً يحمل هدايا مؤلفة من عصفور وفأر وضفدع وخمسة سهام. واستفسر الفرس الرسول عن معنى الهدايا لكنه ردّ عليهم بأنه أُمر فقط بتسليم الهدايا والعودة على الفور، وقد عرض على الفرس أيضاً أن يفسّروا معنى الهدايا التي تسلّموها إذا كانوا نابهين حقاً.

1- Ibid, S, 16 f.

132: وبدأ الفرس مشاوراتهم بعد ذلك. أما داريوس فقال بأن الصقالبة يستسلمون له بأراضيهم ومائهم، وتوصل إلى استنتاج ذلك على أساس أن الفأر يعيش في الأرض ويتغذى بنفس ثمار الأرض التي يتغذى بها الإنسان، والضفدع تعيش في الماء، أما العصفور فهو أشبه بالفرس أما السهام فالصقالبة يعبّرون بواسطتها عن جراءتهم في القتال، هكذا كان تفسير داريوس، لكن عارضه تفسير غوبريوس، وهو أحد الفرس السبعة الذين أطاحوا بالكاهن الساحر فقال: «إذا كنتم أيها الفرس، لن تطيروا في السماء كالعصافير، ولن تختبئوا في الأرض كالفئران، ولن تقفزوا في البحيرات كالضفادع فإنكم لن تعودوا إلى بلادكم بل تسقطون صرعى هذه السهام»[1].

وقد كان غوبريوس على حق، وهو ما اضطر الملك إلى الاعتراف به فيما بعد.

إن هذه الرسالة عن طريق الأشياء المادية تعكس جوانب الضعف في جميع الوثائق المماثلة، وبخاصةً ازدواجية معناها (وهو ما يبدو في هذه الحالة وكأنه مقصود) وفي هذه الحالة يذكر بكهانة السدنة القدماء (.... إذا عبر كريس نهر غاليس فسيقضي على دولة عظمى[2]) والتي ما كانت لتتضح إلا عندما تحدق الكارثة.

ولا يمكن أن تتحقق هنا خطوة ملموسة إلى الأمام من بين المراحل المذكورة هنا للكتابة إلاّ إذا توفرت كلتا السمتين اللتين تناولهما الحديث فيما سبق أي إذا بدؤوا باستخدام الصورة (بأوسع معاني الكلمة) بهدف الأخبار أو التذكير، ويجب البحث عن ولادة مثل هذه الكتابة في الميدان المرتبط بتاريخ الفن، فبين النقوش الصخرية العائدة إلى أقدم العهود التاريخية هناك رسوم تتميز بسمات تتصف بها الكتابة. ومثل ذلك النقش الصخري الذي عثر عليه سنة 1911 في إسبانيا الشمالية في كهف باسييغا ويفسّره غ. بينسين، مؤرخ الكتابة، بما يلي: «إلى اليسار من الأعلى صوّر الجزء الداخلي من الكهف على ما يبدو وهناك صورة قدمين بالقرب منهما إلى اليمين ولعلهما ترمزان إلى مفهوم «الدخول إلى الكهف» أما الرمز المجهول إلى أقصى اليمين فيمكن أن يعني خطر الدخول إلى الكهف أو الدعوة إلى دخوله»[3].

وقد جمعت أمثال هذه الكتابات في الماضي تحت اسم مشترك هو «الكتابة التصويرية» ولكن بما أن هذا التعبير يحمل معنى فضفاضاً جداً وبالتالي يمكن أن يؤدي إلى التباس في الفهم فقد قرروا الآن الفصل بين الكتابة التصويرية بمعناها الضيق

1- Геродот, История в девяти книгах,пер. Ф.Г.Мищенка, М., 1888.

2- قدمت هذه النبوءة من معبد دلفي، إلى كريس، ملك ليديا الذي استشار كهنة المعبد أثناء حربه مع فارس فأجيب: «إذا عبر كريس نهر غاليس فسيقضي على دولة عظمى» لكن لم يُحدَّد أيّ دولة، أدولته أم دولة فارس (المترجم).

3- H. Jensen , Die Schrift in Vergangenheit und Gegenwart , S. 24.

(البيكتوغرافيا) وبين كتابة الأفكار (الأيديوغرافيا) كمرحلة أعلى من مراحل تطور الكتابة التصويرية. فنحن لا نتعامل مع البيكتوغرافيا إلا عندما تقوم الصورة بالرمز إلى الشيء الذي تصوّره. فإذا رسمت عوضاً عن مفهوم وكلمة «شمس» دائرة ذات أشعة منبثقة فإن الصورة في هذه الحالة تؤخذ على أنها رمز - صورة (بيكتوغرافيا). ولكن مثل هذا الرمز - الصورة يتحول إلى رمز - فكرة (ايديوغراما) إذا كان على أساس من الاتفاق الجماعي لا يعني ذلك الشيء المحدّد المصوَّر بل تلك «الفكرة» المرتبطة به، أي عندما تعني تلك الدائرة ذات الأشعة المنبثقة لا «شمساً» بل شيئاً بمعنى «قيظ»، «ساخن»، «حار أو دافئ».

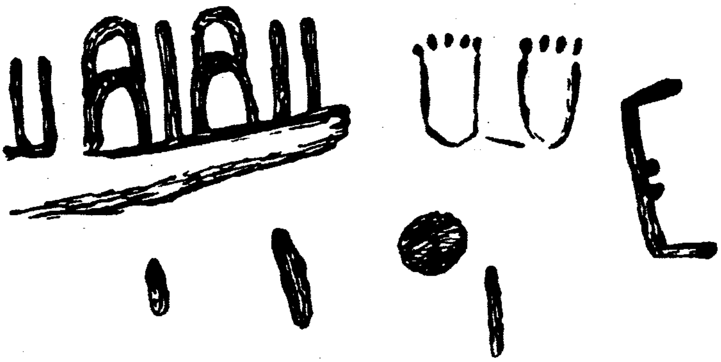

الشكل -4- النقش الصخري في كهف باسييغا.

والكتابة التصويرية بمعناها الضيق هي الأقدم عهداً. وكمثال على ذلك نشير إلى اللوحة المنقوشة الملونة التي اكتشفت على سقف كهف ألتاميرا في أسبانيا الشمالية (عهد الباليوليت الأعلى، نحو 20 ألف سنة قبل الميلاد). وقد صور هناك بيزون قائل في حجم يكاد يكون طبيعياً وقد لويت عنقه، ويمكن لهذه الصورة أن تفسّر على حد تعبير يان تشيخولد «تعبيراً عن اليقظة أثناء صرْع الوحش وتخليداً للصيد الناجح» وأن يلمس فيها الشكل الأقدم من «الكتابة» «بالمعنى الواسع»[1].

إن الصورة أو التخطيط التصويري يحل في البيكتوغرافيا محل الشيء المحدد المصور؛ فالدائرة ذات الأشعة تعني الشمس والخط المتموّج - الماء، والشكل ذو الرأس والذراعين والقدمين - الإنسان. أما الأيديوغرامّا فتعبر عن مفهوم «الهرم» في صورة شيخ يعتمد على عكاز، وتعبر عن مفهوم فعل «سارَ» بتصوير ساقين، أما خاصية «البارد» فتعبر عنها بإناء يرشح منه الماء. والخاصية المميزة لكل كتابة تصويرية، سواء أكانت بيكتوغرافية أم ايديوغرافية، - هي انعدام أي نوع من الرابطة بين الصورة المكتوبة وبين أصوات اللغة الحية.

1- J. Tschichold , geschichte der schrift in Bildern , 2 , Aufl. Basel , 1951 , S. 1.

وهناك عدد من أمثال هذه الصور يمكن أن يقرأ على درجة كبيرة من الصواب من قبل كل من يمعن فيها النظر بغض النظر عن اللغة التي يتكلم بها.

وأنموذج مثل هذه الكتابة، وإن كان في عهد متأخر، يمكن أن تكون المحفوظات التصويرية لهنود كراو والتي نقشت على جلد بيزون. وعلى الرغم من أنها خُطت في القرن التاسع عشر فإنها من وجهة نظر مستوى التطور التاريخي لا تتخطى حدود العصر الحجري.

إن الصورة الموضوعة في الوسط تمثل درعا وشّيت أطرافه بريش العقاب، وظهرت فوقه صورة قريبة مكونة من خيام توضعت على هيئة قوس، ونثرت حول الرسم المركزي أشكال تمثل لوحات من صراع الهنود فيما بينهم ومن حروبهم مع البيض. وعلى الزاوية العليا اليمنى دونت بكل دقة رؤوس الأعداء الذين قتلوا، أما آثار الحوافر والأقدام إلى اليسار فتسمح باستنتاج أعداد الخيالة والمشاة المحاربين الأعداء الذين أرسلهم الكراو إلى تلك الأصقاع المليئة، حسبما يقال، بالغابات العامرة بالطرائد وحيث يحالف الحظ الصيادين بصورة دائمة، وفي الوسط إلى اليسار ومن الأسفل إلى اليمين ثبتت شرائط من القماش الأحمر ما تزال عليها بعض فروات الرؤوس المفصولة وقد نفذ كل ذلك بالألوان السوداء الداكنة والحمراء والخضراء.

أما الأنموذج البديع الآخر، فهو ما يسمى بـ «جرود فصول الشتاء» وهو لهنود قبيلة يانكتونايس - داكوتا («الكلب المنفرد») وقد صور أيضاً على جلد بيزون. وهذا التقويم الفصلي (كان الداكوتا يحسبون السنين بفصول الشتاء) فيشمل الفترة الواقعة بين شتائي 1800 / و 1870 / 1871 وقد دونت السنون بطريقة لولبية وخُصّ كل عام بالحدث البارز في تاريخ القبيلة.

1824 / 25 قتلت جميع خيول رئيس القبيلة.

1900 / 1 ثلاثون من الداكوتا قتلوا على أيدي هنود قبيلة الغراب.

1853 / 54 وصول الأغطية الاسبانية.

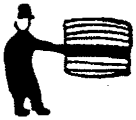

1801 / 2 وباء الحصبة.

1869 / 70 كسوف الشمس.

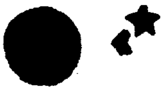

1813 / 14 وباء السعال الديكي.

الشكل -5- صور منفصلة من «جرد فصول الشتاء» العائد لقبيلة «الكلب المنفرد».

إلا أن من الخطأ الافتراض بأن الهنود وبخاصة من كان يستعمل الكتابة التصويرية قد استعملوها فقط من أجل العلاقات ضمن القبيلة الواحدة. فسمة الكتابة التصويرية حسبما رأينا هي عدم ارتباطها باللغة التي يتكلم بها القارئ. ولهذا فإن مثل هذه الكتابة تتسق والعلاقات

«الدولية» قبل كل شيء. فإذا بدت قبيلة ليني - ليناني، وكأنها لم تزد على أن وثّقت، عن طريق حزام الفامبوم، اتفاقها مع ويليام بينّ فإن سبعاً من قبائل الهنود الشماليين الذين كانت الحضارة قد أسبغت عليهم البيروقراطية في مجموع ما أسبغته عليهم من نعم، اندفعت بكل شجاعة في اللانهاية السديمية لفقرات القانون عندما كان عليها أن تستحصل من كونغرس الولايات المتحدة على حق صيد السمك في بعض البحيرات. فبعد أن توحدت هذه القبائل توجهت إلى الكونغرس بصورة هذه العريضة التي تمثل وثيقة بالغة الطرافة، فالحيوانات السبعة ترمز إلى القبائل السبع يتقدمها البجع (إلى اليمين) وهو طوطم أوشكابافيس. أما الخطوط التي تربط قلوب الحيوانات وعيونها فتعني أن القبيلة الرائدة تعبر عن الرأي المجمع عليه بين القبائل وتقوم بتقديم الطلب الجماعي، بينما يعني الخط المنطلق من عين البجع، والمؤدي إلى البحيرات الأربع (إلى اليسار من الأسفل) بعد مروره فوق الحيوانات، الرغبةَ المشتركة لدى القبائل بالتمتع بحق صيد الأسماك في هذه البحيرات فهي المعنية بالطلب، ومن العين الأخرى للبجع ينطلق خط إلى الأمام وهو يعني أنه يرفع نظره بثقة إلى الكونغرس بانتظار ردّه الإيجابي.

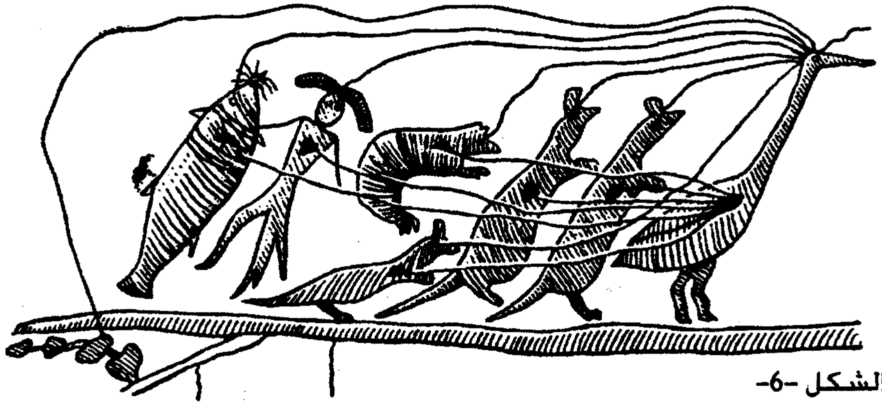

الشكل -6-

الطلب الذي وجهته القبائل الهندية السبع إلى كونغرس الولايات المتحدة الأمريكية

من الطبيعي أننا لا نلتقي بعادة استعمال الكتابة الايديوغرافية لدى الهنود فقط. فهذه الكتابة منتشرة لدى الأسكيمو وفي أفريقيا والمحيط الهادي، ورسائل الغرام التي كتبتها فتيات من قبيلة اليوكاغير في سيبيريا الشمالية الشرقية تمثل واحدة من التحف الصغيرة لهذا النمط من الكتابة حز بالمدية على قطعة من الجلد. و (الشكل 7) يعرض أنموذجاً ذا طرافة خاصة وقد أعيد نشره أكثر من مرة بعد أن قام كرامير بنشره لأول مرة سنة 1896. وإذا وضعنا في الاعتبار أن شعب اليوكاغير (وهو يسمي نفسه «الأودول») قد كان يعد ما يقارب الألفي نسمة سنة 1926، وأن ما يقارب الأربعمئة فقط من بينهم كانوا يتكلمون اللغة الموروثة

عن الأجداد، كان علينا أن نفترض أن اللغة اليوكاغيرية كانت خلال الفترة التي مضت بعد ذلك التاريخ قد ذابت بصورة كلية في الوسط المحيط. ويطرح هذا أساساً جيداً لنا لنستعرض هذه الوثيقة المذكورة التي تكتسب طرافتها أيضاً من وجهة النظر الايتوغرافية. فكاتبات أمثال هذه الرسائل كن من دون استثناء شابات حالت التقاليد السائدة بينهن وبين التصريح بالحب عن طريق الكلمات، إذ لم يكن ذلك متاحاً لغير الشبان. وكانت الأعياد النادرة الحدوث والمرفقة بالرقص تقدم للشابات إمكانية إعداد و «تصريف» رسائلهن.

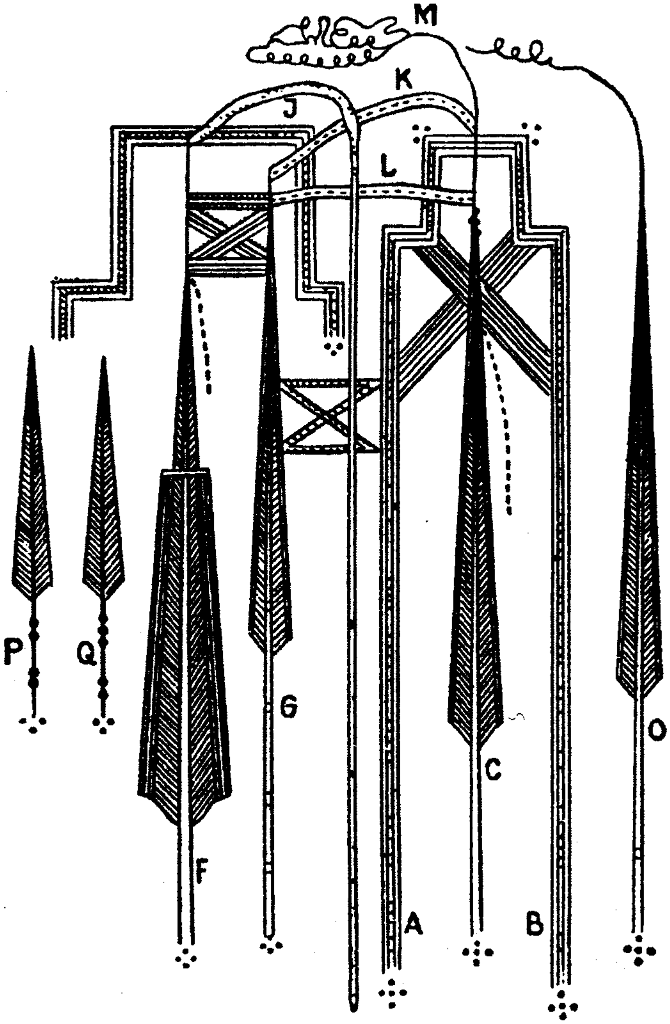

الشكل -7- «مرسال» الحب اليوكاغيري

تقول الرسالة: «إنك تمضي. أنت تحب روسيّة تقطع طريقك إليّ. سيولد الأطفال وستبتهج وأنت تنظر إليهم أما أنا فسأظل إلى الأبد أسيرة الأحزان وسأفكر فيك فقط على الرغم من أن هناك واحداً آخر يحبني».

إن إطار A - B يعني منزلاً تعيش فيه C، وهي الفتاة المحزونة التي صورت على هيئة تنّورة ضيقة مروحية تتطابق مع الملابس اليوكاغيرية، وهي ذات ضفيرة (الخط ذي النقط) وفي البيت تتقاطع حزمتان من الخطوط وهو ما يعني الحزن. وإلى اليسار من منزل الفتاة يقع المنزل الثاني وهو إطار لم يصوّر حتى نهايته - وهذا يعني أن ساكنيه F و Q غائبان و F امرأة روسية وهو ما تشير إليه التنورة ذات الكنار الأكثر عرضاً. والحب يربطها بقوة إلى زوجها (الخطوط المتقاطعة بين F و G) وعلاوة على ذلك يصدر عن المرأة الروسية F خط J يقطع خط K و L. أما K و L فيصوران الحب غير المتبادل والذي تكنه الفتاة اليوكاغيرية للروسي المتزوج G أما الخط المتشابك M فيظهر أنه على الرغم من خط J الفاصل فإن الفتاة تقف في أفكارها إلى جانب محبوبها. و D يصور الشاب اليوكاغيري الواقع في هوى الفتاة وأخيراً فإن P و Q - طفلا F و G.

إننا مضطرون انطلاقاً من محدودية الحيّز المكاني أن نكتفي بهذه النماذج من أنماط هذه الكتابة على الرغم من الجاذبية الخاصة التي تتميز بها النماذج الأخرى، وبودّنا أن نشير أيضاً إلى تلك الحقيقة الطريفة من وجهة نظر تاريخ الحضارة وهي أن الكتابة التصويرية لا تزال تستعمل في الحياة اليومية وبخاصةً في المدن الكبرى وعند كل خطوة. وأكثر نماذجها شيوعاً - علامات المرور، فإشارات التحذير مثلاً مثل «منعطف»، «تقاطع»، «ممر قطار» هي كتابات تصويرية مجردة، أما الإشارات التي تحظر حركة السيارات والدراجات النارية والعادية، فهي ايديوغراما أصيلة، وتجدون أمثلة أخرى على ذلك عند أول لوحة للإعلانات وأكثر ما نلتقي بها في اللوحات المنجزة بطريقة فنية والتي تروّج للمواد ذات الاستهلاك الواسع. إلاّ أن هذا ما يزال قليلاً، فخلال البحث عن سبل التفاهم المتبادل بين الشعوب حاول البشر منذ زمن بعيد اختراع اللغة العالمية الوسيطة، ويوجّه البعض أنظارهم الآن نحو المراحل الأكثر قدماً من تطور الكتابة وهم في سباقهم نحو مبادئ أكثر حداثة من الكتابة العالمية الوسيطة.

ومنذ أمد غير بعيد قام بأمثال هذه المحاولات الصحفي الهولندي كاريل يانسون والبروفسور الألماني الدكتور أندريه ايكارت. فاستخدما نظام الكتابة التصويرية

حيث إن هذه الكتابة يمكنها للوهلة الأولى أن تكون أفضل طريق عالمية للتفاهم. فهي، على ما نذكر، لا ترتبط مطلقاً بالتركيب اللفظي لأيّ لغة. ونشرت إحدى المجلات المشهورة منذ فترة قريبة ما يلي: سواء أكان المقصود بيتاً *hause*، *maison* أم *Casa* فإنه في الـ «بيكتو»، وهو الاسم الذي يطلقه يانسون على كتابته، يكتب هكذا « »[1]

ويمكن لنماذج كتابة الـ «بيكتو» أثناء التعرف السطحي عليها أن توحي بأنه قد تم بمساعدة هذه الكتابة التوصل إلى ما دعوا إليه كثيراً، أي أن مخترعها صاغ مركبات من الرموز من أجل جمع إمكانات التعبير عن الأفكار فمثلاً *I* في «البيكتو» تعني «أنا» و *I+* تحمل معنى الملكية وتعني «مَلَكَ» و «منزل» و «في» و - «مدينة» وعلى هذا فإن جملة *I+* تغدو مفهومة في البيكتو وتعني «أنا أملك منزلاً في المدينة». ولكن نظرة أكثر تمحيصاً تكشف أيضاً جوانب الضعف في مثل هذا النظام (وهو ما ينطبق أيضاً على «الزافو» وهو «الكتابة الدلالية» التي يعود اختراعها للبروفسور ايكارت) أولاً، إذا سمحنا بالافتراض بأن جميع الإمكانات للتعبير عن الأفكار هي في واقع الحال مرتبطة، ولو بصورة غير واعية، باللغة أو اللغات التي يعرف المخترع بناء وإمكانات التعبير عن الأفكار فيها، فإن الإنسان الواحد بطبيعته قادر على أن يملك تصوراً واقعياً عن عدد قليل فقط من جميع اللغات الموجودة على الأرض. ولهذا فإن مثل هذا النظام، منذ بدايته، لا يبدو مقبولاً بالنسبة لجميع اللغات وهو ما تؤكده وسائل علم اللغات المقارن بكل سهولة، ثانياً، إن مثل هذه الكتابة التصويرية المكونة من البيكتوغرامات والأيديوغرامات يمكن أن تكون وافية فقط باحتياجات التعبير قبل كل شيء عن التصورات الملموسة وعن عدد قليل جداً من المفاهيم المجردة. ولكن حاولوا مثلاً أن تعبّروا بهذه الوسائل عن مطلع مقدمة كانت للطبعة الأولى من كتابه «نقد العقل المطلق»:

«كان من نصيب العقل الإنساني مصير غريب في جانب من جوانب وعيه: فهو محاصر بالأسئلة التي لا يمكنه الخلاص من ربقتها لأنها تطرح عليه من تلقاء ماهيته نفسها بيد أنه عاجز في الوقت نفسه عن الرد عليها لأنها تتجاوز طاقاته».

فمن الطبيعي أن تظهر في هذه الترجمة الأمور الغامضة وتعدّد المعاني التي من شأنها أن تحول من الناحية العملية دون الترجمة الوحيدة المعنى والمفهومة بالنسبة لكل قارئ.

1- «Quick,» München, No 42, Jg. 9 , 1956 , S. 38.

إن أي كتابة تصويرية ما كانت لتكون مقبولة بالنسبة للعلم العالمي بصورة كاملة، وهي ليست كافية على الإطلاق من أجل تبادل الأفكار العليا المجردة كما لا يمكن قبولها بأي شكل كوعاء للشعر الذي يتطلب الكلمة ويعيش بالكلمة. ومن هنا يمكن أن ندرك (وكان ذلك هدف إشارتنا إلى «البيكتو» و «الزافو» وغير ذلك من النظم المشابهة الأخرى) لماذا شاخت الكتابة التصويرية والإيديوغرافية بسرعة لدى جميع الشعوب الكاتبة ثم تلاشت، وأن ندرك الضرورة الضمنية للتطور التالي للكتابة.

ومرة أخرى: إن رمز المعبّر عنه بالكتابة التصويرية يمكن أن يعبّر عن مفاهيم بيت *Casa , maison , hause , Hause* وما شابه ذلك. وعلى العكس فإن بيت أي تتالي أحرف ب - يـ - ـت لا تعني إلا بيت وهي تطابق بصورة كلية وكاملة لفظ كلمة بيت. وبين هاتين الطريقتين في التعبير عن المفهوم - الرمز أو أي رمز مشابه ومكافئ آخر، من جهة وبين مجموعة رموز بـ - يـ - ـت من جهة أخرى - يقوم تاريخ كامل من التطور الظاهري والضمني للكتابة (وبكلمة أدق تاريخ طريق واحد لهذا التطور - هو الطريق «الشرقي» الذي تطرقنا له في البداية والذي يمتد من الصورة الى الحرف)؛ أما التطور الخارجي - فهو تبدّل الشكل، ذلك التبدل المنطلق من الصورة في الرمز المنسّق المبسّط والمفهوم بطريقة واحدة لدى الجميع، أما الداخلي - فتبدل دلالات الرموز الكتابية.

إذا بدأنا بتوضيح قضايا التطور الظاهري للكتابة، تطور أشكال الرموز، كان من السهل أن نرى أن مطلب الصيغة الثابتة والموحّدة كان يزداد وضوحاً بازدياد انتشار الكتابة وازدياد تكيفها مع متطلبات الحياة اليومية. فحتى الآن أعطيت لأحد الأشخاص إمكانية التعبير عن «بيت» من خلال ، أو أو (ونستخدم في هذا المثال الآنف الذكر)، أو على الأقل رسم ذلك الرمز نفسه، ولكن بصورة مصغرة أو مكبّرة، والباب يبقى مفتوحاً للتفسيرات المزدوجة ومختلف التكهنات: فالقصر والكوخ والقلعة والسقيفة تتيح مختلف التفسيرات المعقولة. وعلى هذا فإن أول خطوة نحو الكتابة المبسّطة كانت (فيما يخص الصيغة) هي تبسيط وتثبيت الرمز - الصورة وهي العملية التي يمكن تقصيها وفهمها من خلال أنموذج ذلك التطور الذي قطعته الرموز السومرية القديمة «من الصورة إلى الأسفين».

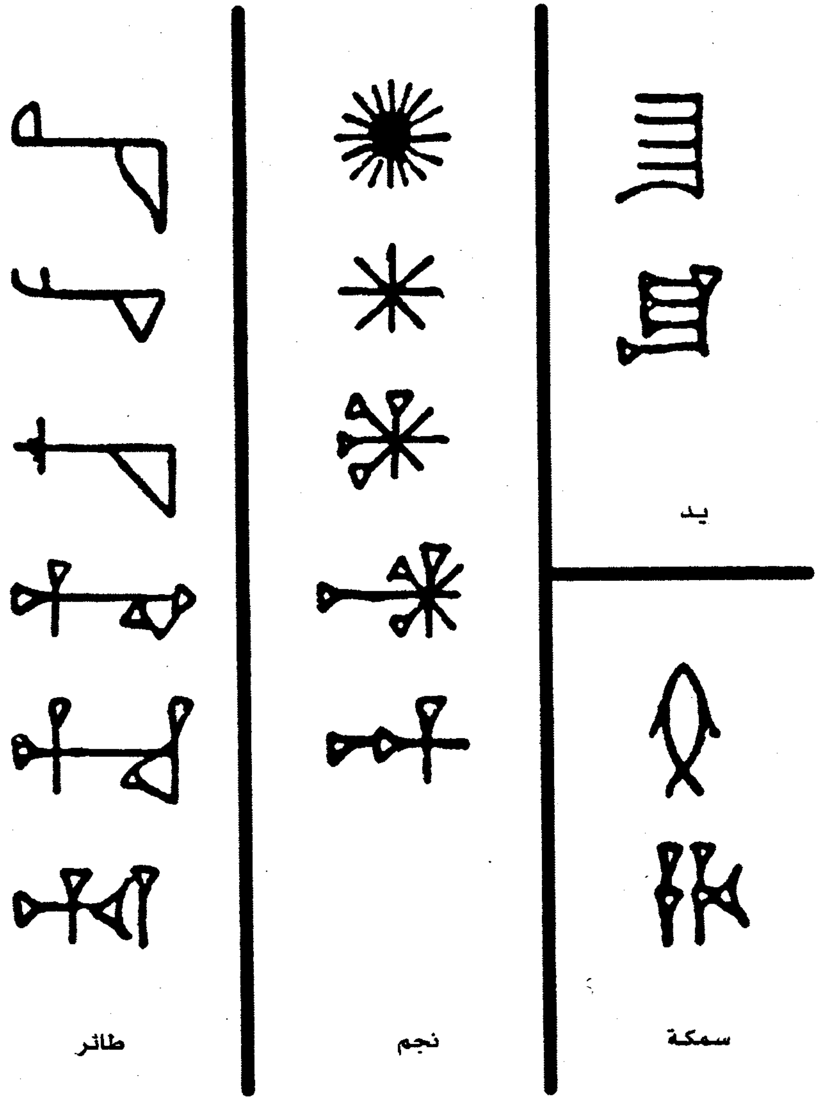

الشكل -8- تطور الكتابة السومرية من الرموز

التصويرية القديمة نحو المسمارية

وقع اختيارنا على هذا النموذج لسبب آخر أيضاً إذ إنه يتيح بصورة ملموسة استعراض انعكاس المادة المستخدمة في الكتابة على شكل الكتابة - وهذا عامل بالغ الأهمية في تطور الصورة الخارجية للكتابة. فالمادة المستخدمة في هذه الحالة كانت اللوح الطيني الذي تضغط فوقه الرموز بواسطة عود خشبي للكتابة أو قصبة

محدّدة عندما يكون الطين طريّاً، ومن هنا جاءت الرسوم «الشبيهة بالإسفينات». وإذا كان الشكل الظاهري للكتابة يفتح الطريق نحو التوحّد والتبسيط فإن الطموح إلى إضفاء الصيغة الموحدة ينعكس بالطبع على المضمون الدلالي للرمز أيضاً. ويمكننا أن نتخيل (نظرياً) لحظة من لحظات الزمن لم يعد فيها رمز يعني «بيتاً»، «قصراً» أو «سقيفة» بل واحداً من هذه المفاهيم وليكن مفهوم «بيت». وعليه، فعند هذا المستوى من التطور يقابل المضمون الدقيق والصارم التحديد للمعنى برمز صارم التحديد وشائع الاستعمال. ومثل هذه الكتابة، شأنها، شأن الكتابات التصويرية البدائية، يمكن أن تعبر ليس فقط عن الأشياء والأحداث المحدَّدة بل وعن المفاهيم المجرَّدة باستخدام الإشارات الرمزية من أجل ذلك، وفي الوقت نفسه فإنها تتقدم على الكتابة التصويرية المجردة وعلى الايديوغرافية المجردة بميزة عدم ازدواجية المعنى. فهي يمكن أن تكون كتابة عن طريق الكلمة - الصورة في أنقى صورها. ونقول «كان يمكن أن تكون» لأنه لم يعثر عليها في هذه الصورة في أي مكان اللهم الاّ إذا نسبنا إليها، على أثر بينسين، كتابة نْسيبيدي الزنجية الجنوبية التي اكتشفت سنة 1905 لدى قبيلتي ايبو وايفيك الزنجيتين. ومن بين رموز هذه الكتابة نقدم كنموذج عرضي للكتابة بطريقة الكلمة - الصورة ذلك الرمز الذي يطرحه الباحثون تعبيراً عن مفهوم «الخصومة الزوجية» وهو يتخذ هذه الصورة 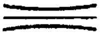 (وسادة تفصل بين الزوجين اللذين أدار كل منهما ظهره للآخر).

إن كلا هذين الاتجاهين الواضحين - وأحدهما يسير نحو التحديد الواضح لدلالة الرمز - الصورة وترسيخها، والآخر نحو تبسيط شكله الخارجي وجعله موحّداً يحدوان بالكتابة نحو التخلص من خطوة الكتابة المجردة للكلمة - الصورة. وخلال عملية تطور الحضارة تجاوزت معرفة الكتابة واستعمالها دائرة مبدعيها الأُوَل والقائمين بالمحافظة عليها. والكتابة تتسرّب بصورة لا تتوقف في الوسط الشعبي وبصورة دائبة تتعاظم الحاجة إلى التبسيط الأكبر لأشكال الرموز، فالميل يتجه نحو كتابة أبسط وأسرع، كما أن المادة الكتابية، وهي في العادة مادة هشة، تقدم إسهامها في عملية تبسيط الرموز. وبهذه المناسبة نستعرض المقارنة التي قدمها يوهانس فريدريك من ميدان الكتابة المصرية. فهو يقارن بين نص من بردّية ايبيرس، المكتوب بهيراطيقية (كتابة الكهنة) أكثر تأخراً، بالنص نفسه وقد كتب بالخط الهيروغليفي (الشكل 9).

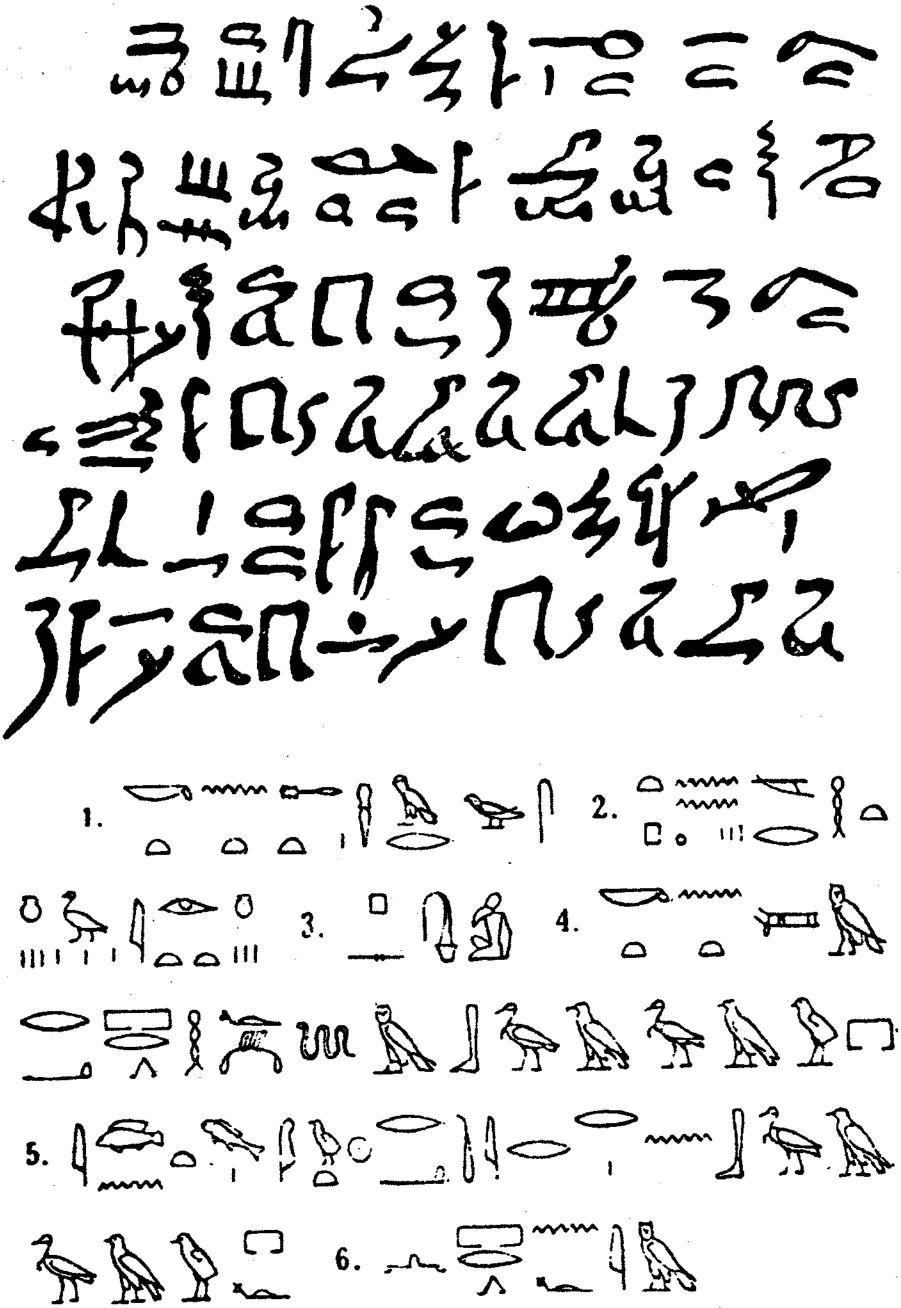

(1) (وصفة) أخرى للبطن، عندما يمرض (2) كراوية، شحم أوز وحليب (3) يغلى ويشرب (4) وصفة أخرى لمنع الأفعى من الخروج من الوكر (5) سمكة متفسخة عند فتحة الوكر (6) (عند ذاك) لن تخرج

الشكل -9- كتابة هيراطيقية على بردية إيبيرس وصيغتها بالهيروغليفية

إذا كانت الهيروغليفية (الرموز المقدسة) قبل كل شيء كتابة النقوش على الآثار المنحوتة فإن الهيراطيقية الكتبية تبرز بكل وضوح مدى التشذيب و «الحت» الذي تعرضت له الرموز - الصور المرسومة بطريقة حادة، وهي في صورتها الجديدة لا تملك في عيني الناظر غير المؤهَّل أي نوع من التشابه مع أشكالها الأولى.

إن هذه النقلة تشير إلى تحول نوعي جديد. فرمز الكتابة، حسبما يشير (الشكل 9)، قد اشتطّ في ابتعاده عن الشيء الذي كان يعكسه إلى درجة كافية من الدقة عندما كان رمزاً تصويرياً، حتى تنقطع الصلة في نهاية المطاف بين شكل الرمز الدائم التطور وبين الصورة الأولى للشيء. ومنذ هذا الحين تصبح الكلمة فقط، أي المكافئ اللفظي للصورة السابقة، محافظة على الارتباط برمز الكتابة. وبهذا يتحوّل رمز الكتابة إلى معبّر عن رمز بعينه أو عن مجموعة رموز. وهذه العملية يسميها الباحثون إضفاء الصيغة الصوتية (الصَّوْتَنة) على الكتابة.

لقد كانت هذه خطوة أدت إلى نتائج بعيدة الأهمية فبدءاً من ذلك الحين صار يمكن أن يحدث ما كان له فيما بعد مكان في الواقع بصورة متكررة عندما صار الرمز الواحد يستعمل للتعبير عن عدّة كلمات مختلفة في معانيها لكنها بالمصادفة تلفظ بطريقة واحدة، فقد كان هذا الرمز في السابق يحل محل واحدة فقط من الكلمات - المفاهيم وهو بالذات ذلك المفهوم الذي انطلق ذلك الرمز من صورته، أما الآن فغدا ممكناً استخدام مثل هذا الرمز للتعبير عن مفهوم مختلف تمام الاختلاف في المعنى كأن تستعمل الكلمة - الرمز «خال» (بمعنى شامة على الخد) في العربية للتعبير أيضاً عن «خال» (بمعنى أخ الوالدة).

ولكن بهذا أيضاً ينفتح الطريق لخطوة لا تقل أهمية وإن كانت ليست كبيرة - نحو النمط الثاني الأكثر أهمية والذي نلتقي به بصورة أكثر بكثير من أنماط الكتابة وهو الكتابة «المقطعية»[1] (تمييزاً لها عن الكتابة «الحرفية») وهو ما يسمى بالكتابة عن طريق الكلمة - اللفظ. فقد تيسّرت إمكانية التعبير في الكتابة عن كثير من المفاهيم المجردة بواسطة رموز كتابية كانت في البداية تعني مفاهيم محدّدة شريطة أن يكون المفهومان - المحدَّد والمجرَّد يلفظان بصورة واحدة.

فإذا عدنا من جديد إلى أمثلة اللغة العربية كان بإمكاننا أن نشرح كيف كتبت برمز واحد كلمتا «عجلة» بمعنى الدولاب و «عجلة» بمعنى «السرعة» و «حيّة» بمعنى أفعى وبمعنى «ذات حياة».

1- في هذا المكان وفي مايلي استبدلنا الأمثلة الألمانية بأمثلة مطابقة من اللغة العربية (المترجم).

لكن إمكانات الكتابة بالكلمة - اللفظ لا تنتهي عند هذا أيضاً. فقد اتضح انه باستخدام طريقة الصور - الأحاجي أي الأحاجي التي استعملت كما سبق ورأينا في الكتابات عن طريق استعمال الأشياء يمكن التوصل إلى تركيب مفاهيم جديدة من الرموز - الصور. ففي العربية يمكننا أن نتوصل إلى كلمة «محتاج» بوضع رمزي و وهما مح (البيضة) وتاج.

غير أن من الضروري أن ننبّه القارئ إلى أن عرْضنا مبسط إلى درجة مبالغ فيها. فكل كلام إنساني وكل لغة وكل كتابة أيضاً هي شيء حي ودائم التبدل، لهذا فالكتابة المجردة بطريقة الكلمة - اللفظ لم توجد أبداً - (فما أكثر ما كانت لتنجح القراءات وتتوج المحاولات بالانتصار فيما لو وجدت مثل هذه الكتابة!) وبدلاً من ذلك ففي كل مكان كانوا يستعملون الكتابة «عن طريق الكلمة» كان يمكن العثور إلى جانب الكتابة بالكلمة - الصورة على كتابة بالكلمة - اللفظ فضلاً عن توفّر ملامح الكتابة التصويرية المجردة واللفظية المجردة. والنتيجة هي سديم «غير منطقي» إلى درجة مدهشة، لكنه سديم آسر للانتباه ودائم التبدل في تركيبه وفي الوقت نفسه يمثل كلاً متكاملاً في بنائه. على هذه الصورة، كانت تتشكل تلك المتاهات الكثيرة التي كان يتحرك عبرها كبار قرّاء الرموز تارة بصورة إفرادية وتارة متعاونين فيما بينهم وثالثة بعد أن يتوارثوا إنجازات السابقين فكانوا يضربون في هذه المتاهات ليخرجوا منها بقصب النصر.

ومما لا ريب فيه أن الكتابة بطريقة الكلمة - اللفظ كانت تثوي في صلب الانتقال إلى المرحلة التالية. وفي واقع الحال إذا كانت اللغات التي تكتب بهذه الكتابة تتضمن عدداً كبيراً من الكلمات الوحيدة المقطع أو إذا كانت الكلمات المتعددة المقاطع فيها ذات بناء بسيط متكامل للمقاطع فإن الكتابة بالكلمة - اللفظ تتطور الى كتابة مقطعية. ويمكن دراسة عدد كامل من الكتابات المقطعية كمرحلة انتقال الى الكتابة المقطعية، هذا بينما لا نلتقي بالكتابة المقطعية المجردة إلا في حالات نادرة نسبياً، وأكثر الأنماط شهرة من بينها هي كتابة كاتاكانا اليابانية المقطعية التي انبثقت على أساس الكلمات - الرموز الصينية، أما انحدارها من الكتابة الصينية العادية ودلالتها الصوتية فهو ما يعرضه (الشكل 10).

كايشو	كاتا كانا	الدلالة اللفظية	كايشو	كاتا كانا	الدلالة اللفظية	كايشو	كاتا كانا	الدلالة اللفظية
阿	ア	a	千	チ	ti (chi)	牟	ム	mu
伊	イ	i	門 津	ツ	tu (tsu)	女	メ	me
宇	ウ	u	天	テ	te	毛	モ	mo
[illegible]	エ	e	止	ト	to	也	ヤ	ya
於	オ	o	奈	ナ	na	勇 油	ユ	yu
加	カ	ka	仁 二	ニ	ni	與	ヨ	yo
幾	キ	ki	奴	ヌ	nu	良	ラ	ra
久	ク	ku	子	子	ne	利	リ	ri
介 計	ケ	ke	乃	ノ	no	流	ル	ru
己	コ	ko	八	ハ	fa (ha)	礼	レ	re
草 散 左	サ	sa	比	ヒ	fi (hi)	呂	ロ	ro
之	シ	si (shi)	不	フ	fu	曰	ワ	wa
須	ス	su	皿 邊	ヘ	fe (he)	慧	ヱ	we
世	セ	se	保	ホ	fo (ho)	伊	井	wi
曽	ソ	so	末	マ	ma	乎	ヲ	wo
多	タ	ta	三 美	ミ	mi	—	—	—

الشكل -10- كتابة كاتاكانا اليابانية المقطعية في تطورها عن الكتابة الصينية العادية

يبدو بناء مثل هذه الكتابة المقطعية للوهلة الأولى بسيطاً وملائماً إلى أبعد حد. بل وهناك من حاول إثبات أن الكتابة المقطعية أكثر عملية من كتاباتنا الأوروبية الحرفية - فهذه الكتابات تستلزم تدوين عدد أكبر من الأصوات. وتبدو الفرضية قريبة من الصواب ولكنها تظهر مهيضة الجناح إذا ما ازددنا اقتراباً منها. فالكتابة المقطعية لا تكون عملية

إلا إذا توفرت اللغة على عدد غير كبير من المقاطع؛ وإلا فإن من الصعب استيعاب العدد الهائل من الرموز المقطعية. فالعدد القليل من المقاطع لا يتوفر إلاّ في تلك اللغات التي تتميّز، كما ذكرنا، بالبناء البسيط للمقاطع والذي يسمح بعدد قليل جداً من تراكيب الأصوات. وفي هذه الحالة قدمت اللغة اليابانية (والحق أن ذلك ينطبق على لفظها القديم) حالة مثالية: لأنه لم يكن يعرف فيها غير المقاطع ذات النمط الساكن+صوتي أو مقاطع مكونة من صوتيّ فقط.

أما إذا كان البناء الصوتي للغة أكثر تعقيداً، كما هو الحال في جميع اللغات المعروفة بالنسبة لنا، وإذا كانت تترتب فيها عدة سواكن متتالية فإن الوسائل المستعملة في الكتابة المقطعية لا تكفي للتعبير التام عن النظام اللفظي للغة. ويمتد التطور الى أبعد من ذلك الى المرحلة الأخيرة العليا - وهي الكتابة الحرفية التي تتضمن، على الأقل من ناحية المبدأ، رمزاً خاصاً لكل لفظ منفصل.

وقد يدهش القارئ إذ يعرف أن هذه المرحلة المعروفة جيداً من قبلنا والواضحة بصورة تلقائية والتي تمثل المرحلة الأخيرة والأعلى من التطور لم تتحقق إلاّ في مناطق قليلة من الأرض.

فتلك الشعوب التي تسامت إلى هذه الدرجة (وانتقلت إليها من الصورة) والتي نعرف تاريخ تطور الكتابة لديها، قطعت طريقين مختلفين، أحدهما يمكن تقصيه عبر تاريخ الكتابة المصرية، وبين رموز هذه الكتابة يوجد عدد مما نسميه بالرموز ذات الساكن الواحد التي كانت تعني في البداية كلمات أو مقاطع من نمط ساكن+صوتي (مثل كا، بو وما شابهها) ومن بينها ونتيجة لإهمال الصوتيات (وهي العملية التي يصعب علينا تصوّرها بصورة واضحة، ولكنها تقوم على أساس خصائص اللغة المصرية) تكونت الحروف الحقيقية الخاصة بالتعبير عن الحروف الساكنة أي ك، ب وما شابهها.

أما قدماء الساميين[1] فساروا في طريق آخر، فكأنهم فصلوا الصوت الاستهلالي للكلمة عن الكلمة نفسها وصاروا يكتبون كل الكلمة - الرمز فقط من أجل التعبير عن ذلك الصوت الاستهلالي. فمن الرمز - الكلمة التصويري 9 «بيت» (ولعله يعود الى الهيروغليفات المصرية 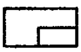 ، 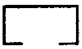 أو إلى الرمز السينائي 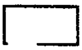 ،

1- ليس هناك فارق، من الناحية العرقية بين قدماء المصريين والساميين (كما يتراءى للمؤلف) فهم يعودون جميعاً إلى أرومة واحدة (المترجم).

ظهر حرف ب والذي نعرف تسميته القديمة من التعبير اليوناني «بيتا»، وهذا المبدأ، أي كتابة الصوت الاستهلالي للكلمة - الرمز بواسطة الكلمة - الرمز السابقة وبالتالي تحويل الكلمة - الرمز إلى رمز صوتي، يسمى بالكلمة اليونانية اكروفونيا. وعلى الرغم من أن الكلمة ليست مألوفة جداً في مسامعنا فإن ماهيتها معروفة لكل إنسان منذ زمن بعيد. ومن منا لم يقع له أن يرسل اسمه أو كنيته بالهاتف عن طريق الأحرف؟ خازم، لا ما حازم بل خازم، خالد، أحمد، زهير ومحمد!.. هي ذي الأكروفونيا التي نستعملها كل يوم.

وهناك من ينظر نظرة غير خالية من التقديس الى الرموز السامية القديمة التي تعتبر جدّات حروفنا الأبجدية، لكن الدراسة المدققة لا تترك أي ظل من الشك في جوانب الضعف التي تنطوي عليها هذه الأبجدية الحرفية المبجلة: فهي لا تحتوي حتى على الرموز التي تعبّر عن الحروف الصوتية! وبالنسبة لقدماء الساميين (كما كان الأمر بالنسبة لقدماء المصريين) لم يكن هذا نقصاً ملحوظاً إذ إن بناء لغاتهم يفرز للصوتيات، إذا ما قورنت بالسواكن، دوراً يقل أهمية عن الدور الذي تلعبه في لغاتنا. ولهذا السبب كان من نصيب الهندأوروبيين دور تتويج الكتابة الحرفية بحظ أوفر من الكمال ووحدة الدلالة.

أما أول محاولة للبحوث في هذا الاتجاه - وهو ما يعتبر أنموذجاً بديعاً للتجديد في تاريخ الكتابة - فقد قام بها قدماء الفرس الذين كانت كتابتهم الإسفينية تعرف الاستعمال المنقوص للصوتيات (وهو ما صعّب الى حد كبير من قراءة رموز تلك الكتابة!) بيد أن أمجاد إضفاء الصبغة الصوتية بصورة كاملة ونهائية على الأبجدية السامية كان من نصيب اليونانيين. فمن الرموز المحدّدة صاغ اليونان الرموز الضرورية للغتهم من أجل التعبير عن الصوتيات. ويظهر من الجدول (الشكل 12) الطريق الذي ساروا عليه.

وقد يتراءى أن النتيجة التي تفرض نفسها هي أن تطور الكتابة قد توّج باختراع الكتابة الحرفية الكاملة وقد لا يكون هناك حتى مجال للتفكير بالتقدم المقبل في هذا المجال. إلا أن مثل هذا الاستنتاج يفتقر إلى ما يبرّره. فجميع الكتابات الحرفية الحديثة تشكو من نقطتي الضعف وتغدو إحداهما أبْين عند إقامة علاقات الكتابة بين شعوب مختلفة، فالحروف اللاتينية والروسية والعربية تعبّر في مختلف اللغات التي تستخدم الأبجدية الواحدة، بل وأحياناً في اللغة الواحدة نفسها، عن أصوات مختلفة إلى حدّ ما. وهذا لا يسري فقط على

اللغة الإنكليزية بما فيها من كتابة معقدة، ويمكن العودة الى اللغة الروسية ومقارنة الـ *o* في كلمتي *Мо с ква* - *до м* (مَسْكفا - دوم) أو الـ *в* في *Пе тр о в* - *во лк* (بيتروف - ولك)؛[1] ويمكن إيراد عدد كبير من هذه الأمثلة.

الأبجدية السامية القديمة	الدلالة اللفظية		الأبجدية السامية القديمة	الدلالة اللفظية	
𐤋	*l*	12	𐤀	’	1
𐤌	*m*	13	𐤁	*b*	2
𐤍	*n*	14	𐤂	*g*	3
𐤎	*s*	15	𐤃	*d*	4
𐤏	‘	16	𐤄	*h*	5
𐤐	*p*	17	𐤅	*w*	6
𐤑	*ṣ*	18	𐤆	z	7
𐤒	*q*	19	𐤇	*ḥ*	8
𐤓	*r*	20	𐤈	*ṭ*	9
𐤔	*š*	21	𐤉	*j*	10
𐤕	*t*	22	𐤊	*k*	11

الشكل -11- الأبجدية السامية القديمة

أما نقطة الضعف الكبرى الثانية فهي: إننا لا نستطيع أن نكتب رموزنا الأبجدية بسهولة وبخاصة إذا أردنا كتابتها بصورة جميلة ومتقنة. وتجري المحاولات للتغلب على هذا النقص باختراع مختلف النظم المختصرة للكتابة. ولكن حتى هي أيضاً بعيدة عن الكمال - فهي في كل حالة موجّهة نحو خصوصية اللغات المتفرقة ومتطلباتها. فالكتابات المختصرة الوسيطة «الموحدة» التي يمكن استخدامها على مستوى واحد بالنسبة لعدة لغات لا يمكنها أن تحقق أي نجاح على الرغم من أنه قد فرغ من اختراعها وضبطها.

1- تجري الإشارة هنا الى ما تتعرض له حروف الأبجديات الحديثة أحياناً من تبدل في اللفظ فإذا لم يقع حرف الـ o في الروسية تحت النبر لفظ a قصيرة كما أن حرف (ف) إذا جاء في آخر الكلام لفظ خافتاً.

بيد أن النقص الأول - وهو انعدام الدقة أثناء التعبير عن أصوات اللغات المختلفة - فيجري التخلص منه بصورة ناجحة على مدار الزمن المستمر وإن كان ذلك يتم في الحقيقة ضمن الميدان الضيق لعلم اللغويات وعلم الأصوات التطبيقي وتعليم اللغات. ويتم تحقيق ذلك بتطبيق النظم المختلفة للكتابات العلمية الصوتية. ولعله لا يلزم نفسه بكثير من الوعود ذلك الذي يتنبأ بالانتشار الواسع جداً وبالنجاح المتواصل لنظام الكتابة الصوتية لجمعية الصوتيات العالمية. وهو يعتمد في أساسه على منطلقين أساسيين:

1) التعبير عن أي صوت في جميع اللغات برمز واحد فقط.

2) الاستعمال الدائم للرمز الواحد نفسه بالنسبة للصوت الواحد.

ويعتقد أنه قد وضعت هنا إمكانية حل إحدى المهمات المحترمة - وهي اختراع تركيب جريء وهو - الكتابة العالمية المختصرة القائمة على الكتابة اللفظية العالمية.

إن الفصل الحالي، الذي يمثل مقدمة عامة لموضوع «الكتابة والخط» ما كان ليكتمل دون تسجيل ملاحظتين أساسيتين إحداهما - هي الإشارة إلى الدور الخارق للعادة والذي تلعبه المادة الكتابية في تكوين الصيغة الخارجية للكتابة. فعند دراسة تاريخ قراءات الكتابات لا بد وأن نلفت النظر بصفة دائمة الى ما يلي: بماذا وعلى ماذا دونت تلك الكتابات المطروحة للقراءة، وخلال استعراض نشاط قارئي الكتابات سنعود أكثر من مرة الى هذا السؤال، وبودّنا أن نشير منذ الآن إلى أنه قد استعملت وتستعمل مختلف الأدوات الكتابية وأشدها تضارباً: كالحجر والطين والورق والأنسجة المختلفة الأصناف والجلد (الرق!) والخشب والزجاج والمعادن والشمع وغير ذلك، ولم يمض وقت بعيد على إخراج اللوح الشمعي والغريفيل من المدارس. أما قشور الخشب ولبابه وأوراق الأشجار والعظام فإنها لم تستخدم فقط في الماضي بل وهناك من لا يزال يكتب عليها حتى الآن. وقبل أن يبدؤوا الكتابة بريشة اللوز وعود القصب وقبل أن يبدؤوا بالرسم بالريشة ويمسكوا بأيديهم المسطار واللوح والمجرفة وريشة الكتابة وإزميل النقش استعمل الإنسان كما هو معلوم لدينا إصبعه أداة كتابية مثلما يفعل الأطفال في أيامنا هذه إذ يستعملون أصابعهم في الكتابة على التراب.

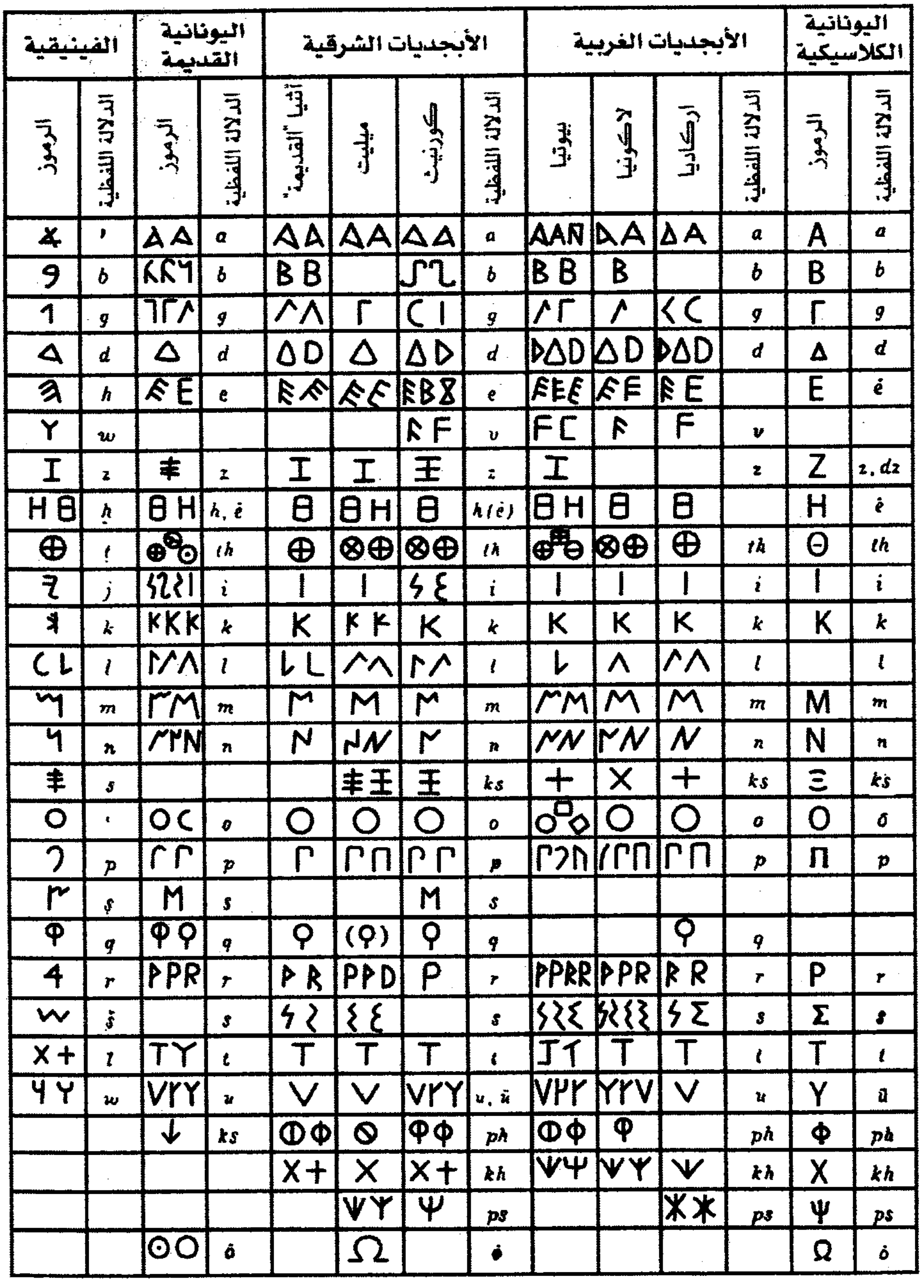

الشكل -12- الأبجديات اليونانية وتطورها بعد استعارة رموز الكتابة الفينيقية

إن التعرف على المادة الكتابية يمكّننا من فهم الجانب الآخر من تاريخ الكتابة. فعلى أساس ذلك بالذات يمكن أن نشرح لماذا اختفت بعض الكتابات القديمة دون أن تترك أثراً

ولم يبق من بعضها الآخر غير بعض النتف المتفرقة بينما بقيت كتابات ثالثة نقشت على مادة منيعة على التلف فاستطاعت أن تكشف لنا عن أسرارها العجيبة.

لقد ذكرنا في البداية أن مجموع الكتابات يصل حتى الأربعمئة وقمنا بمحاولة لوصف التاريخ العام للكتابة. وأن بعض المراحل المنفصلة من هذا التطور، مثلما هو الأمر بالنسبة للتقارب بين كتابات منفصلة وبالنسبة لموضوع ارتباط إحداها بالأخرى، لا يخضع للوصف الكتابي، فنقدم فيما يلي كجزيئة صغيرة فقط من تلك اللوحة الهائلة التي لم تكتمل بعد - شجرة الأسرة بالنسبة للأبجدية اللاتينية (وفقاً لـ إ. هيرينغ). وفي الحق أن اللوحة غير كاملة، وهي تضرب بعيداً جداً، في طموحها نحو التبسّط (وبخاصة في موضوع التسلسل الفينيقي - اليوناني - الإيتروسكي)، ومع كل هذا فإنها تسمح بالتوصل الى تصوّر واضح عن تلك الروابط التي تبدو لنا جديدة بمقدار ما هي مثيرة للدهشة.

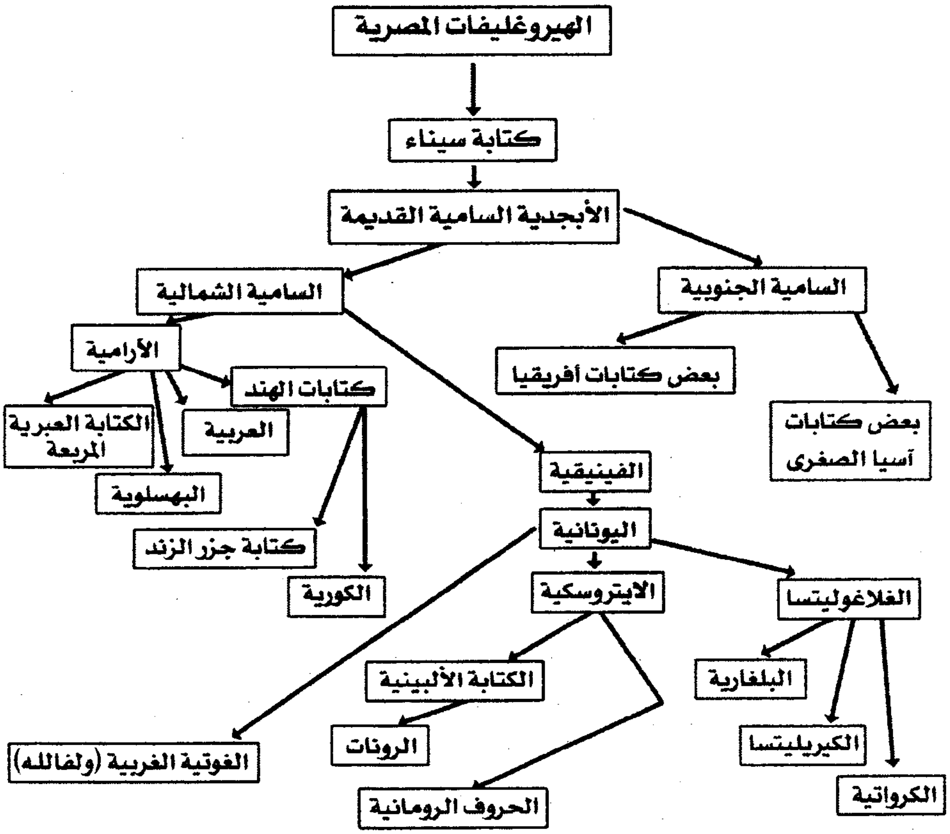

الشكل -13- تطور الأبجديات من الهيروغليفات المصرية حتى الحروف الرومانية

الفصل الثاني

أحجية أبي الهول

قراءة رموز الكتابة المصرية القديمة

«منذ زمن بعيد فقدت آخر بارقة من الأمل في فك رموز الهيروغليفات»

دافيد اوكيربلاد 1802

«لقد نجحت»

جان فرانسوا شامبليون 1822

في النقش المصري فوق الهرم (هيوبس) سجل مقدار ما أنفق على العمال من الفجل والبصل والثوم، وأذكر جيداً أن المترجم قال لي وهو يقرأ النقش بأن ما صرف كان يعادل ألفاً وستمئة «تالانت»[1].

إن ذلك الرحالة والكاتب الشهير الذي رغب في معرفة ترجمة الكتابة المنقوشة فوق هرم هيوبس كان هيرودوت نفسه. وقد كان ذلك الملاحظ النافذ البصيرة والراوية البارع أول من حدَّث الغرب بكتابة المصريين، لكنه وللأسف لم يتحدث عنها إلا بصفة عرضية (وهو ما يتناقض تناقضاً كلياً مع أوصافه التفصيلية لأرض مصر وشعبها). وهو يشير في أحد المواضع الى «حروف المصريين المقدسة» إلا أن إخبارياته عن الكتابة تبقى شحيحة بصورة عامة ولا تقدم حتى تصوراً تقريبياً عن جوانبها الظاهرة فكيف بتركيبها وخصائصها الجوهرية.

إلا أن هيرودوت بملاحظاته الموجزة لم يكن - على الأقل - سبباً في أيّ أذية، وهو ما لا يمكن أن نقوله عن جميع من ساروا على نهجه في الآداب القديمة. فتيودور وبلوتارك

1- Геродот, История в девяти книгах,пер. Ф.Г.Мищенка, М., 1888.
والكمية التي يذكرها هيرودوت زهيدة جداً بسبب الترجمة المغلوطة للنظام النقدي المصري الى اليونانية (الأتيكية).

وكليمنت الاسكندراني، أبو الكنيسة الكاثوليكية (وهو صاحب تعبير «الهيروغليفات» بمعنى «الرموز المقدسة المنقوشة») وبورفيري ويفسيفي - تعرضوا جميعاً لهذا الموضوع ولو بصورة مجملة بينما تحدث عنه آخرون بصورة أكثر تفصيلاً. إلاّ أنهم كانوا يتعاملون مع مادة تمثل ثمرة تعبير عن الكتابة المصرية الضاربة في أغوار أربعة آلاف عام من التاريخ - لقد كانت من النوع المسمى بالكتابة «الأينيغماتية» (المبهمة) أو ألغاز السدنة أو اللعبة التي تذكر بالأحاجي عن طريق الصور. تلك الكتابة، المتأخرة العهد، السائرة في طريق الانحطاط، كانت بالذات ما شاهده تيودور، بلوتارك ويفسيفي، لا الكتابة المصرية في عهد ازدهارها. بيد أن الدليل الحقيقي في ذلك الطريق الخادع والمنبع الأساسي لكل الأخطاء التالية كان شخصاً يسمى غورأبولّون وهو من نيلوبوليس.

قام ذلك الشخص الذي يحمل اسماً أنموذجياً بالنسبة للأسماء المصرية - اليونانية (غورأبّولون) بوضع كتابين عن الهيروغليفات عام 390 م ويبدو أنه كتبهما في بداية الأمر باللغة القبطية. وقد نُقل هذا المؤلِّف العجيب إلى اللغة اليونانية في القرن الخامس عشر وكان علماء عصر النهضة ينظرون إليه نظرة مجرّدة من أي نقد بل واختصّوه بالقداسة التي كانوا يضفونها على كافة مؤلفات الكتّاب القدامى. وكان غورأبولّون قد درس الكتابة «المبهمة» بصورة مستفيضة ودون أدنى تردد نقل خصائصها المميّزة التي كان قد لحظها بصورة صحيحة وطبقها على الهيروغليفات. وخلال ذلك أطلق العنان «لأكثر التخيلات هذياناً» على حدّ تعبير ايرمان، عالم المصريات الألماني. فصورة الصقر، كانت وفق تفسيره تعني «الأم» حيث إن جنس الصقور لا يضم - برأيه - غير الإناث (!)، أما صورة الإوزّة فكانت تعني «الابن»، إذ إن الإوز أشد الحيوانات شغفاً بأبنائه! أو قال مثلاً بأنهم «لكي يعبّروا عن القوة كانوا يصوّرون قدمي الأسد الأماميتين إذ إنهما أشد أعضائه قوة» «ولكي يعبروا عن مفهوم» الإنسان القذر «كانوا يصوّرون خنزيراً إذ إن القذارة تكمن في طبيعة الخنازير». ومثل هذه المحاولات في التفسير تبدو ذات حظ وافر من الإقناع لكنها ذات حظ أوفر من الخطأ.

لقد شرح غورأبولون الهيروغليفات على أنها كتابة تصويرية فقط، لا بد وأن يتخذ كل رمز منفصل فيها مفهوماً مستقلاً.

ومهما يكن في الأمر من غرابة فإن تصوّرات غورأبولون بقيت حتى مطلع القرن التاسع عشر آخر صيحة للعلم في ذلك الميدان، وتطلّب الأمر تعاوناً خارقاً للعادة بين العقل والحدس من أجل إجلاء تلك الظلمات الخانقة التي بسطها غورأبولون فوق الهيروغليفات، ومن اجل تمزيق الستارة التي غطى بها وجه أبي الهول.

لكن الطَريق الى ذلك كان لا يزال بعيداً... فمصر، المركز الأقدم للحضارة، والتي ترتبط بالعرب بآلاف من الخيوط نراها تتفصل في وقت مبكّر نسبياً عن المجلس المسكوني المسيحي وعن الاتحاد الذي أقامته الإمبراطورية الرومانية. فمنذ عهد الإمبراطور الروماني الشرقي جوستنيان (527-565) انشق المسيحيون المصريون الناطقون بالقبطية بصورة جماعية عن الكنيسة الغربية «الماليكية» وانتقلوا الى الاعتقاد بوحدة الجسد حيث يسيطر الاعتقاد القائل بأولوية الطبيعة اللاهوتية للمسيح (أما طبيعته الناسوتية فكانوا ينظرون إليها على أنها ظاهرية) وبذلك قطع أقوى خيط كان يربط مصر بالغرب. ولهذا ليس غريباً أن العرب المسلمين الذين هاجموا مصر سنة 638 م بقيادة عمرو، قائد جيوش الخليفة عمر والذين ضموها إلى دولة العرب والإسلام العالمية، قد تمكنوا دون جهد من إخضاع البلاد التي كانت الخصومات الدينية قد مزقتها وخضّبت ترابها دماء الحروب الفارسية السابقة وانفصلت عن الغرب الروماني. لقد سقطت مصر (شأنها شأن سوريا وما بين النهرين) في أيدي العرب كثمرة سقطت من الشجرة[1]، وعندما هوت بقايا مكتبة الإسكندرية ذات الشهرة أثناء فتح الإسكندرية، عاصمة الحكماء القديمة وتحولت حطاماً، انسدل بين الشرق والغرب ستار كثيف لا يمكن اختراقه. فكل نشاط هادف إلى البحث - ولم يكن ذاك إلا نشاطاً زهيداً، وكل محاولة للنفاذ نحو أعماق البلاد واستنساخ النقوش، كانت تصطدم بمجموعها بخطورة مواجهة الجمهور المتعصب.

ولعل النقوش على الآثار استرعت أنظار العرب أكثر من مرة، غير أن تفاسيرها لم تكن تخرج عن حدود الأخيلة الخالية من المعنى. وتوجّهت وفود الحجاج المسيحيين نحو المشرق غير أنهم كانوا يبحثون عما يثبت أقاصيص التوراة، فرأوا في الأهرامات خزائن يوسف وفي هيليوبوليس - المخبأ الذي استراحت الأسرة المقدسة بداخله في طريقها الى مصر، أما العظام المبعثرة على شاطئ البحر فرأوا فيها بقايا فرعون وجنوده الذين غرقوا في ذلك المكان أثناء لحاقهم بموسى. أما النقوش التي كانت عاجزة عن الإفصاح بشيء يتعلق بالقصص التوراتي فكانت لا تلقى أي نصيب من الاهتمام.

1- ليست هذه النغمة جديدة في كثير من الأدبيات الأوروبية التي تحاول وضع ستار بين العرب وبين مصر وسوريا وغيرهما من الأقطار العربية وتتباكى على هاتين «المقاطعتين الرومانيتين!» اللتين كان فتحهما في واقع الحال تحريراً لهما من السيطرة الرومانية والفارسية. أما الخرافة التي تتهم العرب بتدمير مكتبة الإسكندرية فلم تعد قضية تصمد حتى للمناقشة (المترجم).

والحق يقال إن أي ستار مهما بلغ من الكثافة لن يتمكن من الاستمرار الى الأبد على درجة من السّماكة تجعل من المستحيل اختراقه. ومع كل هذا فقد استلزم الأمر مرور ما يقارب الألف عام قبل أن تهب النسمة القوية من الهواء النقي فتبدد الظلام الذي كان لا يزال يلف أبا الهول والأهرامات والمسلات والهيروغليفات.

فقد كانت روما تحتفظ بالكثير من الأسلاب كشواهد على ماضيها الألاق عندما كانت عاصمة الإمبراطورية، ومن بين الكنوز التي كان يقصدها الطلاب ودارسو العصور القديمة كانت هناك مجموعة من المسلات المحمولة من مصر لتزين المدينة الخالدة، وقد نقشت فوقها الرموز - الرسوم العجائبية. وبها بالذات ترتبط أول المحاولات المترددة للدراسة، دراسة المسلات والهيروغليفات الرومانية - تلك المحاولات التي لم تقدّم أيّ نتائج ولهذا نالت ما تستحق إذ أدرجت في طيات النسيان وليس لأصحابها أن يستوقفوا انتباهنا إلاّ بمقدار كونهم وضعوا مصر في مركز اهتمام الباحثين. لكن واحداً من بينهم ينفرد بمأثرة كبرى. إنه الجزويتي افاناسي كيرخير الذي تعرّض اسمه فيما بعد لكثير من القدح الظالم، غير أنه كان واضع حجر الأساس في علم المصريات.

لن يشعر المطّلع على تاريخ جمعية الجزويت وعلى النشاط العلمي لبعض ممثليها بدهشة كبيرة إذ يلاحظ انه وجد هناك أيضاً، في حقل المصريات، مكان لواحد من أعضاء الجمعية وهو أفاناسي كيرخير - الابن الحقيقي لعصره، للقرن السابع عشر، لذلك العصر الزاخر بالمتناقضات الصارخة والبحوث الدّائبة والتطلعات الجريئة، والذي شهدت بدايته بيكون وكيبلر وغاليلي وشهد منتصفه ديكارت وباسكال واستارت خاتمته بأسماء ليبنيتس ونيوتن. وقد كان ليبنيتس نفسه، وليس شخصاً آخر، هو الذي أكد حق كيرخير في أن يوضع اسمه الى جانب أسمائهم؛ فقد كتب الى كيرخير في 16 أيار (مايو) سنة 1670 قائلاً:

«وفيما تبقى أتمنى لك، يا من تستحق الخلود - وبالقدر الذي يوهب لبني الإنسان، واسمك يمثّل تأكيداً سعيداً لذلك - خلوداً في شيخوخة حيّة زاخرة بطاقات الشباب»[1].

فما هو الطريق الذي انتهى الى دراسة المصريات بابن الدكتور كيرخير، مستشار الكاهن الأميري بالتازار فولْد والموظف من مدينة هازيلشتاين وما الذي أوصله الى هذا الطريق؟

سلفت الإشارة الى أن «أفاناسي» تعني «الخالد» وبهذا الاسم سمّي أيضاً القديس، بطريرك الإسكندرية الأعظم الذي اشتهرت مصر المسيحية بأعماله وكانت مصر في ذلك

1- أفاناسي - اسم يوناني ويعني «الخالد».

الوقت البلاد التي تثير اهتماماً كبيراً من قبل مبشّري جمعية المسيح. وهكذا فإن الطالب الفتي لم يبعد من أمام ناظريه المثل الأعلى المتجسّد في القديس الذي منحه اسمه، والطريف أن مصر المسيحية هي التي قدمت إليه المفتاح الأول نحو سبر تلك الأسرار التي اكتشفها علم المصريات بصورة نهائية فيما بعد.

تم اللقاء الأول والحاسم بين كيرخير ومصر في شبيير.

الشكل -14- أفاناسي كيرخير

كان ذلك عام 1628 وكان كيرخير قد نال المرتبة الكهنوتية فأوفدته الرئاسة لقضاء سنة واحدة «تحت الاختبار» في شبيير حيث كان عليه أن ينصرف الى التأملات الروحية وهو منزو لنفسه. وحدث مرة أن عهدوا إليه بالبحث عن أحد الكتب فقلب الشاب المكتبة بأسرها لكنه لم يجد ضالته. غير أنه عثر بين كنوز المكتبة على مجلّد مزين بلوحات جميلة، وكانت اللوحات البديعة تمثل المسلات المصرية التي كان البابا سيكست الخامس قد أمر بإرسالها الى روما رغم التكاليف الباهظة. واستقرت أنظار كيرخير خاصة على الصور العجيبة التي كانت تغطي حوالي تلك الأعمدة الهائلة من أعلاها إلى أسفلها. وفي بادئ أمره فسّر تلك الرسوم المدهشة على أنها صور تلقائية نقشتها أصابع الحجّارين كزخارف عادية، إلا أن النص المؤلّف الذي استغرق الباحث منذ اللحظة الأولى، سرعان ما أخرجه من ذلك التيه. فقد كان مسطوراً هناك بصورة غاية في الوضوح إن حكمة قدماء المصريين قد صيغت في هذه الرموز الهيروغليفية الغامضة وأنها نقشت في الحجر لكي يتخذ الجميع منها العبرة. بيد أن مفتاح فهم تلك الكتابة الغامضة كان قد ضاع منذ زمن بعيد ولم يتأتَّ لأي إنسان من البشر الفانين أن يفتح ذلك الكتاب المختوم بأختام سبعة.

إذ ذاك اشتعلت روح باحث المستقبل بالرغبة في فك رموز الهيروغليفات وقراءة النصوص وترجمتها. وتجرأ على الإمساك بالنصوص والبدء بالترجمة ونشر ما توصل إليه دون أن تكون

لديه تلك المنطلقات الأولية المعروفة في مفاهيمنا الحالية، ودون أن يتسلّح بذلك الحذر الذي يعتبر في أيامنا الحاضرة القانون الفولاذي لأي عمل علمي.

ونعرض فيما يلي أنموذجاً من ترجمته «*Sphinx mystagogica*»

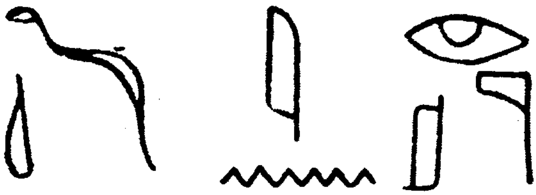

الشكل -15- dd - jn W sjr «اوزيريس يقول»

لقد فسّر كيرخير هذه الهيروغليفات بما يلي: «عودة كل شيء الى الحياة بعد الانتصار على التيفون، رطوبة الطبيعة بفضل يقظة انوبيس» (عن إ. فردريك) ومن السهل على أي شخص غير متخصص أن يدرك الكيفية التي توصل كيرخير بها إلى هذه الترجمة: فـ «رطوبة الطبيعة» استمدها من الخط المتموّج الذي يعني في الحقيقة «الماء» أما «يقظة انوبيس» فارتبطت في تصوّره بصورة العين. وهو في مكان آخر يترجم بواسطة جمل كاملة، اللقب الملكي الروماني - اليوناني «اوتوكرات» («الحاكم المطلق») المكتوب برموز مصرية؛ ومن المهم أن نذكر أنه يستحيل قبول مثل هذا التفسير مهما اشتدت الرغبة إلى ذلك.

«اوزيريس» واهب الخصب وكل النبات، والذي ينزّل القديس موفّقا قوته الخلاّقة من السماء الى الأرض.

«هراء» - هكذا وبكل حق وُصفت الترجمات التي وضعها كيرخير. لكن أولئك الذين تحدثوا بنزق تجاوز الحدود، عن «جراءته العديمة النظير» اسقطوا من الحسبان إلى أي درجة كان على كيرخير أن يلجأ الى «الأفكار الهذيانية» التي جاء بها غورأبولون، مستجيباً في ذلك للمثل الأعلى لعصره، وأسقطوا أيضاً أن خيالاته غير المقبولة لم تكن متجاوبة فقط مع التمجيد الغيبي لكل ما كان يمت بصلة الى الماضي البعيد الذي اختفى بل ومع الميول المَرَضية التي كانت سائدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر نحو الرموز والتشابيه المصطنعة[1]، والحق أنه كان بالإمكان أن نقرأ لدى كليمنت الإسكندراني أن

1- يتضح مدى اقتراب أذواق ذلك العصر من غورأبّولون ورموزه وتخريجاته ومدى استمرار تأثيره من حقيقة أن البيرت دورير بنفسه قام بوضع الرسوم التمهيدية (لقوس النصر العائد للإمبراطور ماكسيميليان) وكان مطلوباً منها أن تتجاوب مع الرموز الهيروغليفية التي وضعها غورابولون وعلى الرغم من القيمة الفنية لتلك الرسوم فإنها لا تشبه بأي حال الهيروغليفات المصرية وهي محفوظة حالياً في متحف التاريخ بفيينا.

الهيروغليفات كانت تتضمن حروفاً بسيطة إلى جانب الكلمات - الرموز، غير أنه لم يكن هناك أي ميل لتصديق ذلك في أيام كيرخير بل وقد كان هو يعلن بصورة لا هوادة فيها بأن «الهيروغليفات» مجرد رموز وإذا كانت الترجمة اليونانية فوق المسلّة (وقد وجدت إحدى هذه الترجمات) لا تتضمن شيئاً عميق المعنى فهي ترجمة غير صحيحة.

وعلى الرغم من كل هذا فإن أفاناسي كيرخير ترك للأجيال شيئاً ذا أهمية في هذا المضمار (أما كشوفاته العلمية الأخرى فحظيت بالاعتراف).

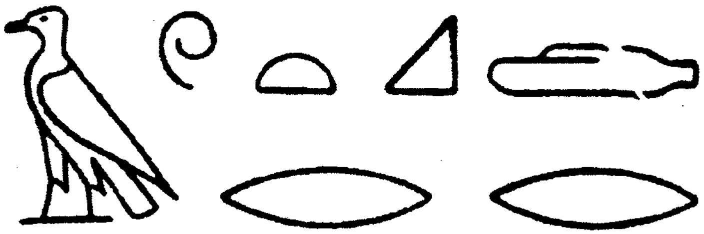

الشكل -16- اللقب الإمبراطوري«اوتوكرات» مكتوباً بالهيروغليفيات.

فقد كان أول من بيّن وبصورة محدّدة (في البحث الذي نشره في روما سنة 1643) إن اللغة القبطية التي كانت في ذلك الوقت لغة المسيحيين المصريين المائلة نحو الاندثار - هي اللغة الشعبية المصرية القديمة، ولم تكن تلك الحقيقية تعدُّ في ذلك الوقت أمراً مسلماً بل وكانت في ذلك الوقت وبعده عرضة للنقد بل وللتسفيه من طرف عدد من العلماء الذائعي الصيت. وكان كيرخير مديناً في المواد الأساسية لدراساته في حقل اللغة القبطية لعلاقاته الوثيقة بالدعوة الطائفية الرومانية في إدارة الإرساليات البابوية العليا حيث كانت تتلاقى خيوط الإدارة الخاصة بشبكة عريضة من المبشرين المنتشرين في مختلف أصقاع الأرض. وقد نشر كيرخير مُعجما قبطياً بل وكتاباً في قواعد القبطية وبهذا ساعد إلى حدّ بعيد على إثارة الاهتمام بهذه اللغة الشعبية القديمة. وبقيت دراساته نقطة الانطلاق بالنسبة لكافة الباحثين في حقل الفيلولوجيا القبطية على مدار قرنين من الزمن.

وفي ذلك تجسدت مأثرة كيرخير التي لا سبيل الى مناقشتها. إذ إن شامبليون الذي قام بفك رموز الهيروغليفات والذي صار النموذج الكلاسيكي لقارئ الرموز القديمة قد انطلق، وهو لا يزال طفلاً بعد، من ذلك الاكتشاف وبلغ من إتقانه للغة القبطية أنها صارت لغة قومية ثانية بالنسبة له كما صارت المفتاح الأهم لنشاطه كقارئ للرموز.

وبالإضافة إلى هذا فإن أفاناسي كيرخير، سُبق بواحد على الأقل من «دارسي القبطيات» وكان هو الرحالة الإيطالي بيترو ديلاّ فالّي وكان كيرخير قد تلقى كتابه الذي

وضعه في قواعد القبطية ومعجمها عن طريق صديق قديم. وسوف نلتقي بذلك الرجل المتعدد المواهب في الفصل التالي.

والحق أن أفاناسي كيرخير لم يصبح «الأوديب المصري» الذي انتزع، على نحو ما يزعمون، السرّ من بين شفتي أبي الهول بعد آلاف من سني الصمت، وهو ما كان يطمح أن يكونه (وقد أسمى واحداً من كتبه بذلك الاسم) إذ كان يرى نفسه صنواً لأوديب منطلقاً من التصور الأسطوري اليوناني له. إلا أننا إذا ضربنا صفحاً عن دراساته المتشعبة الاتجاهات (ويبدو أن أهمها هي دراسة *Laterna magica*) فإنه كان بالإضافة الى ذلك يهتم بقضايا الكتابة. فقد اخترع كتابة مشتركة للصم - البكم ووضع، بالإضافة الى ذلك - مشروعاً للكتابة العالميّة يستطيع كل إنسان بواسطتها أن يدوّن أفكاره كما تستطيع جميع شعوب الأرض قراءتها، كلٌّ بلغته الخاصة! أيكون بهذا سابقاً لكاريل يانسون والبروفيسور ايكارت؟ لم لا! ربما. وهذان بدورهما كانا التابعين اللاحقين لجميع أولئك العلماء الذين كرسوا جهودهم لتخليص البشرية من لعنة الفوضى اللغوية الشاملة، والتحرر من تلك البلبلة البابلية بواسطة الكتابة العالمية، ولنكتف في هذه العجالة بذكر رايموند لول وتريفيمي ثم ليبنيتس نفسه ولنذكر من بين المتأخرين غيورغ فريدريك غروتيفيند الذي فكّ رموز اسفينات الكتابة الفارسية القديمة.

وهكذا فإن فكّ رموز الهيروغليفات وقراءتها لم يكسبا شيئاً من أبحاث كيرخير. فقد كان هو نفسه مسحوراً بجاذبية غورأبّولون التي ستظل مسيطرة على الأذهان فترة طويلة من بعده.

ومن جديد يطبق الظلام فيلف الطريق الى فك الرموز الهيروغليفية. وليس من حقنا أن ننكر أن بعضاً من الحزم الضوئية تمكّن من النفاذ عبر هذا الظلام في القرن الثامن عشر وذلك مع الانطلاقة الكبرى لعلم الاستشراق. فالأسقف الإنكليزي الناشط ويليام ووربيرتون، وهو أكبر خصوم فولتير، تقدم سنة 1740 بفرضية (تعاكس الآراء التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت) وتقول بأن الهيروغليفات ليست مجرد إيديوغرامات بل إن النصوص الهيروغليفية لا تتضمن محتوى دينياً فقط بل وعناصر لفظية أيضاً، أما النصوص فربما احتوت على مضامين حتى من الحياة اليومية. كما لمس ذلك المضمون اللفظي للهيروغليفيات القسيس الفرنسي بارتيليمي المؤلف المشهور لـ «رحلة أناخارسيس الشاب الى اليونان» وكان قد عمل شخصياً وبصورة مستقلة على حل رموز الهيروغليفات، كما حدس بذلك المؤرخ والمستشرق جوزيف دي غين (الكبير) الذي قال في تقريره أمام أكاديمية النقوش الفرنسية في 14 تشرين الثاني سنة 1756 بأن الصينيين - مستعمرون مصريون.

إلا أن دي غين استطاع بالإضافة إلى ذلك أن يقرأ اسم «مينيس» الملكي المنقوش بالهيروغليفيات وقد أوسعه أحد زملائه نقداً وتجريحاً وتقدّم بقراءته الخاطئة للاسم بلفظة «مانوف» وأثارت هذه المساجلة التقريعية الساخر الأعظم فولتير الذي لاحظ هازئاً أن الحروف الصائتة لدى جميع الأخوة الايتيمولوجيين (مؤرخي اللغات والأخصائيين في ميدان الدراسات اللغوية المقارنة) لا تدخل في الحسبان أما السواكن فلا شأن لهم بها. وقد أشار إلى الطابع الصوتي للهيروغليفيات أيضاً كل من تيخسين وسْوِيغ.

هذه الأفكار الصائبة كانت تمثل بمجموعها البراعم الوحيدة في خضم تلك الأحراج الكثيفة من طفيليات الفرضيات العديمة الأسس التي تكاثر عددها بصفة خاصة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر واجتذبت إليها أنظار الكثيرين.

سبق أن أشرنا إلى أن الفرنسي دي غين أعلن الصينيين مستعمرين مصريين. غير أن الإنكليز سرعان ما تقدموا إلى الصفوف الأولى وعكسوا الآية فأجبروا المصريين على الخروج من الصين بينما بقيت أكاليل الغار على هامات «الكشافة الأوائل» تقض مضاجع الروس الى أن «برهن» كوخ، مستشار البلاط في بطرسبرج، على أن قدماء المصريين كانوا يستعملون أبجديات خمساً لا تزيد ولا تنقص. ولم تتوقف هذه الأخيلة الهذيانية ومثيلاتها عن الظهور حتى وعندما أنجزت الخطوات الملموسة الأولى نحو قراءة الرموز. وفي كل حين كان يطوف الشيطان المجرّب ليغوي ضحاياه بالهيروغليفيات، فكانت تستنبط من نصوصها الغيبيات الابيقورية والتعاليم السحرية والغيبية والفلكية والغنوصية السرية والإرشادات العملية المتعلقة بالزراعة ومقاطع كاملة من التوراة بل وآداب ما قبل الطوفان.

وبين الفينة والفينة كانت اللغة الصينية تغطي بضبابها العقول. بل لقد استنبط أحدهم، وهو الكونت بالين، وصفةً طريفة إذ قال: خذوا مزامير داوود وترجموها الى الصينية الحديثة ثم اكتبوها برموز الكتابة الصينية القديمة، تتحصلوا على نسخة من البرديات المصرية. فهل يحق لنا أن نستغرب بعد ذلك توصُّل ذلك الكونت إلى «النتائج الباهرة»، فما أن يُلقي نظرة على حجر رشيد الشهير الذي سنتناوله بالحديث بعد حين حتى «ينفذ الى أعماقه من أول نظرة» معتمداً في ذلك على غورأبولون وعلى تعاليم أبيقور. وعلى أيّ حال فقد كان على ذلك الكونت أن يمضي ليلاً بكامله في سبيل ترجمة جزء من ذلك النقش، ونشرها سنة 1824 في دريسدن. وهو يشير الى أن من الخطل إتعاب الرأس فمن المستحيل بغير منهجه التسارعي «حماية الذات من الأخطاء المنهجية التي لا تنجم إلا عن التفكير المتطاول الأمد...».

ويبدي الراهب توندو دي سان - نيكولا رأيه في ذلك بقوله: «يا للهراء!» فما الذي يستحق التفكير إذا كان من الواضح من دونه وضوح النهار أن الهيروغليفات مجرد زخارف وتزيينات بسيطة.

ولم يكتم بعض القارئين المجهولين النتائج التي توصلوا إليها. فقد تحايل أحد الدارسين في باريس حتى وضع يده على المزمور المئوي في نقش على أحد المعابد في دينديرة. وهكذا «أقيمت الحجة» على أن للهيروغليفيات علاقة بالعهد القديم!

بيد أنهم قطعوا مرحلة أبعد في جنيف حيث صدرت ترجمة لنقش المسلة المسماة بمسلة بامفيلي في روما، تلك الترجمة التي ظهرت فجأة أمام أعين المعاصرين المبهورة: كـ «إعلان عن انتصار أرواح الخير على أرواح الشر، منقوش قبل أربع آلاف سنة من ميلاد المسيح»!

كان من الطبيعي أن تغرق أصوات الباحثين المتعمقين في ذلك الفيض من شبه العلمية. وقد سلفت الإشارة الى أن بعض العلماء ارتابوا بوجود الطابع الصوتي للهيروغليفيات إلا أنهم كثيراً ما كانوا يعمدون، وحتى في الدراسات المتخصصة، إلى إغفال الإشارات الغنية بالثمار، والتي قدّمها كارستين نيبور، بحاثة جزيرة العرب العبقري، الذي أسس قواعد دراسة الكتابة الأسفينية. ففي عامي 1761-1762 اضطر نيبور للإقامة شهوراً عديدة في القاهرة. وعلى أيّ حال فقد تمكن من ترويض نفسه على الانتظار لكن لا على الخمول. فالضرورة ولّدت عملاً طيباً - إذ راح يصوّر جميع المنقوشات الهيروغليفية التي أتيحت له. ويحدثنا بأن ذلك أثار عنده «القرف والسأم» بادئ الأمر. لكنه يواصل حديثه قائلاً بأن «الهيروغليفات سرعان ما غدت مألوفة بالنسبة لي إلى درجة أنني صرت قادراً على نسخها مثلما أنسخ الكتابة الأبجدية، وصار ذلك العمل بالنسبة لي مصدر متعة».

وصار نيبور ينظر الى الآثار نظرة جديدة وقد أشار الى الفرق الواضح بين «الرموز الكتابية الأكبر» و «الرموز الكتابية الأصغر» وقرر أن «الكبرى فقط يمكن أن تكون رموزاً» أما الصغرى فكان دورها أن تقدّم تفاسير ومعاني «للرموز الكبرى» وهي كثيراً ما تحمل «الملامح الواضحة للحروف الأبجدية» فإذا صحّ هذا كان بإمكاننا أن نبدأ فك تلك الرموز بمساعدة اللغة القبطية.

ويقدم كارستين نيبور بعد ذلك ملاحظته الدقيقة الثانية التي لم تلق الاهتمام المطلوب في بادئ أمرها. فقد اكتشف أن عدد الهيروغليفات غير كبير من الناحية النسبية. فإذا كان الأمر كذلك كان من الصعب النظر إلى الكتابة المصرية على أنها بصورة كلية كتابة إيديوغرافية، أي كتابة تختص كل كلمة برمز خاص.

على أساس هاتين الملاحظتين العبقريتين اللتين نثرتا «على الهامش» يمكن أن نعدّ نيبور واحداً ممن وضعوا الأساس لفك رموز الكتابة المصرية على الرغم من أن شهرته ترتبط بقراءة رموز الإسفينات.

الشكل -17- غوتفريد ويلهيلم ليبنيتس

وعلى هذا كان هناك السخف والحشو الفارغ من جهة ومن جهة أخرى كانت الفرضيات الذكية التي تنتظر البراهين - ذاك كان وضع علم المصريات في مرحلته الوليدة الأولى عندما سقط في يده (وفي مرحلة كانت أبعد ما تكون عن التوقع) مفتاح فك الرموز. وحدث ذلك في ظروف وضعت الحكمة القائلة «عندما تتحدث المدافع تصمت ربات الفن» موضع الشك.

فحجر رشيد لم يسقط من السماء كما يقولون. والأحداث التي سبقت ميلاده الثاني يمكن أن تؤلف بنفسها صفحة من التاريخ. أما من فتح هذه الصفحة فلم يكن نابليون، على نحو ما هو مأثور، بل ليبنيتس!

فليبنيتس لم يكن فيلسوفاً عظيماً فقط بل وشخصية سياسية مرموقة. وقد دفعه حدسه السياسي خلال زيارته لباريس عام 1675 الى أن يكتب للملك لويس الرابع عشر، وكان يرغب في صرف مطامعه عن ألمانيا، مؤلَّفه المسمّى «*Consilium Aegyptiacum*» والذي أشار فيه الى أن احتلال مصر سيهيئ للملك الفرنسي وضعاً سيادياً في أوروبا.

وكان هذا التقرير موجهاً للملك لويس الرابع عشر، الحاكم بإرادة الله، ولم يكن ليبنيتس يحسب أن فكرته ستحظى ذات يوم بعطف خاص من جنرال جريء يغدو إمبراطوراً بعد ذلك. ويشير كبار المؤرخين الفرنسيين الى أن نابليون كان على علم بتقرير ليبنيتس عندما تحدث سنة 1798، وفي قاعة اجتماعات المعهد الفرنسي الى نخبة من العلماء عن الكشوفات العلمية الممكنة التي كان يربط بينها وبين حملته المرتقبة على مصر. وبعد أن

عرض بكل احترام الأفكار الرئيسية المطروحة في دراسة ليبنيتس انتقل الى الكتاب الثاني وكان الترجمة الفرنسية لـ «رحلة في بلاد العرب» لنيبور في مجلدين.

باءت حملة نابليون على مصر بالفشل وتبخرت أحلام الكورسيكي في السيطرة على تلك البلاد لكن العلم تلقى خلال تلك الحملة صيداً ثميناً تجاوز كل التوقعات.

أما جوهرة تلك الأسلاب فقد تم العثور عليها في الثاني من فروكتيدور السنة السابعة للثورة (2 آب سنة 1799).

حدث ذلك قبيل «هروب نابليون من مصر» فقد كان ضغط القوات البحرية الإنكليزية يتزايد قوة. وبعد الانتصارات الباهرة التي حققتها القوات الفرنسية في بداية الحملة وجدت نفسها مطوقة محصورة، إلا أنها كانت لا تزال تسيطر على الساحل المصري وتصد بضراوة، وليس دون نجاح، هجمات الإنكليز في البحر والأتراك المهاجمين من الجنوب.

وفي قلعة رشيد القديمة، والتي أصبحت تسمى بقلعة جوليان فيما بعد، وعلى بعد سبعة كيلو مترات تقريباً عن رشيد في دلتا النيل، أمر ضابط العمليات بوشار جنوده بحفر الخنادق. وفجأة رن صوت إحدى المعازق، وارتدت إلى الخلف وقد اصطدمت بشيء ما قاس. لقد حررت الأرض من إسارها شيئاً غريب الشكل: كان قطعة من البازلت الأسود رقشت حتى آخر نقطة فيها برموز كتابية.

لعل نظرات ذلك الجندي العربي المجهول قد تسمّرت فوق اللقية المفاجئة بكل حيرة، ولعل رفاقه الذين استدعوا قد تجمهروا يجيلون فيها نظراتهم وقد غمرهم رعب خرافي، وعلى أيّ حال فإن واحداً منهم هرع الى القيادة وأبلغ عن الحادث.

كان الضباط الفرنسيون قد تلقوا من العلوم ما يزيد قليلاً عن حدود الإشراف على الأعمال الهندسية. وبفضل نفاذ بصيرة نابليون لم يكن جيشه يعاني من النقص في عدد القادرين على الأقل على قراءة جزء من تلك المنقوشة الموضوعة باللغة اليونانية. كانت تتضمن مرسوماً صدر بتاريخ 4 كسانديك - 18 ميهير السنة التاسعة (الموافق لـ 27 من أيار سنة 196 قبل الميلاد) يُقر فيه سدنة مدينة منفيس بمضاعفة فروض الولاء التي تقدّم في المعابد المصرية للملك وأحفاده، وذلك عرفاناً بالأعمال الخيرّة التي قدمها الملك بطليموس الخامس ابيفان.

من النظرة الأولى كان بالإمكان الجزم بأن الكتابة العليا بين الكتابات الثلاث مؤلفة من الهيروغليفات وأن الدنيا من بينها مكتوبة بالحرف اليوناني. أما ما يخص الكتابة المتوسطة - الديموطيقية - فإنهم لم يعرفوا بادئ الأمر من أي طرف يُبدأ بها واعتبروها خطأ كتابة سريانية.

وضع الفرنسيون في الحسبان المعنى التاريخي الأصيل لهذه اللقية الفريدة من نوعها. وظهرت الإخبارية المتعلقة بها في العدد السابع والثلاثين من «*Courier de L'Egypte*» بتاريخ 29 فروكتيدور من السنة السابعة؛ وقد لقيت تلك الوثيقة صدى خارقاً للعادة وصارت كلاسيكية بحد ذاتها.

وطبقاً للشكليات المعهودة بالنسبة لعهود البطالمة تحدد أن يكون مرسوم رشيد قد نقش فوق الحجر التذكاري «بالحروف المقدسة وبالمحلية والهيلينية» بلغات البلاد الثلاث: المصرية القديمة، لغة الآداب القديمة التي اندثرت منذ زمن بعيد بالمصرية الحديثة الحيّة، ثم باللغة اليونانية.

يبدو هذا الأمر معقداً الى حدّ ما. إلا أنه يبدو طبيعياً ومفهوماً إذا ما قارناه بعهود أحدث عهداً. ويقدم عالم المصريات الألماني الشهير غيورغ ايبيرس هذه المقارنة البالغة الدقة إذ يقول:

لنتصوّر بدلاً عن مصر في تلك الأزمنة منطقة إيطالية خاضعة للمملكة النمساوية[1]. ولنفترض أن الهيئة الروحية اتخذت قراراً ما يتعلق بالبلاط الإمبراطوري؛ إذ ذاك لا بدّ وأن يصدر، حسب أقرب الاحتمالات، باللغة القديمة للكنيسة الكاثوليكية - باللاتينية ثم بالإيطالية وبالألمانية - لغة البيت المالك وموظفيه. على هذا النحو بالذات وضع مرسوم رشيد ... «وتكتمل صورة المقارنة إذا ما عززنا تصوّرنا للنص اللاتيني وقد خطّ بالحروف الكبيرة فقط[2] والإيطالي بالحرف الكتابي العادي والألماني بالخط الغوطي».

وهكذا فقد استخرج الحجر وحدد طابع الكتابات الثلاث بل وكانت إحداها مترجمة، لقد عثر على تلك الثنائية التي كانت تنتظر بفارغ الصبر بل ولقد كانت ثلاثية اللغات. فهل يعني هذا أن طريقاً مباشراً قد تم شقه نحو الدراسة وفك الرموز؟ لا، إن الأمور لم تكن بهذا البساطة.

نقل الحجر بادئ الأمر الى القاهرة، الى المعهد المصري الذي كان قد أسسه نابليون، وبدأ العلماء الفرنسيون بإعداد صور من تلك النقوش وبتحضير النسخ ثم بإرسالها إلى فرنسا وكأنهم كانوا يحدسون مسبقاً بفقدان الحجر. ونقل الحجر بعد ذلك إلى الإسكندرية ووضع هناك في منزل القائد العام الفرنسي مينو. لكن الإنكليز قاموا سنة 1801 بإنزال

1- بقيت إيطاليا خاضعة للتاج النمساوي فترة طويلة من العصور الوسطى (المترجم).

2- ظلت اللاتينية ردحا طويلاً من الزمن تكتب بالحروف الكبيرة فقط ودون وجود فواصل بين مفرداتها (المترجم).

جيوشهم في مصر فكان على مينو أن يستسلم. وكان قرار الاستسلام ينص في بند خاص منه على أن يسلّم الفرنسيون للإنكليز جميع القطع الأثرية التي عثروا عليها في حوض النيل خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة. أما حجر رشيد الذي كانت تتعلق به أرواح الفرنسيين الذين عثروا عليه والذي كان يعرف قيمته كل من الطرفين فإن المهزومين حاولوا أن يحتفظوا به لأنفسهم فأعلنوه ملكية خاصة للجنرال مينو لا تخضع لشروط الاستسلام. إلا أن القائد الأعلى الإنكليزي اللورد هاتشينسون أصَّر على تسليم الحجر «باندفاع خاص حيث إن القضية كانت ذات مساس بالعلم» وهكذا وتحت وابل من العبارات الجارحة من قبل الضباط الفرنسيين المتجمهرين أصدر تيرنير، مفوض القائد هاتشينسون أمره بإرسال الأثر الذي لا يقدّر بثمن. وفي سنة 1802 تم إيصاله الى بورتسموت ثم جرى نقله بعد ذلك الى المتحف البريطاني «حيث من المأمول أن يستقر فترة طويلة... مفخرة أسلاب السلاح البريطاني، الذي لم يؤخذ عن طريق نهب السكان العزل من السلاح، بل عنوة في حرب شريفة» بهذه الكلمات ينتهي تقرير تيرنير.

مفخرة أسلاب السلاح البريطاني... ولكن، يا للأسف، فإن الانتصار الروحي على الحجر المجلل بالنقوش لم يكن بمستطاع السلاح البريطاني، فالقدر - ذلك القدر العادل في أنظار الفرنسيين - كان يخبئ ذلك النصر للفرنسي جان - فرانسوا شامبليون على الرغم من الكشوفات الواعدة بالكثير التي قام بها الباحث الإنكليزي توماس يونغ.

لكن نسخة من النقوش فوق الحجر كانت قد وصلت الى الوزير شابتال قبل أن يبدأ كل من يونغ أو شامبليون نشاطه. فقام الوزير بتسليم النسخة الى المستشرق الباريسي الشهير والمرموق سيلفيستر دي ساسي، وكأن عالماً عالمي الصيت، وقد صار بفضل نشاطه الأكاديمي والتربوي مؤسس مدرسة المستشرقين لا في فرنسا وحدها بل وفي البلدان المجاورة. وقد لفت دي ساسي إليه الأنظار كقارئ للرموز القديمة أيضاً. إذ أتيح له أن ينتقي المفتاح المناسب لقراءة البهلوية - لغة الفرس وكتابتهم في العهد الوسيط. غير أنه ألفى نفسه عاجزاً أمام نسخ حجر رشيد. فقد استطاع أن يحدّد في النص الديموطيقي ثلاث مجموعات فقط من الرموز التي كانت مطابقة لأسماء تكرر وجودها في الشطر اليوناني، وهي بطليموس، الكسندر، الإسكندرية، ارسينوي وايبيفان. إلا أن فرضياته المتعلقة بالتطابق بين رموز الكتابة الديموطيقية والحروف اليونانية لم تثبت صحتها.

كان سيلفيستر دي ساسي عالماً كبيراً وكان إنساناً كبيراً أيضاً. وقد اعترف في رسالته إلى شابتال بكل صراحة بعجزه عن قراءة النصوص وأرسل النسخة إلى عالم الآثار

السويدي دافيد اوكيربلاد، ذلك العالم الهاوي الشهير الذي سبق له أن أقام في بلاد الشرق كدبلوماسي وكان في تلك الفترة مقيماً في باريس بهدف زيادة معلوماته. وكان منصرفاً في الأساس لدراسة اللغة القبطية فاندفع بكل حماس للعمل على دراسة النسخة التي أرسلت إليه وبالإضافة إلى ذلك كان بحوزته نسخة للمنقوشة صُبّت من الجبس. وقد وقع في خطأ دي ساسي إذ نظر إلى الكتابة الديموطيقية على أنها كتابة أبجدية فَحسِبَ أن بالإمكان، بناء على ذلك، قراءتها بسرعة أكثر من قراءة الهيروغليفات (ولا سيما وأن القسم الهيروغليفي من النص كان معطوباً بشدّة) وكان اوكيربلاد خبيراً في الفيلولوجيا الكلاسيكية والشرقية وقد حالفه التوفيق! ففي الشطر الديموطيقي نجح في التعرف على جميع أسماء الأعلام الواردة في النص اليوناني وقراءتها.

وقام بعد ذلك بتوزيع الأسماء اليونانية المكتوبة بالرموز الديموطيقية إلى أحرف متفرقة فتحصل على أبجدية من 16 حرفاً داخلة في هذه الأسماء (وقد ميّز غالبية هذه الأحرف بصورة صحيحة). إذ ذاك لاحظ أن تلك الرموز تظهر نفسها خارج حدود أسماء الأعلام. وأدرك فجأة، وقد سيطرت عليه الدهشة والفرح، أن بإمكانه أن يحلل إلى العناصر الحرفية مفردات مألوفة جيداً بالنسبة له في اللغة القبطية. فقرأ في أحد الأماكن كلمة «يرفيوئي» («معبد») وفي مكان آخر كلمة «وينين» («اليونانيون») بل واستطاع أن يتعرف في نهايات عدد من الكلمات المكتوبة بالديموطيقية على رمز (*f*) الذي يستخدم في النهاية الإعرابية للشخص الثالث ويعبّر في اللغة القبطية عن ضمير «هو» أو «خاصته» (والكتابة القبطية التي تمثل صورة من صور اليونانية قد استعارت، كما هو معروف بالنسبة لنا حالياً، بعض رموز الديموطيقية)

ومن المحتمل أن يكون العالم السويدي قد التفت في بعض الأحيان وخلال مسيرة البحث، إلى النص الهيروغليفي لمدونة رشيد وقد لحظ مرة أن الحديث في النص اليوناني يدور حول المعبد «الأول» و «الثاني» و «الثالث» وكان الشطر الهيروغليفي المطابق لذلك يتضمن خطاً بسيطاً واحداً فخطين فثلاثة خطوط مع إشارة فوقها. وهكذا حدّد الهيروغليفات التي تعني الأعداد الترتيبية «الأول» و «الثاني» و «الثالث».

هذه البداية المبشرّة بأفضل الأماني في كشف سر حجر رشيد أنجزها العالم السويدي خلال فترة وجيزة جداً فمهد طريق الوصول إلى الكتابة الديموطيقية بفضل «أبجديته» وبذلك وضع الأساس نحو فك رموز تلك الكتابة، لكن عالمين حالا بينه وبين مواصلة التقدم في ذلك الطريق. وكان اسماهما دي ساسي و... اوكيربلاد.

أجل، أجل، فقبل كل شيء كان هو من قطع على نفسه أي طريق للتقدم نحو الأمام وذلك بإلحاحه على الطابع الأبجدي للكتابة الديموطيقية. كما تجاهل، شأن دي ساسي، حقيقة إهمال الأحرف الصوتيّة (وقد سلفت الإشارة إلى أن الأحرف الصوتية في اللغة المصرية، كما هو الأمر في جميع اللغات السامية، لا تكتب) خاصة وانه لم يستطع التعرف على الرموز المحدّدة (الخرساء!) الكثيرة العدد. وهكذا فإن أبجديته كانت ملائمة فقط لقراءة تلك الأسماء التي استنبطت منها تلك الأبجدية.

ومع كل هذا يتراءى لنا أنه كان من شأن اوكيربلاد أن يواصل دراساته لو لم تؤد إدانة دي ساسي إلى تصفية طموحاته. فقد تقدم اوكيربلاد بعرض نتائج اكتشافاته على المستشرق الكبير بصورة خطية. وفي رسالة الرد التي كتبها دي ساسي، وكان هو الذي سبق وأناط به ذلك العمل، أبدى، وبصفة بالغة اللباقة، شكوكه العميقة في النجاحات الإبداعية لمراسله، وهو ما ترك تأثيراً سلبياً كبيراً على السويدي المرهف الإحساس. ومن المحتمل أن دي ساسي وقد تذكر بمرارة أبحاثه الحديثة العهد التي لم تتوفر لديه الشجاعة للاعتراف بلا جدواها، أخذ ينظر بشيء من الغيرة إلى محاولات العالم السويدي. ومهما يكن فإن دافيد اوكيربلاد، أحس بحسرة شديدة جرّاء إنكار الجهات الرسمية لجهوده، ولم تكن معاناته النفسية أقل حدة بسبب ما شجر من خلاف بينه وبين حكومته التي كان قد خدمها بصورة رائعة كدبلوماسي ثم راح يبتعد عنها بسبب حبه المتقد لروما وبسبب مبادئه السياسية. وقد نسيته بلاده إلى درجة أن محاولات هيرمين هارتليبين، المؤلف الألماني لسيرة حياة شامبليون، في الحصول على صورة لاوكيربلاد منذ خمسين عاماً قد باءت بالفشل على الرغم من مؤازرة الحكومة السويدية له في ذلك.

وعلى هذا يكون دي ساسي قد قطع، وربما كان على غير رغبة منه، الخيط الذي كان اوكيربلاد قد فرغ من مدّه، وبدءاً من سنة 1802 بدأ الصمت من جديد يلف الحجر الثلاثي اللغات تقطعه بين الفينة والفينة صرخات ثاقبة للآذان يطلقها بعض الهواة. وهكذا فإن أحداً لم يزعج هدوء الحسناء النائمة حتى سنة 1814.

في ذلك العام قام توماس يونغ، عالم الطبيعيات الإنكليزي الشهير، بزيارة للقرية، جرياً على عادته كل عام وذلك ليقضي إجازته ويستسلم لهواياته المتنوعة.

كان يونغ عالماً مبرزاً في حقل الطبيعيات والطب. فقد اكتشف المظاهر الأساسية للرؤية، وحدّد قانون التداخل الضوئي ويعتبر بحق مؤسس علم البصريات الحديث. غير أنه كان متعدد الجوانب - كعالم وكإنسان.

فقد طرح سنة 1796، وكان لا يزال طالباً في جامعة غيتينغن الفرضية القائلة بأن من المستحيل على أيّ أبجدية أن تستوعب كافة إمكانات أجهزة النطق البشرية ما لم تكن مؤلفة من 47 حرفاً! ثم يبدأ باهتمام كبير بوضع أبجديات اللغات الأجنبية ويجلب لنفسه شهرة من لا يشق له غبار في هذا الميدان، كما ينكب في الوقت نفسه على دراسة الخطوط. ولم يكن يخفي على معارفه وأصدقائه الذين كانوا على معرفة بمواهبه المتعددة؛ أن «هوايته» كانت ترميم النصوص فكثيراً ما كانوا يدفعون إليه بالمخطوطات القديمة التي أصابها التلف لترميمها. إذ كان كل ما هو خارج عن ميدان علم الطبيعة يعتبر بالنسبة له محطة استراحة في عمله وطريقة مجيدة في تزجية الوقت.

بيد أن توماس يونغ لم يكن ممن يتوقفون عند منتصف الطريق. فكان إذا اختار أمراً سار به حتى نهايته. وقد ركبته ذات مرة فكرة تعلم الرقص على الحبال - وذلك لمجرد التسلية أثناء العطلة فصار يتدرب على ذلك الفن حتى غدا ذلك الراقص المحترم ينتقل فوق حبل مشدود بتراخ على أعين جمعية الراقصين على الحبال!

وهكذا كان يستعد ربيع سنة 1814 للخروج لقضاء الإجازة في القرية. ومن جديد دفع إليه أحد أصدقائه، وهو اللورد رووز بروتون، بمخطوطة قديمة لكي «يلهو» بها خلال إجازته لكن المدونة لم تكن هذه المرة مخطوطة يونانية بل بردية ديموطيقية.

وما كاد يونغ يبدأ بالتعميق في دراسة هذه البردية حتى تذكر فجأة كلمات سيفيرين فاتير التي كان قد اطلع عليها منذ فترة قصيرة في المجلد الثالث من «ميتريدات» أديلونغ. وكان يونغ يواظب على قراءة تلك المجلة كطالب سابق في جامعة غيتينغن.

كان يوهان سيفيرين فاتير (1771-1826) أستاذا للاهوت واللغات الشرقية في يينا بادئ الأمر ثم في غالاّ ثم في كينيغسبيرغ ثم من جديد في غالاّ. وانتهى به نشاطه الأكاديمي والتربوي بعد ذلك إلى دراسة الكتابة المصرية. وخلافاً للكثيرين من معاصريه فقد انطلق في ذلك من «الكتابة الهيراطيقية»، «من المدونات الخاصة على هوامش الأقمشة التي تلف بها المومياء». وتوّجت أقواله تلك الفرضية (التي لم تكن قد تأكدت بعد) والقائلة بأن من الضروري قراءة الهيروغليفات بطريقة لفظية، كرموز لفظية، وإنها تشكل أبجدية تتضمن ما ينوف على 30 رمزاً.

كان ذاك ما استوقف تفكير يونغ عندما دفعته طرافة البردية الآنفة الذكر إلى الشروع في شهر أيار بدراسة الشطر الديموطيقي من مدونة رشيد مستخدماً في ذاك النسخة - الصورة. وكان صاحبنا الإنكليزي على علم بدراسة اوكيربلاد: فقد كان هذا أرسل إليه

من روما تحليلاً للخطوط الخمسة الأولى من النص الديموطيقي بالإضافة إلى التدوين اللفظي القبطي. إلا أن المحاولة الأولى لتطبيق أبجدية اوكيربلاد أقنعت يونغ بلا جدواها.

وفي الوقت نفسه لاحظ، على نحو ما يلاحظ أوكيربلاد بأن كلمات معيّنة تتردد في النص اليوناني. فحاول كسابقه أن يستنبط تلك الكلمات من النص الديموطيقي.

إذ ذاك قام يونغ بخطوة مهمة نحو الأمام تجاوزت كل ما قام به اوكيربلاد فلم يكتف بتقسيم النص الديموطيقي جميعه، بل وكل النص الهيروغليفي، إلى كلمات منفصلة اعتقد بأنها تطابق المفردات اليونانية وبعد ذلك نشر كلاً من النصين اللذين حللهما بهذه الطريقة وذلك في مجلة «ارشيولوجي» باسم مستعار كي لا يسيء إلى سمعته العلمية.

كانت الخطوة تتسم بالمخاطرة دون شك بيد أنها جاءت موفقة إلى حدود تجاوزت التوقع. ففي 1814 صدرت بقلم يونغ «الترجمة الافتراضية لنص رشيد الديموطيقي» والتي أرسلها في تشرين الأول (أوكتوبر) من العام نفسه إلى دي ساسي في باريس. وقد افترض أنه نجح بسرعة كبيرة في القضاء على المدونة الهيروغليفية التي كانت تقف صامدة...

تلك كانت خطوة جريئة! ولكن ماذا عن العدّة التي كان عالم الطبيعيات الإنكليزي يزمع أن يدخل بها ذلك السبيل غير المطروق؟.

لم يكن لديه تأهيل فيلولوجي خاص ولا كان مزوداً بمعرفة اللغات الشرقية. فما كان قادراً على غير المقارنة العملية للنص، وكان الحدس الرياضي رائده في محاكماته فتوصل إلى نتائجه عن طريق الحساب والمقارنة الرياضيين.

ومع كل هذا فإن النتائج التي توصل إليها ذلك العالم تثير الدهشة بسبب تواضع ما كان يتوسل به من أدوات.

أولا: إن مجموعة الرموز التي تكونت بعد تقسيم النصوص تطابقت بصورة مذهلة مع مجموعات الرموز الهيروغليفية وكان من الواضح أنها مجرد مختصرات بسيطة ومعنى هذا أنها مشتقة من الهيروغليفات!

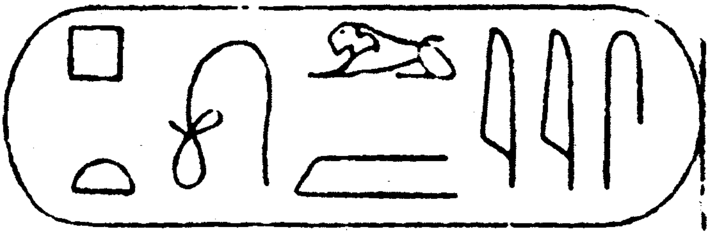

الشكل -18- إطار يحتوي اسم بطليموس

ثانياً: استطاع يونغ أن يحدّد معنى بعض مجموعات الرموز الهيروغليفية وإن كان ذلك دون تحديد مكافئاتها اللفظية.

ثالثاً: من بين الأسماء اليونانية المذكورة في النص الديموطيقي كان هناك واحد على الأقل يجب أن يظهر في القطعة المتبقية من النص الهيروغليفي وكان يجب أن يظهر بالذات ضمن الشكل البيضوي الذي يتردد أكثر من مرة في المدّونة. (وكان دي غين وسويغا ممن افترضوا أن أسماء الملوك قد نقشت في أمثال هذه الأشكال أو الأطر البيضوية).

رابعاً: تجرأ يونغ، وقد أسكرته نشوة النجاح الأول، على تحليل النصوص الهيروغليفية الأخرى وحدس بصورة صحيحة بمعنى بضع كلمات. وألهمه ذلك فوضع سنة 1818 فهرساً لـ 214 كلمة مكتوبة بالهيروغليفية وكان تحليله للربع منها صحيحاً. وبالإضافة إلى هذا كان الفهرس يتضمن 14 رمزاً لفظياً هيروغليفياً كانت 5 من بينها قد فهمت بصورة صحيحة و 3 بصورة صحيحة حتى النصف. وقد يعترض أحدهم فيقول بأن ما تم اكتشافه - قليل. لكن هذا لا يقلل من قيمة النجاح الذي تم تحقيقه ولا من مأثرة يونغ الذي كان أول من قال بعكس الرأي الذي كان سائداً، بأن الكتابة الهيروغليفية تتضمن، إلى جانب الكلمات - الرموز، رموزاً لفظية.

عند هذا عدّ يونغ نفسه قادراً بما فيه الكفاية على الإمساك بتلابيب الصنم الثلاثي اللغات والبدء بتحليل الإطار الذي كان من المحتمل أن يتضمن اسم «بطليموس».

وهكذا حلل الهيروغليفات بالصورة التالية:

P = 𓊪 ، t = 𓏏 ، 𓎛 = لا تعني شيئاً (؟) ، ole = 𓃭 ، ma = 𓌳 ، i = 𓇌 ، os = 𓋴 .

يبينّ هذا التحليل مدى اقتراب يونغ من القراءة الصحيحة لاسم: «بطوليميس» كما يظهر إلى أي حد عوّقه نقص معلوماته اللغوية. فقد كان يبحث أيضاً في الهيروغليفات عن الصوتيات التي نعرف أنها كانت تهمل في الكتابة المصرية.

أما اسم الملكة بيرينيكا المكتوب في منقوشة أخرى، والذي افترض يونغ وجوده وعثر عليه في الواقع فقد قرأه بالطريقة نفسها أي «بيرينيكا» (وهو في الحقيقة «بيرنيكاة» و «آة» - نهاية المؤنث). ونتيجة لذلك تحصل على بضعة أحرف أخرى.

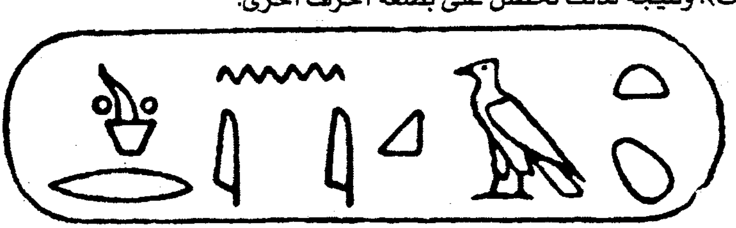

الشكل -19- إطار يتضمن اسم بيرينيكا.

وبهذا أرسى يونغ حجر الأساس للقراءة الحقيقية للكتابة الهيروغليفية.

إلا أننا نجد أنفسنا أمام ظاهرة طريفة إلى حد ما فقد قدر لذلك الإنسان الذي اكتشف الطابع اللفظي للهيروغليفيات أن يكتفي بما حققه بعد أن تقدم بفرضية أو فرضيتين، إذ إنه - وقد فتح الباب على مصراعيه.- تهيّب تخطّي العتبة. وتلك العتبة كانت علم الفيلولوجيا، العلم الذي جعله يتوقف على غير إرادة منه على ما يبدو. فمثلاً عندما واجه اسم انوبيس، إله الموتى، الذي كان مكتوباً برموز صوتية هيروغليفية بكل وضوح، لم يتمكن من التعرف عليه فأطلق عليه اسم تسيربير وهو اسم الكلب - حارس الجحيم في الأساطير اليونانية. والذي يثير بصورة أشد من ذلك أن اسم إله آخر هو الإله بْتاح قد انزلق انزلاقاً من بين أصابعه. فالنص اليوناني يظهر كيف تردد هذا الاسم أكثر من مرة في منقوشة رشيد ناهيك عن أن يونغ استخرج بنفسه المعنى اللفظي للحرفين الأولين «ب» و «ط» اللذين اكتشفهما في إطار اسم الملك بطليموس!

فلماذا لم يتقدم يونغ أكثر من ذلك؟ لقد كتب بنفسه أن الأبحاث في هذا المضمار كانت بالنسبة له «فرحة بضع من ساعات الفراغ» لكن تلك الفرحة كانت تتناقص بمعدّل تزايد معرفته بالمصريين. فكم كانت رغبته كبيرة في اكتشاف كنز المعارف الطبيعية المصرية التي كان يعتقد أن فيثاغورث قد استقى منها. ولكن كلما تعمق نفاذاً في النصوص كلما اكتشف أن الحديث يدور عن الآلهة والفراعنة والموتى وما كان أكثر الأحاديث عن الموتى بينما تنعدم أيّ كلمة عن الفلك أو التاريخ.

ومما زاد الطين بلّة أن أعمال يونغ لم تستقطب أي اهتمام خاص داخل بلاده ولا خارجها. ولم تثر تلك الزوبعة التي كانت جديرة بها حسب رأيه. وأخيراً قدر له أن يرى إلى النجم الصاعد لمعاصره الفرنسي الفتي شامبليون والذي راح يتألق في سماء العلم الأوروبي حتى غطّى ببهائه على الضوء الذي كان قد نثره هو، يونغ، فوق قراءة رموز الكتابة المصرية.

فقبل ثماني سنوات من ذلك اليوم الذي كشف فيه الجنرال بونابرت عن خططه الطموحة المتعلقة بالحملة المصرية أمام العلماء المتجمعين في المعهد الفرنسي، كانت الزوجة الشابة لبائع الكتب جاك شامبليون تصارع الموت في مدينة فيجاك الصغيرة من أعمال لو في جنوب فرنسا. لقد كانت فريسة مرض شديد وكانت تنتظر طفلاً. وفي غمرة اليأس تذكر الزوج جاره الغريب الأطوار جاكو الذي كان يعيش قريباً في مبنى الدير القديم المهجور منذ فترة بعيدة، والذي كانت حديقته الصغيرة تتاخم أملاك أسرة شامبليون الواسعة. وقد ذاعت شهرة جاكو كساحر فكان قادراً على اختراق الحجب وكان بمقدوره أن يتفاخر بالحالات

المتكررة التي شفى فيها من المرض بمعجزته. ولم يكلفهم أن يطيلوا إليه في الطلب، فهو يأمر بأن تسجى المريضة فوق أعشاب مسخّنة كان وحده يعرف خصائصها العلاجية، ثم يهرع إلى إعداد عقار ساخن من الأعشاب لكي يُشرب ويدهن به الجسم ثم يعد بسرعة الشفاء، ويتكهن بولادة طفل ذكر. وما كان جاكو جديراً أن يسمى بالساحر لولا أنه أضاف إلى كهانته قوله: من خلال هذا المرض يولد طفل يغدو منارة العصور القادمة[1] وهكذا يولد طفل تضيء أمجاده القرون التالية.

من يستطيع بعد هذا أن يلوم تلك الأسرة السعيدة على أنها آمنت بكل كيانها بنبوءة جاكو - في أمجاد وخلود صغيرها جان - فرانسوا عندما ظهر أن الوليد المنتظر كان في الحقيقة ذكراً وعندما حل الشفاء الكامل سريعاً بعد مولده. إلاّ أن جان - جوزيف، ذا الاثني عشر عاماً، والذي شارك الآخرين في حفل عماد شقيقه الصغير، كان أوفر الجميع إيماناً بالمستقبل الباهر لذلك المخلوق الصغير الملفوف بالأقمطة.

حقاً، كان القدر قد وهب أسرة شامبليون طفلاً عجيباً. فقد علت الدهشة البالغة وجه الطبيب جانين لدى معاينته؛ إذ كانت عيناه الداكنتان الكبيرتان تتألقان في وجهه الصغير المصفرّ وقد أحاطت به هالة من الشعر الكستنائي الداكن الكثيف. كان ذلك الوجه يبدو شرقياً - وقد بلغت الحيرة مبلغها من الطبيب، فحتى قرنية عين الصغير كانت ميالة إلى الاصفرار على نحو ما هو لدى ابن الشرق الأصيل!

لم يقدّر للصغير أن ينشأ في محيط الأسرة الضيق الذي كان من شأنه أن يحميه من الأحداث والعواصف التي كانت تضطرب خارج المنزل. إذ كانت الثورة قد اشتعلت في فرنسا وما زالت أمواجها ترتفع وتتلاطم حتى بلغت في أول نيسان (إبريل) 1793 المدينة التي ولد فيها جان - فرانسوا وكانت مدينة فيجاك تتمتع بسمعة «سيئة» منذ فترة بعيدة بسبب نضال أبنائها المستميت من أجل الحرية وشعورهم الأصيل بالكرامة الشخصية - وقد استيقظت هذه السمعة مجدداً في 1789. ففي تلك السنة وهب الوالد فرانسوا نفسه لخدمة العهد الجديد. وفي السنة الثالثة للثورة أصبح واحداً من مدراء شرطة المدينة وراح يتدرج بصورة ملحوظة في سلم تلك الوظيفة. وعلى الرغم من أن منزله تعرّض لنيران التصرفات الحارقة للكارمانيولا فإنه كان يقدم الملجأ لبعض الشخصيات التي كانت حياتها في خطر ومن بين هؤلاء كان دوم

1- هذا المقتطف وغيره من المقتطفات المتعلقة بحياة شامبليون وأعماله مأخوذ من سيرة حياته التي كتبها هيرمين هارتليبين. انظر:

(H. Hartleben, Champollion; sein Leben und sein werk , Bd. I - II, Berlin , 1906).

كالمي البينيدبكتي الذي سيغدو أستاذ ابنه الثاني في المستقبل. فالهتافات العالية من أجل الحرية التي تم انتزاعها أخيراً ودموع وتنهدات اللاجئين الذين أووا إلى منزل شامبليون - تلك هي الانطباعات الأولى التي ما كانت لتمحى من ذاكرة جان فرانسوا الذي كبر قبل أوانه. إلاّ أن من المهم الإشارة إلى أن الألحان القوية لأبواق الحرية أبقت الأثر الأعمق والأوضح في قلبه الميّال إلى تقبّل الانطباعات.

مرة وفي ذلك العهد العاصف ضاع الصغير بصورة مفاجئة. فسيطر على الأسرة جو من الاضطراب. فالعاصفة تعول خارج النافذة والصغير لم يتجاوز العامين ونصف العام! وهب الجميع للبحث فقلبوا البيت عن آخره واندفعوا إلى الشارع تحت زخات المطر الشديد، وعند ذاك فقط عثروا على الصغير. كان يتكوّر تحت السطح «كعصفور السنونو» وقد مد عنقه وبسط ذراعيه الصغيرين. لماذا؟ لكي يمسك بـ «شيء من نار السماء» على حسب ما فسّر الموقف بلغته البريئة ذلك البروميثيوس الصغير لأمه البائسة التي استبد بها خوف كاد يوردها التلف.

لم يكن جان فرانسوا يعرف بالطبع أنه قد كتب له السير في طريق فك الرموز. لكنه وهو ابن مكتبي، نشأ بين الكتب، وفي ذلك الرأس الصغير تكونت العقلية الحيّة الناشطة لفترة تسبق بفترة طويلة المرحلة التي وجد فيها الكبار الوقت لإجراء الدراسات المنتظمة معه أو ليفكروا بذلك. كانت أسئلته تتوالى دون انقطاع وكانت أمه تحكي له مقاطع طويلة من الكتاب التعليمي لكي تدخل السرور على قلبه وتشغله. فكان يحفظ ما يقال له عن ظهر قلب. ثم تحصل في مكان ما على نسخة ثانية من الكتاب فعرضوا أمام عينيه الأماكن التي كانت تتضمن المقاطع التي استظهرها فراح يقارن ما سمعه بما هو مطبوع، ويعطي لكل حرف مسميات خيالية خاصة. ثم إذا بالصغير ذي الأعوام الخمسة يدعو أبويه إلى القراءة الجهرية الحقيقية الأولى لمقاطع من الكتاب، ويعرض أمامهما أول نماذج للكتابة أنجزها بنفسه. لقد كانت تلك النماذج تبدو غريبة إلى حد ما إذ إنه كان يعيد كتابة تلك الأحرف المطبوعة!

أما الدراسة الإلزامية فلم تبدأ إلا بعد عامين ومن قبل الأخ جاك - جوزيف الذي كان يحرم نفسه في سبيل ذلك من ساعات الفراغ القليلة. بيد أن جاك - جوزيف هذا كان بالنسبة للصغير أكثر من المعلم الأول، بل وأكثر من أخ محب وحانٍ عليه. لقد صار، دون أن يلحظ ذلك، أول واسطة بين جان - فرانسوا شامبليون وبين أرض ميعاده - مصر.

فبفضل الصلات الجيدة التي كان يتمتع بها ابن عم شامبليون انفتحت أمام ابن شامبليون الموهوب إمكانية مرافقة جيش نابليون إلى مصر عام 1797. وكان جاك - جوزيف

يتقد رغبة في تنفيذ تلك الخطة، فرسم لأخيه الصغير المبهور الأنفاس خارطة تلك الأرض العريقة التي تلفّها الأسرار. فظهرت صورة بلاد مصر العجيبة لأول مرة أمام أنظار الصغير ذي الأعوام السبعة. لكن ذلك لم يكن بعد إلاّ سراباً خادعاً. فقد فشلت الخطة وعوضاً عن أن يسافر جاك - جوزيف إلى مصر استقر به المقام في غرونوبل حيث صار يعمل في البداية مستخدماً في عمل تجاري لابن عمه.

وبقي جان - فرانسوا المخيب الأمل برفقة دوم كالمي الطيب القلب الذي أخذ يعلمه حب الطبيعة بكل حنان وعطف. فصار الصغير يجمع الأحجار والأعشاب والحشرات. لكن فترة الدراسة المنزلية سرعان ما انتهت. أما في المدرسة العامة فلم يكن الصغير ذلك التلميذ الأمثل بالنسبة للمدرسة العمومية. فالوضع المبكي لمواهبه الرياضية كان باعثاً على يأس معلميه (وقد بقي فاشلاً في الرياضيات حتى آخر أيامه). لكنه إلى ذلك استطاع تعلم اليونانية واللاتينية بمجرد السماع: حتى إنه استظهر فيرجيليوس وهوميروس عن ظهر قلب لمجرد حبه لموسيقى الشعر. وحل يومٌ سمع فيه مجدَّداً دعاء القدر وتسلّم التحية الثانية من مصر البعيدة - فقد وصل المنزل، إلى جاك - جوزيف، العدد السابع والثلاثون من «*Curier de l'Egypte*» وكان يتضمن خبر العثور على حجر رشيد.

لكن جاك - جوزيف كان يعيش في غرونوبل منذ 1798، غرونوبل! إن الشقيقين لن ينسيا تلك المدينة الرائعة وسيحتفظ قلباهما إلى الأبد بمناظرها الساحرة مع إطلالة جبال الألب وهي تعانق الأفق. وبالإضافة إلى هذا فإنها كانت مركز عالم دوفيني العلمي، وكانت لها أكاديميتها الخاصة ومعاهدها العلمية الممتازة. وفي سنة 1801 تحقق أمل جان - فرانسوا ذي الأحد عشر ربيعاً: إذ كان بمقدوره أن يسافر إلى غرونوبل، إلى أخيه الذي تربطه به أشد الصلات، إلى المعهد العلمي الخاص والمحترم للراهب دوسّير حيث يمكنه، ويا لفرحته، أن يتعلم اللغة العبرية القديمة! وفي سنة 1802 أي بعد عام واحد فقط من بدء الدراسة وقبل أن يبلغ الثانية عشرة أثار دهشة مفتشيه المدرسين بالشرح الذكي الطريف لأحد المواضع من نص التوراة العبري.

وفي ذلك العام استثارت حياته بثالث «شعاع من مصر» فقد وصل إلى غرونوبل الرئيس الذي تم تعيينه مجدداً لتلك الولاية، ولم يكن ذاك موظفاً أو سياسياً عادياً، بل كان الفيزيائي والرياضي الشهير جان باتيست فورييه وهو روح البعثة العلمية التي كانت تعمل برفقة نابليون في مصر ومؤلف المقدمة التاريخية لعمل تلك البعثة المسمى «*Description de l'Egypte*» «وصف مصر» وبعد وصول فورييه انتقلت مصر في لحظة واحدة إلى غرونوبل - وهو الحدث الذي صار الحقبة الإنعطافية في الطريق الذي أعده القدر لجان فرانسوا.

وحدث أن مجموعة من الظروف تكاتفت لتنظيم اللقاء بين الطفل الموهوب والعالم الكبير. فقد صار الأخ على صلات وثيقة بفوربيه وذلك بحكم كونه أمين سر أكاديمية غرونوبل. ومن جهة أخرى فإن الرئيس الذي عينّ مجدداً لم يلبث أن بدأ بتفتيش ذلك المعهد العلمي حيث لفت نظره ذلك التلميذ العبقري المتميّز بين أقرانه ووعده بأن يريه مجموعة الآثار المصرية القديمة التي بحوزته.

وهكذا يقف الفتى سنة 1802، وقد انبهر إعجاباً، في مركز ولاية غرونوبل أمام مجموعة فوربيه الصغيرة ولكن المنتقاة بكل دقة وإذا بذلك الانبهار الشديد وتلك الأسئلة الذكية التي راح يطرحها الطفل المتردد الخجول، وذلك الألق العبقري المتأجج الذي أخذ يتوهج في عيني ذلك الباحث المفطور تهيب بمجموعها بالشقيق الأكبر إلى السماح له بحضور الأماسي التي كان العلماء يجتمعون فيها في حلقة ضيقة. بيد أنه لم تكن هناك ضرورة كبرى لذلك، ذلك أن زيارة مجموعة فوربيه كانت قد حددت مصير جان فرانسوا شامبليون. ففي ذلك المكان، حسبما روى في مناسبات عديدة بعد ذلك، اتقدت في أعماقه الرغبة التي لا تقاوم في أن يحل رموز الكتابة المصرية في يوم من الأيام وفي ذلك المكان تأكد له أنه بالغ ما يريد.

قال شامبليون مرة فيما بعد: «الإلهام فقط - تلك هي الحياة!» وصارت تلك العبارة شعار حياته بطولها، لكن الإلهام سيطر بكل قوته ولأول مرة على ذلك الفتى الذي لم يبلغ الثانية عشرة أمام كنوز فوربيه المصرية التي كانت تغويه بألغازها وقد استسلم لسلطان ذلك الإلهام بكل ما فيه وبصورة لم يعرف لها فكاكاً بعد ذلك.

فهل يدهشنا أن نرى إلى ذلك الإلهام وقد عبر عن نفسه بصورة طفولية لدى ذلك الطفل وأن المهمة الجديدة وذلك الجيشان الروحي الذي فاض عن الحد قد عبّرت عن نفسها بطريقة بالغة الغرابة؟

فقد صار يغطي كل ما تقع عليه يده برموز كتابية صار يسميها الهيروغليفات، وينقضّ على أي مادة علمية جديدة ويغرق بأسئلته شقيقه الذي كان دائم الاستعداد لمساعدته. ولكن بما أنه لم يكن بعد قادراً على الغوص في «علم المصريات» فإن طاقته وتعطشه إلى العمل صادفا متنفساً لهما في ميادين أخرى. فعلى هدي من «سير حياة» بلوتارك تظهر لديه سلسة كاملة من قدماء الأبطال على هيئة نماذج ورقية هشّة: فهو يكتب «تاريخ مشاهير الكلاب» ويتوج أعمالها المجيدة بمغامرات آرغوس، كلب اوديسيوس، ويجمع المواد اللازمة لوضع كتاب بعنوان: «سلسة تاريخية من عهد آدم وحتى شامبليون الصغير». فقد حل الوقت

الذي يُقضى فيه مرةً وإلى الأبد على تفاهة اللوائح التاريخية المعمول بها. وقبضوا عليه مرة متلبساً بجريمته وقد اتخذ مكانه في غرفة أخيه ونثر حوله ركاماً عالياً من جذاذات كان قد اقتطعها من كتب جاك - جوزيف. وكانت تلك بالضبط الأماكن التي تتحدث عن مصر القديمة في كتب هيرودوت وسترابون وديودور وبلّينوس وبلوتارك! وسرعان ما تغلب الأخ على الحزن الذي سببه ذلك التصرف الوحشي نحو كتبه الأثيرة فأثنى على شقيقه الأصغر لاهتمامه بالبحث المنهجي.

وجاء الثناء من المدرسة أيضاً فكتب الراهب دوسّير: «إنني مسرور جداً من السيد شامبليون الصغير» وتلا ذلك على الفور أعلى جائزة: فقد سمح الأخ لأخيه المتعطش إلى المعرفة بدراسة ثلاث لغات تالية: العربية والسريانية و «الخَلْدية»! وللمرة التالية يجد الباحث الغارق في العلم، ذو الاثني عشر ربيعاً، نفسه على الطريق الخطأ فـ «الأرواح الصينية» التي زحمت دي غين ذات مرة بدأت تزحمه أيضاً ولم تطردها غير يد أخيه القوية.

في ذلك الوقت كان نابليون قد افتتح مدرسة نصف عسكرية في غرونوبل وألحق بها قسماً داخلياً وكان على جان فرانسوا شامبليون أن يلتحق بها. وعلى الرغم من الحرية النسبية وبعض الامتيازات التي كان يتمتع بها فإن النظام العسكري وروتين المؤسسة التعليمية العسكرية بدأا يضغطان على صدره، وتعرف في ذلك الوقت على دوم رافاييل عند فورييه، وكان هذا في ما مضى راهباً قبطياً قدم خدمات كبرى لنابليون وجيشه في مصر، ثم عين مدرساً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس. واكتسب ذاك اللقاء مغزى خاصاً بالنسبة لشامبليون بالذات إذ إنه كان ينتهل المعارف الجدية، وهو يدرس لوحده بصورة مستقلة (وبالمناسبة فقد أفسد نظره بسبب استغراقه في القراءة في الليالي). وقد كشفت له أعمال الأكاديميين دي غين وبارتليمي اشتراك اللغتين القبطية والمصرية القديمة، أما مقالة الأب بونجور حول المخطوطات القبطية في الفاتيكان فزادته يقيناً بأنه لا يمكن الوصول إلى اكتشاف اللغة المصرية القديمة وحل رموز الكتابة المصرية القديمة إلا بتعلم اللغة القبطية نصف المنسية.

ومرّة كتب لأخيه ما يلي: «أرسلْ إليَّ مذكرات «أكاديمية النقوش (كانت مقالات دي غين وبارتليمي قد نشرت فيها منذ عشرات السنين) فمن المستحيل الاقتصار فقط على قراء أمثال هؤلاء المؤلفين الجادين مثل كونديلياك»[1]، وبهذا توصل الغلام ذو الأربعة عشر عاماً إلى قراءة أعمال العلماء الكبار.

1- كان كونديلياك في ذلك الوقت فيلسوفا وعالماً نفسياً واسع الاطلاع.

ومع هذا فقد قام فورييه في نهاية الأمر بإنقاذ ذلك «المهر الشموس» الذي يستحق وجبة تبن مضاعفة ثلاثاً من إسطبل المدرسة المكتظ. وبمساعدة فورييه هذا تعرف شامبليون على «*Consilium Aegyptiacum*» لليبنيتس. وكان ذلك الفتى الذي تخطى عمره يأمل بكل حرارة بأن يتمكن نابليون إمبراطوراً من تحقيق ما لم يقم به لويس الرابع عشر ولم يتمكن من تحقيقه نابليون جنرالاً - ألا وهو تحويل مصر إلى مركز للعالم المتحضر. وكثيراً ما كان جان - فرانسوا يردد هذه العبارة «دوماً أفكر بأنني في مصر» وأخيراً، وبكل اندفاع الشباب شرع بإعداد أول أعماله العلمية وهو «مصر في عهد الفراعنة».

قدم مخطوطة بحثه الكامل إلى أكاديمية غرونوبل مرفقة بخارطة جغرافية وتهيأت له في ذلك العام، 1807، إمكانية قراءة مقدمة البحث أمام أعضاء الأكاديمية. وطافت إمارات الشك فالارتياب فحب الاستطلاع على وجوه العلماء المستمعين عندما مَثَلَ ذلك الفتى ذو الستة عشر عاماً أمامهم ليقدم تقريره حول باكورة أبحاثه العلمية. لكن عندما أنهى تقريره هب رينولدون، رئيس الأكاديمية، واقفاً من مكانه، وبلهجة مفخمة رحّب بدخوله سرب العلماء المشرق. «إن الأكاديمية تقبلكم بكل فخر عضواً من أعضائها رغم حداثة سنكم. وتكون بهذا قد نظرت بعين التقدير إلى ما قمتم به لكنها تضع في اعتبارها، وهو ما يشكل الشيء الأهم، ما سوف تقومون به! أن الأكاديمية لتشعر بالغبطة وهي تفكر بأنكم ستحققون الآمال المعقودة وأنكم، إذا حملت أعمالكم إليكم الأمجاد في ذات يوم، ستذكرون ذلك التشجيع الأول الذي لقيتموه منها بالذات!.»

وفي السادسة عشرة من عمره توجه شامبليون إلى باريس وذلك بالطبع لكي ينجز مخططات حل اللغز المصري. لكن السبب لم يكن مقصوراً على ذلك. فهو يريد أن يحدّد لنفسه مكاناً وأن يتحصل على الإمكانات التي تؤهله للزواج من ابنة عمّه بولينا التي كانت تكبره بستة أعوام والتي كان يكنّ لها أعظم مشاعر الحب. وقد ذكر في أحد أشعاره الغرامية لتلك الفترة قوله: «لكل ذوقه الخاص... بيد أن أحكم الحكماء من يتزوج».

وقدمت له باريس أفضل من كان بإمكان الغرب أن يقدّمه من أجل تعلم اللغات الشرقية. فقد عرّفه جاك - جوزيف على سيلفيستر دي ساسي الذي كان قد بلغ آنذاك ذروة أمجاده وبسرور لا حدود له ألفى نفسه أمام ذلك الرجل ذي التسعة والأربعين عاماً والخالي من الظّرف، والذي كان مظهره يوحي بالإجلال بما يشعّ به من إلهام. وترك اللقاء انطباعاً عميقاً في نفس دي ساسي أيضاً وإن كان قد عدَّ مؤلَّف جان - فرانسوا «مصر في عهد الفراعنة» سابقاً لأوانه.

وفي باريس راح الطالب يسمع المحاضرات في العبرية القديمة وفي «الخلديّة» والسريانية، كما راح يتعلم السنسكريت والعربية واليونانية. وفي سنة 1808 تمكّن من الحلول مرةً محل أستاذه في أحد الأقسام.

إلا أن اللغة الأكثر إمتاعاً-التي كان له أن يدرسها فقط في باريس بل وفي العالم كله - كانت اللغة القبطية. فكان يستمع في كنيسة سان روش إلى الراهب القبطي ابيشا شيفتيد شي وهو يتلو القداس بالقبطية[1]. «أريد أن أعرفها (اللغة القبطية - المؤلف) كما أعرف لغتي الفرنسية الأم... وبكلمة أخرى فقد صرت قبطياً إلى درجة أنني، ولفرحي، أترجم كل ما يخطر على بالي. كما أتحدث بالقبطية إلى نفسي ما دام الآخرون عاجزين عن فهمي...».

بيد أنه كان هناك من يتحدث بلغات الشرق الأخرى وكان الاحتكاك الدائم بالمثقفين من أبناء الدول الشرقية هو الهبة الثانية الكبرى التي أسعدت باريس طالبنا بها. فقد ذكر أخوه: «انه لدى جميع هؤلاء الشرقيين وكأنه في بيته الخاص» وهي ذي ملاحظته الخاصة: «لقد بدّل اللفظ العربي صوتي بصورة كلية، فجعله أجش وظهرت فيه الأصوات الحلقية. إنني أتحدث وأنا لا أكاد أحرك شفتي ومن المحتمل أن هذا قد حدَّد ملامحي التي هي شرقية أصلاً، فابن صوّا تلقاني بالأمس على أنني عربي وراح يغمرني بسلاماته التي كنت أردّ عليها بمثلها فراح ينثر علي تحياته التي لانهاية لها...» إلى أن تدخل دوم رافاييل في الموضوع.

وسرعان ما جاء ذلك الاجتهاد غير الاعتيادي والاحتكاك بممثلي الشرق بثماره الباهرة حتى أن المهندس والمجرّب الطبيعي سونّيني دي مانونكور، الذي جاب الشرق كله، أعلن بعد مقابلته لشامبليون:

«أرى وبكل سرور انه يعرف بنفس المستوى من معرفتي تلك الدول التي كنا نتجاذب حولها أطراف الحديث معه» أما صرخة العالم اللغوي المشهور الدكتور غال التي انطلقت دون وعي «أوه، يا للعبقرية اللغوية!» فكانت كافية لتجبر الآخرين على أن يتبينّوا في ذلك الفتى الباحث المفعم بالإلهام والمثابرة.

وفي 1808 وفي باريس أيضاً تم اللقاء التاريخي بين شامبليون وحجر رشيد الذي سيرتبط به اسمه إلى الأبد. والحق أن شامبليون لم يلتق بالحجر نفسه - إذ كان الإنكليز قد استأثروا به لأنفسهم. غير أن نسخة عنه وصلت إلى شامبليون.

1- تم التوحيد الجزئي للأقباط (المسيحيين المصريين) بالكنيسة الرومانية وذلك بفضل جهود الإرسالية التبشيرية الآنفة الذكر والتي ساعدت بكل نشاط على بعث اللغة القبطية.

لم يكن لدى شامبليون بعد القدرة على الاقتراب من النص الهيروغليفي، فهو يكتفي بالمقارنة الدقيقة للرموز الكتابية للشطر الديموطيقي مع البردية المكتوبة أيضاً بالديموطيقية، حسب أقرب الاحتمالات، بينما هي كتابة هيراطيقية في الواقع. ويتوصل بهذه الطريقة إلى معرفة عدد من الحروف الديموطيقية وقد اتفق بعضها مع أحرف اوكيربلاد.

كتب شامبليون لأخيه: «أحيطك علماً بخطوتي الأولى!» لكن تلك الخطوة لم تكن قد تجاوزت بعد حدود ما كان اوكيربلاد قد توصل إليه. بل وإن جو العمل الذي قطعت فيه تلك الخطوة ما كان له أن يسمّى بالجو الأمثل: فمن جهة هناك أخوه (وقد صار يسمي نفسه شامبليون - فيجاك) الذي كان يحثه دون هوادة على أداء الإنجازات الكبرى - ومن جهة أخرى هناك دي ساسي، المعلّم الحذر الذي ينصحه بألاّ يبدد كل ذلك الوقت على قراءة الرموز حيث النجاح، إذا ما تحقق، يظل رهين المصادفة. فهل لنا بعد هذا أن ندهش إذا ما انقلب شامبليون أحياناً إنساناً ضئيل النفس: «أنفقت سبعة أيام على النقش المصري وأنا مقتنع بأنه أبداً لن يترجم بصورة كلية».

وفي سنة 1809 كان على شامبليون أن يقطع دراسته في باريس. فقد دعوه وهو في الثامنة عشرة من عمره، ليشغل منصب أستاذ في قسم التاريخ في الكلية التي أعيد فتحها في غرونوبل فيمضي في أداء مهماته بكل حيوية ونشاط - كان أمامه مستمعون سبق أن عرفهم زملاء في الماضي وكثير من الأساتذة السابقين كانوا ينظرون بحسد إلى «ذلك التلميذ البائس» على نجاحه الأكاديمي. ومع كل هذا يجد لديه متسعاً من الوقت لمواصلة أبحاثه الخاصة. وفي السابع من آب 1810 يتقدّم إلى أكاديمية غرونوبل بنظريته في الكتابة المصرية، تلك النظرية التي تقطع كل صلة بما كان حتى ذلك الوقت يُعدُّ أمراً مفروغاً منه.

فهو يضع يده لا على نمطين فقط من أنماط الكتابة المصرية بل على ثلاثة أنماط منها. فبين الديموطيقية والهيروغليفية يوجد نمط ثالث هو «الهيراطيقي» كما أسماه.

والكتابة «الهيراطيقية» هي نتيجة لتطور الكتابة الهيروغليفية وقد ظهرت بسبب أن الهيروغليفات التي لم تكن تكتب إلا نقشاً على القطع الأثرية بدأت تستعمل كأحرف أثناء الكتابة على البرديات. وهكذا فإن المادة المختلفة اختلافاً جذرياً أدت إلى ولادة كتابة تبدو «جديدة» بصورة كلية للوهلة الأولى.

غير أن شامبليون أخطأ بادئ الأمر في تحديد تسلسل ظهور هذه الأنماط الثلاثة إذ أعدَّ الديموطيقية أقدمها وعدَّ الهيراطيقية والهيروغليفية تاليتين لها لكنه لم يلبث أن اعترف بخطئه وأعلن أن الكتابات المصرية الثلاث تعود إلى نمط واحد، وأن الكتابتين المائلتين

انبثقتا عن الهيروغليفات وأن قراءة الرموز الهيروغليفية يجب أن تنطلق من الديموطيقية. وبذلك يكون قد مهد لنفسه الطريق وبصفة نهائية نحو النجاح المقبل الحاسم، وحدث ذلك قبل أربع سنوات من شروع توماس يونغ في الجانب الآخر من الخليج بدراسة الهيروغليفات!

وفي سنة 1813 حقق شامبليون أول كشف له في عالم الهيروغليفات وهو الكشف الذي يعد أكبر شاهد على حدّة ذكائه. وتبدو محاكماته في يومنا هذا غاية في البساطة - وهو ما يمكن قوله عن كثير من الكشوفات العظمى. فقد كانت اللغة القبطية تتضمن ست نهايات للضمائر الشخصية الستة. فافترض إمكانية العثور عليها في المصرية القديمة أيضاً، وأثبتت الدراسة أنه حيث كان ضمير «هو» أو «ـه» يظهر في النص اليوناني من حجر رشيد كان يقابله رمز (الأفعى ذات القرنين) في الشطر الهيروغليفي، أما في الشطر الديموطيقي فكان يظهر الرمز الذي عرف شامبليون أنه ظهر على أساس رمز الأفعى السابق وهو يتماثل مع ϥ القبطي الذي يعني صوت *f* المعبر عن ضمير الشخص الثالث. وهكذا فإن المنطق الحديدي لذلك الباحث أوصله إلى تحديد الهيروغليف الأول انطلاقاً من دلالته اللفظية.

وفجأة توقف كل شيء فلا خطوة نحو الأمام، بل والأدهى من ذلك، عودة إلى المرحلة التي كان قد فرغ منها. فشامبليون ينظر مجدداً إلى الهيروغليفات على أنها مجرد رموز لا تحمل طابعاً صوتياً محدداً! وبدا أن الكلب العجوز المعروف الذي طالما نجح في إدارة الرؤوس بالرموز قد تمطى، إذ أحس باقتراب زوال ملكه، ليلعب مع الباحث لعبة شريرة.

في ذلك الوقت وبفضل جهود يونغ كان قد تم التعرف على صيغة اسم بطليموس فكان شامبليون يعود إليها المرة تلو المرة. لكن أسداً كان يربض هناك بشموخ وسط الشكل البيضوي. إذ ذاك قرر الباحث أن الأسد البطّاش ما كان يمكن أن يعني غير مفهوم «الحرب» باليونانية *P(t) ó lmes*، أي نفس تلك الكلمة الداخلة في صلب اسم الملك أيضاً.

ولكن إذا كانت تلك «الحرب» لا تعدو كونها خيالاً من الخيالات فإن الحرب الحقيقية ما لبثت أن قرعت باب غرفة أبحاث الدارس. فجان - فرانسوا، على الرغم من عمله الدائب، لم يتحول إلى عالم مكتبي منقطع عن الدنيا، بل بقي مواطناً أصيلاً وفدائيا في سبيل بلاده فرنسا. فما إن عاد نابليون من جزيرة ايلبا حتى تسارعت ضربات قلب الباحث، أما بالنسبة للرؤوس الحارة التي كان يحملها أنصار نابليون، فإن مئة يوم كانت كافية لتثير شكوك رجال الشرطة حولهم. فما كاد جان فرانسوا يخرج لينضم إلى انتفاضة دودييه في غرونوبل وليتصدى للبوربون والسلاح في يده (دون أن ينسى إخفاء كنوزه المصرية تحسباً لحالة ما إذا توفى) حتى نفذ صبر الشرطة. وهكذا كان على شامبليون أن يهرب وأن يمضي فترة

من الزمن ضارباً في أرجاء الألب في دوفيني تائها لا ملاذ له. وصفيت وظائف الشقيقين ولم يسمح لهما إلا بعد وقت طويل نسبياً بالإقامة في فيجاك ثم في غرونوبل دون السماح لهما بمغادرتها. وهناك راح شامبليون يكدح أشد الكدح حتى يقيم أوده عن طريق التعليم في مدرسة تعود لعهد الإصلاح.

في ذلك الوقت وفوق المسرح الغارق في الظلام والذي تعرض على خشبته قصة فك الرموز يبدأ تغيير الديكورات بصورة لا يلحظها شامبليون، ويغدو ممثلو الفصل التالي من المسرحية هم: دبلوماسي إنكليزي، رحّالة وجامع تحف إنكليزي، هرقل الماجن ومسلّة. ويعطى الدور الرئيسي للأخير من بينهم جميعاً غير أن المجموعة المتبقية جديرة بالتوقف عندها قليلاً. أما اشتراك بهلوان، نجم أحد الملاهي، فلعلّه لا يثير كثيراً من الاستغراب، فقد امتاز توماس يونغ نفسه بأنه كان راقصاً على الحبال ذات يوم.

أما الدبلوماسي فكان هنري سولت، القنصل الإنكليزي العام في مصر فرغم ما كان يعيشه من خوف ويتعرّض له من مجازفات استطاع أن يعمل بنجاح في ميدان البحث وجمع الأثريات المصرية دون أن يكون لديه إعداد خاص. إلا أنه اضطر سنة 1817 إلى أن يتقدّم إلى داسييه، أمين سر أكاديمية النقوش الفرنسية، الذي يشغل ذلك المنصب منذ سنوات عديدة، بطلب خطي من أجل إقامة الصلات مع العلماء الفرنسيين. وأنارت الرسالة بضوئها الباهر الأيام الرمادية بالنسبة لنشاط شامبليون المدرسي في غرونوبل. فقد كُتبت في وادي الموتى في طيبة حيث اكتشفت، وفق تقديرات سولت، خمسة مدافن ملكية. وقد تم إنجاز ذلك العمل الجبّار على يدي هرقل الآنف الذكر.

كانوا يسمّونه جوفاني باتيستا بالتسيوني، وقد ظهر إلى هذا العالم سنة 1778 في أسرة جزاز للحّى من بادوانا. ولدهشة الجيران لم تمض إلا فترة قصيرة حتى كان الصبي يفرع أقرانه طولاً بمقدار الرأس وفي السادسة عشرة من عمره كان يبدو كجوليات في شبابه فهل بقي مجال للتذكير بأنه شعر بالضيق في حانوت أبيه الضيق فاتجه جامباتيستا هذا إلى روما سيراً على قدميه. ولما لم تكن في يديه غير صنعة أبيه فإنه أخذ يمارس ذلك العمل إلى أن قطعتْ طريقه حسناء من روما فأشعلت قلبه بلهيب عينيها الجميلتين. غير أن الحسناء كانت، لسوء الحظ، باردة القلب. ولعل ذلك كان السبب في رفضها ضراعات جوليات غير اللّبقة. وماذا بوسع أي إيطالي في السابعة عشرة من عمره أن يفعله إزاء ذلك؟ لا بد وأن يجتنب ضجيج هذا العالم. وبتوافق تام مع هذا المبدأ توجّه بالتسيوني إلى الدير. ويبدو انه تعلم هناك نُظُم الري - فهو، على أيّ حال، صار قادراً على تقديم المساعدة أثناء حفر الآبار الارتوازية.

ومن الممكن القول أن من سخّره لخدمة علم المصريات كان نابليون بونابرت.

ففي سنة 1796 هجم الكورسيكي على إيطاليا، وهو ما يزال بعد جنرالاً، و «حرّر» ميلانو. وتحركت قطع فرنسية أُخرى باتجاه روما فألحقت هزيمة قاسية بجيوش البابا بيوس الرابع. أما الوطنيون الذين هبوا لصد الغزاة فبدؤوا بإطلاق النار بينما كانت فرق الغزاة تقوم بعمليات قنص في الشوارع تعتمد على التكوين الظاهري للأشخاص، فكانت تقبض على الأصحاء وذوي البنية المتناسقة من الشبان وتلحقهم عنوة بالجيش الفرنسي. ومن الطبيعي أن يكون بالتسيوني بالنسبة لهم لقية طال انتظارها.

فيا لطليعة الميمنة التي يمكن أن تصاغ من ذلك الشاب! وهكذا أوقفته فرقة يقودها رقيب. لكنها لم تكن قد خمّنت قوة شمشون على ما يبدو. فما هي إلاّ لكمة واحدة حتى طار الرقيب في الجو بينما أسلم بالتسيوني بمصيره إلى قدميه السريعتين ولم يستعد أنفاسه إلاّ في بادوا. لكن الحاكم هناك أيضاً لم يكن إيطالياً بل كان الإمبراطور النمساوي هو الحاكم الجديد في تلك المنطقة.

ويتجه بالتسيوني إلى البندقية حيث يتعلم فن بناء عجلات شفط الماء وتعميق القنوات، إلى أن يغدو أخصائياً نادراً في قنوات الري. وتركبه من جديد «الرغبة في تبديل المكان» فيجوب أوروبا بطولها. وفي هانوفر يقع لفترة قصيرة ضمن جيوش الاحتلال البروسية. وهناك دلائل تشير إلى أنه ترك تلك الخدمة دون إذن من السلطات. كما أكدت له زيارته الثانية إلى البندقية بأن أرض أوروبا الوسطى لا تزال أشد تلظّياً بالنسبة لرجل في مثل قامته. فيقطع البحر إلى إنجلترا حيث كانت تنتظره وظيفة لم يتوقعها إذ يصبح هناك «مهندس التصميمات المائية للمسرح» في لندن وممثل أحد الملاهي والعملاق القادر على رفع أحد عشر شخصاً من «المتوحشين»!

وبعد رحلة قام بها مسرحه إلى كل من البرتغال وأسبانيا اضطر بالتسيوني، الذي كان دائب الفرار من الصراعات الحربية في القارة، إلى التقهقر نحو مالطا، حيث أخذ يعرض خدماته على عملاء الباشا المصري محمد علّي وذلك بوصفه أخصائياً في المنشآت المائية وهكذا، وكمهندس مائي، يصبح الضيف الأثير لدى السلطان المطلق على البلاد الواقعة على النيل.

إن من الممكن طبعاً تتبع طريق الحياة العجيب لذلك الإنسان. لكننا مضطرون للاكتفاء بوصف ذلك الإسهام الحاسم الذي قدمه في تاريخ قراءة الهيروغليفات المصرية على غير علم منه.

فقد اشتهر بالتسيوني، إبان عمله في مصر، بكونه اختصاصياً ممتازاً في النقليات. كان يقدم على القيام بأي عمل، وكان - إذا اقتضى الحال - يشارك بيديه في التنفيذ. فإليه فقط كان يمكن أن يعهد بنقل مسلة طولها 26 قدماً عبر النيل وذلك بعد إزاحتها عن قاعدتها. وقد قام بذلك بطلب من ويليام جون بينكس، جامع التحف الإنكليزي، وصديق بايرون، وذلك رغم استياء القنصل العام الفرنسي دروفيتّي الذي ما تخلّى عن المسلّة إلا بشق النفس. وهكذا وللمرة الثانية كانت المسلة من حظ الإنكليز، ومن جديد سيكون مقدراً لها أن تؤكد أمجاد الباحثين الفرنسيين.

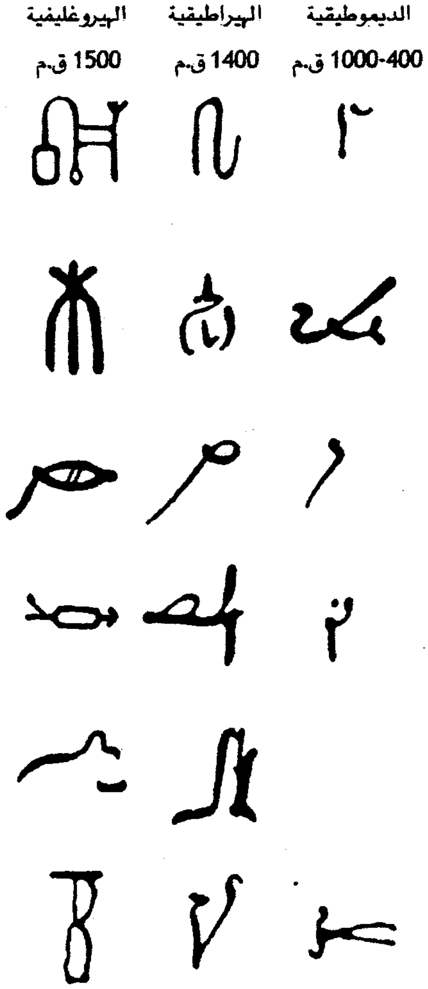

الشكل -20- تطوّر الكتابة المصرية.

ولدى زيارة قام بها بينكس لجزيرة الفيلة على النهر وقعت عينه على ما كان قد خفي عن أعين الآخرين: كانت هناك قاعدة ذات نقش يوناني وهي القاعدة التي أسقطت من فوقها المسلة المجلّلة بالنقوش الهيروغليفية وبكلمة أخرى فقد كانت القاعدة والمسلة تشكلان معاً وحدة متكاملة. أما النقش اليوناني على القاعدة فكان يتضمن اسم كليوباترة.

وفي 1815 تمكن بينكس وهو البحاثة الذي لا يكل، من استنساخ هيروغليفات المسلة. أما الحجر نفسه فوصل إلى يونغ بعد عام من ذلك التاريخ لكنه لم يتمكن من استنباط شيء منه.

في ذلك الوقت كان شامبليون يعمل كمن به مسّ، لا ينال من نشاطه تجريده من الحقوق السياسية ولا تدهور صحته. كان يطمح إلى استنطاق الموتى منحنياً على الهيروغليفات المنقوشة والكتابة الهيراطيقية وينكب على كتب الموتى التي عثر عليها

في المقابر ثم نشرت نصوصها في المجلدات الفرنسية الأنيقة من «وصف مصر». ومرة تلو المرة يعيد مقارنات الرموز المنفصلة في نمطي الكتابة ثم يعيد موازنتها فيا للعمل الدقيق المضني! لكنه أتم ذلك في أيار (مايو) سنة 1821 وصار بإمكانه أن يعيد كتابة النص الديموطيقي رمزاً بعد رمز بواسطة الكتابة الهيراطيقية وأن يعيد كتابة هذه بالهيروغليفات، وهو ما لم يكن بمقدور أي إنسان من سابقيه أن يقوم به. ويظهر (الشكل 20) ضخامة الهوة الفاصلة بين الكتابة الديموطيقية وبين كلا النمطين الآخرين وصعوبة تجاوز تلك الهوّة.

وبينما كان شامبيلون يعبر تلك الهوة أحس فجأة بسند قوي تحت قدميه. فقد أدرك ذلك الشيء الرئيسي الذي قضى بضربة واحدة على كل أخطاء الماضي وسدد طعنة قاتلة للشيطان الهيروغليفي الماكر. ومن جديد يحق لنا أن نفتح أذرعنا وأن ننظر بكل دهشة قائلين: ما أيسر ذلك وما أوضحه! انه لبيّنٌ دون برهان!

ومن الطريف أن تخطر لشامبليون يوم عيد ميلاده، في الـ 23 من كانون الأول 1821 الفكرة السعيدة بإحصاء رموز النص الهيروغليفي وجميع المفردات اليونانية في حجر رشيد. وقد اتضح له أن الـ 486 كلمة يونانية كانت تقابل بـ 1419 هيروغليفياً وعلى هذا ما كان من الممكن أن تكون الهيروغليفات كلماتٍ - رموزاً ولا ايديوغرامات ولا رموزاً مجردة. فعددها أكبر من أن يسمح لها بذلك! ذاك ما أظهرته حساباته بالمنطق الحديدي للحقائق.

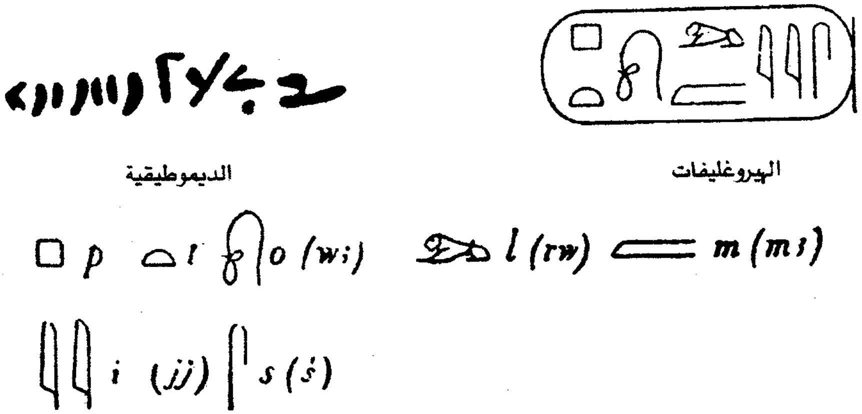

الشكل -21- تحليل اسم بطليموس وفق قراءة شامبليون.

تكاد قراءة الرموز أن تغدو ملموسة باليد، تلك القراءة التي كانت هدف حياة ذلك الباحث، الهدف الذي ما انفك يتقدم نحوه عبر عواصف عصره، عبر الأمراض والملاحقات والحرمان. إنه يراه ولن يطول الوقت حتى يسقط في يده كالثمرة الناضجة.

يقوم شامبليون بإجبار الرموز الديموطيقية التي كان يعرف معناها اللفظي من خلال النص اليوناني، على القيام برحلة معاكسة وذلك بكتابتها بالصيغة الهيراطيقية ثم بالصيغة الهيروغليفية. أما حجر المحك بالنسبة له فكان الإطار البيضوي المتضمن لاسم بطليموس. وهو يبيّن أن ذلك الاسم كتب وفقاً للمبدأ اللفظي حتى وفي صورته الهيروغليفية، وبهذا يكتشف خطأ يونغ فيقرأ لا «بطوليمايوس» بل «بطوليس» *p-t-o-l-m-i-s*، وذلك وفقاً لرموز اللغة المصرية.

تم حصاد هذا الجنى الكبير في مدينة غرونوبل. وفي سنة 1821 حمل شامبليون المادة كلها إلى باريس وكان المرض قد بلغ به أشد مبلغ. وكانت خلاصة أبحاثه بحاجة إلى ما يثبتها. فكان لا بد من البراهين المقنعة من أجل إلزام المتشككين على لزوم الصمت.

كان شامبليون قد تعرف في إحدى البرديات الديموطيقية على الكيفية التي يكتب بها اسم كليوباترة بالديموطيقية. فأخذ يتدرّب مرات لا حصر لها على ذلك الاسم فيكتبه بالهيراطيقية وبالهيروغليفية. وكان يعرف أن ذلك الاسم لا بد وأن يكتب هكذا، على هذه الصورة دون غيرها في الإطار البيضوي الملكي في المدونة الهيروغليفية. لكن المدونة لم تكن موجودة.

وأخيراً وفي شهر كانون الثاني سنة 1822 ظهرت الطبعة الليتوغرافية للنص الهيروغليفي الذي كان قد نسخ عن المسلّة التي عثر عليها في جزيرة الفيلة - تلك المسلة التي كانت قد عبرت شاطئ النيل بكل حذر عن طريق بالتسيوني الإيطالي. وقد أرسل بينكس بنسخة من المدوّنة إلى المعهد الباريسي حيث كان الكثير من الحساد لشامبليون فلم يحملوا النسخة إليه بل إلى ليترون، عالم اليونانيات الشهير.

غير أن ليترون كان صديق الدراسة بالنسبة لشامبليون فقدم إليه النسخة الليتوغرافية المرسلة من طرف بينكس. ويصف ج. هارتليبين، مؤلف سيرة شامبليون، تلك اللحظة بهذه الكلمات:

«فكأن تياراً سرى في عروقه عندما وقع نظره عليها - فهناك، في الإطار الملكي البيضوي الثاني كان يظهر اسم «كيلوباترة» وقد كتب بنفس الصورة التي كتبه بها بعد أن استخرج صورته الهيراطيقية الأولى مرات عديدة من الصيغة الديموطيقية منتظرا بلهفة الإثبات النهائي لذلك! فَمَنْ استطاع تحقيق ذلك من قبله؟».

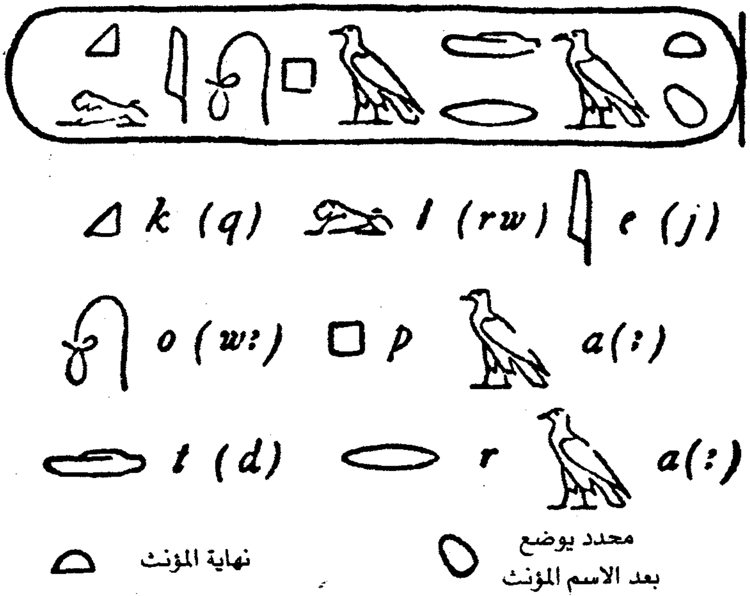

الشكل -22- الشكل المتضمن لاسم كليوباترة وتحليل هيروغليفاته.

قدم الإطاران الملكيان البيضويان، حاملا اسمي «بطليموس» و «كيلوباترة» لشامبليون اثني عشر حرفاً هيروغليفياً مختلفاً وعلى الفور وضعا قراءة الرموز فوق أرضية ثابتة لا تتزعزع لكن سرعان ما تكاثفت السحب فوق الفرحة بالكشف العلمي. ذلك أن بينكس عندما أرسل النسخة إلى باريس كان قد كتب فوقها بالقلم الرصاص - «كليوباترة» - وهي فرضية يمكن فهمها جيداً إذا ما أخذنا بالحسبان أنه كان منذ زمن بعيد قد قرأ النص الإغريقي على قاعدة المسلة. وبينما استطاع شامبليون وحده، أن يؤكد حرفاً بعد حرف ما كان الآخرون (بينكس، يونغ وليترون) قد افترضوه افتراضاً فإن هؤلاء هجموا عليه هجمة واحدة لينتزعوا منه قصب السبق من غير أن ينسوا في الوقت نفسه أن يتناحروا فيما بينهم.

غير أنه صار من المستحيل الوقوف في طريقه. فهو يجمع الإطارات الملكية حيثما وجدها، تلك الإطارات التي تتضمن الأسماء الهيروغليفية، ويبدأ بقراءتها وقد تزود بترسانة كاملة من أسلحة علم المصريات التي كان قد صاغها بيده. ونفخت حياة جديدة في الفترة المتأخرة من التاريخ المصري ونطقت الأحجار بكلام مفهوم فهو ذا أمامنا الكساندر، تيبريوس، دوميتسيان، جرمانيك وتراجان وهي تنظر إليه من نوافذها البيضوية كأصدقاء قدماء.

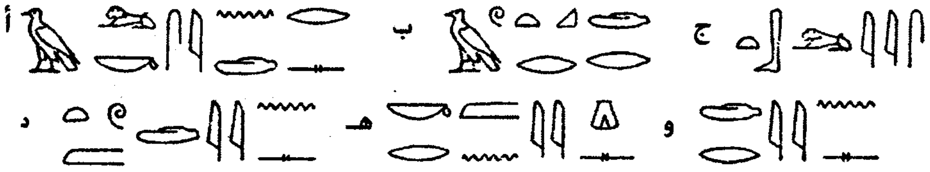

الشكل -23- اسم الكسندر (أ) لقب «الحاكم المطلق» (ب) وأسماء تيبريوس. (ج) دوميسيان. (د) «جيرمانيك». (هـ) و «تراجان» (و) مكتوبةً بالهيروغليفية

أسماء مألوفة لكنها غريبة في الوقت نفسه. إذ ليس بينها جميعا اسم مصري محلي واحد ومن هنا ينتهي شامبليون إلى القول خطأ بأن الأسماء الأجنبية من العهد المتأخر كانت الوحيدة التي كتبت بالرموز اللفظية.

وفي آب سنة 1822 يخطو خطوة جديدة كبرى في طريق حل رموز الكتابة الهيروغليفية. فقد استرعى انتباهه أن نجمة صغيرة تظهر خلف بعض مسميات النجوم المكتوبة بالهيروغليفية. نجم خلف مسميات النجوم؟ وفجأة تتألق في ذهنه الفكرة الصائبة: إنه المحدِّدات (حسبما أسماها بنفسه) أو الرموز التوضيحية وبهذا تم اكتشاف حقيقة تلك الرموز الإضافية التي كانت تظهر في نهاية الكلمة وكانت تخصص بهدف التحديد الدقيق للمفردات التي تلفظ بطرق مختلفة، ولكنها تكتب بصورة واحدة وتشكل في الوقت نفسه الشطر الأساسي من نظام الكتابة المصرية بأسره.

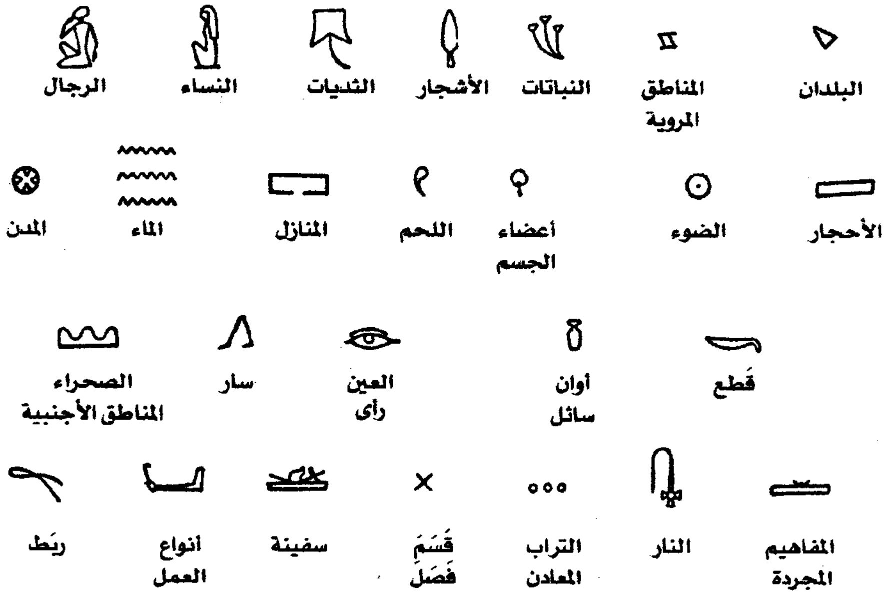

الشكل -24- محددات مصرية.

غير أن شامبليون لم يكن بعد قد نشر كشوفاته الجديدة في ميدان الهيروغليفية فالحياة علمته الصمت، غير أنه في الـ 22 من آب سنة 1822 يتلو في أكاديمية النقوش مقالته حول الكتابة الديموطيقية وهي ثمرة عشر سنوات من البحث. وأخيراً تحقق النجاح الحقيقي! فقد حظي باستقبال لم يكن ليتخيّله حتى في أحلامه. فدي ساسي، دي ساسي العظيم، المعلم السابق والذي أشاح بوجهه فيما مضى عن تلميذه الذي بدا له شديد الاعتزاز بالنفس، ينهض من مكانه ويفتح ذراعيه في إعجاب صامت نحو العالم الشاب. ويقدّم اقتراحاً بأن تأخذ الدولة على عاتقها مسؤولية إصدار مؤلفات شامبليون.

وغدا شامبليون شرهاً إلى جمع الإطارات الملكية بنهم لا يمكن إشباعه. ولم لا. فما أحفل ذلك العمل بالثمار. إنه يقع على اثنتي عشريات من الأسماء في نقوش المعابد، لكنها كانت، كعادتها أسماء أباطرة يونان ورومان ارتبطت بالفترة الأخيرة من تاريخ مصر القديم. وربما كان يأمل في العثور على مثل ذلك الاسم في ذلك الصباح التاريخي ليوم الـ 14 من أيلول (سبتمبر) 1822 عندما انحنى متوتر الأعصاب فوق طرد كان قد أرسله إليه المهندس المعماري الفرنسي غويو الذي جاب مصر والنوبة. وكان ذلك الطرد يحتوي على نسخ دقيق للنقوش والرسوم النافرة التي كانت تزين المعابد المصرية.

هي ذي الصفحة الأولى في يده... وفجأة يقف بترقب. فمن ضمن الإطار البيضوي كان أحد الأسماء الملكية يحدق فيه وهو أمر لا سبيل إلى الشك فيه - لكنه اسم ما كان يمكن أن يكون للملوك اليونان ولا لأباطرة الرومان. وثبت الباحث الشاب نظره في مجموعة الهيروغليفات كمن وقع تحت تأثير السحر.

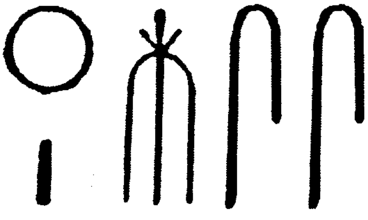

الشكل -25- الكتابة الهيروغليفية لاسم رمسيس

وراح المخ يعمل بشكل محموم، وتضاعف الهياج والتوتر وبدأت اليد الممسكة بالصفحة بالارتعاش.. فالاسم يبدأ برمز الشمس (الدائرة اليسرى من الأعلى).

لكن الشمس تلفظ بالقبطية (ولنذكر «أتحدث بالقبطية إلى نفسي») رع *re*. يلي ذلك رمز لا يزال مجهولاً ويليه رمز مكرر يمثل قطعة قماش مطوية كان هذا يعني *R-?-s-s* من

غير المحتمل أن تكون *R (e) -x?-s-s* من اللاتينية *rex*[1]. فمن المعروف أن الإطار البيضوي لا بد وأن يحتوي على اسم علم..! ألا يمكن أن يكون ذلك اسم *R-m-s-s*، أو رمسيس، الأشهر من بين الفراعنة؟ وبيدين مرتجفتين يقلب شامبليون بين الرسوم وتتدافع في رأسه الأفكار بسرعة جنونية، وتشد أصابعه على صفحة جديدة وإذا بنظراته تتسمّر من جديد على أحد الأسماء. كانت صورة الاسم هكذا:

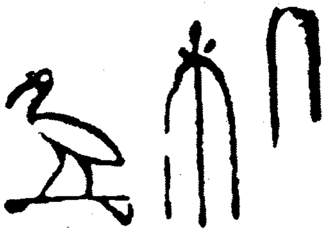

الشكل -26- الكتابة الهيروغليفية لاسم توتموس

فهو أيضاً ينتهي بنفس الحرف *s*: أما بدايته فتبدأ بصورة ايبيس وهو الطائر المقدس الذي يجسّد الإله توت ومن جديد يظهر بينهما رمز ؛ فإذا كانت أطروحة *R-m-s-s*، «رمسيس» صحيحة فإن هذا الرمز لا يعني إلا حرف *m* فالاسم إذن *Thout-m-s*. إنه توتموس بالطبع، توتموس ثاني الأسماء المتألقة من بين أسماء الفراعنة القدماء!

لم يعد هناك شك، فقد سقطت الغشاوة عن عيني شامبليون. فاستعمال الهيروغليفات من أجل الكتابة اللفظية التي كان يعتبرها حتى ذلك الوقت مجرد نتيجة لانحطاط الكتابة في فترة متأخرة، مَثُلَ أمامه كمظهر مميّز بالنسبة للكتابة القديمة نفسها. وبهذا لم ينته فقط إلى حل أحجيتها الأخيرة - إذ كان لا يكاد يجرؤ على التفكير بذلك حتى في أحلامه وهاهو ذا يمسك بيده مفتاح تاريخ مصر القديم الذي فقد منذ ألف وخمسمئة سنة. فهو الشاهد الوحيد على أن النقوش لا تعود بمجموعها إلى الزمن المتأخر بل وأن عدداً منها يعود إلى التاريخ الغابر.

ويصعب على الباحث المنهك بعد ذلك أن يجبر نفسه على الاستمرار في الجلوس إلى طاولة العمل إلا بمشقة كبرى. ويلزم نفسه بالتزام الهدوء إذ كان بحاجة إلى التركيز فقد كان كل شيء بحاجة إلى إعادة التفكير وإلى المقارنة والتمحيص. وانتابته رغبة شديدة في أن يرسل بملء صوته صرخة الفرح وأن يجري بأقصى سرعة وفي أي اتجاه وأن يطلق لمشاعره

1- Rex باللاتينية تعني «ملك».

العنان، لكن العلم - سلطان صارم وليس غريباً أن يكون شامبليون قد ترعرع في أرجائه حتى بلغ مدارك الرجولة. وبالإضافة إلى هذا فإن الهجمات المعادية المتكررة ومواقف الحسد الخسيسة والتي صارت بمجموعها تتعاظم في أوساط العلماء، وبخاصة في أوساط الهواة السطحيين، جعلته حذراً بل وجباناً تقريباً. وبجهد يكاد يتجاوز طاقة البشر تمكّن من السيطرة على نفسه وانتقل إلى التحقق العملي البارد فأمضى النصف الأول من نهاره منكبّاً على رسوم غويّو.

وعند منتصف النهار كانت قد تأكدت فرضياته الأولى. فهب من مكانه وبسرعة لملم الصفحات ذات الرسوم ونضد أوراقه وأنطلق إلى أخيه في المعهد الفرنسي ففتح باب المكتبة على مصراعيه وعلى طاولة جاك - جوزيف المندهش رمى بحافظة الأوراق وصاح بصوت متهدج بدّل الهياج من نغمته: «*Je tiens l'affaire*» «لقد نجحت!» وكانت هذه العبارة صرخة للنصر، لكن الانفعال المنهك كان فوق احتمال الباحث المرهق فحلّ برجليه الوهن وانهار على الأرض لا حراك فيه.

ظل خمسة أيام خائر القوى لا يحسّ بغير الإرهاق القاتل. واستعاد وعيه بعد ذلك فهرع إلى العمل من جديد. وفي غضون بضعة أيام كتب ما تضمن عصراً بأكمله وهو «رسالة إلى السيد داسييه حول أبجدية الهيروغليفات اللفظية» وقد تليت في جلسة أكاديمية النقوش في 27 أيلول.

يقدم الباحث في مقاله هذا وصفاً مبسطاً للطريق الذي سلكه نحو قراءة الأسماء اليونانية والرومانية ويقرر بعد ذلك - كذروة لكل ما تم التوصل إليه - أن النقوش القديمة أيضاً تتضمن، إلى جانب الأيديوغرامات، رموزاً أبجدية كانت تمثل شطراً قديماً وملموساً في نظام الكتابة.

أحدث اكتشاف شامبليون من الأثر ما يحدثه انفجار القنبلة. فقد كانت قراءة الرموز الهيروغليفية تمثل بالنسبة لبني قومه قضية لاصقة بقلب الأمة كلها، والقضية الأولى للساعة. ففرحت فرنسا بأسرها لفرحه وعمّتها البهجة بسبب المأثرة العديمة المثال. لكن باريس هي باريس، وقد أكد الحساد بكل تشفٍ بعد ذلك أنهم بدؤوا هناك يكتبون بأبجدية شامبليون الهيروغليفية... رسائل الغرام.

أما ذروة الإنجازات فكان البحث الذي نشر عام 1824 بعنوان «دراسة في النظام الهيروغليفي لقدماء المصريين» ويتحدث فيها عن الأسماء التي تم العثور عليها في النقوش لفراعنة قدماء يعود حكمهم إلى الألف الثاني قبل الميلاد، ويقدّم قراءة لعدد كبير من

الأسماء الأخرى بل ويترجم نتفاً منفصلة من نصوص متكاملة، وبالطبع لم يكن ذلك المؤلّف معصوماً عن الأخطاء. لكن تلك الأخطاء كانت من الندرة إلى درجة أنها لم تؤد إلى الحط من قيمة دراسته؛ ومع كل هذا فإن تلك الأخطاء وضعت في أيدي أعدائه السلاح الذي انتظروه طويلاً لكي يهاجموه به.

تمكنت الأدمغة الكبيرة في ذلك العهد من تقييم الجهد الأعظم لشامبليون، وكان من بينها ويلهيلم فون هومبولدت في ألمانيا وهامّير - بّورغشتال في النمسا. أما في إنجلترا فقد وقف هنري سولت مؤيداً له بصورة شفوية ومطبوعة، الأمر الذي عجز عن تحقيقه للأسف إنكليزي آخر كان الأولى أن يسبق به الجميع وهو توماس يونغ.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى تعالى حول ذلك الكشف ما أسماه ايرمان بـ «نباح متعدّد الأصوات» ففي إنجلترا كانوا يشتعلون رغبة في تسليم قصب السبق ليونغ، كما ظهر في فرنسا أيضاً عدد من «قرّاء الرموز» الذين سبقوا - حسب رأيهم - شامبليون فكانوا، بالتالي، أجدر منه بحيازة القصب، وكان طبيعياً أن يظهر في عدد من البلدان جماعة من هواة السخرية والتعالي. فهل نحن بحاجة بعد هذا إلى التذكير بأن أصوات ذوي الأغراض الدنيئة، والتي يتميّز بها عادة أدعياء المعرفة بكل شيء، كانت تسمع في تلك الجوقة.

ومن بين هؤلاء كان يوليوس كلابروت الأخصائي في الدراسات الصينية، وكان قد أنجز الكثير في مجال اختصاصه، غير أنه كان، للأسف، شريراً فاسد الطبع وقد قال شامبليون في لحظة كانت الطعنات تبدو فيها قدراً لا سبيل إلى الفرار منه: «إنه قدري الأسود» وكان كلابروت قد وضع ما يسمى بالنظرية الأكرولوجية التي تقول بأن قدماء المصريين كانوا يكتبون وفق نظام الكلمة - الرمز. وأنهم كانوا يبدؤون بتلك الكلمة جميع الكلمات الأخرى المبتدئة بذلك الحرف كأن يبدؤوا مثلاً بكتابة رمز لكلمة «شمس» ثم يبدؤون به كتابة جميع الكلمات المشابهة في المطلع كـ «شهر»، «شجر»، «شرق»، وما شابه ذلك.

ونهض عالم اللاهوت زيفّارت اللايبزيغي ليرفع عقيرته. ذلك أنه قد حدث ذات مرة - ومن بمقدوره أن يتقرى جميع المسالك التي خلقها الله - أن التقى بشامبليون في روما وأن هذا قد تمكن من إحراز نصر ساحق عليه في إحدى «مباريات قراءة الرموز» الأمر الذي لم يستطع زيفّارت نسيانه. فبدأ في مساجلاته باعتراضات كان يمكن اعتبارها صحيحة إلاّ أن صاحبنا انتهى فيما يخص الهيروغليفات إلى نتائج خيالية تماماً، وقد دخلت أفكاره السخيفة تاريخ الفكر الألماني كأنموذج بديع للعملية الزائفة. حتى أن أحد أعماله الرئيسية كان يسمى:

«برهان لا يقبل النقض على أن الطوفان قد انتهى في السابع من أيلول سنة 3446 قبل ميلاد المسيح وعلى أن الأبجديات قد وهبت إلى جميع الشعوب في ذلك التاريخ».

الاتهامات المتصلة بـ «خيبة الأمل» وهجمات ممثلي العلم الرسمي إلى جانب الاحترام الكبير والتحقيق الساحر للفكرة التي كرس من أجلها الحياة كلها - تلك كانت المراحل الأساسية لحياة شامبليون المقبلة. فقد توصل إلى تطوير مهاراته حتى الذروة من خلال عمله في المجموعة الفنية من الآثار المصرية التي كانت تعود لملك سردينيا في تورينو. وكتبت له بعد ذلك سعادة السفر إلى مصر والتطواف فيها ودراستها فوصل إليها وكأنه يصل إلى ممتلكاته الخاصة فأمضى فيها أجمل ساعات عمره. وفيها أيضاً وفي النواويس الكئيبة للمقابر الغابرة عبر القرون أحس بأنفاس الموت الرهيبة.

أصبح شامبليون حامل وسام فرقة الشرف وكادوا أن يتوّجوه في روما بالقبعة الكاردينالية. وقد استطاع أن ينقل معارفه العلمية إلى ايبوليتو روزيلّيني من بيزا، وكان أوفر تلامذته موهبة. وفي ذلك الوقت كانت فرنسا الرسمية حكومة وبلاطا تنظر إلى مأثرته العلمية الكبرى بلا مبالاة وفيها وسّع الأعداء من نشاطهم فلم يتمكن من الوصول إلى كرسي الأستاذية في الكوليج دي فرانس إلا بعد أن نجح في إزاحة العديد من العقبات والصعوبات.

وتمكن العمل الشاق الذي ضحى في سبيله بكل حياته والصراع السياسي والبحث العلمي الهائل الذي قام به في مصر من تدمير صحته. وانضم إلى ذلك السل ومرض السكر... وقد حدس بأنه وُسم بميسم الموت فصرخ ذات مرة: «يا إلهي، فقط عامين لا أكثر، لمَ لا؟» وصرخ في مرة تالية: «ما أبكر الرحيل» ثم مسح على جبينه وقال: «لا يزال هنا الكثير». وفي الرابع من آذار سنة 1832 غالته يد المنون. وفي الطريق إلى مقبرة بير - لاشيز كان صفوة عالم العلم يسيرون لتشييع جثمانه. وكان بين المشيعين أستاذه الشيخ سيلفيستردي ساسي والكسندر فون هومبولدت.

قال شامبليون ذات مرة: «علم الدراسات القديمة - فتاة رائعة الجمال، لكنها من غير بائنة».

لكنه أخطأ في ذلك الحساب. فما أعظم الكنز الذي جاءته به تلك الفتاة. و «الإلهام فقط - تلك هي الحياة»، وقد أوقد ذلك الإلهام قلبه ذات مرة فلم تنطفئ شعلته بعد ذلك أبداً. أجل، لم يقدر له أن يعيش طويلاً لكن إشعاعات الإلهام المشرقة الألاقة كانت تنير طريقه القصير في كل مرة عندما كانت السحب المعتمة تتجمّع حتى يبدو الطريق مجهولاً ولا سبيل

إلى المضي نحو الأمام. قد يخيل لنا أن علم المصريات الفني الحديث الولادة قد دفن إلى جانب مبدعه شامبليون. إذ حملت الريح إلى كل مكان بذور الشك في نتائج قراءاته التي لم تكن منزهة عن الأخطاء والنواقص. وإذا كان عمل شامبليون قد تخطى موته وتواصل حتى النهاية فإننا مدينون بذلك لجهود العالم والدبلوماسي الألماني كارل يوسيان بونزين ولأعمال الفيلولوجي الألماني ريخارد ليبسيوس التي كرس في سبيلها حياته بطولها.

تعرف بونزين على شامبليون في روما عام 1826 وترك ذلك اللقاء انطباعاً عميقاً في نفسه. كما أن بونزين بدوره دفع العالم الفتي ريخارد ليبسيوس والذي كانت مواهبه تبشر بأفضل النتائج، إلى تكريس حياته لدراسة المصريات. وقد توسّل العالم الألماني بكل الإنجازات التي كانت قد تمت من قبله. على الرغم من أنه لم يكن في أول عهده قد تسلح بعلم المصريات، واستطاع بصميميته الألمانية، أن يوسّع الشرح الذي أحدثه العبقري الفرنسي، وأن يحرّر أعماله مما علق بها من أخطاء.

ولد ليبسيوس عام 1810 في هامبورغ في زاآل، ودرس الفيلولوجيا الكلاسيكية في غيتينغن وبرلين على أشهر الأساتذة في ذلك الوقت. والحق انه كان بمقدور الكثيرين من معاصريه أن يفخر بتلقي مثل هذه الدراسات، غير أن ليبسيوس تجاوزهم جميعاً في نقطة واحدة: إذ إنه رُسم وهو في الثانية والعشرين من عمره فارساً من فرسان العلم لقاء قراءته المستقلة وتفسيره لـ «لوحات ايغوي» الغامضة والتي سنعود إليها بعد حين.

وفي عام 1833 وصل ذلك الشاب، الذي بدأ حياته بتلك الصورة المشرقة، إلى مدينة باريس التي كانت قبلة جميع المستشرقين في ذلك الحين، وذلك لإتمام دراساته. فشرع بالدراسة الموضوعية الشاملة لمؤلفات شامبليون بما فيه من طاقة لا تنضب وذكاء وقاد. لقد كان مؤمناً بقيمة ذلك العمل فأخذ يتلمّس بعض التناقضات البسيطة فيه وراح يرمم نواقصه ويشير إلى الأماكن التي تثير بعض الريبة ويصوب الأخطاء. وبكلمة واحدة فقد بدأ بما كان مقدراً لشامبليون نفسه أن يقوم به لو لم تخترمه يد الموت.

وربما خطر لنا أن نتساءل: وكيف. أعدنا إلى التناقضات والنواقص والأماكن المريبة والأخطاء؟

طبعاً. فمما يمكن ملاحظته من الأمثلة السابقة كان شامبليون يفهم الكتابة الصوتية للمصريين على أنها مكونة من أحرف منفصلة. أما في الواقع فإن الكلمة التي كانت تكتب كتابة صوتية كانت في غالب الأحيان تتضمن كلمة - رمز مكونة من عدة سواكن يضاف إليها في النهاية عادة ساكن أو بضعة سواكن كانت قد ظهرت في تلك الكلمة - الرمز.

فمثلاً الكلمة - الرمز «محراث» كانت تحمل معنى لفظياً هو *mr*[1]. فإذا ما أراد أحد المصريين القدماء أن يكتب كلمة «أحبَّ» التي تلفظ أيضاً *mr* أضاف إلى الكلمة الرمز الخاصة بالمحراث إشارة وهي *r* وهكذا يظهر بدلاً من *mr* ما يمكن أن نسميه *mr-r*. وبالإضافة إلى هذا كانوا يضيفون أيضاً رمز «المروحة» *ms* ورمزاً يعبر عن لوح غرست فوقه أسافين *mn*.

بالنسبة لشامبليون كانت ، و تمثل ثلاثة رموز تعني حرف *m*. وكان على كل من هذه الرموز أن يستعمل فقط للتعبير عن الـ *m* التي تقابل جذر الكلمة! فإذا ما قابلته حالات (وكثيراً ما كانت هذه الحالات تقف له بالمرصاد) تكون فيها ، و معبّرة لوحدها عن معنى *mr*، *ms* و *mn* كان بكل بساطة يفسّر ذلك كاختصار لكتابات عاديّة. وبفضل حدسه العبقري فقط استطاع عملياً أن يتحاشى جميع الأخطاء: فحيث كان المصري يكتب *mr-r* قاصداً بذلك *mr* (على حسب ما ذكر سابقاً في مثل «أحبَّ» فإن شامبليون ما كان يرى منذ البداية إلا *mr* وعلى العكس فإذا ما ظهر أمامه رمز *mr* مفرداً كان شامبليون يعدّ ذلك كتابة مختصرة ويضيف الـ *r* المفقودة. ولهذا فإن لنا كامل الحق في أن نجزم بأن شامبليون لم يكن فقط أول من قرأ الهيروغليفات بل وأول من فهمها أيضاً.

أما ليبسيوس الذي دوّنت له زوجته في سجل خصاله العائلية الكريمة: «الوضوح الكامل ودقة المحاكمات» فقد انتبه إلى الجوانب الضعيفة في نظرية شامبليون، تلك الجوانب التي خفيت عن أنظار ذلك «المصري» من دوفيني.

يا للمثال الرائع للتعاون بين عالمين أنجز أحدهما بعبقريته الفياضة، مأثرة علمية عظمى كلفته حياته، والآخر ألماني متعمق مدقق، «ذو اتجاه بالغ الإتقان» نذر حياته بطولها للدفاع عن نظرية رائده وتعميق جذورها. وفي الوقت نفسه ما أبعد الاختلاف في طريقة البحث والمنهج إذا ما استمعنا إلى مبدأ ليبسيوس القائل: «ما الذي يمكن أن يثير من الانطباع أكثر من قوة الروح التي تتجلى في المظهر الرصين والقدرة على ضبط الانفعالات، تلك القوة التي تقف نقيضاً للمشاعر الإنسانية الهوجاء!».

ذلك «المظهر الرصين» الذي كان يمثل أبعد غاية في تربية ليبسيوس لنفسه وجد تعبيره العلمي الكلاسيكي في دراسته التي أصدرها في روما سنة 1837 والتي وجهها إلى تلامذة شامبليون بعنوان: «رسالة إلى السيد البروفيسور إ. روزيلّيني بخصوص الأبجدية الهيروغليفية» وتتضمن تعميماً للنتائج التي تم التوصل إليها وقد وضعت الأساس

للعلم الجديد. وهكذا قضي مرة وإلى الأبد على الشكوك التي كانت تحوم حول صحة أو موثوقية قراءة الرموز وفق المبادئ التي طرحتها أعمال شامبليون، وبهذا صار بإمكان علم المصريات أن يحتل مكانه كشقيق كامل الحقوق لعلوم الدراسات الشرقية الأخرى.

ولكن ربما احتاج الأمر إلى أسس أخرى لإثبات ما تم إنجازه؟ وهكذا أقام ليبسيوس سنة 1866 برحلته الثانية إلى مصر وهناك، وبمعونة عالم المصريات رينيش، وهو من فيينا، اكتشف في منطقة سان وهي في التوراة تسوان (باليونانية تانيس) حجراً ثلاثي اللغات، وقد عرف النص المنقوش فوقه فيما بعد «بميثاق كانوب».

فبين خرائب المدينة الهامدة استوقفت أنظارهما مسلة نحتت من الكلس المتحجر، وكان وجهها يتضمن مدونة هيروغليفية تقع في 37 سطراً وترجمةً يونانية لها تتألف من 76 سطراً من الخط الدقيق. وظهر النص نفسه في طرف اللوحة وقد نقش بالكتابة الديموطيقية، إلا أن ليسبيوس لم يعره انتباهاً بادئ الأمر.

وهكذا حدث ما كان ينتظره أصدقاء شامبليون ومريدوه منذ زمن طويل وما لم يتمنّ أعداؤه إمكانية حدوثه: فقد لقيت أعمال شامبليون تأكيدها للمرة الثانية، إذ إن الترجمة التي قام بها ليبسيوس للشطر المصري وفق منهج شامبليون مع الأخذ بالحسبان نتائج الدراسات الحديثة، تطابقت تماماً مع النص اليوناني! لقد استطاع صاحب الحجر السعيد أن يقرأ المدونتين في جلسة واحدة ودون صعوبة.

وهكذا حلت رموز الكتابة المصرية في الأساس بينما كان علم اللغويات المصري ما يزال يدرج بخطواته الأولى. لكن أساس ذلك العلم صار يزداد صلابة وقوة وصار ينمو ويشتد نتيجة لتضافر جهود العلماء من البلدان الأوروبية: فأخذ البعض باكتشاف مظاهر جديدة في لغة ذلك الشعب العريق، واخذ غيرهم بتفسير هذه المظاهر بينما كان آخرون يجمعون المادة المتجمّعة ويصنفونها ويعدّون لها الشروح.

وفي الوقت نفسه بقي العمل متصلاً من أجل إنجاز قراءة الرموز بصفة نهائية. ومن الأعمال التي قدمت في هذا المضمار نذكر دراسات الإنكليزي بورتش والإيرلندي هينكس والألماني بروغش؛ وقد انصرف الأول والثاني إلى دراسة الهيروغليفات وخاصة منها المحدّدات بينما انصرف الثالث وكان ما يزال تلميذاً في السنوات الأخيرة من الجمنازيوم، إلى دراسة الديموطيقية.

ونحاول في الختام إعطاء ملخص لما تم إنجازه في ميدان حل رموز الكتابة المصرية خلال تلك المئة والخمسين سنة التي تلت أعمال شامبليون.

سبق أن ذكرنا أن الأنماط الثلاثة من الكتابة المصرية - الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي - هي في الواقع كتابة واحدة. ولهذا فإن بإمكاننا، إذا ما أردنا عرض بنائها وماهيتها بصورة ملخصة، الاكتفاء بوصف تلك الهيروغليفات الذائعة الصيت والتي غُلفت أكثر من، سواها بأسرار الآلاف من السنين.

من المعلوم أن الكتابة المصرية كانت تتضمن ثلاثة أنواع من الرموز: الكلمات - الرموز، والرموز اللفظية («الحروف المنفصلة») والرموز التوضيحية الخرساء.

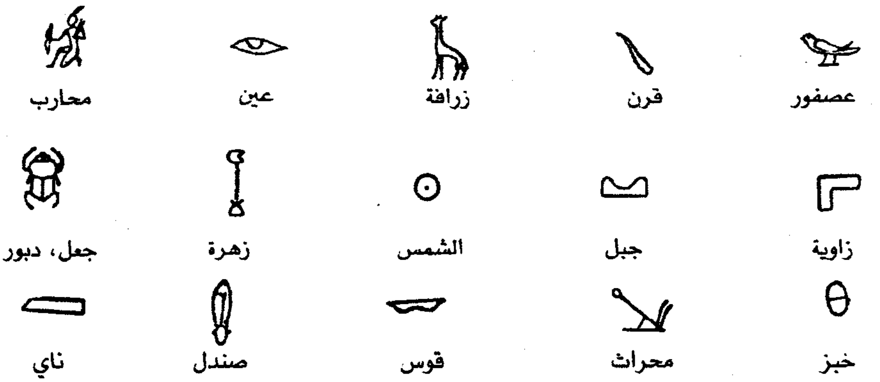

الشكل -27- هيروغليفات مصرية تعني أشياء ملموسة

تعبر الرموز - الكلمات أو الايديوغرامات عن مفهوم الشيء الملموس المحدَّد المنظور (ولا تتخذ أيّ أهمية في هذا كيفية لفظ الكلمة التي تعبر عن الشيء المصوّر). وهذه الرموز كثيرة العدد في الكتابة المصرية غير أنها لا تنفي على الإطلاق استعمال الرموز الأخرى.

ومما يثير الدهشة بصفة خاصة الكيفية التي تجمع بها هذه الرموز بين التصوير الواقعي وبين الشكل المبسط للخطوط، (لقد بلغت من الروعة في الأداء ومن الكمال الفني حدوداً لا نجد مثيلاً لها عند أي من الشعوب) (هـ. شنايدر).

ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الكلمات - الرموز التي كانت تستعمل للتعبير عن الأعمال ذات الاتجاه المادي الملموس. وقد رسمت هذه الرموز بطريقة ترصد اللحظة الأكثر تعبيراً عن العمل: فتصوير إنسان يرفع عصا (الجهة العليا إلى اليسار) كانت تعني «ضَرَبَ»، وتصوير طائر مشرع الجناحين تعني «طار» وهكذا.

الشكل -28- ايديوغرامات هيروغليفية تعبر عن أعمال تتم يمكن مشاهدتها

وكان من الأصعب التعبير عن المفاهيم المجرّدة، لكن الرسوم كانت تهبّ للمساعدة حتى في تلك الحالة، وكانت المشكلة هي في أن يربط الشيء المصور في معناه بالمفهوم المقصود. فمفهوم «حَكَمَ» كان يعبّر عنه برمز صولجان الفراعنة. الذي يذكر بالصنّارة، أما زهرة الليلك التي تدخل في شعار مصر العليا فكانت تعني «الجنوب» وكانت صورة الشيخ ذي العصا تعني «الهرم» والإناء الذي يقطر منه الماء يعني مفهوم «البارد».

الشكل -29- هيروغليفات مصرية كانت تعبر عن المفاهيم المجردة

بيد أن هذه الرموز بمجموعها لا تخرجنا من نطاق الكتابة على أساس رسم الكلمات: تلك الكتابة التي تعبر عن مفهوم كامل فهي ليست كلمة - رمزاً. والشكل التالي يبين بوضوح أن الكتابة المصرية في عصورها السحيقة كانت تكتفي بمثل هذه الطريقة في التعبير.

ومع كل هذا فإن قسماً كبيراً كان يعتمد على اللفظ الدقيق للكلمة المكتوبة. وفي وقت مبكر جداً بدأ الاعتماد على ما يسمى بالأحجية اللفظية (وقد سلفت الإشارة إليها في الفصل الأول). وكان هذا يسيراً على اللغة المصرية بصفة خاصة، فمن المعروف أن

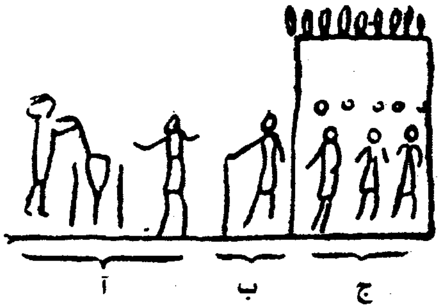

بنى (آ) كبير الموظفين (ب) قاعةً (ج)
(للملك مينيس نحو 3500ق.م)[10]

الشكل -30- كتابة هيروغليفية مصرية

الصوتيات لا تكتب فيها، ولذلك فقد ظهر فيها عدد كبير من الأمونيمات أي الكلمات المحتوية على سواكن متشابهة متوضعة وفق نظام موحّد. ولكن إذا كان ما يكتب ليس الكلمة نفسها بل هيكلها العام، هيكلها العظمي المؤلف من السواكن (فلفظ الصوتيات، وبالتالي لفظ اللغة المصرية القديمة بأسرها لم يصل إلينا ولم يتم التوصل إلى إعادة بنائه إلا بصورة تقريبية وعلى أساس المنهج المقارن) إذ ذاك تبرز إمكانية التعبير عن الكلمة مثلاً برمز يعني الشاقول *n-f-r* وتعني أيضاً كلمة «حسن» التي يتضمن هيكلها العظمي أيضاً سواكن *(n-f-r)* أو يستخدم رمز السنونو «*w-r*» لكتابة كلمة كبير (وهي أيضاً *wr*) وبالإضافة إلى هذا فإن لفظي *j* و *w* في نهاية الكلمة قد تحوّلا في وقت مبكر على ما يبدو إلى صامتين وصارا يستعملان الرمز المرسوم *p-r* ويعني «منزلاً» ويمكن أن يستخدم في التعبير عن فعل *p-r-j* ويعني «خَرَج» وهكذا.

وبمرور الزمن أخذ المصريون، من خلال إغناء كتابتهم التصويرية ومحاولة الوصول بها حدود الكمال، يبتعدون عن التصورات المتعلقة بالرسم كتصوير مباشر للأشياء الموجودة في الواقع. فلم يعودوا مثلاً يقرؤون رمز «السنونو» (*wr*) فقط كـ *wr* «كبير» بل وأخذوا ينظرون إليه بغض النظر عن معناه الأولوي الذي انطلق منه وذلك من وجهة نظر محتواه اللفظي (من مظهره اللفظي)، وبكلمة أخرى اخذوا ينتقلون إلى استعمال هذا الرمز من أجل كتابة أي كلمات أخرى يمكن أن تظهر فيها مجموعة *w-r* مثل *w-r-d* بمعنى «تَعِبَ» ولكن *w-r* تحوّلت بهذا إلى رمز لفظي من ساكنين إذا ما وضعنا في الحسبان أن الصوتيات «لا يلتفت إليها» في الكتابة المصرية، كما لا توجد المقاطع بمفهومها الحديث، ونورد فيما يلي بعض هذه الرموز المماثلة.

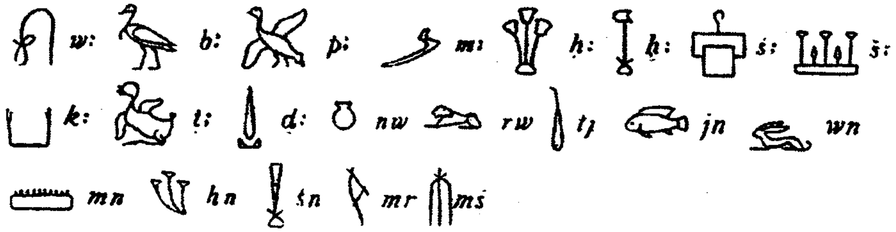

الشكل -31- رموز لفظية من ساكنين

وبهذه الطريقة نفسها ظهرت الرموز اللفظية «الوحيدة المقطع» والتي كان ظهورها إشارة إلى مرحلة أعلى في تطور الكتابة وهي اختراع الكتابة الحرفية. ويرتبط نشوءها أيضاً بالكلمات - الرموز التي تتألف فقط من ساكن واحد (ومن صائت واحد لا نعرفه) فالترياس

(المزلاج) يتضمن في اللغة المصرية ساكناً واحداً هو *s* (وصائتاً واحداً لا نعرفه، والمعلوم فقط هو أن هذه الكلمة تلفظ في القبطية *Š ei*). فكانت الكلمة - الرمز التي تعني «مزلاج» تستعمل بادئ الأمر لكتابة أي مقطع من نمط *s* + صائت ثم صارت تكتب كرمز حرفي للفظ *s* وذلك لأن الصائتات لم تكن تكتب. وهكذا صاغت اللغة المصرية «أبجديتها» من 24 حرفاً ساكناً نوردها فيما يلي:

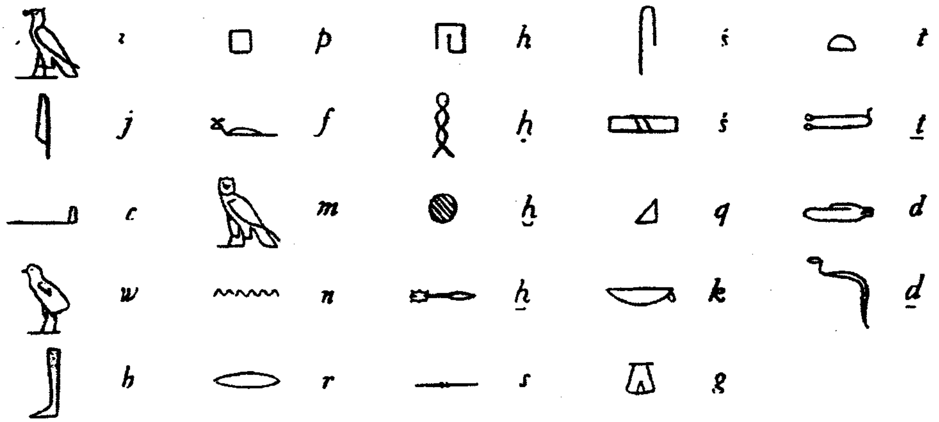

الشكل -32- «الأبجدية» المصرية

وربما يتراءى لنا أنه قد آن الوقت للانتقال إلى الكتابة الأبجدية غير أن المصريين المحافظين ظلوا متمسكين بالتقاليد وواصلوا كتابتهم بالرموز الأثيرة على قلوبهم.

أما الحق في استعارة أفضل ما أبدعه المصريون في ميدان الكتابة وقطع الخطوة الأخيرة بصورة واعية نحو الكتابة الحرفية فكان من نصيب الدولة الأثيوبية التي كانت قائمة إلى الجنوب من مصر. فقد عمدوا، في تلك البلاد الواقعة تحت أقوى التأثيرات الثقافية للجارة الشمالية، إلى استخدام اللغة والكتابة المصريتين في المراسلات الرسمية على الرغم من أن لغتهم كانت مختلفة تماماً عن المصرية. وفي نحو سنة 200 تقريباً قبل الميلاد صارت ميرويي عاصمة للدولة الأثيوبية. ومنذ ذلك الوقت بدأت البلاد بالتحرر من التأثير المصري والتطلع إلى الحياة السياسية الخاصة. وبذلك أخذت الحاجة تتعاظم نحو صياغة كتابة ملائمة للغة المحلية. وهكذا ظهر أخيراً، وعلى أساس من النماذج المصرية، وربما من اليونانية أيضاً، تركيب ملائم جداً من بين هذين النموذجين - هو الكتابة الحرفية الميروبية.

تتخذ الميروية، شأن المصرية، نمطين من الكتابة - الهيروغليفية والديموطيقية؛ وهي، شأن اليونانية، تتألف من نيّف وعشرين رمزاً، هي في الواقع حروف حقيقية تظهر بينها رموز للصائتات أيضاً. أما الرموز الميروية بحد ذاتها فقد استعيرت من الكتابة المصرية، لكن دلالاتها (المعنوية واللفظية) تكاد لا تتطابق على الإطلاق مع دلالات تلك الرموز في الكتابة المصرية.

وعلى الرغم من أن الكتابة الميروية صارت معروفة منذ عام 1820 بفضل نسخ الرّسام الفرنسي كايّو فقد عدّت سنين طويلة كتابة لا يمكن قراءتها. ومما كان يحول دون فك أسرار الكتابة الميروية التصورات المشوهة حول وجود ما يسمى بدولة ميرويي الأسطورية الرائعة، التي كانت تقوم في غابر الأزمنة الضارية في أعماق التاريخ. ولم يقض على هذه التخيلات إلا ريخارد ليبسيوس. وقد صار بالإمكان، وبمستوى لائق من الموثوقية قراءة المدونات الميروية على الأقل. فنتيجة للجهود التي بذلها العالم الإنكليزي غريفيت خلال عشرين عاماً تقريباً 1911-1929 معتمداً على نص لقاعدة تمثال من بيناغ، كان ليبسيوس قد عثر عليه، صار بالإمكان ليس فقط قراءة النص بل وفهمه إلى حد ما.

وضعت المدونة المذكورة باللغة المصرية وبكتابة مصرية، غير أن أسماء الملوك والملكات نقشت بالهيروغليفات الميروية. وبما أن لغة هذه الهيروغليفات تمثل لغة خاصة وان تفسيرها ليس كاملاً ولا يمكن النظر إليه على أنه أسمى من أن يناقش فإننا نكتفي بإيراد قائمة للأبجدية الميروية وأنموذج من كتابتها (الشكل 33).

أما في مصر فقد أسلفنا الإشارة إلى أنهم كانوا بعيدين عن استعمال مثل تلك الكتابة. فكان كلٌّ يكتب على هواه. إذ كان من الممكن أن يخطر لأحد الكتاب، ولكن ليس للجميع طبعاً، أن يكتب كلمة «حسن» *n-f-r* برمز (أي من خلال رمز الشاقول الذي كان يعني *n-f-r*) بينما كان زميله يرى من الأفضل الجمع بين *n-f-r* «الشاقول» + *f* «الأفعى ذات القرون» + *r* «فم» وبهذا ينتهي إلى وهو ما يبدو أجمل من الناحية الفنّية.

غير أن مصيبة المصائب كانت الامونيمات. فمجموعة *m-n-h*، كانت مثلاً تعني «الشمع» و «دغل البردي» كما كانت تعني في المصرية الحديثة «فتىً» وفي الوقت نفسه كان من المستحيل الاكتفاء بكتابة جميع السواكن فكيف تم الانتصار على الامونيمات؟ لم يكن ذلك بمقدور شيء غير المحدّدات. فعندما كان يطلب من *m-n-h*، أن تعبّر مثلاً عن «دغل البردي» كانوا يضيفون إلى الكلمة المكتوبة لفظياً محدّد نبات فتصبح وبجد القارئ في (الشكل 34) أكثر المحدّدات استعمالاً.

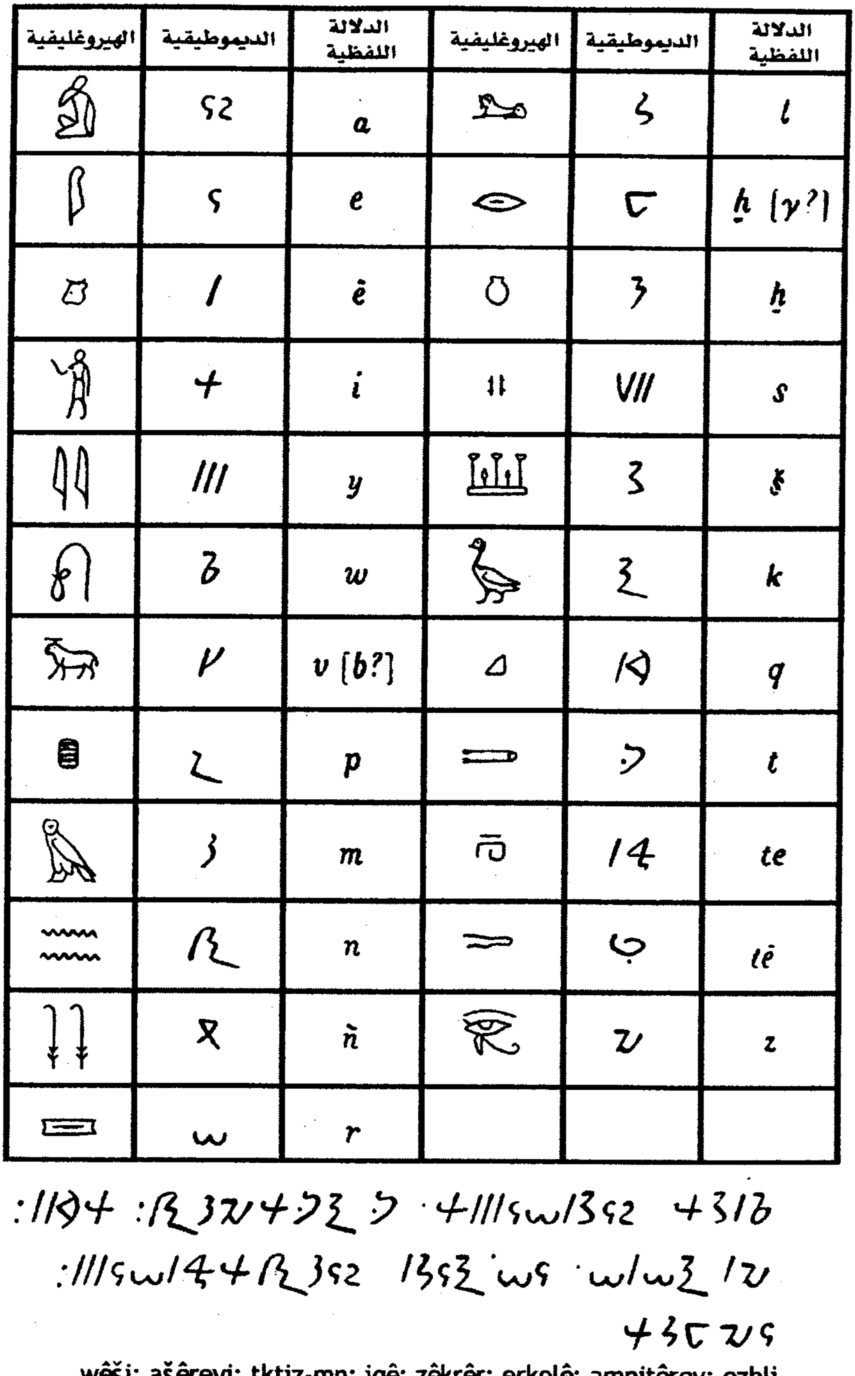

wêši: ašêreyi: tktiz-mn: iqê: zêkrêr: erkelê: amnitêrey: ezhli

«ايسييدا (و) اوسيريس، احفظا تاكتيز أمون بن زيكارير الذي أنجبه أمون تاريس»

الشكل -33- الأبجديتان الميرويتان (الهيروغليفية والديموطيقية) ومنقوشة ميرويه

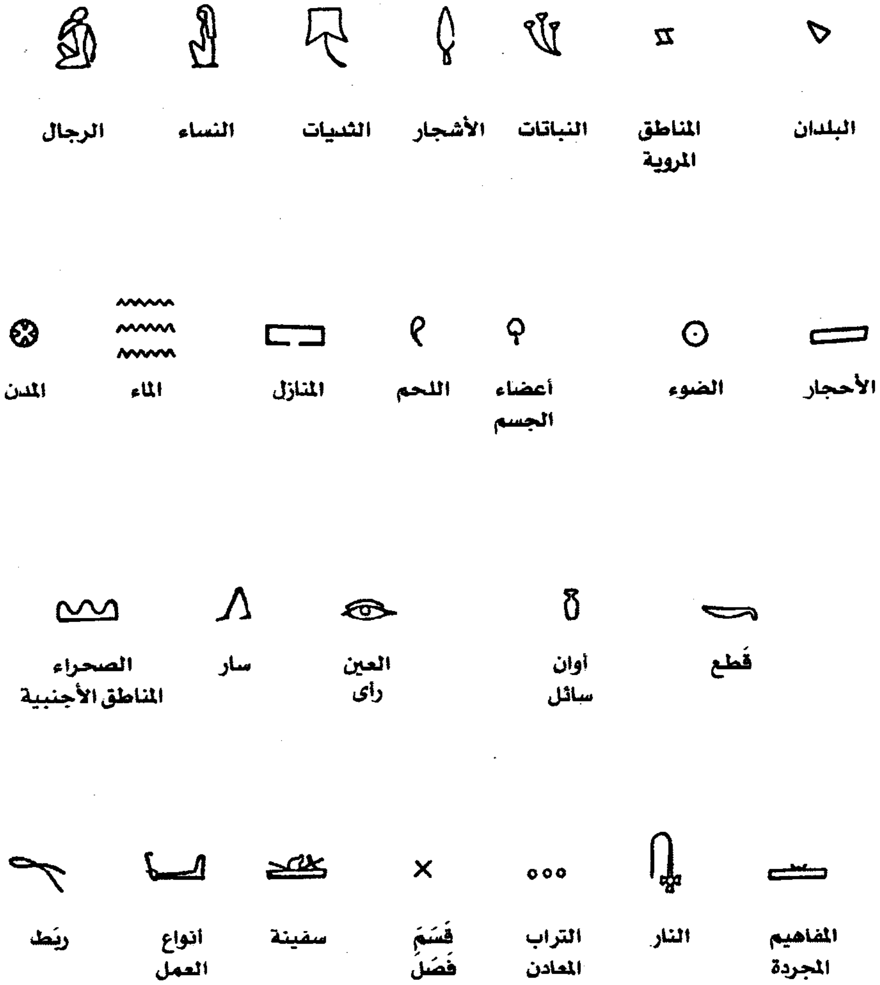

الشكل -34- المحددات الأكثر استعمالاً

ونبيح لأنفسنا في النهاية أن نقدم، كأنموذج لما ذكرناه، نصاً هيروغليفياً مصرياً مع كتابته اللفظية وترجمة له فقد يساعد القارئ على تكوين تصوّر ما عن ثراء هذه اللغة الشرقية وعن بنائها:

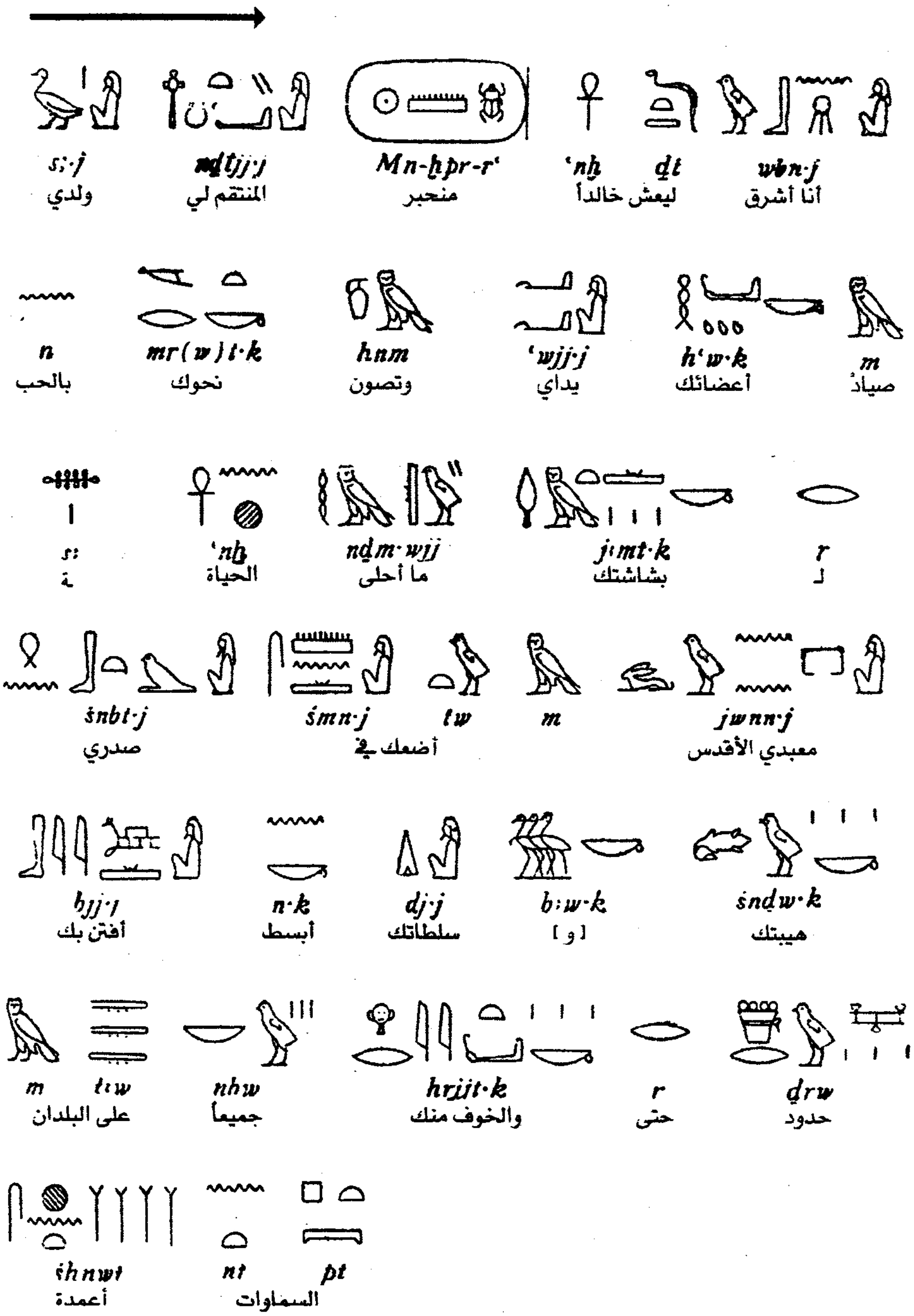

الشكل -35- نص هيروغليفي مصري: الإله أمون رع يخاطب الفرعون توتموس الثالث (1504-1450ق.م). يقرأ النص وفق اتجاه السهم. المترجم

إن قراءة كتابة شعب ذلك البلد العريق على نهر النيل لم تؤد فقط إلى فتح لوحات جديدة للتاريخ بل وكشفت العالم الروحي للمصري القديم الذي عبر عن نفسه بصورة بديعة في نشيد أمنحوتب الرابع «المالك حامي حمى الدين»، أخناتون إلى إلهه الجديد - الشمس:

«ها أنت ذا وقد تجلّيت فوق جبال المشرق،

وغمرت الأرض جميعها ببهائك،

رائع أنت وعظيم، تتألق من علياء سمّوك

فوق كل الأراضي

أشعتك تعانق البلدان بأسرها حتى أقاصي أركان

ما أبدَعْتَه أنت،

بعيدٌ أنت، لكن أشعتك - على الأرض.

وقد أخضعتها لابنك الحبيب.

أنت تنير للبشر الطريق لكن أحداً لا يعرف طريقك

سيدي، ما أجلَّ أعمالك وما أغناها، لكنها

خفيّة عن أعين البشر[1]».

1- M. Pieper , Die ägyptishe Literatur , Wildpark - Potsdam , 1927 , S. 67.

أهورامزدا أعانني

قراءة رموز الكتابة المسمارية الفارسية القديمة

يقول دارايافاوش الملك:
«أهورامزدا أعانني»

نقش بيهستون

كانت الكتابة المسمارية قد طرحت في غياهب النسيان بصورة أشد ثقلاً من الهيروغليفات المصرية. وإذا تم التوصل عموماً إلى قراءتها في القرن التاسع عشر فإننا مدينون بذلك لداريوس الأول.

تشير الدلائل إلى أن كتّاب العصور القديمة كانوا على علم بوجود تلك الكتابة. فقد كتب هيرودوت وسترابون عن «الحروف الآشورية» وكتب تيودور عن «الحروف السّريانية» كما كتب افينيوس ويفسيفي عن الحروف «الخلْدية». وقد ثبت الآن، عند وضع معلوماتهم موضع التمحيص، أنهم كانوا يقصدون الكتابة المسمارية. لكن أحاديثهم كانت تدور عن «حروف» و «كتابة» ولم يكن لدى قدماء المؤلفين أي تلميح أو إشارة، حتى ولو كانت عارضة، إلى أن أصحاب الكتب من اليونان أو الرومان أو قدماء العبريين (والتلمود يشير أيضا إلى الكتابة «الآشورية») قد اعتمدوا في أوصافهم للكتابة الإسفينية على مشاهداتهم الخاصة أو حتى عرفوا بأن الإسفين كان العنصر الأساسي فيها أما كتاب العهود اللاحقة، السريان المسيحيون، والذين كان يتوقع منهم أن يكونوا أقرب إلى المشاهدة، فإنهم أيضاً يتحدثون عن «حروف الآشوريين». هذا بينما كانت عيون سكان ما بين النهرين، بلاد الاسفينات القديمة، أحدّ بصيرة على ما يبدو، فاستطاعت أن ترصد ما خفي عن أنظار المؤلفين اليونان والرومان والجغرافيين العرب في العصور الوسطى، فأسموا تلك الرموز الغريبة بـ «المسماري» أي بالكتابة «الشبيهة بالمسمار» لكن المسمار لم يتأكد في حقيقة الحال، وعند الدراسة

المدققة، كمسمار، بل كان إسفيناً ولم تخطر فكرة ذلك التشابه إلاّ على بال شخص من وستفال.

لكن ذلك لم يحدث إلا في عهد متأخر. ففي بداية تاريخ فك الرموز يرز، كما ذكرنا، اسم داريوس الأول الأعظم، (بالفارسية دارايا فاوش، 522-468ق.م) وهو من آل الأخمينيد (نسبة لجدّهم أخامانيش). وكان حقق لنفسه التربع على العرش بعد أن أخمد العديد من ثورات التمرد وأعاد بيده القوية سلطة دولة الأخمينيين السابقة، التي كانت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر المكدوني تمثل أكبر تشكل دولي عرفه العالم القديم. فقد وسّع الحدود القديمة لدولته حتى صارت تضم إلى جانب ممالك الميديين والليديين والخلديين والمصريين القديمة، شطراً مهماً من هضبة إيران يمتد حتى نهر الإند وجزءاً كبيراً من الشريط الساحلي من جنوب شرق أوروبا. وقد حققت تلك الدولة الشاسعة المساحة، والمنظمة بصورة دقيقة، والمحكومة وفق أحسن النظم الإدارية، ازدهارا كبيراً في عهد داريوس... ثم دارت دورة القرون واستحالت الإمبراطورية الكبرى تراباً لكن الحضارة الأوروبية ورثت عنها إرثاً لا تقدر قيمته بثمن.

من ذلك الإرث كانت مجموعة المنشآت الهائلة الحجوم التي تترك في النفس أعمق الأثر حتى وهي في خرابها؛ وكانت هي الأساس التي قام عليه فك رموز الإسفينية. وكان من «منجزاتها» الموروثة حدائق الزينة وطرق تنسيق الزهور وثمار الدراقن والدجاج الأهلي والحمام الداجن والقطع النقدية التي تحمل صور الملوك والبريد. أجل، أجل، البريد على الرغم من أن اختراعه ينسب خطأً إلى الرومان. فقد كان الفرس أول من وعى الحاجة إلى البريد لمهمات الاتصال الحكومي في ذلك الاتحاد الدولي الأوّلي الهائل ومن ذلك ظهر نظام عدّائي البريد فنظام البريد المحمول على الخيل والذي كانت له محطات دائمة فكان يصل إلى مصر وروما إلى أن وصل إلينا.

أما كتابتنا فلم نأخذها عن الفرس.

ومن الطبيعي ألاّ تختفي تلك العظمة دون أن تترك أثراً. وكان من بين ما خلّفته بعدها مدينة بقيت آثارها عرضة لعاديات الزمن الذي يعفو على كل شيء، ولأيدي الإنسان التي عاثت فيها فساداً وتخريباً بينما كان العارفون يصفونها بأعظم مدينة في العالم القديم، فقد كانت مقر ملوك الفرس بارساكارت («مدينة الفرس») أو بيرسيبول حسب التسمية اليونانية وهي نفس بيرسيبول التي التهمت النيران قصرها سنة 331 قبل الميلاد، عندما أثارت أشجان الاسكندر الملقب بالأعظم قيثارة تاييس وتحريضاتها على ما يبدو، فقذف القصر بمشعل متقد ثأراً لأثينا التي كان الفرس قد هدّموها.

فوق منبسط هائل المساحة على بعد 60 ك. م تقريباً من الشمال الشرقي من شيراز وعند قدمي هضبة كوخ - ي رحمات وغير بعيد عن ملتقى كور وبولفار تنتصب آثار قصور مبنية من المرمر الخشن الصلّد، وعند النظر إليها يمكن الجزم في وقتنا الحاضر بأن عدداً من تلك المباني قد ترك دون أن ينجز، وقد انتهت الروايات الشعبية إلى تفسير نشوء هذه الخرائب دون إرهاق كبير للعقل فأطلقت عليها اسم «تختي جمشيد» - أي «عرش جمشيد» وهو الملك الأسطوري لقدماء الفرس، على الرغم من أن الأدلاء السياحيين، وهم يعرضون على أنظار الغرباء خرائب القصور، ينسبون بناءها إلى كير الأعظم وداريوس بل إلى الملك سليمان نفسه. وغير بعيد عن ذلك المكان تشمخ هامات «تشيخيل مينار» - «الأربعون مئذنة» أو عموداً. ومن المعروف الآن أنها تمثل بمجموعها الواجهة التي بناها داريوس الأول وكسيركس لقصرهما الأثير.

وعلى بعد خمسة كيلو مترات تقريباً إلى الشرق من هذه القصور التي ذهبت في حينها طعاماً لنيران الاسكندر كانت تقوم مدينة بيرسيبول الكبيرة الغنيّة التي لم يلبث الاسكندر أن استباحها أيضاً وأحرقها. غير أن وجود المدينة ظل متصلاً، وتشير التوراة (الكتاب الأول، المكاويين 9، 1-2) إلى أن سكانها ردّوا في القرن الثاني قبل الميلاد جنود ملك إنطاكية ايبيفان الرابع على أعقابهم وقد أدميت وجوههم. وفي القرن الأول للميلاد ظهرت مدينة اصطخر على أنقاض بيرسيبول إذ أقيمت من حجارة المدينة القديمة، وكانت سنة 632 عاصمة الساسانيين التي هدمها الخليفة عمر بعد فترة قصيرة. ثم بدأ ازدهار مدينة شيراز الواقعة على مسافة قريبة يحول دون بعث مدينة اصطخر فلم تعد ضواحي تلك المدينة تشتهر خلال العصور التالية بغير بساتينها وكرومها العالية الإنتاجية. وماذا لنا في نهاية المطاف أن نقول بالنسبة لذلك الزمن الذي كان الكابيتول الروماني فيه «جبلاً للماعز» وكان الفوروم «مرعى للبقر».

وعلى الشاطئ المقابل من نهر بولفار، في الجهة المواجهة تقريباً لقصور داريوس وكسيركس كانت تطل صخرة نقشي رستم الشديدة الانحدار. ويعني اسمها «صورة رستم» وهو بطل الفرس القومي فقد كان أهل تلك المنطقة يعدّون صور الملوك الساسانيين المنقوشة هناك نقشاً لرستم. وفي مكان شاهق الارتفاع نحتت في الصخور قبور الملوك الأخمينيين الأربعة. داريوس الأول، كسيركس، ارتاكسيركس الأول وداريوس الثاني. وغير بعيد جداً، أي بمسافة تقارب الخمسين كيلو متراً من الشمال الشرقي من بيرسيبول، بقي الأثر الخالد الثالث من العهد الأمجد في تاريخ إيران القديم - وهو ضريح كير الأعظم (قوراش الثاني

559-529ق.م) وكان ينتصب في مركز مدينة باسارغاد القديمة التي بناها وهي الآن مورغاب (كانت هناك حديقة كبيرة في ذلك الوقت). وكان «قبر أم سليمان» حسب ما أسمته الرواية الشعبية، يقوم على قاعدة تتكون من سبعة صفوف من الألواح المرمرية القوية نضّدت واحداً فوق الآخر أما الأفاريز والغطاء فصنعت من ألواح صقلت بعناية فائقة ورتبت بإحكام شديد ودقة متناهية: فالبناء ثابت لا ينهار على الرغم من أن الرزّات التي تدعمه قد اقتلعت من جذورها وانتهبت منذ أمد بعيد. ويقوم مبنى الضريح بإخفاء القبر الذي يفضي إليه مدخل ضيق جداً.

وهكذا فإن المجُموعة القليلة العدد من الشواهد الخرساء والبالغة الروعة والمتركزة فوق مساحة صغيرة نسبياً ظلت تتحدث إلى العالم عبر القرون الطويلة عن أمجاد الدولة الفارسية الماضية وعظمتها.

كانت تلك الشواهد أول ما اجتذب أنظار الرحالة الأوروبيين وانتباههم. والحق أن هؤلاء تمكنوا بالكاد من استنطاق تلك الشواهد الصخرية بشيء حول العظمة الماضية لفارس يزيد عما تحصل عليه سابقوهم الجغرافيون العرب. أما التأويلات والشروح التي كانوا يتوسّلون بها لتفسير أصول هذه الآثار فكانت تتشابه في كثير من وجوهها مع أوهام الحجاج المسيحيين الذين كانوا يواجهون آثار التاريخ المصري القديم.

فيوسافات باربارو (وقد وجهته جمهورية البندقية سنة 1472 إلى إيران) زار تختي جمشيد ومورغاب ونقشي رستم وحاول أن يتفهم ما رآه. ألاّ أنه فسّر الشخصية المركزية في لوحات نقشي رستم العظيمة النافرة، التي تمثل الملك الساساني شابور الأول (241-272) وقد اسر الإمبراطور الروماني فاليريان البالغ السبعين من العمر (سنة 260)، على أنها صورة شمشون التوراتية. ولم تنشر مذكرات باربارو عن رحلته إلاّ عام 1543 وهكذا فإن عالم العلم لم يسمع باللوحات العظيمة النافرة إلا بعد تأخر طويل، أما تصويب ذلك التفسير الخاطئ الذي وضعه باربارو لها فكان أمراً لا سبيل حتى لمجرد التفكير به.

وبعد نصف قرن من الزمن وقف البرتغالي انطونيو دي غوفيا أمام خرائب بيرسيبول وكان أول سفير لفيليب الثالث، ملك إسبانيا والبرتغال، إلى بلاط الشاه عباس الأول. فقرّر أن مدينة شيراز واقعة مكان تختي جمشيد، وهو ما لا يعدو الحقيقة كثيراً. وفي مذكرات الطريق التي نشرت في لشبونة سنة 1611 تظهر أول إشارة جدية إلى الكتابة الإسفينية ففي «أخبار الحروب» يشير انطونيو دي غوفيا بصورة مباشرة إلى أن «هذه الكتابة تختلف عن كتابات المعاصرين من الفرس والعرب والأرمن واليهود».

وبعد دبلوماسيي البندقية والبرتغال توجه جون كارترايت الإنكليزي، الطالب الأسبق في أوكسفورد، وكان قد أرسل بمهمة تجارية إلى بلاط الشاه عباس الكبير (1588-1629) الذي بلغت فارس في عهده ذروة قوتها وازدهارها فحاول التجار الإنكليز أن يجنوا الفوائد من السماح لهم بالتجارة مع تلك البلاد. وفي «رحلات واعظ» يشير كارترايت بإيجاز إلى الآثار الفارسية القديمة ويكتفي بالقول بأن شيراز واقعة مكان بيرسيبول القديمة.

وتمكن دون غارسيا دي سيلفا فيغيروا، الابن الثاني لشبه الجزيرة الأيبيرية، الذي زار إيران، من تقديم معلومات أكثر إفاضة. فقد سبق له أن قرأ ديودور؛ وهو يقدم وصفاً رائعاً لخرائب تختي جمشيد ويدّها بقايا قصر بيرسيبول، أما الأسلوب المعماري للقصر فيضعه في موقف حرج إذ يعجز عن إقحامه في المخططات اليونانية المعروفة بالنسبة له. وقد أشار بصدق إلى أن: «الرموز المكتوبة جميعاً مثلثة الشكل ولكن متطاولة وشكلها يذكّر بالهرم والمسلة الصغيرة التي رسمتها على الهامش فلا يمكن تمييز إحداها عن الآخر إلا بطريقة توضّعه». وقد استقدم دون غارسيا معه رسّاماً وطلب منه نسخ سطر كامل من الكتابة الأسفينية لكن تلك النسخة لم تر النور.

أما الشخص الذي ندين له بأول إصدار للكتابة الإسفينية فإنه اتجه سنة 1614 بالطريق البحري نحو المشرق كحاج. وكان على معرفة جيدة بالمسالك البحرية للعالم المسيحي حيث سبق له قبل ذلك بثلاث سنوات أن شارك في حرب الأسطول الأسباني ضد دول الشمال الأفريقي. وتتجه الطريق إلى بلاد الحج الشرقية ببيترو ديلا فالي عبر تركيا ومصر إلى القدس ثم تمضي به عبر سوريا وإيران إلى بلاد الهند، حتى إذا عاد سنة 1626 بثلّة من الشرقيين، صارخة الألوان، كانت جموع المتفرجين بانتظاره، وسرعان ما تسلم منصب الكاتب المبجل للبابا أوربان الثامن.

وكان بيترو ديلا فالي خلال سني الترحال الطويلة قد أرسل إلى أصدقائه عدداً كبيراً من الرسائل المطولة عبر فيها عن مشاهداته وأحاسيسه، ثم نشر تلك الرسائل فيما بعد في كتاب مستقل لا يزال حتى يومنا هذا يقرأ بكثير من المتعة لما يتضمنه من حيوية في السرد. ولم يبخل بيترو بوقته لزيارة آثار العديد من المدائن البائدة ومن بينها بابل القديمة، وحمل في حقائب العودة قطعاً من الآجر المشوي وغير المشوي التقطها من بين الخرائب. أما بقايا قصر بيرسيبول فعدّها خرائب أحد المعابد وتحرى المدونات المنقوشة فوقها بكثير من الفضول وخاصة منها تلك التي تجلّل جداراً كاملاً من أعلاه حتى أسفله والموجودة غير بعيد عن الأسد المنحوت تحت الأعمدة، ويقدم وصفاً لها في رسالته الخامسة عشرة.

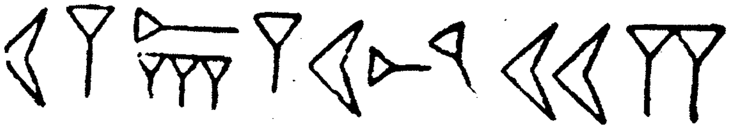

الشكل -36- رموز اسفينية نشرها بيترو ديلا فالي

كانت اللغة والكتابة غير معروفتين بالنسبة له على الإطلاق. فهو يحدد أحجام الرموز ويفترض أنها تكتب بصورة ينفصل أحدها عن الآخر وأنها ليست مترابطة في كلمات. وفي كثير من الأحيان تتردد مجموعة من خمسة أحرف فينسخها، وبذلك يتكوّن أول نص إسفيني قدّر لأوروبا أن تراه. وقد افترض بيترو أن المدونة تقرأ من اليسار إلى اليمين، ودلّت محاولاته المتكررة في استنباط نتائج محددة من تكرار الرموز المنفصلة على أنه كان يتمتع - على غير وعي منه بالطبع - بمنهج تجميعي في قراءة الرموز.

لكن الرموز الخمسة التي لم تكن معروفة بالنسبة لأي إنسان، والتي امتنعت قراءتها على من اكتشفها، لم تكن تقدم شيئاً، ولم تخالفها في ذلك تلك الأسطر الإسفينية الثلاثة التي احتواها وصف رحلة السير توماس هربرت المنشور في لندن سنة 1634 (ويشير هربرت أكثر من مرة إلى أن الآثار تتعرض للتخريب من قبل السكان المحليين الذين يأخذون منها مواد البناء) وهناك القليل الذي يمكن الإفادة منه في «وصف الرحلة إلى بلاد الموسكوف وفارس» (شليزفيغ، 1647) العمل الذي قدّمته تلك البعثة العجيبة، الباهظة التكاليف، التي كان قد أنفذها الدوق فريدريك الثالث هولشتاين الغوتوربي، عبر موسكو واستراخان، إلى إيران وقد دخلت التراث الأدبي الألماني بفضل اشتمالها على كل من باول فليمنغ، وهو تلميذ اوبيتس وآدم اولياري، أمين مكتبة الدوق.

أما الإسهام الحقيقي في دراسة الإسفينية فاستأثرت به رحلات الفرنسي جان شاردان (1643-1713) اللاتي قام بها خلال سني 1661-1681 -. حقاً إن شاردان لم يكن دبلوماسياً ولا كان عالم آثار أو مبشراً فلم يكن إلا ابن صائغ أرسله والده إلى الهند الغربية لشراء المجوهرات. وكان الشيخ شاردان يقدر إمكانية ابنه حق التقدير إذ أنفذه إلى نهاية العالم وهو في الثانية والعشرين من عمره. فبعد أن خاض الفتى سلسلة من المغامرات وبعد إقامة في أصفهان دامت ست سنوات نجح في الوصول إلى منصب المورّد التجاري للبلاط الملكي، ثم هو يقوم برحلة إلى إيران والهند بين 1671-1681 ويستقر بعد ذلك في لندن حيث رسمه شارل الثاني فارساً، وأخيراً يتجه إلى هولندا كسفير مفوّض للتاج البريطاني وعميل لشركة الهند

الشرقية، وهي الشركة التي يرتبط نشاطها ارتباطاً وثيقاً بتاريخ فك رموز الأسفينية. أما عميلها الثاني فكان س. فلاوير الذي كان قد نشر في لندن سنة 1694 نسخة لسطرين من سطور الإسفينية.

وفي «رحلات» شاردان التي نشرت عام 1711 تظهر أول الرسوم الدقيقة التي وضعها الرسام غريلو وهي تبيّن توضّع القصور الأخمينية وأبعادها. ويقدم شاردان فضلاً عن ذلك وصفاً صحيحاً لرسوم نقشي رستم ويشير إلى أن الإسفينات ليست رقوشاً تزيينية بل كتابة.

وبعد عام يصدر في ليمغو (وستفاليا) كتاب «*Amoenitates Exoticae*» («روائع البلدان الغريبة») من تأليف انجلبرت كامبفير - «مخترع» الأسفينية وبكلمة أدق، أول إنسان أسمى تلك الكتابة بالإسفينية («*Littera cuneatae*»)[1].

كان طريق حياة ذلك الإنسان غريباً ومتلوناً. فقد كان الابن الجدير لليمغو، تلك المدينة الغانزية السابقة والتي كانت بضائعها تصل حتى السويد وليفونيا وروسيا. حقاً، في الوقت الذي كان الصغير يترعرع في منزل أبيه، راعي الكنيسة يوهان كيمبير (وقد بدّل الابن كنيته وفقاً للفظ الألماني الشمالي) كان قد بقي القليل فقط من أنفاس الماضي للعالَم الكبير، والتي كانت في يوم من الأيام تملأ المدينة الغانزية بالحياة. أما طفولة الصغير التواق إلى المعرفة فلم تكن بهيجة بما فيه الكفاية. ففي تلك البلاد، التي اشتهر سكانها دوماً بوفرة أعداد العرّافات وقارئات البخت، كان الراعي كيمبير خادماً أميناً لمحاكم التفتيش التي كانت تعمل على اصطياد الساحرات. وهذا ما يزيد من اندهاشنا لذلك التطلع الشديد الذي كان الابن يبحث به عن منفذ يخرج به من هذا العالم المحدود، ذلك المنفذ الذي انتهى به فيما بعد إلى الدوران حول العالم بالمعنى الحرفي للكلمة. فهو يخرج من الجمنازيوم اللاتيني

1- يشير سفيند اوغي ياليّس عالم الآشوريات في كوبنهاغن في كتابه (كوبنهاغن، 1956، ص 63) إلى أن كتاب المستشرق الإنكليزي توماس هايد «Historia religionis veterum «The Antigrity of Iraq «Persarum» الصادر عام 1700 ينص على أن الكتابة الفارسية تتخذ: «dactuli pyramidales seu cunei forms» (رموزاً هرمية أو إسفينية) ويكتب ياليّس أنه، بناء على ذلك، يكون هايد قد تحدث عن الأسفينات قبل عشرين عاماً من ظهور كتاب كامبفير، ويبدي استياءه من أن جميع الأدبيات المتخصصة تسجل شرف اختراع هذا المصطلح لكامبفير. وعلى الرغم من هذا فإن الملف يقف هنا إلى جانب وجهة النظر الدارجة، أولاً لأن هايد يطرح مصطلح «الأسفينية» كمجرد مقابل لمصطلح «الهرمية»، ثانياً لأن تعبير كامبفير «Littera cuneatae». لاقى صدى أوسع، وهو ما يؤكده تاريخ قراءة الرموز الإسفينية بمجموعه ورغم هذا فإننا لا نهدف بالطبع إلى مناقشة أولوية هايد.

في مدينته ليبحث عن المعرفة في هولنده ولونبورغ ولوبيك ثم يصل إلى دانتزيغ فتورن فكراكوف ففرصوفيا، وأخيراً يدرس العلوم الطبيعية والطب لمدة أربع سنوات في كينيغسبيرغ.

ما السبب الذي دفعه للسفر إلى السويد، حيث تحصّل على عمل أمين سر في ستوكهولم بفضل علاقاته الوثيقة بآل بوفيندورف. لعله الرغبة في إبهار العالم والتعطش إلى المعرفة. واتفق أن الملك الشاب كارل الحادي عشر كان في ذلك الوقت يكرس كل جهوده للارتفاع بمستوى بلاده وقوتها. ومن أجل تحقيق ذلك وضع سياسة تجارية بعيدة المدى، وحاول عقد الصلات التجارية الخارجية. فنظم سفارة كان عليها أن تتجه عبر روسيا إلى إيران من أجل أن تقيم هناك صلات التعامل المتبادل مع تجار المشرق. وفي العشرين من آذار (مارس) سنة 1683 انطلقت السفارة (في ذلك العام كان الشرق قد نظم حملة على أوروبا، وانكسرت الجيوش التيوركية أمام قلعة الغرب - فيينا) وانطلق انجلبيرت كيمبفير مع السفارة بصفة طبيب وأمين سر. ومن خلال فنلندة وصل السويديون إلى روسيا حيث أقيم في القصر حفل استقبال على شرفهم. إلا أن ما سنتوقف عند وصفه لن يكون لقاء كامبفير بأحدث القياصرة سناً، من سيغدو بطرس الأكبر فيما بعد، بل اللوحة غير العادية التي أذهلت الرحالة الويستفالي قبل أن تقع أنظاره على المدوّنة الأسفينية. فهو أول أوروبي ندين له بوصف حقول النفط بالقرب من باكو حيث شهد انبثاق الغاز الملتهب من الأرض:

«تابعنا المسير وبعد نصف ساعة وقعنا على قطعة ساخنة من الأرض. كانت مغطاة بالحصباء والرماد. ومن الشقوق الكثيرة العدد تندفع ألسنة عجيبة من لهب خارق الجمال. ومن بعض الثقوب كان اللهب يندفع مصحوباً بحفيف يثير الخوف في قلوب الناظرين. أما ما يتقد منها في الثقوب بصورة هادئة فكان يسمح لأي راغب بالدنو منه، وكانت ثقوب أخرى تطلق سحباً من دخان أو من أبخرة تكاد لا ترى إلاّ أنها مشبعة برائحة النفط.

كان ذلك كله يحدث في مساحة طولها 90 خطوة وعرضها 60 خطوة. أما الشقوق فكانت ضيقة إلى حد مدهش، لا يزيد عرضها عن قدم واحد. و بعضها أضيق من ذلك ولها شكل نصف دائري بينما كان غيرها يمتد في خطوط طولانية متكسرّة. وكان هناك اثنان من الهنود عبدة النار. من الغرباء من قبيلة البارث، يجلسان صامتين داخل حفرتين نصف دائريتين أقاماهما بنفسيهما. وكانا غارقين في تأمل تلك النار المنطلقة التي يقدسونها كمعبود خالد»[1].

1- K. Meier - Lemgo , Engelbert kampfer , Stuttgart , 1937 , S. 26.

وفي نهاية آذار (مارس) سنة 1684 وصلت البعثة إلى أصفهان. ومضت شهور قبل أن يحدّد منجّم القصر حلول الساعة السعيدة الطالع التي يمكن للشاه أن يستقبلهم فيها.

لكن ذلك الوقت لم يذهب عبثاً بالنسبة لكامبفير، فقد راح يتلقى دروساً في اللغة الفارسية على يدي كاهن الكبوشيين رافاييل دي مان الطاعن في السن، والذي كان يقوم على رعاية طائفة المسيحيين الأرمن، وكانت وظيفته بوصفه مترجماً تضمن له احتراماً كبيراً في القصر.

وبعد أن تسلح كامبفير ببعض المعارف في هذا الميدان غادر السفارة السويدية ودخل في خدمة شركة الهند الشرقية فأوفدته من أصفهان إلى شيراز وكان الطريق يمر عبر بيرسيبول.

«... وعند فجر اليوم التالي وصلنا إلى الأثر البديع الثاني - وهو خرائب قصر داريوس المسمى اصطخر أو تشيخيل مينار أي «الأربعين منارة»[1]. ويتفحّص اينجيلبيرت كامبفير المكان ويجري قياساته ورسومه. وكان أكثر ما يشد انتباهه هو المدونات الأسفينية التي نسخها نيبور فيما بعد. ويقوم كامبفير أيضاً بالنسخ وإن كان ذلك مقصوراً على منقوشة واحدة كانت تقع في مكان مرتفع إلى حدّ ما. كانت الشمس تبهر عينيه وقد أشرف الوقت على الانتهاء بينما بقي الكثير مما تجب مشاهدته: «فلو أراد شخص أن ينسخ جميع هذه المنحوتات والنقوش والزخارف بصورة دقيقة لما كفاه شهران من الزمن. وسأشرح بالتفصيل كل ما قمت به خلال تلك الأيام الثلاثة التي لم أُبقِ فيها لنفسي فسحة حتى لتناول الطعام»[2].

وقد أنجز وعده في كتابه: «*Amoenitates Exoticae*» أما المغامرات الشيقة التي يتحدث عنها في ذلك الكتاب فإنها أكثر غرابة من مغامرات الكثيرين من رحالي عصرنا. فبلاد العرب والهند وسيام واليابان بقيت مجرد مراحل في طريقه قبل أن يعود أدراجه إلى أمستردام بعد عشر سنوات وقد أوهنته الأسقام والأمراض.

جمع كامبفير مدونة مسمارية بكاملها على الرغم من أنه لم يعرف بالطبع أنها مدونة بابلية. وأخطأ إذ ظن بأن رموزها إيديوغرامات. لكن خطأه يمكن اغتفاره. وكان هو أول من نشر مدونة طويلة وأول من طرح التسمية التي صارت الرموز الشهيرة تحملها بعد ذلك وهي تدخل حوزة العلم الأوروبي.

وفي سنة 1714 نشر الهولندي كورنيليوس دي بروين، «رحلاته» «*Reizen*» في أمستردام، وكان قد زار الخرائب سنة 1704. ووجد لديه متسعاً كافياً من الوقت والمقدرة

1- Ibid , S. 67.
2- Ibid ,.

لأجل استنساخ بعض النصوص. واعتمد على مدونة منقوشة في بهو أحد النوافذ فبرهن على أن الإسفينات لا تقرأ عمودياً كما كان يظن الكثيرون بل بطريقة أفقية.

وهكذا فإن أمثال كامبفير ودي بروين وضعوا الأساس لفك الرموز. بل بكلمة أدق وضعوا أساس الأسس، فأعمالهم، التي كانت تظهر واحدة تلو الأخرى، أثارت اهتمام معاصريهم. وقد لفتت نسخ كامبفير ودي بروين أنظار محبي المعرفة إلى تجريب حظوظهم في دراسة الرموز العجيبة.

وبالرغم من الحروب الطويلة الأمد فإن الكثير من الدول كان يقدم حماية كبرى للعلوم والفنون. ويمكن أن نطلق هذا بصفة خاصة على العهد السلمي الطويل الأمد للملك فريدريك الخامس في الدانمارك. فقد كان ذلك العاهل المتنور، الذي اشتهر في ألمانيا برعايته لكلوبشتوك[1]، يولي من انتباهه الكثير لتطوير الصناعات والتجارة كما أن الشركة الدانمركية للتجارة العامة، التي كانت قد أنشئت قبيل ذلك، أخذت في عهده ترسل سفنها إلى البحر المتوسط وإفريقيا الغربية والهند وجزر الهند الغربية. ومما لا شك فيه أن الحكومة، التي جهزت عام 1761 بعثة لدراسة بلاد العرب وفارس والمناطق المتاخمة كانت تنطلق قبل كل شيء من أهداف تجارية. وكان أبرز مشارك في تلك الحملة - كارستن نيبور 1733-1815 وهو ابن أحد رجال الدين في هولشتاين، وأب المؤرخ الألماني الأشهر برتولد غيورغ نيبور.

ذلك الشاب، الباعث على الأمل، ابن لودينغفورت، درس الرياضيات في غيتينغين، وهو ما مكنه من أن يصبح سنة 1760 ضابطاً مهندساً، وقد سبق له أن انتبه إلى أعمال بروين وكامبفير منذ سني دراسته في غيتينغين، وكان من ذلك العالَم الخيالي الجديد أن أثار اهتمامه ببلاد الشرق - فبدأ بدراسة اللغة العربية. وهكذا كان قد انتهى إعداده في ميدانين من ميادين العلم عندما توجه سنة 1761 إلى بلاد الشرق برفقة البعثة الدانمركية.

إلاّ أن النجاح لم يحالف ذلك المشروع الذي عقدت عليه الآمال الكبرى. فقد أبحر الرحّالون بادئ الأمر إلى مصر وكان عليهم أن يتوقفوا شهوراً طويلة في القاهرة. وقد أشرنا في الفصل المتعلق بالكتابة المصرية إلى كيف استطاع الباحث الهولشتايني أن يفيد من انتظاره غير الطوعي وكيف أخذ يدرس الهيروغليفات بصورة جذرية وإلى تلك الأفكار الرائعة التي خرج بها حول ماهية تلك الكتابة.

1- كلوبشتوك (Klopstock) فريدريك غوتليب (1724-1803) كاتب وشاعر الماني وقف ضد شعر البلاط والكلاسيكية الجامدة ونادى بالثقافة القومية الأصلية من أشهر أعماله ثلاثية درامية بعناوين: «معركة غيرمان، غيرمان والأمراء، مصرع غيرمان» وقصيدة «ميسيادا» ترك تأثيراً كبيراً في جماعة «العاصفة والاندفاع» التي وجهت الشعر الألماني وجهة جديدة فيما بعد. (المترجم).

وأخيراً تهيأت الفرصة لمواصلة المسير. فقطعوا سوريا وفلسطين وجزيرة العرب ثم اتجهوا شطر المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة، تلك المناطق غير المضيافة والموصدة الأبواب في وجه الأجانب، فوصلوا صنعاء وكان ذلك نهاية الطريق بالنسبة لبعضهم، فقد تعرضت الحملة لكوارث كبرى بسبب الشدائد ونتيجة للحرمان المنقطع النظير ولعدوانية السكان المحليين. وبينما كان نيبور على هوى شعرة من الموت حاول أن يتكيف مع عادات المنطقة - بأن يصبح ابن الشرق الحقيقي فيأكل ويلبس كالسكان المحليين. ولم يخرج من جحيم شبه الجزيرة حيّاً سوى طبيب الرحلة ونيبور. وعندما استقر بهما المقام أخيراً فوق السفينة واتجها إلى بومباي توفي الطبيب أيضاً فلم يهبط إلى اليابسة في بومباي أحد غير نيبور. فكان العضو الحيّ الوحيد المتبقي من الرحلة التي عقدت عليها كل تلك الآمال.

لكن ذلك لم يوهن من عزيمة كارستن نيبور. فما هو إلا عام واحد حتى شدّ رحال الأسفار من جديد فقطع ما بين النهرين وفارس وفي الأيام الأولى من آذار (مارس) وقف يتأمل خرائب بيرسيبول ومَثَل أمام «عرش جمشيد».

وتمضي أسابيع ثلاثة والخرائب لا تطلقه من بين أحضانها فيمضي في وضع رسومه ومخططاته وينسخ المدونات بهمة لا تعرف الكلال حتى تتجاوز نتائج أعماله كل ما قام به سابقوه.

قام العلماء بانتقاد أعمال نيبور أكثر من مرة فيما بعد على النواقص الطفيفة وعلى ما تضمنته من تجاوزات للدقة في بعض الأحيان. بيد أن أبحاثه بالذات كانت هي ما ألقى بالضوء على الكثير مما بقي عسيراً مستعصياً على الفهم بعد كامبفير ودي بروين. أما النسخ التي وضعها للمدونات فتأسر النظر بخطوطها الجريئة والواضحة والتي تلمس فيها يد الخبير الواثقة. وكان ظهور كتاب: «أوصاف رحلة إلى بلاد العرب والمناطق المجاورة بين 1774-1778» (وهو الكتاب الذي كان بين يدي نابليون وهو يخطط لعلماء الحملة المصرية، كما رافقه في وادي النيل) إشارة إلى أن عالم العلم قد تسلم لأول مرة نسخاً دقيقة لكثير من مدونات داريوس وكسيركس المهمة، نسخاً لعبت دوراً لقي الاعتراف لدى تحقيق العلماء لنجاحاتهم الباكرة. ويتضمن الكتاب أيضاً استنتاجات ذكية ومدروسة بعناية، توصل نيبور إليها بنتيجة أعماله في المدونات.

وكان أوَّل من لاحظ بأن المدونات المتبقية لم تكتب بنمط واحد بل بثلاثة أنماط من الكتابة (وكان لا يزال سراً بالنسبة له أن تلك المدونات تتحدث بلغات ثلاث عن مضمون واحد) وقد أدرك أن الرموز القليلة العدد نسبياً والأميل إلى البساطة في أحد تلك الأنماط

الكتابية تمثل - خلافاً للكتابتين الأخريين - حروفاً أبجدية. وأصبحت ملاحظة نيبور هذه نقطة انطلاق بالنسبة للعمل المقبل في حل رموز الإسفينية. وقد استنتج من ملاحظته الدقيقة لخصائص الكتابة إن من الضروري قراءتها من اليسار نحو اليمين بل وحدّد أبجدية تتضمن 42 حرفاً. واتضح فيما بعد أن 32 منها حددت من قبله بصورة صحيحة بينما أخطأ في تحديد التسعة الأخرى. أما الرمز العاشر فكان ما يسمى بالفاصل بين الكلمات. ولا بد من الاعتراف بأن ذلك كان محصولاً وفيراً إذا ما وضعنا في الحسبان الكوارث التي نزلت بالرحلة وأن دراسة الإسفينية لم تكن واحداً من أهدافها.

كانت الرجولة والإصرار من السمات المميزة أيضاً للشاب الباريسي أبراهام غياتسينت انكيتيل - ديوبيرون (1731-1805). وقد دخل إلى عالم دراسة الإسفينات قادماً من عالم اللاهوت فليس من قبيل المصادفة أن يكون هو الذي أرسى الأسس فيما بعد لدراسة المزدكية في أوروبا. فعلم اللاهوت الذي انصرف لدراسته وهو في باريس واوكسير واميرسفورت انتهى به، كما انتهى بالكثيرين من سواه، إلى اللغات الشرقية. ولما كانت باريس مركز الدراسات الشرقية في أوروبا في ذلك الوقت فقد عاد انكيتيل - ديوبيرون إليها لكي يستتير بدراسة اللغات الشرقية لكن ما تلقاه هناك لم يرضِ طموحه. ولما كان واقعاً تحت تأثير الأفكار الرومانسية التي كانت واسعة الانتشار آنذاك فقد كان أول ما يطلبه هو قراءة الكتب المقدسة للبارثيين وهم آخر من عاش في الهند من أتباع زرادشت (وقد سبق لانجيلبيرت كامبفير أن أشار إلى أنه شاهد في باكو اثنين منهم مستغرقين في تأمل تعبّدي للنار المقدسة).

لم تكن بلاد الهند أمراً مستحيل المنال بالنسبة لذلك الباريسي الفتي الناشط. فقد كانت بلاده تطمح منذ زمن بعيد للاستحواذ على المستعمرات هناك. لكن القضية لم تكن قضية رحلة لمجرد المتعة. وهكذا فقد سجل الشاب نفسه جندياً في السفينة المتجهة إلى الهند وكان من حماسه وتصميمه أن جعل الحكومة تصرف له المساعدة، وقد بدأ قبل كل شيء بدراسة اللغة الفارسية الحديثة في بونديشيري، وهي قلعة فرنسية قديمة على الساحل الجنوبي - الشرقي للهند. ومن هناك اتجه شمالاً نحو البنغال (واقترنت رحلته تلك بكثير من المخاطر فالحرب الإنكليزية - الفرنسية كانت تشمل كامل تراب الهند في ذلك الوقت)، ثم عبر البلاد بطولها متجهاً شطر الشاطئ الغربي إلى سورات التي كانت تابعة للفرنسيين في يوم من الأيام. وقد توصل إليها لا من أجل أن يذرف الدموع على رفات السيطرة الاستعمارية الفرنسية بالرغم أن رغبة شديدة اجتاحته لزيارة «المستعمرة» لكنها

كانت مستعمرة من نوع خاص يعيش فيها آخر أتباع الديانة الفارسية القديمة - البارثيون - عبدة النار.

وساعدت الجاذبية الشخصية لذلك الفرنسي المتحمس في التعرف على كهنتهم - الدستوريين كما أنه يحتل مكانه في قلوب الزرادشتيين الذين كان بمقدورهم من تلقاء أنفسهم قراءة كتبهم المقدسة باللغة الفارسية الحديثة. وكان هدفه - الزندافستا، وهو كتاب البارثيين المقدس وكل ما تبقى من الكتب الدينية الفارسية القديمة التي عانت من سيطرة اليونان والبارثيين وانتشار الإسلام، وقد أنقذ البارثيون - عبدة النار كتاب الزندافستا وأرسلوه إلى الهند. ولما سقطت بونديشيري سنة 1761 في أيدي الإنكليز عاد انكيتيل ديوبيرون إلى أوروبا بعد سبع سنوات من الإقامة في الهند يحمل معه ليس فقط كتاب الأفستا الذي أهداه إليه البارثيون في لغته الأصلية (التي لم تكن مفهومة بالنسبة له أو لهم)، بل وترجمته إلى اللغة الفارسية الحديثة والتي أملاها عليه الدستور - داراب.

بالطبع لم تكن تلك كتابة إسفينية بل وإن الأصل لم يكن مكتوباًبها. لكن ترجمة الأفستا التي قام بها انكيتيل - ديوبيرون كانت عوناً مهماً لأولئك الذين قاموا فيما بعد بفك رموز الأسفينية: فمن تلك الترجمة عرفت الصيغ الفارسية القديمة لأسماء الأعلام التاريخية والتي لم تكن حتى ذلك الوقت معروفة بالنسبة للعلماء إلاّ من خلال لفظها اليوناني (الذي شوهها تشويهاً فظاً كعادته).

وعلى هذا كانت المقدمات المهمة لقراءة الرموز قد صيغت - من جهتي الكتابة واللغة. وفي ذلك الوقت من عام 1762 (عندما كان انكيتيل - ديوبيرون قد عاد إلى باريس بغنيمته المكونة من 180 مخطوطاً) كان اللورد كايلو قد وضع في يد العلم المفتاح الذي كان من شأنه، في ظروف أخرى، أن يشق على الفور، الطريقَ إلى الإسفينية. فقد نشر مدونة على مزهرية من الألباستر كانت تعود للملك كسيركس ولم تكن مكتوبة بلغتين أو ثلاث لغات فقط بل بأربع لغات هي الفارسية القديمة والعيلامية والبابلية (وسنتحدث عن هاتين اللغتين التاليتين في الفصل القادم) وبالمصرية! لكن ذلك المفتاح، للأسف، لم يكن يلائم القفل إذ لم يكن أحدٌ قادراً بعد على قراءة المصرية وكان لا بد من مرور 60 عاماً قبل أن تظهر «رسالة شامبليون الشهيرة إلى داسييه».

وصارت الآثار الأخمينية تجتذب نحوها الرحالة الأوروبيين أكثر فأكثر. ومن الضروري أن نذكر هنا المستشرق الإنكليزي السير ويليام آوزلي والذي كان أمينُ سرّه جيمس يوستين موربيه أولَ من تعرّف في «قبر أم سليمان» على مدفن كيرش الأعظم، وأيضاً

السير روبرت كير بورتير الذي نشر مجلدين ضخمين *in quarto* (بقطع الرُبع) تتضمنان رسوماً تصوّر الخرائب. لكن علينا أن نتحدث قبل كل شيء عن الطفل «الشرقي» النابغة وهو الإنكليزي كلاودي جيمس ريتش الذي كان قد شغل في صباه مهمات القنصل الإنكليزي المفوّض في بغداد. فقد حصدته الكوليرا في شيراز سنة 1821 وتوفي في «وقت باكر جداً» مثلما توفي شامبليون بعده بعشرين سنة. وقد ترك ريتش أثراً عميقاً في تاريخ الأثريات في الشرق القديم. فقد كان مؤمناً بقارئ الرموز الألماني غروتيفيند وبصورة دوريّة كان يرسل إليه نسخ المدونات التي يتم اكتشافها. ويمكن أن نلاحق تأثير ريتش حتى بعد عشرين سنة من وفاته: فالمجلدان اللذان نشرا في لندن سنة 1836 من تأليفه (وقد خصصا لزيارته لكردستان) بالإضافة إلى مذكراته ونسخه التي نشرت سنة 1839، وتركت أثراً عميقاً في نفوس المستشرقين. وعلاوة على ذلك كانت أعماله تلك هي التي دفعت الحكومة الفرنسية على أن تفتتح نيابة قنصلية في الموصل وأن ترسل إليها أميل بوتّا، مكتشف نينوى. وتحت تأثير أعمال ريتش اتخذ الإنكليزي الشاب اوستين هنري ليبارد، مكتشف نمرود فيما بعد، قراراً بالتقدم إلى السفارة الإنكليزية في بورت بطلب تقديم دعمها للقيام بالحفريات الجديدة. غير أن الحديث عن ذلك سيلي فيما بعد.

إننا لم نقم بعد إلاّ بإشارة عرضية إلى هذه المآثر في علم الكشوفات الأثرية، بخاصة وأنه كان قد تم قبل إنجازها شيء لم يكونوا قد انتبهوا إليه أو لم يشاؤوا الانتباه إليه.

ولهذا «الشيء» تاريخ سابق جذاب.

فنُسخ العالم والرحالة كارستين نيبور الذي قام بنشر «وصفه» في الدانمارك كانت قد حظيت بالتقويم والتنقيح في ألمانيا والدانمارك قبل سواهما. وقد لعب دوراً كبيراً في ذلك اولاف خيرهارد تيخسين (1734-1815) الذي ولد في تونبيرن، وتعلم طالباً في غالاّ، ثم صار هناك معلماً في بيت الأيتام ثم أستاذاً للغات الشرقية في بيوتسوفا وأخيراً أميناً عاماً للمكتبة في روستوك. كان مؤسس علم قراءة الكتابات العربية القديمة، وبالإضافة إلى ذلك كان مهتماً بكافة قضايا الدراسات الشرقية التي كان عصره حافلاً بها، وقد سلفت الإشارة إلى أنه جرب مواهبه في حقل الهيروغليفية دون أن يحقق نجاحاً، وذلك في دراسته التي صدرت سنة 1790 في غوتينغين. وفي سنة 1798 تقدم بمقال عن إسفينيات بيرسيبول معتمداً فيها على النتائج التي توصل إليها نيبور. يضاف إلى هذا أن معارفه الفيلولوجية الواسعة وميله إلى علم اللغات المقارن والذي لقي انتشاراً واسعاً في ذلك الوقت وعبّر عن نفسه في صيغة أشد الفرضيات جرأة، قدمت إليه خدمة سيئة. إذ قام، خلافاً لنيبور، بإعطاء الرموز الإسفينية

أصواتاً على هواه. ومن خلال مقارنة «المفردات» التي تحصل عليها بهذه الطريقة بمفردات اللغات السامية والهندأوروبية الأخرى حاول التوصل إلى معنى من المعاني في مجموعات الرموز المنفصلة تلك.

وازدادت هذه المجموعة الكبرى من الأخطاء عمقاً بسبب ذلك الخطأ التاريخي الكبير: إذ إن تيخسين افترض المدونات تأريخاً لأرشاك، مؤسس أسرة الأرشاكيين المالكة والمملكة البارثية (247ق.م) وبذلك افترض أن النصوص وضعت في فترة تتأخر 300 سنة عما كانت عليه في الحقيقة.

لكننا وسط ذلك الركام الذي جمعه تيخسين في مقاله المكتوب باللاتينية يمكن أن نعثر أيضاً على فصين من الجوهر.

فقد لاحظ ما لم يدركه نيبور - وهو أن لغات مختلفة ثلاثاً قد كتبت بكتابات ثلاث.

كما أنه فهم بصورة أدق من نيبور معنى الرمز المنفصل الموضوع بصورة مائلة والذي يتردد بصورة دائمة في النمط الأول من الكتابات (وقد ظهر بين الرموز الخمسة التي كان قد نشرها بيترو ديلاّ فالي. انظر (الشكل 36): فهذا الرمز يشير إلى بداية الكلمة ونهايتها أي أنه يفصل بين الكلمات المتوضعة واحدة تلو الأخرى. وهكذا اكتشف تيخسين الرمز الذي نسميه حالياً بـ «الفاصلة بين الكلمات».

وقد توصل إلى هذه النتيجة أيضاً، دون اتصال بتيخسين، الأكاديمي الدانمركي فريدريك كريستيان كارل هنريخ ميونتير (1761-1830) وقد ولد في غوتي ودرس في كوبنهاغن وغيتينغين ثم أصبح أسقفا في زيلاندة وكتب سنة 1800 «دراسة في النقوش البيرسيبولية». وقام في دراسته هذه، معتمداً على المعطيات التاريخية، بتصويب خطأ تيخسين مشيراً إلى أن المدونات تعود، حسب أقرب الاحتمالات، لا إلى الأرشاكيين البارثيانيين بل إلى كبار ملوك فارس القديمة من أسرة الأخمينيين والتي كانت تحكم قبل ذلك بـ 300 سنة.

وقد يخطر لنا أن نتساءل: وماذا تعني هذه السنون الـ 300 إذا ما قورنت بالـ 2500 وهي عمر الإسفينات؟ ولكن أهذا كل شيء!

إن مونتير بتحديده للتاريخ الدقيق توصل إلى نقطتين أساسيتين ما كان لقراءة الرموز من دونهما أن تتقدم خطوة واحدة.

فقبل كل شيء صار بالإمكان القول بأن المدونات قد وضعت باللغة الفارسية القديمة القريبة من لغة الأفيستا، وقد عرف بعض الشيء عن هذه اللغة بفضل جهود انكيتيل - ديوبيرون وسيلفيستر دي ساسي من بعده.

ثانياً، قدمت نقطة انطلاق جديدة من أجل البحث: فقد اتضحت نوعية أسماء الأعلام التي يحتمل وجودها في المدونات ولنتذكر أن الإطار المتضمن اسم بطليموس كان أساساً لقراءة الكتابة الهيروغليفية. ويسهل علينا أن نتصور ما كان ليحدث لو أن يونغ وشامبليون انطلقا من تأريخ غير صحيح وبحثاً عن أسماء فراعنة آخرين من حكام مصر كالفرعون بْساميّتيخ أو نيخو. من يستطيع أن يتكهن بطول الطريق الذي كان لا بد من اجتيازه... أما هنا فقد بدأ الأخصائيون الطريق الصحيح فكان عليهم أن يبحثوا لا عن اسم أرشاك كما كان متوقعاً بعد أعمال تيخسين بل... ولكن لن نستبق الأحداث.

ومثلما فعل تيخسين فقد عثر مونتير على الفاصلة بين الكلمات. وتوصل كسابقه إلى القول بوجود ثلاث لغات ولكن حيث كان تيخسين يبحث عن اللغات البارثيانية والميدية والباكترية فإن مونتير افترض بنصيب غير كبير من الصواب، وجود لغات الزند[1] (الفارسية القديمة) والبهلوية (الفارسية الوسطى) والفارسي (الفارسية الحديثة في عهدها المبكر). أما فرضيته الأولى فتشير إلى الاتجاه الصحيح. كما تصح الفرضية الثانية أيضاً وكان تيخسين بدوره قد طرحها، وهي تقول بأن النص الأول كتب بالأبجدية إذا ما انطلقنا من إحصائية الرموز (وهذا ما لاحظه نيبور أيضاً) أما النص الثاني فيتضمن رموزاً مقطعية بينما تدل رموز الثالث على مفردات، ويشير بعد ذلك وبصورة صحيحة إلى احتمال أن يكون مضمون النصوص الثلاثة واحداً ما دامت أمثال هذه المدونات القديمة العديدة اللغات معروفة بشكل جيد، وفضلاً عن هذا فإن الكلمة عندما تتردد في النص الأول تتردد في بقية النصوص أيضاً.

بيد أن مونتير توقف في طريق مسدود بعد ذلك على الرغم من أنه كان يقف على أسس صحيحة. فبدأ بإحصاء عدد ترددات ظهور بعض الرموز المنفصلة في المدونات التي نشرها نيبور واستنبط من ذلك أن ما يجب أن يتردد بصورة أكثر هو الصائتات؛ وبهذا «حدّد» الرموز التي كانت تعني *a, ü , i , o , u* وعلاوة على هذا حدس بالمصادفة بقراءة *a* واحدة وقراءة الساكن *b*.

إلا أن طريقاً آخر يوصل أستاذ اللاهوت الكوبنهاغني مباشرة إلى الهدف. فقد لفت نظره، مثلما لفتت نظر تيخسين كلمة مؤلفة من سبعة رموز كانت تتردد كثيراً في المدونات. وعدّها الاثنان معبّرة عن اسم علم من الأعلام. إلا أن مونتير الذي كان عارفاً بألقاب اللغة الفارسية الوسطى يتوصل إلى القول بأن هذه المجموعة تعبر عن لقب، ويحدد ذلك اللقب بصورة صحيحة بكلمة ملك و «ملك الملوك». وكان على الكلمة السابقة أن تعني برأيه اسم ملك، أما المجموعة السباعية الرموز فكانت تبدو كالتالي:

1- تسميها المصطلحات اللغوية الحديثة باللغة الأفستية.

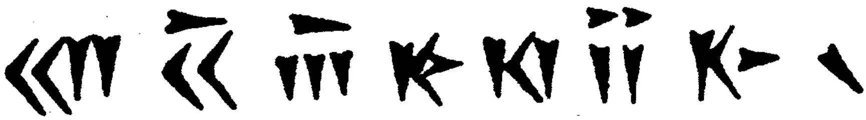

الشكل -37- كلمة «ملك» في الإسفينية الفارسية القديمة

إلى اليمين تظهر الفاصلة بين الكلمات. أما في التفصيل اللفظي المعمول به حالياً فتكتب *xš ayaviya* (اقرأ «خشاياثّيا») وهي حقاً تعني «ملك». وهكذا كان مونتير قريباً من هدفه إلا أنه لا يعرف كيف يتفهم الرموز التالية لكلمة «ملك» وهو يبحث فيها بصورة صحيحة عن نهاية متحولة إلا أن الأصوات التي يسمّي بها مختلف الرموز المنفصلة كانت خطأ دون استثناء. وهكذا اضطر مونتير إلى كف يده عن مواصلة البحث بعد أن جنحت به قدمه عن سواء السبيل...

«وهكذا يأتي غروتيفيندد! مجرد معلم بسيط غير ملحوظ في الجمنازيوم. إنه لا يملك أي تصور عن الشرقيات لكنه يتمتع بإلهام خاص. وفي ذات مرة، وبينما كان في ثلّة من الشاربين، يعقد رهاناً، ثم يمضي فيقرأ رموز الإسفينية»

كثيراً ما يعرضون قصته بهذه الصورة. لكن هذا أبعد ما يكون عن الصواب. فقد كان شعار حياة غروتيفيند وشعار نشاطه العلمي أيضاً هو «من الأدنى إلى الأعلى». فذلك الصغير غيورغ فريدريك غروتيفيند، الذي ولد في 6 حزيران سنة 1775 في موندين على الفيزير، لم يكن ليحلم يوماً بأنه سيحقق الشهرة العالمية. لكن ذلك الطفل بدأ يدرك مبكراً بأن طريقاً واحداً يؤدي إلى «الأعلى» ألا وهو عشق العمل عشقاً صادقاً. وهكذا يُظهر، حتى وهو في المدرسة، ما بمقدوره أن يفعل، ثم ينتسب إلى مدرسة المعلمين في ايلفيلد، ويبدأ منذ سنة 1795 بدراسة اللاهوت والفلسفة في جامعة غيتينغين حيث كان العديد من العلماء يدرسون العالم القديم واللغات المقارنة. وقد جذب غروتيفيند إليه الأصدقاء والحماة من ذوي الشأن بدأبه الذي لا يعرف الكلل وباستقامته في العمل. ومن بين هؤلاء كان البروفيسور كريستيان غوتلوب هايني، أستاذ الخطابة ورئيس المكتبيين في الجامعة وأمين سر أكاديمية العلوم والمستشار السري للمحاكم. وكان هايني يمتاز بطموحه إلى النفاذ إلى عالم القديم في كل تجليات الروح، وتوضيح ما لم يكن واضحاً من معطيات علم الآثار. هذه الصميمية في البحث تركت أثراً غير يسير في نفس غروتيفيند وكانت تتسق بصورة ممتازة مع ميوله. وكان من بين من شملوه برعايتهم العالم تيخسين، وهو أول من وقف إلى جانبه،

والمؤرخ الشهير هيرمان لودفيغ غيبرين الذي قام في كتابه «أفكار حول سياسة أشهر شعوب العالم القديم وعلاقاتها وتجارتها» بدعاية لأعمال غروتيفيند التي لم يكن قد تم الاعتراف بها.

وبمساعدة هايني تمكن غروتيفيند - وكان لا يزال بعد طالباً - من أن يحصل على منصب أستاذ في جمنازيوم غيتينغين، ومن توفير الإمكانات التي أتاحت له فيما بعد التفرغ للأعمال العلمية، فراح يدرس الفيلولوجيا الكلاسيكية بصورة متعمقة وهذا ما أعطى ثماره فيما بعد. وقد ظهرت لديه ملامح نبوغ خاص وكان لا يزال صغيراً. فالأمور التي كان المعلم الفتي يشغل بها أوقات فراغه يمكن أن نسميها الآن بـ «رياضة الفكر» فهو يحل الأحاجي وينصرف إلى حل ألغاز الصور وغير ذلك من ألغاز الشعر أيضاً. وينتهي به ذلك دون أن يلاحظ إلى تحقيق اكتشافه في المستقبل.

وفي سنة 1799 تصدُر في غيتينغين دراسة لغروتيفيند تعدّ منسية الآن هي *De pasigraphia sive scriptura universali* وهي تشير بصورة واضحة إلى منطلقاته العامة واتجاهه العلمي، ويخطئ دارسو سيرة حياته ومؤرخوه المعاصرون إذ يهملون ذلك العمل ولا يعيرونه انتباهاً. ففيها نتلمس ملامح قارئ الرموز في المستقبل. فتسمية الدراسة تعلن بكل صراحة عن الكتابة «العامة» أو «العالمية» وبذلك يحتل غروتيفيند مكانه بين أولئك الذين يعملون من أجل اختراع «الكتابة الشاملة للجميع» (وقد أحصيناهم في الفصل المخصص لمصر) وهو لم ينتقل إلى قراءة رموز الإسفينية بصورة عرضية كما يصورونه عادة.

ونجهل متى بدأ غروتيفيند بقراءة نصوص نيبور. ومن غير الواضح أيضاً متى وقعت في يديه *Memoires sur diverses Antiquité s* لسيلفيستر دي ساسي (باريس 1793) والتي نشرت فيها بعض الكتابات بالبهلوية مما عثر عليه في نقشي رستم. وكان الكثير منها قد اكتشف فوق صور للملوك ومنها المنقوشة فوق صورتي داريوس في نسخ نيبور، ويشير دي ساسي إلى أنها كانت تتضمن أسماء الملوك وآبائهم بالإضافة إلى لقب «ملك الملوك».

ومن الصحيح أن آخر دفعة جعلت غروتيفيند ينصرف إلى حل رموز الإسفينية كانت رهاناً عقده في جلسة بين الأصدقاء. لكن القول بأن اختياره هذا كان نتيجة طيش الشباب وليس تطلعاً علمياً يعني تجاهل الإعداد العلمي الجاد لغروتيفيند وميوله الخاصة ودور أساتذته، وبمعنى آخر تجاهل كل ما يمثل عالمه الروحي وما صاغه بالصورة التي كان عليها.

فهم غروتيفيند دراسة دي ساسي بصورة صحيحة، فأمثال تلك النقوش تعود إلى التقليد الإيراني. لكن التقاليد محافظة. أليس من الممكن الافتراض بأن تكون منقوشات

بيرسيبول قد أقيمت وفق ذلك النظام وأنها تحتوي أسماء الملوك ولقب «ملك الملوك»؟ لقد كان ذلك يتفق مع نظرة ميونتير التي كانت معروفة بالنسبة لغروتيفيند. ولكن ما هي المجموعة التي تضم سبعة رموز والتي اعتبرها ميونتير كلمة «ملك»؟ لقد سبق أن عرضت فيما سبق (الشكل 37).

سبعة رموز تعني «ملك»؟ من الضروري دراسة هذه الرموز في نص مترابط وكلما كان النص أقصر كان أفضل.. ويعود العالم الشاب فيمسك بنص نيبور ويجد فيه منقوشتين قصيرتين ويتضح له أن بينهما الكثير من أوجه التشابه فهما تسترعيان النظر لذلك السبب (الشكل 38):

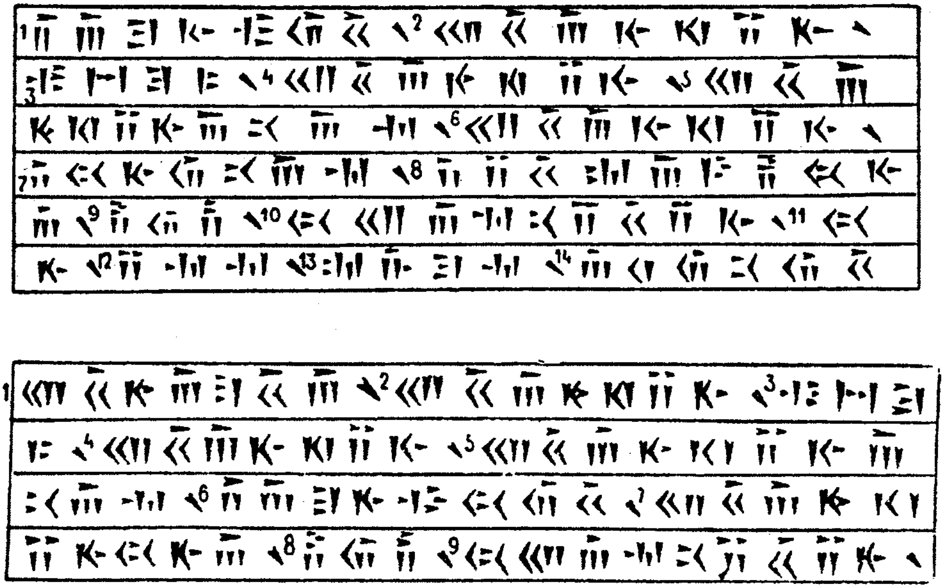

الشكل -38- نقشا داريوس الأول وكسيركس بالفارسية القديمة

وقد لحظ غروتيفيند بادئ ذي بدء أن المجموعة المكونة من سبعة رموز والتي حدّدها ميونتير (وقد أشير إليها في المنقوشة العليا بأرقام 2، 4 و 6 وفي السفلى بـ 2، 4 و 7) تظهر في كلتا المنقوشتين مرة أخرى (الرقم 5) وقد أضيفت إليها بضعة رموز أخرى، فهذه الإضافة لا بد أن تكون نهاية «الملوك» المأمولة.

إذا دققنا النظر في النقوش نلاحظ أن الكلمة ذات الرقم 1 من المدونة العليا ترد في المدونة تحت رقم 6 ولكن أضيف إليها هنا رمز الذي يظهر في الكلمة في المرتبة

السادسة. وتظهر الكلمة رقم 1 في المدونة العليا أمام اللقب ومن المحتمل أنها تعني اسماً ملكياً. أما في المدونة السفلى التي أضيف إليها رمز آخر فإن الكلمة رقم 1 تظهر بعد لقب «ملك الملوك». وعلى أساس المدونات الساسانية بالبهلوية ينتهي غروتيفيند إلى القول بأن هذه الصيغة المضافة في المدونة الثانية لا بد وأن تعني حالة الإضافة لكلمة من الكلمات التي تظهر بعدها (بعد كلمة «الملك») كلمةُ «ابن» وانطلاقاً من هذا فقد فسرّ المدونة الأولى كما يلي: (عُزّزت مفردات الترجمة بأرقام تشير إلى المجموعات المقابلة لها في النص المسماري): «ع^{1} الملكُ^{2} العظيمُ^{3} (؟)، ملكُ^{4} الملوكِ^{5} س^{6} الملكِ^{7}، ابنُ^{8}، الأخمينيُ^{9} (؟)».

كان ذلك كثيراً وكان قليلاً في الوقت ذاته، وقد أشير بإشارة الاستفهام إلى المعاني المفترضة للكلمات: يضاف إلى هذا أن لقب «ملك الملوك» بقي غير مؤكد. فحل الأحجية لا يمكن أن يتم إلا بقراءة رمزي ع و س.

ولم يوهن ذلك من عزيمة غروتيفيند، فلماذا تلقّى علومه الكلاسيكية في حقيقة الحال؟ لقد أمسك بكتاب هيرودوت ووجد لديه الحل. ففي الكتاب السابع من أعماله يصوّر هيرودوت كيف يحاول أرتابان، عم كسيركس، أن يقنعه بالعدول عن فكرته في شن الحرب على اليونان.

ورد عليه كسيركس بغضب: «أرتابان، أنت شقيق والدي، وهذا ما يقيك شر العقوبة التي تستحقّها على كلامك المهين. ومع هذا فإنني سألحق بك العار كحقير وجبان بحرمانك من مرافقتي إلى هيلادا. وستمكث هنا مع النساء، بينما أقوم أنا من دونك بما اعتزمته. ما كنتُ ابنَ داريوس، حفيدَ غيستاسب وابنَ حفيد ارساميس وابنَ ابن حفيد أريامنا وسليلَ تيسبيس، كيروقمبيز، تيسبيس واخيمينيس إن لم انتقم من الأثينيين»[1].

يا للمجموعة الرائعة من الأسماء الملكية الإيرانية! فأي شيء يستحيل استنتاجه من هذا كله؟ صار غروتيفيند يحاول بعد ذلك أن ينتقي من بين تلك الأسماء المذكورة ما يتفق بصورة أفضل مع الكلمتين الإسفينيتين ع و س. ووضع في اعتباره أمراً ينبثق من مقارنة كلا المدونتين:

فقد أخبرنا ع في المدونة الثانية أنه «ابن س الملكِ» فمؤلف المنقوشة الأولى س هو إذن ملك وأب لـ ع. لكن مجموعة الرموز في المدونة الأولى والتي تعني «ابن» حسبما هو محتمل (الرقم 9) لم ترد بعد كلمة «الملك»! وهذا يعني أن س على الرغم من أنه كان ملكاً فإنه لم يكن ابن ملك (بخلاف ابنه ع). والاسمان يتخذان طولاً واحداً تقريباً إلا أنهما يبدآن، كما تظهر المدونتان، برمزين مختلفين.

1- Геродот, История в девяти книгах,пер. Ф.Г.Мищенка, М., 1888.

وهكذا أقفلت سلسلة البراهين: فقد كان كل شيء يشير إلى أن ع تعني كسيركس و س - داريوس الأول الذي لم يكن أبوه غيستاسب ملكاً.

لم يتبقَّ الآن إلا معرفة الصيغة الصحيحة لهذه الأسماء أي ضبط نطقهما الإيراني القديم الذي كان يختلف عن اللفظ اليوناني «دارييوس» و «كسيركسيس» (ولنتذكر ذلك الخطأ الذي اقترفه يونغ عندما أخذ الصيغة اليونانية «بطوليمايس» منطلقاً لحل الهيروغليفات) أما غروتيفيند فطابق الرموز السبعة الأولى من المدونة الأولى مع اسم «داريهوش» وهي *d-a-r-h-e-u-sh* على حسب ما كان ينطق في العهد القديم وفي الأفستا. وطبق ذلك نفسه على اسم كسيركس واسم غيستاسب - الذي كان لا بد وأن يوجد في المجموعة رقم 8 في المدونة الأولى. ونتيجة لذلك توصل غروتيفيند إلى تحديد الدلالة اللفظية لـ 13 حرفاً إسفينياً، وقد اتضح فيما بعد أن أربعة منها فقط كانت تحتاج إلى بعض التدقيق، إذ إن الإيرانية القديمة لم تكن تتطابق كلية مع لغة الأفستا. وفي (الشكل 39) يظهر من جديد الشكلان اللذان أصبحا يمثلان مرحلةً كاملةً من تاريخ قراءة رموز الإسفينية. وقد عزز النصان بتحليل لفظي وبترجمة تتفق ومستوى العلم المعاصر.

وعلى هذا يكون غروتيفيند قد توصل في فترة مذهلة في قِصرَها إلى تمهيد السبيل نحو فهم الإسفينية الإيرانية القديمة. وربما كان متوقعاً أن تثير كشوفه فرحة العلماء والأوساط الاجتماعية العامة في العالم كله وأن تصبح بعد ذلك بفترة قصيرة ملكاً للجميع (وقد حظيت إنجازات شامبليون بمثل هذا الاستقبال).

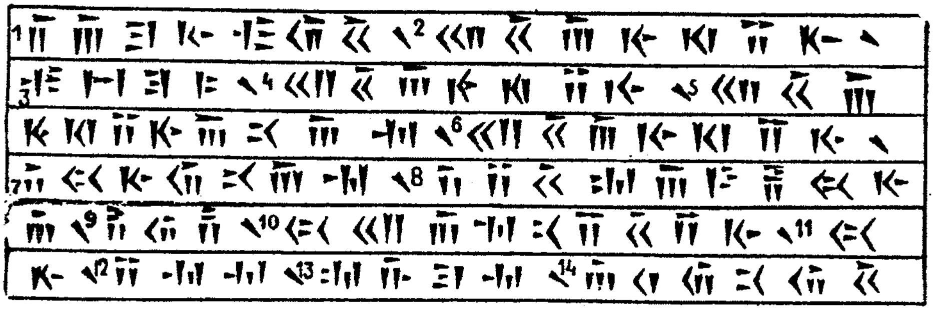

(أداء النص بالحروف) *(1) D(a)-a-r (a)-y(a)-v(a)-u-š(a) (2)x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a) (3) v(u) -z (a)-r(a)-k(u) (4)x(a)-š a)-a-y(a)-θ a)-i-y(a) (5)x(a)-š a)-a-y a)-θ(a)--i-y(a) -a-n a)-a-m a) (6)x(a) š a)-a-y a)-θ a)-i-y a) (7)d a)-h a)-y(a)-u-n(a)--a-m(a) (8)V-i-i-š a)-t(a)-a-s a)-p(a)-k a)-y(a)-a (9)p a)-u-ç(a) (10) H a)-χ(a)--a-m(a)-n(a)-i-š a)-i-y(a) (11) h a)-y(a) (12) i-m(a)-m(a) (13)t(a)-č(a)-r(a)-m(a) (14) a-ku-u-n(a)-u-š a)*

(يقرأ النص هكذا) ***Darayavauš χšayaθiya vazrka χšayaθiya χšayaθiyānām xšāyaθiya dahyunām Vištāspahya puça Haχāmanišiya hya imam tačaram akunauš***

χ = خ   š = ش   y = يّ   θ = ذ   č = تش   ç = س

داريوسُ، الملكُ العظيمُ، ملكُ الملوكِ، ملكُ البلدانِ، غستاسبَ ابنُ، الأخمينيُّ اهوا الذي بنى هذا القصر

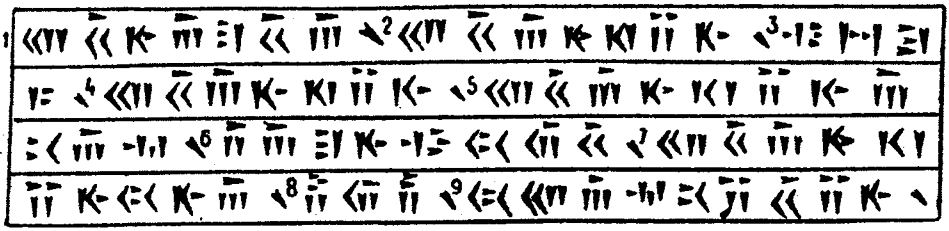

(أداء النص بالحروف) *(1) X(a)-š-(a)-y(a)-a-r(a)-š(a)-a (2) x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a)- (3) v(a)-z(a)-r(a)-k(a) (4) x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a) (5) x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a)-a-n(a)-a-m(a) (6) D(a) a-r(a)-y(a)-v(a)-h(a)-u-š(a) (7) x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a)-h(a)-y(a)-a (8) p(a)-u-ç(a) (9) H(a)-x(a)-a-m(a)-n(a)-i-š(a)-i-y(a)*

(يقرأ النص هكذا) ***Xšayarša xšāyaθiya vazrka xšāyaθiya xšāyaθiyānām Dārayavahuš xšāyaθiyahya paça Haxāmanišiya***

«كسيركس، الملكُ العظيمُ، ملكُ الملوكِ، داريوسَ الملكِ ابنُ، الاخيمينيُ»

الشكل -39- نقشا داريوس الأول وكسيركس كما يقرآن ويترجمان في الوقت الحاضر.

وللأسف فإن ما أعقب كشوفات غروتيفيند على صعيد الواقع لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسمى صفحة مشرفة في تاريخ جامعة غيتينغين المجيدة. والحق أن مقتطفات من مقال غروتيفيند بعنوان:

«Praevia de cuneatis quas vocant insriptionibus Persepolitanis leqendis et expliandis relatio»

قد نشرت في «مذكرات غيتينغين العلمية» «خلال سنتي 1802-1803» وذلك بفضل تأثير تيخسين الذي أخبر الأكاديمية بأمرها. إلاّ أن «مذكرات غيتينغين العلمية» رفضت أن تنشر بصورة كاملة دراسة ذلك المعلم الخامل الصيت ذي السبعة وعشرين عاماً على الرغم من أن تلك الدراسة وضعت الأسس لقراءة الإسفينات وتضمنت نتائج بعيدة المدى: فذلك الفتى لم يكن يعود إلى الأوساط الجامعية ولم يكن مستشرقاً في اختصاصه! وهكذا بقيت تلك الدراسة التأسيسية مجهولة حتى سنة 1805[1] حيث أفرد هيرين صفحات «الأفكار» ذلك القارئ الرموز من أجل عرض أكثر تفصيلاً لنتائج أبحاثه. أما النسخة الأصلية للمقال فلها مصير أكثر طرافة: إذ لم يتم العثور عليها إلا بعد 90 سنة (سنة 1893) حيث عثر عليه البروفيسور ويلهيلم مبير في غيتينغين ونشر في «المذكرات العلمية» بكثير من الاحتفال.

ظل غروتيفيند يرقى سلم الخدمة بكل شرف واستقامة، إلا أن نشاطه العلمي التالي اتسم ببعض المأساوية: فقد عاد في السنوات التالية إلى المشاركة في فك رموز الإسفينية (بما

1- وليس سنة 1815 كما تشير غالبية الدراسات.

في ذلك البابلية) ولكن دون نجاح يستحق الذكر، ذلك أنه بقي حتى نهاية حياته يتشبث ببعض الأخطاء في منهجه الخاص بفك الرموز. أما أعماله الأخرى فكانت تبرهن على عقليته الشمولية وحب الاستطلاع لديه، إلا أنها لا تعد إنجازات علمية. وبإصرار لا يعرف الكلل ظل الباحث العجوز يواصل دراسة المدونات القديمة ولغات آسيا الصغرى (الليكلية والفريجية) وإيطاليا (الأومبرية والإيتروسكية) وقد غابت أعماله المتأخرة في طيات النسيان، لكننا نقدر في صاحبها ذلك الإصرار المتواصل ومحاولاته في إلقاء الأضواء على ما كان يعد ملفوفاً بالغموض، وتجلت خصاله الإنسانية أيضاً في كونه لم ينظر أبداً إلى نجاحات الباحثين بعين الحسد.

وهكذا فإن الأوساط الشعبية الألمانية لم تعترف بالباحث الألماني المجيد. فلما تحقق بعد عشرات السنين تقدُّم في دراسة الإسفينية الإيرانية القديمة كان ذلك مأثرة سجلت لعالم إسكندنافي.

يعد البروفيسور الدانمركي راسموس كريستيان راسك (1787-1832) إلى جانب فرانس بوبّ وياكوب غريم، مؤسس علم اللغات المقارن الذي لقي انتشاراً واسعاً في ذلك الوقت. فعندما تمكن سنة 1827 من تحديد نهاية حالة الإضافة للجمع «ا - نـ - ـام» في لقب «ملك الملوك» فكأنه قام برد اعتبار قومي، ذلك أن أحد مواطني بلاده، وهو ميونتير، قد عانى من الإخفاق منذ أكثر من عشرين سنة على الرغم من أنه يبدو قد نجح في تركيب جملة صحيحة، ولعل غروتيفيند قد قرأ تلك النهاية على أنها «آ - تشـ - آ - و».

انطلق راسك من النقطة التي كانت أقرب إلى نفسه: من دراسة اللغات الجرمانية. ونتيجة لأسفاره في السويد، النروج وأيسلنده، صدرت دراسته الأولى الكبيرة «بحث حول مصدر اللغة الإسكندنافية القديمة أو الأيسلندية» (كوبنهاغن - 1818) حيث قدم البراهين لأول مرة على القرابة الوثيقة بين الإسكندنافية القديمة واللغات الجرمانية الجنوبية (المسماة حالياً بـ «الجرمانية الغربية»، والقرابة الأكثر بعداً مع اللغات السلافية، البلطيقية، اللاتينية واليونانية. وقد أهابت به رغبته الشديدة في التعرف على «أنسباء» أكثر بعداً بالقيام برحلة إلى الهند عام 1816، فزوده الملك وبعض الأشخاص بنفقات الرحلة. فاتجه في البداية إلى بطرسبرج عبر السويد وفنلندة، ومنها - عبر موسكو واستراخان - إلى فارس والهند التي وصلها عام 1820 وأمضى عامي 1820-1822 ضارباً في أرجاء الهند.

كان الفتى الدانمركي المتعطش إلى المعرفة يسير على خطى أوروبي آخر هو انكيتيل - ديوبيرون. فهو يقوم، شأن سابقه الفرنسي، بالتعمق في دراسة لغة وعادات عبدة النار الذين

يعيشون في بومباي وضواحيها. كما يدرس لغة البوذيين في سيلان وعاداتهم وتقاليدهم. وقد أعطت اهتماماته بدراسة لغة الكتب المقدسة للبارثيين ثمارها في دراسة الإسفينات.

ومن الجدير القول أنهم كانوا ينظرون في أوروبا، وبخاصة في إنجلترا في ذلك الوقت، بكثير من الريبة إلى المواد التي جمعها انكيتيل - ديوبيرون بكل ما كان لديه من وفاء صادق للعلم، وكان من حظ راسك أن يقضي على تلك الشكوك مرة وإلى الأبد، ففي مقالته الرائعة حول أصالة لغة الزند برهن بصفة قاطعة على صحة المقاطع التي نشرها انكيتيل - ديوبيرون، مثلما أشار إلى القرابة الوثيقة بين هذه اللغة ولغة الهنود القدماء. وبعد دراسة الأبجدية وطريقة التسجيل اللتين وضعهما غروتيفيند انتهى راسك إلى القول بتشابه لغة النقوش مع لغة الزند، وأظهر أن هذه الأخيرة ليست أحدث من لغة النقوش الأخمينية، إذا لم تكن أقدم منها. وكان من نتائج هذه الدراسات (وبصورة أهم بكثير من النهاية التي اكتشفها لحالة الإضافة في الجمع) أن فتحت الطريق لاثنين من «متوّجي» حل رموز الكتابة المسمارية الإيرانية القديمة هما - الفرنسي ايجين بورنوف والنرويجي كريستيان لاسّين.

فلماذا لم يتقدم راسك في طريق حل الرموز؟ لقد كان عالم لغات وكان قبل كل شيء يريد أن يوضح بنيويّة وقواعد اللغات الإيرانية القديمة والوسطى. لهذا كانت مهمته الأولى معالجة المجموعة الكبرى من المخطوطات التي تسنى له جمعها في الهند. وعلى ذلك فإن فكرة «أن الوقت ما يزال مبكرا بعد» كانت تخيم على حياة راسموس كريستيان راسك هذا.

فمنذ أن أحضر انكيتيل - دوبيرون نتائج جهوده إلى أوروبا صارت دراسة الزند قضية كرامة قومية بالنسبة للفرنسيين. أما ايجين بورنوف فقد اعتمد في دراسة الأفستا على التقليد المعروف. وباستعمال جدول أسماء القبائل والشعوب تمكن بورنوف ولاسّين (وكانا يعملان منفصلين أحدهما عن الآخر لكنهما كانا يتبادلان الآراء) من تحديد معاني جميع رموز المسمارية الإيرانية القديمة تقريباً فتمكنا بذلك من إتمام بناء ذلك الصرح الذي وضع أساسه غروتيفيند.

وكانا يتعاملان مع مادة لا تقتصر على نسخ نيبور فقط بل وعلى نسخ من ميراث ف. أ. شولتس، أستاذ الجامعة في بلدة هيسّين الألمانية، الذي كان قبيل ذلك قد سافر بمهمة من الحكومة الفرنسية إلى أرمينيا حيث قتله الأكراد سنة 1829. وفجأة تضاعفت المادة المدروسة بفضل مواتاة الحظ والاحتراس والجهد الشاق لشخص اختصه أبناء وطنه بلقب الشرف: «أب الدراسات الآشورية».

حقاً لقد كان الطريق بعيداً بين التلميذ هنري كريسويك رولينسون (1810-1895) من ايلينغ وبين هذه «الأبوّة»، لكن من الجدير بالذكر أنه كان، حتى في ذلك الوقت، يتعلم اليونانية واللاتينية بكثير من الاندفاع. وفي الوقت نفسه لم يكن بالمخلوق المطواع أو الحفّاظ عن ظهر قلب، بل كان، على العكس من ذلك، يمتاز بالتكوين الرياضي الجيد وبقوة الجسم. وكان ذاك ما استقطب الأساتذة إلى جانبه وما ضمن له شعبية خاصة في الأوساط المدرسية الإنكليزية، فقد كانت ما تزال ماثلة في الأذهان معركة واترلو التي تم النصر فيها، على حد قول الإنكليز، في الملاعب الرياضية في الكلية الارستقراطية في ايتون. فليس من المستغرب بعد هذا أن يقبل هنري للخدمة في شركة الهند الشرقية وهو ما يزال في السادسة عشرة من عمره، وبعد سنة كان في الهند.

وعلى ظهر السفينة تعرف الفتى الموهوب بحاكم بومباي الذي اكتشف فيه مستمعاً شديد الانتباه. وقد أثار المستشرق المتحمس في الفتى حب كل ما له علاقة بفارس ولا سيما اللغة والأدب الفارسيّين، وراح الحب يضيء حياة رولينسون بطولها كنجم الهداية.

وبقدر ما كان رولينسون فتياً فإنه كان يعرف ما يريد. فما أن وصل حتى غرق في دراسة اللغات. فهو يدرس الفارسية والعربية والهندوستاني بنجاح يجعله بعد عام واحد يتسلم منصب المترجم والمحاسب في الفرقة الغريناديريّة الأولى المعسكرة في بومباي. لكن هدف دراسته لم يكن ذاك. فهو مغرم باللغة الفارسية لذلك يأخذ، على أثر راسك، بتعلم هذه اللغة لدى البارثيين. وسرعان ما يصبح أخصائياً معترفاً به فهو يحفظ على ظهر قلب مقطوعات مطولة من قصائد الشعراء الإيرانيين الكبار وهو ما هيّأ له منصبا مرموقا في بلاط الشاه فيما بعد. ومن الطريف أن يعين رولينسون بعد مضي عشرات السنين، في سنة 1875 وخلال زيارة الشاه إلى إنجلترا، مستشارا سياسيا للحكومة ليتمكن من أن يناقش مع العاهل الإيراني المسائل السياسية باللغة الفارسية.

أما الآن فرولينسون يخدم لدى الفرقة الخاصة بقذف القنابل في بومباي. فهو مترجم، خازن للمال وعالم باللغات. وعلاوة على ذلك فهو رحّالة من الدرجة الأولى إذ إنه يسافر كثيراً ويتمتع بشعبية واسعة لدى جميع فئات السكان. وبفضل هذه المزايا يحصل على ترقية جديدة: فيعهد إليه سنة 1833 بتجميع معلومات تجسّسية ذات أهمية خاصة، فيقوم بذلك بدرجة من الإتقان والنجاح تجعلهم يوجهونه بعد ذلك بعامين إلى العمل في إيران كمستشار عسكري لأخ الشاه - حاكم ولاية كرمنشاه. ويؤدي بسط السيطرة الإنكليزية على الشاطئ الأيمن لنهر الإند إلى الحرب الأفغانية الأولى سنة 1839؛ وفي تلك السنة يتم الاستيلاء على قندهار وكابول

وفي سنة 1840 يقبض على الأمير دوست محمد أسيراً وينصّب مكانه حاكم موالٍ للإنكليز. وفي سنة 1839 يصبح رولينسون العميل السياسي لبريطانيا في قندهار التي تم الاستيلاء عليها. وتموج البلاد بالهيجان فالأفغان يكرهون السيطرة الأجنبية. وذاك ما يعرفه الإنكليز وما يعرفه هنري رولينسون أيضا. فيشترك سنة 1842 على رأس فرقة فارسية من الخيالة، كان قد شكلها ودرّبها بنفسه، في معركة قندهار ويحقق انتصارا مظفرا كما يحارب في غزنة بنفس المستوى من الانتصار. وفي سنة 1842، وبعد نهاية الحرب يعود إلى الهند.

منذ ذلك الحين بدأت الآفاق المغرية تتفتح أمام الجندي الذي أثبت جدارته بصورة رائعة. كان المستقبل العسكري الباهر بانتظاره إلا أنه يرفضه.

لكنه... لا يرفض النشاط السياسي. وفي سنة 1843، عندما يقدم العقيد تايلور، عميل إنجلترا السياسي في بغداد، استقالته، يحل رولينسون محله.

لقد كان سبب القرارين - قرار رفض المنصب العسكري وقبول المنصب السياسي في بغداد - واحدا. فهو لم يكن قادرا على أن ينسى ذلك الانطباع الذي أحدثته في نفسه أول مقابلة له مع الكتابة المسمارية جرت منذ 8 أعوام في إيران.

فقد سلفت الإشارة إلى أن رولينسون عين سنة 1835 مستشارا عسكريا لأخ الشاه. وفي الطريق إلى مقر عمله في كرمنشاه علم بأنه تظهر على السفوح الصخرية لجبل ايلفيند (أو ألفند، «اورانت» في الأفستا و «اورونت» في المؤلفات الكلاسيكية) نقوش مسمارية. وتلك السلسلة الجبلية الواقعة إلى الجنوب من همذان (حيث كانت تقوم ايكباتانا، عاصمة الميديين) والتي يصل ارتفاعها إلى 3200 م كانت تلعب دوراً خاصاً في معتقدات الناس المحليين وموروثاتهم: إذ كانوا يسجّلون خاصية سحرية للحشائش والأحجار التي كانوا يجمعونها في تلك المنطقة. أما النقوش فسميت بـ «غانج - نامه» - «كتاب الكنوز» - إذ إنها تقدم كنوزاً خيالية لمن يهتدي إلى قراءتها حسبما كان مأثورا لدى سواد الشعوب.

وقد قامت بذلك حقا. فقد أصبحت تلك النقوش كنزا حقيقيا بالنسبة لرولينسون وعرقا يحمل الذهب.

كان رولينسون قد نسخ اثنين من النقوش الثلاثية اللغات في عين المكان. وقد انعكست عادته في العمل المنهجي في أنه عاد بعد عام فقارن نسخه بالنقوش وقام بالتصويبات حيثما وجد ذلك ضروريا. بيد أن إخبارية كانت بانتظاره في كرمنشاه جعلت قلبه يسارع في نبضه، فالكنز الذي علم بوجوده، غطى على «كتاب الكنوز»، إذ حدثوه بأن صخرة بيهستون أو بيسوتون، القائمة غير بعيدة عن المدينة، مغطاة بنقوش كبيرة ولوحات نافرة هائلة الحجوم.

والحق أن المسافة نحوها 22 ميلاً إنكليزياً، أي نحو 35 كيلو متراً وهي مسيرة يوم. ولكن ماذا تعني 22 ميلاً، ماذا تعني مسيرة يوم بالنسبة للفارس السابق رولينسون؟ لقد سبق أن قطع ذات مرة 750 ميلاً في غضونه 150 ساعة لكي يحذر السفير الإنكليزي في طهران من قدوم العميل الروسي إلى هراة. وهكذا ينطلق في الصيف والخريف من كرمنشاه إلى بيهستون لينسخ النقوش.

لينسخ النقوش! إن ذلك لم يكن بالأمر السّهل كما يمكن أن يتراءى الآن عندما يصوّرون رولينسون معلقاً عند حافة الصخرة، في مقعد مرتفع، يقوم برسومه. لنترك للعالم أن يتحدث عن ذلك بنفسه ولكننا قبل ذلك سنقدم وصفاً للمكان الذي كان فيه.

باهاستانا تعني «بلاد الآلهة» أو المكان المقدس. ففيها كان يقوم ذات يوم معبد نينّي (عشتار)، إلهة الجبال. وحتى اليوم لا يزال ذلك الجبل المشمخر ذو الهامتين يحمل الاسم الإيراني القديم (وقد تحول تدريجياً فأصبح «بيهيستون»، «بيسوتون» «وبيستون») ويشرف المنحدر الجنوبي الأملس للجبل بصورة حادة على الطريق «درب الشعوب القديم الذي ينطلق من بغداد عبر خانقين وقصري شيرين عبر جبال زاغروس إلى كرمنشاه وهمذان... القوافل تتحرك خلاله على مدى 5000 سنة وعلى مدى مئات السنين يسوق الأكراد الرحّل قطعانهم من السهول إلى المراعي الجبلية في الربيع ويسوقونها في الخريف من الجبال إلى سهول هيرْمسير أو «البلاد الدافئة». ومنذ انتشار الإسلام ينطلق الحجاج عبر هذا الطريق كل عام من المشرق إلى البقاع المقدسة: - جنوبا إلى مكّة وإلى النجف، الكاظمية وكربلاء وشمالا - إلى شاه عبد العزيز القريب من طهران، وإلى قم ومشهد»[1] وطالما دارت الحروب من أجل السيطرة على هذه الطريق. وقد عبرتها الجيوش الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى، وقد شهدت معركة داريوس الأعظم ضد الملوك الذين ثاروا عليه وشهدت هزيمة المتمرّدين. وفي هذا المكان، في منطقة «بلاد الآلهة» كانت الشواهد تتحدث عن مآثر الحكام. وفيها أيضا نقش داريوس الأول النقوش التي كان عليها أن تُنهي إلى الأجيال القادمة أخبار انتصاراته.

وسنتحدث ببعض الكلمات عن العصر الذي نقشت فيه تلك النقوش. فبدءاً مما يقارب الـ 700 قبل الميلاد كانت الأسرة الأخمينية تحكم الفرس، وسميت باسم مؤسسها اخامانيش (باليونانية اخايمينيس). وقام تشيشبيش (تييسبيس)، ابن اخامانيش بتقسيم البلاد إلى قسمين: الشرقي واستلمه أريارامنا (اريامنيس) والغربي واستلمه قوراش (كير) الأول، الذي كان مرغماً شأن ابنه كامبوجيا (قمبيز) الأول على الاعتراف بسلطة الميديين عليه. وقد

1- E. Diez , Iranishe Kunst - Wien , 1944 , S. 114.

تمكن قوراش (كير) الثاني الأعظم ابن كامبودجيا من الإطاحة بالملك الميدي ومن الاستيلاء على ميديا، ليديا وبابل.

وبعد أن أزاح قمبيز الثاني، ابن قوراش الأعظم ووريثه، أخاه الأصغر بارديا (سميرديس) استولى على مصر فاغتنم الساحر غاوماتا (عضو طبقة الكهّان) فرصة غيابه الطويل فنصّب نفسه ملكاً على إيران وبابل في صورة بارديا الذي بدا وكأنه قد تم إنقاذه، فسارع قمبيز بالعودة. لكنه لقى حتفه سنة 522 في سوريا خلال عودته إلى فارس.

وقف سبعة أمراء من الفرس ضد غاوماتا. وكان على رأس الحركة داريّافاوش (داريوس) الأول الكبير (522-485ق.م) ابن فيشتاسبا (باليونانية غيستاب)، حفيد ابن اريارامنا؛ وقد أصبح الملك الأكبر بعد أن قَتَلَ بيده غاوماتا. وأصبحت الحرب الأهلية أمراً محتوماً ففي كل مكان تنطلق الانتفاضات الخطرة التي يقودها الطامعون بالعرش ممّن خابت آمالهم. ويقوم داريوس بالقضاء عليهم بسرعة. فعن انتصاره على العصاة «الملوك الدجّالين» وعن تسليم الإله اهورامزدا إليه السيادة على العالم يدور الحديث في «سيّدة النقوش» التي دونت بالخط المسماري باللغات الرسمية الثلاث: الفارسية القديمة والعيلامية والبابلية.

تصوّر اللوحة النافرة داريوس وهو يبسط يده اليمنى نحو اهورمزدا - قرص الشمس المجنّح، ويعتمد بيسراه على قوسه، ويدوس بقدمه اليسرى على غاوماتا المطروح وهو يرفع يديه طالبا الرحمة. ويظهر «الملوك الدجّالون» أمام داريوس وقد أوثقت أيديهم وطوّقت أعناقهم بحبل، كما يظهر خلفه - اثنان من أعيان الفرس. وتظهر النقوش باللغات الثلاث حول اللوحة النافرة.

ما الذي أدى إلى جعل هذا الأثر الجليل من آثار الكتابة الفارسية القديمة منسياً إلى درجة أن كان على رولينسون أن يكتشفه من جديد عام 1836؟ السبب في ذلك هو أن الكتابة المسماريّة كانت قد زحمت كما هو معروف من قبل الأبجدية الآرامية في الدولة الفارسية. أما اللوحة النافرة نفسها فكانت أشد بروزاً من أن تغيب عن الملاحظة. فلنتذكر أيضاً طريق القوافل الذي كان يمر بالقرب من المكان. فليس عجيباً بعد هذا أن يكون لدينا الكثير من الإخباريات عن صخرة بيهستون.

وتشير حبة الحقيقة في ملاحظات ديودور الخيالية (الكتاب الثاني، 13) إلى أن الجبل مكرس للإله زيوس (أي اهورامزدا) وإلى أن فوقه نقوشا «سريانية» بيد أن من العبث أن نبحث، بالاعتماد على ديودور، عن صورة سميراميس وحرّاسها المئة، منقوشة

على الصخرة، كما أن معطيات الجغرافيين العرب ياقوت، الأصطخري وابن حوقل لا تقدم شيئا، ويكفي أن نشير إلى التفسير الساذج للأخير من بينهم: فاللوحات النافرة تمثل برأي ابن حوقل مدرسة، أما الصورة الكبيرة فهي للمعلم وأمامه التلاميذ - والمعلم يمسك بـ «آلة» تستعمل عادة لعقاب «الجامحين». كما أن بعض الرحالة المسيحيين جرب مهارته في تفسير اللوحات النافرة. فبول أنج لوي دي غاردان الذي كان يعمل أمين سر لأخيه السفير الفرنسي في طهران، زار ذلك المكان سنة 1807 فرأى في أهورامزدا صورة الصليب ورأى في الشخصيات المصورة أسفله - لوحة الحواريين الاثني عشر. وكان الوقوع في مثل هذا الخطأ ممكناً بسبب وقوع النقوش واللوحات البارزة على ارتفاع يزيد عن 100 متر. ولم تنل الأمور حظا أوفر من الصحة لدى الإنكليزي السيركير بورتر الذي فسّر داريوس على أنه سالما نصر الثالث (859-824ق.م) وفسّر الشخوص المئة الماثلة أمامه. على أنها الأسباط الإسرائيليين العشرة. أما غطاء الرأس المدبب على رأس آخر «الملوك الدجّالين» ففسرّه بأنه عمامة الكهنة المنحدرين من اللاويين. وترتبط هذه التفسيرات بوضعيّة علم الآثار في تلك الأيام وفي ضوء هذه التفسيرات فقط تظهر إنجازات قرّاء المدونات ومفسرّيها في ضوئها الصحيح.

فكل ما قيل أو كتب حتى ذلك الوقت حول هذه المدونة كان قائما على أساس من الأساطير أو الموروثات الشفوية أو على المراقبة البصرية من أسفل الصخرة أو من مسافة بعيدة إلى حد كبير. ولم يفكر أحد قبل رولينسون باستنساخ المدونة. ولكن لنترك الكلمة له نفسه:

«عندما تصل إلى حافة التجويف الذي يتضمن النص الفارسي (كانت المدونات تنقش وفق العادة الفارسية القديمة في تجاويف، أي فوق جدران ملساء منقورة في الصخر - المؤلف) تلاحظ أنك بحاجة إلى سلّم من أجل دراسة الجزء الأعلى من المنقوشة لكن ذلك أمر محفوف بالمخاطر حتى ومع توفر وجود السلّم، ذلك أن النتوء الذي تقف عليه ضيق جداً. فإذا كان السلّم يبلغ من الطول حداً يصل إلى تماثيل الأشخاص يصبح من المتعذر نصبه بميلٍ يكفي لكي يكون الصعود عليه ممكناً فإذا ما جعلته أقصر يصبح بالإمكان استنساخ الأجزاء العليا من النص فقط بعد الوقوف على أعلى درجة فيه دون الاعتماد على أي مسند. لا بدّ في هذه الحالة من الاعتماد على الصخرة مع الإمساك إذ ذاك بدفتر التدوين باليد اليسرى وبالقلم باليمنى. وفي تلك الوضعية نسخت جميع المدونات المنقوشة في الأعلى، وقد استغرقني ذلك العمل إلى درجة أنني ذهلت نهائياً عن الخطر... كان بلوغ التجويف

المتضمن الجزء الصقلبي (أي العيلامي - المؤلّف) من إخبارية داريوس أمرا محفوفا بقدر أكبر من الصعوبة. فالنتوء الذي يمكن وضع القدم عليه لا يوجد إلا في الجانب الأيسر من التجويف. أما الجانب الأيمن الذي يغوص فيه التجويف مسافة عدة أشبار نحو الداخل والذي يقترب من الكتابة الفارسية فإن الصخرة تتكسر عنده بصورة حادة. فكان علي بسبب ذلك أن أفكّر بمدّ جسر بين الطرف الأيسر من المدوّنة الفارسية والنتوء البارز على الجانب الأيسر (العيلامي - المؤلّف) من التجويف. وكان يمكن إقامة مثل هذا الجسر من سلّم ذي طول مطابق؛ لكن محاولتي الأولى في السير فوق الهاوية باءت بالفشل وكان يمكن أن تنتهي بموتي. وسبق أن كنت قد أمرت بتقصير السلّم الوحيد الذي بحوزتي لكي انصبه بميل كافٍ من أجل نسخ الأجزاء العليا من المدونة الفارسية. فلما وضعته على حافة التجويف راغبا في الوصول إلى النص الصقلبي أدركت أنه أقصر من أن يصل إلى النتوء إذ لم يصل إلى النتوء غير نهاية واحدة من نهايتي السلّم، فلو أنني جرّيت السير فوقه معتمدا على نقطة واحدة فقط لانقلب بالطبع، ولذلك أملْته على الجنب فأصبحت نهايتا الطرف العلوي من السلّم معتمدتين على الصخرة من الجانبين بينما كان القسم الأسفل معلقاً فوق الهاوية. فبدأت المسير وأنا أخطو على الخشبة الطولانية السفلى وأمسك بالخشبة الطولانية العليا بيدي. فلو كان السلم مصنوعاً بما هو مطلوب من المتانة لكان بالإمكان الوصول فوقه إلى البروز ولكن طبعاً دون شعور بالراحة. إلا أن الفرس عندما يصنعون السلالم يكتفون بدق الدرجات بما يلزمها من مسامير دون أن يثبتوها جيدا. وهكذا ما أن بدأت العبور حتى أخذت الدرجات بالتقافز وانفصلت الخشبة الطولانية السفلى عن العليا وتدحرجتْ في الجرف الحاد إلى الأسفل محدثة ضجيجاً، فتمسكت بالخشبة الطولانية العليا وبمساعدة من أصدقائي الذين كانوا يتفرجون على المجازفة بكثير من الخوف توصلت إلى التجويف الفارسي ولم أجازف بالقيام بعبور جديد إلا بعد أن أمرت بإقامة جسر متين إلى حدّ ما»[1]

ولنتحدث كيف تسنى لرولينسون أن ينسخ المدونات البابلية سنة 1847 مستبقين الأحداث لعدة سنوات:

«إن الوصول إلى النص البابلي في بيهستون أشد صعوبة منه إلى النص الصقلبي أو الفارسي. وبالإمكان نسخ المدونة من الأسفل» بواسطة ناظور جيد لكن القيام بطبع المدونة بدا لي، ولفترة طويلة جداً، أمراً مستحيلاً. وكنت أدرك أنني لست قادراً

1- Archaeologia , London , vol. xxxiv , 1852 p. 74.

على الوصول إلى الصخرة التي نقشت المدونة فوقها أما السكان المحليون الذين اعتادوا تسلق الجبال وراء ماعزهم فقد أكدوا لي بأن الصخرة التي نقشت المدونة البابلية فوقها لا يمكن بلوغها. وأخيراً وجد فتى كردي متوحش وافد من مكان بعيد وقد وافق على القيام بمحاولة الوصول إلى تلك الصخرة لقاء جائزة ثمينة في حال نجاحه. وكانت الصعوبة تتمثل في كون الصخرة تنفر بعيدا فيما بعد النص الصقلبي وتتحدر انحدارا حاداً نحو الأسفل مما يجعل الوصول إليها بالطرق العادية أمراً مستحيلاً. وفي البداية حشر الفتى نفسه في الشق القائم إلى اليسار من الشراع الصخري النافر. وبعد أن صعد قليلاً دق في الشق وتدا وثبته جيداً وربط به حبلاً وحاول بهذه الطريقة أن يتوصل إلى الشق الموجود غير بعيد في الجانب الآخر. لكنه لم ينجح في ذلك: فقد كانت الصخرة تنفر بعيدا نحو الأمام. فلم يتبق أمامه إلاّ أن يتسلق بمشقة كبيرة حتى الشق الثاني وهو يتشبث بيديه ورجليه بالنتوءات الصغيرة في الجدار العادي. لكنه نجح في ذلك. وكنا، نحن النظارة، لا نصدق أعيننا ونحن نراه يذلل صخرة معلقة ملساء بطول 20 قدماً. أما الآن فإن ما هو صعب أصبح في الوراء. فدق وتداً ثانياً وربط به حبلاً آخر كان قد أخذه معه واستطاع بذلك أن يتعلق بالشراع الصخري النافر. وهناك استطاع بواسطة السلّم أن يقيم أرجوحة تشابه ما يعمل الفنانون عادة فوقها. وراح، وقد جلس فوقها، يقوم بإرشاد مني بطبع الصيغة البابلية من إخبارية داريوس على صفحات من الورق...»[1]

فلنعد من جديد إلى مدونات جبل الفيند.

في سنة 1836 صدرت «مذكرات حول مدوّنتين مسماريتين» لإيجين بيورنوف (1801-1852) كانت إحداهما من الفيند وقد وجدت نسخة منها بين أوراق ف. أ. شولتس. وقد حدد بيورنوف أبجدية مسمارية من 33 رمزاً إلا أن القليل من بينها كان قد حدد بطريقة صحيحة. غير أن إسهامه في حل الرموز المسمارية يبقى، مع كل ذلك، إسهاما جليلا. فبفضل معلوماته المتعلقة بالزند والسنسكريت تمكن من تحديد معاني الكثير من الكلمات في المدونات على الرغم من أنه لم يتمكن من قراءتها بصورة كاملة. وفضلا عن ذلك أثبت أن كلمة «آدام» التي عدّها غروتيفيند لقبا تعني في الحقيقة «أنا أكون». وقد حدد بيورنوف بصورة صحيحة المعنى اللفظي لاثنين فقط من الرموز - التي ترمز إلى لفظي «ك» و «تْسْ». وليس علينا مع هذا

1- Ibid.

أن نسقط من حسابنا انه كان بالدرجة الأولى عالم لغات هندية وأخصائيا في السنسكريت وأن دراسته للسنسكريت ما كانت إلا ذات صلة غير مباشرة بأعماله الأساسية التي كرس لها حياته بطولها.

ويمكن أن نقول هذا أيضا عن صديقه العالم النرويجي كريستيان لاسين (1800-1876) الذي كان بدوره عالم لغات هندية ومختصا بالسنسكريت (وكان قد اهتم باللغات الهندية بتأثير من آ. ف. فون شليغل)، وأعماله حول اللغة الفارسية القديمة لا تحتل المرتبة الأولى في مجموع الدراسات التي خلّفها. وقد ظهرت مقالته «المدونات المسمارية الفارسية القديمة في بيرسيبول» في بون عام صدور دراسة بيورنوف. وتشغل هذه المقالة مكانة محترمة في تاريخ فك رموز الكتابة المسمارية.

وبالاشتغال في البحث عن أعمال جديدة يمكن أن تكون نقطة انطلاق بالنسبة لفك الرموز راح لاسين، شأن غروتيفيند من قبله وروليNسون في الوقت نفسه، يستذكر دليل الطرق غير المعبّدة في التاريخ، والذي أكد أن بالإمكان الاعتماد عليه بصورة كلية. فقد كتب هنريخ بارت عالم اللغات الأفريقية الألماني الكبير فوق نسخته من كتاب هيرودوت: «هيرودوت، مرافقي الدائم، المحترم والغالي بصفة لا حدود لها». لقد قام هيرودوت بوضع لاسين في الطريق الصحيح. ففي الفصل الـ 87 من «تاريخه» الرابع حيث يقدم وصفاً لحملة داريوس على الصقالبة يقول:

«وبعد أن تفحص البوسبور أقر (داريوس) بأن يُرْكَزَ على شاطئيه عمودان من المرمر الأبيض وأن تنقش على أحدهما بالكتابة الآشورية وعلى الآخر بالكتابة الهيلينية أسماء جميع الشعوب التي قام معها بحملته»!

افترض لاسين أن مثل هذه المدونة يجب أن تكون موجودة أيضاً بين نصوص بيرسيبول. ولما أعاد النظر في نسخ نيبور وجد في واقع الحال مدونة جديدة كانت تضم ما لا يقل عن 24 اسم علم. فاقترح أبجدية تجاوزت كل ما سبق أن قام به غروتيفيند وبيورنوف. كان 23 رمزاً من هذه الأبجدية ذا دلالة لفظية دقيقة، وكان 8 منها قد أعيد اكتشافه من قبل لاسين. وبالإضافة إلى هذا كان رمزان منها قد حددا بصورة دقيقة تقريباً. ومن بين أسماء الأعلام الـ 24 استطاع أن يطابق بين ما لا يقل عن 19 - «إنه نصر عظيم» - على حدّ تعبير بادج، عالم الآشوريات الإنكليزي بعد مئة سنة.

لكن ربما كان الإنجاز الأعظم هو أن لاسين، قد تمكن معتمداً على دراساته في حقل اللغات الهندية، من إزاحة العقبة التي كانت تقطع الطريق على المشتغلين سابقا بحل

الرموز: فقد لاحظ أن الصائت a (القصيرة) a لا يكتب في اللغة الفارسية القديمة بصورة مستقلة بل هو، كما في الأبجديات الهندية «خاص» بالسواكن؛ وعلى هذا فإن الساكن *m* يمكن أن يعبر أيضا عن مقطع *ma* وهو ما ميّز على الفور أمثال هذه الكتابات مثل *xš ayaϑiya varka* عن *xš ayϑiy vzrk* (قارن طريقة التدوين تحت الشكل رقم 39) أما حيث يوضع رمز مستقل مطابق للفظ a فهو يشير إلى a الطويلة [ā] أي a المكونة من صوتي a يتصل الأول بالساكن السابق ويعني الثاني اللفظ الصوتي.

وعندما توصل كل من إ. إ. ف. بيرو إ. ف. سان - جاكي وبصورة مستقلة لكل منهما، إلى تحديد الرموز التي كانت ناقصة كان الأساس قد أرسي لتاريخ فك الرموز رموز الكتابة المسمارية الفارسية القديمة.

لكنها الآن بدأت للمرة الثانية منذ البداية!

حقاً إن بإمكاننا الآن أن نعيد صياغة ما نريد قوله بصورة أكثر إيجازاً. فغ. ك. رولينسون لم يكن فقط جندياً ممتازاً وفارساً مجلياً ودبلوماسيا محنكا بل وكان عالما من الطراز الأول. فعندما نسخ في سنة 1835، وهو في طريقه إلى كرمنشاه المدونتين المتضمنتين اللغات الثلاث من جبل الفيند كان في أحسن الأحوال قد سمع مجرد سماع بقراءة غروتيفيند لأسماء غيستاسب، داريوس، وكسيركس، ومن الممكن جدا أن رولينسون الذي كان واسع الاطلاع على العالم الكلاسيكي القديم قد تعرف بنفسه على أسماء أولئك الملوك من الأسرة الأخمينية بملاحظته التطابق في مدونات جبل الفيند. وعلى نحو ما قام به غروتيفيند فإنه طبق رموز المدونة على أسماء غيستاسب. داريوس وكسيركس وتوصل بذلك إلى 13 حرفاً كما أنه تذكر الفصل الثاني من الكتاب السابع لهيرودوت والذي يتحدث كسيركس فيه عن شجرة نسبه.

بيد أن رولينسون كان يتمتع بوضع يفضل كثيرا الوضع الذي كان فيه غروتيفيند، المعلم الغوتينغيني. فقد كانت بين يديه مدونة بيهستون الهائلة. ولهذا فإن شجرة نسب كسيركس، التي ذكرت عند هيرودوت، قدمت إليه أكثر بكثير مما قدمت لغروتيفيند. فهو بدءاً من الأسطر الأولى في مدونة بيهستون يفرز مجموعة من الرموز الدالة على أسماء بارثا (فارس)، ارزاميس (أرشاما)، اريامنيس (أريارامنا)، تييسبيس (تشيشبيش) وأخايمينيس (اخامانيش).

فكأن الملك المجيد وقد استبق بثاقب نظره الصعوبات التي ستعترض قارئي رموزه راح في أول بداية المدوّنة الخالدة يسمي الأسماء التي يحتاج إليها الباحث:

يقول دارايّافاوش، الملك:

«أنا دارايّا فاوش.

الملك المجيد.

ملك الملوك،

ملك فارس،

ملك البلدان،

ابن فيشتاسبا،

حفيد أرشاما،

الأخميني».

يقول دارايّافاوش، الملك:

«أبي - فيشتاسبا.

أب فيشتاسبا - أرشاما،

وأب أرشاما - اريارامنا،

وأب أريارامنا - تشيشبيش،

وأب تشيشبيش - أخمين،

لهذا نلقب بالأخمينيين.

معروفين وُلدنا منذ عهد الآباء

منذ عهد الآباء كان جنسنا جنس الملوك».

وفي نهاية سنة 1836 وصل رولينسون إلى بومباي وتسلم من العقيد تايلور هناك الأبجديات المسمارية لغروتيفيند وسان - مارتيني. إلاّ أنه كان قد تعرف بنفسه على عدد من الألفاظ يربو عما كان لدى كلا الباحثين اللذين لم يكونا - بالإضافة إلى ذلك - متفقين فيما بينهما في كل شيء.

أمضى روليسون عام 1837 بطوله منكباً على دراسة مدونة بيهستون، ثم تقدم سنة 1838 إلى الجمعية الآسيوية الملكية في لندن بنص وتدوين كتابي وترجمة للقسمين الأولين مع ما يتصل بهما من تعليقات. وتقع هذه الدراسة في يدي ايدوين نوريّس الذي كان العالم الوحيد باللغة الفارسية القديمة في العاصمة الإنكليزية، فيقوم هذا بإرسال نسخة منها إلى باريس وبذلك يصبح رولينسون لأول مرة على اتصال وثيق بالعلم. فيجري مراسلة مع لاسين ويعلم عن دراسة بيورنوف المتعلقة بالجزء الثالث من الافستا - المسمّى بالواضح. وعند ذاك ينكب على

دراسة الزند والسنسكريت باهتمام. وفي بداية عام 1839 كان قد أعدّ ترجمة ما يقارب جميع السطور التي كان قد طبعها في بيهستون وعددها مائتان.

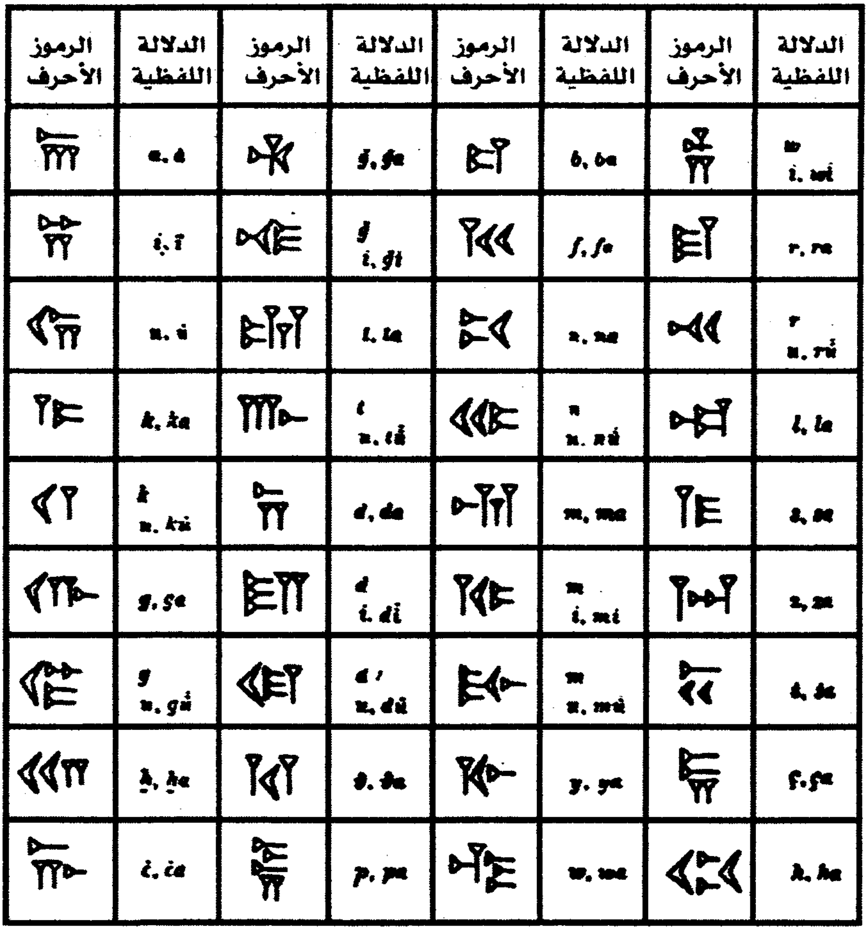

الشكل -40- الأبجدية المسمارية الفارسية القديمة.

لكن العلم الأوروبي ليس نائماً. فعندما يعود رولينسون إلى بغداد سنة 1843 ويعيد دراسته هناك تكون أمامه مجموعة من الدراسات الجديدة: فقد أقرت الأبجدية وصوبت الدلالات اللفظية وحسنت الترجمات. ويقوم نوريّس بإخبار رولينسون من لندن بنتائج دراسات الراهب الإيرلندي إدوارد هينكس (كان نوريّس وهينكس عالمي رموز بالطبيعة وسيدور الحديث عنهما في ما يلي) وعندما يجلس رولينسون لتسجيل «مذكرات» ـه (1844-1845) المخصصة للصيغة الفارسية من مدونة بيهستون يعرف أن العلم الأوروبي قد تجاوزه إلى حدود بعيدة. إلاّ أن هذا لا يقلل بالطبع من إنجازاته بأي شكل. فاكتشافاته ستبقى إلى الأبد مرحلة مهمة في دراسة المسماريات.

ومن العمل المشترك لكثير من العلماء تجمعت بصورة تدريجية اللوحة الواضحة للكتابة المسمارية الفارسية القديمة وبخاصة أبجدية السواكن التي حفظت عناصر الكتابة المقطعية وحوّرتها بصورة إبداعية. وقد تجلت هذه العناصر في كون الأبجدية الفارسية القديمة قد مكّنت من تسجيل الأحرف الصائتة. فـ *a* كانت «خاصة» بالسواكن. أما التعبير عن *i* و *u* فكان يتم بطريقة كتابة السواكن السابقة لهما بطريقة مغايرة. ويقدم (الشكل 40) كامل الأبجدية المسمارية الفارسية القديمة في الصورة التي حدّدها العلم الحديث.

وهكذا وبعد ألفين وخمسمئة من السنين تحقق ما أوصى به داريوس للأجيال بكل إجلال.

يقول داريّافاوش الملك:

«أنت يا من في مستقبل الأيام

ترى إلى هذه الكلمات

التي أمرتُ بنقشها في الصخرة

أو إلى هذه الصور،

لا تدمّرها!

بل صُنْها

ما دام ذلك في مستطاعك».

الفصل الرابع

أنَّى نظرت لقيت إسفيناً

فك رموز الكتابة المسمارية في ما بين النهرين

أعترف من أعماق قلبي... بأنني حاولت مرات عديدة.. أن أتخلى مرةً وإلى الأبد عن دراسة (المنقوشات الآشورية - المؤلّف). لأنني كنت قد فقدت آخر بريق من الأمل في الوصول إلى أيّ نتائج إيجابية مهما كانت زهيدة.

هنري كريسويك رولينسون، 1850

إنني أول من يقرأ هذا بعد أن ظل منسياً على مدار ألفين منَ السنين

جورج سميث، بعد سنة 1861

كان حل رموز الكتابة المسمارية لقدماء الفرس قد أنجز من الناحية العملية، لكن ذلك الحل لم يكن إلا البداية أو الخطوة الأولى نحو حسم المشكلة، إذ إنه لم يطرح سوى إمكانية النفاذ في ماهية الكتابة المسمارية بالمعنى الحرفي للكلمة.

فالكتابة الفارسية القديمة هي ما يمكن أن نسميه بـ «التحول المتأخر» للنظام المختزل من الكتابة المسمارية الحقيقية، ذلك النظام المكيّف وفق الاستخدام العملي ضمن ظروف اللغات الإيرانية. فالكتابة الفارسية القديمة لا تشترك تقريباً أي اشتراك مع الكتابة المسمارية الحقيقية (باستثناء الإسفين نفسه بالطبع). لا تشترك تقريباً، إذ إن هذه الكتابة لم تقطع علاقاتها بصفة كلية مع الأجداد كما أن الوسائل المساعدة التي تستخدمها من أجل كتابة الصائتات تفضح انحدارها من الكتابة المقطعية.

ولنعد إلى الأذهان أن أوائل الناسخين قد لمسوا في مدونة بيهستون ثلاثة أنماط من الكتابة وافترضوا وجود ثلاث لغات مختلفة وعدوا النمط الأكثر بساطة من بينها كتابة أبجدية فالأكثر تعقيداً كتابة مقطعية فايديوغرافية، واستندوا في ذلك كله على حساب عدد الرموز في كل منها.

وبحل رموز الجزء الفارسي القديم منها تم التوصل إلى مفتاح قراءة الكتابتين الأخريين.

فما هو السبب الذي دفع بملوك الفرس الكبار إلى مخاطبة العالم بلغات ثلاث؟ وبأيّ لغات؟ إن الوضع التاريخي الذي نقشت فيه هذه المدونات لا يتسم إلا ببعض التشابه مع الوضع الذي اشترط ظهور حجر رشيد.

فالمهد الأول للكتابة المسمارية هو كما نعلم، منطقة الهلال الخصيب، أو ما بين النهرين - المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات وتعود في أيامنا هذه للجمهورية العراقية. أما حضارتها الأقدم - الآشورية في البداية ثم البابلية - الآشورية في وقت متأخر (والتي عرفت بالتسمية العامة، الأكادية) - فكانت تبسط نفوذها على الشرق والغرب. وسنتناول بحديثنا فيما بعد المناطق الغربية لهذا النفوذ أما ما يخص الشرق فإن العلاقة بالحضارة السومرية ومن بعدها الحضارة البابلية كانت وقفا، في الأساس، على منطقة كانت تنبسط في الجنوب الغربي من إيران - وصارت فيما بعد دولة عيلام وعاصمتها سوس (ولهذا كانوا يقولون وعلى مدار فترة طويلة «السوسانية» أو «السوسية» بدلاً من «العيلامية») وقد اقتبس العيلاميون الكتابة المسمارية عن سكان ما بين النهرين في فترة مبكرة نسبياً واقتبسوا معها اللغة الأكادية أي اللغة البابلية - الآشورية. إلا أن اللغة العيلامية نفسها نالت فيما بعد شرف التخليد في كتابة مسمارية بابلية كانت غريبة على العيلامية (إذ إن هذه اللغة ليست هند أوروبية وليست سامية - بل ولم تدرس بما فيه الكفاية حتى الآن) حتى إذا دخل الفرس إيران عبر أرمينيا في الألف الثاني قبل الميلاد كانت عيلام المركز الأول الذي اصطدموا به ووقعوا تحت تأثيره.

ولما وجد الفرس لدي العيلاميين إدارة رسمية متكاملة حتى ذلك العهد قاموا في البداية بالمحافظة على لغة البلاد وكتابتها لصالحهم (ولم تكتمل لديهم الأعمال الخلاّقة في تشكيل النظام الكتابي الخاص بهم إلا في عهد داريوس الأكبر) وبهذه اللغة العيلامية (أو بكلمة أدق - العيلامية الجديدة)، اللغة الرسمية الأقدم للدولة الفارسية وضع النمط الثاني من نص بيهستون.

فهل كانت الثالثة لغة بابلية؟ إن الدولة الخلّدية البابلية المتأخرة دخلت في عداد الدولة الفارسية العالمية منذ أن قام كير الكبير باحتلالها سنة 539 قبل الميلاد. وصارت لغتها اللغة الرسمية الثالثة للدولة وبناء على ذلك فإن كل ما كان يعلن على مجموع الدولة كان لا بد وأن ينشر بهذه اللغات الثلاث.

إن حل رموز الجزء العيلامي من المدونة، على الرغم من أنه كان مشوباً بصعوبات واضحة، فإنه كان يبشر، على ما يبدو، بنجاحات أسرع وتيرة من حل رموز اللغة البابلية التي بدلت للوهلة الأولى متشابكة بصورة تامة. وقد أعطت الحسابات بالنتيجة 111 رمزاً عيلامياً وهو ما كان يشير بدقة مطلقة إلى الطابع المقطعي وليس الطابع الأبجدي أو الأيديوغرافي لهذه الكتابة[1].

قدمت المحاولة الأولى لغروتيفيند شحنة واحدة من الإيضاح في تلك اللوحة من التكتل الفوضوي للرموز التي لم تكن تحتوي حتى ولا على الفاصلة بين الكلمات.

فقد تأتّى له في جملة الرموز أن يستخرج محدِّد الاسم العلم المذكَّر - وهو رمز إيضاحي صامت على هيئة إسفين عمودي يرد قبل الاسم (وليس بعده على ما هي الحال في الكتابة المصرية) وتشير هذه الدراسة المتأخرة لغروتيفيند إلى حدّة الذكاء الوقاد لدى الباحث العجوز.

راح نيلس لودفيغ ويستيرهارد الدانمركي، الذي وجّه إلى إيران سنة 1843، بغية استنساخ المدونات، يعمل بصورة مستقلة على المادة التي توصل إليها، وهو قائمة أسماء البلدان التي استنسخت من على الصخرة التي كانت تغطي ضريح داريوس في نقشي رستم. وكان أول من حالفه التوفيق في تدوين مقطوعة من مدونة عيلامية. وكانت هذه الكتابة حسب نظرته أبجدية في شطر منها ومقطعية في شطرها الآخر وقد وقعت في الجدول الذي وضعه والمشتمل على 85 رمزاً بعض المحددات التي دخلت بالخطأ والتي لم يستطيع تمييزها. أما اللغة فعدّها لغة ميديّة.

ولما كان من الطبيعي أن ينطلق الباحثون في حلهم لرموز هذه الكتابة أيضاً من أسماء الأعلام فإن أساس التحرك الناجح نحو الأمام قد تعزّز دفعة واحدة وتوسع عندما نشر البروفيسور المذكور ايدوين نوريس عام 1853 الصيغة العيلامية من مدونة بيهستون. وحتى ذلك الوقت كان

1- تزيد الكتابات المقطعية في رموزها عن عدد الكتابات الأبجدية وتقل في ذلك عن عدد رموز الكتابة الأيديوغرافية نظرا لأن عدد مقاطع اللغة أكثر من عدد أصواتها الأبجدية وأقل عددا من الكلمات التي يرمز إلى كل واحدة منها برمز خاص وفقا للكتابة الايديوغرافية (المترجم).

معروفاً 40 اسم علم فقط. فإذا بالباحثين يجدون أمامهم 90 اسماً دفعة واحدة. ولا بدّ من الاعتراف بصورة مباشرة بأن قضية إصدار النص وقعت في الأيدي التي تبشر بأفضل النتائج. فقد كانت أعمال ذلك الإنسان تتصف بالدقة الخارقة للطبيعة وبالإثبات المتين. فعند إصدار النص الفارسي القديم لرولينسون (وعلى فكرة فقد كان نوريس قد خط بنفسه الرموز المطبعية الضرورية الجديدة لذلك النص). تمكن من وضع يده على الأخطاء الواقعة في تلك النسخ، (التي لم يسبق أن وقعت عينه على أصولها على الإطلاق!) وأن يكشف مواضع النقص فيها ويضع كل التصويبات المطلوبة. وعندما أسقط رولينسون بطريق الخطأ سطراً كاملاً اكتشفت عين نوريس الثاقبة النظر موضع النقص وهو في لندن، وقد لفت نظر الباحث إلى ذلك وفيما بعد، وعندما قارن رولينسون تصويبات نوريس والأصل اقتنع بأنها تتفق تمام الاتفاق مع الحقيقة.

هكذا كان ذلك البروفيسور اللندني نوريس المولود سنة 1795 في تاونتون والذي تعلم اللغة الأرمنية وعدداً من اللغات الأوروبية قبل أن يبلغ العشرين. وكان لا بد من الإسراع فبانتظاره، وبانتظار رولينسون والكثيرين من طرازه - منظمة قوية لا تقصر حاجتها على قطاعي الرؤوس السفلة والمغامرين الذين كانت تقوم بنفسها على تربيتهم بكل اهتمام بل وعلى رجال الفكر أيضاً - وهي شركة الهند الشرقية. وقد التحق نوريس بخدمتها وهو في الثالثة والعشرين من عمره وراح يتعلم فيها اللغات الهندية والأفريقية والبولينيزية. وفي سنة 1838 أصبح بفضل معارفه الغزيرة أمين السر المساعد (*assistant-secretary*) للجمعية الآسيوية الملكية في لندن. وبصفته هذه تلقى أول مقال لرولينسون أُرسل إلى الجمعية. وقد بهرت هذه الآفاق الجديدة أبصاره: فهو يغرق نفسه في دراسة اللغة الفارسية القديمة واللغات القريبة منها في النسب. ولما تظهر الطبعة النموذجية للصيغة العيلامية لمدونة بيهستون (مترجمةً) بإعداد منه كان ذلك يعني المرحلة الثانية من نشاطه العلمي. أما المرحلة الأولى فكان قد أمضاها قبل 8 أعوام عندما قام سنة 1845 وبصورة مستقلة تماماً بفك رموز مدونة أشوكي الصخرية في كابور دي غيري. ولكي نكمّل صورة هذا الإنسان الفريد من نوعه نضيف بصورة عابرة أنه ظل على مدى عدد من السنين يرسل إلى رولينسون جميع الأعمال المتعلقة بالكتابة المسمارية وعليها تعليقاته الحكيمة فيكون بذلك قد ساعد ذلك الأخير مساعدةً كبرى في أعماله، وأنه بالإضافة إلى ذلك لم يكن على اطلاع فقط على عدد من اللغات

الأفريقية بل كان يتكلمها بطلاقة وأنه علاوة على ذلك أصدر نصوصاً كورنية قديمة وكتب عن المصير الفاجع لهذه اللغة (اللغة الكورنية - هي لغة كورينفالس الكلتية التي ولد نوريس غير بعيد عنها، وقد انقرضت بصفة نهائية سنة 1800).

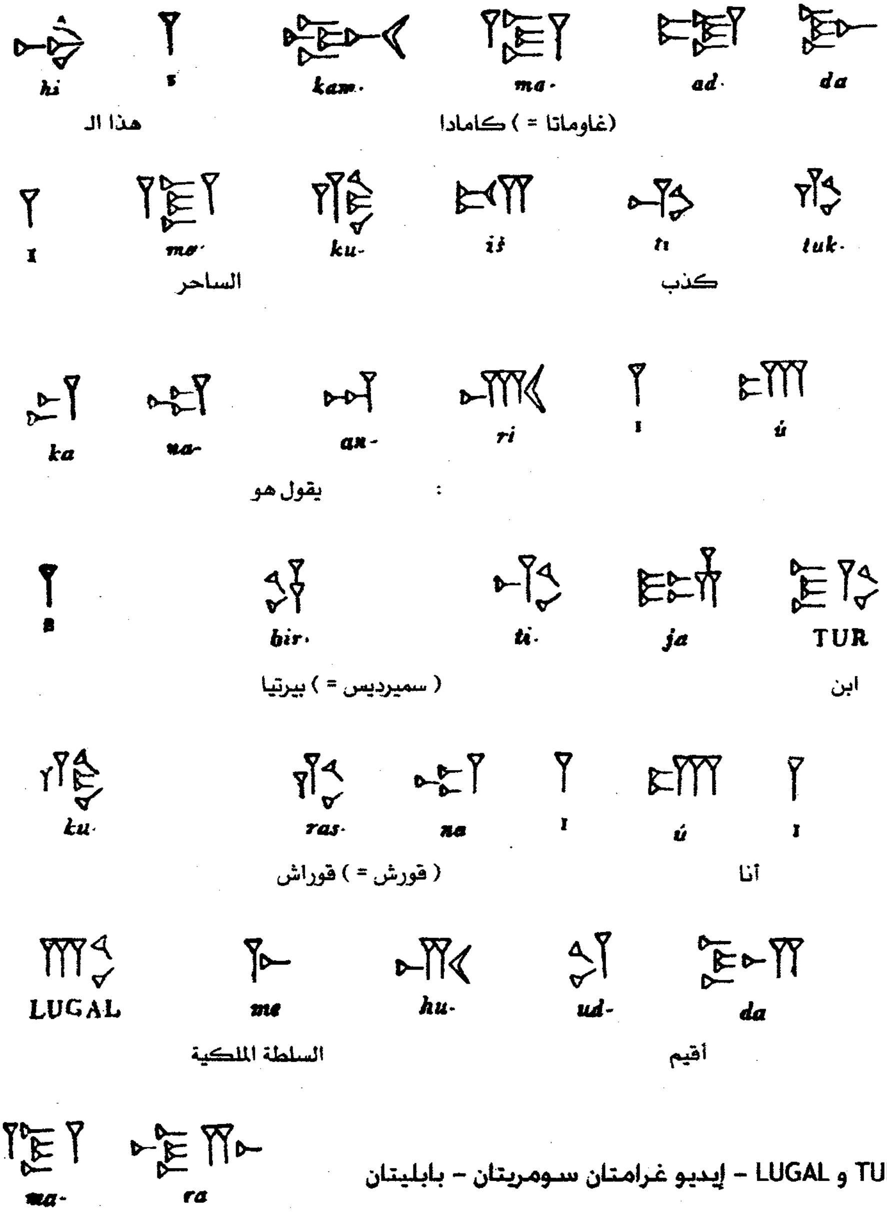

TUR و LUGAL – إيديو غرامتان سومريتان – بابليتان

الشكل -41- نص مسماري عيلامي حديث من مدونة بيهستون مع تدوين لفظي وترجمة

فلنعد من جديد إلى اللغة العيلامية. كان نوريس خلال معالجة المادة يغترف من الكنوز الغنية لأسماء الأعلام التي سمحت له بتحديد القسم الأعظم من الرموز المقطعة العيلامية. وعلاوة على ذلك فإن الصيغة الفارسية القديمة كانت ملائمة لتحديد معاني الكلمات وصيغها النحوية.

ونقدم هنا نموذجاً من الكتابة العيلامية التي نسخت عن صخرة بيهستون، وهو واحد من النقوش التي أرفقت بتصوير شخصيات منفصلة فوق اللوحة البارزة وهي في حالتنا هذه شخصية غاوماتا الذي أطيح به.

للأسف تبقى اللغة العيلامية حتى أيامنا هذه نوعاً من الابن المتبنّى لعلم الآشوريات ولم ينته من دراستها حتى النهاية. ويظن أن هذه اللعنة كانت تلاحق هذه اللغة حتى في تلك الأيام عندما كانت المهمة الأساسية تتحصر في الحفاظ عليها إذ إنه ليس لدينا أي أثر من تلك الكتابة من عصر ما بعد الأخمينيين رغم أنه بالإمكان الترجيح بأن تلك اللغة ظلت تلعب دور أداة التفاهم الحي حتى نهاية الألف الأول الميلادي.

بيد أنه بقيت هناك واحدة من حبات الجوز وهي أصلب واحدة مما دسّته المدونّات الأخمينية للباحثين، فالكتابة المسمارية البابلية كانت في بداية عهدها تشبه قلعة لا يمكن قهرها تقاوم بعناد جميع محاولات فك الرموز. لكنها أخذت تفقد مظهرها المخيف شيئاً فشيئاً بمقدار ما كان المحاصرون يقتربون منها إلا أنها كانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى متاهة أكثر تعقيداً.

والحق أن الصيغة الثالثة من الكتابة ظلت، على مدى فترة زمنية طويلة إلى حد ما، تعتبر مطابقة للكتابة فوق الآثار البابلية التي كانوا يجيئون بها إلى أوروبا بأعداد متعاظمة أما أول أوروبي جزم بوجود كتابة حقيقية في الرموز المنقوشة على الاسطوانات الطينية وعلى قطع الآجر والأحجار السوداء فكان الكاهن بوشامب، وهو نائب الأسقف العام لبابل وقد طوّف في أرجائها في سنوات 1781-1785. وقام بإرسال قطعة قرميدية من هذا النوع إلى صديقه الكاهن بارتيليمي في باريس. ومع كل هذا فإن الدفعة التي فاجأت الباحثين في ميدان الكتابة البابلية جاءت من جهة مغايرة تماماً وهو ما سبق أن توفرت المناسبة لذكره. ففي سنة 1839 وبعد بضع سنوات من المصرع التراجيدي للشاب كلاوديوس ريتش قامت أرملته بنشر مذكراته والصور التي استنسخها بنفسه. وبعد سنة من ذلك انكب المستشرق الفرنسي المشهور يوليوس مول على دراستها. فكان كلما ازداد تعمقاً في تلك المذكرات كلما زاد اهتمامه بنُسخ المدونات القديمة وكلما تضاعف استسلامه لسحرها. وشيئاً فشيئاً تولدت فرضية تحولت فيما بعد إلى حقيقة مؤكدة وهي: إن ريتش قد اكتشف نينوى وإن صيداً أرخيولوجياً كبيراً يتجاوز أشد التوقعات جرأة بانتظار من يضع قدمه في ذلك المكان.

كان يوليوس مول أخصائياً يحظى باحترام كبير في ميدان بحثه. وكان ذا تأثير كبير في الأوساط الحاكمة. وبدعوة منه عينت الحكومة الفرنسية نائب قنصل في الموصل بمهمة شديدة الصرامة وهي جمع المخطوطات والمواد الأثرية.

أما ذلك النائب فكان طبيباً من تورين اسمه بول ايميل (باولو ايميليو) بوتا وهو نفس ذلك الـ بوتا الذي قام خلال بضعة أسابيع بالكشف في خورساباد عن القصر البديع للملك صارغون الثاني الآشوري.

وحرمت أوصاف هضبة نمرود، التي قدمها ريتش، من الراحة رجلاً آخر كان من أبناء منطقته، فقام بزيارة تلك الأصقاع مرتين بين 1840 و 1842. كما قام ذلك الفتى الذي كان يبشر بكثير من الآمال - والذي كان محروماً من الألقاب والأموال - بالتوجه مباشرة إلى السير ستراتفورد كانّينغ، السفير البريطاني لدى الباب العالي الذي لم يكتف بأن استصدر له فرماناً سلطانياً بإجراء الحفريات بل ودعمه مادياً بأن خصص لذلك الهدف كمية يسيرة من المال. وقد تأكدت تلك الثقة وفاضت - وكان ذلك الفتى هو هنري اوستين ليارد، الذي غطت شهرته كمكتشف لنمرود على شهرة بوتّا.

وهكذا قام بوتا في خورسياباد وليارد في نمرود خلال أربعينيات القرن التاسع عشر باكتشاف قصرين هائلين من قصور ملوك آشور وعثرا فيهما على مدونات كثيرة. وعندما وصلت هذه النسخ إلى أوروبا وطبعت منها النسخ الكثيرة على الفور تنامى الاهتمام بتلك الكتابة المسمارية التي كانوا يعتبرونها آنذاك خطأ «آخر كتابة مسمارية لم تحل رموزها».

بيد أن تلك الكتابة ظلت تتشبّث بأسرارها بعناد صامت. ومنذ سنة 1850 كان رولينسون الشهير قد صرّح وهو ينفض يديه عاجزاً أمام النسخ التي قام بها ذات مرة بمساعدة الكردي الباسل، قائلاً إنني حاولت «مرات عديدة... أن أتخلى مرة وإلى الأبد عن الدراسة لأنني كنت قد فقدت آخر خيط من الأمل في الوصول إلى أيّ نتائج إيجابية مهما كانت زهيدة».

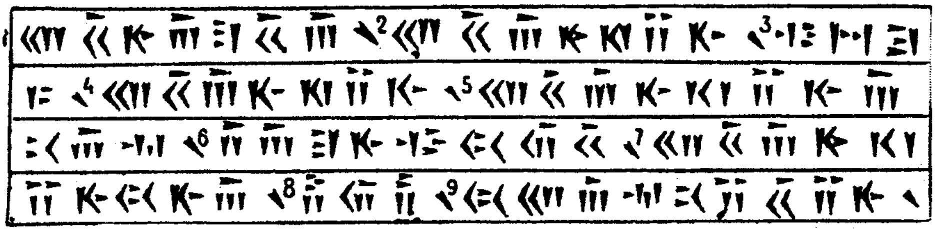

(أداء النص بالحروف) *(1) X(a)-š-(a)-y(a)-a-r(a)-š(a)-a (2) x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a)- (3) v(a)-z(a)-r(a)-k(a) (4) x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a) (5) x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a)-a-n(a)-a-m(a) (6) D(a) a-r(a)-y(a)-v(a)-h(a)-u-š(a) (7) x(a)-š(a)-a-y(a)-θ(a)-i-y(a)-h(a)-y(a)-a (8) p(a)-u-ç(a) (9) H(a)-x(a)-a-m(a)-n(a)-i-š(a)-i-y(a)*

(يقرأ النص هكذا) ***Xšayāršā xšāyaθiya vazrka xšayāθiya xšāyaθiyānām Dārayavahuaš xšāyaθiyakya puça Haxāmanišiya***

كسيركس، الملكُ العظيمُ، ملكُ الملوكِ، داريوسَ الملك ابنُ، الأخمينيُّ

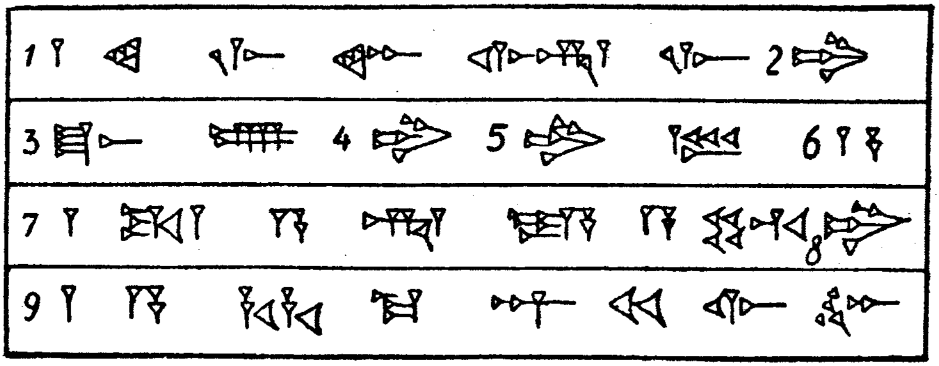

(1) ¹Hi-ši-'-ar-ši (2) šarru (3) rabû^{ú} *(4) šar (5) šarrāni*^{MEŠ}.
(6) mār (7) ¹Da-a-ri-ia-a-muš (8) šarri (9) A-ḫa-ma-an-niš-ši-'

كسيركس، الملكُ العظيمُ، ملكُ الملوكِ، ابنُ داريوسَ، الملك

الشكل -42- مدونة كسيركس باللغة الفارسية القديمة (إلى الأعلى)
وبالبابلية (إلى الأسفل) وفق التدوين اللفظي والترجمة

ويمكن فهم ذلك إذا ما أخذنا بالحسبان ضخامة مدونة بيهستون وعدد الرموز الذي يربو على الخمسمئة.

ولكن ألا يمكن أن يحدث أن يكون هناك، حيث تثير الوفرة الخوف، شيء تافه وغير ملحوظ هو الذي يبشر بأول النجاحات؟

ربما بهذه الطريقة أو بما يقترب منها كان يفكر السويدي ليفينستييرني الذي شرع سنة 1846 بالعكوف على دراسة مدونة كسيركس القديمة التي حملت في حينها نجاحاً هائلاً لغروتيفيند (انظر الشكلين 38 و 39 إلى الأسفل) إلا أن انتباه ليفينستييرني لم يتوقف إلا أمام القسم البابلي الذي راح يقارنه بالفارسية القديمة. إذ إنه كان يعتبر الأخيرة معروفة كلياً بمضمونها وأنها لا تتضمن غير اللقب واسم العلم (الذي كان غروتيفيند قد حدّده لكنه لم يقرأ بعد)، وبكلمة واحدة - كانت هذه الكتابة مادة ممتازة لينطلق منها.

وقد رأى ليفينستييرني ما لم يره أحد من قبله وهو ما يبدو لنا اليوم بسيطاً إلى درجة مضحكة، فقد لاحظ أن كلمة «ملك» الفارسية القديمة (الشكل 42 إلى الأعلى، أرقام 2، 4، 5، 7) وكلمة «ابن» أيضاً (الشكل نفسه رقم 8) يطابقها في النص البابلي رمز واحد فقط («ملك» إلى الأسفل رقم 2، 4، 5، 8 و «ابن» - رقم 6). رمز واحد لكل كلمة. إن هذا يعني أن البابليين كانوا يكتبون بالكلمات - الرموز. فهل يعني هذا أن كتابتهم كانت أيديوغرافية؟

وهكذا، وعلى أساس من المقارنة بالنص الفارسي القديم حدّد ليفينستييّرني وبصورة صحيحة كلا الرمزين - «ملك» و «ابن» (على الرغم من أنه لم يستطع بعد قراءتهما). وبرهن بهذه الطريقة على أن الرموز المسمارية البابلية تعني في حالات محددة كلمة بكاملها وعليه يجب اعتبار الكتابة بمجموعها كتابة ايديوغرافية. ولكن أي كتابة هي في واقع الحال؟ بالرموز الخمسة تطابق تلك الرموز الساكنة الخمسة الموجودة في هذا الاسم، والتي، بالإضافة إلى اثنتين من الصوتيات، تميز الصيغة الفارسية القديمة. ولكن من المعروف أن الساميين هم الذين كانوا يكتبون بالسواكن فقط. ومن هنا، ومن مجموعة أخرى من المعطيات، يستنتج أننا نتعامل بصفة مؤكدة مع لغة سامية. وانطلاقاً من هذه التصورات عكف رولينسون منذ عام 1847 على دراسة اللغتين العبرية القديمة والسريانية وفي سنة 1850 قدم إلى الجمعية الآسيوية الملكية في لندن أول استنتاجاته وافترض فيها أنه حدد 80 اسم علم ونحو الـ 150 معنى لفظياً وما يقارب الـ 500 كلمة بابلية. إلا أنه كان باستطاعته التعرف من خلال أعمال هينكس على أن الحق في حل عقدة غورديوس[1] والإشارة إلى طريق الهداية في متاهات تلك القراءات التي يناقض بعضها بعضاً يعود لذلك العالم الايرلندي العبقري.

فقد تبين فجأة أن الطريقة التي أعطت ثمارها بالنسبة لعديد من الكتابات لم تأت بأيّ نتيجة أثناء حل رموز الكتابة البابلية. فالمعاني اللفظية التي تم استنباطها من أسماء الأعلام لم تتطبق بأي شكل من الأشكال على مفردات أخرى. فقد اتضح (وهو ما عُدّ في بداية الأمر برهاناً مثبطاً للعزيمة على أن قراء الرموز كانوا يسيرون في طريق خاطئ) أن كل ساكن يعبر عنه عبر مجموعة من أكثر الرموز تبايناً، حتى أن عددها كان يصل أحياناً إلى ستة أو سبعة أنماط في اللفظ[2] واستنتج عموماً أن كل رمز منفصل كان يمكن أن يشتمل على سبع دلالات لفظية وعلى العكس يوجد للتعبير عن لفظ بسيط واحد ومنه الـ r بوجه خاص، سبع رموز دفعة واحد (وفق فرضية ليفينستييرني) ويمكن أن يسمع من بعضهم بأن التجريح اللاذع الذي وجهه فولتير إلى أوائل علماء المصريات بمناسبة شروحاتهم المماثلة التي

1ـ تقول الأسطورة اليونانية إن غورديوس، ملك فريجيا، كان قد شدّ عريس مركبةٍ برباط ضخم بالغ التشابك والتعقيد سمي بـ «عقدة غورديوس»، وتنبأ العرافون بأن من يحلها يملك العالم وقد أعجز ذلك الكثيرين إلى ان جاء الإسكندر المكدوني فحلّ العقدة بضربة من سيفه (سنة 334ق.م). ومن هنا جاء مصطلح «حل عقدة غورديوس» ويعني تقديم الحل السريع والحاسم لمسألة معقدة متشابكة. (المترجم).

2ـ كـ حرف S الذي يلفظ في الساميات: س، ث وص. (المترجم).

تفتقر إلى البراهين كان في الوقت نفسه حجراً موجهاً أيضاً إلى أوائل علماء الآشوريات أيضاً. ومهما يكن من أمر فإن محاولات التوصل إلى قراءة موحدة بالنسبة لجميع العلماء ومقنعة ومدعمة بالحجج العلمية كان أمراً لا طائل وراءه.

ولا يمكن تصور تاريخ علم الآشوريات دون الحديث عن راعي الكنيسة إدوارد هينكس. كان راهباً ودكتوراً في اللاهوت وهو في صورة أقرب إلى العالم المنعزل منه إلى العالم الأثري الناشط في حقول التنقيب. والحق أن هينكس لم يزر منطقة الحفريات مرة واحدة طوال حياته. بيد أن ما كان يجري بين 1846 و 1850 فوق طاولة عمله كان معركة حاسمة من أجل حل رموز الكتابة المسمارية البابلية وقد خرج الراهب المهزول ذو النظارتين منها وقد حقق انتصاراً مجيداً.

إن سنة 1850، السنة التي أوشك رولينسون فيها على أن «يفقد أي أمل»، حملت أهم الكشوفات التي قام بها ذلك الإيرلندي والتي وضعت العلم الفتي أخيراً على قدميه. فقد أعلن هينكس أن الكتابة البابلية لا تعرف الرموز التي تعبر عن الألفاظ الساكنة البسيطة (يعني أنها لا تعرف الحروف المستقلة) بل هي تتضمن رموزاً مقطعية من نمط صوتي+ساكن مثل *ir, ab* وما إلى ذلك، ومن نمط ساكن + صوتي مثل *ki, da* وما شاكلهما (قراءات ليفينستيرني السبع ما كانت غير رموز مقطعية *ru,ri,ra,ur,ir,ar*)؛ وبالإضافة إلى هذه الرموز المقطعية «البسيطة» كان هناك رموز «مركبة» متوضعة على نمط ساكن + صوتي + ساكن مثل *mur,kan* وما إلى ذلك. وهذه المركبات يمكن بدورها، وبهذا نصل إلى أهم الكشوفات، أن تتخذ صورتها في كتابة مركبة (*mur,kan*) وفي كتابة «مقطعة» متوزعة على جزأين: (*mu-ur, ka-an*).

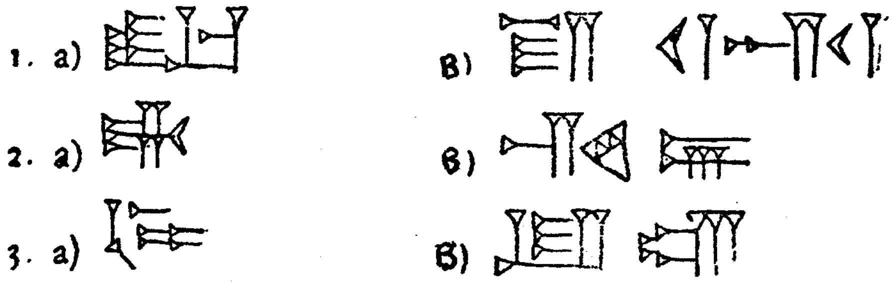

1. a) *šar* — B) *ša-ar*
2. a) *gir* — B) *gi-ir*
3. a) *lum* — B) *lu-um*

الشكل -43- تحولات الرموز المقطعية بطريقة الكتابة المركبة و «المقطعة»

وعلاوة على ذلك فإن هينكس من خلال استخدامه للأساليب الدقيقة في البحث (إذ إنه تخرج في مدرسة جديدة) اكتشف خاصية أخرى من خصائص المسمارية البابلية وهي أن الرمز نفسه يستخدم لـ أيديوغراما وكرمز مقطعي وكمحدد. وهكذا بدت الرموز المسمارية البابلية «متعددة المعاني».

ولم يكن هذا الاكتشاف في أول أمره إلا مساعداً بالكاد على تعميق الثقة بقراءة الرموز سواء في أوساط الإحصائيين أو في أوساط الهواة.

وفي الوقت نفسه تعرف هينكس على قسم كبير من المحدَّدات وميّزها.

وأطرف ما في الأمر أنه كان منصرفاً بكليته لدراسة الهيروغليفات ولعلّه ما كان ليشغل نفسه بالكتابة المسمارية لو لم يضعه على ذلك الطريق اكتشاف نينوى الذي أحدث دوياً هائلاً في أوروبا بأسرها.

أما الركنان الثانيان للصرح الذي أقيم لفك رموز المسمارية فقد وضعه اثنان من الباحثين بينما تولت المصادفة السعيدة وضع الركن الثالث.

كان بوتا أول الباحثين وعنه تحدث أحدهم بشيء من الحدة الزائدة مشدداً بصورة خاصة على أنه لم يكن عالم آثار. فذلك الرجل المتعدد الجوانب - الطبيب والدبلوماسي من ناحية الاختصاص وعالم الطبيعة من ناحية الميول يستحق بجدارة أن يوصف بأنه واحد ممن قاموا بفكّ الرموز. فقد كانت أفكاره تدور دوماً حول نقوش قصر صارغون التي تم استنساخها بأمر منه. وقد استرعى نظره أن كثيراً من النقوش كان وحيد المضمون على ما يبدو. ولكن عندما كانت تظهر ايديوغراما في إحدى المدونات كان يمكن أن يشاهد في المكان نفسه من مدونة أخرى مجموعات لفظية من الرموز. وقد مكنت مثل هذه التطابقات من توضيح لفظ أمثال هذه الكلمات - الرموز بصورة تدريجية، وتوصل بوتا إلى استنتاج مهم مؤداه أن الكلمة الواحدة يمكن أن تكتب على صورة ايديوغراما أو بواسطة مجموعة من الرموز المقطعية.

1 آ) ايديوغراما isu «شجرة (مادة)».

ب) محدِّد يوضع أمام مسميات الأشجار والمواد الخشبية.

2) رمز مقطعي iz (وis وما أشبه ذلك)

2 آ) ايديوغراما matu «بلاد» و «sadu» «جبل».

ب) محدِّد يوضع أمام أسماء البلدان والجبال.

2) رمز مقطعي gin. nat. sat. mat. kur وغير ذلك.

الشكل -44- رمزان كان يمكن استخدامهما كايديوغرامات. وكمحدِّدات وكرموز مقطعية

وكأن رولينسون، الذي توج سنة 1851 أبحاثه حول حجر بيهستون بنشر الصيغة البابلية، قد اكتشف، رغبة منه في الإسهام بشيء ما في تلك «المتاهة»، أن الرمز المقطعي الواحد يمكن أن يكون له عدة ألفاظ وبكلمة أخرى يمكن أن يكون «بوليفونا». وكانت هذه هي البوليفونيا الحقيقية التي لا تترك مجالاً للشك والتي لا يحسن خلطها بالبوليفونيا المعتمدة على الاستنتاجات الأكثر قدماً وغير المقنعة ولا بالرموز «متعددة المعاني» والمذكورة سالفاً والتي عرضت في (الشكل 44). ومن خلال المقارنات المتواصلة لنماذج المدونات تعرف رولينسون على البوليفونات في قسم كبير من الرموز المسمارية البابلية - الآشورية. وقد دعم نظريته بجدول مكون مما يزيد عن مائتي رمز، وهذا الجدول لم يفقد أهميته حتى وقتنا الحاضر.

تعدد المعاني، البوليفونيا، فهل من المستغرب بعد كل هذا أن تتواكب كل خطوة تالية يقوم بها علماء حل الرموز بالشك والسخرية. ولم تغد القضية أقل تعقيداً عندما بدأ هؤلاء العلماء بإعادة تركيب المعاني التي تحصلوا عليها لتكون مجموعة رموز تحتوي، حسب رأي غروتينفيند، الاسم التوراتي نبوخذ نصّر فحصلوا عوضاً عن الاسم المتوقع «نابو - قودوّري - أُصُرْ» (= «الرب نابو، احْمِ علامة حدودي») تحصلوا فجأة على عبارة لا معنى لها هي «اناكشادوشيش» وبدلاً من سالما نصر («شولمانو - اشاريد») تحصلوا على «ديمانويار»!.

1. *kid, saḫ, lil* 2. *piš, gir* 3. *lal, lib, lub, paḫ, nar*

الشكل -45- رموز مقطعية بوليفونية

ألم يسبق لرولينسون أن قال منذ حين: «لأنني كنت قد فقدت آخر بريق من الأمل»؟.

وبقي الوضع بلا مخرج حتى تدخلت أخيراً نينوى بنفسها فبسطت أمام الباحثين، الذين أسبلوا أياديهم، ذلك الشيء الذي كان كل واحد منهم يحلم بأن يقوم بإعداده بنفسه ذات يوم من أجل مريديه وتلامذته - ألا وهو دفتر المعلم، وإن كان ذلك في صورة لوح طيني! وقد تم استخراجه من أرشيف كويونجين (في نينوى) حيث كانت تتواصل حفريات بوتّا.

فمقابل المعاني اللفظية السومرية القديمة للايدوغرامات والتي ما كانت تستخدم إلا في الأوساط الطقوسية والحقوقية، نقشت في هذه اللوحة وبصورة شديدة الوضوح الدلالات اللفظية السامية البابلية - الآشورية وظهرت فيها ألفاظ فيها أيضاً «آن - آك» = «نا - بيـ - يُمْ» («إله»)، «شا - دو» = «قودورّو» («حجر الحدود، علامة»)، «شيش» = «نَصَرُ» («حَمَى»)، ومنه صيغة الطلب «أُنصُرْ» («إحمِ»). وعلى هذا فإن «آن - آك - شا - دو - شيش» = «نابو - قودورّي - أُصُرْ»!.

إن تاريخ الكشوفات لا يعرف إلا حالات نادرة أثيب فيها جهد العلماء المضني بمثل هذا السخاء!

ورغم كل ذلك لم يتسنّ التخلص من الشكوك المحيطة بالايديوغرافيا وقبل كل شيء من تلك البوليفونيا «السيئة السمعة» في الكتابة المسمارية ثم إخماد أصوات المتشككين. ولم يتم التوصل إلى تحطيم «المقاومة» إلا بفضل مناورة، بل وبما يبدو للوهلة الأولى ضرباً من الجنون، قرر العلماء في نهاية المطاف أن يقْدموا عليها.

وكان من بين دارسي الكتابة المسمارية أيضاً شخصان لا يشابه أحدهما الآخر.

كان أحدهما إنكليزياً، وتفوق شهرة ويليام هنري فوكس تالبوت (1800-1877) كعالم رياضيات مرموق ومخترع للتصوير (تالبوتايب) على شهرته كمستشرق وهو ما كان عليه بالفعل وهو لم يكن أول عالم إنكليزي يشتغل خلال «أوقات الفراغ»، بالدراسات الشرقية وإذا كان ابن بلاده يونغ، عالم الطبيعة والطبيب، قد توقف عند عتبة الدراسات المصرية فإن الأوساط الثقافية قامت بمبادهة من فوكس تالبوت بوضع سمة المصنوعات الجاهزة على فك رموز الكتابة المسمارية الأكادية.

كان تالبوت على علاقة وثيقة بـ س. بيورتش، عالم المصريات في المتحف البريطاني (وقد تحدثنا عنه في الفصل الثاني). وكان المتحف البريطاني يضم بين العاملين فيه أدوين نوريس وهو القارئ الرئيسي للكتابة العيلامية. ومنهما تقدم فوكس تالبوت باقتراحه فاشتعل نوريس على الفور بهذه الفكرة - وأخذت الجمعية الملكية البريطانية التي كانت أمانة سرها تضع قضية الدقة في قراءة الرموز موضع التجريب. ولهذا وجهت إلى عدد من علماء الآشوريات في وقت واحد نصاً موحّداً لترجمته أملاً في أن تحل نتيجة لجهودهم قضية موثوقية كل الأعمال التي أنجزت حتى ذلك اليوم في حقل حل الرموز وبالتالي مستقبل علم الآشوريات الفتي.

التحقّق عن طريق التجربة! ولكن من الذي يتحقق؟ لقد كان رولينسون، هينكس وفوكس تالبوت، صاحب المبادهة نفسه، أفضلَ المرشحين. ولكن على الرغم من أن البريطانيين كانوا أوفر حظاً في المساعدة على تطوير علم الآشوريات فإن القضية لم تكن في الوقت نفسه مجرد عمل بريطاني داخلي. إذ كان من المستحيل غض الطرف عن واحد من سكان القارة هو العالم الفرنسي المتألق أوبّرت.

ولد يوليوس (جول فيما بعد) أوبّرت (1825-1905) في هامبورغ. وكان طريقه إلى العلم محفوفاً بالمنعطفات الحادة. ومن الطريف، أنه، شأن الكثيرين من علماء اللغويات، ومن المتخصصين في حقل الكتابة، قد وفد إلى هذا العلم قادماً من عالم الرياضيات وإن كان قد

حاول تجريب حظه قبل ذلك بدراسة الحقوق في هايدلبرغ. ومن هايدلبرغ اتجه إلى بون حيث كان كريستيان لاسين نفسه يقوم بالتعليم. وهناك انفتح أمام الهامبورغي الشاب عالم جديد سرعان ما لقي فيه الاعتراف وحاز على سمعة لم يحظ بها غير القلائل.

إنه يتعلم السنسكريت والعربية ثم، بعد سنتين يقضيهما في برلين، يتحصل على درجة علمية في كيلي إلا أن مرحلة بون لم تمض دون أن تخلف أثراً. ففي سنة 1847 صدرت دراسته حول «النظام الصوتي للغة الفارسية القديمة» وفيها يقترب من بعض الاستنتاجات المتعلقة مع ما كان قد تم التوصل إليه في دراسة صدرت سنة 1846 لرولينسون، وهو ذلك الرولينسون نفسه الذي أصبح فيما بعد أكبر صديق لاوبّرت.

وكانت رحلة يوليوس أوبّرت إلى فرنسا سنة 1847 مرتبطة بالاعتراف بالسمعة التي لا تجاري لهذه البلاد كبؤرة للدراسات الشرقية في أوروبا. وبالطبع هو لم يسافر إلى باريس. لا. إذ إنه لم يكن مشهوراً على الإطلاق فلا بد له قبل ذلك من أن يبيّن ما هو قادر عليه، وهكذا يصبح سنة 1848 أستاذا للغة الألمانية في ليسيه لافال ثم سنة 1805 في رايس.

فأوبّرت إذن أستاذ في الجمنازيوم، وهو شبيه بما كان عليه غروتينفيند. لكنه لم يكن مجرد أستاذ بسيط في الجمنازيوم بل إنساناً توجه إلى خارج الحدود حباً بالعلم وهناك توصل إلى منصب علمي مجيد.

لم يجلس أوبرت في وطنه الجديد مكتوف اليدين. فمنذ سنة 1852 لفت إليه أنظار الجيل القديم من العلماء الفرنسيين بدراسته التي صدرت في باريس عن المدونات الأخمينية. وعين في ذلك العام وبفضل تأثير أولئك الرجال المحترمين عضواً في البعثة الأثرية التي أرسلتها فرنسا إلى منطقة ما بين النهرين بإشراف فولغينتسي فريسنيل الشهير. أما الدراسة التي أصدرها سنة 1860 في مجلدين (وخصصت لتلك البعثة) والتي اعترف فيها عموماً بقراءة رولينسون بعد أن حسّن وصوّب في الوقت نفسه بعض تفاصيلها، فقد فازت بجائزة المعهد على الرغم من الهجمات العنيفة التي وجهها اللورد غوبينو إلى منهجه.

ويتسم المنعطف الجديد في حياة أوبرت العلمية برفضه قسم الدراسات السنسكريتية وانتقاله إلى قسم الدراسات الآشورية في الكوليج دي فرانس. وكانت هذه الخطوة الشكلية مجرد تتويج عام لذلك العزوف، الذي نضج في أعماق البروفيسور، عن الهند القديمة وانتقاله إلى معسكر علماء الآثار وعلماء اللغات المنصرفين إلى دراسة ما بين النهرين.

ومن المبهج الإشارة إلى أن أوبّرت لم ينظر يوماً بعين الحسد إلى توفيق زملائه ولا إلى نجاحاتهم العلمية أو الأدبية. حتى أنه بعد أن كسب احترام الجميع كأخصائي ثم بعد أن

شغل منصباً مهماً في ميدان تخصصه بقي محافظاً على أعمق العلاقات الروحية مع العلماء الشبّان الذين كانوا يجرون في أعمالهم بعض التصويبات على دراساته الأولى الخاصة. وقد قال مرة لأحد تلامذته أثناء زيارته الأخيرة لهايدلبرغ وكان قد طعن في السن: «إن أحداً لم يعتبرني في أي يوم من الأيام قادراً على التشبث بعناد بفرضياتي المبكرة» وقد كتب ذلك التلميذ، وهو كارل بيستولد في رثائه له:

«إن أولئك.. الذين تسنت لهم بيننا سعادة إقامة العلاقات الشخصية مع ذلك العالم المرموق والإنسان الرائع يحتفظون في قلوبهم بصورته الجذابة. وهل كان لأحد إلا أن يؤسر لتينك العينين الألاقتين في وجهه الرائع ولتلك القوة الفريدة وانطلاقة الروح في ذلك الجسم المليء بالحيوية؟ ولو قدر لأي إنسان أن يسمع ذلك الحوار العلمي بين «المعلم» و «التلميذ»، بين الجنرال الإنكليزي المهيب الصامت والقيّم على المتحف (رولينسون - المؤلّف) وبين البروفيسور الباريسي المستعد دوماً للمناقشة، الدقيق اللسان، الفياض بسرعة البديهة والعضو العامل في المعهد لكان ذلك بالنسبة له حدثاً فريداً»[1].

والحق أن أوبرت كان أحياناً لا يتحفظ في كلامه فكان بذلك يحزن زملاءه وأصدقاءه. إلا «إن طبيعة العالم الخلاّق المتفتحة ذات المروءة» كانت حافلة بالنمط الأرفع مع الأفكار، ذلك النمط الذي يميّزه كإنسان وكباحث. «إن كلاً منا لا يملك فقط الحق بل وأن من واجبه أن يكتب وأن يحفظ عنه هذا - وهذا فقط - انه كان يعترف من تلقاء نفسه، بعد تصويب ما، بأن ذلك التصويب صار واحداً من قناعاته الراسخة الخاصة[2].

وهكذا كان من الضروري بلا شك اجتذاب أوبرت إلى العمل الذي جرى التخطيط له. يضاف إلى ذلك أن المصادفة جمعت سنة 1857 بين رولينسون، هينكس وفوكس تالبوت واوبرت في لندن. وبكلمة أخرى فإن الجمعية الأسيوية الملكية بدأت عملها بوجود أمين سرّها الناشط نوريس.

وفي مغلفات مغلقة أرسلت إلى الباحثين الأربعة نسخ من المدونة المسمارية الواحدة التي لم يكن ممكناً أن يعرف أي منهم مضمونها حيث إنها كانت قد اكتشفت نتيجة إحدى الحفريات. أما المدونة نفسها فكانت منقوشة فوق ثلاث اسطوانات طينية مشوية وتعود بتاريخها إلى عهد الملك الآشوري القديم تاغلات بالاصر الأول (1113-1074ق.م) وكان على العلماء الأربعة أن يترجموا النص بصورة يستقل فيها أحدهم عن الآخرين ثم أن يعيدوا الترجمة.

1- C.Bozold. Julius Oppert,- Zeitschrift für Assyriologie , Bd 19,1905-1906, Ss, 169-173.

2- المصدر السابق.

أما تالبوت، هينكس ورولينسون فراحوا يعملوا على نص موحد مطبوع بالطريقة الليتوغرافية بينما قام اوبرت، ذو الطبيعة الخاصة، بإعداد نسخته بنفسه. وأعيدت الترجمات المختومة إلى الجمعية حيث نظرت فيها لجنة الحكام وقامت بعد ذلك بعقد اجتماعها المهم.

واتضح أمام العالم كله على الفور أن علم الآشوريات الفتي يقف على أساس متين.

فقد تطابقت الترجمات في جميع نقاطها الأساسية.

وكان لا بد من الاعتراف بالطبع بوجود بعض جوانب النقص. أما ترجمتا رولينسون وهينكس فكانتا أكثرها تطابقاً بينما استقرت بعض الأخطاء في ترجمة فوكس تالبوت، أما الصيغة التي قدمها اوبرت فاشتملت على بعض النقاط المثيرة للشك. وعلى أيّ حال فقد استقر رأي لجنة الحكام على أن فك هذه الرموز أصبح حقيقة واقعة.

قد يتراءى أن بالإمكان الآن الانتقال من العلماء الذين حلوا الرموز إلى نتائج بحثهم ولكن القيام بهذا العمل يعني التجاهل بغير وجه حق لشخصية مثيرة وجديرة بأسمى واجبات الاحترام. وهذا الإنسان هو الذي سنتناوله بالحديث لا ينتمي إلى علماء حل الرموز بالمفهوم الضيق للكلمة (على الرغم من أنه شارك في فك رموز كتابة أخرى) إلا أن اسمه يرتبط بصورة لا فكاك منها بالدراسات في هذا المضمار.

فخلال تلك السنوات التي كان رولينسون يمارس فيها نشاطه كعميل سياسي في منطقة كانداغار ولد في تشيلسي، وهي ضاحية من ضواحي لندن، وفي أسرة أحد الفقراء، طفل أسموه جورج، جورج سميث (1840-1876) وقد ابتسم الحظ لذلك الطفل الذكي الذي ظهرت لديه سمات الموهبة الفنية. فعندما كان في الـ 14 من عمره قبل تلميذاً في شركة بريد بوري ويوهانس الواقعة في شارع باوفاري ستريت. وكانت متوقعاً له أن يصبح نقاشاً على النحاس، أخصائياً في وضع رسوم الرموز النقدية، وهذا يعني أن قطعة خبز لا بأس بحجمها ستكون مضمونة له في المستقبل.

بالإضافة إلى العمل الذي حقق فيه وبسرعة نجاحاً كبيراً كانت له «هوايته» الخاصة، وهي شاغل أثير لديه، شاغل كان طبيعياً جداً في بلاد البريت الذين ما كانوا يدعون مناسبة إلا ويتحدثون فيها عن شغفهم التقليدي بالكتاب المقدس. وهكذا فإن قراءة الكتاب المقدس كانت هوايته وفيه كان يقرأ تواريخ العهد القديم بكثير من الاستمتاع. كما أنه قرأ جميع مؤلفات الآداب الشرقية التي كان بمستطاعه أن يحصل عليها وأن يتفهمها. أما في المتحف البريطاني فكان يتفحص بعيني الدهشة كل ما تصل إليه يداه من المواد العائدة للماضي والتي كانت معروضة هناك بكميات كبيرة في تلك السنوات. «ومع

ذلك فالكتاب المقدس على حق!» إن تلك العبارة أصبحت القوة الدافعة لأبحاث ذلك النقاش الفتي.

واتضح فيما بعد أن للطرق على النحاس وجهه الإيجابي. فهو الذي فتح الطريق أمام الشاب نحو الشهرة الأوروبية، ذلك الطريق الذي كان مقدراً عليه أن يُقطع في وقت مبكر وبصورة مأساوية. فقد تمكن سميث من المشاركة في نقش القوائم العائدة إلى عمل رولينسون الضخم في الكتابة المسمارية الآشورية. فاتجه قلب الفتى المتعطش إلى المعرفة بقوة لا تقاوم نحو الرموز الجذابة، الغريبة والمغلفة بالأسرار. وراح، بكثير من الوحي والانبهار، يتأمل في روعة وتناسق ذلك المزيج المختلط من الأسافين والزوايا - فآثار ذلك الماضي السحيق بسطت عليه سلطانها السحري.

وقد اجتذب ذلك القارئ الذي لا يكل، التلميذ والشغّال الملهم، إليه أنظار صمويل بيورتش الذي سلف ذكره والذي كان بحاثاً ثم حافظاً للمتحف البريطاني. ورأى بيورتش أن من الضروري التدخل في مصير الفتى الموهوب، وهكذا يصبح جورج سميث وهو في الـ 21 من عمره فنّان ترميم في المتحف البريطاني، مهمته أن يعدّ اللوحات الطينية من الشظايا المفتتة التي تم العثور عليها أثناء حفريات كويونجيك وهنا بالذات ظهرت فائدة تجربته فقد أبدى نجاحاً ملموساً في عمله. ولم يطل به الوقت حتى استوعب عادة قراءة الكتابة الأكادية المسمارية الصعبة حتى تجاوز بعيداً العلماء والمتخصصين. وصار يقرأ بكل سهولة اللوحات بل و «يلتهم» مضمونها بالمعنى الحرفي للكلمة. وما أسرع ما غاص ذلك الـ سميث الذي لا يكل في عمله على «الشظايا»! وكم انهال بلعناته على ذلك الضباب اللندني اللعين والذي (ليأخذه الشيطان!) لا يسمح للإنسان بالمضي بعيداً في قراءة اللوحات. أما على ضوء المصباح (وما قيمة الضوء الذي يعطيه المصباح!) فقد كانت القراءة مستحيلة تماماً فكان لا بد من الانتظار إلى يوم يصحو فيه النهار إلى حد ما، وإلى أن يأتي ذلك اليوم.. فلا بد من الاستسلام للضباب.

ويبلغ نشاط جورج سميث أعلى ذراه في سنتي 1872-1873 أما مقدمة تلك الكشوفات الكبرى فكانت الحل الجزئي لرموز الكتابة المقطعية القبرصية والتي قام بها، كما يمكن القول، بطريقة جانبية، أما هذا فسيدور الحديث عنه في فصل آخر.

استقبلت سنةُ 1872 جورج سميث منكباً على لوحاته الإسفينية (التي كانت في هذه المرة قد أرسلت من قبل أورموزد رسّام، وريث ليارد، من نمرود) وفجأة برز شيء ما شد إليه أنظار البحث، وتسارعت أنفاس سميث، فلم يكن ثمة أمامه جدول عادي بالمعدات ولا مدونة تتحدث عن بنيان ما بل قصة تفوح بأسحار الشرق وتغلفها أسرار آلاف السنين - ملحمة عظيمة في مضمونها - أغنية عن

أمجاد البطل جلجامش الذي انطلق باحثاً عن الخلود. ومن الغريب أن مضمون القصيدة يزداد تعقيداً كلما أمعن الباحث المجرب في التوغل ضمن متاهات الكتابة المسمارية.

وفي الوقت نفسه يبدو النص مألوفاً بالنسبة له إلى درجة عجيبة. فهو يقرأ عن البطل جلجامش، الذي ثلثاه للإله وثلثه للإنسان وقد أمر ببناء سور ومعبد لمدينة أوروك القديمة. فأهل المدينة يضجون بالشكوى تحت وطأة العمل الشاق ويستصرخون الآلهة لتنجدهم فيرق لهم قلب الإلهة أرورو، وتخلق البطل أنكيدو، وهو إنسان يغطيه الشعر ويجوب الغابات ويعيش برفقة الوحوش، وكان على أنكيدو هذا، وهو الذي يضاهي جلجامش، قوةً أن يرغمه على رفع ذلك العمل المضني عن كاهل الشعب، ويصطرع أنكيدو مع جلجامش بعد أن كان غرامه بعاهرة المعبد قد روّضه فينهزم في الصراع المشرّف ويصبح البطلان صديقين، ويقهران معاً الشرير خومبابو، مالك غابة السرو وحاميها، ويقتلانه. «ويلوح جلجامش برأس خومبابو» كما يصرعان معاً الثور السماوي، ذلك الوحش الخرافي الذي أرسلته الإلهة عشتار انتقاماً لحبها المرفوض، بعد أن شغفها جلجامش حباً. لكن ها هوذا الموت يخترم انكيدو وينطلق جلجامش بطلب الخلود.

إنه يعرف من يسدي إليه النصح: إنه الجد الأول اوت - نابيشتيم، وهو الوحيد الذي كان قد نجا من الطوفان الأعظم الذي أغرق الكون... الوحيد... الذي نجا من الطوفان الذي أغرق الكون...؟

إن جورج سميث لا يصدّق عينيه: هنا، في الألواح الطينية الآشورية طوفان يغرق العالم؟ ومع كل ذلك لا يمكن أن يكون هناك شك. ويواصل سميث قراءته بحمية وتسارع - هوذا اوت - نابشتيم يحدث جلجامش بذلك.

ولكن لم يبق هناك شيء فوق الألواح والشظايا التي يتفحصها ويدقق فيها ثم تتسارع فوقها أنظار ذلك الباحث المهتاج. لقد انتهت المقطوعة بعد أن خلّته في جهل مطبق بما حدث للأبطال. ولكن من أين جاءت هذه الألواح؟ من نمرود أو من قالة كما أسماها سفر «التكوين».

إن سميث، شأن الغالبية من معاصريه، ممن تربوا على الكتاب المقدس، يدرك أكثر فأكثر أن أمامه الكتاب الخلدي من «التكوين» وأنه يتضمن ما ينتظره العالم المتجمد دهشة: الإخبارية المتعلقة بالطوفان الأعظم.

في البداية «تجمد» أعضاء جمعية العاديّات التوراتية، الذين قدم إليهم سميث بتاريخ 3 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1872 تقريره عن اكتشافه! فيا للخبر الذي لم يسبق له مثيل؟

وانتشر الخبر الخاص بالطوفان البابلي بسرعة البرق. وعندما عبر سميث عن قناعته بأن القطعة المفقودة يجب أن يجري البحث عنها في المكان الذي عثر فيه على البداية - أي في خرائب نمرود، حيث كان يعمل اورموزد رسّاماً، لقي ذاك صدى تجاوز كل حدود المتوقع: فقد وضعت الـ «ديلي تلغراف» جائزة كبرى لذلك الذي يعثر على الألواح والقطع المفقودة.

وفي ذلك الوقت كان جورج سميث الوحيد القادر على القيام بذلك العمل. إذ كان أهم شيء هو التعرف على الألواح والقطع المفقودة بين جبل كامل من الكسور. وربما تكون قد أخرجت منذ بعيد إلى النور وشوّه مظهرها ورميت في مكان ما إلى الجنب وربما شوّه النص فيها إلى درجة أن أحداً لا يعيرها أي التفاتة.

كان جورج سميث الوحيد القادر على إيجاد ما كانت تنتظره إنجلترا المتوترة وعالم العلم بأسره وهواة العالم القديم وأوساط كبيرة ممن لا يعرفون عن ذلك إلا القليل. وقد عرف المتحف البريطاني بذلك فمنح جائزة لأفضل باحثيه دون أسف على ذلك.

وفي أيار (مايو) سنة 1873 كان جورج سميث يمسك بيديه ما كان يمثل هدف رحلته بطولها: قطعة تضم سبعة عشر سطراً مسمارياً؛ والطريف أنها السبعة عشر سطراً التي كانت سقطت من العمود الأول من الإخبارية البابلية عن الطوفان الأعظم.

الآلهة يعقدون اجتماعاً برئاسة اينليل الرهيب. لقد فاضت خطايا البشر على آنية الصبر لدى الآلهة فلا يمكن غسلها إلا بمحق الجنس البشري. لكن قلب ايا يرق على البشر فيرسل إلى صفيّه المحروس من قبله اوت - نابيشتيم حلماً يعلم هذا بواسطته بالخطر المحدق بالكون. وتأمر الآلهة أوت - نابشتيم بأن يبني فلكاً يُنجي فوقه نفسه وأهل بيته وربّانه و «بذور حياة كل نوع». وأطاع اوت - نابشتيم الذي يخشى الآلهة. ثم انشقّت أبواب السماء وكل ما كان قبل ذلك إنساناً استحال «طيناً» أما اوت - نابشتيم فقد طاف في فلك النجاة فوق الأمواج المتلاطمة، طاف ستة أيام وسبع ليال إلى أن انحسر الطوفان واستقرت سفينته على جبل نيصيّر. وعلى نحو ما فعل نوح أنفذ اوت - نابيشتيم «- رسولاً» - حمامة بعد سبعة أيام. وبعد سبعة أيام أخرى أرسل قبرة وعاد كلاهما دون أن يرى أثراً لليابسة، ومضت سبعة أيام فأرسل غراباً فغاب الغراب ولم يعد، فأوقف اوت - نابيشتيم السفين وقدم ضحايا الشكر إلى اينليل، فهداه اينليل وزوجه وربّانه إلى «مصب التيار» حيث صاروا يعيشون كالآلهة.

لم يقدر لسميث - شأن ما قدر لرولينسون، بوتا وليبارد أن يجد لغة مشتركة مع أبناء البلاد الغربية أو من كانوا يسمونهم آنذاك بـ «المتوحشين».

كانت غريبة عليه نفسية أولئك الناس الذين كان يقابلهم فحجبوا عنه ثقتهم ومنعوه ودّهم. لقد كان على اطلاع على كتابة ولغة السكان الأقدمين في ما بين النهرين بل وعلى حياتهم الروحية إلا أنه لم يفهم نمط حياة أحفادهم ولا طراز تفكيرهم ولم يكن يلقي بالاً إلى أيديهم الممتدة نحوه تطلب «البخشيش».

أما رحلته الثالثة والأخيرة والتي منح السماح بها بفرمان خاص صدر سنة 1876 فقد بدأت بطالع نحس. إذ كانت الكوليرا قد استشرت في حلب والحزازات القبلية قد مزقت البلاد. وأخيراً فقد قضى رفيقه وصديقه الفنلندي اينيبيرغ في بغداد.

بيد أن جورج سميث الهادئ المنطوي على نفسه لم يكن من ذلك الضرب من الناس الذين يمكن إدخال الهلع على قلوبهم وبخاصة إذا ما كان الحديث يتعلق بعمله المحبوب. وأحياناً ما كانت تحدث له أمور عجيبة فيتصرّف كمن به مسّ، وكان أصدقاؤه القريبون منه على علمٍ بذلك.

ففي ذات مرة في لندن وبينما كان يعالج قطعة كبيرة من لوحة طينية من مجموعة كويونجيك اكتشف أن أحد وجوه القسم الأهم من هذا النص مغطى بطبقة سميكة من مادة بيضاء شبيهة بالكلس، يصعب التخلص منها. وكان لا يمكن أن يقدم مساعدة في ذلك غير شخص واحد - هو فنان الإعادة ريدي الذي كان لديه مزيج للتخلص من الشوائب إلا أنه كان ينظر نظرة مفرطة في الشك إلى كل المحاولات الرامية إلى النفاد نحو معرفة «وصفته». ولأسف سميث العميق كان ريدي مسافراً. ولكنه عاد بعد مضي بضعة أيام وأزيلت الشوائب بصورة في غاية الإتقان وسلمت اللوحة الأثيرة إلى سميث.

وفي ذلك الوقت كان سميث يعمل مع رولينسون في غرفة واحدة تقع فوق مكتب الجمعية الآسيوية الملكية. فأحضروا اللوحة واختطف سميث القطعة المنظفة بفارغ صبر وراح يتفحصها ويتلمس النص فوقها! وتنطلق صرخة فرح من صدر ذلك العالم: «إنني أول من يقرأ هذا بعد أن ظل منسياً على مدار ألفين من السنين!» وإذا بالجميع يستديرون ويندفعون نحوه. وكان رولينسون ومعاونوه على استعداد لتقديم تهانيهم راغبين في أن يتعرفوا على ما أثار اندفاع ذلك السميث الكثير التبصّر البالغ الهدوء. لكنه يضع اللوحة من يده ويبدأ وهو في هيجان الفرح، يذرع الغرفة بخطى هائلة قاسية ثم يأخذ فجأة.. بالتجرد من ملابسه أمام «دهشة الحاضرين الكبيرة» على حد تعبير أحد كتاب السير الإنكليز.

وبهذه الخطى القاسية كان يضرب في أرجاء سوريا إبّان رحلته الأخيرة إليها. كان يخطو تحت سياط الشمس المتلظية دون اهتمام بتحذيرات القنصل الفرنسي ودون أن يلقي بالاً

إلى كل النصائح الطيبة - إلى الأمام - وإلى الأمام فقط. ولم يكن يقتات إلا بالطعام المحلي الذي لم يكن يحتمله والذي لم يكن يمد جسده بالقوة.

أحس بالضعف. ربما كان يمكن أن أشفى لو وُجد طبيب هنا. لم يحضر. شيء مريب جداً؟ وإذا كان الموت، فوداعاً...

أعمالي كلها مكرسة للعلم.. آمل أن يهتم الأصدقاء بأسرتي... واجبي أديته بثبات... لا أهاب النهاية، لكنني كنت أود أن أعيش «من أجل الأسرة.. ربما تمر بسلام».

كان هذا كل ما استطاع أن يسجله في مذكرات يوم 12 آب (اوغسطس) سنة 1876.

وجيء بجورج سميث وهو في مرض الموت، وقد هدّه الهزال، إلى منزل القنصل البريطاني في حلب حيث قضى في الـ 19 من آب (اوغسطس) سنة 1876.

وبوفاته تمت الأغنية البطولية لعلم الآشوريات في مرحلته الأولى، فهو يقف في نهاية القائمة بالنسبة لتاريخ قراءة رموز الكتابة المسمارية البابلية - الآشورية.

وربما كان من الواجب التعريف بالصعوبات التي ارتبطت بإيضاح اللغات الأخرى التي تم اكتشافها بفضل الكتابة المسمارية - كالحورية -، الأورارتية والعيلامية القديمة. إلا أن ذلك يخرج عن نطاق كتابنا، كما أن الدراسات في جميع الميادين المشار إليها تسير بخطى ثابتة.

فلم يتبق علينا إلا أن نقدم جرداً ختامياً ووصفاً موجزاً لطابع المسمارية الأكادية وملامحها الخاصة.

أكدت الحفريات التالية الفرضيات التي طرحها كل من هينكس واوبرت حول مصدر هذه الكتابة. فقد ثبت أنها ليست اختراعاً أكادياً أو بابلياً أو آشورياً. بل وأن مخترعها كان شعباً أكثر قدماً - هو شعب السومريين الذين لم يعرف موطنهم الأول حتى اليوم؛ ومنهم انتقلت الكتابة المسمارية إلى الأكاديين. فاللغة السومرية تلك التي تقابل اللاتينية الكنسية بالنسبة للشرق القديم[1] (إ. فريدريك) لم تكن بالكاد مفهومة من طرف كهنة بابل، وهو ما يفسّر إعداد جداول المفردات والقواعد والترجمات البابلية للنصوص السومرية الكبرى. وبفضلها تمكنا نحن أيضاً من النفاذ في أسرار هذه اللغة الغابرة كما تمكنا بفضل الصيغ الأكثر قدماً من الكتابة المسمارية الأكادية أن نكتشف الصيغ السومرية الأقدم. وهنا

1- تركت اللاتينية الكنسية تأثيراً كبيراً على البناء اللغوي لكافة لغات أوروبا الحديثة وعلى نمطها النحوي وكتابتها، وقد تركت السومرية مثل هذا التأثير على لغات العالم الشرقي القديم (المترجم).

تسنى للباحثين أن يكتشفوا كامل طريق تطور الكتابة المسمارية - الطريق الممتد «من الصورة إلى الحرف»، ذلك الحرف الذي لا يمكن تصوّره بحيازتنا فقط على الأشكال الأكثر تأخراً من الرموز المسمارية، كما أن من المستحيل فهمه دون معرفة المادة المستعملة للكتابة.

فما بين النهرين - أرض طيبة، وقد سخت الطبيعة هنا في تقديم المواد الخاصة بالكتابة، ولم يكن يلزم إلاّ أخذ هذه المادة وإعطاؤها الشكل المناسب. إنه الطين الطري! وفوقه كان يمكن ضغط الرموز الكتابية بواسطة عود من الخشب أو قصبة محدّبة ثم كانت اللوحات الطينية توضع بعد ذلك في الفرن حيث تكتسب صلابة إلى درجة يمكن معها أن تبقى لمدة آلاف السنين.

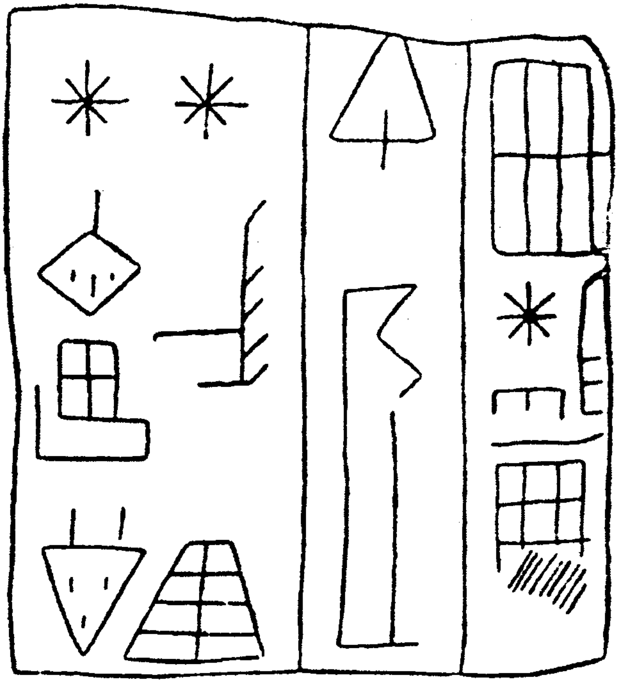

الشكل -46- طبعة من خاتم الملك نارام - سين
على قطعة من الآجر عثر عليها في نيبور (2270-2233 ق.م)

وفي الأزمنة الأبعد قدماً عندما كانوا «يكتبون» قليلاً وكان ما يكتبونه ينقش في أغلب الحالات على الحجر لم تكن تظهر إلا الخطوط المنثورة البسيطة. وعلى صورة هذه «المدونات» المنثورة وصلتنا أقدم «النصوص» السومرية التي يمكن تأريخها. وكشاهد على ذلك نقدم هنا في (الشكل 46) طبعة من خاتم قرميدي.

ومما لا يدع مجالاً للشك أن الخطوط المستقيمة كانت ترسم في مثل هذا «النمط» من الكتابة بصورة أسهل بكثير من الرسوم المدوّرة. ولم تلبث المادة (وكانت لا تزال من الحجر) أن فرضت تأثيرها الأول التبسيطي والأسلوبي، وهو ما نلاحظه في هذه الأشكال الأقدم من الرموز، ذلك التأثير الذي أدى فيما بعد إلى التخلي عن الخطوط الدائرية

والانتقال إلى المستقيمة ، ومع كل هذا فإن الطابع التصويري في مثل هذه الأشكال لا شك فيه.

وقد بدأ السومريون يدخلون هذه الرموز التصويرية المبسّطة في وقت مبكر جداً في تراكيب مختلفة وقبل كل شيء في الحالات التي يريدون فيها أن يعبّروا لا عن الأشياء المحددّة بل عن المفاهيم المجردة الجديدة. فبالجمع بين رمزي «ثور» و «بلاد جبلية» ظهر رمز «الثور المتوحش» (الشكل 48 آ) ومن رمزي «فم» و «خبز» ظهر فعل «أكل» (الشكل 48 ب) ومن رمزي «امرأة» و «رداء» ظهر رمز «سيدة» (الشكل 48 ج).

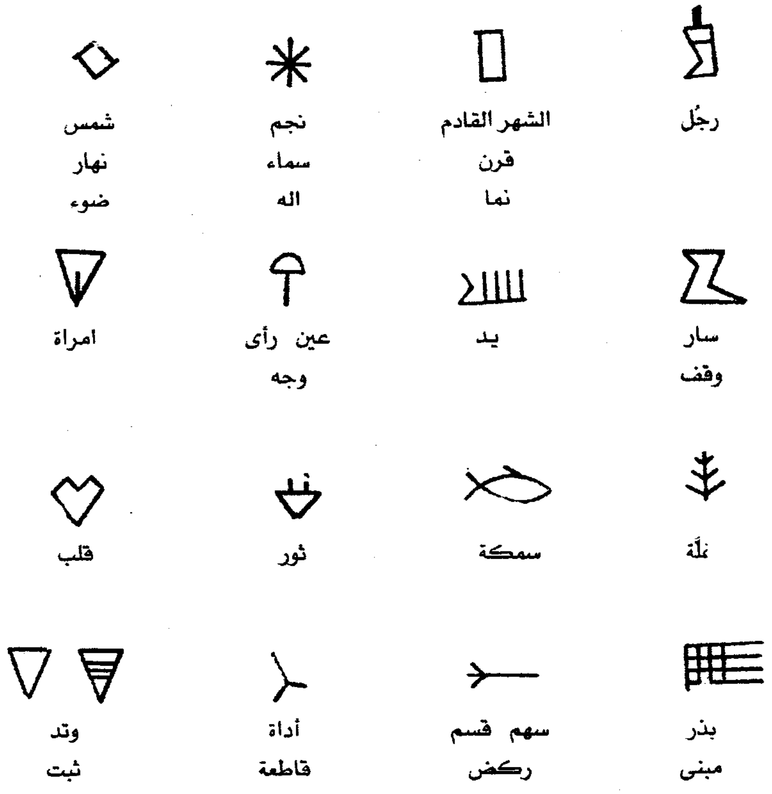

الشكل -47- أقدم الأشكال الايديوغرافية للرموز المسمارية

إلاّ أن تطور الرموز المكتوبة لم يتوقف عند الخط أو التشطيبة. فبازدياد انتشار الكتابة وبإعداد نفسها للتعبير عن الاحتياجات اليومية لأوسع الأوساط الشعبية بدأ الحجر والإزميل يدخلان غياهب التاريخ وأخذت الألواح الطينية والقصبة والعود تحقق انتصارها الساحق.

وبنتيجة الإمساك بالقصبة والعود فوق سطح المادة التي يكتب عليها وفق زاوية معينة كان النصل ينضغط أعمق في الطين ويترك أثراً إسفينا نموذجياً يميل في نهايته إلى الاتساع؛ وبهذه الطريقة بالضبط ظهر العنصر المميّز الآخر للكتابة الإسفينية - وهو المثلث. وبهذه الطريقة ازدادت الكتابة بعداً عن الطريقة الرسمية الأولى في تصوير الرموز أما غير العارفين فبالكاد يستطيعون الآن أن يميزوا في الصيغ النهائية ذلك الشكل التصويري الثاوي في صلب كل منها. والمراحل المنفصلة من تطور الكتابة والتي تنعكس في الوثائق تسمح لنا بتتبع الكيفية التي أخذ بها الناس، وهم يكتبون من الأعلى إلى الأسفل، يحركون اللوح بمرور الزمن تسعين درجة نحو اليسار وذلك ليتمكنوا من الكتابة بصورة أسرع.

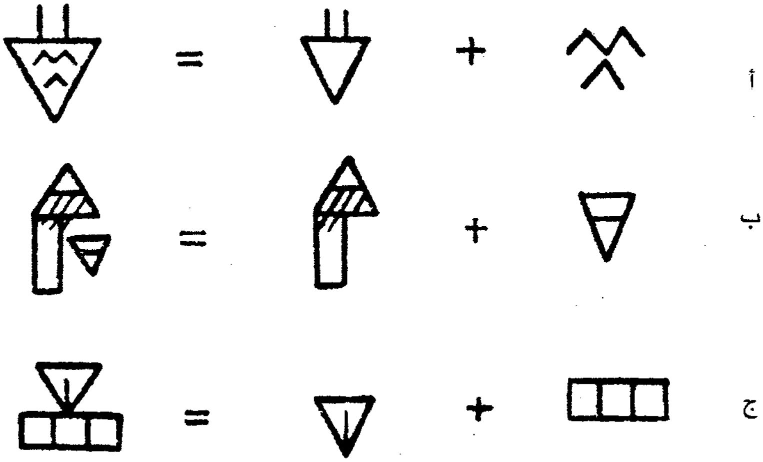

الشكل -48- رموز تصويرية مركبة

ولعل مدونة الملك شاركاليشارّي الأكادية القديمة (الشكل 49) أفضل ما يمكن أن يستعرض الانتقال من الصورة إلى الإسفين.

وهي مدونة معمارية للملك تتعلق ببناء معبد اينليل في نيبور وتتضمن الصيغة المألوفة للعنة التي تحل بمن يمد يده بالأذية نحو تلك الوثيقة.

وتظهر الفروق المحلية والزمانية في صلب الكتابة الاسفينية الأكادية أيضاً. والأنماط الأكثر قدماً (البابلية القديمة والبابلية الوسطى، الآشورية القديمة والآشورية الوسطى) هي أكثر تعقيداً من الكتابة البابلية القديمة والآشورية القديمة. وليس لدينا إمكانية النفاد في هذه التفاصيل الدقيقة بل وهي بالكاد تتميّز عن بعضها بالنسبة لعين غير الأخصائي.

وبالإضافة إلى هذا قد لا يكون من الأمور المزعجة أن نحاول في نهاية هذا الفصل النظر إلى البناء الضمني للكتابة الأكادية المسمارية.

لا بد لنا وأن نعترف هنا بأن المظهر الخارجي لهذه الكتابة خادع إلى درجة أنه لا يشي بالشيء الأساسي، وهو التشابه المذهل (التشابه الضمني في بناء الكتابة وفي طابعها) بين الكتابة الإسفينية والكتابة المصرية.

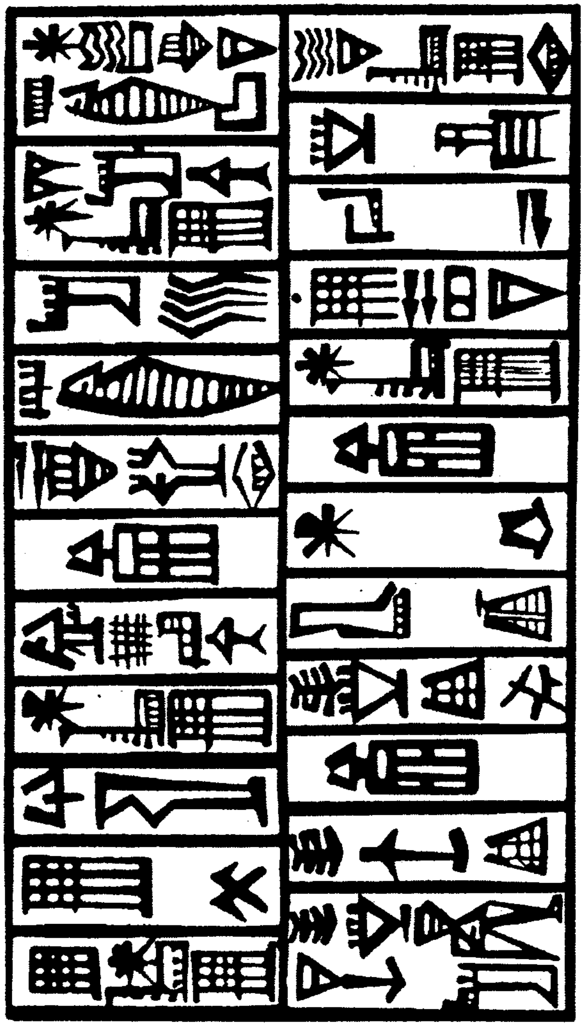

الشكل -49- منقوشة معمارية
باللغة الأكادية القديمة

فهذه الكتابة أيضاً تتضمن ثلاث مجموعات من الرموز: الأيديوغرامات والرموز المقطعية والمحددّات. ومثل هذا التركيب من الرموز يتخذ أيضاً تاريخه الخاص.

فالسومريون كانوا قد استعملوا الكلمات - الرموز كرموز مقطعية أيضاً وهي عملية معروفة بالنسبة لنا من تاريخ الكتابة المصرية. فإذا كان رمز *wr* «السنونو» قد استخدم هناك للتعبير أيضاً عن *wr* «كبير» فإن رمز *an* «السماء» في الكتابة السومرية (الشكل 50 آ)

الشكل -50- رمزان سومريّان يستعملان في الوقت نفسه كايديوغرامتين ورمزين مقطعين

كان يمكن أن يستخدم حيث «يستلزم استخدام المعنى اللفظي البسيط *an* أي كان يمكن أن يستعمل دون أي ارتباط مع معناه الأصلي كمفهوم؛ وكان رمز *mu* «اسم» يستخدم للتعبير عن مقطع *mu* العادي. وقد اكتفى السومريون بهذا الطابع لكتابتهم التي كانت تقوم على أساس الأيديوغرامات وكانت تستعين عند الحاجة بالرموز المقطعية.

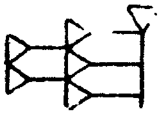

أ

ب

الشكل -51- ايديوغرامتان سومريتان تعنيان: «أب»، «أرض» و «جبل»

ولكن عندما استعار السّاميون - الأكاديون الكتابة المسمارية من السومريين - غير الساميين واستعملوها من أجل لغتهم الخاصة (وقد كانت هذه الكتابة بالنسبة لها شبيهة بملاءمة البذة على رجل لم تفصل من أجله)، فإنهم أحدثوا في نظامها اضطراباً يصعب للوهلة الأولى تصديقه، مما دفع عالم الآشوريات الألماني إلى الحديث عن تلك «الإسفينية المرعبة» وقد بقيت هذه التسمية لاصقة بها. لكن الأكاديين سلكوا مسلكهم دون قصد وكانوا يسيرون بصورة طبيعية جداً.

فقد استعار الأكاديون الكلمات - الرموز السومرية دون تغيير فيها، ولكنهم ضمّنوها لفظهم السامي الخاص وكان هذا طبيعياً أيضاً. فالرمز السومري الخاص بكلمة «أ ب» الشكل (51 آ) كانوا يلفظونه لا بالطريقة السومرية *ad* بل الأكادية *abu* ورمز «اسم» (الشكل 50 ب) لم يكن يلفظ كـ *mu* بل كـ *sumu* وهكذا.

وهنا بالذات بدأت الفوضى الحقيقية. فالأكاديون لم يطرحوا بصورة نهائية اللفظ السومري القديم للرموز وإنما احتفظوا به وإن كان ذلك فقط من أجل التعبير عن المعاني اللفظية للمقاطع. وعلى هذا فإن رمز *mu* الذي سلف ذكره كان يمكن أن ينظر إليه في الأكادية ككلمة رمز فكان يقرأ *Sumu* ويعني «اسم» وفي الوقت نفسه كان يؤخذ أيضاً على أنه رمز مقطعي ويلفظ في هذه الحالة على أنه مجرد *mu*).

ومن هنا كانت تنطلق تلك التعددية في المعاني والتي كانت تتسم بكل تلونات المعنى واللفظ. فانظروا مثلاً إلى الرمز في (الشكل 51 ب). في السومرية يعني: 1) «أرض، بلاد» (*kur* أو *kin*) و 2) «جبل» *kur* - وهنا لا نأخذ معانيه الأخرى! ثم أضفى البابليون على هذا الرمز لفظهم السامي الخاص لهذه الكلمات فصار يعني أيضاً *matu* - «بلاد» و *irsitu* - «أرض»، «إقليم» «بلاد» و *sadu* «جبل». ولم يكتفوا بذلك فأبقوا أيضاً على معناه كرمز مقطعي بالنسبة لكلا المقطعين اللفظيين *kur* و *kin* وعلاوة على ذلك حوّلوه أيضاً إلى رمز مقطعي لمقطعي *Sadu, matu* المأخوذين من المقطعين الساميين *Sad* ,*mat*).

وليس هذا سوى أفق واحد فقط من آفاق تعددية معاني الكتابة المسمارية. ومن الواضح إن كارل بيتسولد كان يعرف جيداً ما يعنيه بتسميته لها بـ «الإسفينية المرعبة» إلا أنه لم ينس بالطبع الخاصية الأخرى التي كانت تتصادف بشكل خاص في الكتابة الإسفينية البابلية الحديثة والآشورية الحديثة - فالرمز الواحد كان يمكن أن يتخذ عدة معان مقطعية يستقل بعضها عن الآخر ونقصد بالحديث هنا ما اكتشفه رولينسون وما يثير الخوف في علم الآشوريات - وهو بوليفونيا الكتابة المسمارية التي دار الحديث عنها في ما سبق (انظر الشكل 45). وعلى قارئ المسمارية أن يحدس في كل مرة بماهية المعنى المقطعي المطلوب في كل حالة من الحالات وهو دوماً يصل إلى هدفه إذا كان على معرفة كافية باللغة في النص المعطى.

إلا أن أكثر ما يثير الدهشة أن هذه الكتابة بالذات، الكتابة الغامضة، المتعددة المعاني، وغير العملية قد لقيت اكبر انتشار إلى جانب اللغة البابلية - الآشورية التي توصلت في الألف الثاني قبل الميلاد إلى الحق في أن تسمى اللغة الدبلوماسية الدولية الحقة. فبهذه اللغة صار فراعنة مصر وأمراء فلسطين يجرون مراسلاتهم، وهو ما تؤكده كشوفات تل العمارنة في مصر العليا والتي حققت شهرة عالمية. ونحن ما زلنا هنا لم نتحدث بعد عن حقيقة أن هذه الكتابة قد استعملت، وأن كان ذلك بصورة مبسطة، من طرف عدد من الشعوب التي لا تتكلم لغتها والتي كان من بينها الفرس، وقد سبق ذكرهم، وسيرد ذكر الآخرين.

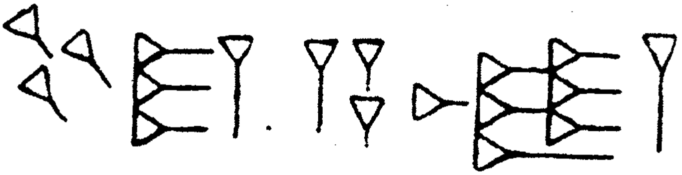

$$m\bar{a}tu + ma + a + tu$$

الشكل -52- كلمة «بلاد» في كتابة مختلطة

والحق أن قدماء البابليين والآشوريين قد أدركوا سريعاً أنهم قد توغلوا بعيداً في متاهات تعددية المعاني لرموزهم المكتوبة. فراحوا يتحرون الطرق من أجل التوصل بسرعة وسهولة إلى تمييز المسالك في هذه الفوضى التي صاغوها بأنفسهم. وهنا اصطدموا فجأة بنفس تلك الأداة المساعدة مثل المصريين القدماء وهي «الكتابة المختلطة» والمحددات.

فصاروا، إذا رغبوا مثلاً بأن تقرأ كلمة «أرض» التي كتبت بالرمز المطابق لها وهو *matu* (الشكل 51 ب) بلفظ *matu* وليس بلفظ آخر (وبأن يقضي على أي وجه للالتباس في صحة مثل هذه القراءة) يعمدون إلى كتابته بصورة مختلطة أي كانوا يضيفون إلى الأيديوغراما كتابة لفظية أيضاً فتصبح *matu+ma -a-tu*.

وإلى جانب كل ما سبق ذكره فإن هذا المثال ضروري لاستعراض الفرق الأساسي بين الكتابات المقطعية للمصريين والأكاديين: فالرموز البابلية - الآشورية تتضمن صوتياً واضحاً لا لبس فيه وهو لوحده يكشف انحدار هذه الكتابة من كتابة

كانت مخصصة في وقت ما للغة غير سامية، وبالإضافة إلى ذلك لا يوجد فيها ذلك الرمز الذي يعبر عنه، كما في الكتابة المصرية، عن طريق ساكن بمفرده (دون صوتي).

أما ما يخص المحددات التي تظهر في الكتابة الهيروغليفية للمصريين في نهاية الكلمة فإننا نجدها في الكتابة الإسفينية في بداية الكلمة في غالب الحالات (الشكل 53).

وبمساعدة هذه الرموز المساعدة والأيديوغرامات بسط قدماء البابليين والآشوريين كتابتهم إلى حدود بعيدة وسهلوا على قارئ الرموز في القرن التاسع عشر النفاذ إلى أسرار هذه الكتابة. وبما أن هذه الكتابة لقيت كما سلفت الإشارة انتشاراً واسعاً إلى درجة غريبة فوق كامل تراب الشرق الأدنى، وكانت، خلال عهد طويل، الواسطة الرئيسية للتفاهم بين أشد الشعوب اختلافاً، فإن ايديوغراماتها ومحدداتها التي بقيت في مختلف اللغات محتفظة بصورتها السابقة كانت تسترعي على الفور أنظار الباحثين الذين كانوا يتعاملون مع نصوص كتبت بلغة مجهولة. وكان من الطبيعي في تلك اللغة المجهولة أن تبرز أسماء الأعلام قبل كل شيء بفضل المحددات، - تلك الأسماء التي كانت تمثل العماد المتين الذي كان يتشبث به قراء الرموز كلما وجدوه.

ويظهر سؤال، لماذا لم يقم البابليون والآشوريون، شأن قدماء المصريين بالخطوة الأخيرة نحو الكتابة الأبجدية، تلك الخطوة التي كان من السهل جداً القيام بها انطلاقاً من الكتابة الأسفينية مثلما كان سهلاً القيام بها انطلاقاً من الكتابة المصرية. إن تلك الخطوة التي منع القيام بها في بلادهم تلك الروح المحافظة المميزة بالنسبة للشعوب القديمة جداً قد تمت في بلاد أخرى: فمن جهة تمت في وقت متأخر في إيران القديمة خلال عهد داريوس ومن جهة أخرى أنجزت في عهد أقدم. إذ نفذتها مدينة أوغاريت السورية وهو ما سيدور الحديث عنه في فصل خاص. لكن، على نحو ما كان الأمر في مصر، كانت جاهزة تلك الكتابة التي وضعت حداً نهائياً لجميع الكتابات المسمارية وما شابهها، وإذا كانت تلك الكتابة في مصر هي الكتابة اليونانية التي رافقت انتشار المسيحية المظفّر، ففي المنطقة التي كانت تشغلها دولة فارس العظمى والتي كانت انتمت إليها فيما بعد بابل وفارس كانت قبل كل شيء الكتابة الآرامية الحرفية.

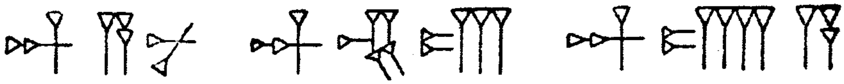

^{d}A-nu　　^{d}En-lil　　^{d}É-a

ثلاثة أسماء آلهة ومحدداتها

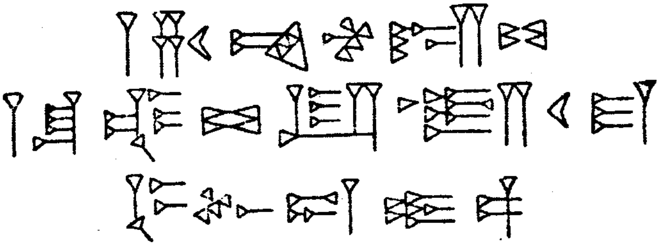

1. ^{I}Ḫa-am-mu-ra-bi
2. ^{I}Šu up-pi lu-li-u-ma
3. ^{f}Pu-du-ḫé-pa

اسمان مذكران واسم مؤنث و محدداتها

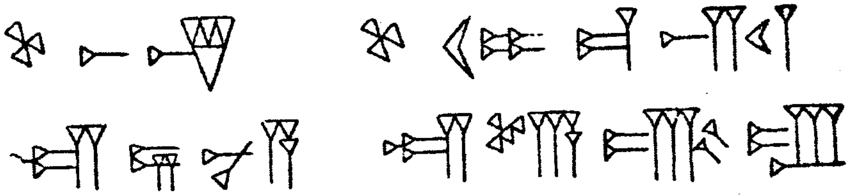

1. ^{māt}Aš-šur «آشور»　　2. ^{māt}Mi-iṣ-ri «مصر»
3. ^{alu}Ni-nu-a «نينوى»　　4. ^{alu}Kar-ga-miš «كركميش»

اسما اقليمين واسما مدينتين ومحدداتها

^{iṣu}e-ri-nu «صنوبر»　　^{iṣu}e-lip-pu «سفينة»

شجرة وأداة خشبية ومحدداتهما

^{erû}par-zil-lu «حديد»　　^{erû}pa-a-šu «فاس»

معدن وأداة معدنية ومحدداتهما

الشكل -53- مفردات تضبطها المحدّدات

إن نتائج الدراسات في حقل الكتابة المسمارية بدّلت تصورنا عن مظهر الشرق القديم. فمنذ 100 عام فقط كان التاريخ بالنسبة لنا يبدأ بهوميروس أما الآن فهو يبدأ ببابل، آشور ومصر. فالدول العظمى والحضارات القديمة التي كنا لا نعلم عنها إلا من خلال الإشارات الشفوية أُوقِظت إلى حياة جديدة. وتعرت إلى أعماق بعيدة جداً جذور الحضارة الغربية، كما أن الدراسة المقارنة للأديان ودراسة اللغات وتاريخ العصور القديمة وضعت بمجموعها على أسس جديدة. واغتنى الأدب العالمي بكنوز لا يمكن تجاوزها. وقد مكنتنا الأرشيفات المسمارية بدورها، كما سنرى، من قراءة رموز عدد كامل من الكتابات ومن شرح لغات أخرى منسية أو مختفية.

«ولا يبقى غير متحول إلاّ الإنسان» وقد جعلتنا آثار الكتابة المصرية نتحقق من صدق هذه الكلمات.

ولن تُحدثنا الآن عن إنسان ما بين النهرين القديمة الأناشيد المرفوعة إلى الآلهة ولا سفر تكوين العالم ولا ملحمة جلجامش، لا بل سنقتطف مقطعين - مما يسمى السفر البابلي ومن نصيحة من النصائح. ويتعالى الصوتان في آذاننا من جديد - أحدهما محزون، مليء بالشجن والآخر مواسٍ ومتكبر في آن واحد، بمثل هذه الحيوية والتعبيرية يصل إلينا هذان الصوتان اللذان ترددا في غابر الزمن صدى للانفصام في الروح الإنسانية ففي مواجهة اللحن الحزين «كل شيء سأم وفناء» الصادر عن إنسان مضّه القدر يتعالى النداء المبارك الداعي إلى العدل والخشية من الله، وهو بأخلاقيته الصارمة ولغته الواضحة، يذكّر بالروح النفاذة في صلب العهد القديم هو ذا شيخ من بابل يشتكي قائلاً:

... ما الذي يبكيني أنا أيتها الآلهة؟ الناس لا يتعلمون شيئاً فأصغ يا صديقي واحفظ وصيتي.

وصن هذا التعبير الرائع من كلامي

ما أعظم ما يرفعون من شأن ذلك المشهور الذي علم القتل؛

بينما يحقرون الضعيف من غير ذنب جناه.

ويشهدون الزور لصالح شرير لا تزيد امتيازاته على تدنيس المقدسات

ويدفعون ذا الحق الذي يبحث عن النصح لدى الآلهة

ويغمرون بالمعدن النفيس ذلك الذي اسمه - السارق.

ويجردون من الدخل ذلك الذي يسيرٌ طعامه

ويسلّمون السلطان للمنتصر الذي كل حشوده آثام؛

يدوسون الضعيف ويضربون المهزول.

وها أنذا المستضعف يلاحقني صاحب الألقاب.

أما أوت - نابيشتيم فيدعو إلى تعاليمه قائلاً:

«لا تسِرْ بالنميمة، قل ما هو جميل!

لا تنطق بكلمة الشر، وادع إلى قول الحق!

فإن من يسير بالنميمة وينطق بكلمة الشر

يقتص منه إله الشمس بطلب رأسه

لا تفتح فاك عريضاً، أطبق شفتيك

ولا تخرج كل ما في صدرك من كلام دفعة واحدة

فإذا ما تسرّعت بكلامك الآن رغبت في سحبه فيما بعد

عليك أن تروض عقلك على الصمت والتوقّر

قدّس إلهك كل يوم

بالأضحية والصلاة وبعمل الخير

بمقدورك أن تجعل قلبك متجهاً نحو إلهك

فهذا ما يليق بالإله.

....

مخافة الإله تضمن السعادة

والقربان يطيل العمر

أما الصلاة فتسقط الذنوب

والآلهة لا تحط من قدر من يخشاها»

إسفين وصورة في بلاد الحثيين

قراءة لغة المدونات الحثية الإسفينية
وحل رموز النقوش الهيروغليفية الحثية

غامضة
كأنها غارقة في ضباب ذهبي في إشعاعات
الشمس السيارة
أزهرت آسيا
نافرة أمام العيون
فواحة بعبير آلاف القمم

هيلديرلين، باتموس

لعل التاريخ لم يعرف سراً غامضاً كهذا السرِّ.

امتاز تاريخ دراسة النصوص المسمارية الحثية وحل رموز الكتابة الهيروغليفية الحثية بالإضافة إلى شروح اللغة التي وضعت بها هذه النصوص الهيروغليفية على تاريخ شروح الكتابة المصرية والمسمارية وقراءتهما بسمة واحدة على الأقل.

فقد وصلتنا معلومات متعلقة بالمصريين بعد أن عبرت آلاف السنين، كما أن الأدب والمسرح اليونانيين أقاما أنصاباً أدبية خالدة للفرس بينما اكتُشف الحثيون كشعب لأول مرة.

ومن غير الجائز القول بأن اسمهم قد غاص في الأبدية وعفا بصفة نهائية من ذاكرة الإنسانية: لا، فقد حفظه الكتاب المقدس - كتاب الكتب وسفر البيانات المختلفة، وفيه ورد اسم هذا الشعب في أماكن متعددة، وإن كان ذلك بصورة عَرَضية.

وعلى أيّ حال فإن هناك في التوراة مقطعاً لا بد وأن يثير اهتمامنا. ونقصد بذلك لوحة وفاة سارة ودفنها (التكوين. 23 وما يليه):

«وكانت حياة سارة مئة وسبعاً وعشرين سنة سني حياة سارة. وماتت سارة في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان، فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها، وقام إبراهيم من أمام زوجته الميتة وكلم بني حث قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم. أعطوني ملك قبر لأدفن ميتي من أمامي».

ووافق أبناء الحثيين، ثم نقرأ بعد ذلك «فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث وكلمهم قائلاً...»

يبتاع إبراهيم من عفرون حقلاً ومغارة بـ «أربعمئة شاقل فضة» في مسامع بني حث وتصبح المغارة مدفنه العائلي «لدى عيون بني حث».

وهكذا فإن الحثيين أو سكان أرض الحثيين، كانوا أيام إبراهيم شعباً مستقراً وإنهم كانوا مسيطرين على كنعان. وبدا ذلك أمراً لا مندوحة من لفت النظر إليه، يضاف إلى أنه لم يكن وحيداً فالتوراة تشير إلى ذلك بصفة أكثر وضوحاً في القسم الرابع من سفر الملوك، الإصحاح السابع، النشيد السادس، حيث توصف حرب سماريا.

«إن الرب أسمع جيش الآراميين صوت مركبات وصوت خيل صوت جيش عظيم فقالوا الواحد لأخيه هوذا ملك إسرائيل قد استأجر ضدنا ملوك الحثيين وملوك المصريين ليأتوا علينا».

فملوك الحثيين كانوا يمثلون إذا، باتحادهم مع ملوك مصر، الفراعنة، أكبر قوة في ذلك الزمن، أما الحثيون بحد ذاتهم فكانوا قوة قاهرة وليس مجرد شعب صغير يتناثر ذكرهم في مقاطع مختلفة من التوراة بين الشعوب والقبائل الضعيفة المختلفة.

ومن الواضح أن المقاطع المقتطفة من التوراة كان من شأنها أن تصبح مادة للتفكير منذ عهد بعيد لو توفر شاهد واحد آخر من أي نوع من الآثار يتعلق بذلك الشعب الذي مضى، فقد كانت التوراة شاهداً مثيراً للريبة من وجهة نظر العلم في القرن التاسع عشر.

ومن الغريب أن نسمع عن هذه الريبة اليوم، بل وأنه لمن غير المفهوم كيف استطاعت أن تفرض نفسها في تلك السنوات من انطلاقة البحث العلمي والإنجازات الرائعة لعلم الآثار والفيلولوجيا. ولا يمكننا، إذا ما استقرأنا تاريخ الإنسانية، أن نشرح ذلك إلا بالتناقض في مخلفات عصر التنوير الزاهر: بالطموح المتدفق نحو المعرفة والحقيقة متواكباً مع الاحتقار النقدي لكل ما كان ينظر إليه في يوم من الأيام كبؤرة وحيدة للمعرفة والحقيقة.

اكتشف كولومبوس أمريكا ذات يوم دون أن يدري. وقد حدث أمر مماثل لذلك بعد 320 سنة وذلك بالنسبة لـ «مكتشف» الدولة الحثية، فقد توفي دون أن يخطر له أنه عثر على لقية كتب لها أن تهب العالم «عالماً قديماً» جديداً.

كان يحمل لقباً يتمتع باحترام خاص في الشرق وهو لقب «حاجيّ» وتوفي حاملاً اسم «الشيخ إبراهيم» ودفن في مقبرة المسلمين في القاهرة بكل الإجلال الذي يليق بعظيم من عظماء العالم الإسلامي. بيد أنه ولد باسم يوهان لودفيغ بوركهاردت في الـ 24 من تشرين الثاني (نوفمبر 1784) في لوزان وكان ينتمي إلى أسرة بازيلية أنجبت عدداً من رجال الدين ومن العلماء. ودرس العلوم الطبيعية في لايبزيغ وغوتينغين ولندن لينطلق بعد حين إلى إفريقيا موفداً من قبل الجمعية الأفريقية الملكية البريطانية. وفي شباط (فبراير) 1809 صعد السويسري الشاب إلى ظهر الباخرة المتجهة إلى مالطة، فلما صار في الجزيرة لم تكن ملابسه الشرقية التي ارتداها بمهارة لتشي بالأصل الأوروبي لذلك الشاب الذي تهيئه مواهبه للكثير. وهناك زود برسائل عاجلة من شركة الهند الشرقية واتجه إلى حلب. ويمضي الفتى ما يزيد عن ثلاثة أشهر في سوريا متنكراً بزي تاجر في حلب بادئ الأمر ثم في دمشق وينصرف بكليته إلى دراسة تاريخ العرب وجغرافيتهم ولغتهم ويقوم برحلاته إلى لبنان وحوران وشرقي الأردن. ومن القاهرة، حيث يقوم المصلح محمد علي (وكان مر ذكره في الفصل المخصص للكتابات المصرية) بتزويده بالتعليمات المطلوبة، ينطلق إلى النوبة، ويعود من هناك ولكن على غير إرادة منه (فقد هرب من بربر النيل) إلى سواكن الواقعة على البحر الأحمر ثم يتجه إلى جدّه حيث تجتذبه مكة القريبة.

كان بوركهاردت «كافراً» بالطبع فلم يكن بمقدوره أن يزور المدينة المقدسة ولهذا يستدعي عالمين عربيين ليمتحناه جيداً في علوم الدين وشريعة النبي. وكان التقدير عالياً: فقد زار مكة دون مانع بل وقضى في المدينة الحرام أربعة أشهر وحج إلى جبل عرفات وفي سنة 1815 شهد المدينة. وبينما كان الطاعون يجتاح القاهرة سنة 1816 كان هو يقوم بدراساته لشبه جزيرة سيناء وقد توفي في السابع من تشرين الأول (أوكتوبر) سنة 1817 في القاهرة حيث كان يكرس كامل وقته للدراسة وتسجيل الملاحظات وهو بانتظار القافلة التي يخرج معها. ومن بين الآثار التي تركها اختارت الجمعية الجغرافية اللندنية مجموعة كبيرة من الأوصاف البالغة الروعة لرحلاته، تلك الأوصاف التي تمتاز ببساطة العرض مثلما تمتاز بالموثوقية والدقة وبمجموعة لا مثيل لها من الملاحظات القيمة وقد نشرت الجمعية هذه المجموعة.

أجل، ولكن ما علاقة الحثيين بما قلناه؟ لقد سلف وأشرنا إلى أنه قد اكتشفهم عرضاً ودون أن يلحظ ذلك.

خلال إحدى رحلاته زار بوركهاردت البازار في مدينة حماه السورية وهي ايبيفانيا (أفاميا) الهيلينية على نهر العاصي. وهناك وقع نظره على حجر مجلل بخطوط غريبة. وهو

يشير بهذا الصدد إلى أن الأشكال الصغيرة والرموز تذكر بالهيروغليفات إلا أنها تختلف جذرياً عن الهيروغليفات المصرية.

نلتقي بهذه الملاحظة في الصفحة 146 من «رحلات إلى سورية والأماكن المقدسة» والتي صدرت بعد خمس سنوات من وفاته. وعلى الرغم من ذلك الكمال في المادة الجغرافية والثقافية - التاريخية والفيلولوجية[1] والارشيولوجية الذي وضعته مؤلفات بوركهاردت بين يدي العلم فإن ذلك الكشف لم يثر الانتباه، بل ومن الواضح أن بوركهاردت نفسه لم ينجح في إعطاء المعنى الكامل والأهمية المطلوبة لتلك اللقية ولهذا لم يفرد لها غير أسطر قليلة.

وقدر لحجر حماة أن يكتشف من جديد ولكن بعد مرور 60 عاماً. وكان ذلك في الوقت الذي توصل فيه الأمريكيون إلى القناعة القائلة بأن من غير المزعج بالنسبة لهم أن يهتموا بالعالم القديم. وهكذا قام اوغاستس جونسون، القنصل الأمريكي العام، برفقة صديقه المبشر الدكتور جسابا بزيارة لبازار حماه انطلاقاً من المعلومات المذكورة. وهناك شهد ما كان قد لفت انتباه الشيخ إبراهيم: حجر مغطى بالنقوش في زاوية البازار. وراح الشاهدان يدققان النظر في الحجر ويدرسانه في حدود الإمكان. ويسمعان من أهل المدينة أن مثل ذلك الحجر ليس وحيداً بل هناك ثلاثة أحجار مماثلة تقع بالقرب من ذلك المكان، بيد أن اللوحة سرعان ما تبدلت بمجرد أن بدأ «الكفار» بنسخ الكتابة. إذ لزم الصمت أولئك المتحدثون الذين كانوا يتكلمون بإسهاب، واكتست وجوه الحاضرين بملامح التهديد وشيئاً فشيئاً أخذ يتحشد حول الغريبين جمهور من أهل المنطقة يوجه نظراته العدائية. ولاحت في الجو دلائل الضرب فما كان من جونسون وجسابا إلا أن ينسحبا من مكان العملية بسرعة أشبه بالفرار، ولم تكن معاملة أهل حماة أفضل من هذا بالنسبة لدريك وبالمير، ممثلي جمعية دراسة فلسطين وكانا قد زارا تلك المدينة في العام التالي وبالنسبة للنقيب بارتون، ذلك الرحالة الشهير الذي نجح رغم ذلك، بتسجيله نقشين سريعين غير واضحين للحجر. ولم يزد هؤلاء جميعاً على إفساد العمل كله نتيجة اهتمامهم المتزايد فقد انتهى الأمر بأهل حماه، الذين اشتهروا بتعصبهم، إلى التهديد بتدمير الحجر وما عليه.

وكان من الممكن أن ينفذوا وعيدهم لو لم تقم السلطات العليا بالتدخل في ذلك المشروع، وكانت تلك السلطة ممثلة في شخص صبحي باشا، حاكم سوريا الجديد، الذي بدأ أعماله سنة 1872 وكان رجلاً مثقفاً إلى حد كبير ويمكن أن نقول متشبعاً بروح العصر.

1- الفيلولوجيا: phileō «فيليو» باليونانية + لوجيا: وهي مجموعة تدرس الآخر والنصوص الكتابية التي تتناول اللغة والأدب عند هذا الشعب أو ذاك.

فلما سمع بقصة الحجر رأى أن من الممكن أن يتجه إليه بنفسه فاستدعى القنصل البريطاني في دمشق كوربي غرين والمبشر الإيرلندي ويليام رايت ليرافقاه في زيارته فوجدوا ذلك الحجر وعثروا على أربعة أحجار أخرى وكانت ثلاثة منها قد فتتت أجزاء في مبان مختلفة. فالأول في جدار واحد من مباني حي النقاشين والثاني في جدار حديقة، والثالث: في جدار أحد الحوانيت القائمة في مواجهة مقر نائب القنصل الفرنسي. أما الحجر الرابع: فكان مرمياً لوحده في حي النقاشين وكان يتمتع بإيثار خاص من قبل السكان الذين كانوا يعزون إليه قوة سحرية خاصة. وكان مرضى الروماتيزم أكثرهم إيماناً بقوة الحجر - فكانوا يتمسّحون به - و «يبرأون» في لمح البصر خاصة إذا شفع عملهم ذاك بالدعاء إلى النبي أو إلى القديسين المسيحيين.

كان الكاهن ويليام رايت والحاكم يعرفان مسبقاً أن الحجر لن يقدم لهما طوعاً. ولكن ما معنى أن يكون صبحي باشا حاكماً؟ وما جدوى وجود العسكر لديه إذن؟ وأخيراً طوّقت ساحة العمل بعدد من الحرس الجيدي التسلح ونزعت الأحجار بيسير من الجهد ثم نقلت جميعاً بحراسة الجند وأعقب ذلك كله سلسلة من الأحداث العاصفة. فقد نقلت الأحجار إلى استنبول، عاصمة الإمبراطورية العثمانية (لم تكن حماه آنذاك إلا مدينة رئيسية في سنجق من ولاية سورية) أما الطبعات الجبسية التي تسنى لويليام رايت أن يأخذها عن رسوم تلك الأحجار فقد أرسلت إلى المتحف البريطاني في لندن.

وهكذا وصلت الأحجار الحموية إلى أيدي الباحثين الإنكليز ثم صارت بمتناول أيدي جميع العلماء الأوروبيين ونقل اوغاستيس جونسون خبرها إلى العلماء الأمريكيين، وأخذ السؤال المتعلق بمؤلفي هذه الكتابات يشغل العقول على شاطئيّ الأطلسي فترة طويلة، إلا أن الأجوبة الأولى لم تسمح لنفسها بأن تنتظر طويلاً.

فقد لفت العالم الأمريكي، الدكتور هيس وارد الأنظار إلى الختم المغطى بأمثال هذه الرسوم والذي كان ليارد قد عثر عليه في نمرود سنة 1849. أما الكاهن رايت (وكان «بفعل وظيفته» أوسع إطلاعاً على الكتاب المقدس من سواه من البشر) فاقترح حلاً توراتياً للأحجية: إذ كان يرى أن ذلك ليس إلا لغة وكتابة الحثيين، ذلك الشعب الذي ذكر في التوراة، والذي كان يستوطن سورية ويقيم الصلات مع الفراعنة.

وقبل أن نواصل حكايتنا هذه نود أن نذكر القارئ بأن عليه دوماً أن يضع في الحسبان الفترة التي تمت فيها هذه الكشوفات. فقد خلّف علم الآثار وعلم اللغات وراءهما انعطافاً شديداً يكاد يكون عمودياً تقريباً وأزدهر ازدهاراً لم يعرف له مثيل فيما مضى

وصارت الاكتشافات الجديدة في عالمي الدراسات الهيروغليفية والمسمارية تتوارد كتيار لا ينقطع، وتأسس علم الدراسات المصرية والأكادية وتحولت الدراسات الشرقية بأسرها من نظام مغلق لتغدو في متناول وعي الجمهور الواسع وكان ما يزال حياً ذاك الجيل الأكبر عمراً والذي يتذكر حل الكتابتين الهيروغليفية والمسمارية.

وبهذه العشريات من السنين التي تحقق فيها حل الكتابة الهيروغليفية الحثية واكتشفت كلتا الكتابتين «الحثيتين» يرتبط نشاط ارتشيبالد هنري سايس الذي وفد من معسكر الدراسات الآشورية التي كانت ما تزال فتية متألقة بإشعاعات المجد.

وعلى الرغم من تأكيدات الكثيرين (باستثناء البريطانيين) فإن سايس لم يكن إنكليزياً بل والياً ينحدر من أسرة والية معروفة وميسورة وكان يعتبر اللغة الوالية لغته الأم.

ومثلما هو الأمر بالنسبة لكل كلتي يحترم نفسه كان ذلك البحاثة الخارق للعادة غير بعيد عن الرغبة في الفذلكة والتفلسف بل والاختلاق (وقد جرّت هوايته الأخيرة هذه عدداً من النوادر التي قيلت في حقه ضمن إطار العمل) وفي الوقت نفسه تميّز بمقدرته على إثارة حماس زملائه بأفكاره وكان يمتع بانفعالية فائقة للعادة وهو ما يمكن أن يوصف به بنو قومه بكل حق، أما الإيمان الديني العميق والفضول العلمي الأصيل فكانا من السمات التي تفرد بها حتى نهاية حياته.

لم تكن الأحاديث المتعلقة بالحثيين قد بدأت بعد عندما بدأ ذلك الطفل الصغير، المتقبل لجميع الأمراض، ذهابه إلى المدرسة في باتي. وقد بدأ بقراءة فرجيليوس وهوميروس وهو في العاشرة فلما بلغ الثامنة عشرة كان قد تعلم العبرية القديمة والقبطية والفارسية والسنسكريت. وفي العشرين من عمره نال منحة جامعة اوكسفورد وقبل طالباً في تلك الجامعة فلما بلغ الثلاثين صار أستاذاً فيها وأمضى سنين طويلة من عمره في تلك الوظيفة: 15 منها في قسم اللغات المقارن تليها نحو الـ 30 عاماً في قسم الدراسات الآشورية. وتوفي سايس بعد أن تقدمت به السن، وكان ذلك في الرابع من شباط (فبراير) 1933 وكان عضواً في هيئة كلية كوينس لمدة 64 عاماً عاش خلالها في شقة متواضعة لم تتبدل.

لكن سايس أمضى غير قليل من حياته متنقلاً. فكان لا يضن بوقته ولا بماله في سبيل توسيع معارفه التي كانت بلا حدود وكان مستعداً لتحمل كل المشاق في سبيل ذلك. ومن أجل ذلك الهدف ظل واقفاً ذات مرة وهو في آخر درجات الإعياء، والماء يغمره حتى وسطه في نفق سيلواح القديم بالقرب من القدس لكي يستنسخ إشارات الري الكنعانية وبعد ذلك بعام واحد كان يتسلق هضاب صحراء جنوب الجزيرة العربية صعوداً ونزولاً وهو ينقل

الكلمات المحزوزة فوقها. وكان السكان الأصليون يميلون إلى ذلك الغريب ويسمونه «الملا المجنون» أو «بو العمامة المسطحة» أو «بو نضارة»... بل وحتى بـ «بو ذنب العصفور» الذي كان يذكر به ذيل مسوحه الديني الطويل إذ كان سايس لا يخلع ذلك الرداء حتى خلال رحلاته. وفي سنوات تالية جاب جزر المحيط الهادئ حيث مرض ذات مرة مرضاً شديداً: لكنه ما أن تمكن من الوقوف على قدميه حتى بدأ دراسته لحضارة البولينيزيين. أما حضارات جاوه وجزر بورنيّو فقد اجتذبت انتباهه بنفس المستوى الذي اجتذبته به ديانات غينيا البدائية كما أن البوذية اليابانية ودخول المسيحية إلى الصين على أيدي النساطرة كانا من الأمور التي استمالت ذلك العالم الذي لا يعرف الكلال. وقد تأتى له أن يقوم بما لم يكتب لأي من قبله، بل وربما من بعده أيضاً إلا وهو إثارة الحياة في التاريخ الميت للشرقين الأدنى والأوسط وذلك في كتبه الكثيرة العدد.

وقد استدعي سايس، رغم حداثة سنه، للمشاركة في الجدل الذي أخذ يتردد من جديد بسبب الحثيين. ولم يكن لديه أدنى شك في أن الحديث يدور عنهم بالذات وكان يصرّ على صواب فكرته هذه. ونذكر بهذه المناسبة أن اللوم كان يوجه إليه فيما بعد لأنه كان يغلّب النظرة الجذرية على الرأي النقدي وذلك في المسائل المتعلقة بالعهد القديم. وليس في ذلك شيء من الغرابة إذا وضعنا في اعتبارنا تفانيه بالنسبة للكنيسة الانغليكانية وبالنسبة للقبه كدكتور في اللاهوت. بيد أن ذلك العالم كان هو الذي وهب العلم تلك الملاحظات النفيسة التي كانت تتعارض تعارضاً كلياً مع كل المقترحات التي سلف تقديمها بصدد كتابات الحثيين. ويؤثر عنه أنه كان ذا إلمام بالكتابة المسمارية قبل دخول الجامعة، ولما كان في الثامنة عشرة من عمره أثار دهشة هينكس ونوريس بمقاله الذي تعرض فيه لتلك الكتابة؛ وكان هو الذي لاحظ، وليس أحد سواه، أن الرموز المسمارية التي كانت قد اكتشفت حتى ذلك الحين تتجاوز بعددها إمكانية أن تكون مخصصة لكتابة أبجدية، ورجح أن تكون تلك المدونات قد نقشت بكتابة مقطعية معززة بالأيديوغرامات والمحددات على نحو ما كان الأمر بالنسبة للنصوص الأكادية المسمارية. وكان ذلك العالم نفسه وقد بلغ ذروة أمجاده وتقدم بمجموعة كاملة من الأبحاث الطريفة حول اكتشاف لغات وكتابات شعوب آسيا الصغرى وما بين النهرين وحل رموزها أيضاً ومن بينها مقال بالغ الأهمية حول اللغة السومرية، كان هو الذي وضع يده، بالإضافة إلى ذلك كله، على رمز وتعرف فيه على اللاصقة النحوية التي ينتهي بها الاسم في الحالة الاسمية وهي: S-.

وكما سلف أن ذكرنا، كانت المادة ما تزال ضنينة جداً. وترتبط مضاعفة تلك المادة بملاحظة جعلت المتحف البريطاني يشرع بحفرياته الأثرية الدورية سنة 1876. أما تلك الملاحظة فقام بها جورج سميث فدخل اسمه بواسطتها، بطريق غير مباشر، في تاريخ حل رموز وكتابة لغة جديدة كانت الثالثة مرتبة. فأثناء رحلته الأخيرة تمكن سميث (مثله مثل سكين، القنصل الإنكليزي في سوريا) من التعرف فوق هضبة كبيرة تقع بالقرب من جرابلس عند انعطاف نهر الفرات على بقايا مدينة كركميش، تلك الحاضرة المهمة التي كانت مركز العظمة الحثية في سوريا الشمالية وفق ما تذكره المصادر المصرية والمسمارية فقد وجدت في ذلك المكان كتابات وضعت بنفس تلك الرموز التي عثر عليها فوق الأحجار الحثية. وبعد فترة قصيرة توصل المتحف البريطاني، من خلال الحفريات التي أجراها إلى مدونات جديدة بل وعلى عدد من التماثيل المنحوتة.

والحق يقال إن التماثيل فتحت عيني سايس بصورة أكثر مما فعلته المدونات. فقد تذكر فجأة المكان الذي شهد فيه أشياء مماثلة لها: فهناك أسلوب مماثل بالضبط كان من المميزات الخاصة لمجموعة من التماثيل التي نحتت في الصخر والتي اكتشفها الرحالون في آسيا الصغرى دون أن تثير انتباههم. وقد تم العثور على تلك المجموعة في قرية بوغازكي التي تبعد عن أنقرة، بنحو الـ 150 كيلو متراً. وفي يازيليك القريبة من تلك القرية كما وجدت في مرعش - الواقعة في سوريا الشمالية وفي قارابيل الواقعة على الشاطئ الغربي من آسيا الصغرى. وقد كان ذلك بمجموعه يعني، حسبما استنتج سايس (ونلاحظ أنه كان متسرعاً في حكمه) أن الحثيين لم يكونوا مجرد قبيلة سورية شمالية صغيرة تعيش بين غيرها من القبائل، حسبما كانت فرضية الكثيرين، بل إن مملكتهم العظيمة كانت تمتد بين أزمير في الغرب وحماه على العاصي في الجنوب[1].

إن معبد يازيليك المنقوش في الصخرة، والصخرة المغطاة بالنقوش، والواقعة غير بعيد عن قرية بوغازكوي، صارت بمجموعها معروفة مع تلك القرية بفضل الدراسة التي قدمها الرحالة الفرنسي شارل تيكسييه والواقعة في ثلاثة مجلدات بعنوان «وصف آسيا الصغرى» ومن المؤسف أن تلك المجلدات الثلاثة شهدت النور في وقت كانت الأنظار متجهة فيه بكل ما فيها نحو الهيروغليفية المصرية ونحو المسمارية. ولهذا فإن ذلك العمل لم يثر الاهتمام الذي كان يستحقه على الرغم من الصور الإيضاحية التي تضمنها والتي كانت بديعة حسب مفاهيم ذلك العصر. وبين المجموعة النحتية في يازيليك كانت هناك لوحة للآلهة بالغة الإيحاء

1- Ch. Texier, Description de L' Asie Mineure, Paris, 1839-1849.

وقد عثر عليها في إحدى «الحجرات الجانبية». وقد أرفق عدد كبير من شخوص هذه المجموعة بنقوش كتابية موجزة. (وهو شبيه بما عثر عليه في بيهستون) ولوحظ أن كلا من تلك النقوش يبدأ برمز وسرعان ما هب سايس، وقد تعمق في دراسة المسمارية، إلى المقارنة بين هذه النقوش وبين ما ترمز إليه وسرعان ما تعرف في ذلك الرمز على محدد (وبالتالي ايديوغراما) مفهوم «إله».

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من 1880 ومضت في ذهن سايس فكرة انتهت به إلى هذا الاكتشاف التالي الرائع. فقد تذكر أن قد سبق له الاطلاع في إحدى المجلات العلمية الألمانية على أسطوانة فضية طريفة وأن الكاتب قدّم لها وصفاً بنفسه. أما صاحب تلك الأسطوانة، وبالأحرى صاحب اكتشافها العلمي، فكان الدكتور آ. د موردتمان، وكان دبلوماسياً وباحثاً ومن مواليد هامبورغ وقد ركز أبحاثه على دراسة وشرح النصوص المسمارية الأورارتية القادمة من بحيرة وان.

وبالمناسبة فقد بدأ سايس أيضاً يتحرك بنجاح في ذلك الميدان. فاصطدم خلال أبحاثه بالوصف الذي قدمه موردتمان لتلك الأسطوانة الفضية.

كان ذلك «الخاتم ذو الإسفينات» والذي نظر موردتمان إليه على أنه «آخر فرع غربي من فروع الكتابة الأرمنية والمسمارية بوجه عام» يتألف من أسطوانة فضية غير شديدة السماكة لها شكل فلقة من دائرة $16\frac{1}{3}$ بالخط الإنكليزي (=3,3 سم) بقطر وارتفاع $4\frac{1}{3}$ خط (=0.7 سم) فكان من المفروض أن تشكل الدائرة بمجموعهما قطر قدره $19\frac{3}{4}$ خط إنكليزي (=4 سم) وكان التاجر، جامع الأثريات الكسندر إيفانوف قد حصل عليها في إزمير ولعلها الآن موجودة في المتحف البريطاني.

كان الوجه الداخلي للأسطوانة أملس لا يتميز بأيّ رسوم، اللهم إلا بعض الآثار التي تدل على أن الأسطوانة قد صهرت على مقبض. أما الوجه الخارجي فينقسم بمحيط وحيد المركز إلى قسمين: القسم الداخلي ويجسد محارباً واقفاً يتجه نحو اليمين، ويلبس رداء مطرزاً تجلل رأسه عمامة وينتعل حذاء تميل نهايتاه الأماميتان إلى الأعلى، ويقبض بيمناه على رمح بينما يمسك ثنية ردائه بيسراه، وأخيراً يظهر معه مقبض سكين أو خنجر من جهته اليمنى وهذه النقطة تؤكد لنا منذ البداية أننا أمام خاتم كما تظهر الرموز إلى جانبي المحارب»[1].

1- A.D. Mordtmann, Entzifferung und Ertlarung der armeinschen Keitschriften von Van und der Umgegend,- Zeitschrift der Deutschen Morgenlan - dischen Gesellschaft Bd XXVI,1872 S.625.

وقد كان لقراءة موردتمان للنص المسماري لذلك الخاتم من الأثر بعد ذلك ما يجعلنا نرى من الواجب تسجيله هنا. وقد تضمنت تلك القراءة ملمحين تركا أثرهما على القراءة بمجموعها بعد ذلك وهما: أولاً: أساس الاكتشاف البالغ الأهمية الذي سيقوم به سايس وثانياً الخطأ الفادح الذي تمسك به أحد العلماء الألمان فيما بعد ودافع عنه بعناد شديد مع كل ذلك مما أدى وبصورة مشددة إلى عرقلة قضية حل الهيروغليفات الحثية وتعثرها خلال عشرات السنين.

الشكل -54- طبعة من خاتم تاركوموفا الذي كان نقطة الانطلاق لقراءة رموز الكتابة الهيروغليفية الحثية

فما هي أهم الأسس الواردة في مقالة موردتمان: «تحتوي الدائرة الخارجية على أسطورة كتبت بالخط المسماري وهي تتكون من تسع مجموعات مسمارية وتبدأ بالمكان الذي تشير إليه الشخصية بأصبعها. ولكن ما دام ذلك خاتماً فإن من الضروري أخذ بصمة منه تظهر الكتابة على أثرها في الصورة التالية».

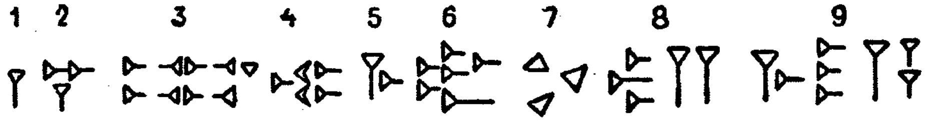

أما المجموعات 1، 6، و 7 فهي ايديوغرامات، والمجموعة 1، 7 من بينها مكافئة في معناها لما يماثلها في نظم الكتابة البابلية والآشورية والأرمنية، ورقم 1 هي محدد لأسماء العلم، أما رقم 6 فهي ايديوغراما «ملك» في الكتابة البابلية أما رقم 7 فمحدّد أسماء البلدان.

وعلى هذا يكون معنى الكتابة ما يلي: *NN* ملك بلاد *NN* فالحديث إذن يدور عن كيفية قراءة الاسمين. إن الاسم الأول منهما هو:

2	3	4	5
Tar	***ku***	***dim***	***mi›'***

بعد ذلك يتوصل موردتمان إلى عدد من التصورات التي تقيم الدليل على حدة بصيرته ومقدرته الاستقرائية وفطنته، ونقدم في ما يلي ملخصاً لأهم هذه التصوّرات وأول الدوافع التي تحدونا إلى ذلك هو أن العادة قد جرَت، حتى في الأدبيات الرسمية، على تسجيل هذه الإنجازات لسايس الذي لم يزد على أن اقتنص فكرة موردتمان بعد ثماني سنوات، وعلينا من ناحية أخرى أن نشير إلى أن بذرة ذلك الخطأ التاعس الذي ربطوا أسبابه فيما بعد باسم الباحث الألماني بيتير ايونسين...

وهكذا، ومن خلال قراءته للأسطورة المسمارية يتوصل موردتمان إلى اسم البلاد «طَرْسون» ومن ثم يختتم قراءة العبارة «تاركوديمي ملك طرسون» أما دليله على هذه القراءة التي يراها بنفسه «تبدو للوهلة الأولى أكثر من مجازفة» فيتجسد فيما يلي:

«إن آثار نينوى وبابل وبيرسيبول إما أن تقدم الدليل النادر جداً من الأختام المماثلة أو هي لا تقدّم شيئاً على الإطلاق...

فإذا ما التفتنا إلى آسيا الصغرى وجدنا أنفسنا أمام مجموعة كاملة من الأشياء المماثلة. فالأحذية المعقوفة المقدمة مثلاً تظهر في تماثيل أويوك، بوغازكي وإيريغلي في كابادوكيا مثلما تظهر في آثار قارابيل بالقرب من إزمير، ونجد شكلاً مماثلاً لذلك الخنجر في بوغازكي ولذلك الرمح في قارابيل كما نلتقي فيها بصورة أمير حليق اللحية. أما التزيينات الوحيدة التي لا نلتقي بها في آثار آسيا الصغرى فهي الرداء المطرّز والخوذة.

وهذه المتناظرات تجعلنا نتجه بأفكارنا نحو آسيا الصغرى أكثر من الاتجاه بها نحو منطقة ما بين النهرين أو فارس، وتدفعنا إلى أن ننسب الخاتم إلى مرحلة تسبق عصر الأخمينيين. وبالإضافة إلى هذا هناك إشارات مباشرة تؤكد عودة خاتمنا إلى منطقة كيليكيا»[1].

ويعتمد موردتمان على هيرودوت الذي وصف المحاربين الكيليكيين الذين كانوا يخدمون في فرق كسيركس بقوله في الجزء الـ 91 من كتابه السابع:

1ـ المصدر السابق ص 627.

«الكيليكيون... كانوا يلبسون الخوذة الغريبة، ويحملون تروساً من جلود الثيران الشهباء بدلاً عن الدروع ويرتدون الملابس الصوفية الطويلة، وكان كل منهم مسلحاً بزوج من المزاريق وبسيف شديد الشبه بالمدية المصرية».

ويوضح موردتمان قائلاً إن ذلك الوصف «يتفق بكل ما فيه مع ملابس تاركوديمي».

وبالإضافة إلى ما ذكرناه يعتمد أيضاً على ورود ذلك الاسم في كيليكيا ويستخرج الاسم الذي ورد لدى هيرودوت بصيغة «تاركونديموس» وهو يرى أن الظاهرة الأخيرة تؤكد أن اسم «تاركوديمي» فوق الخاتم قد سجل بصيغة محرفة لدى المؤرخ اليوناني وأن ذلك الاسم كان يمكن أن يبقى حتى تاريخ قريب بهذه الصيغة.

إلا أن موردتمان يسقط بعد ذلك في الخطأ الذي سبق أن أشرنا إليه. فمن خلال محاولته التوقع المسبق لمختلف الاعتراضات التي يمكن أن ترتبط بحجّته الضعيفة المتعلقة بقراءته لاسم طرسون يسارع إلى القول بمشروعية أمثال هذه الاعتراضات ولهذا يطرح اسم «تسوسون» كاختيار آخر وينظر إليه على أنه الصيغة الابتدائية لاسم سيينيس الشهير. فمثل ذلك الـ سيينّيس قام سنة 600ق.م. بالاتحاد مع لابينيت، ملك بابل.. ومن الممكن الافتراض بأن يكون تاركوديمي المذكور في الخاتم هو بالذات ذلك السيينّيس»[1].

لكنه «بالذات» لم يكن هو على الرغم من القول بذلك على مدى عشرات السنين وبالذات حتى سنة 1932.

ولكن لنعد إلى الخاتم. ما إن تذكّر سايس تلك «الأسطوانة الفضية» حتى تقدم باستفسار إلى المتحف البريطاني. وهناك ردوا عليه بأن مثل تلك الأسطوانة قد طرحت للبيع على ما يبدو لكنها أعيدت إلى مالكها بحجة أنها قد تكون مزيفة - لأن أحداً لم يسبق له أن شاهد مثيلاً لذلك! بيد أنهم لم يفوتوا على أنفسهم فرصة أخذ نسخة مغلفنة عنها «تحسباً لكل طارئ». وكان ذلك ضربة حظ وقد أرسلت تلك النسخة إلى سايس لدراستها.

وبواسطة تلك النسخة قام سايس باكتشافه المذهل الذي ربط اسمه وإلى الأبد بالدراسات الحثية.

على منوال موردتمان أشار سايس إلى غطاء الرأس الذي كانت تعتمره شخصية ذلك الإنسان وإلى حذائها المعقوف الرأس. وكانوا ينظرون إلى تينك القطعتين على أنهما من قطع المظهر الخارجي «الحثي» أما النص المسماري فقد قرأه بطريقة مغايرة بعض الشيء فقال: *Tar-*

1- A.D.Mordtmann, Entzifferung und Erklarung der armenischen Keil-schriften von Van und der Umgegend, s. 628.

أي «تاريكتيمّي، حاكم بلاد ايرمي» *rik-tim-me Š ar mat Er-me-e* أما اليوم فإن الاسم يقرأ في كل مكان على أنه «تاركومووا»، بينما يقرأ النص على نحو ما هو في (الشكل 55).

بلاد Me+ra á ملك Tarku muwá «تاركومووا، ملك بلاد ميرا»

الشكل -55- القراءة اللفظية لخاتم تاركومووا

وعلينا هنا أن نضع فاصلاً واضحاً بين ما قدمه موردتمان وبين ما قدمه سايس. فما يتعلق بالإشارة إلى آسيا الصغرى وبالتحديد المكاني لكيليكيا وبالقراءة الصحيحة للأسطورة المسمارية (على الأقل فيما يخص بناء الكتابة وطابعها). كان ذلك كله من نصيب العالم الألماني، إلا أنه لم يلحظ أهم نقطة في الموضوع، تلك النقطة التي كان اكتشافها من نصيب سايس دون شك.

فمن خلال اطلاعه على النقوش الحثية التي تم اكتشافها والتعرف على الرموز المخطوطة الخاصة بها بالإضافة إلى معرفته بالكتابة المسمارية اشتبه سايس، ثم تيقن فيما بعد بأن تلك «الرموز» التي تحدث موردتمان عنها كانت رموزاً خطية - هيروغليفات حثية، وأن النص الذي كتب بها لا بد وأن يتسق مع الأسطورة المسمارية. وفي الحقيقة فإنه عثر على رمزي و في كل من كركميش وحماه فإذا ما افترضنا أن النص الهيروغليفي في الخاتم يمثل موضوعاً موازياً للأسطورة المسمارية كان على هذه الرموز أن تعني كلمتي «بلاد» و «ملك» وكان لا بد وأن يتبعهما رمز لـ *tar*. وعلى هذا تم التوصل إلى ايديوغرامات وإلى إشارة مقطعية - فكان ذلك الألق الأول الذي أثار، إلى جانب ذلك، شيئاً بالغ الأهمية في طابع الكتابة الجديدة.

وكان من الممكن أن يطرح السؤال التالي: ألم يلاحظ موردتمان حقاً هذه الهيروغليفات؟ لا، بل إنه رآها وشرحها ومما يذكر أن شَرْحها كان يبدو في ذلك الوقت شديد الإقناع، بل وهو يبدو مقنعاً حتى في وقتنا الحاضر.. بالنسبة لغير المتخصصين.

«إن الرموز التي تظهر على الخاتم تشير إلى كيليكيا فرؤوس الماعز تعرفنا خاصة بالثروة التي تشتهر بها المناطق الجبلية من كيليكيا بينما يلمح الرمز التالي، مثله مثل حبات القمح، إلى شدة خصوبة سهول كيليكيا، أما الشواهد فهي رسوم دقيقة للمساكن التي كانت قائمة غربي قيصرية في كابادوكيا التي كانت آنذاك.. تابعة لكيليكيا.. أما

النخيل فكان يمكن أن يعتبر في تلك الحالة شعاراً لتلك المنطقة السورية. وبهذا يصبح الخاتم جميعه - مثالاً طريفاً للشعارات القديمة التي تصوّر الأراضي الخاضعة لصولجان الملك»[1].

إن مجرد النظر إلى هذا الإيضاح، الذي يبدو للوهلة الأولى مقنعاً، يجعل بالإمكان تقدير الأبعاد العظمى للخطوة الأولى التي قام بها سايس وتقديم مغزى تفسيره للخاتم، ذلك التفسير الذي كان حاسماً بالنسبة لحل الكتابة فيما بعد.

والحق إن تلك الكتابة كانت أكثر شحاً من أن تفي بالمطلوب، بل ولم تقدم أي مساعدة تقريباً من أجل تحديد المعاني اللفظية - فالأيديوغرامات، كما هو معلوم، لا تقدم أيّ إيضاحات في هذا المضمار.

وفي ذلك الوقت تم العثور على آثار جديدة منها خاتم من نينوى ووعاء بازلتي مغطى بالرسوم وكتابة في أحد مساجد حلب. إلا أنه يجب أن نشير قبل كل شيء إلى أنموذجين من بينهما يتميزان بروعة خاصة: كتابة منقوشة على حجر في بوت بالأناضول ونص مخطوط بأحرف بارزة كان يغطي ظهر وجانبي أحد الأسود التي كانت تزين بوابة مدينة مرعش في شمال سوريا.

في بادئ الأمر لم تدفع هذه المكتشفات قضية حل الخط دفعة قوية بالرغم من أنها كانت بمجموعها الأساس الذي بنى ويليام رايت عليه كتابه المشهور «امبراطورية الحثيين»[2]. وضمنه سايس الجزء المتعلق باللغة وقد نفى في ذلك الجزء نفياً قاطعاً الفرضية القائلة بأن الحثية - لغة سامية وافترض بأن الحثيين جاؤوا إلى سوريا من الأناضول بهدف السيطرة على هذه البلاد التي بسطوا نفوذهم عليها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد وفق ما تذكره المصادر المصرية ومصادر ما بين النهرين. ثم يقدم سايس بعد ذلك إسهاماً جديداً في قضية قراءة رموز الكتابة الحثية عندما يتعرف في الرمز على النهاية S وهي نهاية الحالة الاسمية، وفي الرمز 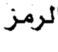 على النهاية n- نهاية حالة المفعول وعلى محدد «مدينة» في 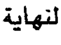 ويشير أيضاً إلى أحد الأسماء وهو اسم الإله «زانديس» الذي كانت له عبادته في طارس (في كيليكيا). وسيكون لهذا الإله الذي سيحمل اسم شانتاش شأن في تاريخ فك رموز الكتابة فيما بعد.

وكان من تلك الكشوفات المثيرة التي تمت في تلك السنين والتي قدمناها في ملامحها العامة بالإضافة إلى الارتباط الوثيق الذي بدأت تتضح ملامحه بين العاديات الآشورية وبين

1- المصدر السابق.

2- W. Wrights, The Empire of the Hittites, (London), 1884.

الآثار الحديثة الاكتشاف أن أثارت بمجموعها موجة من زحف الرحالة والبعثات إلى آسيا الصغرى وهو ما أثمر عنه مجموعة من الكشوفات الجديدة القيمة. فقد عثر الإنكليزي السير ويليام راسي والألمانيان كارل هومان وأوتو بوخشتين والنمساويان فيليكس فون لوشاي واللورد لانكورونسكي والفرنسي شانتر والأمريكي وولف على تماثيل ونقوش جديدة. ولم تكن قد مرت غير ثلاثين سنة على اكتشاف حجر حماة، إلا أن ذلك كان يبدو عهداً بعيداً جداً. بل إن العالم الألماني ليوبولد ميسّيرشميدت عندما أصدر مجموعته «*Cropus Inscriptionum Hettiticarum*» سنة 1900 استطاع أن يجمع ويصطفي وينشر بصورة بديعة نحو مئة من النقوش المكتوبة من بينها 37 نصاً كبيراً من آسيا الصغرى وسوريا الشمالية (وقد أوصل عددها إلى 42 نصاً بفضل الإضافات والترميمات التالية).

وأدت هذه المجموعة من اللوحات المكتوبة إلى إثارة تنافس حقيقي بين أوساط عالم العلم على الغوص إلى درجة أعمق في أسرار هذه الآثار وفك رموز الكتابة وشرحها.

ومن الجدير أن نشير هنا إلى بعض التقدم الذي تم إحرازه في ذلك المضمار في المرحلة السابقة أيضاً لذلك الاندفاع العام. فقد اكتشف البحاثة الفرنسي ج. مينان سنة 1890 أن الرمز المرسوم الذي بدأت به كثير من الكتابات والذي يصوّر إنساناً يشير إلى نفسه إنما يعني «أنا» وهو يطابق الهيروغليف المصري المشابه في الشكل. أما سايس فقال بهذا الصدد أن الإنسان الذي صور بواسطة الرمز إنما يشير إلى فمه فالرمز يعني «أنا أقول» أو عن طريق ضمير الشخص الثالث «هو يقول».

وقدم عالم الآشوريات الألماني بايزر سنة 1892 بعض الإسهام في مضمار القضية العامة لقراءة الرموز فأشار في كتابه الذي لم يكن على مستوى عالٍ من العلميّة، إلى أنه قد أشار إلى الفاصلة بين الكلمات)/ وإلى رمز « ‹› الذي قد يشير إلى وجود أيديوغراما.

الشكل -56- الرمز الهيروغليفي «أنا» في الكتابتين - المصرية والحثية الهيروغليفيتين

ولكن قبل أن يظهر الـ «*Corpus*» كتاب ميسيرشميدت، قام بالتمهيد للدعوة العظمى من أجل الهجوم المشترك على الكتابة الحثية وفك أسرارها رجل في ألمانيا كان له أثره البالغ على كافة الأبحاث التالية. وقد انعكس ذلك الأثر في معنى مزدوج: ففي السنوات الأولى،

رفد تلك الأبحاث بنبض حاسم الأثر، إلا أن أبحاثه التالية تحولت إلى حجر عثرة أخرت مرحلة الحل عشر سنوات. كما أن كلماته التي كان يقولها عن زملائه وأعمالهم، والتي كانت مليئة بالتهجمات الشخصية أدت إلى جدال علمي، كان بما فيه من قسوة وحدة، يعيد إلى الأذهان الخصومات العلميّة في القرن التاسع عشر.

كان بيتر ايينسين آخر ممثلي الرعيل المجيد من علماء الآشوريات الألمان. كان ابناً لقس فرنسي وقطع نفس الطريق الذي قطعه جميع مستشرقي عصره تقريباً - من اللاهوت الذي بدأ ايينسين دراسته في برلين، إلى الاستشراق. وفي سنة 1880 أصبح مساعد أستاذ في ستراسبورغ ودعي سنة 1892 استاذاً إلى ماربورغ وفيها مارس نشاطه لفترة تزيد عن الأربعين عاماً. وقد كان واحداً من تلامذة العالم الكبير اييرهاردت شرادير ثم ما لبث أن أصبح أستاذاً كبيراً بالنسبة للجيل الفتي واتصل تأثير شخصيته ونشاطه التعليمي حتى 1940.

كان ايينسين عالم آشوريات مئة بالمئة، وقد حقق أمجاده بأعماله في علم الأكوان عند البابليين وبدراسته للقصص البطولية والأساطير في «المكتبة المسمارية»، أما العمل الكبير الذي كان يرى أنه قد توصل به إلى ذروة نشاطه فكان «أسطورة جلجامش في الأدب العالمي»[1] في مجلدين ضخمين. وفيه حاول أن يؤكد أن كل القصص التاريخية التي وردت لدى الموسويين بالصيغة التي نراها في التوراة ما هي إلا تحوير محلي لأسطورة جلجامش، وأن الاخباريات الواردة في الأنجيل عن يوحنا المعمدان وعن المسيح وبولوس تعود إلى تلك التحويرات الموسوية لجلجامش، وبالإضافة إلى ذلك يرى أن القسم الأعظم من القصص اليونانية وحكايات الرومان في العهد القيصري والتقاليد المتعلقة ببوذا بالإضافة إلى الساغات الشمالية والقصص الهندي تعود إلى ذلك الأصل. ومن الواضح أن نظرية ايينسين أثارت ردود فعل عنيفة وأدى الجدل بدوره إلى أن انقلب بنفسه انطوائياً عنيداً وحاد المزاج إلى أبعد الحدود - وبكلمة واحدة فقد اتخذ طبعه ملمحاً خاصاً جعل الكثيرين من زملائه يصلون إلى القول بأن الاحتكاك به كان يرتد عليهم بالأذية.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن التفات ايينسين إلى اللغة الحثية كان يمني بأفضل الوعود. فطريقته في البحث كانت تمتاز بالعمق والتأمل كما أن تعطشه إلى المعرفة وجلده الذي كان يمضي به على هدي الآثار التي تم اكتشافها أثارت فيه، ومنذ وقت مبكر، الرغبة في أن يجرب مواهبه في فك رموز الكتابات غير المعروفة - إلى جانب دراسته في الآشورية. فكرس عاماً كاملاً من حياته لدراسة الهيروغليفات المصرية. كما أن المكتشفات

1- Keilschriftliche Bibliothek , Bd VI.

الحثية اجتذبت انتباهه وكانت نسخة الجبس المأخوذة عن أسدي مرعش تزين مكتبه الذي يعمل فيه. وقد قدّم منذ 1894 (أي قبل أن يصدر ميسيرشميدات الـ «*Corpus*» بست سنوات)، مخططاً مدروساً بعناية لفك رموز الكتابة، ثم عمد فيما بعد إلى تقديم ذلك المخطط إلى القراء في كتابه المشهور «الحثيون والأرمن» وفي صورة أكثر تبسيطاً. إلا أن تسمية الكتاب نفسها كانت تشير إلى خطأ أساسي: فقد كان يرى أن لغة أورارتو المتأخرة كانت تستخدم الهيروغليفات الحثية في كتابتها. ومع كل هذا، فإنه استطاع، انطلاقاً من تلك النتائج القليلة المؤكدة التي توصل إليها سابقوه ومنهم سايس بشكل خاص، أن يتوصل إلى القراءة الصحيحة لاسم مدينة كركميش، والتي كثيراً ما كانت تصادف في الكتابات المكتشفة بين آثار المدينة. كما تمكن بعد ذلك من اكتشاف أحد الألقاب في هذه الكتابات بالإضافة إلى اسم الإشارة «هذا» كما لاحظ المجموعة المكونة من صورة الشمس المجنحة مضافة إلى الرمز الهيروغليفي «الملك» تحيط عادة باسم الملك وذلك على غرار الإطار الذي يحيط بأسماء الملوك المصريين.

أما ما يتعلق بالمنهج نفسه فإن ايينسين اختار - خلال محاولته فك الرموز - طريقاً جديداً - كان يمكن له أن يكون الطريق الأمثل بالنسبة لقراءة الكتابة لو أن صاحبه سار فيه حتى النهاية على نحو ما فعل عالم آخر في وقت لاحق فأثيب على ذلك بالتوصل إلى أفضل النتائج، بيد أن ايينسين ضل الطريق وراح يتخبط في الأخطاء دون أمل، وقد انطلق من مبدأ يقول بأن أقل ما يجب أن نصرف إليه اهتمامنا هو البحث عن الدلائل اللفظية - فقبل أن يصل الأمر إلى دراسة النص نفسه لا بد من فهم اللوحة المكتوبة انطلاقاً من معطياتها الخارجية وتقديم مضمونها المحتمل القائم على أساس تاريخي إذا لم نقل على أساس حدسي!.

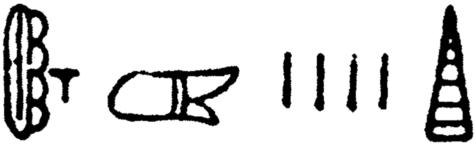

الشكل -57- اسم مدينة كركميش مكتوباً بالهيروغليفيات الحثية

ويبدو هذا مثيراً للريبة، وسيزداد شعورنا بالارتياب كلما زادت معرفتنا لتطبيقات ايينسين لفرضيته في عمله. ولعل من المحتمل أنه كان واقعاً منذ البداية تحت تأثير تلك الحقيقة القائلة بأن جميع الرموز التي عرفت وتم اكتشافها بصورة صحيحة حتى ذلك اليوم كانت بصورة شبه مطلقة ايديوغرامات، وقد وقع ايينسين في الخطأ بعد ذلك، إذ افترض أن

الرمز الذي اكتشفه سايس لا يمكن أن يكون إلا نهاية للحالة الاسمية فقط، فكان يرى حالة الإضافة في كل موقع يختفي فيه ذلك الرمز، وإذ تسلح بهاتين الفرضيتين المضللتين توصل بصورة طبيعية إلى تصور كاذب بأن جميع الكتابات قد أقيمت على أساس «أحدهم X، والذي Y (لواحد آخر)- Z»[1]. وعلى هذا فإن جميع تلك الكتابات، بما في ذلك أطولها ديباجةً، ما كان يمكن أن تكون نصوصاً قصصية أو وصفية: ولا يمكن أن تحتوي على جمل (ولا تحتوي على فعل واحد) - فما هي إلا جرود لمجموعات من الألقاب المتشابهة صيغةً كتبت بواسطة هيروغليفات يأخذ بعضها بخناق بعض وفق نظام لا ينجرح.

ومن المؤسف أن ايينسين بقي حتى نهاية حياته يدافع عن فرضه ذاك بعناد لا يعرف مثيلاً وبحدة عجيبة، أما أخطاؤه التالية فإنها لا تستحق مجرد التوقف عندها. إلا أننا سنشرح واحدة منها فقط وهي التي سبق ذكرها وكانت تمثل كارثة بالنسبة لقضية قراءة الكتابة. تلك هي قراءة ايينسين غير الصحيحة لمجموعة رموز التي رأى فيها اسم «سيينيس» وهو لقب الملوك الكيليكيين خلال العهد اليوناني. وقد وقع موردتمان في مثل الخطأ بينما كان يتحرق شوقاً إلى معرفة الكلمة المكتوبة فوق خاتم تاركوموا.

ومن الواضح أن تلك الفرضية العقيمة التي تقدم بها مثل ذلك العالم المتخصص الشهير جعلت العلم الألماني يصاب بفترة ركود كان من أهم نتائجها أنها أوقفت عملية اكتشاف الهيروغليفات الحثية. وقد عاشت الأبحاث دفعة جديدة من جانب آخر غير متوقع وكان ذلك شبيهاً بكشف حقيقي لم يكن أي إنسان يتوقعه، على الأقل من وجهة نظر كماله ووضوحه.

حقاً، إن «التباشير» الأولى لذلك الاكتشاف بدأت منذ بضع عشرات من السنين وكانت ترتبط بالاكتشاف الذي تم في تل العمارنة (مصر العليا) وعثر خلاله على أرشيف هائل من اللوحات المسمارية الطينية التي كتب باللغة الأكادية. وكانت هذه اللقية ذات قيمة خاصة بالنسبة لعلماء المصريات والآشوريات فقد كانت اللوحات تتضمن بقايا مراسلات ملوك آسيا الصغرى والفرعونَيْن أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع («الملك حامي العقيدة» الذي تعرفنا عليه في الفترة الخاصة بمصر والتي انتهت بصلاته إلى إله الشمس؛ وتل العمارنة تقع في المكان الذي أقام فيه إخناتون ولم تعش إلاّ فترة قصيرة بعد وفاة مؤسسها).

وكان هناك، بين هذه اللوحات، رسالتان وجههما «حكم حثيّ»، الملوك الحثيون، ومن بينها بطاقة تهنئة ممن يسمى بـ سوبّيلوليومي بمناسبة جلوس إخناتون على العرش، يضاف إلى ذلك كله تقارير كثيرة عن التدابير العسكرية للحثيين في سوريا الشمالية.

1- J. Friedrich, Entzifferungsgeschichte der hethitischen Hieroglyphen schrift. Stuttgart, 1939, S. 17.

وبهذا تم التوصل إلى معلومات في غاية الأهمية عن حياة الشعبين، إلا أن ذلك لا يحيط بكامل الأهمية الكبرى للكشوفات وبخاصة بالنسبة للدراسات الحثية على الرغم من أن ذلك الجانب من الكشوفات لم يُعطَ الاهتمام المطلوب خلال المرحلة الأولى من الكشوفات. والسبب في ذلك أن تلك الرسائل اللوحية كانت تضم بينها اثنتين وضعتا، شأن جميع الرسائل الأخرى، بكتابة يمكن قراءتها لكنهما صيغتا بلغة لا يمكن فهمها مطلقاً. ولكن الأحجية الجديدة لم تصمد طويلاً دون أن تحل، وعندما قام علماء البلدان الشمالية. إ. أ. كنودتسون، س. بوغّي وأ. تورب سنة 1902 بإصدار هاتين الوثيقتين اللتين سميتا باسم بلاد موجههما «رسالتان من أرتساوا» كان بإمكانهم آنذاك أن يفترضوا، وبكل ثقة، أن لغة هاتين الرسالتين - لغة هندأوروبية وأنها أقدم لغة عرفت حتى ذلك الوقت من بين مجموعة اللغات الهندأوروبية.

كان ذاك كثيراً وكان قليلاً في الوقت نفسه. فلم يكونوا قد توصلوا بعد إلى القراءة الموثوقة ولو لكلمة واحدة فكيف بجملة كاملة. نضيف إلى هذا أن «علماء الهندأوروبيات كانوا ما يزالون مهيئين على أساس كاف من الحذر...، بل ومتوجسين من ذلك الكلام الفارغ غير العلمي والقائم على مجرد التشابه» (يقصد بذلك القناعات القائمة على إيجاد الصلات بين المفردات على أساس مجرد التشابه في اللفظ)[1]

ونتيجة لذلك وتحت نيران النقد الشديد الذي وجهه الأخصائيون إلى كنودتسون اضطر إلى التخلي عن نظريته.

وفي تلك السنوات، وفي بداية القرن العشرين، تشكل فجأة وضع خاص انقسمت الدراسات الحثية على أساسه إلى قسمين وكأن يداً وجهت العمل المشترك في تيارين مختلفين، ذلك العمل الذي كان حتى يومذاك يجمع بين العلماء الإنكليز والألمان خاصة والذي أثبت نفسه من خلال نتائجه الأولية. ومن الطبيعي أنه لم تكن للعلماء يد في ما حدث بل كان الوضع السياسي هو السبب في ذلك، إذ إنه حدث قبيل الحرب العالمية الأولى.

اتخذت البعثة الإنكليزية طريقها من ليفربول إلى آسيا الصغرى برئاسة جون هارستانغ وكانت تقف وراءها شخصية السير ارتشيبالد هنري سايس.

ظل سايس سنوات طوالاً يهدهد حلمه الذي لم يكن بحد ذاته جديداً: وهو القيام بالحفريات عند انعطاف غاليس بالقرب من بوغازكي، التي كانت معروفة، منذ أيام تيكسييه، كمكان تقوم فيه الآثار الهائلة الحجوم وحيث عثر شانتر، منذ 1883، على

1- G. Herbig, Wege und Ziele der hithitischen Sprachforschung, Breslau, 1922, S,5.

اللوحات الطينية، وكان الدلائل تشير إلى إمكانية تحقيق هذه الخطوة، وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر اقترح سايس ذلك المشروع على صديقه الألماني الذي كانوا يعتبرونه في كل مكان (ما عدا بلده حقاً) مجرد «حفار»، ونحن نتحدث هنا عن هنريخ شليمان، مكتشف طروادة. بيد أن ذلك الأخير لم يتمكن من تحقيق ذلك المشروع. فقد أهدرت سنون طويلة في المفاوضات المطولة مع الحكومة التركية وها هو ذا سايس يتسلم سنة 1905 الإذن لجامعة ليفربول بالقيام بالحفريات. وكان أعضاء البعثة في طريقهم عندما صعقتهم الأنباء القائلة بأن الأتراك قد سحبوا الإذن وأفردوا للإنكليز مكاناً جديداً للحفريات هو - كركميش. أما بوغازكي فقد خصصت للبعثة الألمانية التي أرسلتها الجمعية الشرقية الألمانية والتي كانت في حماية القيصر ويلهيلم الثاني نفسه. فلم يكن أمام الإنكليز سوى القيام بزيارة مجاملة إلى الألمان الذين كانوا قد وصلوا إلى بوغازكي ومن ثم مواصلة طريقهم إلى كركميش. غير أن نشاطهم لم يكن عديم الفائدة فقد استخرجت حفرياتهم نصوصاً هيروغليفية حثية جديدة أطوع للقراءة. أما ما هيأته الأقدار للبعثة الألمانية فكان في الحق حدثاً خارقاً للعادة.

كانت البعثة برئاسة هوغو فينكلير، وهو عالم آشوريات مجرب و «متشيعاً للبابليين[1]» لا يجارى وكان إنساناً مليئاً بالتناقضات وقليل الاختلاط بالناس. وعند بدء رحلته إلى بوغازليك كعالم آثار كان قد خلف وراءه عدداً من الدراسات الجادة وكان يمكنه أن يعتمد على تجربته الخاصة في القيام بالحفريات.

«تم كل شيء دون صعوبات تذكر، وكان بمقدورنا في اليوم الخامس أن نحتفل بوصولنا إلى بوغازكي. ولم يثر وصولنا اهتماماً خاصاً - فقد ألف الناس هنا رؤية السيّاح. يضاف إلى هذا أن الفلاح التركي أسمى تربية من أن يقف متفرجاً بفضول معيب على ما يحدث خارجاً عن المألوف. فمن شأن مثل هذه الظاهرة أن تكون سبباً في تحشد الجمهور لو حدثت في برلين، الأمر الذي من شأنه أيضاً أن يؤدي إلى تحرك قوات معتبرة من الشرطة. أما الإنسان الشرقي فإنه يرضع التربية الرفيعة الضمنية مع حليب أمه»[2].

وبعد الاستقبال الذي أقيم بكل الحرارة والفخامة الشرقيتين والذي نظمه ضياء بك، ممثل السلطات المحلية، لهوغو فينكلير انصرف هذا إلى أعماله. عثرت البعثة في المعبد الكبير في قرية بوغازكي التي تقوم مكان العاصمة القديمة لحاتوشاش على ما يزيد عن

1- أي أنه كان من أنصار الاتجاه الذي ظهر عند مطلع الدراسات الأشورية ويرى في الحضارة البابلية-الآشورية مهد الحضارة العالمية الحق.

2- H. Winckler, (Nach Boghasköi!) – (Der Alte Orient), Jg 14, S.17f.

عشر قطع لوحية فخارية كانت تمثل الأرشيف الحكومي لدولة الحثيين ومن بينها مجموعة معتبرة من النماذج المحفوظة بصورة جيدة، وقد كتب معظمها باللغة الأكادية، وهو ما يشير إلى أن مجال تأثير اللغة الأكادية كلغة دبلوماسية كان يصل في ذلك الوقت حتى العاصمة الحثية. وقد استطاع عالم الآشوريات أن يقرأ الوثائق المستخرجة وهو واقف في ذلك المكان واستطاع من ذلك المكان أن يشهد تاريخ الشرق القديم في ضوء جديد تمام الجدّة.

«كان هناك عرزال مغطى بأغصان الأشجار، وكان عليه لوحده أن يغمر بظله وبرودته دراساتي للألواح الطينية... وغير بعيد أقيم عرزال آخر أكبر حجماً وأكثر عمقاً في الأرض أنيطت به مهمة تأمين الحماية لخمس أنفس - ربما لم تعش في حياتها بطولها أجمل من تلك الأيام - وتلك كانت خيولنا! ومن الطبيعي أن مثل ذلك الجوار قد أنتج فيضاً من الذباب وهو ما منحني بدوره كثيراً من اللحظات السعيدة عندما كنت أنقل النصوص من لوحاتي الفخارّية وقد غمرت بالغطاء رأسي وارتديت قفازي وعندما كنت أنقطع عن الكتابة عند كل رمز لكي أكش عني تلك الحشرات الودودة التي كانت تظهر اهتماماً بالغاً بعملي. «ويضيف فينكلير ساخراً بعد ذلك» فبمثل هذا التوجس الكبير ينظرون في علومنا وكأنها محاولة للتجاوز على حقهم في الأولوية»[1].

لكن ذلك الساخر لم يكن منه إلا أن يخفف من حدة سخريته أمام تلك الكشوفات الرائعة التي قدمتها له أرض بوغازكي فكان عليه أن يأخذ قلمه لكي يسجل هذه المرة المغزى التاريخي المهم لاكتشافه.

وسرعان ما ولدت النظرة الأولى إلى قطع اللوحات الفخارية التي وضعت باللغة البابلية اليقين بان البعثة تقف على أرض العاصمة القديمة «لحكام حثي» للملوك الحثيين وأنها وضعت يدها على الأرشيف الملكي الذي يعود إلى مرحلة قيام العلاقات الوثيقة بين الحثيين والمصريين. «لم تكن النماذج الأولى تحمل بعد أسماء ملوك تلك المرحلة... إلاّ أننا كنا إزاء وقوع حادث لم يكن ينتظره أحد بل ولم يكن يجرؤ حتى على أن يحلم به. ففي العشرين من آب (أوغسطس) وبعد عشرين يوماً من بدء العمل تحركت الثلمة التي كنا قد أحدثناها في الجرف الجبلي ووصلت حتى جدار منطقة الحفر الأولى واكتشفنا تحتها لوحة في حالة رائعة من الحفظ وكان لها هيئة تبشر بالكثير من الأماني، كانت لحظة واحدة - وإذا بكل ما لدي من مقدرة على ضبط النفس اختزنتها خلال سنين طويلة، قد طارت في آنية واحدة، لقد

1- Ibid. S. 27f .

كان أمامي ما يمكن أن يحلم به الإنسان (أقول هذا مازحاً طبعاً) كهدية تنزل عليه من السماء، رمسيس يكتب إلى حاتّو سيلي... حول معاهدة بين الطرفين، حقاً كنا في الأيام الأخيرة نعثر على لوحات، تتزايد أعدادها، من القطع الصغيرة، يدور فيها الحديث عن معاهدات بين دولتين، لكن من خلال هذه اللوحة فقط توصلنا إلى توكيد أن المعاهدة الشهيرة المعروفة في الخط الهيروغليفي والمنقوشة على جدار معبد الكرنك كان يجب أن يكون لها تصديق لدى الطرف الآخر صاحب المعاهدة. رمسيس، وقد ذكر بجميع ألقابه وأنسابه وبكل الدقة التي وردت في نص المعاهدة، يكتب إلى حاتو سيلي... ومضمون الرسالة يتطابق حرفياً مع مقاطع المعاهدة...

من الصعب التعبير عن تلك المشاعر التي أخذت أنا، أنا لا سواي، أتفحص بها تلك الوثيقة. لقد مضت ثمانية عشر عاماً منذ أن تعرفت في متحف بولاق على رسالة أرتساوا والتي وجدت في العمارنة، إذ ذاك قدمت... افتراضاً بأن معاهدة رمسيس كان يمكن أن تكون قد وضعت بادئ الأمر بالإسفينية، وها أنذا أحمل بيدي واحدة من الرسائل، من المبادلات التي تمت بين الحاكمين وقد كانت مكتوبة بلغة بابلية جيدة وبإسفينات رائعة المظهر! لقد كان ذلك مصادفة نادرة حقاً في حياة إنسان واحد: ذلك الكشف الذي تم عند أول خطوة على أرض المشرق في مصر يجد تأكيده هنا في قلب آسيا الصغرى، كان ذلك اللقاء معجزياً شبيها بمصائر أبطال ألف ليلة وليلة. إلاّ أنّ العام الثاني قدم أحداثاً أكثر معجزية وأسطورية، عندما تم العثور على جميع الوثائق، وعندما خرجت من ظلام العصور تلك الشخصيات التي كثيراً ما شغلت خيالي تلك الأعوام الثمانية عشر... أجل، كان ذلك سلسلة من أكثر الظروف غرابة في حياة الإنسان[1].

في الحق أن جميع الكشوفات لم تكن مفهومة... وكان كل شيء صحيحاً - إن الكشوفات التي لا تقدر بثمن وإن الإخباريات التاريخية التي تم التوصل إلى قراءتها قد حطمت الاستنتاجات والتصورات السابقة، وإن نتائج الحملتين الثانية والثالثة بين (1911-1912) واللتين شارك فيهما فينكلير، الذي صار إلى أقصى درجات المرض، كانت مذهلة... ومع كل ذلك كان القسم الأعظم من الأشياء التي تم العثور عليها ممتنعاً على القراءة - اللهم إلا بعض الايديوغرامات الأكادية المنفصلة، (سبق أن أشرنا إلى الدرجة التي يسارع فيها الإسفين لنصرة الباحث فيسعفه بالايديوغرامات والمحدّدات).

1- Ibid. S. 29f.

ومن الطبيعي أنه ما كان ليغيب عن أعين الباحثين أن الحديث كان يدور هنا عن اللغة التي مثلت أمامهم في «رسالتي أرتساوا» الغامضتين. وبالإضافة إلى هذا كان من المفروض أن تكون تلك اللغة مماثلة للغة الهيروغليفات أو قريبة النسب منها وهذا ما افترضه كل من سايس وبايزير اللذين تعرّفا في وقتهما على اللوحات التي اكتشفهما شانترو.

تميزت السنوات الأخيرة قبيل بداية الحرب العالمية الأولى بالأبحاث الميدانية الناشطة، وعندما لعلعت الرصاصات في سيرايبفو كان المحصول الذي انتُهي من جنيه في حقول بوغازكي قد تجمع في متاحف برلين واستامبول.

وبعد وفاة فينكلير سنة 1914، وقبل أن تدور رحى الحرب قامت الجمعية الشرقية الألمانية بإرسال اثنين من العلماء الشبان وهما هـ. هـ. فيغولّو وبيدرجيخ غروزني إلى عاصمة العثمانيين من أجل استنساخ نصوص بوغازكي. أما الثاني منهما - وقد توفي منذ فترة قصيرة - فتيسَّر له أن توضع بحوزته النصوص الأطول ديباجة والأفضل حفظاً في متحف استامبول. وكان من نصيبه أن يكتشف ويشرح اللغة «المسمارية الحثية» وأن يبرهن أيضاً على أن الموضوع يدور في تلك الحالة عن لغة هندأوروبية على الرغم من أنها مجبولة جبلاً بكلمات دخيلة عليها يفترض أن تكون ذات مصدر من آسيا الصغرى.

ولد بيدرجيخ غروزني عام 1879 في مدينة ليسّا البوهيمية في الألب[1] ويعود بأصله إلى أسرة قسيس بروتستانتي تشيكي، وقد دخل المدرسة في مدينة كولين حيث لفت أنظار الدكتور يوستن ف. براشيك، أستاذ التاريخ والجغرافيا الذي كان قد حقق شهرة في حقل العلم، فأحاطه باهتمام خاص. ويبدو أن غروزني قد خضع لرغبة أبيه فبدأ بدراسة اللاهوت البروتستانتي، تلك المادة التي نفخت فيه، مثلما نفخت في الكثيرين، حب الشرق القديم، وبعد قليل من التفكير، يقوم غروزني، وقد أنهى المدرسة وتعلم العبرية القديمة والعربية، بتبديل كليته ويكرس نفسه منذ 1897 لدراسة اللغات الشرقية القديمة في جامعة فيينا. وكان أستاذه فيها عالم الساميات د. ج. موللير وكان أستاذاً واسع الثقافة جديراً بالاحترام ولا يزال طلابه حتى يومنا هذا معروفين كممثلين مشهورين لتخصصهم، وقد ناقش عنده سنة 1901 أطروحة الدبلوم بعنوان «النقوش العربية الجنوبية».

ومن الأمور المميّزة أن غروزني لم يكن في تلك السنوات المبكرة يطمح إلى أن يكون مجرد باحث بسيط في حقل اللغة، فقد بقيت دراسة النصوص وتفسيرها بالنسبة له حتى آخر

1- وليس في بولندا حسبما يفترض كورت ماريك كيرام في دراسته «الشرخ الضيق والجبل الأسود»
C.W.Ceram, Enge Schlucht und Schwarzer Berg, Hamburg. 1955.S.73.

سني حياته مجرد وسيلة للوصول إلى هدف آخر هو التعمق في دراسة الحضارات الشرقية القديمة، ومن أجل ذلك كان على عالم الساميات أن يلم إلماماً كاملاً بواحد من أهم فروع اختصاصه - وهو اللغة الأكادية (السامية الشرقية) التي كانت تكتب بالخط المسماري يضاف إلى هذا أن الوصول إليها كان يجب أن يتم عن طريق المصادر الأصلية. ولما كان قسم الآشوريات لم يفتتح بعد في فيينا فإنه توجه إلى برلين على أساس المنحة الخاصة التي قدمتها له النمسا، وهناك اتصل بـ ف. ديليتش ليتعلم من ذلك المعلم الذي تخرجت من عنده أجيال بكاملها، عادة قراءة الخط المسماري. وقد أكد غروزني للعالم بأسره فيما بعد أن المنحة لم تضع سدى، فعند عودته شغل منصب أمين المكتبة في جامعة فيينا وفيها أصبح أستاذاً مساعداً وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره عين أستاذا فوق العادة (من خارج النصاب) في جامعة فيينا.

كانت أعمال غروزني في تلك الفترة تتسم بخاصية تميزّها عن الأدبيات الآشورية ككل، فإذا كان معاصروه قد صبوا اهتمامهم كلياً على أساطير وديانات البابليين والآشوريين القدماء فإنه وجه كل اهتمامه نحو النواحي الاقتصادية من تاريخ هذه الشعوب وكان في هذه الناحية مجدداً تمام التجديد وهو صاحب الدراسة المثيرة للنقاش بعنوان «حول النظام النقدي عند البابليين» (1911) بالإضافة إلى دراسة يتردد ذكرها كثيراً بعنوان «زراعات الحبوب في بابل القديمة» وهو عمل بالغ الثراء مدروس الجوانب، إلا أنه بقي للأسف غير مكتمل. وكان المؤلف ينظر إلى هاتين الدراستين كمرحلة تمهيدية لكتابة بحث شامل بعنوان «تاريخ حضارة آسيا الصغرى». وهكذا، ومن خلال ذلك العمل الذي دام سنين طويلة والذي قطع مرة واحدة فقط سنة 1904 عندما سافر صاحبه إلى المشرق برفقة ايرنست زيلين كانت تتعمق وتشتد معارف غروزني وتتدرب ذاكرته التي كانت، بشهادة معاصريه، خارقة للعادة. كما أنه زاد بنفسه من تعميق تلك المقدرة التي أكدها بصورة قاطعة في عمله على اللوحات المسمارية المنقولة من بوغازكي إلى متحف استامبول.

سبق وأشرنا إلى أن غروزني قد التقى هناك بنصوص مطولة من النوع الذي حفظ بصورة جيدة. وكوسائل مساعدة تذكر إلى حد ما بنصوص مزدوجة اللغة كانت هناك قطع من «المعاجم» أي الأدلاء، وهي شبيهة بالمعاجم السومرية - الأكادية التي التقينا بها في الفصل الخاص بالكتابة المسمارية في ما بين النهرين. وقد أضاف الحثيون إليها عموداً جديداً، حثياً. بيد أن ذلك لم يكن يقدّم من العون إلاّ القليل، ذلك أن تلك المعاجم - الدلائل ما كانت تورد

إلا المفردات النادرة الاستعمال وكانت تترك الباحث، ضحية للأقدار كلما أراد أن يشغل نفسه: بالمفردات الأكثر استعمالاً ووروداً في النص.

لهذا انصرف غروزني، وبكل وعي منه إلى تركيز كل اهتمامه على النصوص وتعامل مع كل منها على أنه وحدة كاملة متكاملة أملاً في أن يستخرج منها المعلومات الخاصة ببناء اللغة نفسها.

وهكذا فإن حدسه الوليد وعبقريته الخلاقة وذكاءه المشرق فيما يتعلق بالحقائق وضعت بمجموعها على محك التجربة كما أن هذه المادة خضعت بدورها لاختبار العالم، وكان اختباراً موضوعياً في الحدود الممكنة. والحق أن غروزني خمن في بداية أمره أن يكتشف اللغة القوقازية وكان تخمينه متسقاً مع مستوى العلم في ذلك الوقت.

كانت بعض الايديوغرامات معروفة بالنسبة لغروزني إلا أنها لم تستطع في حد ذاتها أن تقدم أي دفع في ميدان شرح اللغة ما دامت لا تستطيع - كما هو معروف - أن تقدم لفظ الأحرف.

أما ما كان يثير أعمق التأملات فكان تلك التبدلات التي تحدث لنفس الكلمات وبخاصة منها ما يسمى بالنهايات المتحولة فقد كانت تطالب دوماً بالفرضيات القائلة بأن اللغة الحثية ذات صيغ قواعدية تقربها من اللغات الهندأوروبية!.

إلا أن غروزني لم يجرؤ على التصريح بذلك فمنذ فترة قصيرة كان يرى في ذلك تطاولاً. وقد حاول كنودتسون أن يقوم بتأكيد مثل هذا التشابه من خلال «رسالتي أرتساوا» فبماذا انتهى أمره؟ بالتنازل عن نظريته تحت نيران النقد التي وجهت إليه من كل صوب.

إلا أن هذه التصورات بمجموعها لم تعق غروزني عن تسجيل ملاحظاته بصورة دقيقة وشاملة وأن يسير على اثر تلك الخطى التي قادته في ذلك الاتجاه. وأخذت هذه الملاحظات تتضاعف أمام عينيه حتى اتخذت تدريجياً صيغة سلسلة حقيقية من البراهين.

إلا أن ثقته الكاملة جاءت بعد قراءته لجملة واحدة فقط. وكان ذاك اكتشافاً انقض كالصاعقة على صاحبه، وهزه هزاً أحس إزاءه بالرعب. فقد كانت تلك القراءة حجر الزاوية بالنسبة لفك الرموز وهي تشترك في ذلك مع جميع النقاط الانعطافية المشابهة في أعمال فك رموز الكتابات (فلنستذكر - رسمي بطليموس وكليوباترة الشامبليونيين ورسمي داريوس وكسيركس الغروتيفنديين) وهو ما يبدو لنا الآن بسيطاً إلى حد لا مجال بعده.

أما الجملة التي اجتذبت انتباهه فجأة ولمدة طويلة فكانت تقرأ هكذا:

nu- *-an e-iz-za-at-te-ni wa-a-tar-ma e-ku-ut-te-ni*

فـ هي ايدوغراما سومرية - بابلية وهي كما هو معروف من خلال كتابتها اللفظية *ninda* وتعني الخبز، وعلى هذا فإننا إذا ما استبدلنا تلك الأيديوغراما بمعناها العربي وأحلنا جميع أشكال الكتابة المسمارية المقطعية إلى اللفظ الحقيقي للكلمات المنفصلة توصلنا إلى القراءة التالية:

nu خبز *- an ezzā tteni wadar - ma ekuteni.*

فالحديث إذن يدور حول الخبز، وإذا ما أخذنا بالنهاية *an* لهذه الكلمة فإنها تؤدي وظيفة الأخبار في الجملة (وعلى فكرة، فأن هذا المثال يستعرض بأفضل صورة استعداد الإسفينية لتقديم العون للباحث في اللغة المجهولة). ولكن هل بالإمكان أن نجد فعلاً - خبراً يتسق مع الكلمة المضافة «خبز» أفضل من فعل أَكَلَ *ezzā tteni*!... وهل يصدق العقل أن يكون هناك حقاً شيء يتجاوز «الكلام الفارغ القائم على مجرد التشابه اللفظي» ليكون صلة نسب حقيقية؟ ويجول غروزني في ذاكرته بجميع المطابقات الهندأوروبية التي تستيقظ في ذاكرته - فها هو ذا الفعل الألماني *essen* واليوناني *edein* واللاتيني *edere* والفعل الألماني الشماليْ... هو ذا الفعل الألماني الشمالي القديم *ezzen*!

وتتسمّر أنظار غروزني المنفعل مرة ثانية على الجملة وكمستشرق مجرب يبدأ بتجربة «متانة البناء» ... وأخيراً وجدت الثلمة!

ويقفز أمام عيني الباحث البناء المكون من شطرين والذي كان نموذجاً بالنسبة للغات الشرق القديمة:

nu خبز *-an ezzā tteni WĀ DAR - ma ekuteni*

ألا تتألف هذه «الجملة» يا ترى من جملتين متشابهتين في البناء! وإذا كان الأمر كذلك ألا يمكن أن تتطابق كلمة *WĀ DAR* مع كلمة *watar* الألمانية الجنوبية القديمة «ماء»؟ إذ ذاك يمكن لـ *ekuteni* أن يعني «شرب» وفقاً لقانون التشابه مع «أكل»؟

أما ما يخص النهاية الفعلية *teni* والظرف *un* والعاطف *ma* المتصل بالكلمة السابقة فقد كان غروزني يفترض أن يتوصل إلى معناها جميعاً أثناء دراسته لأماكن أخرى في النص.

وأمام البصيرة الروحية للباحث وبسرعة البرق بدأ يتوضع البناء كله من حجيرات صغيرة وفي أذنيه بدأ يتردد صدى أول جملة تمت قراءتها وفهمها وكأنه يصل إلى سمعه من غياهب ما يزيد عن الثلاثة آلاف سنة: «والآن كلوا خبزكم».

كان غروزني يعي أن كشفه سيجذب إليه الأنظار ويثير الكثير من المعارضة - وبكلمة واحدة سيكون الهزة العلمية ذات الرقم - واحد. إلا أنه لم يستطع أن يحيد عن

الطريق الذي شقه ومهده بنفسه - وأخيراً تجمع لديه من الشواهد التي تؤيد نظريته الهندأوروبية أو الهندوجرمانية، كما كانوا يميلون إلى تسميتها آنذاك، عدد اخذ بعضه يزحم بعضاً لكثرته، وكان من بينها بعض الظواهر المدهشة كالتحول الطريف بين *r* و *n* في حالتي الاسمية والإضافة وهو أمر معروف من اللغتين اليونانية واللاتينية (قارن *hydor* اليونانية *hydatos* في حالة الإضافة من *hydantos* «الماء» وقارن الكلمتين اللاتينيتين *femur* و *feminis* «حوض»، «فخذ» ويشير غروزني في هذا الصدد بقوله: «... كان من الصعب أن يتمنى المرء برهاناً أكثر قوة في صالح هندو- جرمانية اللغة الحثية»[1]. وبالإضافة إلى ذلك تم التوصل إلى اكتشاف بعض التطابقات المذهلة في ميدان الضمائر وتصاريف الأفعال.

أما اليوم الذي قدم فيه غروزني تقريره عن النتائج التي توصل إليها إلى جمعية آسيا الصغرى في برلين وكان ذلك في الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1945م فكان «اليوم الحقيقي لميلاد علم الحثيات» على حد قول عالم الآشوريات الشهير ايرنست فيدنير في مقاله الرائع بمناسبة وفاة زميله المجيد.

وفي كانون الأول (ديسمبر) من نفس العام نشر التقرير الأولي لغروزني في «دوريات الجمعية الشرقية الألمانية» بعنوان «حل المشكلة الحثية» وبعد عامين صدرت الدراسة مزيدة في لايبزيغ باسم «لغة الحثيين، بناؤها وانتمائها إلى مجموعة اللغات الهندأوروبية» وكانت تلك الدراسة الكلاسيكية تمثل دون شك قمة النشاط العلمي لغروزني.

ولم يكن غروزني قد أتم بعد تحريره النهائي «للتقرير الأولي» عندما استدعى للخدمة العسكرية.

وقد واكب الحظ حقاً ذلك الغروزني ما دام قد لقي في الجيش «الإمبراطوري والملكي» العائد للإمبراطورية النمساوية القادة اللبقين وذوي المروءة فلم يتسن له فقط كتابة «تقريره الأولي» ودراسته الأساسية «لغة الحثيين» بل وأن يقيم أسابيع بكاملها في متحف ستامبول دون أن يخرج منه وهو يقارن النصوص المسمارية ويدرسها.

ومع كل هذا فقد كانت أعمال غروزني تعاني من نقص واحد ذلك أنه قد عهد إليه في ذلك الوقت بدراسة نصوص بوغازكي كعالم آشوريات أي كعالم لغوي متخصص في الساميات؟ وإذا به يلاحظ، لعظيم دهشته، أن كافة المظاهر تتجه في صالح لغة هندأوروبية (أي غير سامية). وإذا كانت قراءة النصوص المسمارية تمثل اختصاصه الضيق فإنه لم يكن

1- Mitteilungen der Dutshchen Orientgesellschaft- Bd 56, 1915, S.25.

متضلعاً في اللغات الهندأوروبية. ولهذا يجدر بنا أن نكبر ما أنجزه في توضيح الظواهر التي اكتشفها، وبودّنا أن نؤكد هذه الخاصّية بقوة أكبر الآن من أجل أولئك الذين يميلون كثيراً إلى أن ينظروا إلى غروزني في ضوء أعماله الأخيرة التي لم تصب الكثير من النجاح.

بيد أنه كان يستجيب منذ بواكير أعماله لاغراءات اعتبار تلك العلاقات التي كان يبحث عنها في التشابه الصوتي للكلمات، أمراً واقعاً، ولهذا فإن اللوحة العامة لتلك اللغة الهندأوروبية الميالة ميلاً شديداً نحو اللا هندأوروبية والتي رسمها على هذا الأساس صحيحة في الأسس لكنها مفككة في التفاصيل.

وإلى تلك النقطة الضعيفة كانت توجه الطعنات الشديدة العنف وخاصة من جانب المختصين في الدراسات اللغوية المقارنة، والحق إنهم ما كانوا ينجحون دوماً في إصابة الهدف، وقد صفى غروزني حسابه مرة مع أحد معارضيه بتورية ساخرة في تقريره حول تاريخ النصوص الحثية وخطوات قراءتها والذي قدمه في السوربون في 14 آذار (مارس) 1931!. فقد ذكر أن أحد العلماء الثقات عارض نظامه مؤكداً على أن *wadar* لا يمكن أن تعني «ماء» «فالصوتي الأول من هذه الكلمة طويل في اللغة الحثية وهو أمر لا يمكن حدوثه مطلقاً في اللغات الهندأوروبية. من هذا نصل إلى الجزم بأن نظرية غروزني باطلة من أساسها!».

ومن الطبيعي أن تلك النظرية لم تكن كذلك على الإطلاق، بل إن تلك النظرية كانت الأساس الذي لا يتزعزع والذي لا يترك مكاناً لأي ذرة من الشك إلا أنها كانت بحاجة إلى التقصي الفيلولوجي الصارم وإلى التمحيص من قبل الأخصائيين. وقد لذلك كل من الباحثين ف. زومّير، ج. يخيلولْف، إ. فورّير، إ. فريدريخ، آ. غوتسي وإ. خ. ستورتيفانت وساروا بالعمل حتى نهايته معتمدين على اكتشافات غروزني. والآن يمثل علم الحثيات أمامنا علماً مستقلاً حتى وبالمفهوم الضيق للكلمة.

وهكذا مزق حجاب الصمت عن أرشيف بوغازكي بكامله فلم تنطق اللوحات الأكادية فحسب بل واللوحات الكيتية أيضاً. فقدمت إضافات مهمة جداً إلى معارفنا التاريخية وبخاصة ما يتعلق منها بتاريخ الشرق القديم. ولنا عودة إلى هذه النقطة فيما بعد.

ولكي نستعرض ذلك الخليط الطريف من الأيدوغرامات السّومرية ومن الكلمات الأكادية والكلمات الحثية المكتوبة لفظياً والذي تقدمه النصوص الحثية المسمارية نعرض في ما يلي أنموذجاً يقدم للقارئ مثالاً واضحاً عن ما كان غروزني يصطرع معه. ويقدم هذا النموذج في العرض المبسّط الذي قدمه إ. فريدريخ السالف الذكر، وهو مأخوذ من أحد بنود نص قضائي حثي.

«tá k-ku LÚ ULÙLU -an EL LUM QA AZ. ZU. na- aš -ma GÍ R-SU ku-iš -ki tu-wa-ar-ni-iz-zi nu-aš -š e 20 GÍ N KUBABBAR -pa- a-i.»

«إذا كسر إنسان يد إنسان حرّ أو رجله، يعطيه 20 شاقلاً من الفضة» [إذا لإنسانٍ حرٍ يَدَه أو رجله أحدُهم يكسر، فـ 20 شاقلاً من الفضة يعطيه].

في هذا النص قدم أساس كلمة «إنسان» بواسطة الايديوغراما السّومرية *lu- ULULU* وهي مكتوبة لفظياً وأضيفت إليها النهاية الحثية بحالة المفعول *an* أما *El- lum* «حرّ» فكتبت بالأكادية كما كتبت *QA.AZ.ZU* «يده» بالأكادية أيضاً بينما عُبّر عن الأساس في كلمة *GÍ R-SU* «رجله» بالايديوغراما السومرية *GÍ R* وعبر عن النهاية بلاصقة «*SU*» -خاصته. وهي لاصقة أكادية تعود إلى ضمير الملكية. أما مقدار العقوبة وهو *20 GÍ N KUBABBAR* فكتبت بلغة سومرية صرفة وكتبت *takku* «إذا» *naš ma* «أو» *kuiš ki* «أحدهم»، *TUWARNIZZI* «هويكسر»، «*nu-š š e*» «له إذن» و *pui* «هو يقدم» فكتبت بالكتابة الحثية اللفظية[1]!

وكما نلاحظ فإن الحرب لم تقطع الأبحاث في معسكر دول المحور، بيد أنهم في المعسكر الآخر لم يجلسوا مكتوفي الأيدي، إلا أن العلماء الحلفاء لم يكونوا مشغولين بالكشوفات المسمارية الحثية (فقد كانت لوقت ما في غير متناول اليد بسبب حفظها في ألمانيا وستامبول)، إلا أنهم كانوا يعملون على حل الرموز الهيروغليفية التي تسنّى لهم جمعها قبل بداية الحرب مباشرة.

كان الإنكليزي ر. تومبسون قد أذاع على العالم قبل نشوب الحرب نبأ «حل جديد للهيروغليفات الحثية» وقام بمحاولة مبّررة تماماً وإن كانت سابقة لأوانها من أجل استخدام كافة الإمكانات التي يمكن أن تضعها اللغة المسمارية الحثية بين يدي الباحث لفهم الهيروغليفات. لكن المشكلة كانت تنحصر في أن تلك اللغة لم تكن قد قرئت بعد بل ولم تكن معروفة إلا بصورة تقريبية في «رسالتي أرتساوا». وقد أصيب تومبسون بالخيبة لأن قسماً من الكلمات الحثية في تينك الرسالتين كان قد قرئ بصورة خاطئة وكان القسم الآخر قد استخرج بصورة خاطئة أيضاً. ومع كل ذلك فقد سجل في خانة المداخيل الدائمة القراءة نصف الصحيحة لبعض المراكز المأهولة بالسكان، تلك القراءة التي استقاها من المصادر الآشورية كما سجل اكتشاف واحد من المحدّدات (التي لا توضع بصورة دائمة لأسماء الأعلام)، ولكن قبل أن تجري التجارب الجديدة على الهيروغليفات اندفع العالم اللغوي السويسري ايميل فورّير في التيار السريع للغة المسمارية الحثية الحديثة الاكتشاف وقد نشر في «تقارير

1- J.Friedrich, Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen, S. 60f.

أكاديمية العلوم في برلين» (وكان يعمل آنذال في ألمانيا) مقالاً يحمل عنواناً صاعقاً هو «اللغات الثماني في كتابات بوغازكي» (1919).

كان اسم المقال غامضاً بادئ الأمر وهو أمر لا يمكن أن نقوله عن تلك الدراسة الفنية والمعتبرة. فقد وضع بين اللغات الثماني اللغتين السّومرية والأكادية طبعاً وعلى هذا تتبقى ست أخرى. وبالإضافة إلى ذلك تضمنت النصوص مجموعة كاملة من المصطلحات الهندية من ميدان تربية الخيول وترويضها. وعند دراسته لتلك اللغات الخمس يطرح فوريّر مفاجأة جديدة يمكن تلخيصها بهذه العبارة الموجزة: إن اللغة الحثية ليست حثية.

وفسّر فورّير نظريته بما يلي: إن الحثيين، وفق معطيات لغتهم، هندأوروبيون. وهذا يعني أنهم، بناء على كل المعلومات التي نملكها حول هذه المجموعة، ما كان يمكن أن يكونوا من السكان الأصليين في آسيا الصغرى بل كان لا بد أن ينتقلوا إليها في يوم ما. أما اللغة التي تظهر الآن من خلال نصوص بعض اللوحات في بوغازكي فكانت لغة السكان الأصليين لتلك البلاد أما أماكن ورودها في النصوص والتي كنا نلتقي بها فكانت مميزة بـ «الحثيلي» أو «بالحاثية» أي باللغة الحثية وتلك الكلمة مشتقة دون شك من اسم البلاد - حتّي، وعلى هذا فإن الناس الذين كانوا يتكلمون باللغة الحثية أو «الحاثية» كانوا الحاثيين أو الحثيين الحقيقيين. أما ما يتعلق بالكتابة «المسمارية الحثية» الهندأوروبية والتي كانت تشغل أكثر من تسعين بالمئة من النصوص المسمارية فقد اقترح فورير لها أسم اللغة «الكانية» وذلك وفقاً لاسم إحدى المدن الحثية.

غير أن المصطلح لم يتأصّل. إذ إن الشعب الهندأوروبي الغازي (ونحن لا نعرف حتى الآن بماذا كان يسمي نفسه) يتلقى في الأوساط العلمية اسم «الحثيين». وقد ترسخ هذا المصطلح إلى درجة يصعب معها التخلي عنه بسهولة. ولهذا فقد اصطلحوا الآن على تسمية الشعب الذي كان قبل الحثيين باسم «ما قبل الحثيين» ولغته بـ «ما قبل الحثية».

أما فورير، الذي توصل إلى آرائه بنتيجة استقراء جميع النصوص البوغازكية فقد نال الاعتراف به من جانب البروفيسور غروزني بعد عام واحد.

ومن بين اللغات التي تم اكتشافها حديثاً والتي عثر عليها فوق الآثار الموغلة في القدم في بوغازكي يمكن الإشارة إلى اللغة الحورية أو الحوريتية («الحارية» سابقاً)، تلك اللغة الهندأوروبية التي تكاد تكون غير مفهومة بعد؟ واللغة الشديدة القرب من الحثية المسمارية (النيسيّة) وهي اللغة اللوبية الهندأوروبية التي يعكفون الآن على شرحها بنجاح في الفترة

الأخيرة، وأخيراً اللغة البالّية الهندأوروبية الطابع - لغة مدينة بالا وضواحيها والتي لم تخرج دراستها عن طور المرحلة الابتدائية بعد.

تقدم فورير بكشفه الرائع الأول هذا سنة 1919 وفي سنة 1920 أكد غروزني ذلك بعد أن توصل إلى مثل هذه النتيجة بطريقة مستقلة عن فورير.

وتتطابق تلك السنة مع موعد المحاولة الجديدة لحل الهيروغليفات (وإن يكن صاحبها قد فكر فيها قبل ذلك بعامين) وكان الذي قام بها من المستشرقين الإنكليزي آ. إ كاولي وكان في دراسته قد أغفل، وبوعي كامل منه، الفرضية القائلة بالقراءة المحتملة فكيف بالتطابق الكامل، بين الحثية المسمارية والحثية الهيروغليفية، وذلك ما كان قد انتهى إليه من خلال آراء فورير وغروزني، فلم يعتمد إلا على المادة التي أصدرها ميسّيرشميدت وعلى الآثار التي تم العثور عليها في كركميش. كما عزف في أبحاثه عن الأخذ بتسمية تلك المدينة. وقد اشتملت دراسته على عدد من الإنجازات المحدّدة بالإضافة إلى ما فيها من أخطاء، فقد حدد رمز () الذي كان غالباً ما ينظر إليه في السابق على أنه محدد «الإله» ()، بأنه حرف العطف الملتصق «و» والذي يقرأ الآن *ha* (ويطابق *que* اللاتيني) وقد افترض بعد ذلك بأن ما يسمى «بالشّوكة» أي الشّرطة المنحية المرسومة فوق العلامة يمكن أن تقرأ *r*.

وانطلق عالم الآشوريات الألماني كارل فرانك من منطلقات أخرى وكان قد شرع بدراسة الهيروغليفات الحثية سنة 1923. وكانت دراسة الكتابات السرية والرموز والشفرات المستخدمة في الحرب العالمية الأولى قد بيّنت أن تنسيق المواد المقدمة وتحليلها يمكن أن يعودا على عمليات قراءة الرموز بنجاح معقول. وبكثير من الحذر والدقة أخذ فرانك يعد القوائم بأسماء الآلهة والأشخاص بالإضافة إلى أسماء البلدان والمدن، وتمكن بهذا من قراءة عدد من المسميات الجغرافية على الوجه الصحيح. إلاّ أن القناعة التي أخذت تلاقي انتشاراً وتقول بأن لغة المدونات الهيروغليفية لا تتطابق مع لغة النصوص المسمارية الحثية جعلت فرانك يعتبر مقولة فورير البسيطة مجرد فرضية واعتبر خطأً بأن لغة النصوص الهيروغليفية هي اللغة الحوريّة.

وبالإضافة إلى هذا كان بالإمكان توجيه اللوم إلى فرانك على أنه منذ البداية أعار اهتماماً زائداً لقراءة الأصوات واهتماماً أقل لإيضاح وفهم الرسوم كوحدات مستقلة متكاملة، ويمكن أن يسجل على حسابه عدد آخر من الأخطاء وهو ما قام به، للأسف الشديد، وبصيغة عنيفة ومهينة، بيتر ايينسين الذي كان ما يزال يدرس الهيروغليفات وينظر إليها، بحكم العادة، على أنها ملكه الخاصّ على الرغم من كونه لم يتدخل في عملية قراءة الرموز خلال عدد من السنين. إن ذلك العالم القديم الذي كان يسير في طريق لم يستطع، بل

ولم يبغ أن يقتفي أثره فيها واحد من زملائه، انتهى إلى أن انهار وإلى أن نسي كل موضوعية علمية فانتقل إلى التهجّم الشخصي واشتمل أحد هجوماته قوله: «لا يتبقى في أمثال هذه الحالة غير وضع القلم بعد أن يتضرج الوجه إحساساً بالعار» وقد قام فرانك بالتصدي لهذه الهجومات بأسلوب هادئ بادئ الأمر، غير أن صبره نفد أيضاً عندما أخذ ايينسين، من خلال عناده المعروف، يتفاخر بفهمه للهيروغليفات كايديوغرامات وكألقاب يتلو أحدها الآخر وكسلاسل بسيطة للألقاب فتساءل بلهجة لا تخلو من الغمز: أليس علينا أن نفهم كيف تظهر أمثال هذه الألقاب الملكية وكل تلك الأعداد الكبيرة من رؤوس الحمير والثيران بكل هذه الكثرة في النصوص الطويلة؟

ومن المؤسف أن يكون فإن المريد الوحيد لايينسين والذي أخذ يشاركه مشاركة مباشرة وفعالة في أشد ضلالاته هو سايس - رائد كل عمليات قراءة الرموز وطليعتها، مَن ربَّى أجيالاً من العلماء، وقد أخذ يواصل أعماله وينشر أبحاثه بعد أن تقدمت به السن بل وقام مرة بمحاولة الترجمة «الحرفية» المترابطة. إلا أن مقالاته التي كتبها بين 1920-1930 بقيت بالنسبة للرعيل الفتي من العلماء الذين دخلوا علم الحثيات في تلك السنوات صدى لشيخوخته الشيباء.

وفي سنة 1930، وقبيل وفاة سايس (توفي في 4 شباط 1933 عن 83 عاماً من العمر) تحققت قفزة كبرى في ميدان العلم، على أيدي عدد من العلماء قام بها كل على حدة.

ونتيجة لهذا الإلحاح أقيم الأساس الثابت لقراءة رموز الهيروغليفات الحثية وبمقدار ما كان ذلك ممكناً على أساس المواد التي تم جمعها حتى ذلك الحين فإن ترجمات مهمة كان قد تم الحصول عليها. لقد حقق القفزة خمسة من العلماء يمثلون خمسة شعوب هي - الإيطالي والأمريكي والسويسري والألماني والتشيكي. وقد انطلق كل منهم في ميدان قراءة الرموز الذي مال إلى الركود بعد تلك الملاحاة المعيبة بين ايبسين وفرانك. أما الرجل الذي قام بإزاحة الثلوج بضربة واحدة وأثار ذلك الانهيار الثلجي الضخم فقد كان من هامبورغ. لا فهامبورغ ليست وطنه. إنه ابن إيطاليا.

إننا نقصد بييرو ميريدجي الذي يعلّم الآن في جامعة بافيا وهو عالم لغات عالمي الصيت، أحد قارئي الهيروغليفات الحثية وواضعي قواعد اللغتين الليكية والليدية وناشر النصوص الكريتية - الميكينية والباحث في كتابة وادي الهند الغامضة واللغة اللوبية التي ما تزال غير معروفة بعد.

كان تشيزاري ميريدجي، أبو بييرو الصغير، ومعلم اللغة الإيطالية في بافيا، رجلاً متعدد المواهب، إذ كانت اهتماماته تشمل أكثر جوانب العلم تبايناً حتى أن علم الميكانيك لم يكن يشغل آخر ميادينه، والطريف أنه كان يندفع في كل فرع من فروع المعرفة بكل غيرة ومنهجية حتى أن ابنه يعدّه حتى الآن «أفضل أستاذ له في المنهج العلمي». وبالمناسبة إن فكرة اختراع اللغة العالمية كانت تشغل تشيزاري ميريدجي مثلما تشغل غيره من العلماء وكانت الدراسات اللغوية العامة أكثر القراءات إيثاراً لديه. مثل هذا الجو المناسب الذي يعطينا كامل الحق أن نسميه جو التشبع المنزلي الذي نمت وترعرعت فيه مواهب بييرو.

وقد بلغ من تأثير هذا الجو على ميريدجي الشاب أن أخذ ذلك الطالب الفتي ينكب بعد نهاية الحرب العالمية الأولى على دراسة الفيلولوجيا الكلاسكية وبخاصة اللغة اليونانية ويبدأ بالاستعداد لمناقشة بحث في اللغات المقارنة عند عالم السنسكريت ل. سوالي المتوفى حالياً، وكان قد لفت انتباه ميريدجي إلى دراسة عدد من الموضوعات التي كانت مثار الجدل آنذاك والمتعلقة باللغة الليكية، وبينّ له معالم الطريق نحو الشرق القديم، وعندما تلقى ميريدجي من سوالي بطاقة السفر نحو آسيا الصغرى (فليكيا - موضع يقع جنوب آسيا الصغرى)، كان أستاذه بل. فراكّارو قد بدأ بقراءة محاضراته حول الحثيين.

كان ينظر إليهم آنذاك على أنهم الحديد «الذي يجب أن يضرب ما دام ساخناً» وما إن ذاعت قراءة غروزني حتى صارت موضوع أشد المناقشات حدة، لكن إذا كان بالإمكان القول بأن الكتابة الحثية المسمارية قد قرئت فلم يكن ذلك ممكناً قوله بالنسبة للكتابة الهيروغليفية. وقد التفت بييرو ميريدجي إلى هذه الكتابة. والسبب في ذلك كما أشار فيما بعد يعود في الدرجة الأولى إلى أن دراسة علم الآشوريات، تلك الدراسة التي لا بد منها عند دراسة المسماريات الحثية، كانت مستحيلة المنال في إيطاليا. إلا أن من المحتمل الافتراض بأن ما أغراه قبل كل شيء كان الآماد التي لا نهاية لها. فبعد إنهاء المدرسة العليا عمل ميريدجي أستاذاً في مدرسة ثانوية لمدة عام واحد ثم تحول لتعليم اللغة الإيطالية في جامعة هامبورغ. وهناك كانت بانتظاره مجموعة من الواجبات غير المرهقة مما أتاح له الفرصة للعمل المستقل، وهناك، وبالعون العلمي الذي قدمه له العلماء الذائعو الصيت قام بإسهامه المهم في موضوع قراءة رموز الهيروغليفات الحثية، ذلك العمل الذي صاغ له اسماً في عالم الفيلولوجيا.

«بدأت قبل كل شيء بالهيروغليفات»، وقد انطلق ميريدجي من دراسة نمط الكتابة وذلك بعد تذكرّه سابقيه. وفي أيلول (سبتمبر) من سنة 1927 وصلت بحوثه الدقيقة إلى نتائج رأى أنها جديرة بأن تنشر على أوسع نطاق. وفي بداية آذار (مارس) سنة 1928 زار غ. يخيلوڤ

في برلين وأكد له ذاك بأن المظاهر التي اكتشفها تجد ما يوازيها في الحثية المسمارية. فشد ذلك من عزيمته فتقدم بدراسته أمام المحافل الاجتماعية. وقد كتب إ. فريدريخ سنة 1939 وهو يتذكر ذلك الحدث فقال: «عندما أعرب عالم اللغات الإيطالي الشاب سنة 1928 عن نيته في أن يدخل في جدول أعمال مجموعة المستشرقين الألمان في بون.. دراسة مسبقة.. جديدة لقراءة رموز هذه الكتابة (الهيروغليفات الحثية - المؤلف) كان هناك رجل واحد على الأقل، وهو كاتب هذه الأسطر، ينظر إلى ذلك القرار بكثير من التشكك»[1] بيد أنه سرعان ما ظهر بأن ذلك التشكك عديم الأساس، وقد قام ذلك الـ إ. فريدريخ بنفسه بفتح الباب للشاب الإيطالي نحو «مجلة الآشوريات» الألمانية الرائدة حيث ظهر سنة 1930 تقريره الذي سبق أن قرأه في برلين. وفيه يناقش ميريدجي المسائل الأساسية باهتمام خاص. فهو يقدم دراسة إحصائية للعلامات الأساسية ويدرس توضعاتها في داخل الحدود التي ترسمها الفواصل بين الكلمات واتصالاتها عن طريق الـ «شوكة» وعند ذاك حاول ميريدجي تحديد طبيعة العلامات (أهي علامات لفظية أم أيديوغرامات). أما عند القراءة فاقترب من أسلافه فوقع في ربقة تصورات ابينسين الخاطئة حتى أنه لم يجرؤ على رفض قراءته بـ «سيينّيس» بيد أنه أشار في ختام رسالته قائلاً: «أرى من الضروري أن أضيف في الختام وكجزء أساسي في هذا المقال إلى أنني قد حددت حسب رأيي كلمة» ابن «في مجموعة من العلامات»[2].

إن من يذكر الكيفية التي بدأ بها غروتيفيند بإمكانه أن يقدر الإمكانات التي كانت تثوي في هذا الاكتشاف: فهنا تظهر نظرة جديدة نحو التعضي التركيبي للغة، وقبل كل شيء يظهر توضيح حقائق تاريخية بالغة الأهمية - فبهذه الطريقة استسلمت للقراءة أسر لغوية وكان هذا يعني أنه صار بالإمكان، وبصورة علميةّ، تحديد أسماء سلالات من كركميش وحماه بتسلسل صحيح. كما أن ذلك الظرف الأخير قد مكّن بدوره من مقارنة هذه السلالات بالأرتال المتسلسلة لأسماء الملوك والتي تم استنباطها من النصوص المسمارية ومهد الشروط للقراءة الصحيحة لأسماء الملوك.

كيف تصرّف ميريدجي؟ لقد قام بكل دقة بمقارنة الجزأين الأولين من اثنين من الرسوم وتحليلهما. وظهر أن في بداية كل منهما (كان النصان يعودان إلى كركميش وكانا في ذلك الوقت، أي قبل العثور على الثنائيات اللغوية، أطول نصين حاز عليهما العلم) تظهر ثلاثة أسماء، يتبع كل منها بصفات مختلفة كانت واحدة من بينها مشتركة بالنسبة

1- J.Friedrich. Entzifferungsgeschichte der hethitis chen Hieroglyphenschrift. S.25.
2- P.Meriggi, Die hethitische Hieroglyphenschrift, - Zeitschrift fur Assyriologie , N. F. Bd V (xxxiv), 1939. S.199.

للأسماء الثلاثة - وهو ما فسّره ميريدجي بلقب «ملك البلاد» أما بالنسبة للاسم الأول فقد ظهر (كما يظهر في الشكل 58) في نهاية اللقب بينما اختلف الأمر بالنسبة للاسمين الثاني والثالث. فقد أضيفت في كلا الحالتين كلمة تالية إلى لقب «ملك البلاد» كما أنهما بدآ بعلامة واحدة متشابهة، وهذا يعني أن الحديث يدور عن كلمتين من جذر واحد. «وإزاء هذا التوضع للأمور كان من أبسط الأمور افتراض وجود كلمتي «ابن» و «حفيد». في كلتا الحالتين لا سيما وأن ما يدعم ذلك هو التجانس الواضح في الجذر بين هاتين الكلمتين»[1].

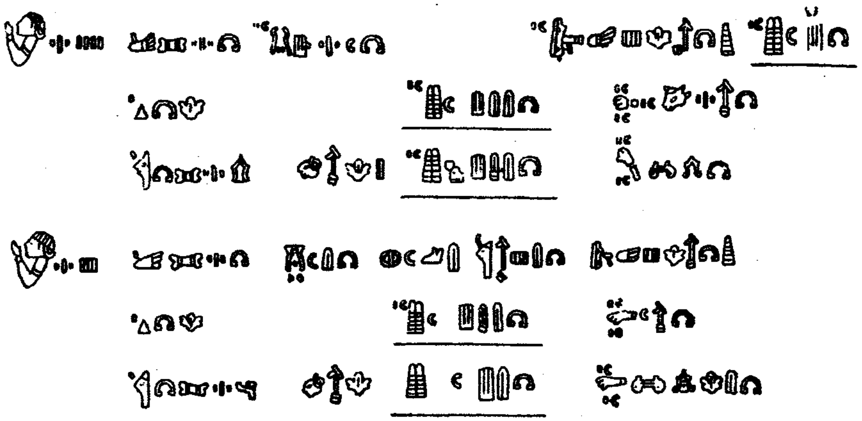

الشكل -58- بداية النصين في كتابتي كركميش.
واللذين تعرف البروفيسور ميريدجي فيهما على كلمة «ابن». كل واحد من الصفوف الثلاثة يجسد في كلتا الحالتين اسماً وقد وضع خط تحت لقب «ملك البلاد» تتلوه كلمة بمعنى «ابن» (الصف الثاني) و «حفيد» (الصف الثالث). ومن المهم لفت الانتباه إلى تحولات الرموز.

وعندما أكدت الرسوم التي جيء بها للمقارنة مثل هذه الفهم للنص بصورة ممتازة توصل البروفيسور ميريدجي إلى الاقتناع الكامل بصواب رأيه. وقد افترض العالم بكل تواضع في تقرير قدمه في فيينا منذ فترة غير بعيدة ما يلي: «كان يمكن لذلك الجزء المنهجي من مقالي الأول في ذلك الميدان والذي زحزح قضايا التركيب البنيوي للنصوص وفتح بذلك طريقاً مباشراً لفرض أمثال هذه الكلمات كـ «ابن» و «حفيد» وأمثالهما وتثبيت السلالات، أن تبدو أبعد ما يكون عن النضج» بيد أننا شاكرون لمؤلف ذلك العمل لفرضه الصحيح لمحددات الأشخاص والذي كان قد تحدث عنه تومبسون بصورة عامة وعلى

1- المصدر السابق ص 201.

اكتشافه في ذلك العمل لصفة «صفيّ الآلهة» ولقب «ملك البلاد» وكلمات «ابن» «حفيد» و «ابن حفيد» وما شابه ذلك. لقد كان في الواقع ما عبر عنه الباحث الإنكليزي ر. و. بارنيت «*the last touch that starts an avalanche*» الدفعة الأخيرة التي يبدأ بعدها التيهور وقد أثار التيهور كلاً من غيلب - فوريّر - بوسيّرت.

ايغناتس د. غيلب بروفيسور المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو. ولد في 14 تشرين الأول (أوكتوبر) سنة 1907 في بولندا في مدينة تارنوفا. واستحوذت عليه صغيراً المعارف المتاخمة لعلمنا أو المرتبطة به بصورة مباشرة؟ فكان المجهول يغريه ويجتذبه ما لم يكتشف بعد. فلما صار في الجمنازيوم كان يلتهم الروايات بهمة لا تعرف الكلال، لكن أشد ما أثار انتباهه كان كتاب الكاتب المجري مافر يوكايي الذائع الصيت في عصره وفيه يجوب البطل باول باركو آسيا الوسطى بأسرها بحثاً عن الموطن الأول للشعب المجري. ونلتقي بغيلب طالباً في فلورنسا ثم بعد ذلك في روما. أما أحلامه التي استسلم لها منذ كان تلميذاً فإنها تكتسب صورة أكثر ملموسية خلال مسيرة اهتماماته الذاتية الطامحة، حتى إذا بدأ سنة 1929 بالاستعداد للمناقشة للحصول على لقب دكتور في الفلسفة قرر أن يكون الطريق إلى ذلك أطروحة في التاريخ القديم لآسيا الصغرى.

غير أنه كان من المستحيل فصل معطيات الحضارة الحثية عن التاريخ نفسه، تلك المعطيات التي كانت أقل وضوحاً وأكثر غموضاً عما هي عليه الآن، وفي تلك السنة يبدأ الدكتور الشاب بالعمل على المشكلة الحثية ولكن في جامعة شيكاغو التي كانت في ذلك الوقت الحصن الأكبر للاستشراق الأمريكي الذي ساهمت في بنائه سواعد الباحثين الألمان والذي مارس إيميل فورير فيه نشاطه العلمي بعد بضع سنوات.

وظهر أن لدى القادم الجديد هنا من كثرة المشاغل وقلة الوقت ما يجعله يختص مادة حبّه الخفي - الهيروغليفات الحثية - بساعات المساء والليل وعطلة الصيف فقط. ومع هذا فقد لقي استجابة حبه بعد أن قام بالعديد من المآثر في سبيله. فخلال سنتين أعد للنشر مخطوطته «هيروغليفات حثية» (*Hittite Hieroglyphs I*)، وصدرت تلك الدراسة في شيكاغو سنة 1931، آنذاك تم الإبلاغ عن نتائج السنتين من العمل المضني لغيلب إلى مؤتمر ليدن للمستشرقين، ذلك الاجتماع الجدير بالذكرى، والذي قدمت فيه مجموعة من البحوث التي كشفت طرقاً مجهولة في ميدان فك رموز الكتابات.

حقاً، لم يمض إلا القليل وينعطف غيلب نحو طريق سابقيه. إن الكثير من محاولاته في قراءة الأسماء قد تم في الظلام، كما يقال، بطريق التلمّس. إلاّ أن بإمكانه أن يضع في خدمة

العلم نتائج جديدة مهمة. فهو، أولاً قدم البرهان على ما كان فرضية قبل ذلك. وهو أن «الشوكة» تعبر عن حرف *r* وفوق هذا تعرف في مجموعة على فعل *a.i.e* «فَعَلَ (وقد قرأه *a-wa.a*) ويكتسب هذا أهمية خاصة إذ إنه أشار إلى قرابة اللغة الحثية الهيروغليفية من اللوفية ومن الحثية المسمارية أيضاً. وبهذا كان غيلب أول من صار، بعد تومبسون، يقابل الحثية المسمارية بالهيروغليفية. وما دامت الحثية المسمارية اكتشفت ودرست إلى درجة من العمق فقد كان ذاك بداية حافلة إلى حدّ ما بالثمار. وبالإضافة إلى هذا أظهر أن الصفائح القصديرية المغطاة بالهيروغليفات الحثية والتي تم العثور عليها حديثاً تحت أحد المنازل في آصور، وكان ينظر إليها على أنها شكل من أشكال التمائم، ليست في حقيقتها سوى رسائل. وكان هذا ذا أهمية أيضاً لأننا، من خلال المقارنة باللغات الشرقية الأخرى نعرف بصورة تقريبية تلك العبارات التي ترد في مستهل الرسائل، وهي العبارات التي يجب البحث عنها في مثل هذه الحالة.

إلا أن أهم إسهام قدمته «*Hittite Hieroglyphs I*» في موضوع قراءة الرموز كان تأكيد حقيقة تنص على أن الكتابة التصويرية الحثية تتضمن، بالإضافة، إلى العديد من الأيديوغرامات، قرابة الـ 60 رمزاً يشتمل كل منها على مقطع من نمط ساكن +صوتي (وليست من نمط معاكس). وقد خطرت هذه الفكرة بصورة مفاجئة تماماً. وكانت تقوم على أساس التصور القائل بأن هذه الرموز الـ 60 تقريباً يمكن أن ينظر إليها كلها على أنها علامات لفظية. وانطلاقاً من هذا اتخذت الهجائية الحثية، من وجهة نظر التركيب، شكلاً مشابهاً إلى حد كبير، للكتابة الكريتية المقطعية (التي سيدور حولها الحديث في الجزء السابع من هذا الكتاب). وربما تتطابق معها بصورة تامة. ومن هنا تنطلق الفكرة التي تكاد تفترض بأن الكتابة التصويرية الحثية لم تكن شأنها شأن الكريتية، تفرق بين السواكن الصائتة والخرساء والانفجارية (مثل ب، پ وف).

وفي ذلك اليوم الذي خطرت له تلك الفكرة الحاسمة أثناء نزهته المسائية آمن البروفيسور غيلب بوسيلة رائعة يمكن أن تقضي على جمود الفكر وتحرّض على الكشوفات المفاجئة وظهور الأفكار الجديدة. والحق يقال أنه لم يستطع إقناع سدنة الطب المحافظين بالأهمية الفائقة لهذه الوسيلة الاستشفائية.

«بدأت أعتقد منذ ذلك اليوم بأن أفضل الأفكار وأكثرها مفاجأة تخطر لبعض الناس خلال نزهة المشي. وبدأت ازداد ثقة بصورة تدريجية بعد ذلك بأن الإنسان الذي يخطو إلى الأمام بصورة ناشطة وقد مال بجسمه قليلاً إلى الخلف وراح يخطو على كعبيه بثبات فوق

الأرض لا بد وأن يتلقى نوعاً من النبضات الكهربائية من خلال عموده الفقري، تلك النبضات التي تثير فيه التفكير المثمر الحي[1]».

بيد أن هناك من المشكلات التي لا يمكن النفاذ إليها، للأسف، خلال النزهة ومنها مثلاً مشكلة قراءة ضمير الوصل في الحثية الهيروغليفية وتحديد وظيفته. وإلى يومنا هذا يصور البروفيسور غيلب حل تلك المشكلات (والذي كان أهم إسهام قدمه في حقل فك الرموز) على أنه ثمرة جهد دائب وشاق كان من نصيبه. في البداية كان لا بد، وبكثير من الجهد، من استيعاب تلك الأدبيات الشديدة الاتساع واللا متجانسة في النتائج التي توصلت إليها، واصطفاء النتائج التي توصل إليها الباحثون؛ وكان لا بد، إزاء ذلك من القيام بأعمال ترويضية للمخ، الأمر الذي كان يتطلب من الجلوس فترات تتجاوز ما كان صاحبها يرغب به.

كان عمل غيلب يعني تقدماً واضحاً بصورة أكيدة وقد تلقى ذلك التقدم على الفور دفعة جديدة بواسطة دراستين من مستوى عال.

سبق أن أشرنا إلى ذلك الإنسان الذي اكتشف ثماني لغات في اللوحات الحثية - إنه عالم اللغات السويسري ايميل فورير الذيّ كان بروفيسوراً في برلين ثم في شيكاغو وهو الآن في سان سيلفادور. وقد شقت دراسته طرقاً جديدة نحو غوامض النصوص المسمارية. ولا تقل أهمية عن هذا دراسته الأخرى التي قدمها بالنسبة لقراءة رموز الهيروغليفات بعنوان: «الكتابة الحثية التصويرية» (شيكاغو، 1932) والتي وصفها إ. فريدريك بأنها وضعت الأسس.

أما المنهج الذي طبقه فورير فيتخذ أهمية حاسمة بالنسبة لكل عملية قراءة الرموز حتى إننا نرى من الضروري وصفه ولو من خلال ملامحه العامة. كانت جميع المحاولات السابقة في فك الرموز (باستثناء محاولة ايينسين التي أوضحناها فيما سبق) تضع نصب أعينها قراءة الرسوم المدونة على أساس الألفاظ، ولهذا فإنها لم تحرك القضية من مكانها تقريباً. بينما يجب علينا في الواقع، حسبما يوضح فورير، أن نطمح بادئ الأمر إلى فهم المدونة من وجهة نظر المضمون الموضوعي قبل كل شيء. ويشير إلى إيديوغرامات الكتابة الصينية التي تقرأ في اليابان - باليابانية وفي كوريا - بالكورية وفي آناما - بالأنامية ويذكر بالإيديوغرامات السومرية التي كانت تلفظ، حسبما نعرف، بالآشورية في آشور وبالحثية لدى الحثيين، ويشير الباحث إلى أننا نستعمل حتى في وقتنا الحاضر عدداً كبيراً من الإيديوغرامات التي، على الرغم من كونها لا تقدم معنى لفظياً فإنها مفهومة من قبل الجميع

1- رسالة البروفيسور غليب إلى مؤلف الكتاب بتاريخ 14 آب (اوغسطس) سنة 1957.

بفضل كون كل قارئ يضفي عليها المعنى اللفظي البدائي ذا اللفظ المشترك. وذلك مثل الرموز النقدية £ و $ و &. وعلى هذا فمن الضروري إعطاء فهم ماهية النص أولية على قراءته.

ولكن كيف بالإمكان التوصل إلى ذلك الفهم لماهية النص إذا كان من المستحيل قراءة مقطع واحد من مقاطعه؟ يقول فورير إن هناك وسيلة مضمونة بصورة خارقة للعادة: وهي ملاحظة توارد ظهور المتناظرات. تلك المتناظرات يمكن أن تظهر واضحة فيما يلي:

1- بين الصورة والنص المرفق بها.

2- بين الشيء والتعبير عنه في النص المدّون فوق ذلك الشيء.

3- بين الرمز المصور ومعناه.

إن أمثلة قصيرة لما ذكرناه يمكن أن توضح فكرة فورير. فنلتقي بالحالة الأولى إذا استطعنا أن نتعرف في شخوص نقش بارز على الآلهة بسهولة من خلال الهيئة والملبس والقيافة، وإذا كانت صورة كل منهم ترفق بعلامة هيروغليفية واحدة؛ فيمكننا في هذه الحالة الخروج بنتيجة أن العلامة تعني «الآله» ؛ ويزداد الأمر وضوحاً عندما يقوم الحاكم، كما هو الحال في نقش أسروي بارز في كركميش، يحمل صغيره على ذراعه وتظهر عبر ذلك الذراع بالذات عبارة «أحمله على ذراعي». وتظهر الحالة الثانية أمامنا إذا ما نقش فوق فأس الأضاحي مثلاً عبارة «فأس السادن الأكبر» (وسنتعرف على مثل هذه الأدوات الخاصة قريباً، في مناسبة مغايرة بعض الشيء). وأخيراً هناك الحالة الثالثة وهي تتخذ مكانها في واقع الحال في جميع تلك الإيديوغرامات التي لم تتخذ بعد صورة شرطية ولم تبتعد كثيراً عن رسمها الذي انطلقت منه مثل العلامة السومرية المرسومة للشمس .

ويضيف فورير إن هذه المتناظرات بحد ذاتها تطرح عشرين بنداً من أجل وضع قاموس للغة المدروسة دون أي قراءة لألفاظها كما تُقدم (بمقارنتها ببعضها) أربعة أسس مهمة للقواعد. بيد أن هذا لا يستوعب كل الإمكانات التي تقدمها ظاهرة المتناظرات. فهناك مفتاح آخر لا يمكن أن تقدر قيمته بثمن يطرحه التناظر المعروف بالنسبة للشرق القديم والقائم بين أجزاء متفرقة متشابهة من مختلف المدونات. ويشير فورير بخاصة إلى ثلاث حالات من هذه:

1- بداية المدونات الملكية (ومنها بالذات استنبط ميريدجي قراءة السلالات).

2- صيغ اللعنة.

3- افتتاحيات الرسائل.

تبدأ المدونات الملكية بصورة دائمة تقريباً، بألقاب الحكام وسلالاتهم وكثيراً ما ترتبط بأسماء الآلهة وأسماء الأماكن.

أما صيغ اللعنة فإنها تتضمن جملاً مطابقة بالنسبة للجمل التابعة التي يستعمل الفعل فيها في الزمن الحاضر أو المستقبل (من... يهدّم أو يحطّم... أو يلحق الضرر بشكل ما)، أي «من سوف يهدم أو سوف يحطم أو سوف يلحق الضرر)، بالإضافة إلى الجملة الرئيسية الواقعة في المرتبة الثانية والتي تتضمن لعنة الآلهة في صيغة الأمر («فلتنزل عليه سخطها.. الآلهة»).

وأخيراً فإن افتتاحيات الرسائل تبنى على أساس الصيغة الموحدّة: «مثلما يقول آ يقول ب: أحوالي تسير على خير حال، أحوال منزلي (أسرتي) تسير على خير حال، أحوالك أيضاً يجب أن تسير على خير حال، وأحوال منزلك..» وما شابه.

وبالنتيجة يمكن من خلال هذه الملاحظات والمقارنات البسيطة استنباط الرموز الخاصة بنهايات الحالات الإعرابية وبالضمائر الشخصية واللواصق، بضمائر الإشارة، بالأسماء الموصولة، وأسماء الاستفهام فالظروف فأحرف الجر فأحرف العطف فجزيئات الكلمات منظومة تقاعدية وهي تظهر بالإضافة إلى الصيغ الفعلية، وبكلمة واحدة «الأجزاء الأساسية المكونة لكل قواعد والتي تبرز بادئ ذي بدء للعين لا للأذن»[1].

من بين هذه المنطلقات النظرية التي تم وضعها، نستخلص واحداً، يظهر لنا بكثير من الوضوح الطريقة التي استخدم بها فورير فرضيته من الناحية التطبيقية، والتي تقدم في الوقت نفسه تصوّراً عن حجم إسهامه في موضع قراءة رموز الهيروغليفية الحثية.

سلفت الإشارة إلى صيغ اللعنة التي كانت منتشرة في كل مكان في الشرق القديم، وقد غرق فورير في دراسة تركيبها البنيوي ووصل إلى صيغة أوصلته إلى بعض الأثر.

إنها تشكل الجزء الختامي من المسلة المشهورة التي تحمل قوانين الملك البابلي حمورابي (1686-1728ق.م) وكانت المسلة قطعة واحدة من حجر البازلت يضاهي ارتفاعها المترين ونصف المتر، وقد نقش فوقها قانون يتألف من ثلاثمئة مادة تقريباً. ووضعت باللغة الأكادية وخصصت لتطبق في أرجاء المملكة الكبرى التي أسسها حمورابي، والتي كانت تشمل كل بابل وآشور. ويتناول القانون إلى حد ما قضايا القانون الجنائي والمدني ويختتم بالعبارات التالية:

«إذا لم يحترم ذلك الإنسان كلماتي المنقوشة فوق مسلتي فيستهين بدعواتي ولا يخشى لعنة الآلهة فيغير قرار الحكم الذي قضيت به ويشوه كلماتي ويبدل ما رسمته ويسقطه ويضع اسمه في مكانه أو يلقّن، خوفاً من هذه اللعنات، واحداً آخر ف...»[2]

1- E. Forrer, Die Entzifferung der hethitischen Bilderschrift- Forschungen und Fortschrifte- Bd VIII, 1932, S.4.

2- Законы Вавилонии,Ассирии и Хеттского царства, пер. и комм. под ред. И.М.Дьяконова, -"Вестник древней истории", 1952 №3.

ونورد الجمل التالية مرفقة بالنص الأكادي:

Lû Š arrum   *Iû belum,*

أم مالكاً   سواءً أكان مالكاً

Iu Iš š akum   *u Iû awI luî um*   *Samam habiat*

أم كان صاحب أي اسم يكون[1]   أم حاكماً

وتواصل المدونة قولها: «فليسلبه آنو، أبو الآلهة الأعظم، أمجاد اسمه الملكي وليكسر صولجانه وليلعن مصيره».

عند هذه النقطة بالذات شكٌ فورير طريدته بالسَّنارة. فالجملة المعطاة تتضمن كلمة «ملك ولقبين من ألقابه. وكان لقب «ملك» و «حاكم البلاد» معروفين على صورة ايديوغرامين من الكتابة الهيروغليفية الحثية.

وانطلاقاً من إيمانه بفرضية التناظر في الصيغ الشرقية للّعنة راح يبحث بالطريقة نفسها عن جملة مشابهة في المدونات الحثية المصورة، ووقعت عيناه على الجملة التالية:

-s حاكم البلاد   *ma-ba-wa-s*   ملك-*da-s*   *man*

(حاكم البلاد   أم   ملكا   أكان)

وتلي ذلك الجملة الرئيسية، وهي تقرأ عند حمورابي هكذا: ليسلب آنو المجرمَ سلطتَه، ليكسر صولجانه وليلعن مصيره، وتلي ذلك 46 دعوة من مثيلات هذه الدعوة الطيبة.

فالجملة التالية بعد ما ذكرناه كان يجب أن تكون «فلـ... الآلهة» أو هكذا يجب أن تكون. وانعكس في عيني الباحث على الفور المبتدأ في تلك الجملة والذي تجسده مجموعة رموز، تلك المجموعة التي نعرف جزأها الأول منذ زمن بعيد وهو محدّد الإله، وهذا يعني أن هي إشارة الحالة الاسمية للجمع. يلي ذلك أن الكلمة الختامية في تلك الجمل التي تتضمن صيغة اللعنة كانت تنتهي عادة بعلامة لفظية معروفة هي أو وهي *da* أو *tu* لكن من شأن *tu* أن تضفي على الفعل صيغة الأمر أو الرغبة، وذلك على نمط صيغة الأمر *esto* في الهندية القديمة، *é sto* في اللاتينية، *é stö* في اليونانية، و *nycm6,,* في الروسية.

وعلى هذا النحو بالذات استنبطت نهايات الحالة الآلية والمبني للمجهول. أما رمز الذي كان

1- المصدر السابق

يُرى وفقاً لنظرية سايس - كاولي بأنه وحدة ملتحمة فقد تأكد فيه معنى جديد معروف في اللغات الهندأوروبية وهو شبيه بـ «كلُّ» المعروفة في اللاتينية بـ *quisque*.

في التقريرين اللذين كتبهما فورير عن نتائج بحثه (ضُماً بعد ذلك في الكتاب الذي سلفت الإشارة إليه) واللذين قدمهما إلى اجتماع المستشرقين في ليدن وجنوه قام بضربة واحدة بنزع حجب الأسرار عن البناء القواعدي للغة الحثية المكتوبة و «لأول مرة سلّط الأضواء في اللغة الحثية الهيروغليفية على بناء الجملة بكليته وبكل أجزائه»[1] وبالإضافة إلى ذلك قدم قراءة صحيحة للاسم الملكي مرواتّاليس.

نال بحث فورير ذاك، وعن جدارة، أسمى درجات التقريظ بفضل طرافته وإيجاز عرضه ودقته في بسط الموضوعات وصواب حلها. ولم تكن تقل عنه طرافة وزخماً دراسة العالم الألماني هيلموت تيودور بوسّيرت، والتي صدرت في وقت واحد تقريباً مع دراسة فوريّر. وصار اسم هذا العالم معروفاً الآن في مختلف الأصقاع، ويذكر عادة مقترناً بالكتابة الحثية التصويرية.

ارتبطت حياة بوسّيرت بمختلف ألوان التبدلات والانعطافات، ويشتمل نشاطه العلمي على أشد الميادين تناقضاً وهو متلوّن إلى أبعد حد. بيد أن بالإمكان تلمس السمة الأساسية التي ظهرت لدى بوسّيرت - الطفل وتركت ميسمها على بوسّيرت - العالم حتى يومنا هذا وهي الاهتمام الشديد بالكتابة.

بدأ كل شيء بالاهتمام المضاعف لدى المؤلف نحو تحري أصوله الشخصية، نحو التنقيبات في نطاق تاريخ الأسرة. فقد ولد في 11 أيلول 1889 في بلدة لانداو، العائدة لأراضي رينبفالْتس، وفي سنة 1902 (وكان قد صار تلميذاً في الجمنازيوم في كارلسْروه) قضى العطلة الصيفية باحثاً عن آثار أجداده في الأرشيفات الريفية والمدنية. إلا أن قراءة الجرود والوثائق القديمة كانت تتزايد صعوبة كلما توغل عمقاً في غياهب الماضي. غير أن ذلك لم يدخل الرهبة في قلب الصبي، فقد يكون خياله قد غدا منذ ذلك الوقت أسير القوة السحرية للكتابات القديمة، تلك القوة التي ما زالت تبسط سلطانها عليه وقد أصبح عالماً ناضجاً.

وعلى أيّ حال فإن الأمر لم ينته عند حدود الاهتمام فقط، فإن بوسيرت لم يكن يقدم على أي عمل ليقف عند منتصفه بل يتعلم «صنعته» من أسسها. فكانت الصعوبات تختفي خطوة بعد خطوة، وتتصاع مخطوطات الأرشيفات للقراءة. وقد شرع قبل كل شيء بالتعمق في قراءة مخطوطات القرنين الثامن عشر فالسابع عشر - وحالفه الحظ آنذاك إذ وجد الحماة

1- J. Friedrich , Entzifferungsgesgeschichte der hethitischen Hieroglyphenschrift. S. 27.

الذين اتجهوا إليه بكل حب أبوي، فمهّدوا أمامه السبيل نحو المعارف الواسعة، ووجهوه في الطريق الصحيح.

وكان من بين هؤلاء الفريد هولدير، عالم اللغات الكلتية الشهير وكان آنذاك مديراً للمكتبة الزراعية في كارلسروه، عالماً مرموقاً ورجلاً ممتازاً، وكان في الوقت الذي أنهى فيه بوسّيرت المدرسة، عاكفاً على إصدار كاتالوج المكتبة الكنسية في ريخيناو وكان يدعو الفتى أحياناً للمشاركة في ذلك العمل. وقد بلغ من إتقان هذا الأخير لـ «صنعته» أن تجرأ على قراءة المخطوطات اللاتينية والألمانية العائدة إلى عهد الكارولينيين. وقدر هولدير إمكانات تلميذه حتى صار يسمح له بمساعدته في قراءة النصوص والباليمبسيست[1] التي تعرّضت للتلف. غير أن أصعب تجربة أقحم العالم تلميذه ومريده فيها كانت على ما يبدو «فك رموز» الرسائل التي أرسلها عالم الكلتيات الشهير إلى الجندي بوسّيرت إلى الجبهة. وبلغ من صعوبة هذه الرسائل أنَّ مَنْ أرسلت إليه كان، على الرغم من كل استعداداته السابقة، يضطر للجلوس ساعات بطولها وهو يمعن التفكير في «الخربشات» الرديئة التي كان يخطها أستاذه.

وكان من المستحيل لعالم المستقبل أن يتكوّن لولا التأثير الأبوي الذي تركه عليه صديقه الثاني ماكس فينغينروت، العالم الشهير بتاريخ الفن. كان يعيش في منزل آل بوسّيرت، وقد أيقظ في فؤاد بوسّيرت الصغير الحب العميق نحو تاريخ الفن والآثار وذلك بالطبعات البديعة لكتب مكتبته الرائعة. وكان فينغينروت أيضاً هو الشخص الذي ينصح الطالب بوسّيرت دوماً بأهمية دراسة اللغات وضرورة ذلك. فبالإضافة إلى اللغات التي تعلمها إلزامياً في الجمنازيوم، وهي اللاتينية واليونانية والفرنسية، قام الصبي، وهو ما يزال تلميذاً بعد، بدراسة العبرية القديمة والإنكليزية وكان ينسخ النصوص الهيروغليفية المصرية التي لم تكن لديه إمكانية اقتنائها. وقام بوسيرت بدراسة تاريخ الفن، والآثار وتاريخ العصور الوسطى والفيلولوجيا الجرمانية بنفس المستوى من الاهتمام وذلك في جامعات هايديلبيرغ، ستراسبورغ، ميونيخ وفرايبورغ. وفضلاً عن هذه الاختصاصات الأساسية كان ينصرف بكل اهتمام وصميمية إلى «صنعته» فيدرس تلك النظم التاريخية المساعدة كالدبلوماسية والباليوغرافيا[2] والهيرالديكا[3] وعلم الأنساب وعلم الأختام. وعلاوة على هذا كله كان

1- الباليمبسيست: مخطوطة قديمة كتبت على رق مسحت أو كشفت عنه كتابة سابقة.

2- الباليوغرافيا - دراسة الكتابات والنقوش القديمة.

3- الهيرالديكا - علم شعارات النبالة.

يقوم في ذلك الوقت بنشر مقالات قصيرة ودراسات أطول ديباجةً عن تاريخ الفن الألماني في العهود الغوتية المتأخرة (وقد ظهر بوسّيرت بصفة مؤلف وهو ما يزال في الصفوف الأخيرة من الجمنازيوم). وبصورة عامة يستأثر تاريخ الفن في هذه السنوات باحترام خاص لديه ولهذا فإن أطروحة الدبلوم التي نشرها سنة 1914 في اينسبورغ كانت تحمل عنوان: «المذبح السابق للكنيسة الأبرشية لأمّنا المحبوبة في شتيرتسينغ في تيرول»!

وماذا يمكن بعد هذا أن نقول، فالمسافة بعيدة جداً من شتيرتسينغ في تيرول حتى بوغازكي، حتى خاتوشاش، عاصمة الحثيين القديمة، والطريق طويل بين «أمنا المحبوبة» ومذبح القرابين النارية للإله الأسطوري موبْسوس. والحق أن بوسّيرت لم يكن يحسب أنه سيكون عليه هو أن يقطع ذلك الطريق. لقد كانت جامعة فريبورغ التي صار يشتغل فيها أستاذاً مساعداً متطوعاً تحت إشراف فينغينروت الذي كان في ذلك الوقت مديراً لمتحف الجامعة، هي «الأم المحبوبة» الحقيقية بالنسبة له، أما تاريخ فن العصور الوسطى - فصار ميدان المعركة التي قرر في ساحها أن يكسب لنفسه الحق في أن يسمى أستاذاً مساعداً.

لم تكن هناك غير أشهر قليلة تفصل بين دكتور الفلسفة الحديث العهد وبين الجندي الذي صار إليه في أول تشرين الأول سنة 1913 عندما استدعي للخدمة العسكرية، ولم تمض أيضاً غير أشهر على التحاقه بهذه الخدمة والوقت الذي نشبت فيه الحرب العالمية الأولى وكان ذلك قبل إحالته على الاحتياط بفترة يسيرة، فحارب صاحبنا مدة أربع سنوات في جبهات مختلفة، وفي سنة 1918 قادته إجازته إلى برلين حيث عاش انعطافاً جديداً في حياته العلمية.

سلفت الإشارة إلى أن الاهتمام العلمي بالحثيين استيقظ مجدداً وفي مختلف الأوساط بعد الحرب العالمية الأولى، ذلك الاهتمام الذي صار قائماً الآن على مكتشفات فينكلير وقراءات غروزني، وأدى إلى دراسات مثمرة في جميع أنحاء العالم. ولم يقف مؤرخ الفنون الفتّي بعيداً عن روح العصر على الرغم من أن ما كان يأسر انتباهه لم يكن مشكلة الحثيين بقدر ما كان المشكلات المرتبطة بحضارة البحر الأبيض المتوسط القديمة. ومن جديد بدأ بوسّيرت بصميميته المعهودة في معالجة القضايا الجديدة بالنسبة له. كان قد شارف على الـ 30 من عمره عندما بدأ بدراسة الإسفينات واللغة القبطية. لكن كان لا بد له من العمل من أجل إقامة الأود، وهكذا يغدو المستشار العلمي لدار نشر «فاسموت» البرلينية ويعمل أحياناً في طبعات مشتركة وفي قسم الكتب في دار نشر «فرانكفورت تسايتونغ» فلا يتبقى في نهاية المطاف من أجل الأبحاث الخاصة التي يقوم بها بصفة فردية غير الأمسيات وفترات الأسفار

الطويلة إلى المكتب ومنها. ونحن لا نتناول بالحديث هنا الجهود الجبارة التي كان عليه أن يبذلها من أجل أن يتمكن من مواصلة أبحاثه، تلك الجهود التي لا يمكن أن يعرف قيمتها إلا من كابد مثل ذلك. بيد أن من الضروري الإشارة إلى أن مثل ذلك البرنامج اليومي كان، على فكرة، يعني العزوف الكامل عن استخدام المكتبات التي لم تكن تفتح إلا خلال النهار.

ولهذا كان على بوسّيرت أن يقوم بنفسه بالاشتراك في المجلات العلمية واقتناء جميع الطبعات الجديدة اللازمة بالنسبة له، وذلك ليكون دوماً في خضم الأحداث.

لعبت الكتابات غير المقروءة دور الدافع الخاص بالنسبة له، وكان من بينها... لا، لم تكن الهيروغليفات الحثية بأيّ صورة بادئ الأمر بل الكتابة الكريتية التصويرية. فهو يجهد نفسه سنتي 1929 و 1931 من أجل قراءة تلك الكتابة «المينوسية»، ويبين السبيل لقراءة الأسماء الخاصة في الكريتية القديمة عن طريق سلسلة من المقالات.

ومثلما كان الأمر بالنسبة للعلماء الآخرين كان بوسّيرت يميل إلى الاقتناع بأن هناك علاقات محددة بين كتابة كريت القديمة وبين الكتابة الهيروغليفية الحثية، وكان يأمل في أن يصل عن طريق الأخيرة التي تمتلك عدداً أعظم من النقوش الكتابية إلى تفسير الكتابة الكريتية - الميكينية ولو بصورة جزئية. وقد قام بهذه المحاولة في كتابه «شانتاش وكوبابا، نحو طرح جديد لقضية قراءة رموز الكتابة التصويرية الكريتية والحثية»[1] والذي أهداه لميريدجي وسوندافالّ. وقد رحب بيرو ميريدجي بظهور ذلك الكتاب وأكد في أحد تعليقاته على أن الكتاب يوسع إلى أبعد حد معلوماتنا عن الكتابة التصويرية الحثية، وبفضل ذلك بلغت مشكلة هذه الكتابة أخيراً نقطة التحول، ولم يكن هناك من يجرؤ على الأمل بذلك بمثل هذه السرعة.

إذا كان سابقو بوسّيرت قد انطلقوا من الكتابة اللفظية أو من قراءة المدونة من خلال ماهية مضمونها فإنه انطلق من... الدعوة التي وصلت إلينا من الكتابة المصرية والتي كان قد تعرف عليها، حسبما نعرف، من أيام الجمنازيوم.

ونقصد بكلامنا بردية طبية محفوظة في المتحف البريطاني، وتتضمن البردية رُقْية طريفة إلى حد بعيد - رقية من مرض الآسيويين وضعت بلغة «القيفطو» الذين كان يظن أن المقصود بهم قدماء الكريتيين، وكانت القولة تقرأ كالتالي:

sa-n-ti ka-pu-pu wa-i-ia-im-an ti-re-ka-ka-ra.

1- T. H. Bossert, Santes und Kupapa. Neue Beitrage zur Entzifferung der kretischen und hethitischen Bilderschrift, Leipzig, 1932.

وتعرّف بوسّيرت فيها على دعوة إلى الإله شانتاش (ساندون، سينديس) والإله كوبابا، وانكب على البحث عن هذين الاسمين في النصوص الحثية الهيروغليفية. وهنا أفادته معلوماته الواسعة في ميادين علم الآثار وتعلّمه الباليوغرافيا. واستطاع انطلاقاً من التقويم النقدي لأسلوب ذلك العصر الغابر أن يصنف المدونات الهيروغليفية وفق نظام كرونولوجي متسلسل فقدم بذلك إسهاماً حاسم المغزى في علم تاريخ الكتابة - الباليوغرافيا. وقد وصف ر. د. بارنيت ذلك العمل بأنه «دراسة باليوغرافية لأشكال الرموز لا تقدر قيمتها بثمن» ووافق على القراءات التي كان تم التوصل إليها لأسماء مدن كركميش، غورغوم (= مرعش) وحماة. وبالإضافة إلى هذا كان أول من قرأ اسم مدينة تيانا في آسيا الصغرى *Tu-wa-na-wa* بتطابق كامل مع صورتها المسمارية، وأخيراً أزاح الخطيئة التي كان قد اقترفها ابينسين، والتي كانت لفترة طويلة تقف حجر عثرة في سبيل العمل وتحول دون التقدم في فك الرموز: فاسم ملك تيانا لم يكن «سيينّيس» كما افترض ابينسين بل *Wa-r-pa-la-wa-s*.

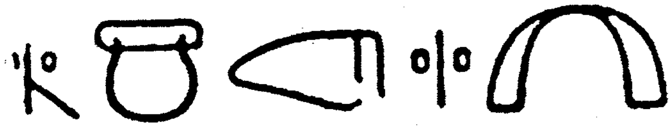

الشكل -59- اسم «واربالاواس» مكتوباً بالحثية الهيروغليفية

كان حل هذه القضية يتخذ أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ وبالنسبة لقراءة الرموز. إذ سرعان ما تعرف بوسّيرت في واربالاواس على ملك تيانا الذي كانت تسميه المصادر الآشورية ايربالّ، والذي كان عدواً لتيغلات بالاسار الثالث ودافع الجزية له.

من الصعب إيضاح قيمة الغنيمة الثمينة التي توصل اليها علم تاريخ الشرق القديم نتيجةً لذلك. لقد كانت أيضاً تقدم الكثير من الوعود لذلك الميدان العلمي المتخصص في دراسة الدلالات اللفظية. فقد استطاع بوسّيرت أن يصدر في دراسته، المكونة من 88 صفحة مطبوعة، عدداً مهماً من الرموز الهيروغليفية التي أعيد ضبطها، ولم يكن إلا العدد القليل منها قد قرئ بصورة خطأ، فأعيد تصويبه من جديد. وقد لقيت دراسته في ميدان فك الرموز نجاحاً هائلاً، وسرعان ما تلا ذلك عرض تقدم به برونو ميسنير، عالم الآشوريات في برلين، يقترح فيه على بوسّيرت أن يأخذ على نفسه، بتكليف من أكاديمية العلوم البروسية، مهمة الإشراف على وضع المجموعة الجديدة من نصوص

«هياكل المدونات الحثية الهيروغليفية». وفي صيف عام 1933 قام بوسّيرت برحلة إلى تركيا لكي يصور المدونات الحثية فوق الصخور. وهناك شارك في حفريات بوغازكي بدعوة من كورت بيتّيل، مدير الحفريات آنذاك. وعلى الرغم من أن بوسّيرت كان قد زار كلاً من استامبول وإزمير سنة 1922، وكان قد تعرف أيضاً على المدونات الهيروغليفية في متاحف برلين وباريس ولندن، فإنه الآن فقط، وقد انصرف إلى العمل على مدونات نيشانتاش في بوغازكي وعلى النصوص المرافقة لصور الآلهة في يازيليك، اقتنع من خلال تجربته الخاصة بماهية الصعوبات التي يسببها التعامل مع المدونات المنقوشة على الصخور.

بيد أن موضوع النشاط التالي لبوسّيرت قد حُلَّ لا من خلال دراسته التطبيقية بمقدار ما حل بنتيجة مقابلة تمت في طريق عودته إلى أنقرة، فقد قدم إلى الدكتور رشيد غالب، وزير الثقافة، الذي كان منهمكاً آنذاك في إعادة تنظيم جامعة استامبول، والذي كان يتم على النهج الأوروبي بواسطةٍ من كمال أتاتورك نفسه. وقدّم الوزير لذلك العالم الذي كان يعمل بنجاح في ميدانه والذي لم يكن آنذاك مرتبطاً بأي من المؤسسات التعليمية، منصب الأستاذية في الجامعة الجديدة، فوافق. وهكذا صار منذ شهر نيسان سنة 1934 أستاذ لغات آسيا الصغرى القديمة وحضاراتها في كلية الآداب بجامعة استامبول وفي الوقت نفسه مدير معهد دراسات الحضارات القديمة في آسيا الصغرى.

فرغنا حتى الآن من تقصي خط قراءة الرموز الكتابية حتى ظهور كتاب «شانتاش وكوبابا» وأثبتنا أن بوسّيرت «أطاح» نهائياً بسييّنيس السابق ونصّب مكانه واربالاواس. وفي النهاية كان هناك حقل آخر تم تنظيفه واستطاع ميريدجي، الذي لم تكن دراسته الأولى بريئة من المعالجة الخطأ لذلك الرسم، أن يعكف الآن على التنظيم التالي للرموز اللفظية. وقد توصل في الأساس، في مجموعة من المقالات القصيرة، إلى نفس النتائج التي وصل بوسّيرت إليها، إلا انه، خلافاً للعالم الألماني الذي كان يعتبر لغة المدونات حورية، أخذ يزداد قناعة بالأصل الهندأوروبي لهذه اللغة. وفيما بعد، وبهدف إيضاح التركيب البنيوي للغة، يقدم ميريدجي في عدد من الدراسات الأطول ديباجة، والتي نشرها في المجلات الفرنسية والألمانية، على تفسير نصوص بكاملها، تلك المحاولات، التي لا يمكن أن ننظر إلى عدد من نتائجها نظرتنا إلى ما لا تجوز مناقشته، بيد أنها تتفق في خطوطها العامة مع محاولات بوسّيرت. وعلى هذا أقيمت «القاعدة» العلمية العامة من قبل كلا العالمين وقد

دعمها بيدرجيخ غروزني بعد ذلك. وكان هذا الأخير قد انكب على دراسة الحثية الهيروغليفية منذ سنة 1932 وتوصل في بعض قراءاته إلى نتائج واحدة بالنسبة «للقاعدة». وبكلمة واحدة فقد ظهر ما يمكن وصفه بـ «الجبهة الموحدة لبوسّيرت - ميريدجي - غروزني» حسبما قال إ. فريدريخ بعد ذلك في معرض وصفه للحالة العلمية في ذلك الوقت. وبين أهم النتائج التي خرج بها غروزني يمكن أن نشير إلى العدد الوافر من وجوه التشابه بين اللغتين الحثيتين - المسمارية والتصويرية وهو ما أدى إلى افتراض وجود علاقة القرابة الوثيقة بينهما.

وبينما كان الجيل الفتي من دارسي الرموز يقوم بتلك القفزة الناجحة الأولى فوق أرض القارة الأوروبية، كان ارتشيبالد هنري سايس، «سادن الحثيات الأعظم» في حينه، يلفظ أنفاسه الأخيرة فوق الجزء المقابل من البحر، في إنجلترا، عن عمر بلغ الثامنة والثمانين.

منذ حين من الزمن كان النجاح قد كف عن مواكبة تدخلاته الناشطة في مسيرة قراءة تلك الرموز، ومع ذلك فإن تلك الذاكرة الرائعة والنفاذ العقلي اللذين امتاز بهما شيخ علماء الحثيات، واللتين احتفظ بهما حتى آخر أيام حياته، ما كانا إلا ليثيرا إعجاب الجميع. لقد واظب على متابعة النشاط العلمي حتى آخر أيامه بانتباه مركّز، وتأتّى له في الأسابيع الأخيرة من حياته أن يدرس نصاً فينيقياً من رأس الشمرة (سنسمع عن ذلك فيما بعد) وأن يعزّزه بملاحظات ذات طابع ليكسيكولوجي (مفرداتي) مع أمثلة في صيغة مفردات من الفينيقية والعربية والأكادية والقبطية والعبرية القديمة وغير ذلك من اللغات القريبة في النسب، واستخلص كل ذلك من ذاكرته فقط دون غيرها. ولم تصدر عنه في أي مرة أيّ كلمة في حق نقاده الذين كانوا إلى حد بعيد يناصبونه العداء. وكان آخر سؤال طرحه وهو في وعيه الكامل قبيل وفاته سؤالاً متعلقاً بالعلم إذ قال: «متى يقوم فيرولو بإصدار نصوص جديدة من رأس الشمرة؟».

«النصوص الجديدة!» - كان ذاك ما يطالب به علماء الحثيات أيضاً. فبعد 1933 أيضاً لم يركن الباحثون إلى الراحة والخمول. قاموا في البداية بإعداد كل المادة التي بين أيديهم للنشر فصدرت طبعات نصوص غروزني، ميريدجي وغيلب - ثمار السنين الطويلة من العمل في صمت المكاتب والأسفار الطويلة في البلاد. ففي سنة 1932 و 1935 قام البرفيسور

غيلب برحلتين إلى تركيا من أجل أن يكتشف آثاراً هيروغليفية حثية جديدة هناك وهو يقول في هذا الصدد: «كانت تلك الساعات التي أمضيتها ضارباً في بلاد الحثيين القدماء فوق ظهر الحصان أو البغل أسعد ساعات حياتي»[1] وكان من الطبيعي أن يبحث عن طريدته في طرق خاطئة أحياناً. بلى، بلى، لقد اتجه إليه أهل المنطقة أكثر من مرة قائلين بأنه هنا، في مكان قريب جداً من القرية (بل ويقولون في غالب الأحيان إنه على بعد بضعة أميال) توجد رسوم شبيهة بما يبحث عنه. وكان غيلب ينطلق في الاتجاه المشار إليه. هو ذا وقد وصل المكان ليقف أمام الصخرة التي كتبت فوقها «العلامات الخطية» بأنامل الماء والهواء بفعل عوامل الحت الاعتيادية في الطبيعة. والحق يقال أن غيلب قد أثّيب مع ذلك كله بوافر من المكتشفات البديعة كان من بينها مدونة اكتشفها في قلعة بيلانكال الصليبية القديمة الواقعة بالقرب من سيركيلي في كيليكيا. مثل ذلك أيضاً مدونة من كوتيوكالا اضطر غيلب من أجل الحصول عليها إلى خوض مبارزة حقيقية كانت قد انهزمت فيها بعثتان سابقتان له، حيث قامتا دون جدوى بحصار تلك الصخرة القائمة بصورة عمودية تقريباً وقد كانت رغبة الأمريكي، الواسع الحيلة، شديدةً في الحصول على صور تلك المدونة ونسخها.

ومع كل ذلك استطاع اقتحام تلك القلعة المنيعة مستعيناً بخدمات فرقة كاملة من عمال الطرق المسلحين بالديناميت والذين أقنعتهم بأن يشقوا له ممراً نحو المدوّنة المنشودة. وكما هو الأمر بالنسبة للآخرين فإن غيلب لا يني يتذكر، وبكثير من الامتنان، روح الضيافة التي كان يقابل بها في جميع القرى التركية واستعداد الفلاحين الأتراك للنهوض لمساعدة ذلك السائح في كل لحظة. وقد بلغت دهشته أشدها عندما اتجه بسؤاله المألوف إلى أهالي قرية أمير غازي خلال رحلته الثانية في الجزء الأوسط من الأناضول، فوجد تعبيراً مستغلقاً على وجوه محدّثيه الذين فتر حماسهم نحو الاستمرار في الحديث بصورة مفاجئة. وأمام إلحاحه جاء الرد بأن المنطقة خالية من النقوش وأنها، فيما لو كانت موجودة، فإن الأهالي لن يسلّموها أبداً وتحت أيّ ظروف لأن في تسليمها كارثة تحيق بهم. فمنذ نحو الـ 30 عاماً عثروا في هذه القرية على نقوش هيروغليفية حثية ونقلوها إلى استامبول لتوضع في المتحف. فما الذي حدث؟ إنها ما كادت تختفي حتى حل بالقرية الوباء!.

1- من رسالة للبروفيسور غيلب الى مؤلف الكتاب بتاريخ 14 آب (اوغسطس) 1957.

وانكب البروفيسور ميريدجي على تصنيف المادة التي تم جمعها فقدّم سنة 1937 أكمل جدولٍ للرموز (حتى ذلك الحين) وهو يعد حتى يومنا هذا جدولاً يصعب الاستغناء عنه في العمل. وكان العالمان الألمانيان ك. بيتيل وهـ. غوتيربوك قد نشّطا قبل ذلك، سنة 1934، عمليات الحفر في بوغازكي فاكتشفا في القصر الملكي قاعة لحفظ المؤن عثر فيها على ما يقرب من 300 ختم كان 100 منها تقريباً مزدوج اللغة (رغم أنها شديدة القصر ومعطوبة جداً في معظم الأحيان) تتضمن، كما كان معروفاً بالنسبة لخاتم تاركو موا المعروف منذ زمن بعيد، اسم الملك بالكتابة المسمارية والصورة الهيروغليفية. وفي سنة 1939 قام الأثريون الألمان بكشف أختام جديدة. والحقّ، وبفعل الطابع الخاص للمواد المكتشفة أن الفائدة الوحيدة من ذلك الكشف لم تكن تتمثل في اكتساب معلومات جديدة في ميدان اللغة، بل في كون العلماء آنذاك قد تعرفوا على الصورة الهيروغليفية لكتابة أسماء القسم الأعظم من ملوك الحثيين. وللأسف كانت هذه الأسماء مكوّنة في معظم الحالات من الايديوغرامات. ولهذا فإنها لم تقدم إيضاحات للفظ الأصوات، إلا أنه عثر في الوقت نفسه على بعض الأسماء التي دوِّنت بكتابة مقطعية (ومن بينها اسم الملكة بودوهيبا الذي قرأه بوسّيرت سنة 1933).

أما الأهمية الكبرى بالنسبة للأبحاث التاريخية عامة ولتأريخ النقوش الصخرية بصورة خاصة فقد لعبه اكتشاف اسم الملك سوبّيلوليوما.

في سنة 1944 صار الخاتم الذي يحمل اسم ذلك الملك موضوع دراسات خاصة من قبل بوسّيرت، طرح خلالها سؤالاً طريفاً حتى أبعد حد إذ قال: ألا تتخذ الرموز التي ينظر إليها على أنها رموز مقطعية معنى الايديوغرامات في الوقت نفسه؟ وفي ضوء هذه الفرضية أخذ يدرس اسم سوبيلوليوما، لكن شرحه لم يلاق بعد اعترافاً من جميع العلماء.

وبنتيجة الدراسات التالية التي قام بها غيلب (1935 و 1942) توصل العلم إلى المعاني اللفظية الحقيقية لعدد من الرموز التي كانت لا تزال موضع الشك حتى ذلك الوقت. كما أنه تقدم بجدول آخر جديد للرموز اللفظية عُدَّت موضوع نقاش في حينها، مثلما كان الأمر بالنسبة لفرضيته حول الصوتيات الأنفية. وانطلاقاً من تواريخ المنشورات التي سلفت الإشارة إليها نلاحظ أن عدداً من العلماء واصلوا أبحاثهم خلال الحرب العالمية الثانية أيضاً. ومع هذا فإننا لا يمكن أن نحكم على النتائج التي تم التوصل إليها عند نهاية الحرف إلا بما قاله إ. فريدريخ عن وضع الدراسات بالنسبة لسنة 1939 إذ أشار إلى أن «قارئي الرموز الهيروغليفية» كانوا يقفون «على الطريق الصحيح فيما يخص الأطروحات الأساسية والقراءة»[1].

1- J. Friedrich, Entzifferungsgeschichte der hethitischen Hieroglyphen-schrift , S. 37 f.

أ- تاركومووا (ملك)

ب- ايندليما

ج- تابارنا (ملك) حاثي

د- بودوهيبا (ملكة) حاثي

الشكل -60- أختام هيروغليفية ومسمارية حثّية

في واقع الأمر كان قد عرف طابع الكتابة وكان قد تم التوصل إلى التحديد الصحيح لنحو الـ 50 رمزاً مقطعياً وهي عادة من نوع ساكن + صائت. وكان العلماء قد توصلوا فيما يخصها إلى رأي موحد تقريباً. غير أن هذه الرموز كانت تقابل بعدد أكبر بكثير من الايديوغرامات التي لم تستسلم بعد للقراءة اللفظية. وكان الباحثون يرون أن الرموز المقطعية كثيراً ما تستعمل كـ «مكمّلات لفظية» أو إضافات لفظية، لا تختم

بواسطتها فقط الكلمات المخبوءة خلف الايديوغرامات، بل وغيرها من أجزاء المفردات (ويتم ذلك بطريقة عشوائية). ومن الطبيعي أن الفرضية كانت تقول بأننا في اللغة الهيروغليفية الحثية نتعامل مع لغة هندأوروبية، إلاّ أنه لم تكن توفرت بعد البراهين المقنعة على ذلك.

«لا بد من فحص هذه القراءة أو تلك مجدداً ومجدداً وتصويبها بين الفينة والفينة، ومن الممكن أن تقدم لنا المكتشفات الحديثة مفاجآت طريفة. إلاّ أنه بالرغم من ذاك كله لا يمكن لنا أن نعتبر الكتابة الهيروغليفية الحثية بعد هذا مستحيلة على القراءة أو بكلمة أدق غير قابلة للقراءة»[1].

عندما كان الحديث يدور عن «المكتشفات الحديثة» كان يقصد بذلك، قبل كل شيء، مدونة كبيرة محفوظة بصورة جيدة مزدوجة اللغة، فذاك حلم اللغويين وعلماء الآثار والمؤرخين والذي كان سايسْ يتضرع إلى الآلهة من أجل تحقيقه. ومن الصعب أن نجزم بما إذا كان الآلهة قد سمعوا ضراعات العلماء، لكن العلم نال المدوّنة المزدوجة اللغة المرتجاة وقد كشفها للعالم ذلك الـ هيلموت تيودور بوسّيرت نفسه.

كان بوسّيرت قد قام عام 1945 برحلة إلى الجزء الجنوبي - الشرقي من تركيا بتكليف من جامعة استامبول ليبحث عن آثار الحضارات القديمة في تلك المنطقة. وفي حديث له مع الرحّل سمع بصورة ما عن «حجر الأسد» الذي يفترض أن يكون قائماً غير بعيد، في ضواحي مدينة قادرلي.

لكن الأسدَ - واحد من أكثر الحيوانات الرمزية إيثاراً عند الحثيين وأكثرها حضوراً في آثارهم... وقد أثار ذلك بوسّيرت فبدأ بحثه في شباط سنة 1946. ومن المحتمل أنه ما كان لينجح في إيجاد الحجر لو لم يوصله إليه المعلم التركي أكرم كوشتشو، وهو الوحيد في المدينة، مَنْ كان يعرف بوجود الحجر وكان قد زار مكانه عدة مرات. وجد بوسّيرت «حجر الأسد» (وعلى فكرة تبينّ أن الأسد كان ثوراً) واكتشف أنه كان قاعدة لتمثال. أما التمثال الذي تعرّض للتشويه البالغ فقد كان مطروحاً غير بعيد وعليه نقش باللغة الفينيقية (السامية). تم الاكتشاف فوق «الجبل الأسود» - قره تيبي الذي كان يسمى في السابق أصلان طاش ويقع على نهر كيخان المسمى قديماً نهر بيرام في

1- Ibid , S. 38.

الجزء الجنوبي من تركيا (كيليكيا القديمة)، في ذلك المكان نفسه وعند أول بحث سطحي كان محدوداً جداً من الناحية الزمنية، استطاع بوسّيرت أن يجد قطعاً ذات كتابة حثية.

كتابة سامية وهيروغليفات حثية - إنه بريق جديد للأمل! فلعل «الجبل الأسود» يخفي نصوصاً كتبت بكلتا هاتين الكتابتين لكنها تحمل مضموناً واحداً، وهل قدّر له أن ينتزع من ربقة الأسر «الأسْوَد» شيئاً منها... لا لا، إنها هي نفسها تلك المدونة المزدوجة اللغة.

وفي العام التالي عاد بوسّيرت إلى ذلك المكان وأمضى أربعة أسابيع منقباً برفقة مساعده الدكتور باهْدير ألكيم، الأستاذ الشاب في جامعة استامبول والواسع الثقافة.

وكان من حظه أنه عثر على ما كانوا بانتظاره مدة تربو على الـ 70 عاماً وما كان بوسّيرت دوماً ينتظره في سرّه بغض النظر عن كل النجاحات التي حققها، - لقد كانت شطيحة مسطّحة من الحجر تنتصب عمودياً، وقد حفظت بصورة جيدة وظهر فوقها تماثيل ونقوش بالكتابة الفينيقية والهيروغليفية، وبكلمة واحدة كانت مدونة - ثنائية اللغة.

«لقد وجد ثنائية»، ما أسهل لفظ هذه العبارة ولكن كم سبق ذلك الكشف المثير على حد تعبير يوهانس فريدريك من الأيام المليئة بالعمل الدؤوب، من الأيام الحافلة بالحرمان والصعوبات وخيبة الأمل. كم جرى قبل ذلك من الأحداث المأساوية ولعل من الجدير أن نعرف أيضاً كيف ظهرت ربّة الحظ اللعوب لفرانس شتينغير، مساعد بوسّيرت، في المنام وكيف أمرته بأن يتعرّف على الثنائية في المدونات المكتشفة... وبكلمة واحدة: خاتمة جديرة بعمل جدير.

أحياناً يقارنون نقوش قره تيبي بحجر رشيد، وهذا ليس عدلاً. فإذا أريد المقارنة بآثار الكتابة المصرية كان الأنسب أن يؤخذ قانون كانوبا، إذ إن ثنائية قره تيبي لعبت في علم الحثيات الدور الذي لعبه ذلك القانون في علم المصريات: فقد صار حجر المحك الذي على أساسه ثبتت صحة الكشوفات الكبرى في ميدان فك الرموز و «الخاتم الرسمي» الذي ختم العلم به وثيقته المؤكدة بأن الأعمال التي تم إنجازها حتى ذلك الوقت لم تكن ضرباً من العبث.

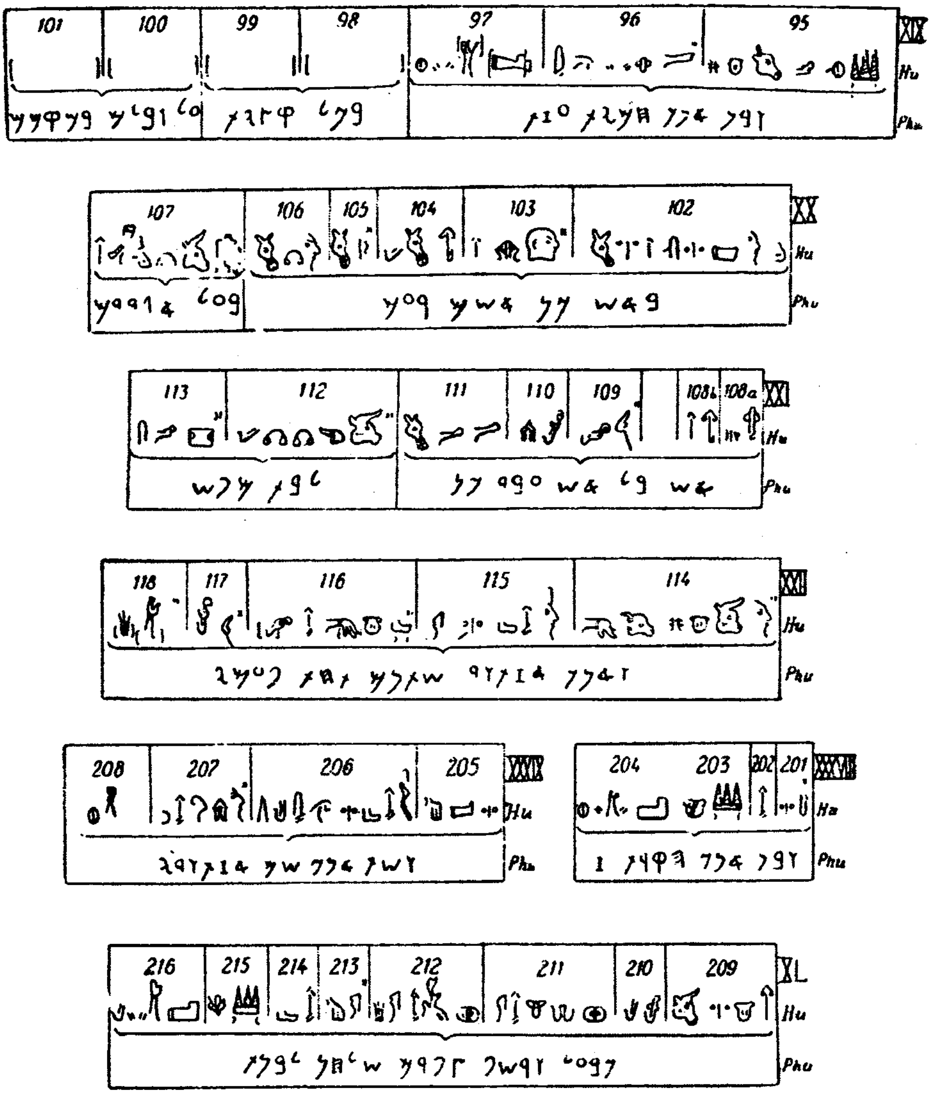

الشكل -61- الجُمل 19-22 و 38-50 من ثنائية قره تيبي

أما ترجمة المدونة (وفق النص الفينيقي) فتقرأ كما يلي:

19- «وأقمتُ القلاع الحصينة في كل مكان على الحدود حيث كان الأشرار ورؤوس العصابات، الذين لم يكن أحد منهم يلتزم بخدمة بيت *MPŠ* (سلالة ازيتافادًا) لكن أنا ازيتافادًا وضعتُهم تحت قدمَي».

38- وبنيت هذه المدينة وأعطيت [لها] اسم ازيتافادّية حيث إن بعل (هيروغليف حثي «إله العواصف») وطائر - ريشيف (هيروغليف حثي «الإله - الوعل») أرسلاني لأبني [ها][1].

من الطبيعي أن الثنائية لم تؤكد فقط ما كان معروفاً قبل ذلك، فإن مجرد كون الشكل الحثي الهيروغليفي قد نقش في صيغتين، مكّن عن طريق المقارنة من استخراج معاني 11 رمزاً لفظياً ونحو 25 ايديوغراما، وفضلاً عن ذلك تم التوصل إلى أسس جديدة للمعاني اللفظية لـ 8 رموز و 16 ايديوغراما، وقدمت الثنائية عدداً كبيراً من الايديوغرامات الجديدة. وبنتيجة ذلك كله تم التوصل لأول مرة إلى قراءة أكثر من 40 كلمة، أما قراءة المفردات الأخرى الـ 20 والتي كان ينظر إليها على أساس أنها فرضية، فقد تأكدت الآن.

لكن الأمر لم يمض دون مفاجأة طريفة. فقد تبين أن بعض الايديوغرامات يمكن أن تلعب دور «الصوتيات» أو الرموز المقطعية في وسط الكلمة: بل وثبت وجود «البوليفونيا» رغم أنها مناقضة بصورة كلية لتلك البوليفونيا التي كنا نلتقي بها في الكتابة المسمارية: ففي الكتابة الحثية التصويرية كان المعنى اللفظي الواحد يمكن أن يعبر عنه برموز مختلفة.

وبالإضافة إلى ذلك كله مكّن الاكتشاف من النفاذ بصورة أعمق في تركيب اللغة، كما ساعد إلى حد بعيد، على فهمها. فقد ظهر أنها لغة تقترب بنسبها من اللغة اللوفية إلى حد بعيد وإن كانت لا تتطابق معها ولا مع اللغة البالآية بل ولا مع الحثية المسمارية؛ لكن كان موطنها الجزء الجنوبي - الشرقي من الأناضول.

وصار بمستطاعنا بفضل تعميم المادة والدراسة التي قام بها بوسّيرت لمعطيات هذه اللغة بعد اكتشاف الثنائية أن نعلن اليوم وبكل ثقة بأن تلك اللغة قد دانت للقراءة رغم أن أعمالاً ليست بالقليلة ما زالت بالانتظار.

وإذا كانت المدونات قدّمت بعضاً من خيبة الأمل فالسبب في ذلك أنها لم تكن غنية بالمضمون بالقدر الذي كان يأمله المؤرخون.

لم يكن مؤلفها فينيقياً. كان يحمل اسماً أناضولياً هو أزيتاوطّاس، ويسمي نفسه ملك دانانّيا، وتابعاً لآفاراكوس، أحد الملوك الكيليكيين الذي كانت النصوص المسمارية تسميه اوريكيّ أو اوريّايك، وكان في حينه قد ألقى السلاح أمام تاغلات بلاصر الآشوري. وكانت دولة دانانّيا، حسب نقش قره تيبي، تشمل وادي أضنة. وفي النقش الذي سلفت الإشارة إليه يتحدث أزيتاوطّاس عن إقامته مدينة سماها باسمه (ومن المحتمل أن تقارن تلك

1- J. Friedrich, Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen, S. 83.

المدينة بالخرائب في منطقة قره تيبي)، ويتحدث عن إخضاعه البلاد كلها من الشرق إلى الغرب، وإقامة الحصون المنيعة.

في ضوء هذه الحقائق يجب العودة بهذه النقوش إلى القرن الثامن قبل الميلاد. ولكن كيليكيا كانت منذ 1000 سنة قبل الميلاد ميدان امتزاج الحضارتين الحثية والفينيقية ومن وجهة النظر التاريخية تعتبر أقرب إلى أن تكون الوريث المفلس لدولة الحثيين القوية التي كانت مزدهرة ذات يوم («الدولة القديمة» - تقريباً بين 1600-1470ق.م، «الدولة الحديثة» - تقريباً بين 1440-1200ق.م) من هذا يتضح لنا السبب الذي جعل الغنيمة إلى حد ما تثير الشعور بخيبة الأمل في نفوس المؤرخين.

غير أن الثنائية كانت مع ذلك تتضمن إشارة ذات أهمية بالغة بالنسبة للفيلولوجيا الكلاسيكية. فأزيتافاتّاس، حسبما ورد في ترجمة النص الفينيقي التي قدمناها، ينسب نفسه إلى آل *MPŠ* وهذا ما يدفع إلى إعمال الفكر والتأمل.

بالطبع سرعان ما استقر الرأي على أن الدانانيين يمكن أن يكونوا هم أنفسهم الداناويين أو الـ *dnwn* الذين اقتحموا مصر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وهناك رسالة من أرشيف تل العمارنة تشير إليهم بصيغة «دانون» وتسميهم شعباً من كنعان. ويشير هذا المصدر نفسه إلى أنهم استقروا في كيليكيا أو غير بعيد عنها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهنا ينضاف تصور جديد استقي من المصادر اليونانية.

فهوميروس يسمى اليونانيين السابقين لمرحلة طروادة بـ «داناواي» الداناّيين، ويشير القصص اليوناني إلى أن هذا الاسم يعود إلى داناوس، الجد الأول لسلالة آرغوس الشرقية. ويشير القصص إلى أن داناوس كان ابنا لبيلوس. واسم بيلوس يتطابق مع اسم الإله السامي بعل *(Ba'al)*، وهذا يعني أن ذاك الذي كان يحمل اسم بيلوس (*os*- مجرد نهاية يونانية) - هو ابن الشرق وأزيتافاتّاس يسمي نفسه سليل *MPŠ*. وقد اتفقت أحكام عدد من العلماء على أن هذا الاسم لا يخفي تحته إلا اسم موبسوس الذي لم يكن عاطلاً من الشهرة، والذي ذكره القصص اليوناني، إذ نلتقي بعرّافَيْنْ خرافيين كانا يحملان ذلك الاسم. أما الذي يرتبط بآسيا الصغرى منهما فيُعدّ واحداً من بُناة مدينة مالّوس في كيليكيا حيث لقي مصرعه حسبما تشير الأساطير.

غير أن كيليكيا تتضمن أيضاً مدينة كانت تحمل اسماً أبلغ تعبيراً، وهي تقع على نهر كيخان، الطريق القديم من قارص إلى أيسو. وهي الآن تحمل اسماً تركياً هو ميسيس، بينما كانت تسمى في السابق موبسوغيستيا، وهذه الكلمة يونانية وتعني «المحرقة» أو «مذبح إحراق لأضاحي موبسوس».

وبالإضافة إلى هذا تشير المصادر الآشورية إلى أن الملك الآشوري آشور ناصر بعل الأول أخضع في القرن الحادي عشر قبل الميلاد بلاد داونون واستولى فيها على خمس مدن.

وما دام نقش قره تيبي يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، إلى العصر الذي وضع ازيتافاتاس فيه نقشه، يكون قد مضى 300 سنة على سلالة موبسوس ومُلكها. وهكذا تتوضح أمام أعيننا صورة موبسوس نفسه فيظهر أمامنا شخصية تاريخية بفضل شهادة نقوش قره تيبي.

وقد قابل البروفيسور بوسّيرت هذه المعطيات الجديدة بخبر آخر قدمته نصوص قره تيبي ويؤكد أن باهْري كانت مدينة مهمة في الدولة الحثية وأن قلعة قره تيبي كانت تعتبر حصنها الخارجي فلم يتبق سوى أن نثبت أن موبسوغيستيا ، مدينة موبسوس، كانت تسمى في العهود الغابرة باهري.

وقد قام بوسّيرت بهذا من خلال تنقيبه في مدينة موبسوغيستيا القديمة.

وفي سنة 1956 تم التوصل إلى كشف الأرضية الموزايكية للكنيسة القديمة - مقر أسقف موبسوغيستيا ولا زالت التنقيبات جارية...

بقي علينا الآن أن نقدم للقارئ وصفاً للكتابة الهيروغليفية الحثية التي ظهرت من الإسفينية ومن الهيروغليفات المصرية. فنحن هنا أمام هيروغليفات ولكن ما أغربها وما أبعدها إذا ما قورنت بالهيروغليفات المصرية المألوفة جيداً بالنسبة لنا! أما من وجهة نظر الفن فالهيروغليفات الحثية تتراجع أمام المصرية دون شك. ولكن إذا كانت الأخيرة تمتاز بمحدودية الشكل وبالتناسق والنظام في الكتابة، وهو ما كان يخدع كل من تصدى لدراسة نقوش المصريين، فإن ما يأسر الانتباه هنا وبصورة غريبة هو ذلك اللا اعتناء ونوع من اللا اكتمال وذلك الغموض المثير.

«لو أنكم قارنتم الهيروغليفات الحثية بالمصرية لبدا لكم أن ليس هناك من أساس لمثل هذه المقارنة. فالنقوش الحثية مكتوبة بطريقة البوسترافيدون أي كما يدور نير الثورين وهو يحرث الأرض. ففي نهاية السطر تتحرك الكتابة في الاتجاه المعاكس شبيهة بالمحراث، الذي يشق خط الفلاحة بمساعدة الثورين. لم تكن هناك حاجة للقفز إلى الوراء نحو بداية السطر، كما نفعل نحن، وبفضل ذلك تتخذ الكتابة صورة شيء ما متسارع بصورة مستمرة ومتماوجة. كانت يد الكاتب عند الحثيين تتحرك في واقع الحال مسرعة في مختلف الاتجاهات وكانت تتقافز بحرية كبرى نحو الهوامش، نحو زوايا الحجر، نحو الحجر المجاور وتكتب فوق كامل جسم الحيوان - في كل مكان يروق للكاتب. فمن يستطيع القول عن الكتابة المصرية بأنها «تتسارع». فالمصري عندما يكتب فإنما يقوم بعمل مقدس، وما يشغله قبل كل شيء هو الشكل والتكوين ككلّ. فعمله - متعة للنظر وهو ما يهتم به أكثر بكثير من اهتمامه

بالمضمون العادي المتكون بتشكيلة موحدة، أما الحثي فهو إنسان حي اجتماعياً. إن الشعور الذي يفعم قلبه يتطلب الانفجار فهو يكتب، يكتب من أجل المضمون، أما الشكل الذي تتخذه كتابته فلا يشغله كثيرا. بل أن بعض الأحرف لم تتحدد بالشكل المعروف[1]. وحتى في الوقت المتأخر لم تكن هناك ضرورة على الإطلاق، وحتى في المدونات المنقوشة على التماثيل، لوضع فارق بين الشكل التصويري الأول وبين مختصره المائل (الجزئي أو الكامل) - بل كان الذوق الشخصي للكاتب هو الذي يفرض نفسه. ويمكن القول إن الرموز كانت اقرب إلى أن تسبح في فراغ محدد من أن تتحدد وفقاً للأسطر. ولهذا السبب تطلب الأمر تجربة كبرى من طرف علماء الحثيات من أجل التمكن من قراءتها بالصورة المتسلسلة الصحيحة[2]».

وكما هو ملاحظ من خلال العرض نلمس في الهيروغليفات الحثية تلك الملامح التي كانت تجسد ماهية الكتابة المصرية والأكادية المسمارية: - أي الايديوغرامات والرموز اللفظية والمحددات التي كانت تظهر قبل الكلمة المحددة أحياناً وأحياناً بعدهما. ولهذا كانت تجري مقابلة الكتابة الهيروغليفية الحثية بالمسمارية الأكادية (لا بالكتابة المصرية بأي شكل) وحتى في اشتمال رموزها المقطعية على صائت محدَّد. وعادة، ولكن للأسف ليس دوماً، كانت الفاصلة (/) توضع بين الكلمات. وبالإضافة إلى الكلمات - الرموز التي كانت تقترب بدقة نقشها من الآثار الفنية الصغيرة، كانت تستعمل إشارات كتابية عادية أميل إلى البساطة.

الشكل -62- مدونة هيروغليفية من كركميش

1- تظهر الأشكال المختلفة للرموز التصويرية بصورة جيدة في الشكل 58 (الرسم التوضيحي لقراءة ميردجي).

2- M. Riemschneider. Die Welt der Hethiter (Grosse Kulturen der Fruleit), Stuttgaat, 1954, S. 93f.

ففي النقش العائلي النافر من كركميش (الشكل 58) يمكن أن نشاهد بوضوح محدد أسماء الأعلام على خط مائل مرسوم فوق الجزء الأيسر من مقدمة الاسم (ست مرات يرسم الخط الواحد تحت الآخر) وهو منسوخ على ما يبدو من الإسفين العمودي، الذي كان يستخدم في الكتابة المسمارية البابلية أمام أسماء الأعلام المذكرة. ومن مميّزات هذه الكتابة أيضاً أن تلك الرسوم الطبيعية الدقيقة التي نلتقي بها غالباً (وتتميّز رؤوس الحيوانات من بينها بروعة خاصة) كثيراً ما تقابل برموز وصلت إلى درجة من التجريد يستحيل معها التعرف على الرسم الأوّلي فيها. وأفضل نموذج لهذا رمزا «بيت» و «شمس» بالإضافة إلى رمز الآلهة الغامض والذي يظهر هنا، مثلما يظهر في النقش المسماري في دور محدد وايديوغراما في الوقت نفسه.

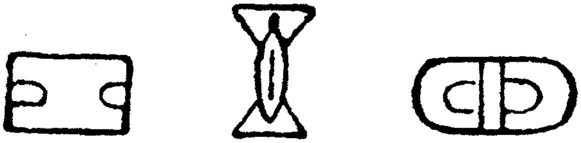

الشكل -63- رموز هيروغليفية حثية

كانت تعني مفردات «بيت» و «شمس» و «إله»

استعمل الحثيون الهيروغليفية والكتابة الإسفينية في عهد ما يسمى بالدولة القديمة (1600-1470ق.م) ولم يكن ذلك قاصراً على الكتابة التدوينية بل وشمل المراسلات الخاصة أيضاً، ومن الطبيعي أنهم لم يكونوا يرسمون الإسفين على لوحاتهم الخشبية التي سيرد ذكرها بعد حين. وعلى هذا فإن الإسفينات كانت تستعمل خلال فترة قيام الدولة الحثية بطولها (من 1600 حتى 1200ق.م تقريباً) وذلك في الصورة التي ظهرت بها أمامنا في أرشيف بوغازكي مثلما كانت الهيروغليفات أيضاً ملائمة للنقوش التذكارية وللمراسلات الخاصة حسب أكبر الاحتمالات.

لكن الهيروغليفات الحثية لم تختف بسقوط الدولة الحثية سنة 1200 قبل الميلاد. فمن المحتمل أن تكون قد عاشت مرحلة من التكامل في دويلات الديادوخ الحثية الجديدة في الأناضول الجنوبي، وفي سوريا، وذلك بفضل الحفاظ الدقيق على التقاليد القومية، ونحن مدينون لهذه الدويلات الوارثة الصغيرة بتلك المكتشفات البالغة الأهمية بالنسبة لقراءة الرموز مثل نقش حجر حماة ونقش كركميش وأُسُود مرعش وثنائية قره تيبي.

ولعل من الطريف أن نلقي في الختام نظرة أخيرة على شطر صميمي من المشكلة. لقد لاحظنا السهولة النسبية، التي حل بها العلماء رموز اللغة الحثية المسمارية. وقد حدث ذلك بفضل عثور فينكلير على أرشيفات الألواح الطينية إذ فتح الطريق نحو العرق الذهبي الذي لم تكلف قراءته جهداً كبيراً بسبب سهولة قراءة الكتابة نفسها. وقد بيّنا أيضاً أن قراءة المنقوشات الهيروغليفية الحثية ظلت تتواصل نحو الـ 80 عاماً، فكان تقدمها يسير بطريق التلمّس تقريباً وما انفك يتعثر بالصعوبات إلى أن ظهرت الثنائية الكبيرة، ولكن ما السبب في ندرة ما اكتشف من النصوص الهيروغليفية الحثية؟

إن النقوش التي تظهر في الأشكال المصورة في كتابنا تتّخذ في الأساس رموزاً منقوشة نافرة بارزة. وهذا بالطبع لا يعني أن الكتابة ما كانت توجد بغير هذه الصورة، إذ تم العثور على نقوش محفورة حفراً في الصخر ومن المحتمل أنها تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وأنها كانت شائعة الاستعمال في كركميش ومنها أخذت بالانتشار في المناطق الأخرى على ما يبدو إلى أن توقف استعمال الكتابة الهيروغليفية الحثية بفعل الاحتلال البابلي في القرن السابع قبل الميلاد. بيد أن النصوص الأقدم تشير بمجموعها إلى أن الحثيين كانوا يفضلون الرموز الكتابية النافرة.

إلا أن مثل هذه التقنية الكتابية لم تكن مكيفة لتستخدم مع المادة النسخية التي يمثلها الحجر. فالكتابات على الحجر كانت تنقش في العادة بالإزميل، وإذا كانت جميع رموز الكتابة الحثية تظهر أمامنا على هيئة مصورات نافرة على الحجر، فإن ذلك يسمح بالخروج ببعض النتائج. فالرموز كانت في بادئ الأمر ترسم بوسائل تقنية أخرى على ما يبدو، ثم بدأ النقاشون على الحجر يقلّدون ما كان ممكناً أداؤه في شروط مغايرة، شروط الحفر النافر على الخشب. وفي الحقيقة كان الخشب مادة الكتابة الأساسية في العصور الأكثر قدماً؛ وبالطبع فإنه كان يعامل معاملة خاصة من أجل ذلك وهو ما تبيّنه صور الأدوات والمواد الكتابية التي تظهر على التماثيل.

«كان الحثيون يكتبون بالريشة والحبر فوق ألواح خشبية تلفّ بالقماش وتُطمر في الكلس، حتى إن ذلك الكاتب، الذي كان، وفقاً للمنهج البابلي، يضغط الرموز الإسفينية فوق لوح الطين الطري، كان يسمي نفسه كاتباً على لوح الخشب وكأن الإسفينات لم تكن بالنسبة له إلا عملاً عادياً، أما الفن الحقيقي فكان - الكتابة الهيروغليفية. وكانوا يتعلمون الكتابة أطفالاً. فذلك الطفل الجالس على ركبتي أمه وهو يمسك بعصفور مربوط،

وقد طرح بجانبه دفتر التّلمذة وقارورة مليئة بالحبر[1]! وذلك الدفتر الحقيقي، وإن كان من الخشب، كان يتألف من لوح مطوي ذي عرىً عند جوانبه وكان مِثْلُ هذا اللوح يستعمل على ما يبدو كرسالة (ذات مغلّف أيضاً) على الرغم من أن الرسائل كانت تكتب في العادة، على ألواح الرصاص التي تدرج بعد ذلك في لفافات جميلة. مثل تلك الألواح كان يمكن استعمالها عدة مرات إذ إن الحروف المحفورة فيها كان يمكن أن تمسح بسهولة. أما الاتفاقيات الدولية فكانت تطرق على الفضة أو الحديد أو الرصاص. ومن الناحية النظرية لم يكن هناك ما تستحيل فوقه الكتابة أو الرسم بالريشة إلا أن مادة الكتابة الأولى كانت، للأسف - الخشب. ونقول للأسف إذ إن أي أنموذج من نماذج الكتابة الحثية الهيروغليفية لم يستطع الصمود فوق تلك المادة القصيرة الأجل والوصول إلينا بعد ثلاث آلاف من السنين[2]».

لهذا السبب لم يصل إلينا إلا النذر اليسير من الأدب الحثي. وهذا النذر اليسير يصوّر لنا لوحة أبعد ما تكون عن الكمال لكنها مفعمة بالطرافة - لوحة حياة ذلك الشعب القوي والمعافى، الميال إلى التحديد الحقوقي الواضح لحياته وطرائق سلوكه. كان ذلك الشعب محباً للحياة ومسرّاتها، وكان يمتاز بمرحه العفوي لكنه كان قادراً على إيجاد الكلمات التي تهز الخيال في وصفه للكوارث والمصائب التي كانت تنزل به. فما أشد ما تؤثر في النفس ضراعة مورسيليس الثاني من أجل الخلاص من الطاعون الرهيب الذي تفشى في بلاده:

«يا إله العواصف في [بلاد] حاتّي، سيدي، وانتم يا آلهة حاتّي [الآخرين]، سادتي! لقد أرسلني مورسيليس، الملك الأعظم، عبدكم: لوقال[، امض وخبّر اله العواصف لفي بلاد] حاتّي، سيدي، والآلهة الآخرين، سادتي، بما يلي.

هو ذا ما فعلتموه: أطلقتم الطاعون في بلاد حاتّي فأنزل الطاعون مصائبه على بلاد حاتّي بقسوة.

وهكذا راحوا يموتون خلال حكم أبي وخلال حكم أخي، وهاهم يموتون أمام عيني منذ اليوم الذي صرت فيه سادن الآلهة، وهذه هي السنة العشرون.

هو ذا الموت يخيّم على البلاد والطاعون ولم يزاحا بعد من البلاد.

لكنني لن أجعل الآلام سيّدة قلبي. ولن اجعل للخوف سلطاناً على روحي بعد الآن[3]»

1- يقصد بذلك احد النقوش النافرة في كركميش وقد صورت فيه الملكة أو المرضعة ومعها ولي العهد تارغومبياس.

2- M. Riemschneider, Die welt der Hethiter… S. 93.

3- Ibid, S. 110.

«إله العواصف الحثي، سيدي، وانتم الآلهة، سادتي، هاكم:[الكثيرون] يرتكبون المعاصي.

وأبي أيضاً كان يرتكب المعاصي وقد عصى أمر سيدي. ملك العواصف الحثي، لكن أنا لم أجن ذنباً قطّ.

كذا: ذنوب الأب تنتقل إلى الأبناء.

وإليّ انتقلت خطايا أبي.

كذا الآن وأمام إله العواصف الحثي، سيدي، وأمام الآلهة، سادتي، أعترف: كذا، نحن قمنا بذلك.

وبما أنني أعترف بخطايا أبي، فلتهدأ من جديد روح إله العواصف الحثي، سيدي وأرواح الآلهة، سادتي. ولتشملني برحمتها من جديد وتدفع الطاعون بعيداً عن بلاد حاتّي.

....

وإذا كنت اضرع إليكم، فلتسمعوني لأنني لم أجنِ أي ذنب.

ومن بين أولئك الذين أخطؤوا وارتكبوا المعاصي لم يبق أحد.

لأنهم هلكوا جميعاً منذ زمن بعيد، ولكن بما انه قد انتقلت إليَّ جرائر أعمال والدي فها أنا ذا أريد، في سبيل بلاد [ي] وبسبب الطّاعون، أن أقدم لكم، أيها الآلهة، سادتي، قرابين التضحية.

فلتقتلعوا المصائب من قلبي ولتنزعوا من روحي الخوف...[1]».

1- Ibid, S. 37t.

«رأس الشمرة» في «مينة البيضا» وجبيل، مدينة الورق

قراءة رموز رأس الشمرة وجبيل

كم رموز من الليالي الساهدة

ادوارد دورم

تقع رأس الشمرا، كما تسمى عادة أو بكلمة أدق رأس الشمرة، على بعد كيلو متر واحد من الجنوب الشرقي من «مينة البيضا» - «الميناء الأبيض» في سوريا، ومن الصعوبة بمكان إيجاد ذلك الرأس وذلك الميناء على خرائطنا، ولكن لنحاول أن في نمدّ في الخيال خطاً يتجه بصورة مباشرة إلى الشرق من الجهة الشمالية - الشرقية من نهاية قبرص، فإذا ما عبر البحر قطع الساحل السوري عند تلك الـ «مينة البيضا» الخاملة الذكر، والعارية من الأهمية في وقتنا الحاضر، وعلى بعد 12 كيلومتراً إلى الجنوب منها تقوم مدينة تظهر عادة على الكثير من الخرائط هي مدينة اللاذقية، لاوديكيا القديمة.

أصبح كلا المكانين، الرأس والخليج معروفين لدى علماء الآثار منذ فترة لا تزيد عن الثلاثين عاماً، لكنهما خلال هذه الفترة القصيرة حققا أكبر شهرة ممكنة وذلك بإغنائهما معارفنا بفيض من الكشوفات الجديدة والمثيرة إلى درجة تهز الخواطر. وبواحد منهما ترتبط الكتابة الجديدة.

في شهر آذار من عام 1928 كان أحد الفلاحين يحرث حقله في «رأس الشمرة» فوقع على جبانة مجوفة. وبسرعة البرق انتشر نبأ المواد الجديدة المهمة التي تم العثور عليها في ذلك المكان وبلغ مسامع حاكم دولة العلويين التي كانت رأس الشمرة تدخل في أراضيها. ونقل الحاكم ذلك النبأ بعد ذلك إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية في بيروت وسرعان ما هرع إلى

مكان الاكتشاف البروفيسور فيرولو، مدير أعمال التنقيب التابعة للمفوضية العليا في سورية ولبنان برفقة مساعده، وهناك قام الباحثان باستخراج عدد من القطع السيراميكية، واستدعي عالم الأثريات المشهور موريس ديونان لتقدير قيمتها العملية. وقد انتهى فحص المكتشفات إلى نتيجة اتفق عليها الجميع وهي: إن الحديث يدور عن فازات قبرصية وميكينية من القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد.

فالمواد، بناء على هذا، كانت مجلوبة. ومن ذلك لم يكن من المستبعد الافتراض بأنها وصلت عن طريق «مينة البيضا» لكن ذلك يعني أن مينة البيضا كان يجب أن تكون، في السابق، نقطة استيراد وتصدير مهمة ومركزاً تجارياً في العهود القديمة، وأنها كانت على ما يبدو تقيم علاقات حيوية مع قبرص وبحر إيجه. وما إن توصل ديونان إلى هذه الاستنتاجات حتى أخذ بالتوسط لدى الأكاديمية الفرنسية للنقوش الكتابية لإيفاد بعثة إلى مينة البيضا ورأس الشمرة. وقد ووفق على ذلك وبوشر بالحفريات سنة 1929 بإشراف ك. شيفيروج. شيني وهي لا تزال مستمرة حتى الآن، ويمكن أن ننظر إليها على أنها واحدة من أوفر البعثات التنقيبية نجاحاً في العصور الحديثة والمعاصرة.

لقد وضعت هذه الحفريات في أيادي العلماء مجموعة كبرى من أكثر الحقائق مفاجأة، وأنارت مجدداً تاريخ المدينة القديمة المكتشفة بالقرب من رأس الشمرة، والتي كانت رسائل تل العمارنة قد أشارت إلى وجودها-وإلى اسمها - أوغاريت. بالطبع كان عالم العلْم ينتظر قبل كل شيء معلومات جديدة عن سوريا القديمة، ولتكن معلومات غير صاعقة، إذ سبق أن دُرس ذلك الميدان بصفة جيِّدة نسبياً، لكنها معلومات يمكن أن تتخذ قيمة ملموسة على الأقل. وعلى الرغم من أن علماء الآثار قد مُنيوا بخيبة أمل في هذا المضمار فإن مكافأة مضاعفة أضعافاً كانت بانتظارهم على صعيد آخر. فتلك الأشياء التي أرغمت على لزوم الصمت آلافاً من السنين، والتي أخرجت إلى السطح، نطقت فجأة ويا لفصاحة اللغة التي تكلمت بها. كان أول ما قدمته للباحثين من معلومات هو أن التأثيرات الأجنبية كانت قوية جداً في تلك المدينة الواقعة في الشمال السوري والتي كانت زاهرة وثرية في يوم ما. وقد لوحظت اللكنة المصرية واضحة فيها، لكن التأثير الإيجي زاد عليها حتى وصل حداً جعل الحفريات، وبخاصة في الطبقة المتأخرة، تقدم انطباعاً كاملاً عن مستعمرة إيجيّة.

أشارت الطبقة الأكثر قدماً إلى تاريخ الألف الثالث قبل الميلاد. وتحت الطبقة الثانية (القرن العشرون - القرن السادس عشر ق.م) والواقعة تحت معبد رأس الشمرة الكبير والذي كان قد بني في فترة لاحقة، اكتشف مدفن أو مقبرة قديمة. وقد مكّن انعدام السيراميك

القبرصي بين موجودات الدفن من القول باستحالة الحديث عن التأثير الحضاري القبرصي في تلك الفترة. وكان الأمر أكثر وضوحاً بالنسبة للطبقة الأعلى (القرون الرابع عشر فالثاني عشر ق.م). ففي مكان المدفن القديم انتصب معبد كبير، تم اكتشافه عام 1929 وقد عدّوه آنذاك خطأً القصرَ الملكي وكانت آثار الحريق تدل على أنه كان ضحية النيران حتى في العهود القديمة. في ذلك المكان وبالقرب من التماثيل المصرية، وإلى جانب نقش كتابي إهدائي كتب بالمصرية أيضاً، وجدت صور إلهين من الآلهة المحليين يمثلان عن حق مدينة أوغاريت - تلك البوتقة التي انصهرت فيها أكثر الحضارات اختلافاً:- تمثال إلهة بملابس مصرية ومسلة محفوظة بصورة جيدة لذلك الذي كان يسمى «الإله ذو التاج الريشي». أما أسلوب الصورة الأخيرة فلا يمكن إخضاعه لتفسير دقيق بما فيه الكفاية، فهو يمثل شخصاً واقفاً يمسك بيسراه رمحاً وباليمنى صولجاناً مستقيماً، وهو رمز السلطة الذي كان النحاتون والرسامون المصريون يختصون به الملوك الأجانب (أما ملوكهم، الفراعنة، فكانوا يقبضون على صولجانات معقوفة الطرف)، أما رأس ذلك الشخص فيزينه تاج طريف من الريش، أما المئزر الأمامي ذو الحزام والخنجر ذو المقبض والحذاء المدبب الرأس، وهي ذات نمط حثي دون شك، فكانت تكمل ملابس التمثال.

لا يمكن أن ينظر إلى هذا التمثال الذي يعكس ملامح متفرقة من التأثيرات المصرية والسورية والدخيلة من آسيا الصغرى على أنه نتاج إحدى هذه الحضارات الثلاث المشار إليها. إن من الأدق الحديث عن حضارة مختلطة، أما التمثال نفسه فيمكن اعتباره رمزاً لأوغاريت - «بوتقة انصهار الحضارات». ونحو الاتجاه نفسه تسير بنا لقية أخرى وقعت في أيدي علماء الآثار سنة 1932 وهي ما يسمى بـ بعل رأس الشمرة - قطعة حجرية محفوظة بصورة جيدة يبلغ ارتفاعها متراً ونصف المتر تقريباً، وتمثل الإله بعل في هيئة إله الريح، تقبض يده اليمنى بقوة على دبوس بينما يغمد باليسرى سنان رمحه في الأرض وقد التصق بشجيرة تتحول في الأعلى إلى زخارف من الأوراق. وغطى رأسه بخوذة عالية يزينها قرنان، أما ملابسه فتتألف من مئزر بحزام يتدلى منه خنجر في قراب معقوف. ويمكن أن نميّز أمام الإله صورة صغيرة لرجل في ملابس سورية ولعلّه هو الذي قدم المسلّة - ملكُ المدينة.

غير أن اللؤلؤة الحقيقية التي تم العثور عليها بين معدّات الدفن الوفيرة العدد والتي اكتشفت في مدفن مينة البيضا المجاورة - كانت غطاء صندوق بيضوي الشكل من العاج نقشت فوقه صورة بوتنيا تيرونا، إلهة الخصب الكريتية - الميكينية. كان الجزء الأعلى من جسم الإلهة عارياً وغطي الجزء الأسفل بتنورة طويلة وكانت تحمل في يدها حزمة بينما ظهر

على كل من جانبيها جَدْيان على خلافيتيهما. لقد كان كل من مينة البيضا ورأس الشمرة يخفي في أعماقه بضعة مقابر كبيرة للملوك كريتيين - ميكينيين. وبصورة عامة فإن موجودات جميع تلك القبور المكتشفة قدمت الكثير جداً من أجل استعادة لوحة شاملة للتداوب الواضح بين الحضارات المتجاورة التي تأتّى لأوغاريت أن تكون مسرحاً لها ذات مرة: عدد كبير من الأختام الأسطوانية وغيرها من المواد الأخرى التي كانت ترافق المتوفى إلى حياته الثانية، وتعود بأصولها إلى مصر وما بين النهرين وآسيا الصغرى أو جزيرة قبرص أو كريت وكانت تغفو في ذلك المكان إلى جانب هدايا أخرى تعود إلى الطابع المحلي التوليفي.

غير أن أرض رأس الشمرة، منذ أول ضربة بالمعزقة قدّمت، لعلماء الآثار وللمؤرخين وبخاصة «للعارفين بالكتابة» في جميع أنحاء العالم، هدية أخرى أعدت من أجلهم وتحتل المكان الأبرز بين جميع المكتشفات.

ففي سنة 1929، وخلال الحفريات التي كانت تجري في رأس الشمرة في المعبد الأكبر، الذي كان معتقداً آنذاك أنه القصر الملكي، وجد الأثريون أنفسهم أمام عدد كامل من الحجرات البالغة الصغر والشبيهة بالممرات، وكان يمكن لأمثال هذه الحجرات أن تؤدي في القصر الملكي وظيفة مخازن المؤونة فقط. بيد أنه في الرابع عشر من أيار من ذلك العام نفسه -1929- وجهت أول ضربة إلى مثل هذا التفسير - ففي ذلك اليوم وفي زاوية أحد تلك الممرات وبين النفايات والأتربة المتراكمة تم العثور على لوحات مسمارية، وقد أدرك العلماء فيما بعد، وبعد أن اغتنى العلم نتيجة لحفريات 1930-1932 بمكتشفات نصوص مسمارية جديدة وأكثر أهمية، أنهم قد عثروا في تلك الحجرات على مكتبه المعبد وعلى مدرسة للكَتَبَة. وظهر أن تلك اللوحات هشّة جداً - إذ إنها كانت شواهد حريق هائل وقد تعرّضت لتأثير النار المدمّر. لهذا كان لا بد قبل كل شيء من إعدادها بحذر شديد لشحنها ومن ثم الشروع بدراستها. وعندما تم التعرّف على بعضها بصورة أقرب اتضح أنها شبيهة جداً بلوحات تل العمارنة، المكتوبة بالمسمارية البابلية. وعثر أيضاً على جداول بالمفردات كانت معروفة من النصوص البابلية المسمارية - وكان هذا ما دعا إلى القول بوجود مدرسة للكتبة. بيد أن القسم الأساسي من اللوحات سلك مسلكاً أشد غرابة مما قامت به مكتشفات أرشيف بوغازكي منذ عشرين عاماً، لقد تم اكتشاف صاعق: فتلك اللوحات كانت تتضمن نصوصاً مدونة بكتابة مسمارية لا يمكن قراءتها بأيّ حال وغير مفهومة على الإطلاق، كتابة اختفت وغابت في طيات النسيان منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة!...

لكن آلهة أوغاريت القديمة، الذين غمروا علماء الآثار في القرن العشرين بحفنات كاملة من هداياهم، زادوا في هباتم، إذ تقدموا في الوقت نفسه بما يشبه المفتاح لسرّ تلك اللوحات المدهشة - فمنذ الحفريات الأولى تم العثور على بضعة مستودعات للأسلحة البرونزية كان من بينها خمسة فؤوس حربية مغطاة بتلك الكتابة المسمارية الغامضة.

تعد حفريات رأس الشمرة صفحة مشرقة في التاريخ الحافل لعلم الأثريات الفرنسي. ويسجل للباحثين الفرنسيين فضل لا ينكر في حل الأحجية الغامضة المرتبطة بتلك الحفريات - وذلك في فك رموز الكتابة المسمارية الأوغاريتية المجهولة ولغتها المجهولة. فهنا، في بيروت، غير بعيد عن مكان الحفريات، كان الأخصائيون المحنكون يعملون وكلهم استعداد للاستجابة السريعة لكل جديد يظهر إلى النور في أوغاريت. فخلال حملة الحفريات الثانية كان شيفير وشيني يكشفان ويرسلان الكنوز، واحداً تلو الآخر، ويقومان بإنقاذه من يد الزمن التي تدمر كل شيء، وكان فيرولو الحذر يقوم بإصدار النصوص المسمارية الأولى ويعد النصوص التالية للنشر. وفي الوقت نفسه وفي مدينة عالية البعيدة (فوق زحلة) كان أحد العلماء الألمان منكباً على عمله في مكتبه بكل نشاط ودأب. ولم يكتف فقط، وهو منقطع في مكتبه، بتحريك قضية قراءة رموز الكتابة الجديدة وشرح لغتها الجديدة فقط بل واستطاع إلى حدّ ملموس وصميمي أن يسير بتلك القضية إلى نهايتها.

ولد هانس باوير، وهو ابن مهندس زراعي من غروسمانسدورف الواقعة قرب بامبيرغ، في السادس عشر من كانون الثاني سنة 1878. وفي سني دراسته الأولى كان يتردد على الجمنازيوم في بامبيرغ وبعد أن اجتاز امتحانات الكفاءة بنجاح دخل الغريغوريان - الجامعة البابوية في روما، وهناك انصرف إلى دراسة الفلسفة واللاهوت والعلوم الطبيعية واللغات (رغم أنها لم تكن اللغات الشرقية بعد)، حتى إذا عاد إلى بلاده أمضى مدة عامين كاهناً في المستشفى العمومي في بامبيرغ. ولم يشرع بدراسة اللغات الشرقية إلا سنة 1906 في برلين، وكان من بين أساتذته هناك الأستاذ ديليتش، الذي كان في حينه أستاذاً لغروزني، وقد واصل باوير دراسته في لايبزيغ بإشراف تسيمّرن، وفي سنة 1910 ناقش أطروحته في برلين وفي سنة 1912 نال لقب أستاذ مساعد في غالاً.

وقد كان هانس باوير، الذي نال في نهاية المطاف شهرة المتبحر الكبير في لغات الشرق، عالماً لغوياً مجرّداً، بخلاف الغالبية العظمى من معاصريه الذين ربطوا مصائرهم بدراسات تاريخ الفكر في البلدان الشرقية. ومما يذكر أن أعماله اللغوية المجرّدة تشير إلى أنه كان يملك منهجاً حمل إليه فيما بعد شهرة قارئ الرموز.

كان يتمتع بقدرة متطورة جداً على تكوين التراكيب الذهنية، وبحدس لا مثيل له في الدقة في تلمّس العمليات الحياتية التي تحدث داخل اللغة، أما عبقريته في صياغة التراكيب فكانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بميله الواضح نحو الرياضيات. وبالمناسبة، علينا أن نذكر أنه كان يميل إلى جميع تلك المعارف المختلفة التي جمّعها من خلال دراساته والتي لم يكن علماء الساميات، بصورة عامة قد تسلّحوا بها. فقد كان ذا اطلاع كاف على علم الفلك وعلم الحيوان ولم تكن العلوم الطبية بغريبة عنه، كما كان يعدّ خبيراً كبيراً في فلسفة العصور الوسطى. وكان قد تعلم بصورة متعمقة جميع اللغات السامية الرئيسية (وهذا حقل واسع جداً لا ينجح في فلاحته جميعه الآن إلاّ عدد قليل جداً من علماء الساميات) وكان يقرأ بجميع اللغات الأوروبية تقريباً كما درس عدداً كبيراً من اللغات غير الأوروبية ومنها الصينية ولغة الملايو والكورية. وقد منحه ذلك كله امتيازات خاصة في الدراسات المقارنة في ميدان علم الدلالة.

وكان من حق هانس باوير، وقد تزود بكل هذه المعارف، أن يسمح لنفسه بالسير في الطريق المجهول. وعلى الرغم من أن الكتابين القواعديين اللذين وضعهما - قواعد العبرية القديمة وقواعد آراميّة التوراة - لم يستقبلا بالاعتراف الشامل فإن هذين العملين بالذات كانا يمثّلان اقتحاماً جريئاً في الميادين الأكثر ظلاماً في تاريخ اللغة، ويقدّمان أنموذجاً لطرح جديد تمام الجدة لموضوع زمَنَي الفعل السامي وتطورهما. وقد هاجم باوير هذه القضية من مواقع محفوفة بالخطر. إلا أنه بالإضافة إلى إمكاناته التركيبية على ما يبدو، كان معزَّزاً في تلك المعركة بذلك الحدس الذي سلفت الإشارة إليه وهو حدس العارف بالحياة الضمنية للغة وبأعمق قوانينها الضمنية الخفية. ذلك الزخم المشترك من الحدس التركيبي واللغوي هو الذي أدى بعد وقت قصير إلى واحد من أكبر الانتصارات غرابة في تاريخ القراءات الحديثة بصورة عامة: إلى قراءة باوير للإسفينات التي عثر عليها في أوغاريت وإلى اكتشاف لغة جديدة - لغة هذه الآثار. ويزيد من أهمية ذلك الانتصار في ضوء الحقيقة القائلة بأن باوير، ذلك الشخص المسرف في الانغلاق على نفسه وعزوفه عن معاشرة الناس، قد حقق تلك المأثرة العلمية وحيداً.

فلنتابع الآن أعماله ونقفو عملية قراءة الرموز، معتمدين على الوصف الواضح والمفهوم والمقدم من قبل باوير نفسه[1].

1- H. Bauer, Die Entzifferung des Keilschriftalphabets von Ras Schamra , - Forschungen und Fortschritte, Bd VI, 1930, Ss. 306-308.

كان قد لوحظ في مكان الكشوفات أن الكتابة الجديدة تتضمن عدداً قليلاً من الرموز إلى حد ما (عرف آنذاك 27 رمزاً والمعروف الآن 30 وهناك عدد من الباحثين الذين يميزون 32 منها) وقد قام بتلك الملاحظة إنسان دعي خصيصاً من أجل ذلك وهو شارل فيرولو. وفي الوقت نفسه أنهى ملاحظته بقوله بأننا أمام كتابة أبجدية - فذلك العدد المحدد من الرموز لم يكن يسمح حتى بفكرة وجود كتابة مقطعية أو ايديوغرامات.

وهكذا ما كان للحديث يمكن أن يدور إلاّ حول كتابة أبجدية شبيهة بالفارسية القديمة - وهذه الكتابة كانت مثلَ الفارسية التجلَ الأخير لمسمارية ما بين النهرين، إلا إنها كانت تنتسب لفرع أقدم عهداً وأقدم عمراً من الكتابة الفارسية بفترة تزيد عن الألف عام. وفضلاً عن ذلك فإنها انبثقت من منطقة استحقت مفخرة أن تسمى الموطن الأصلي لجميع الأبجديات الحرفية بما في ذلك الكتابة الحرفية الفينيقية، التي كانت تعتبر في ذلك الوقت أقدم أبجدية سامية. ومن الواضح أن فيرولو، وقد كان واقعاً تحت التأثير الشديد للاكتشافات الأخرى، طرح فرضية أن تكون لغة الآثار الجديدة للكتابة لغة قبرصية أو حتى لغة ميتانيّة عرفت في رسائل تل العمارنة.

غير أن باوير اقتنع عند إلقائه أول نظرة على هذه الكتابات، بحتمية أن تكون وراءها لغة سامية. واتخذ من تلك القناعة التي لم تكن في ذلك الوقت أكثر موثوقية من اثنتي عشرة من مثيلاتها، فرضية عمل بالنسبة له... ولم يخطئ.

حتى السابع والعشرين من نيسان سنة 1930 - وذلك خلال بضعة أيام فقط - استطاع باوير وحيداً دون ثنائيات ودون محدِّدات أو ايديوغرامات ودون تلك الأسماء الأعلام التي سرعان ما تهرع لمساعدة العلماء، أن يفك رموز الكتابة التي وقعت أمام ناظريه لأول مرة عندما تسلّم النصوص التي نشرها فيرولو في ذلك الشهر نفسه - نيسان.

أما المنهج الذي سار عليه عالم الساميات الألماني فقد تجلّى فيه بأوضح صورة ما كنا قد أشرنا إليه سابقاً وهو الجمع الموفق بين القدرات التركيبية والمعارف اللغوية.

كان باوير، كما ذكرنا، قد انطلق من فرضية تقول بأن هناك لغة سامية تثوي خلف تلك الكتابة. وانطلاقاً من هذه الفرضية طبق على النصوص المطروحة أمام ناظريه القوانين التي تحكم بناء اللغات السامية.

أما نقطة الانطلاق الوحيدة فكانت اشتمال النصوص على الفاصلة بين المفردات وهي خط عمودي. فقد عثر باوير بين أمثال هذه الفواصل على رمز مسماري يقف بطريقة واحدة ويتردد بصورة متوالية بكثرة. فأثار ذلك في خاطره الفكرة القائلة بأن الحديث يدور عن

المفردات «وحيدة الحرف»، وهي تعتبر خاصية لا بد منها في اللغات السامية التي تقتصر في كتابتها على السواكن، كما هو معروف. وقام في الوقت نفسه، ومن خلال الملاحظة البسيطة للمظهر الخارجي للكتابة، باستنتاجه الثاني: إن الفواصل بين الكلمات تنبئ، على غير إرادة منها، ببدايات الكلمات ونهاياتها ففي بدايات الكلمات وفي نهاياتها تظهر السوابق واللواصق. والسوابق في اللغات السامية الغربية يمكن أن تكون «ء» (وهي لفظ حلقي يجيء قبل ساكن) ثم *n, m, j* و *t* كما يمكن أن تكون *b, h, k, L, w* ؛ أما اللواصق فيمكن أن تكون *h, k, m, n,* *t*، وقد تكون *w* و *j* ؛ وأما الكلمات الوحيدة الحرف فهي - *L* و *m* وقد تكون *k, b* و *w*.

وهكذا، ومنذ البداية الأولى حدد وبصورة صارمة اختيار المعاني اللفظية وذلك من أجل بعض الرموز المسمارية المحدَّدة وبالذات من أجل الرموز المائلة في بدايات الكلمات وفي نهاياتها. وبفضل ذلك تحرك باوير بصورة أقرب نحو قراءة النصوص.

وقد انتهى بتلك المعاني اللفظية، والتي كان يُنظر إليها، بناءً على التراكيب التي أوردناها، على أنها معان لرموز محدّدة، إلى اللوحة التالية:

في اللغات السامية يمكن أن نلتقي بالألفاظ التالية:

كسوابق	كلواصق	ككلمات وحيدة الحرف
I	D	III
ء		
S		
j	h	L
M	k	m
N	m	(b)
I	n	(k)
(b)	t	(w)
(h)	(w)	
(k)	(j)	
(L)		
(w)		

والتفت باوير بعد ذلك إلى الوسيلة السهلة المجرية جيداً، إلى الدراسة الشاملة للنصوص من وجهة نظر تردُّد استعمال الرموز المنفردة. واصطدم آنذاك بحقيقة أننا كثيراً ما نلتقي في

جميع الوظائف القواعدية المطابقة للصفوف الثلاثة المشار إليها (1، 2 و 3) برمزين مسماريين محدَّدين. فصار على أثر ذلك يبحث عن الرموز التي تظهر في الوظائف الثلاث جميعاً وقد عثر على ثلاثة منها هي *k* ، *m* و *w* (ويمكن أن نحدّدها على الفور إذا ما ألقينا نظرة سريعة على جدولنا) وبالإضافة إلى هذا يسارع باوير إلى إسقاط *k* نظراً لندرة استعماله في الوظائف القواعدية المشار إليها، وهذا يتبقى لديه *m* و *w*.

وقد بيّنت الدراسة التالية للنصوص، أن الرمزين الآخرين، اللذين نلتقي بهما بصورة متكررة جداً، ونقصد بهما الإسفينين الأفقيين وأحدهما منفرد والآخر ثلاثي، يظهران بصفة سابقتين ولاصقتين، ولا يظهران بصفة كلمات وحيدة الحرف بمعنى أنه كان يجب أن يظهرا فقط في الصفين 1 و 2؛ وقد كان مثل هذا الشرط ملائماً، كما نلاحظ، لحرفي *n* و *t*! وعلى أيّ حال ليس لنا أن ننسى أن باوير، وقد وصل إلى هذه المرحلة من براهينه لم يكن يعرف بعد أي من الرمزين المشار إليهما يعبر عن *m* وأيٌّ عن *w*، ولم يكن يعرف أيضاً أي رمز من الزوج الثاني يعبر عن *n* وأي عن *t*. فالجدول كان يفترض الاختيار في الحالتين بالنسبة لكل زوج. لكن الرموز الأربعة كانت مع كل ذلك محصورة فقط ضمن معان لفظية أربعة وما كانت تسمح إلا بإمكانيتين للاختيار، الأمر الذي سهّل على الباحث أن يتعامل مع هذه الرموز الكثيرة التوارد.

إذ ذاك استعان هانس باوير بالوسيلة التي قدمها إليه ناشر النصوص شارل فيرولو، فقد لاحظ هذا أن المجموعة ذات الرموز الستة، والمطروقة على الفؤوس البرونزية العديدة، التي تم العثور عليها أثناء الحفريات، تشاهد أيضاً في مستهل إحدى اللوحات المسمارية وإن كان يتقدمها هناك رمز واحد. وقد استنتج فيرولو من هذا أن مجموعة الرموز المنقوشة على الفؤوس كانت تمثل اسم علم لشخص وأن بداية النص المكتوب على اللوحة المسمارية - هي الأسطر الأولى من رسالة موجهة إلى ذلك الشخص. لكن ذلك الرمز الإفرادي الواقع أمام هذه المجموعة من الرموز كان يمكن أن يعني - برأي فيرولو - حرف الجر الذي يوضع في اللغات السامية وعدد من اللغات الأخرى أمام الاسم وهو يطابق حرف الجر الأكادي *ana* (ويعبّر عن مثل هذه العلاقة في اللغة العربية بحرف لِ).

وقد استغل هانس باوير هذه الملاحظة بمهارة، فاتجه تفكيره إلى أن حرف الجر *ana* الأكادي (السامي الشرقي) يقابله حرف *L* (*Li* لِ) في اللغات السامية الغربية وهكذا يكون الرمز الواقع في بداية الرسالة المومى إليها هو حرف *L*.

وبعد أن تسلح باوير بذلك الرمز حامل المعنى اللفظي *L* وبالشكلين المحتملين لـ *m* اتجه كرياضي إلى مساعدة ما يمكن تسميته بـ «نظرية الاحتمالات» والتكافؤ بأحد المجاهيل. كانت نظرية الاحتمالات تعني، في تلك الحالة، تصوراً لا يساوي بالنسبة للأخصائيين في الساميات دانقاً واحداً. أما بالنسبة لغير الأخصائيين فإنه يولد لديهم انطباعاً بأن «الكتابة السامية عن طريق السواكن فقط» والتي تبدو لنا أبعد ما تكون عن الكمال، تحمل في الوقت نفسه وجهاً إيجابيا. فقد اتجه باوير إلى البحث عن الكلمة التي تحمل نصيباً من احتمال الورود في النصوص وهي كلمة «ملك» *mlk* في اللغات السامية الغربية (وسنتعرض لهذه الكلمة مجدداً في الفصل الخاص بكتابة قبرص). وجرب في البداية أحد شكلي حرف *m*. وقد وقع نظره في أحد النصوص على كلمة توصل من خلال قراءتها، وفي ضوء تلك النظرية، على *mL* بالإضافة إلى رمز واحد مجهول عبّر عنه باوير وفق طريقته المحبوبة بـ «*x*» ولكن أكانت «*x*» = *k* وهل كانت الكلمة هي *mlk* «ملك» فعلاً؟ لقد تحولت الفرضية إلى أمر مؤكد كل التأكيد بمجرّد أن وجد في نص آخر صيغة *mlxx* التي كان يجب أن تعني «ملكك» وهكذا توصل إلى الاقتناع بأنه عثر على رمز جديد للـ *k* وانه حدّد *m* بصورة نهائية[1].

وخطا باوير بعد ذلك بضع خطوات إلى الأمام فوق ذلك الطريق - طريق البحث عن المفردات المحتمل وجودها ضمن النصوص. وكان أقرب أهدافه كلمة *bn* = «بن» وفي البداية لم تأتِ أبحاثه عن هذه الكلمة بأيّ ثمرة إلاّ أنه في النهاية وجد على لوحة كانت تتضمن، وفق أقرب الاحتمالات، سجلاً بأسماء من بينها رمزان تردد وجودهما 15 مرة قبل غيرهما من مجموعات الرموز التي كانت تتبدل كل مرة دون أن تنفصل عن هذين الرمزين بفاصل. كان أحد ذينك الرمزين - وهو الثاني في المرتبة ويتخذ شكل إسفين ثلاثي أفقي - شيئاً معروفاً

1ـ وفاءً للحق نعرض فيما يلي إلى أيّ درجة من النتائج الخاطئة يمكن أن تؤدي حتى تلك التكوينات الذكية التي لا تضمن صحتها غير التجربة الطويلة للباحث. ذلك أن باوير قد أخطأ في هذه النقطة وسرعان ما صوّبه دورم فحرف k الذي قال به تبينّ أنه في الواقع m وتبينّ أن الـ m هي š. إذ إن باوير لم يضع في اعتباره (وكان مجبراً على الاّ يفعل ذلك على ما يبدو في المرحلة الأولى من أبحاثه) أن الكاتب القديم لم يستخدم الفاصل بين الكلمات قبل الكلمة الموصوفة، فكان ذلك يعني أن تركيب الرموز الذي اعتبره باوير لاصقة كان في الحقيقة كلمة وحيدة الحرف. وكان من الطبيعي أن يجر هذا الخطأ أخطاء من بعده. ومع هذا فإننا سنواصل في عرضنا هذا براهين باوير بسبب كمال صحتها في الأساس وكونها المنهج الذي وصل به إلى الهدف.

بالنسبة لباوير؟ فوفقاً للجدول الذي وضعه كان لا بد لذلك الرمز من أن يعبّر عن *t* أو *n*؟ كما أن الرمز الأول كان مما التقى به أيضاً في صيغة المفردات وحيدة الحرف، وقد أكدت مجرد نظرة إلى الصف الثالث أن الحرف هو *b*. وهكذا تم العثور على كلمة «ابن» وحدّد حرفان هما *b* و *n*.

ولعل من غير الفائض عن الحاجة هنا أن نقطع استعراض مسيرة القراءة لكي نعبر عن المشاعر التي تعترينا: فنحن نسترق الخطى إلى جانب الباحث كالصيادين الدهاة وتنكمش قلوبنا في كل مرة ينجح فيها - وليسامحنا على هذه المقارنة الفظة - في «اقتفاء الأثر» أو ينصب فخاخه ليقع فيها الحرف الجديد. ولنقل بصراحة إنه بالإضافة إلى حرف *b* وقعت في يد باوير الطريدة الثمينة: حيث يجتمع *b* مع *L* وهذا يعني أن كلمة (*Ba'aL*) - بعل لم تعد بعيدة. فهذه الكلمات تحتوي في اللغات السامية على ثلاثة سواكن كما نرى، إذ إن الحرف الذي تؤديه الكتابة التحليلية بـ (،) هو الحرف الحلقي الانفجاري عين. وهكذا انتهى باوير إلى العثور على تركيب الأحرف التالية *b-x-l*. وعلى الرغم من أن اللوحة كانت صغيرة فقد ترددت تلك الكلمة فوقها سبع مرات! وهكذا تم تحديد حرف عين.

وانطلاقاً من أمثال هذه المحاكمات استطاع هانس باوير أن يحدّد في دراسته الأولى 17 رمزاً. أما هو فقد قرر بأنه قد ناقش بصورة صحيحة 20 رمزاً، وانه يشك في صحة تحديده لـ 5 أخرى، كما أن 2 منها بقيت بعيدة عن التفسير بسبب ندرة ورودها. وقد أشار باوير أيضاً إلى أن التفسيرات سارت بطريقة تغاير الوصف الذي قدمناه والذي سرنا فيه على خطى وصفه الخاص لمنهجه، والذي قدمه في مرحلة متأخرة. ومن الواضح حتى ومن دون هذا أن تلك الثمرة الفكرية الباهرة التي صيغت في غضون بضعة أيام فقط لم تسقط من السماء؛ فنحن أمام نتيجة عمل متصل على امتداد ما لا يقل عن عشرين سنة في دراسات مشكلات الكتابة. بيد أن من الطرافة بمكان بل ومن المفيد أيضاً أن نساير عمل باوير في تلك الحالات التي أخطأ فيها.

أولاً، ارتكب باوير خطأً في أحد الصفوف عند وضعه للجدول الذي ذكرناه آنفاً والذي يجمع الرموز المسمارية وفقاً لوضعها في النص (السوابق واللواصق والمفردات وحيدة الحرف) - وذلك في المكان الذي عمد فيه قدماء الكتبة، بمكر ودون قصد، إلى السخرية منه عندما كانوا يربطون بين الكلمة وحيدة الحرف بالكلمة السابقة لها دون وضع فاصل بينهما. ولما لم يكن باوير يرتاب في شيء من ذلك اعتبر تلك الكلمة لاصقة وصنفها خطأً في العمود الثاني، وهكذا يكون قد حدّدها خطأً و «استنبط» من ذلك أيضاً بضعة معان، مماثلة لذلك في الخطأ.

ثانياً، تلك الفؤوس البرونزية التي ذكرناها آنفاً - ذلك المفتاح الذي أنزلته آلهة اوغاريت من أجل فك الرموز، والذي قام باوير باستعماله، - لم تكن أيضاً أقل مكراً من سواها. بل أن اثنتين منها صارتا بالنسبة للباحث تجسيداً للشر الماحق. وقد قمنا بعرضهما هنا ليس فقط بهدف استعراض ذلك الخطأ بل وأيضاً من أجل أن نمكّن القارئ من قراءة النص الأوغاريتي المسماري الأصيل حرفاً بعد حرف.

تظهر على أحد الفأسين (من اليسار) ستة رموز مسمارية، وتحمل الأخرى أيضاً تلك الرموز الستة لكن أمامها (أي فوقها على الشكل) تظهر أربعة رموز أيضاً. (وإن من يحاول العثور على تلك الرموز الستة فوق الفأس اليمنى سيكتشف أن قراءة حتى هذه الكتابة البسيطة ليست بالأمر السهل). وهكذا فإن المجموعة نفسها من الرموز الستة منقوشة على كل من الفأسين، وقد افترض باوير أن تكون متضمنة اسم صاحب الفأسين: أما ما يتعلق بالمجموعة الأقل عدداً من الرموز الأربعة فإنه توقع، وبصورة صحيحة إلى حد بعيد، أن يعثر على كلمة «فأس» (من وجهة نظر المنهج يكون بهذا قد طرح موضوع التناظر بين الشيء وبين النقش الذي فوقه أي يكون قد سار على نفس النهج الذي نجح ايميل فورّير في استخدامه أثناء عمله على حل رموز الهيروغليفات الحثية). ومن بين الرموز الأربعة التي كانت تعني، حسب فرضية باوير، كلمة «فأس» كان هناك رمز قد سبق التعرف عليه ونقصد بذلك الرمز رقم 4 وهو الإسفين الثلاثي الأفقي وهو n (من الضروري إمالة الشكل نحو اليسار بدرجة 90 إذ إن النقش مكتوب من اليسار إلى اليمين).

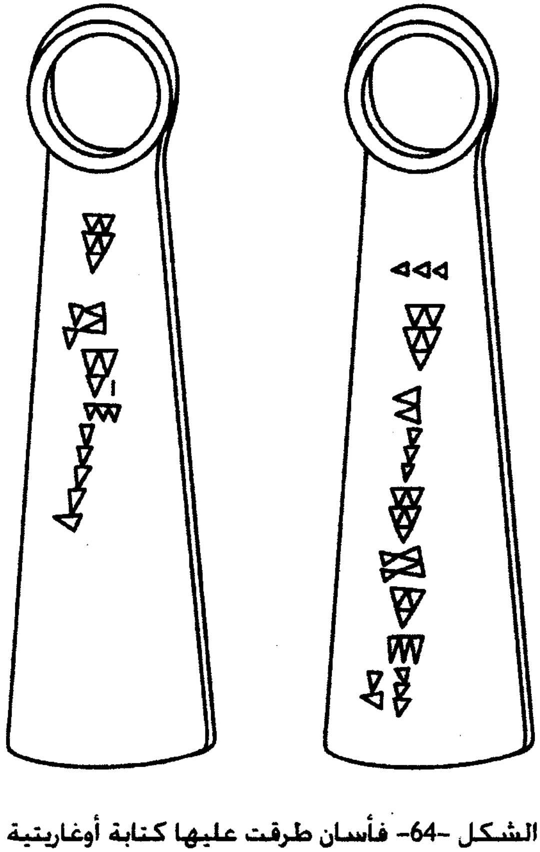

الشكل -64- فأسان طرقت عليها كتابة أوغاريتية

أما معنى الرمز رقم 2 فكان

باوير قد انتهى إلى تحديده من خلال المقارنات الأخرى: وهو حرف *r*. وهكذا تغدو مفهومه قناعة الباحث بأن أمامه الكلمة العبرية «هارس» بمعنى «فأس» وقد كتبت على شكل *grzn* وقدر بأنه بمستطاعه أن يضيف إلى الرموز المجهولة كلاً من رقم 1 ورقم 3 من هذه المجموعة وذلك بمعنى *g* و *z*. ولما انتهى من ذلك اتجه نحو مواصلة العمل على مجموعات أخرى من الرموز مستخدماً، بصورة طبيعية، المعاني التي يتحصل عليها مجدداً فيكون بذلك قد عمق الخطأ الذي وقع فيه.

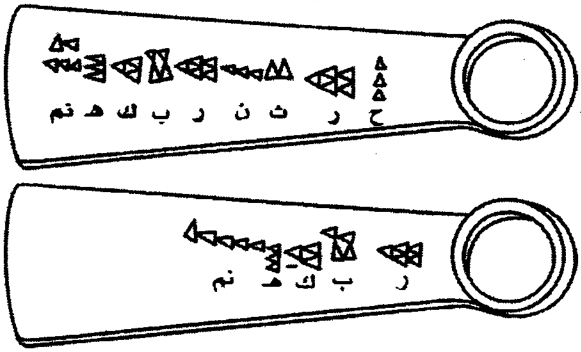

الكتابة مطروقة من الأعلى إلى الأسفل ونرى من الأكثر منطقية قراءتها من اليمين إلى اليسار فالنص المكتوب على الفأس اليمنى، يقرأ هكذا: ح ر ث ن ر ب ك هـ ن م، والآخر يقرأ هكذا: ر ب ك هـ ن م (المترجم).

وكانت القضية برمتها تنحصر في كون اللغة الاوغاريتية، على ما أظهرت الدراسة التالية لأبجديتها بعد حين، ابعد ما تكون عن التطابق مع العبرية القديمة. فقد كانت هذه لغة سامية مستقلة بذاتها، رغم اتصالها بالأخيرة بصلة النسب. و فأس «لم تكن في الاوغاريتية *grzn* بل كانت *hrsn*، أما الكتابة المطروقة على الفأس اليمنى فكانت بمجموعها تقرأ *hrsn rb khnm* حرثن رب كهنم وهي تعني فأس الكاهن الأكبر» أما الكتابة الأقصر ديباجة فوق الفأس اليسرى فكانت *rb khnm* أي «الكاهن الأكبر».

سبق أن قلنا إن هانس باوير أنجز في نهاية نيسان سنة 1930 دراسة نتائج أبحاثه وفي الرابع من حزيران من ذلك العام نشر في «صفحة التسلية»، ملحق «فوسّيشي تسايتونغ» إخبارية تمهيدية عن قراءته للرموز و تتضمن تحديداً لأربعة أحرف هي: الهمزة، ت، ر و ن وقراءة للإلهة عشير، عشتارته وبعل ورموز الآلهة ايل وايلواه بالإضافة إلى الأعداد «ثلاثة» و «أربعة» وأشار في الوقت نفسه إلى أن للهمزة رمزين مختلفين عن بعضهما. ثم ظهرت بعد ذلك إخبارية قدمها باوير للجمهور الواسع من القراء حول منهجه في القراءة وظهرت في العشرين من آب سنة 1930 في مجلة «فورشونغين أوند

فورتشريتّي» وفي بداية تشرين الأول من عام 1930 ظهر أول أعماله الكبرى بعنوان «قراءة رموز اللوحات المسمارية من رأس الشمرة». وكان عمله ذاك يتضمن كتابة تحليلية شاملة لجميع النصوص التي كانت قد صدرت حتى ذلك الوقت (وقد رأينا أنه لم يكن معصوماً بصفة كلية عن الخطأ في تفسيره لأبجدية أوغاريت) كما ظهرت «التتمة المهمة». وكانت تلك التتمة مهمة لأنها وضّحت المرحلة التالية الحاسمة من مراحل فك الرموز وعززت التوضيح بالتصويبات التي لم يكن منها بد للنظام الذي صاغه المؤلف مع الكشوفات العلمية الجديدة التي قام بها زملاء أستاذنا، ابن مدينة غالاّ.

وفي نهاية نيسان (سنة 1930) وقبل أن تظهر على صفحات ملحق «فوسّيشي تسايتونغ» الإخبارية التمهيدية لـ «قراءة رموز الكتابة الجديدة» كان البروفيسور باوير قد أخبر السيد رينيه ديوسّو، مدير القسم الشرقي في متحف اللوفر بباريس (كناشر لمجلة «سوريا» الاستشراقية، حيث كانت تصدر النصوص الأوغاريتية) بأنه قد تسنت له القراءة المبدئية للنصوص، وبعد بضعة أيام أنهى إليه النتائج المتفرقة والأكثر ملموسية من عمله. وتقدم رينيه ديوسّو بتقريره حول هذه النتائج في الثالث والعشرين من أيار (مايو) خلال جلسة الأكاديمية الفرنسية للنقوش الكتابية حيث قوبلت بما تستحقه من استحسان. وقد توافقت إرسالية باوير لديوسّو تقريباً مع الإخبارية المسبقة في «فوسيّشي تسايتونغ» والتي وقعت في يدي إدوارد دورم، أستاذ المدرسة الإنجيلية والأثرية في القدس (وسنتحدث عنه بتفصيل فيما بعد) وعندما بدأ ذلك العالم بدراسة الدلالات اللفظية المطروحة في ذلك العمل الذي قدمه باوير لم يكن فقط مسلحاً بالمعرفة المتعمقة لعمله بل وكان يملك تلك التجربة العملية لقارئ الرموز والتي تحصل عليها خلال الحرب العالمية الأولى.

تمكن دورم من إيصال عدد الرموز المقروءة إلى العشرين كما تمكن في الوقت نفسه من التخلص من بعض أخطاء باوير التي كانت محفوفة بالنتائج الخطيرة. وقد قام دورم بإخبار زميله الألماني بالنتائج التي توصل إليها بطريقة ما كانت إلا لتدلل على اللباقة العلمية الرفيعة لدى ذلك العالم الفرنسي، فقد وضع بين يدي العالم الذي من غالاّ، مقاله الذي أعده للمجلة التي كان يقوم بنشرها بنفسه وهي «ريفيو بيبليك» وكان المقال آنذاك على صورة بروفات للتصحيح فاستطاع باوير، على الأقل، أن يعزّز كتابه، الذي كان قد فُرغ من طبعه، بـ «التتمة المهمة» التي أشار فيها إلى الدلالات اللفظية وإلى قراءات دورم. والعمل الذي قدمه دورم، مضافاً إلى بعض المعطيات التي توصل باوير إليها بنتيجة نظرته الجديدة إلى المادة،

انتهى بباوير إلى ما يسمى بـ «أبجدية الـ 5 من تشرين الأول سنة 1930» والتي كانت تتضمن 25 رمزاً من الرموز التي تم تحديدها بدقة. وهكذا تمكن هانس باوير وإدوارد دورم خلال فترة لا تتجاوز نصف العام من انجاز فك الأبجدية في الأساس، وكان ذلك فقط بواسطة النصوص التي اكتشفت سنة 1929 وعن طريق بعض الجداول غير البليغة والمتضمنة أسماء المدن التي لا تقدم إلا النذر اليسير من أجل فهم اللغة[1].

وكما سبق وقلنا، فإن القراءة «المبدئية» «في الأساس» كانت بذلك قد أنجزت، لكن بعض الدلالات اللفظية كانت لا تزال محتجبة وكان بعض آخر قد تكشّف بصورة غير واضحة تماماً.

أما قضية إتمام فك رموز الكتابة الأوغاريتية فقد أخذها على عاتقه البروفيسور جان شارل غابرييل فيرولو الذي سبق أن ذكرناه أكثر من مرة. (ولد في 2 تموز سنة 1879 في باربيزييه، شارانتا).

كان دكتور الفيلولوجيا في المستقبل ومدير المدرسة التطبيقية للدراسات العليا التابعة للسوربون (*Ecole pratique des hautes etudes*) يهتم منذ صغره بدراسة اللغات الشرقية.

حتى الوقت الذي عين فيه فيرولو مشرفاً على أعمال التنقيب في سوريا ولبنان (في 1 تشرين الأول سنة 1920) وخلال عمله في ذلك المنصب، قام بنشاط وافر الثمار إذ سبق له أن قام بعمل كبير في مجال دراسة اللغتين العربية والفارسية وتاريخ الشرق القديم وجغرافيته وآثاره، وقام بأبحاثه في متحفي لندن واستامبول كما طاف آسيا الصغرى وإيران. وقام بتنظيم جميع البعثات الأثرية التي سافرت إلى هناك والتي أسهمت إسهاماً لا ينكر في دراسة التاريخ القديم لتلك المنطقة من الأرض، وبمبادهة منه وضع الأساس لعدد من المتاحف التي كان من بينها متحف بغداد ومتحف دمشق ومتحف حلب (وقد تحولت فيما بعد إلى مراكز للأعمال الدراسية الناشطة).

1- من الجدير القول بأن «أحقر» وثيقة من أمثال هذه الوثائق يمكن أحياناً أن تكون ذات قيمة كبرى. فأثناء عمليات فك رموز الكتابة الأوغاريتية تبينّ أن أكبر وثيقة صاعقة لاختبار صحة القراءة قدّمها جدول صغير عثر عليه فيما بعد، وكان قد وضع بالأبجدية المسمارية الأوغاريتية، وهو يعدّد المراكز المأهولة بالسكان ومقدار ما توّرده من الخمور. والطريف أن عدد الدنان كان مذكوراً بأرقام أوغاريتية كتبت من خلال بنانها اللفظي. وكان حاصل جمع تلك الأعداد يساوي 148 دنّاً بينما ذيّل ذلك الجدول بهامش كتب باللغة الأكادية يتضمن: «148 (بالأرقام) دناً من الخمر»، انظر:
J. Friedrich, Entziflezung verschollener Shriften und Sprachen. S. 71. F.

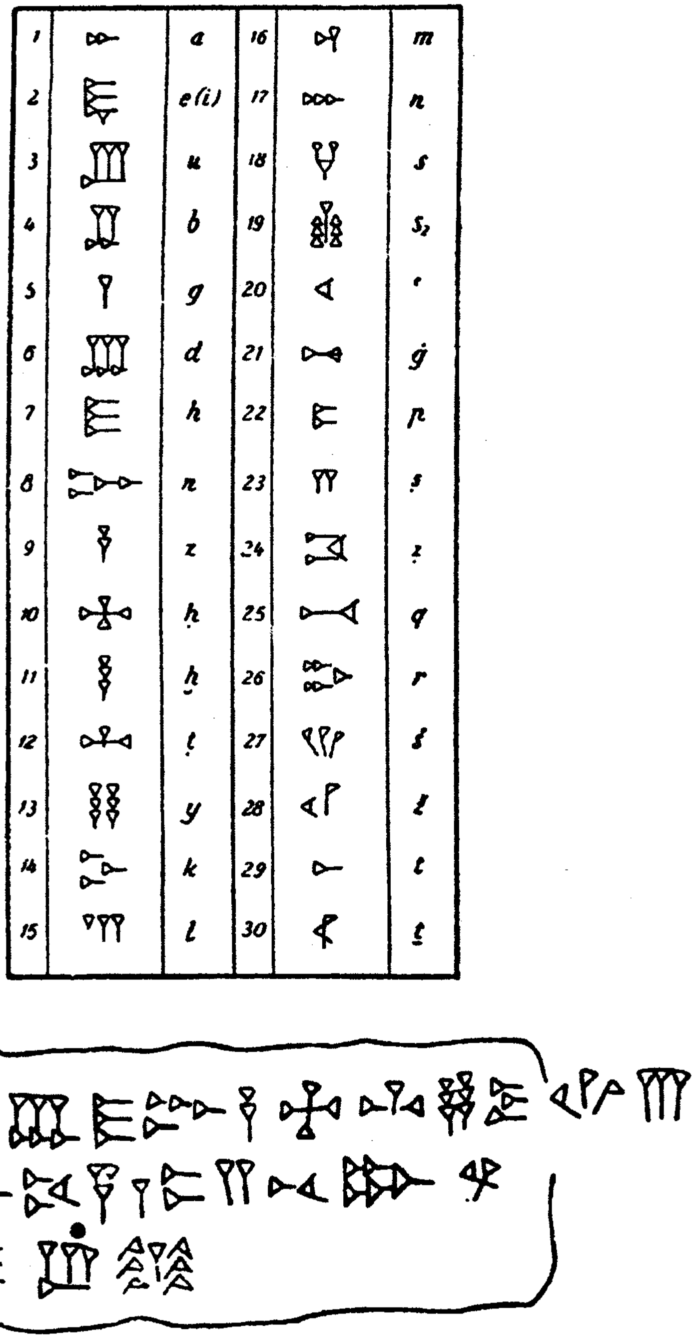

الشكل -65- أبجدية رأس الشمرة.
في الأعلى - وفق الشكل الذي يراه العلم الحديث.
في الأسفل - كما تظهر فوق لوحة فخارية من أوغاريت.

وعندما قام شيفير وشيني في ربيع سنة 1930 بضرب المعاول في تراب أوغاريت حالفهما الحظ من جديد، لكن اللقية في هذه المرة تجاوزت بقيمتها كل ما سبق أن عثر عليه في الماضي. فاللوحات الفخارية التي تم اكتشافها لم تكن تتضمن مجرد جداول أو جرود بل نصوصاً طويلة ذات طابع سردي مكنت أخيراً من إنجاز قراءة الرموز. وهكذا استطاع فيرولو أن يعطي أبجدية رأس الشمرة مظهرها الأخير. وما أن تقدم فيرولو بإخباريته الشاملة عن العمل الذي أنجزه[1] حتى ظهر أنه قد تعرف أيضاً على رمزين آخرين فوق ما حدده باوير ودورم وهما: الرمز الخاص بـ z والرمز الثالث للهمزة. وبهذا ألقى الضوء النهائي على طابع تلك الكتابة وبنائها.

إن طريق شارل فيرولو كعالم يوضح معالم شخصيته وإلى حد كبير كإنسان أيضاً. فالجزء الأساسي من دراساته التي كرس لها حياته بطولها يتعلق بتاريخ الدين، وفي هذا يكمن جذر كشوفاته وبذرتها وفي هذا أيضاً يثوي المفتاح نحو فهم شخصيته. فعلى سؤال طرح عليه ذات مرة حول الفترة المبكرة من إنتاجه وحول البواعث والحوافز الضمنية لنشاطه أجاب ذلك العالم بإيجاز قائلاً:

«حول ما يخص اهتماماتي يمكنني أن أقول إنني، وقد كنت صبياً في السابعة عشرة، اتخذت قراري بدراسة اللغة العبرية القديمة. والسبب في ذلك أنني كنت آنذاك قد قرأت في «أفكار» بليز باسكال الكلمات التي كنت وما أزال اعتبرها مثيرة وهي: «أرى من طبائع الأمور أن الناس يطمحون لا إلى التعمق في تعاليم كوبرنيك...»[2].

لقد عاش هانس باوير، الألماني، الذي قام بالعملية الأساسية في فك رموز الأوغاريتية، حتى الوقت الذي لقي فيه عمله الاعتراف الكامل بعد أن أكمله كل من الفرنسيين دورم وفيرولو. وقدر له أن يعيش مع الجميع سعادة استنباط النتائج الرئيسية الأولى لنشاط العلماء والأثريين والتقييم الكامل لمغزى الكشوفات الأوغاريتية وحدث ذلك قبيل موته بوقت قصير (فبعد مرض مزمن توفي في غالاً عن 59 سنة من العمر).

تَمثُل الكتابة الجديدة أمامنا كتابةً حرفية صرفة، شأنها شأن الكتابات السامية الشمالية الأخرى، فهي لا تعرف الرموز المقطعية ولا الأيديوغرامات ولا المحددات. بل أمامنا

1- Syria-t. XII, 1931, pp 15-23 وقد نشرت في الصفحة 194 من المجلد نفسه لوحة الأبجدية في صورتها الجديدة.

2- يواصل باسكال: «... بل إلى شيء آخر، أن ما هو مهم الى درجة حاسمة بالنسبة للحياة كلها هو معرفة ما إذا كانت الروح فانية أم خالدة». («الأفكار»، المقطع 218).

نوع من التوليف بين المبدأ الأبجدي ذي الحرف الواحد وبين الصيغة المسمارية، كان ذاك ثمرة الاختلاط، مثله مثل حضارة أوغاريت، المدينة - الدولة، كلها. ومن المعلوم أن الكتابة الفارسية القديمة وضعت وفقاً لهذه الوصفة. إلا أننا نعرف أيضاً ثمرة لا تقل طرافة عن هذا لتزاوج النظم المختلفة من الكتابة - وهي كتابة ميرويي التي كانت تستعمل أيضاً الصورة الظاهرية للرموز - وبكلمة أدق الهيروغليفات المصرية التي كانت في بداية الأمر غريبة تماماً عن لغة ميرويي. ومثلما كان الأمر بالنسبة لميرويي فإن أوغاريت، إبّان صياغة كتابتها الجديدة، ألقت بعيداً بالأيديوغرامات وبالرموز المقطعية والمحدِّدات، واستخدمت رموز كتابة كانت تعدُّ في البدء نموذج الكتابة القائمة على مبدأ معمول به في كتابة أخرى، مبدأ الكتابة السامية الحرفية عن طريق السواكن (أما ميرويي فاتخذت مبدأ الكتابة الحرفية اليونانية).

ومما يسترعي النظر أن الكتابة الأوغاريتية تتضمن ثلاثة رموز للهمزة دفعة واحدة. وكما ظهر في الجدول الجردي (الشكل 65) يتبينّ لنا حرف الألف قبل *a* وقبل *e* وقبل *i* وقبل *u* [أَ، إِ، أُ]. وعلى أساس هذه الظاهرة الطريفة إلى حد ما طرحت مجموعة كاملة من الفرضيات المتعلقة بأصل أبجدية أوغاريت[1].

منذ سنة 1935 كان هانس اينسين قد وصف مشكلة أصل مسمارية أوغاريت بأنها مشكلة لم تحل بصورة نهائية بعد. ويبقى أن نعترف بأن حل هذه المشكلة لم يتقدم إلى الأمام منذ أن ظهرت تلك الفرضية. وقد حاول مختلف الباحثين أن يفسرّوا تلك الأبجدية بواسطة أكثر الشروح تناقضاً: كتقليد للأبجدية السامية الشمالية أو كتطور لها أو كثمرة لتأثير ما يسمى بكتابة سيناء بل وككتابة ظهرت بنتيجة تبسيط الرموز البابلية المقطعية وتقسيمها إلى قسمين، إلا أن ما هو أكثر احتمالاً على ما يبدو هو نظرية أخرى تتمتع في وقتنا الحاضر باعتراف واسع وهي تقول بأن كتابة رأس الشمرة المسمارية ليست كتابة مستعارة من مكان

1- المعلومات التي يوردها المؤلف في هذا المقطع وسابقه تثير مجموعة من التأملات فمن المستغرب أن يقارن المؤلف بين تجربة كتابة أوغاريت الحرفية والكتابة الفارسية القديمة وهو الذي يؤكد، منذ صفحات قليلة، على أن الأولى قد سبقت الثانية بألف عام! أما أن الأبجدية الأوغاريتية استخدمت مبدأ الكتابة الحرفية السامية عن طريق السواكن فأمر مردود لأن الأوغاريتية نفسها هي الكتابة الحرفية السامية عن طريق السواكن. وأخيراً فإن الألفات التي يتحدث عنها المؤلف ويصل بعددها إلى الأربع ليست إلا تحولات لكتابة الهمزة أَ، آ، إِ ومن المستغرب أن يلقي هذا الحرف ظلاً على أصالة الأبجدية الأوغاريتية وأن يطرح المؤلف بناء على ذلك مجموعة من الفرضيات المتعلقة بذلك الأصل (المترجم).

آخر ثم خاضعة بعد ذلك للتنقيح، بل هي نتيجة لإبداع مستقل واختراع إنسان مستقل كان يعرف الأبجدية السامية الشمالية، ومن هنا يظهر نظام الكتابة التي لم تكن تعرف الصوتيات (قارن أيضاً الشكل 65 من الأسفل). وبالإضافة إلى ذلك فإن ذلك الإنسان وقد تعلم الكتابة بالعُصيّة الصغيرة فوق اللوحة الطينية، وهو ما لم يكن مساعداً بالطبع على رسم الحروف الخطية، كان عليه أن يلجأ إلى الإسفين المنقذ. بل وقد كان هانس باوير ميالاً إلى القول بأن كتابة أوغاريت اخترعت بادئ الأمر من أجل كتابة غير سامية. وانطلق في ذلك من كون هذه الكتابة تعرف ثلاثة رموز للألف ومن العثور في رأس الشمرة على لوحات وضعت بنفس تلك الكتابة لكنها كانت باللغة الحورية التي تكاد تكون قراءتها أمراً مستحيلاً.

وقد عادت اللقى والكشوفات التي تمت في رأس الشمرة بمعلومات غزيرة وجديدة حول تاريخ دولة أوغاريت وفنها واقتصادها وكتابتها ولغتها. فبمساعدة تلك المادة المكتشفة صار بالإمكان رسم لوحة ملموسة لحياة تلك المدينة - الدولة السورية الشمالية في القرن السادس عشر قبل الميلاد. وقد وقعت أوغاريت تحت السيطرة العليا لمصر، إلا أنها كانت تمثل مجتمعاً غنياً وزاهراً. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد دخلت تلك الدولة في صراع مع «شعوب البحر» التي أخذت تهاجمها من الشمال الغربي. وقد أشرنا إلى أن الآثار الفنية الثمينة التي عثر عليها والتي تشهد بالتطور الرفيع للحضارة المحلية هناك تكشف إلى جانب ذلك الملامح المميزة الخاصة للحضارت المصرية والقبرصية والميكينية والحثية والبابلية. وكانت المدينة مركزاً مهماً على الطريق التجاري بين الشرق والغرب، والذي كان يمتد من بحر إيجة وعبر قبرص نحو الشرق إلى الفرات وما بعده.

وهكذا اكتشفت أبجدية مسمارية ما زال أصلها غامضاً ترافقها لغة كانت حتى ذلك الوقت لغة سامية مجهولة تتميز بخصائصها المميّزة على الرغم من صلة نسبها باللغات السامية الأخرى المعروفة.

إن من الصعوبة بمكان إعطاء القيمة الحقيقية لأهمية هذه الكشوفات بالنسبة لتاريخ الدين. فقد عُثر على نصوص طقسية، يدور الحديث فيها عن الآلهة وعن القرابين وعن النذور المتعلقة بالتطهر من الذنوب، بالإضافة إلى جرود مختلفة من المعابد. وكان هناك مجموعة أخرى من الألواح تتضمن نصوصاً ملحمية أطول ديباجةً تحكي عن المعارك بين الآلهة وعن ولادات أطفالهم وما شابه ذلك. كما أن الكشوفات عرضت الديانة الفينيقية - الآرامية في الألف الثاني قبل الميلاد في ضوء جديد تمام الجدة، وكشفت بصفة نهائية تلك التربة الكنعانية التي ترعرعت فوقها ديانة قدماء الموسويين. فإن الأسس الأولى لتلك الديانة لم

تكن بعد قد كشفت بمثل هذا العمق والشمول. فألقاب الآلهة، الذين نعرفهم من «العهد القديم» ظهرت كأسماء أصلية لهم. وتناولت هذه الألواح قصص آلهة الزارعة والخصب، الذين يموتون ويبعثون من جديد، تماماً كما سيرد في الأساطير اليونانية. بل وإن بعض المعلومات مكنت من الوصول إلى استنتاجات جديدة حول أصل الأسبوع ويوم السبت. وأخيراً أظهرت تطابقات مذهلة بين عالم آلهة رأس الشمرة وبين البانتيون الهوميري. وهكذا تأكدت فجأة التقاليد القديمة حول التأثير الفائق القوة لتعاليم الفينيقيين حول أصل العالم والآلهة على أساطير اليونان. لكن أثمن شيء بالنسبة لمؤرخي الأديان كان ما وجدوه في النصوص من بحث ملحاح وحار عن المفهوم المتسامي للألوهية وبكلمة أخرى - عن فكرة «الإلهي» الشاملة لجميع الناس. ومن يعلم ربما كان سايس يحدس بذلك الشيء بالذات عندما هتف وهو على فراش الموت.... «متى يقوم فيرولو بنشر نصوص جديدة من رأس الشمرة».

إن هذه النتفة من النص المتعلق بأسطورة موت وعلّيون بعل، التي نعرضها أمام القارئ كنموذج للأدب الأوغاريتي، لا تتضمن في الحقيقة أيّ إشارة إلى ذلك التطلع الأبدي إلى «الإلهي» غير أنها مفعمة بتعابير تأسر الروح ببلاغتها وسحرها الشاعري الذي لا يجارى. وهذا الأنموذج من التراث الحضاري الأقدم يعرفنا على الخلق الديني للساميين الشماليين الغربيين.

«مضى يوم وتتالت الأيام وفاض قلب عناة بالحب. كقلب البقرة [التي تحن] إلى عجلها، كقلب النعجة الأم [التي تحن] إلى حملانها الصغيرة، هكذا كان قلبها يحن إلى بعل فقبضت على موت... ورفعت صوتها وصاحت... «أنت يا موت، أعد إلي أخي!» وأجابها موت ابن الآلهة. «ماذا تريدين أيتها الفتاة عناة؟» مضى يوم وتتالت الأيام، وبعد مضي الأيام وبعد مضي الشهور فاض قلب عناة بالحب. كقلب البقرة [التي تحن] إلى عجلها، كقلب النعجة [التي تحن] إلى حملانها الصغيرة، هكذا كان قلبها يحن إلى بعل. فقبضت على موت ابن الإله، بالسيف شطرته، بالمدق دقته، بالنار أحرقته، دقيقاً طحنته، وفي الحقول ذرت جسده لكي تنوشه الطيور وبهذا ختمت حياته».

وعند هذا المكان يفسد النص وتصعب قراءته. ويمكن أن نلمس من الأعمدة التالية أن عليّون بعل ظهر مجدداً، غير أن عدوه موت يعود إلى الحياة من جديد بغض النظر عن نهايته الرهيبة.

ووقفا وجهاً لوجه يتلظيان كالجمر، موت القوي وبعل القوي وتصادما كوحشين كاسرين، موت القوي وبعل القوي، وتناهشا كثعبانين، موت القوي وبعل القوي واصطرعا كجوادين، موت الماكر وبعل الماكر... وصاح *Špš* سبش بموت قائلاً... «اسمع يا ابن الإلهة

موت، كيف استطعت أن تقاتل عليون بعل، كيف! فليصم أبوك الثور إيل مسامعه عنك!.. وليخرب ملكك، وليحطم صولجان مجدك»[1].

علينا أن نتحدث الآن عن الباحث الثالث الذي عمل على فك رموز كتابة أوغاريت ولغتها، عن ادوارد دورم، خاصة وأن الحديث سيدور بعد هذا عن الكشف العلمي الذي قام به بصورة مستقلة تماماً.

إدوارد دورم، أخصائي في ميدان اللغات المقارنة. كان منذ نعومة أظفاره مأخوذاً بالقوة السحرية للكلمة. فقد كانت تثير خاطره، وهو تلميذ في الجمنازيوم، اللغة اللاتينية واليونانية - تانك اللغتان الميتان والمفعمتان في حقيقة الحال بالحياة والقادرتان دوماً على إثارة الحياة الجديدة. لكن عالم اللغات في المستقبل بدا أيضاً تحت سيطرة اللغات الحية وبخاصة منها الإنكليزية والألمانية.

ومع بداية القرن الجديد بدأت الحياة المستقلة للعالم الفتي (ولد سنة 1881 في أرمانتيير). وفي سنة 1905 وبعد دراسة جدية للغات دعي إلى المدرسة الإنجيلية، في القدس حيث راح يزاول نشاطه كأستاذ وكباحث. فكرس نفسه لدراسة اللغات السامية - العبرية القديمة والآرامية والعربية مثلما كرسها بصورة أكبر للعمل على النصوص المسمارية السومرية والبابلية والآشورية. وكان أهم عمل قدمه في ذلك الوقت هو «نصوص آشورية بابلية مختارة» ونشره عام 1907. وقد مالت به الاهتمامات العلمية والنشاط التعليمي في المدرسة الإنجيلية إلى تجريب قواه في ميدان آخر غني بالدراسة، ميدان الدراسات الإنجيلية، كما أن العمل على تفسير العهد القديم أيقظ فيه، إلى جانب اللغات السامية، دراسة الكتابات السامية أيضاً. وقد لخص نتائج أعماله في كتابه المشهور «اللغات والكتابات السامية» (*«Langues et ecritures semitiques»*) الذي نشر سنة 1930.

بالطبع ما كان للأعمال التي ذكرناها أن ترى النور لو أن السلطة العليا لمؤلفها لم تكن منبسطة على الميادين الأخرى للمعرفة، وعلى اللغات المقارنة أيضاً. فدورم - الباحث كان يعتمد دوماً على التجربة الكبرى لدى دورم - العالم الأثري الذي كان قد قام بعدد من الحفريات في فلسطين على نهر الأردن وفي شرق الأردن وفي مصر وفي سيناء وفي لبنان وفي حوضي دجلة والفرات أيضاً.

نضيف إلى هذا أن دورم كان خبيراً في ميدان يبدو للوهلة الأولى بعيداً كل البعد عن عالم العلم مما يعني انه بعيد أيضاً عن علم اللغات والآثار إلاّ أنه في الوقت نفسه يطرح

1- J Fiedrich. Ras Schamra. Din Uberblick uber Funde und Forschungen - Der Alte Orient , Bd 33 , Hft 1/2 , Leipzig , 1933 , S. 32 f.

إمكانات خاصة للتدريب بالنسبة لقارئ رموز الكتابات المجهولة. فخلال الحرب العالمية الأولى وبعد العودة من الحملة العسكرية الفرنسية إلى الدردنيل وماكدونيا أخذ على عاتقه تنفيذ المهمات المتعلقة بفك رموز شفرات البرقيات التي تلتقط من العدو. وكان هذا العمل يتجاوب بصورة رائعة مع الميول الخاصة لدورم، وكما يؤكد ذلك العالم حتى الآن فإنه مدين لها حتى يومنا هذا بالتوجيهات المنهجية الثمينة في حل رموز الكتابات المجهولة[1].

وبعد أن أنهى دورم نشاطه التعليمي في القدس أسندت إليه مهمة الأستاذية في المدرسة التطبيقية للمعارف العليا في السوربون، والتي كان مديرها، كما نعلم، شارل فيرولو. وفي سنة 1945 صار دورم أيضاً أستاذاً في الكوليج دي فرانس.

لقد رأينا فيما سبق كيف تألق المستشرق دورم كخبير في فك الرموز على الفور بعد الحفريات الفرنسية سنة 1929 وذلك عندما استخرجت من رأس الشمرة الألواح ذات الكتابة المسمارية المجهولة. وقد كان دورم في المكان المطلوب عندما تم أيضاً اكتشاف عدد كامل آخر من اللقى الرفيعة المستوى حتى أبعد حد. ونقصد بهذا نتائج الحفريات الفرنسية الحافلة بالجنى في مدينة جبيل الفينيقية القديمة. فبين الكشوفات الأخرى تم العثور هناك على مسلتين حجريتين وعلى لوحين برونزيين وبعض الفؤوس وعدد من شظايا الألواح الحجرية - وكل ذلك مغطى برموز كتابية لم يشهد لها أحد مثيلاً قبل ذلك! فالحديث في هذه المرة لم يعد يتناول الإسفينات بل رموزاً تتشابه مع الهيروغليفات المصرية حتى أطلق عليها بنتيجة ذلك تسمية لم تكن موفقة إلى حد كبير وهي «كتابة جبيل شبه الهيروغليفية».

وجبيل نفسها - واحدة من أقدم المراكز الحضارية لفينيقيا إلا أن اسمها الأوروبي، بيبل، ليس قديماً بقدم المدينة، فهو ينبثق عن اليونانية بيبلوس (وصيغته الأقدم «بوبلوس») أي الورقة، وقد أطلقه عليها اليونانيون - فمن ذلك المركز التجاري العظيم كانوا ينقلون الورق من مصر[2] ولكن بما أن المدينة كانت في بادئ أمرها تحمل اسم جُبلة (الآن جبيل) فإن لفظ بوبلوس - جُبلة كان يمكن أن يلعب دوراً واضحاً أثناء تغيير اسم المدينة. ومن اسم «جُبلة» اشتق مصطلح «الكتابة الجُبْلية» وقد بدأ باستعماله انطون بيركو، عالم الساميات من بون. ومن الأفضل أن يعطى هذا المصطلح الأفضلية على أمثال مصطلحي «شبه الهيروغليفية» وكتابة «ما قبل جبيل».

1- من رسالة العالم الى المؤلف بتاريخ 11 آذار (مارس) سنة 1957.

2- الحديث يدور عن البابيروس طبعاً وهو البردي.

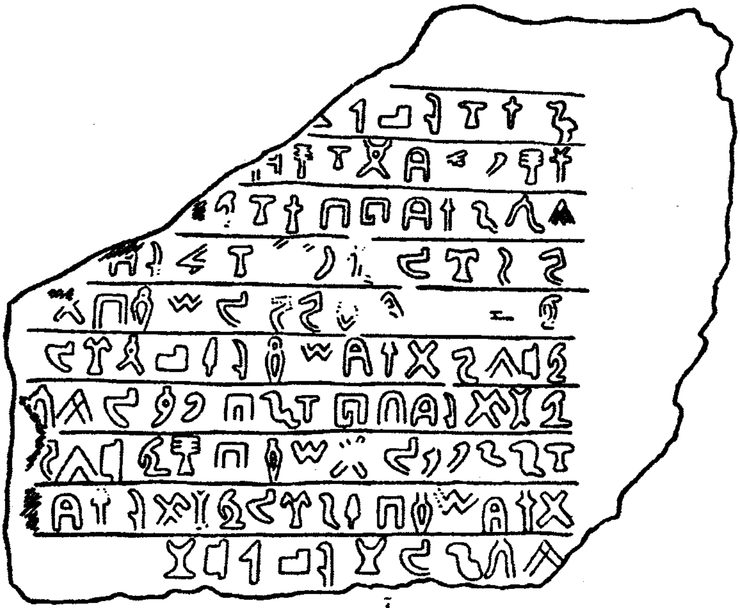

آ

ب

الشكل -66- آ- بلاطة تحمل نقشاً تذكارياً بكتابة جبيل. ب- لوحة برونزية مغطاة بنقوش من جبيل: الى الأعلى - وجه اللوحة. الى الأسفل. الوجه المقابل.

إن تلك المكتشفات الأثرية الجديدة في جبيل، والتي تعود إليها، كما هو معروف، أقدم الكتابات بالفينيقية الحرفية (القرن العاشر تقريباً قبل الميلاد) قد تم جمعها ونشرها في كتاب عنوانه «*Biblia Grammata*» أصدره في بيروت، سنة 1945، ديونان، عالم الآثار الكبير ومدير الحفريات. وما هي إلاّ سنة واحدة حتى قدم إدوارد دورم القراءة الجاهزة لها لنشرها في «تقارير» الأكاديمية الفرنسية للنقوش (عدد آب، أيلول سنة 1946) في مجلة «سوريا» العدد XXV، 1946-1948).

انطلق دورم في بحثه من فرضية واحدة وملاحظة فريدة. إذ افترض أن اللغة التي أمامه - لغة سامية وبكلمة أدق - فينيقية. فتاريخ جبيل الذي درس بصورة جيدة يدلل على انعدام أي تأثير غير سامي على هذه المنطقة.

أما ما يخص الملاحظة، فإنها كانت نتيجة لاستخدام تلك القاعدة الأساسية نفسها في فك أيّ رموز، والتي كان الباحثون يواظبون على استخدامها: فقد بدأ دورم بإحصاء الرموز التي أمامه فتحصل منها على ما يزيد عن الـ 70 (وعلى فكرة فإنه لم يحسب الأشكال المختلفة للرمز الواحد) وانتهى به ذلك إلى القول بالطابع المقطعي لتلك الكتابة، فمن المعلوم أن 70 رمزاً هو رقم كبير جداً بالنسبة للأبجدية وزهيد جداً بالنسبة لكتابة ايديوغرافية.

ومع كل هذا فإن دورم لم ينتقل على الفور إلى البحث عن الدلالات اللفظية للمقاطع. فلو قامت في أساس هذه الكتابة المعطاة لغة فينيقية - كما افترض دورم، لكان بمقدوره على الفور أن يصل إلى إمكانية قراءة المدونة بمجرد الكشف عن «الهيكل» البسيط للنص، والمتكون من السواكن بمفردها. وعلى هذا فإن دورم على الرغم من أنه كان يتعامل فقط مع رموز مقطعية (من فئة ساكن + صائت *-bu, bi, ba* أو صائت + ساكن - *ub, ib, ab*) كان يكفيه في المرحلة الأولى أن «يعيد» من كل رمز مقطعي مماثل الساكن الثاوي فيه ليكون بإمكانه القراءة عن طريق هذه السواكن فقط على نحو ما هو معمول به في أيّ لغة سامية. وقد لقيت ملاحظات دورم فيما بعد تجسيدها المادي في جدول الرموز المكتشفة (الشكل 67) حيث تجمعت الرموز عنده لا وفق لفظها المقطعي (مثل *bu , ba , bi* أو *mu , ma , mi* وما شابه ذلك) بل فقط كـ *b1 , b2* أو *m , m1 , m2* وهكذا.

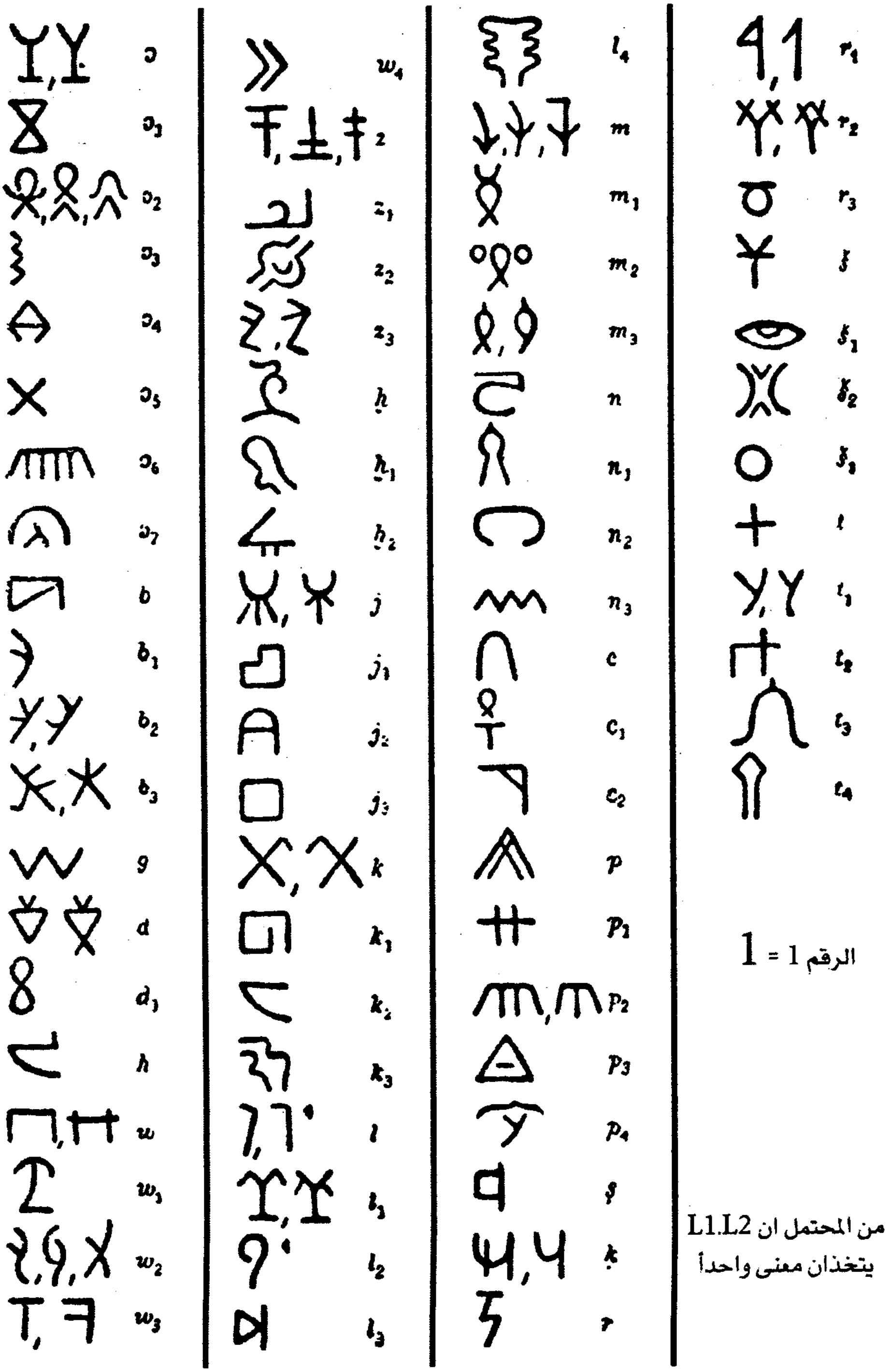

الشكل -67- جدول رموز جبيل الكتابية

ولننتقل الآن إلى وصف القراءة نفسها، ولو تقرينا باحثين عن مكان يناسب ما يسمى بيضة كولومبوس[1]، لما وجدنا أكثر ملاءمة من هذا. ولكي تسهل علينا متابعة أفكار الباحث يجدر بنا أن نضع أمامنا مجدداً الوجه المقابل للوحة البرونزية (ج).

ربما يتنّبه القارئ على التو إلى «الوحدات» السبع المطروقة على الجهة اليسرى من (الشكل 68) وقد ثبت دورم عليها نظرته المجرّبة. وسرعان ما خرج باستنتاج ما كان أهونه! فسبع وحدات يساوي سبعاً.

وهكذا فسرّ الوحدات السبع القائمة إلى جانب رمز آخر على أنها «سبعة» ولكن إذا كان هذا رقماً فربما يكمن في هذا المكان تاريخ.

أما الرقم سبعة أي إلى اليمين منه (فالمدونة يجب أن تقرأ من اليمين إلى اليسار) توجد أربعة رموز أولها أي الأيمن من بينها معروف من الفصول السابقة - وهو أحد أشكال حرف *b* وربما يعني ذلك، حسبما فكر دورم، بأن الحديث يدور عن تاريخ السنة؟ «بسنة» وهي بالفينيقية *b-š nt* أي انه يعبّر عنها من خلال أربعة سواكن؛ ولكن هنا أيضاً، أمام الرقم، تقف أربعة سواكن ربما يكون الأول منها *b*. ألا يمكن أن تكون مطابقة لـ *b-š nt* لو أن الأمر كان كذلك لوضعنا أيدينا على معاني أربعة سواكن دفعة واحدة.

اتخذ دورم، في بادئ الأمر، من هذه المعاني الأربعة أطروحة عمل وراح يبحث عما يؤكدها. وإلى جانب هذا تعرف في تلك المدونة نفسها على مجموعة رموز تظهر في الترتيب *š - X - n* - وساعدته في ذلك فرضية انطلقت من أعماق خبرته الطويلة كعالم (وقد كان

1- في مقال للأديب المؤرخ الكبير الدكتور شاكر مصطفى بعنوان «هذا الثالوث الماسي الذي انكسر» ورد ما يلي: «وذات مرة كان في الحانة وسمع قائلاً يقول: وماذا فعل كولومبوس؟ إنه لم يزد على ان ابحر غرباً غرباً حتى وصل! ولم يعر كولومبوس اذنه للاستهزاء المرير. ووقف على منضدته وقال: إنه تعلم في البلاد الجديدة لعبة وتحدى من يستطيعها، وأتى ببيضة وتحدى من يستطيع إيقاف البيضة على أحد رأسيها. وحاول الجميع ذلك عبثاً. حين فشلوا أخذ كولومبوس البيضة وضربها على وجه الطاولة فانكسرت ووقفت على قاعدتها وصاح الجميع- ولكن هذا سهل، كل إنسان يستطيعه! قال: حسناً، ولكن هل فكر أحدكم فيه؟» مجلة العربي العدد 343، حزيران، 1987، ص 33. (المترجم).

فوريّر يعتمد على مثل هذه الفرضية في قراءة رموز الهيروغليفات الحثية) - ونقصد بها فرضية الترابط المتناظر بين ما هو مكتوب على الشيء وبين الشيء نفسه. لقد كان النص منقوشاً على لوحة برونزية. وفي اللغات السامية هناك كلمة «ن ح ش» « *nhš*» بمعنى «البرونز»، «النحاس». ومعنى هذا أنه صار بالإمكان افتراض معنى آخر هو *h* ح الذي ساعد بدوره على قراء كلمة «مذبح» - *mzbh* بمعنى «منبر»، «مذبح». وقد كان اكتشاف *m* ذا أهمية خاصة بالنسبة لدورم من أجل التوصل إلى الإثبات الأول لفرضيته. وبمساعدة هذا الرمز استطاع بعد ذلك أن يكشف في السطر 14 (السطر الأول من الوجه المقابل للوحة، والتي كان سطرها المقابل الثاني، أي الخامس عشر، يتضمن الإشارة إلى العام) تاريخَ الشهر *b-tmz* «بـ تـ مـ زْ» أي في [شهر] تمّوز، وفي الوقت نفسه ظهر رمز *z* الذي حدّده دورم على أساس أنه *zi*.

وهكذا تم تحديد الشهر والعام، والآن، ألم تبدأ البحوث عن تاريخ الشهر بالمطالبة بالبحث عن نفسها في صيغة اسم العدد؟

لنلق نظرة ثانية على السطر 14. إن الرموز الأربعة الأخيرة (أقصى اليسار) وبالذات رموز ᗅ\'ᒧ لا تتضمن، بناء على ما سبق السواكن *Z1mt-b* أو *b-tmz1* حسبما اعتدنا أن نقرأ ونكتب، أي «في [شهر] تموز» وهكذا يكون ما يظهر أمامها، وبكلمة أخرى ما يقف إلى اليمين منها، يمكن أن يكون العدد الصحيح.

يظهر الرمز Ұ الذي كنا قد تعرفنا عليه في السطر الأخير كـ *š* مرتين وبين هذين الرمزين هناك رمز لم يعرف بعد، لكن عالم الساميات المحنك لم يكن بحاجة إلى أن يصدع رأسه طويلاً في البحث عن حل تلك الأحجية. فقد قرر على الفور بأنه أمام كلمة «ش د ش» *š dš* التي تعني ستة و «السادس» وواصل بحثه فوجد بعد تلك الكلمة (أي إلى اليسار منها) كلمة -*m* - *jm* «يوم» والطريف أنه اكتشف صورتين لرمز *m*.

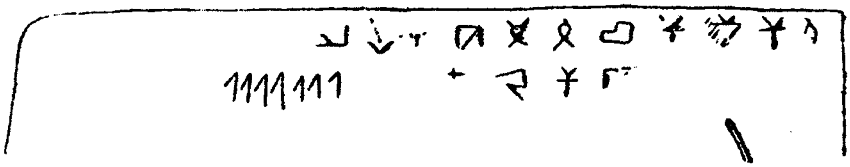

الشكل -68- الوجه المقابل من اللوحة البرونزية من جبيل.

وهكذا أنجزت قراءة الوجه المقابل للوحة البرونزية b-šdsš jm-m b-tmz- bšnt7 أي في اليوم السادس من تموز في السنة السابعة.

يمكننا أن نتخيل ما حدث آنذاك في أعماق نفس ذلك الباحث: «إن أجمل يوم في حياتي العلمية كقارئ للرموز كان يوم اكتشفت «الأبجدية» الفينيقية في نصوص رأس الشمرة و «المقطعية» الفينيقية في لوحات جبيل شبه الهيروغليفية. ولكن كم من الليالي الساهدة من العمل على قراءة تلك الرموز قد سبقت «هللويا» ذلك الاكتشاف»[1]

واستوجب الأمر بعد ذلك كثيراً من العمل الدائب ومن التصويبات المتكررة قبل أن يتمكن دورم من التقدم بنتائجه إلى الأكاديمية الفرنسية للنقوش في الثاني من آب (أغسطس) سنة 1946. وفي مقالته «قراءة رموز كتابات جبيل شبه الهيروغليفية»[2] قدم قراءات مقنعة لجميع النقوش المكتشفة والتي كان ديونان قد نشرها قبل عام من ذلك كما قدم للعلماء براهين مقنعة في صالح دقة فكه للرموز وصواب قراءاته.

لكن، على فكرة، كان أحد البراهين المقنعة ينحصر في مضمون القراءة الأولى للوحة «ب» نفسها (الشكل 66 ب). فالحديث فيها لم يتناول الآلهة ولا الملوك ولا قضايا الحرب والسلام، بل لو كان الأمر على هذه الشاكلة - لتطرق بعض الشك في أي يكون صاحب القراءة قد قام، قبل استخراج تلك الإخبارية من النص، والمتشابهة بصورة عامة بالنسبة لجميع اللوحات بـ «إسقاطها» على النص دون إرادة منه. لكن الأمور كانت مغايرة لذلك بالنسبة للمدونة التي قرأها دورم: إذ إنها كانت، بناء على تفسيره، تتضمن إخبارية النقّاش القديم، عن العمل الذي أنجزه ورفاقه من أجل تزيين المعبد. وكان هذا الموضوع مفاجئاً إلى درجة أنه قطع على الفور كل لوم يمكن أن يوجه إلى القارئ على أنه قادر على تضمين النص تفسيراً يجعل الباحث ينطلق من واقع الحال فيقرأ فيه ما يريد لاما هو مشتمل عليه في الحقيقة.

1- من رسالة إلى المؤلف بتاريخ 11 آذار (مارس) سنة 1957.

2- E, Dhorme, Déchiffrement des insicriptions pseudo- hieroglyphiques des Byblos -Syria- t.XXY , 1946-1948 , pp. 1-35.

أما البرهان الحاسم الثاني فهو: إن دورم قد استطاع لتوّه، وعلى أساس المدونة المنقوشة على اللوحة البرونزية الأولى «ب» أن يقرأ المدونة الأخرى الأطول ديباجة بكثير فوق اللوح البرونزي الثاني الكبير! وكانت بدورها تحمل مضموناً مماثلاً.

ثالثاً - وفجأة وجد في هذه المدونة الأخيرة عدد خارق للعادة من أسماء الآلهة المصريين. وعلينا أن نفترض أن صاحب القراءة ما كان يفكر بذلك عندما بدأ قراءته. وتتأكد دقة الحل الذي طرحه دورم أيضاً بعدد وافر من المعطيات الفيلولوجية، وبخاصة منها المعطيات القواعدية لكننا لن نتوقف عند هذا.

وعلى هذا فإننا نستطيع أن ننظر بكل ثقة إلى هذا التفسير الذي قدمه إدوارد دورم للكتابة. وكتابة جبيل ليست بعد الوسيلة الكتابية المثلى لنقل الأفكار. ومن السهل فهم ذلك. فمما لا شك فيه أن مخترع الكتابة (وتعود آثارها إلى 1900-1700 قبل الميلاد) وضع نصب عينيه الإسفينات الآشورية - البابلية، ومن هنا جاء الطابع المقطعي للكتابة، إلا أن الرموز المقطعية الأولى أخذت، بفعل خاصية اللغات السامية، تفقد مبكرةً تمايزها، فصارت تستعمل غالباً دون تمييز فيما بينها بل من خلال ما تشتمل عليه من سواكن وتنعكس هذه المرحلة من تطور الكتابة بصورة كافية إلى حد ما في جدول الرموز المكتوبة (الشكل 67) الذي صورت فيه الصيغ المتكررة للسواكن.

سبق أن عرضنا على القارئ أكثر من مرة أمثلة من اللغات والآداب التي صارت بمتناول أيدينا بفضل قراءات الكتابة. فكانت في بعض الحالات تفتح أمامنا شخصية هذا الشعب أو ذاك، حامل اللغة ومخترع الكتابة - وكانت في حالات أخرى تقترب من القارئ المعاصر بفضل مغزاها البليغ وبفضل الطابع الإنساني الشمولي للأقوال الحكيمة التي تشتمل عليها، أولم تكن نادرة تلك الحالات التي فعل فيها هذان العاملان فعلهما. وهكذا سمعنا كلمات الحكام وسمعنا الضراعات والأساطير حول الآلهة والكهانات. أما هنا، وكممثل لمدينة جبيل القديمة فيتكلم عامل بسيط، إنه ذلك العامل الذي ألقى بنظره ذات مرة، وبكامل الإحساس بالغبطة، إلى ما أبدعته يداه فنقش إخبارية عن إنجازه الناجح فوق لوحة برونزية، دون أن يخطر له أنه قد قيض لها أن تكون، بعد ما يقارب الأربعة آلاف من السنين، مفتاحَ فك لرموز تلك الكتابة الموغلة في القدم والتي عفت آثارها منذ آماد بعيدة.

«لِليل: طرقت نحاسَ تويبت. بسنان الحديد نقشتها، هذه الأشياء، أما مفتاح المعبد [فطرقته] لأكارين ونقشت فوقه سمة وكتبت اسماً، ثم وضعته، ذلك [المفتاح]، عندما نقشت تاج.... المذبح، هذا العمل على شرف أسرتي، عملته لليل.... أنجزت ذلك في عهد الحاكم ايبوش في اليوم السادس من تموز في العام السابع»[1].

1- A. Jirku, Wortschatz und Grammati des gublitischen Inschriften,-Zeit-schrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft , Bd. 102 , 1952 , S. 206 f.

من الضروري أن نشير بالنسبة لأولئك القراء الأقرب إلى هذا الموضوع أن المؤلف يدرك جيداً وجود العلاقة الوثيقة بين كلا الكتابتين الحديثتي الاكتشاف، واللتين كانتا موضوع هذا الفصل وبين مشكلة كتابة سيناء ومشكلة ظهور الأبجدية ككل ولكن، بما أن دراسة القضية الأخيرة تخرج عن إطار هذا الكتاب، وبما أن الفرضيات المتعلقة بالمشكلة لا تزال قيد الأخذ والرد فإن المؤلف مضطر إلى عدم التوقف عند هذه القضايا.

الفصل السابع

آلهة و تجار

فك رموز الكتابة المقطعية القبرصية

واحد من أعظم كشوفات العصر الحديث

موريس شميدت

في تعليقه على دراسة يوهانيس براندیس.

«أما إحصاء المشاعل فكان من عمل زوفار... ميجالوفيوس وفيلودام، أما حساب ما جمع من تبرعات فكان من عمل زوفار وافروديسيوس». ذاك ما ورد في منقوشة إهداء عثر عليها شمالي قبرص.

وتعود المنقوشة إلى القرن الخامس قبل الميلاد. ومن الواضح أن سكان الجزيرة لم يكونوا يقومون بأمثال هذه الحسابات الدقيقة في ذلك الوقت فحسب بل وفي وقت أبكر من ذلك أيضاً. وعلى فكرة فعلى أساس الكشوفات التي عثر عليها في قبرص عرف أن الجزيرة كانت مأهولة في الألف الثالث قبل الميلاد وأنها في الألف الثاني قبل الميلاد كانت تقوم بتجارة ناشطة مع مصر وفلسطين. وكانت «المركز الكبير للتعدين في الشرق القديم» (ديرينغير) ونقطة الارتكاز المأمولة من طرف آسيا الصغرى وسوريا في البحر الأبيض المتوسط، إذ لم تكن تفصلها عن مصر وكريت غير بضعة أيام من السفر. وربما استوطنها اليونان عند تخوم الألفين الثاني والأول قبل الميلاد - وتم الأمر دون احتلال أو قعقعة بالسلاح، فالواضح أنه قد تسنى لهم الانتشار في الجزيرة بطريقة سلمية، لكن التجانس التدريجي الذي قام به السكان قبل اليونانيين أدى إلى اضمحلال الفن والثقافة المحليين. وأعد القدر للجزيرة الواقعة في مركز تقاطع ثلاثة تأثيرات ثقافية (ثقافة آسيا الصغرى - الثقافة السورية - الفلسطينية والثقافة المصرية) تاريخاً يتسم بالكثير من التعقيد والتشابك. ففي الجنوب حيث البلاد الجبلية تنحدر انحداراً مائلاً نحو البحر مشكّلة السهول

والأماكن المناسبة لإقامة المدن بدأت تظهر مستعمرات الفينيقيين منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد، ثم تبدأ مرحلة سيطرة الآشوريين منذ نهاية القرن الثامن. وقد شهدت قبرص قدوم الفرس والمكدونيين وخروجهم وشهدت سلطان الرومان والبيزنطيين من بعدهم. ونجد بين حكامها أيضاً ريتشارد قلب الأسد - أول إنكليزي - حاكماً على القبارصة، وقد استقر هنا مدة قرن كامل قبل أن يعمد أحفاده سنة 1878 إلى اكتراء الجزيرة من الأتراك الذين بقيت الجزيرة في قبضتهم ما يزيد عن 300 سنة. وقد استأجرها الإنكليز بادئ الأمر بهدف حماية قناة السويس وطرق الهند ثم ضموّها إليهم بصفة نهائية سنة 1913[1]. إلا أن الإغريق استطاعوا المحافظة على الطابع الوطني للجزيرة. ويشهد على ذلك الأثر الذي لعب دوراً حاسماً في تاريخ فك رموز الكتابة القبرصية. ونقصد بحديثنا تلك المدونة التخصيصية العائدة إلى القرن الرابع قبل الميلاد والتي خلفها أحد أعيان الفينيقيين وكان يعيش في عهد حكم ملك فينيقي على المدينة. وقد وضعت المدونة بالفينيقية وباللغة اليونانية (وضع النص اليوناني بالكتابة المقطعية القبرصية) وبذلك أصبحت تلك الثنائية المنتظرة نفسها، المفتاح إلى فك رموز الكتابة.

إن من الصعوبة بمكان القول أن من الأمور الطبيعية أنْ لا يتعرّف العلم على المنقوشات والقطع النقدية والميداليات التي حفرت فوقها رموز الكتابة القبرصية المقطعية إلا في عام 1850. فالحديث هنا يدور حول قبرص التي تحتفظ بأعداد كبيرة من العاديات بفضل تاريخها العاصف! وقد وجه الكثير من اللوم إلى الإنكليز الذين لم يقوموا إلا بالنذر اليسير من أجل دراسة تاريخ الجزيرة. وهذا اللوم لا مبرر له في الحقيقة إلا بصورة جزئية.

ومهما يكن من الأمر، فإن الباحث الأول في البلاد لم يكن إنكليزيا كما لم يكن قبرصياً يونانياً أو تركياً بل كان فرنسياً اسمه: أونوريه تيودور بول جوزيف دالبير، دوق لوين (1802-1876) وهو عالم آثار وجامع قطع نقدية مشهور، عاش فترة طويلة في نابولي وخلال زيارة شامبليون لإيطاليا قام الدوق بعدة زيارات إلى روما إكباراً لابن بلده العظيم واختصه بأعمق واجبات الاحترام. ومما لا شك فيه أن هذه اللقاءات تركت أثراً عميقاً في نفس الدوق. يضاف إلى هذا أنه كان رسّاماً ممتازاً، وعين الفنان تستقطب بكل وضوح أشكال الرموز الكتابية - فكثير من قارئي الرموز كانوا يرسمون جيداً.

1- حصلت قبرص على استقلالها سنة 1960.

كان الدوق لوين أول من أيقظ الاهتمام في العالم المتحضر نحو بقايا الكتابة القبرصيّة. ففي سنة 1852 أصدر في باريس مقالة «علم النميّات والنقوش الكتابية القبرصية» (*«Numismatique et inscriptions chypriotes»*)، حيث قدم وصفاً مسهباً لجميع الصور والآثار التي وجدت هناك حتى ذلك العصر. وكانت المجموعة تضم عدداً كبيراً من النقود القديمة والنقوش الكتابية ومن بينها واحدة كادت أن تصبح شيئاً مصيرياً بالنسبة للعلم. وتمثل نقشاً كتابياً يتضمن 31 سطراً مطروقاً على لوحة برونزية عثر عليها في أرض إيداليون القديمة. ويبدو أن حجم المدونة الكبير من الناحية النسبية كان سبباً في أن الدوق، الذي كان قد عزّز دراسته بتقديم دليل لجميع الرموز المعروفة بالنسبة له، قد أهاب بالباحث الألماني ريوت لمحاولة فك رموز الكتابة القبرصية. ولم يسمح هذا الأخير لنفسه بأن يهدر الآخرون وقتاً طويلاً لإقناعه... وبذلك اقترف خطيئة كبرى أمام الفكرة الأساسية لأي شكل من أشكال قراءة الرموز. فكيف كان يمكن الشروع بحل تلك الرموز في وقت لم تكن قد عرفت بعد لا نوعية الكتابة ولا لغة الآثار! من الطبيعي تبعاً لذلك أن تنسب نتائج جهوده إلى حقل «العجائب في عالم العلم» كما أشار براندیس، المتخصص الألماني في علم المسكوكات (بلهجة ملطفة إلى حد كبير).

أما ريوت، الذي كان دون شك على علم بالحقبة الفينيقية في تاريخ قبرص المتعدد الألوان، فقد افترض أن بإمكانه أن يتوصل بطريق مقارنة ما يزيد عن 50 رمزاً من رموز الكتابة القبرصية بـ 22 حرفاً من حروف الأبجدية الفينيقية، إلى تحديد الدلالة اللفظية للمجموعة الأولى. ومن خلال السير عبر هذا الطريق، والانطلاق أساساً من الأشكال الظاهرية للرموز، راح يقارنها بالحروف الفينيقية وبهذه الطريقة توصل إلى كلمات «تعرّف» فيها على التو (أو، في الحقيقة، أجبر نفسه على التعرف عليها) على صيغ سامية. وكانت ترجمته على حد تعبير براندیس نفسه «استهتاراً بكل لون من ألوان المعارف البشرية»[1] وهي تؤخذ دوماً على أنها الأنموذج الخالد لما يجب التوقّي منه.

1- من اللوحة التي ذكرناها سابقاً والمستخرجة من دالي (ايداليون) استنبط ريوت بيان الفرعون المصري أماسيس (ياخموس، 568-525ق.م) ومما يذكر ان الدوق كان متفقاً معه في ذلك

الشكل -69- الثنائية الفينيقية - القبرصية. وثيقة ايداليون

وفي تلك الآونة بدأت فترة النشاط العاصف للإيطالي بالم دي تشيسنول، الهاوي، جامع التحف، الذي كان سنة 1865 يعيش في قبرص كقنصل أمريكي. أما المجموعة التي جمعها (35 ألف قطعة) فهي محفوظة الآن في متحف الفنون الجميلة في بوسطن. كما أن دبلوماسياً آخر، هو لينغ، القنصل الإنكليزي في لارناكا، عثر في مكان غير بعيد عن ايداليون على ذلك النقش الكتابي السالف الذكر، وهو الثنائية المكتوبة باللغتين «القبرصية» والفينيقية. وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة إلا أنه كان يمكن أن تكون أساساً لحل الرموز ونقطة انطلاق لها.

أما نقطة الانطلاق التي اعتمدها لينغ فكانت «التقارير» العلمية للجمعية اللندنية لعلم الأثريات التوراتية. وقد أظهر جورج سميث، وكان واحداً من أوفر الأعضاء توقيراً في تلك الجمعية، (وقد ارتبط اسمه، كما نعلم، بالكشوفات في حقل الكتابة المسمارية)، اهتماماً حياً بالكشوفات الجديدة فأثبت أن أباه بالمعمودية في العلم كان رولينسون: إذ انصرف إلى الثنائية الفينيقية - القبرصية بنفس الطريقة التي انصرف بها أستاذه إلى دراسة اللغة الفارسية في مدونة بيهستون.

فهو في بداية الأمر يريد أن إلى مجموعات الرموز، التي يمكن أن تتضمن أسماء أعلام. أما لقب الملك ميلكايتون واسمه فقد سبق للينغ أن افترض وجودهما في مجموعة واحدة. وكان الاسم نفسه متضمَّناً أيضاً في الصيغة الفينيقية وإن كانت قد تعرضت لكثير من العطب كما يظهر في (الشكل 69). إلا أن بالإمكان، بمساعدة مدونات مشابهة أخرى، التوصل إلى وضع تصور عن مضمون الجزء الساقط. وهكذا فإن الصيغة الفينيقية كانت تخبر بأن الوجيه الفينيقي بَعْلروم، ابن عبديملْك، أقام في السنة الرابعة من حكم الملك ميلكايتون، ملك كيتيون وايداليون، وكآية للشكر، تمثالاً لمعبوده ريشيف المُكْلي (لأبولون الأميكلي، ففي اللغات السامية لايكتبون الصوتيات!) فالمدونة بناء على ذلك قدمت، في مجموع ما قدمته، أسماء أعلام: ميلكايتون، ايداليون وكيتيون. وبعد ذلك قام سميث بتطبيق المعاني اللفظية لمجموعات الحروف الفينيقية على تلك المجموعات من الرموز القبرصية التي تكمن وراءها، برأيه، تلك الأسماء الأعلام. ومن خلال تجربته العريضة كباحث في الكتابة الإسفينية عرف سميث أنه في حال وجود 55 رمزاً لا يتبقى هناك مجال للحديث عن كتابة أبجدية. فلا يدور الحديث إلا عن كتابة مقطعية. وهكذا فهو يكتشف مقطع (≤) *li* من كلمة ميلكايتون (فـ *mi-li-ki-ja-to-no-se* في الكتابة القبرصية هي حالة الإضافة لاسم علم) في *e-ta-li-o-ne* «ايداليّون»!

وعندما وصلت الدراسة إلى هذه النقطة تدخل مستشار سميث وصديقه القديم والذي سبق أن ذكرناه عرضاً، وهو صموييل بيورتش، وهمس لعالمنا المنكب على فك الرموز، والذي كان معلوماً أنه انصرف في شبابه إلى دراسة الحفر على المعدن لا إلى دراسة اليونانية - بأن كلمة *mlk* «ملك» الفينيقية يجب أن تقابلها كلمة *basileú s* اليونانية. إذ ذاك التفت سميث إلى مجموعة الرموز القبرصية التي تشمل، حسب فرضيته، على أثر لينغ، كلمة «ملك». وكانت هذه الكلمة موجودة في مكانين ولكن بنهايتين مختلفتين. وقد أصاب في اعتباره إحدى الكلمتين في صيغة الإضافة بينما أخطأ في اعتبار الأخرى- صيغة الاسمية.

وعلى هذا فإذا انطلقنا من فرضية الطابع المقطعي للكتابة فإن الكلمة القبرصية يجب أن تبدّل الصوت قبل الأخير فيها. لكن الأمر نفسه يحدث في كلمة *basileus* اليونانية إذ إن حالة الإضافة منه تلفظ *basileō s*! ومن ذلك توصل سميث إلى استنتاج متسرع بعض الشيء إلا أنه، على ما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، كان صحيحاً، وهو أن لغة المدونات القبرصية لا بد وأن تكون يونانية!

وبهذا الاكتشاف وقع مفتاح النقوش في يد سميث. فأسماء الأعلام المشار إليها وكلمة *basileus* أعطته 18 معنى لفظياً. وعلى الفور راح يطبقها على النقوش القصيرة المحفورة على الميداليات، فإذا كان لا بد من البحث عن أسماء الأعلام اليونانية الأخرى، على ما هو متوقع، فإنها لن توجد إلا في هذه الأماكن. وفي واقع الأمر فقد وجد فوق هذه الميداليات مجموعة كاملة من الأسماء المذكرة. ورغم أنه لم يقرأها جميعاً بصورة صحيحة فإن من بين الأسماء التي أصاب في قراءتها كان اسم الملك ايفاغوراس، حاكم قبرص الذي امتد حكمه بين 411-374ق.م واسمه لا يزال حياً في الموروثات الشعبية.

ونتيجة للكشوفات التي تمت استنفد سميث كل إمكاناته أو من الأفضل القول، كل معارفه في حقل اللغة اليونانية. ونحن نذكر أن سنوات المدرسة قد مضت بالنسبة له في ورشة للحفر والنقش، وتلك المعارف الزهيدة في حقل اللغة اليونانية والتي كانت لديه لم تسمح له بالخروج أبعد من نطاق البحث في أسماء الأعلام. يضاف إلى هذا أن اكتشاف ملحمة جلجامش والمعلومات المتعلقة بالطوفان كانا في العام الذي انكب فيه سميث على دراسة الثنائية القبرصية، قد رفعاه إلى ذروة علم الآشوريات، وهو ما يفسر عزوفه عن محاولة الغوص في القضايا المرتبطة بكتابة قبرص القديمة.

وهنا تدخل صمويل بيورتش في الموضوع من جديد إذ قدم البراهين المقنعة على أن اللغة القبرصية، رغم كل التوقعات، يمكن أن تكون يونانية، لا سامية ولا مصرية. والحق أن اللغة اليونانية في النقوش القبرصية التي تم إخراجها إلى الضوء كانت تبدو بربرية إلى حد ما وغريبة ولكن كانت هناك أسس لذلك كله.

أولاً، من السهولة بمكان، وخلال المرحلة الأولى من فك رموز الكتابة المقطعية، الوقوع في الأخطاء، إذ إن عدد الرموز هنا تجاوز إلى حد كبير عدد الرموز في الكتابة الحرفية. ثانياً، لا يمكن الجزم بأن اللغة القبرصية لم تختلف إلا اختلافاً بسيطاً عن لهجات اللغة اليونانية المعروفة آنذاك. ثالثاً، إن للكتابة القبرصية طريقة خاصة في الإملاء تشهد بصورة جلّية على أن هذه الكتابة لم تستنبط بصفة خاصة من أجل اللغة اليونانية، بل استعارها المستعمرون اليونان من قدماء سكان قبرص غير اليونانيين. ولإيضاح ذلك نقارن بين بضع كلمات قبرصية وبين الصيغ المقابلة لها (ونقدم التدوين الكتابي لهذا وذاك): فـ *pa-ta* = الكلمة اليونانية *pà nta* «كل شيء» و *theols = te-o-I-se* «للآلهة» و *a-ra-ku-ro* = *argyrō* (من *argyrou*): «فضة».

إن من السهل الاقتناع من خلال هذا المثال بمدى نقص وسيلة الأداء في كتابة ما إذا لم تكن قد صيغت بطريقة مقصودة لهذه اللغة. ففي بعض الحالات تحرمنا هذه الخاصية عموماً من إمكانية الحصول حتى على أدنى تصور مهما بلغ من تفاهته عن هذه الكلمة أو تلك. ويشير إ. فريدريك بهذا الخصوص إلى أن كلمة *a-tro-po-se* القبرصية مثلاً تقرأ بأشكال مختلفة هي *à nthropos* «إنسان» و *airopos* «غير متحول»، و *atrophos* «غير بدين» وأخيراً *á dropos* «غير شبعان»[1]. ولو أننا حاولنا أن نسرد هنا القواعد المعقدة للإملاء والذي كان على اليونانيين أن يستعملوها من أجل أداء لغتهم عبر هذه الكتابة المقطعية لمضى بنا الطريق شوطاً بعيداً، فنكتفي بإيراد مثال واحد فـ *A-po-ro-ti-ta-i* تعني «لأفروديتا»!.

وفي سنة 1872، وعندما رأى جورج سميث أن من الضروري تزويد «تقارير» الجمعية اللندنية لعلم الآثار التوراتية بنتائج عمله، كان قد حدد 33 رمزاً مقطعياً، وبرهن بذلك على الطابع المقطعي للكتابة القبرصية. وقد سبق لنا أن أوضحنا أنه لم يستطع بسبب عدم تسلّحه بصورة كافية بمعرفة اللغة اليونانية أن يصل إلى نهاية الطريق الذي شقه بنفسه.

ما أغرب لعبة الأقدار! فما حرمته أحدهم وهبته واحداً آخر وهو لا يزال في مهده بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة.

ولد يوهانس براندیس سنة 1830 في بون في أسرة أستاذ في جامعة رين الحديثة الافتتاح. كان أبوه عالم فيلولوجيا وقد اشتغل بدراسة الفلسفة وهو ما حدّد المنحى الأكاديمي لابنه منذ صغره. إلا أن الأب استدعي سنة 1837، بواسطة من شيلينغ، ليشغل منصب المستشار الشخصي لملك الهيلينيين أوتو الأول، وريث العرش البافاري، فسافر مع ابنه إلى اليونان. أما سنوات طفولة يوهانس المحاط بحنان الأبوة، والذي كان شديد الانتباه إلى تعاليم معلمه المنزلي ايرنست كورتسيوس، الذي غدا فيما بعد رائد الحفريات الألمانية في أوليمبيا والمشرف عليها وعالم آثار ومؤرخاً مشهوراً، فكانت مليئة بالانطباعات التي لا تمحى عن أثينا وآثارها، وعن الشعب اليوناني ولغته.

إن السنوات التي مضت في هيلادا: النزهات بحثاً عن شظايا من الأواني الفخارية الجذابة، الصيف في كيفيزيا، والسباحة في بحر إيجة بين أبراج المراقبة القديمة في مرسى بيريوس - كانت تنتمي، خلال حياة براندیس بطولها، إلى قائمة أحب الذكريات إلى نفسه.

1- J.Friedrich. Enzifferung verschollener Schriften und Sprachen , S. 104.

وكان لا يزال طالباً في بون عندما اجترأ فشارك في المسابقة التي أعلنت عنها كلية الفلسفة لنيل جائزة لقاء دراسة تتعلق بالمقارنة بين عادات الأقدمين وبين الكشوفات الأثرية لبوتا وليارد. وقد فاز بالجائزة فقدم له ذلك سنة 1854 منصب أمين السر الشخصي لبونزين، صديق أبيه (ونعرف أنه كان حامي ريخارد ليبسيوس وصديقه) بالإضافة إلى زيارة لندن حيث كان بونزين يعمل آنذاك، وهناك تعرف برانديس على بورتش ونورّيس.

إن دراسة علم الآشوريات التي بدأها برانديس منذ أن أخذ بإعداد بحثه لنيل الجائزة أوصلته إلى دراسة التاريخ القديم. بل إن تعيينه لمنصب السكرتير الخاص للأميرة البروسيّة لم ينجح في الحيلولة دون مواصلته أبحاثه الدقيقة وخاصة في حقل تاريخ نظام الأوزان والمشكلة التي ترتبط به وهي قيمة القطع النقدية. وقد توج دراسته حول تلك القضية في بحثه المدعّم بالحجج والذي صدر سنة 1866 حول النظام النقدي ونظم المقاييس والأوزان في آسيا الصغرى القديمة.

وعند ذلك بالذات كان على برانديس أن يقوم بدراسة تاريخ قبرص بصورة جادة. وعندما بلغته الإخبارية المتعلقة بعثور ر. لينغ على الثنائية كان في أوج قواه الإبداعية. أما عن اتساع معرفته العريضة بالأدبيات المتعلقة بهذا الموضوع فتشهد على الأقل تلك الحقيقة القائلة بأنه هو بالذات من أنطق المعجم القديم لغيسيكيوس الاسكندراني، الذي وضع في نهاية القرن الرابع نوعاً من الموسوعة التثقيفية العامة التي، وإن وصلتنا بصورة بالغة التشوّه، إلا أنها المصدر الذي يتضمن معلومات عظيمة الأهمية لا بد من معرفتها سواء بالنسبة لفهم المؤلفين اليونان ونقدهم أم بالنسبة لدراسة اللهجات اليونانية القديمة. وفي مؤلفات غيسيكيوس هذا بالذات كان يستتر، مثلما تختفي حصاة من حصى الموزاييك، خبر يقول بأن حرف العطف «و» كان يلفظ لدى قدماء سكان قبرص لا بـ *Kai*، مثلما يلفظه جميع اليونانيين الآخرين، بل بـ *Kas*. وكانت صحة هذه الملاحظة الصغيرة موضع جدل بين كثير من العلماء المتخصصين غير أن برانديس أمسك بها وأصبحت بالنسبة له المفتاح الأساسي لقراءة الرموز.

إن هذه الكلمات الصغيرة من أشباه «و» كثيرة الورود بالطبع. وبالمقارنة بين المدونات بلغتين تعرف برانديس على كلمة *Ka.s* في مجموعة رموز 𐠊𐠩 (تقرأ من اليمين إلى اليسار، *Ka* = 𐠊)[1]. وكانت هذه الـ *Ka* بالنسبة له الحجر الذي أثار من بعده الانهيار الجارف.

1- كان المكتوب في الواقع هو Ka.se إذ لم يكونوا يستعملون في الكتابة القبرصية غير الرموز المقطعية. وكان من بينها ما يتكون من صوتي واحد، ولكن في الوقت نفسه لم تكن تستعمل أبداً تلك الرموز المكونة فقط من السواكن، وهو ما لم يكن برانديس يعرفه بعد.

وفي ذلك الوقت كان قد عثر في ايداليون على مدونة طويلة وحيدة اللغة نقشت فوق لوحة برونزية، تتميز على جميع الآثار الأخرى بميزة خاصة: إذ كانت قد حفظت بصورة رائعة. فاصطفاها برانديس موضوعاً لجميع دراساته القادمة. وفيها كان منتظراً أن تجرى أولى التجارب على رمز *Ka*.

اكتشف فوق اللوحة مجموعة كبيرة من الرموز التي ترددت في المدونة بضع مرات. وكانت تبدأ بلقب ملك (كان قد تم التعرف عليه نتيجة لدراسات سميث) يرد بعده الـ *Ka,s* اللذان سلفت إليهما الإشارة يتلوهما عدد كبير من الرموز. وبما أن *Ka,s* كانت قد اكتشفت من قبل برانديس فقد كانت المجموعة الغريبة من الرموز يجب أن تتفكك إلى كلمات *basiLeú s kas agotó Lis* فبرانديس، الذي كان منذ طفولته على معرفة باليونانية ولهجاتها تعرف من توه على *basiLeú s kas (h)a gó toLis* وكانت الكلمة الأخيرة تلفظ بصورة واضحة وكأنها ليست باليونانية، لكن سرعان ما نجح برانديس في النفاذ في سرها. إذ إن هذه الصيغة كانت تستعْرض بصورة جيدة قانون التناغم اللفظي في اللهجة القبرصية الذي كان بالإمكان شرحه على أساس موازنته باللهجات اليونانية الأخرى فـ *gotó lis* لم تكن غير *ptó lis* «مدينة»، أما الصيغة التي ترددت ست مرات فكانت تعني «الملك والمدينة»!.

الخطوة الأولى - ويظهر بالحل المقنع إقناعاً جدياً للمشكلة: فالمدونة وضعت في إحدى المدن - الدّول. وبالطبع لم يتوقف برانديس عند هذا فمفتاحه *ka* كان ملائماً بصورة جيدة للمجموعة الأخرى من الرموز التي كانت تقابل في الفينيقية كلمة «اهوا بنى». ومقطعاً بعد مقطع انكشفت الكلمة اليونانية *Katé stase* «هو بنى»، وبعد قليل برزت *Kasignetos* «أخ» ولعبت الكلمتان الأخيرتان دوراً بالغ الأهمية في مقارنة جدول المقاطع القبرصية الكامل. وفي الوقت نفسه تم الحصول على مجموعة كاملة من المعاني المقطعية.

صبّ برانديس النتائج الأولية لما أنجزه من عمل في مقال «محاولة فك رموز الكتابة القبرصية»، لكنه لم يتمكن من تقديمها إلى أكاديمية برلين على نحو ما كان مخططاً. فقد كان يقف على مشارف جني حصاده عندما انقضّ حصّاد آخر على ذلك الباحث الذي لا يكَل، فتوفي يوهانس برانديس في الـ 8 من تموز سنة 1873 في لينتس على الدانوب في طريق عودته من فيينا وهو «في أوج ازدهار قواه ونشاطه العلمي والعملي». وبقي على أستاذه السابق، صديقه ومنفذ وصيته أرنست كورتسيوس، حق تقديم التقرير إلى الأكاديمية المذكورة عن الكشف الذي تم.

والحق أن الموت حمل براندیس وهو في أواخر عمله، ولهذا فإن نتائج بحثه لم تكن كاملة، ولم تكن صحيحة بصورة لا لبس فيها على الإطلاق.

وبين الزملاء الألمان، الذين كان من نصيبهم تفسير دراسة براندیس وتكملتها، كان عالم اليونانيات موريتس شميدت الذي وصف عمل العالم المتوفّى بأنه «واحد من أعظم كشوفات العصر الحديث».

ولم تكن هذه العبارة من شفتي شميدت مجرد عبارة إطراء، فهو نفسه كان طفلاً - نابغة بطريقته الخاصة، قام بأول قراءة في فترة أبكر مما قام به الصغير شامبليون، في الثالثة من عمره.

فقد ولد «مور» الصغير، حسبما كان يسميه أقرباؤه، في الـ 19 من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1823، في أسرة موريتس ويلهيلم ادوارد شميدت، مستشار المحكمة العليا بالمنطقة. وقد تميّز الصغير بنمو عقلي خارق للعادة. ويروون كيف بدأ الطفل ذو الأعوام الثلاثة يتعلم القراءة وكيف كانت العمة جوليتا تساعده في ذلك بتزويده بأحرف كرتونية مقصوصة كانت تصنعها بنفسها، وكيف قام الطفل الذكي بعد حين بطرحها بعيداً ليمسك بكتاب التهجئة الذي كان مزيناً برسوم «المغربي» فصار لهذا السبب أثيراً على قلب الطفل «مور».

وعندما نقل أب موريتس إلى شفيدنيتس، حيث أصبح رئيس النيابة بالمنطقة، كان من حظ الصغير أن يتحصل على تعليم ممتاز لدى المدرسين الممتازين في الجمنازيوم المحلي. فقد كان المدير هو كارل شينبورن، الذي لعب أخوه، أوغسطس، دوراً مرموقاً في تاريخ حل رموز اللغة الليكية (وقد نشر شميدت تراث ذلك العالم فيما بعد)، وقام أستاذ آخر في الصفوف العليا من الجمنازيوم بإعطاء التلميذ الذي كان تطوره العقلي يفوق عمره، معارف ذات مستوى عال في اللغة العبرية القديمة حتى صار قادراً بعد عامين على قراءة العهد القديم في أصله بل وفي الطبعة الأصعب، دون الحركات التي تعبر عن الصوتيات!

وسارت دراسة موريتس شميدت بنفس المستوى من النجاح. إلا أن عائقاً وحيداً وقف في سبيله - وهو صغر سنه. فقد كان عليه أن ينتظر مدة سنتين حتى يسمح له بدخول امتحانات شهادة بلوغ الرشد، ثم كان عليه أن ينتظر مدة ثلاث سنوات ليسمح له بشغل منصب المعلم في الجمنازيوم. ثم قدر له أن يدخل جامعة برلين في الوقت الذي كانت تلك المؤسسة في أوج ازدهارها. وكانت الأقسام تحت إشراف كبار المرشدين

من أمثال بيوكخ ولاخمان اللذين أقام شميدت معهما على الفور معرفة شخصية. وبالإضافة إلى ذلك فإن زيارة «حلقة الأحد» حيث كان شميدت يقضي أوقاته برفقة تيودور فونتان وموريتس، لورد شتراخفيتس تركت أثراً فعالاً جداً على التربية الجمالية للفتى.

وعلينا، بسبب ضيق المكان، أن نفرد من بين أعمال الفتى العلمية، دراستين فقط تعكسان المستوى الأعلى لنشاطه كقارئ للرموز. ويبدو للوهلة الأولى أن لا علاقة مشتركة بين هاتين الدراستين إلا أنهما في الواقع مترابطتان جداً. أما دراسته الأساسية في حقل الفيلولوجيا اليونانية (فقد كان منذ سنة 1857 يشغل منصب الأستاذية في يينّا بعد أن أمضى ثماني سنوات منصرفاً بكل نقاء ضمير إلى تعليم الأطفال في الجمنازيوم) فكانت إعادة تنقيح طبعة درّة المعارف، وهي موسوعة غيسيكيوس التي صدرت في يينا في طبعتين - الكاملة (في خمسة مجلدات) والموجزة (في مجلدين).

ويمكن القول بكثير من الثقة أن انتباه براندیس إلى المعاجم القديمة قد أثار اهتمام موريتس شميدت الخاص عندما قام هذا بإعداد مقالات برانديس والتعليقات عليها للنشر فبعد أن ألهمت روحه هذه الأعمال واتفق مع نتائجها الأساسية (بغض النظر عن استطراداته النقدية بالنسبة لبعض النقاط) فلم يتبق على شميدت إلا أن يقوم بخطوة صغيرة نحو دراسته الخاصة في فك الرموز. فانصرف إلى دراسة ما رفضه جورج سميث وما تركه يوهانس برانديس غير مكتمل.

ودون دخول في التفاصيل نقول إنه أشاح بوجهه عن كلمة *ptolis* أو *gotolis* وعن *Kasignetos*، إلا أنه، وقد سار في الطريقة التركيبية، توصل إلى نتائج تفوق في أهميتها ما توصل إليه عالما فك الرموز السابقان بكثير. وفي كانون الثاني من عام 1874 كان شميدت المتميّز بقدرته الخارقة على الصبر والجلد على العمل، قد فك رموز الجدول المقطعي القبرصي بكامله. وفي العام نفسه أصدر النقش الكبير المحفور فوق اللوحة البرونزية من ايداليون والتي سبق ذكرها. وقد ألقت دراسته التي قام بها للنص الوضوح النهائي على طابع الكتابة القبرصية: فهي لا تتضمن أي شيء سوى الرموز المقطعية (قارن بهذه المناسبة التدوين اللفظي الذي استخدمه برانديس)، هذا وإن أمثال هذه الرموز تعبّر عن المقاطع المفتوحة (أي المقاطع من نمط ساكن + صوتي) وعن الصوتيات البسيطة.

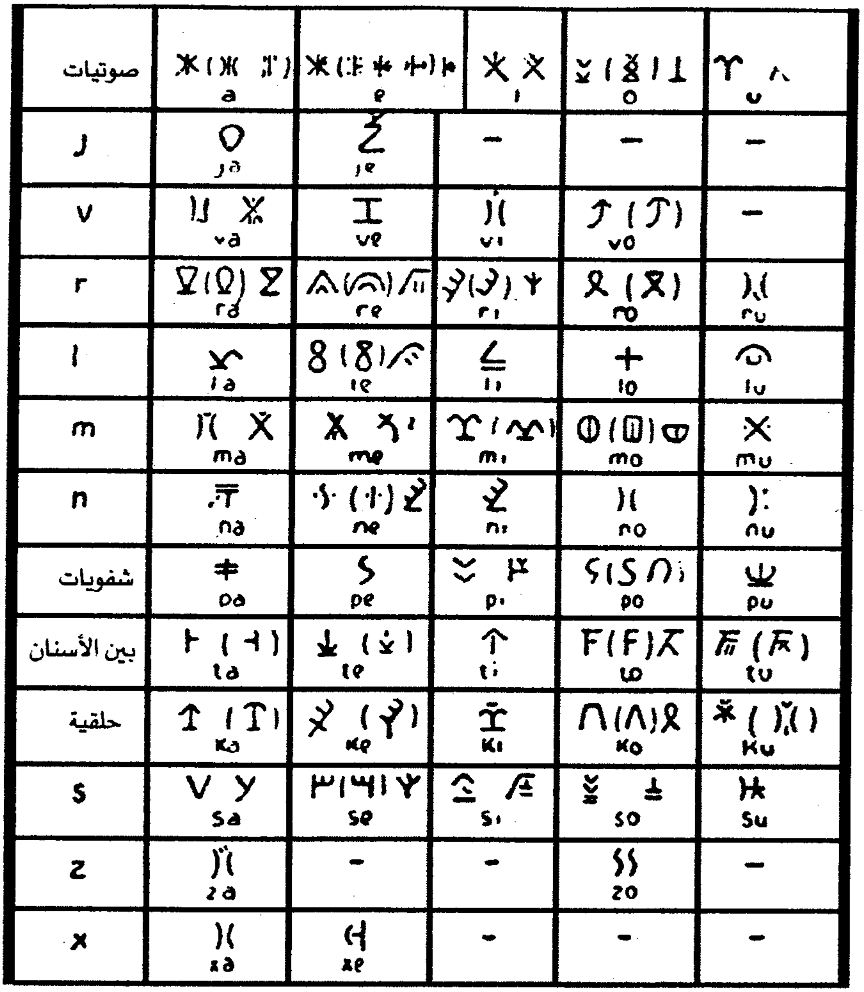

الشكل -70- رموز الكتابة القبرصية المقطعية

أما الحجر الأخير في المبنى الذي تم خلال هذه الفترة القصيرة (في الأساس من 1872 حتى 1874) فقد وضعه الباحثان الألمانيّان ديكّي وزيغيزموند. إذ اكتشفا الرموز المقطعية التي تبدأ بصوتي *z* و *w* وقضيا بذلك على العقبات التي لم تكن قد أزيحت بعد من طريق قراءات النصوص.

واتضح أن لوحة ايداليون البرونزية المذكورة - تتضمن اتفاقية عقدت بين الملك والمدينة من جهة، وبين أسرة أطباء من جهة أخرى، وبموجبها يستعاض عن المستحقات التي تدفع نقداً لهؤلاء الأطباء بوقفٍ معيَّن وخراج لبعض الأراضي يعطى لهم ولأحفادهم من بعدهم.

وهكذا فإن نتيجة كل الجهود التي بذلت والكثير من التراكيب الناجحة كانت مملة إلى حد كبير بغض النظر عن قيمتها التاريخية غير المشروطة.

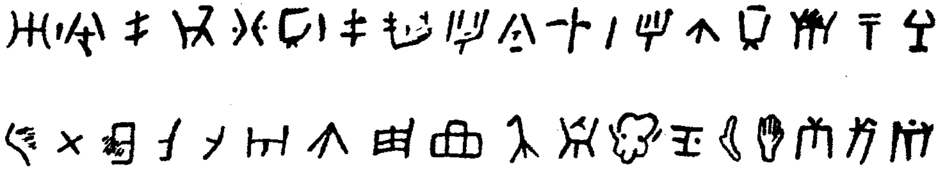

الشكل -71- رموز كتابية قبرصية - ميكينية.

والكتابة القبرصية المقطعية لا تزال تتشبث بأسرارها. ففي سنة 1910 مثلاً اكتشفت بعض النقوش التي وضعت بالكتابة القبرصية ولكن ليس باللغة اليونانية. ولم تكتشف هذه النقوش في الجزيرة بل في متحفين - ايشموليان في اوكسفورد واللوفر حيث كانتا تستقران دون أن تلفتا نظر أحد، بل إن ايرنست زيّتينغ، بروفيسور توبينغين الراحل، اكتشف منذ فترة قصيرة في أمافا في كريت ثنائية حقيقية - نصاً مزدوج اللغة ولكنه، للأسف، قصير جداً، وقد كتب بالمقطعية القبرصية وبالكتابة اليونانية الحرفية العامة. ومن السهل الإشارة إلى أن المادة التي توصل إليها العلم زهيدة جداً من أجل الكشف والتوضيح الكامل للغة القبارصة القدماء المختفية على الرغم من أن الجهود قد بذلت في هذا السبيل. ونأمل في أن تؤدي دراسات الباحثين في المستقبل القريب إلى نتائج سارة إذ إن الكتابة القبرصية المقطعية تنحدر، وفق الرأي المتفق عليه، من الكتابات الخطية الكريتية التي حلّت إحداها منذ فترة، وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك أيضاً كتابة أطلق عليها اسم الكتابة القبرصية - المينيوسية أو القبرصية - الميكينية «الانتقالية» (وهي لم تقرأ بعد) ولعلها تمثل حلقة الوصل بين القبرصية والكريتية الخطية. ومن يدري فلعل هذه الكتابات الأخيرة تلقي الضوء على الكتابة القبرصية المينيوسية وعلى لغتها المجهولة، ومن بين حروفها الـ 26 وأرقامها الـ 5 المعروفة حتى الآن في الكتابة القبرصية - المنيوسية، هناك 10-12 رمزاً فقط تتطابق مع رموز المقاطع القبرصية الكلاسيكية، وعلاوة على ذلك كان يمكن تحديد 8 أخرى. والحق أن من غير المنتظر الآن التوصل إلى نتائج ذات أهمية خاصة في حقل الكتابة القبرصية حيث إن الكتابة القبرصية - المينيوسية غير معروفة بالنسبة لنا إلا من خلال بعض النقوش القصيرة فوق الأواني، وحتى لو تسنى لنا قراءة هذه النقوش فإنها لا تكاد تقدم شيئاً يتجاوز ذكر محتوى الأواني أو أسماء أصحابها.

مضت حتى الآن 80 سنة منذ اكتشاف كتابة «الجزيرة النحاسية» في البحر المتوسط الشرقي، قبرص القديمة. وعلى مسافة بضعة أيام منها (إذا ما انطلقنا على متن سفينة شراعية) كانت تنبسط أرض كتابة أكثر قدماً، ومنذ فترة قصيرة توج العمل عليها بانتصار لامع في حقل قراءة الرموز. إنها كريت، جزيرة المينوطور، وأريادنا، ذلك المهد الذي يهدهده البحر بحنان، مهد الحضارة الروحية الأوروبية الأصيلة.

عربة حربية وكأس

قراءة رموز كتابة «ب» الكريتية - الميكينية الخطوطية

ووضَـعَتْ إزاءَهـا كوبـاً أَغـرْ كـان لـدى نَسْطورَ مـن قَبْلِ السَّفَرْ
وهـو علـى قـائِمَتَيْنِ انْتـصبا وبمـسامير النُّـضارِ التَهبـا

هوميروس. الألياذة 11-411-412[1]

بدأ كل شيء بحادث إحضار غريفيل تشيستير، الرحالة الإنكليزي وخبير الأثريات المشهور، إلى متحف ايشموليان في اوكسفورد، عام 1889، بضع قطع من آثار الماضي كان من بينها خاتم عقيقي، وقد نقشت على حواف الخاتم الأربعة رموز مبسّطة تذكر بالهيروغليفات. أما الخاتم فبدا وكأنه قد جيء به من اسبارطة. أما الإنسان الذي جيء إليه بالهدية فكان ارتور ايفانس، حافظ المتحف.

وعلى الفور استرعى أنظار هذا الأخير التشابه بين رموز الختم والهيروغليفات الحثية، ذلك التشابه الذي كان يبدو أكثر وضوحاً عند النظر إلى تصوير رأس الكلب أو الذئب ذي اللسان المندلق (في الشكل الثالث). إلا أن التشابه ينتهي عند ذلك؛ ولم يكشف أي شيء آخر في أي من مناطق الحضارات القديمة في العالم، ولهذا لجأ ايفانس إلى معونة أشد الفرضيات تضارياً حول مصدر الختم، بما في ذلك الفرضية القائلة بعودته إلى يونان «ما قبل التاريخ».

وبعد مضي أربع سنوات، في ربيع عام 1893 اتجه ايفانس شطر بلاد اليونان، وهنا في مدينة أثينا عثر، خلال بحوثه، على بضعة نماذج من الختم شبيهة بالأول. وتأتّى له أن يجمع أختاماً رباعية أو ثلاثية الجوانب وقد ثقبت طولانياً من محاورها. أما استفساراته حول مصادرها فكانت تلاقي ردّاً واحداً يقول: لقد جيء بها من كريت. وعندما توجه بسؤاله إلى

1- من ترجمة «إلياذة هوميروس» لسليمان البستاني. النشيد الحادي عشر، الأبيات 411-412 (المترجم).

متحف برلين تلقى من هناك نسخاً من مجموعة كاملة من أمثال هذه النماذج وأضيفت إلى ذلك كله قطعة من حجر الدم كان آ. غ. سايس قد عثر عليها في أثينا. وبعد العودة إلى إنجلترا تمكن ايفانس في تشرين الثاني سنة 1893 من أن يتقدم إلى الجمعية البريطانية لهواة العاديات الهيلينية بتقريره حول اكتشاف ما يقارب الـ 60 من الرموز الهيروغليفية التي تعود، على ما هو ظاهر، إلى الكتابة التصويرية التي كانت منتشرة ذات يوم في جزيرة كريت. وفي العام التالي نزل بنفسه على تلك الجزيرة.

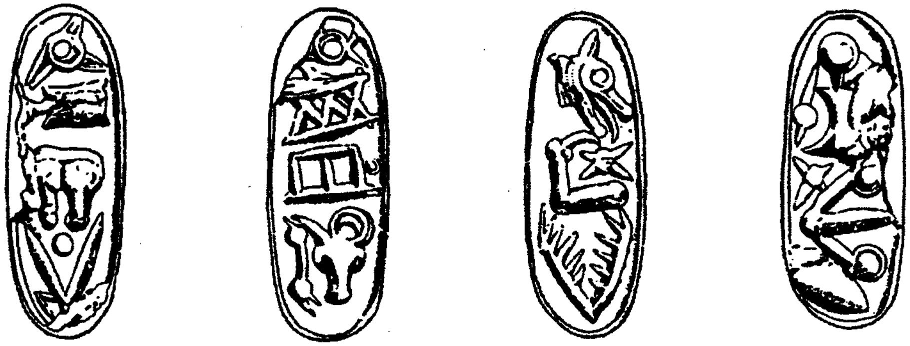

الشكل -72- الختم العقيقي الرباعي الجوانب من جزيرة كريت (من سبارطة)

قام ايفانس بزيارة الجزء الداخلي والشرقي من الجزيرة. وقد تأكدت توقعاته فيها وتحققت آماله. إذ تيسّر له جمع كمية كبرى من المواد التابعة لتلك الحضارة الغابرة التي تغنى بها هوميروس - حضارة عهد كريت ذات المدن المئة - مملكة مينوس. إلا أن لقية واحدة أدخلت فرحة خاصة على قلب جامع التحف المتحمس وأكدت توقعاته: فقد وجد في هذا المكان، في كريت، نسخة من ذلك الختم العقيقي نفسه (من إسبارطة!) وكانت هذه النسخة تعود لنفس المالك السابق.

إذا كانت خشية رايت، عند اكتشافه حجر حماه منذ خمسين عاماً، لم تقتصر فقط على إمكانية الحفاظ على الحجر، بل وامتدت إلى الخوف على حياته شخصياً، وهو يتوقع هجوماً مباشراً من طرف أبناء سوريا المتعصبين، فإن تعصباً لا يقل رسوخاً كان يخيم هناك في كريت، وقد هب - ذلك التعصب - لمساعدة ايفانس. فبعد أن قضى كل وقته في بحث مضن عن الأختام الحجرية وأحجار الدم (وكانت بأجمعها مثقوبة) سيطرت عليه دهشة مفرحة إذ اكتشف أن فلاحات كريت بل والنساء الريفيات بصورة عامة كن يولين احتراماً خاصاً للحلي والتمائم التي تعود إلى هذه الطائفة من المواد المثقوبة، التي

كان من السهل حملها بواسطة خيط أو سلسلة. أما القيمة الأساسية لهذه التمائم فكانت تكمن في كونها «غالوبيترايس» أي «أحجار الحليب» أو «غالواوسايس» - أي «مدرّات الحليب» أو «معطيات الحليب» ؛ وكانت تحظى بإقبال شديد عليها وبخاصة لدى الحوامل من النساء.

وبعد أن علم ايفانس بذلك شرع بعملية «تطهير» منظمة للقرى ؛ فراح يزور المنازل والأكواخ، واحداً بعد الآخر، ليبدي إعجابه المستديم بحلي الفاتنات الريفيات، ويتحصل بهذه الطريقة على إمكانية الاطلاع بنظره على النماذج البديعة من الأختام المثقبة العائدة للعصور الكريتية القديمة. أما بالنسبة للمتقدمات في السن وللعجائز من الفلاحات، اللاتي كان من الطبيعي أن يتخلّين بسهولة عن «أحجار الحليب» فكان يعمد بكثير من اللباقة والفطنة إلى إثارة رغبتهن في بيع هذه الطلاسم. بل وإن النساء الشديدات التعلق بكنوزهن كن يضحين بها لصالح الإنكليزي، ودون تردد، عندما كان يتقدم إليهن بعرض حجر آخر مثقوب أيضاً ولكنه يتفوق بجماله بل ويحمل بالضبط نفس اللون الأبيض - الحليبي الذي كان موضع تقديس خاص. فإذا ما قامت مالكة «العلّوقة»، ذات القوة السحرية، برفض التخلي عن حليتها لسبب من الأسباب كان على ايفانس أن يكتفي بنسخة منها. وإلى جانب ذلك وقع في يديه كثير من الأشياء الأخرى المغطاة بالنقوش إلا أنها كانت تختلف عن اللقى الأولى برموز الكتابة «الخطية» أو «الظاهرية»! وهكذا علم جامع التحف بوجود النظامين الأقدم للكتابة المحلية - البيكتوغرافية والخطوطية. وكان ذلك كشفاً بلغ من الأهمية والخطورة حداً جعل ايفانس يقرر على الفور البحث عن إثبات له. إلا أن ذلك كان يستلزم القيام بالحفريات في كريت.

الحفريات في كريت. لقد جاء القرار من تلقاء نفسه. بل وكان ايفانس يعرف المكان الذي تغرس فيه الفأس فتأهب للشروع بالعمل.

وكان عليه أن يحقق الأمر الذي كان هنريخ شليمان[1] قبل وفاته يعتبره حلماً خارقاً للعادة يمكن أن يتوج حياته بطولها. وقد كتب ايفانس: «كان هدفي الرئيسي هو كنوس - مدينة مينوس، ذلك المكان الملفوف بالأساطير، حيث يقوم القصر الذي أقامه البنّاء

1- هنريخ شليمان (1822-1890) عالم آثار ألماني جمع ثروة كبيرة عن طريق التجارة التي تخلى عنها سنة 1863 ليتجه إلى التنقيب عن الآثار اليونانية القديمة التي وردت في المؤلفات الهوميرية فقام بحفرياته في حصارليك، في ميكينا وتيرينف وأسهم في الكشوفات الأيجية ويعود إليه الفضل الأكبر في البرهان على أن ملحمة هوميروس كانت ذات أساس تاريخي واقعي (المترجم).

دايـدالوس[1]، القـصـر ذو الآثـار الفنيّـة البديعـة والمحتـوى علـى قاعـة رقـص أريادنـا وعلـى اللابيرنيت، فقد كان ذلك كله يلوح أمام عيني»[2].

غصن		ربما كانت مالك او صاحب	
جبل ، بلاد	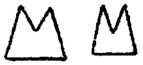	عين	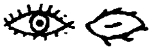
غصن	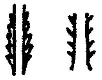	ذراعان متقاطعان	
سفينة		رجل	
أداة معدنية		خنجر	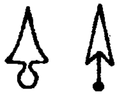
يـد		فكَ	
؟		فأس ذات حدين	
أفعى		باب	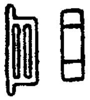
هلال		رأس ثور	

الشكل -73- بعض الهيروغليفات الكريتية التي تعرّف ايفانس عليها إلى جانب معانيها المفترضة. وقد عرضت الأشكال الأكثر قدماً من بينها (ذات الطابع التصويري الواضح) إلى جانب الأشكال الأكثر تبسيطاً.

1- تروي الأساطير أن دايدالوس كان أعظم مصور ونحات ومعماري في أثينا، لكنه خاف منافسة ابن أخته له فقتله وفرّ إلى جزيرة كريت، وهناك الجأه ملكها مينوس؛ فبنى دايدالوس للملك قصر اللابيرنيت (المتاهة) الشهير بمعابره المتداخلة التي تجعل الخروج أمراً مستحيلاً على من يدخلها، وهناك حبس مينوس ابن زوجته، المينوطور الرهيب، الذي كان له جسم إنسان ورأس ثور. ولما كان الأثينيون قد قتلوا ابن مينوس فقد فرض عليهم إتاوة دامية يؤدونها كل تسع سنوات، وهي أن يرسلوا إليه سبعة من شبانهم وسبعاً من صباياهم ليطرحوا جميعاً في اللابيرنيت حيث يلتهمهم المينوطور. فسار البطل تيسيوس في عداد الضحايا المرسلة إلى كريت وهناك تمكّن، بمساعدة أريادنا، ابنة الملك التي وقعت في هواه، أن يقضي على المينوطور وأن يعود بأريادنا وبشبان أثينا وصباياها إلى بلاده (المترجم).

2- A. J. Evans , Scripta Minoa I , Oxford , 1909 , P. 16.

كان معروفاً أين يجب البحث عن كنوس. فقد كان بووندلموتْتهِ قد أشار إلى مكانها منذ القرن الخامس عشر. ففي مكان المدينة القديمة كانت تقوم قرية ماكروتيخو أو ماكريتيخوس («الجدار الطويل») التي كانت تمتد في واد منغلق يؤدي إلى عمق البلاد على بعد ستة كيلومترات إلى الجنوب من كانديا (وهي هيراقليون الآن).

لكن العلاقات السائدة هناك (وكانت الجزيرة خاضعة آنذاك للسيادة التركية) كانت تقصر حق الحفريات على مالك الأرض وحده؛ وقد سبق لشليمان أن تأكد من ذلك بنفسه من خلال تجربته الخاصة. والحق أنه كان قد سبق لمينوس كالوكايرينوس، القنصل الإسباني، وابن كانديا أن حفر سنة 1877 قبواً لتخزين المؤونة، فعثر هناك على أوان فخارية ضخمة («بيفوسات») وعلى لوح مغطى بالكتابة. وبعد ذلك تسلح الأمريكي ف. د. ستيلمان بموافقة الباب العالي ليقوم بالحفريات لكن كان عليه أن يتوقف عن ذلك سريعاً لأن الفرمان لم يصدر وتم العدول عن إعطاء التصريح. ومع كل ذلك فإننا نذكر قبل كل شيء اسم هنريخ شليمان الذي رغب، سنة 1889، في أن يشتري أرض «كيفالاتسيليمبي» أو «هضبة الحكام» من جميع ملاّكها الكثيري العدد، لكنه باء بخيبة أمل كاملة، إذ اصطدم بجشع ملاك الأرض، وعراقيل الموظفين العثمانيين فعدل عن مشروعه.

هل من الضروري أن نشير إلى أن مثل هذه العراقيل كانت تقطع الطريق على ايفانس أيضاً. إلا أنه وهو يعمل في البحث عن «حجر الحليب» استطاع أن يؤمن لنفسه قطعة أرض على الـ «كيفالا». فعندما غادر الأتراك كريت بصفة نهائية سنة 1899 اشترى مجموع الأرض هناك وراح يعمل من أجل الحصول على رخصة التنقيب.

إن اسم السير ارثور ايفانس معروف الآن بالنسبة للجميع؛ فالمأثرة التي قام بها في سبيل العلم - وهي الحفريات عن «قصر مينوس في كنْوس» - مطروحة في الأدبيات العلمية أو المبسطة وهي الآن في متناول أيدي كل العالم المثقف.

لقد أصبح ايفانس المكتشف الأول للكتابات الكريتية القديمة. فقد عثر في كنْوس على كمية كبيرة من اللوحات الفخارية المغطاة بكتابة «خطوطية» بالإضافة إلى نسخ من الأختام الحجرية من نمط «أحجار الحليب» وفي سنة 1909 أصدر في أوكسفورد - *Scripta Minoa I* - في مجلد كبير بديع الرسوم مخصص لآثار الكتابة الكريتية. وكانت تظهر في ذلك، وبصورة خاصة، النقوش الهيروغليفية إلا أن المؤلف كان قد وعد في مقدمته

بأن ينشر في المجلدين الثاني والثالث آثار الكتابة الخطوطية التي كان قد صنّفها إلى فئتي آ و ب.

والحق أن دراسة ايفانس «Scripta minoa I» إلى جانب آثار الكتابة الهيروغليفية كانت تتضمن نماذج كنوسية من الكتابة الخطوطية آ بالإضافة إلى 14 لوحة مغطاة بكاملها بكتابة ب الخطية. ومع كل ذلك كان يجب أن تمضي 26 سنة قبل أن يفي ايفانس، ولو جزئياً، بوعده، وهكذا فإنه نشر سنة 1835 في الجزء الرابع من «Palace of Minos» نحو 120 لوحة دونت نصوصها بالكتابة الخطوطية «ب» بينما كان العدد الذي اكتشف منها يزيد عن 2800! ولهذا لا يمكننا إلا أن نعترف بعدالة اللوم الذي وجّه في حق ايفانس بسبب إهماله شخصياً العمل على إصدار النصوص وعدم تكليفه شخصاً آخر بذلك. كما يمكن أن تسجل في سجل تقصيره تلك العشرات السنين من الركود - من 1909 حتى 1952 (ففي سنة 1952 صدرت أخيرا «Scripta Minoa II» وكان قد نقحها السير جون مايرز، التلميذ الأسبق لايفانس) - تلك السنوات التي لم يؤد فقدان المادة إلى مجرد شل أعمال البحث وسيرها في الطريق الخطأ، بل وإلى توقيفها عن سابق وعي وتدبير. بل إن يوهانّيس سونْدفال، الباحث الفنلندي المشهور ونسطور[1] الدراسات الكريتية الحالية، والذي غامر سنتي 1932 و 1939 باستنساخ 38 لوحة جديدة، قد عانى من تقتير ايفانس أيضاً.

وبهذا تغدو مفهومة بالنسبة لنا كلمات فينتريس وتشيدويك، الباحثين الإنكليزيين اللذين قالا بأن «جيلين من العلماء قد حرما عمداً إمكانيةَ العمل المثمر على القضية[2]» في الكتابة الخطوطية «ب» وان الاهتمامات التي تأججت حول مشكلة حل رموز هذه الكتابة على مدار نصف قرن من الزمن، من 1900 وحتى سنة 1950، تقنعنا بصورة واضحة بصواب ما وجه إلى ايفانس من لوم.

1- نسطور، ملك بيلوس، اتجه اليه منيلاوس وأغا ممنون بطلب اشتراكه في الحملة اليونانية على طروادة من أجل استرداد هيلين التي خطفها باريس، ابن ملك طروادة على حسب ما تزعم الأساطير اليونانية. كان نسطور شيخاً حكيماً عجمت عوده التجارب في الحياة وفي الحروب وكان يعد حكيم القوات اليونانية والشيخ الذي تنتظر منه المشورة. (المترجم).

2- M.Ventris, J. Chadwick, Documents in Mycenaean Greek , Cambridge. 1956,2 P.ll.

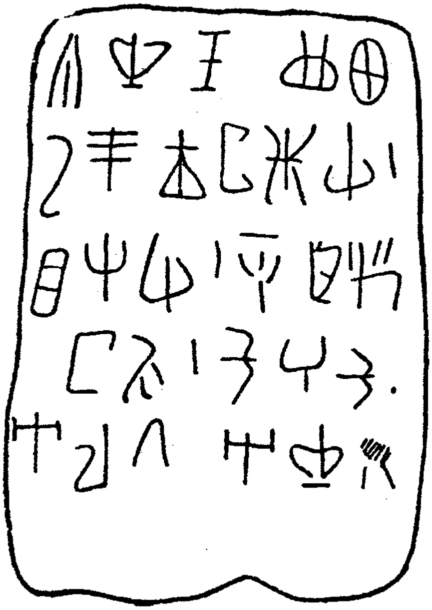

آ

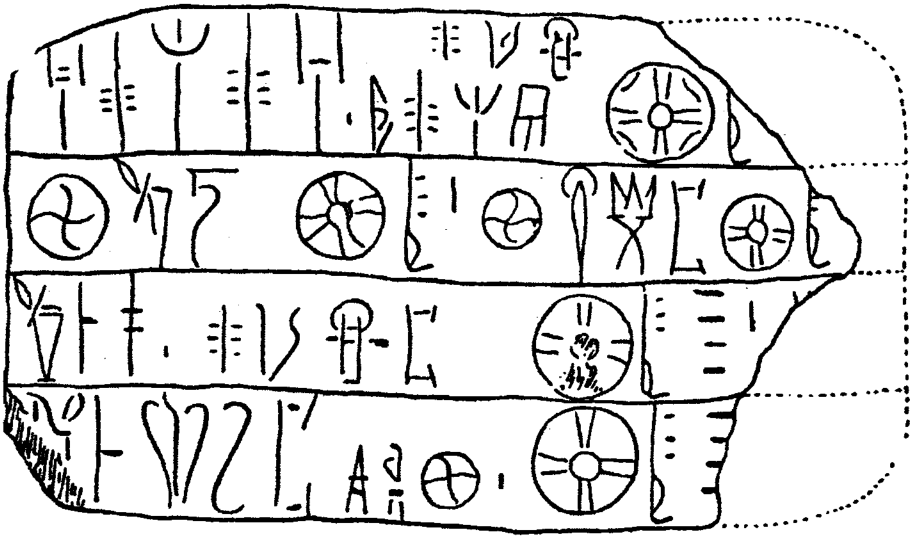

ب

الشكل -74- لوحتان كريتيتان من كنوسّ: آ- كتابة خطوطية ب- كتابة خطوطية

و من الطبيعي أن الآثار الغامضة للعهود القديمة قد اجتذبت إليها العارفين بالأمور ومن لا دخل لهم بذلك من «العلماء المبجلين وعباقرة الهواة بالإضافة إلى مختلف

ضروب أولئك الممثلين المتفيهقين الخارجين من الميادين ذات العلاقة الجانبية بعلم الآثار والتي تغدو الآثار بالنسبة لها ضرباً من الهذيان[1]، فقد أكد بعضهم من بعد ايفانس، على أن في أساس جميع الآثار الكتابية المكتشفة تثوي لغة واحدة فقط، واتجه آخرون إلى قوائم الكتابة المقطعية القبرصية الكلاسيكية وانشغل ثالثون بالبحث في مختلف أنحاء العالم عن الشعب المحتمل - مخترع هذه الكتابة وكان لا بد إزاء ذلك من تحمل أشد شعوب العالم القديم تضارباً: الحثيون والمصريون، الباسكيون والألبان، السلافيون والفنلنديون، السُّومريون والعبرانيون. وكان أكثر من تخبط في هذه المتاهة في السنوات الأخيرة من عمره بيدرجيخ غروزني الشهير المتوفى سنة 1952. إن شيئا لا يمكن أن ينتقص من الخدمات الجليلة التي قدمها ذلك الإنسان للعلم، إلا أنه بين 1940-1949 كان ضحية لون خطير من ألوان «مرض المهنة» الذي لا يمكن أن ينجو منه أي عالم في فك الرموز: فالقدرة على المحاكمة النقدية، تلك المحاكمة التي طالما أثبتها بصورة رائعة، تخلت عنه بصورة كلية، فاندفع في زحف عام على كتابات العالم القديم التي لم تقرأ رموزها بعد. فكان ما اقترحه كحل لمشكلة الكتابة الخطوطية ب خليطاً فوضوياً من المفردات الحثية والبابلية، خليط متشابك ويسير الدحض.

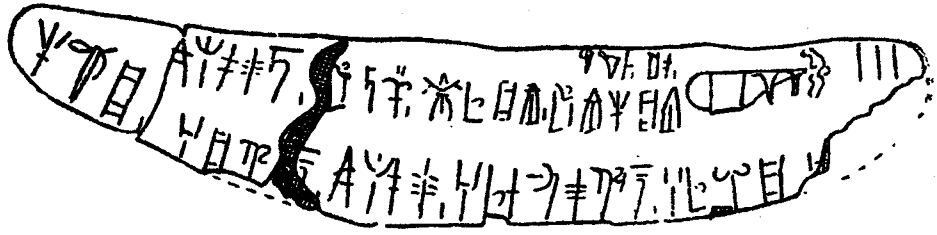

الشكل -75-1

1- «العربة الحربية» من كنوسّ.

1- Ibid.

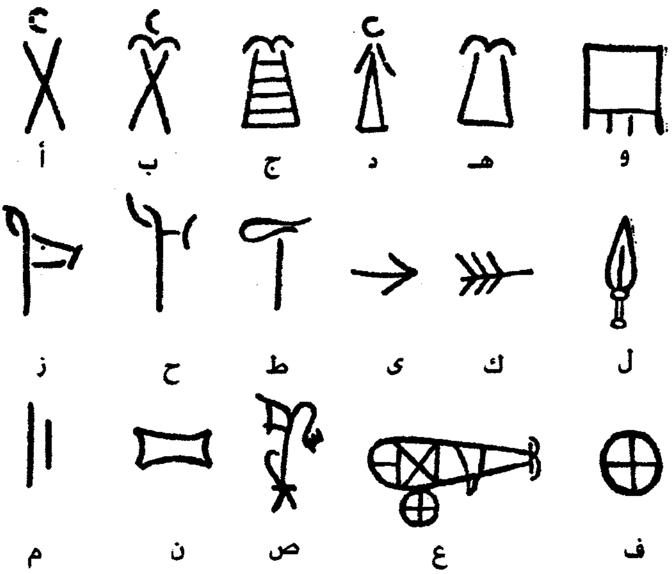

الشكل -75-2

2- بعض ايديوغرامات الكتابة الكريتية - الميكينية:

أ- رجُل، ب- محارب، ج- درع، د- امرأة، هـ- فستان، و- قماش، ز- خنزير، ح- عجل، ط- خروف، ي- رمح، ك- سهم، ل- سيف، م- برونز (؟) ن- سبيكة نحاسية، ص- نحاس، وهو مؤلف من رمزين مقطعيين هما me-ri (باليونانية meli، قارن ذلك باللاتينية mel)، ع- عربة حربية، ف- عَجَلة.

أما ارتور ايفانس، الذي كانت المادة كلها في حوزته فكان الوحيد القادر على الاستمتاع بترف عدم السماح لنفسه بالتحليق عالياً بين السحب. لقد راح بكل دقة وتمحيص يقارن بين الحقائق التي تحصل عليها من ملاحظته الخصائص الظاهرية للمصادر الكتابية. ولاحظ أن اللوحات تمثل جرودا بالأدوات وقوائم بأسماء الناس وإحصائيات لحيوانات وأشياء، أما «الأيديوغرامات» المرسومة بأشكالها العينية في نهاية كل مجموعة أو سطر فكانت تحدد ما يدور حوله الحديث في كل حالة من الحالات بينما كان العدد المطلوب يحدّد وفقاً للنظام العشري. وفي بدايات الأسطر كانت تظهر مجموعات مكونة من رمزين أو أكثر (حتى السبعة) تصوّر على ما يبدو كلمات من اللغة «المينوسية» ويقدم (الشكل 75) تصوّراً عن الكيفية التي توصل بها ايفانس إلى نتائجه. ففي الرسم (الشكل 75، 1) تظهر اللوحة التي وجدها ايفانس سنة 1904 في «ترسانة الأسلحة» أو «المستودعات الكنوسية» وهي تتألف من 12 كلمة (يسهل التفريق بينها بفضل الفواصل بين الكلمات والتي ترسم بصورة

عمودية)، ولها في نهايتها (إلى اليمين من الأعلى) كتابة تصويرية لا شك فيها لعربة حربية (المنظر مأخوذ من الأعلى) ويظهر إلى جانبها مباشرة الرقم «ثلاثة».

ولا بد من الإشارة إلى آ. إ. كاولي كواحد من العلماء الذين عملوا في سنّي الركود على الكتابة الميكينية، وقد تعرفنا عليه بمناسبة فك رموز الهيروغليفات الحثية. وسبق له أن لفت أنظار الباحثين منذ سنة 1927 إلى ستة رموز ثلاثة منها ضمن مجموعتي و كانت تتردد أمام الإشارة إلى الحاصل العام في جرود الأدوات. أما بالنسبة للثلاثة الأخرى فكانت تدخل في مجموعتي و وقد اقترح كاولي لها معنى «طفل»، «صبي» و «وبنية» ، وقد تأكدت فروضه فيما بعد.

بيد أن ذلك كله لم يكن يعني أن رحلة التيه انتهت، إذ مضت فترة طويلة من التخمينات. وبالإضافة إلى اللغات التي مر ذكرها فقد سجلت للألواح الكريتية لغات «ما قبل اليونانية» و «البيلاسغيّة» بل وحتى «اللهجة الإيجية - الآسيوية القريبة من اللغة الحثية». إلا أن شاباً إنكليزيا، طالباً في الثامنة عشرة من عمره، تجاوز الجميع وكان سنة 1940 قد درس الألواح بهدف البرهنة على مصدرها الإيتروسكي. وقد ظل طالبنا مصرًّا على رأيه الخاص بكل عناد وتشدّد حتى سنة 1952 عندما تمكن... في الواقع من حل رموز كتابة ب الكريتية - المينوسية الخطوطية.

ومع ذلك فإن الآلة التي عزفت عليها القطعة الموسيقية الخاصة بفك الرموز كانت فأس العالم الأثري، فعلى مدى عشرات السنين كانت آثار هذه الكتابة التي ندرسها معروفة أيضا من خلال الكشوفات التي عثر عليها في اليونان القارّية، في ميكينا وطيبة، في تيرينف، ايليفسين واورخومين. إلاّ أن تلك الكتابة كانت معروفة آنذاك بـ «المينوسية» ولهذا فإن ايفانس عدّ الميكينيين، بكل بساطة، غزاةً كريتيين ومستعمرين في القارة، أما علماء الفيلولوجيا فحاولوا، حسبما رأينا، أن يلصقوا بها، وبصورة دورية، أسماء البيلاسغيين مرة والإيتروسكيين مرة ثانية والايليّريين أو الحثيين في مرة ثالثة وهكذا وهلم جرا...

إن الطريق المسدود الذي انتهت إليه دراسة آثار الكتابة «المينوسية» قد بني إلى حدّ بعيد بيدي ايفانس نفسه وأيدي أنصاره الذين بسطوا هيمنتهم على هذا الميدان العلمي، وقطعوا السبيل على كل نظرة نقدية إلى موضوعه. ووصل الأمر إلى درجة أن العلاّمة أ. و. ويس كان مجبراً على التخلي عن منصب إدارة المدرسة البريطانية - وهي معهد الآثار البريطاني في أثينا، ليُخْلي ميدان المعركة لايفانس.

إلا أن اتجاهاً جديداً، مدرسة جديدة صارت تشق طريقها بالتدريج، وتزيح من أمامها مقاومة الأخصائيين المحافظين الضارية، وبدأ أنصار هذه المدرسة يدركون شيئا فشيئاً أن الميكينيين ربما كانوا يتكلمون باللغة اليونانية بل وربما كانوا يكتبون بها. ونال تطور هذا الاتجاه دفعة ملموسة بفضل جهود البعثة الأثرية اليونانية - الأمريكية سنة 1939 في ميسينا الغربية. ففي آنو اينجليانوس، الواقعة هناك، تعرف الأمريكي كارل أ. بليغين على بقايا القصر الميكيني الضخم واعتبرها مقر الملك نسطور القديم الذي وصفه هوميروس في النشيد الثالث من «الأوديسية»، فبعد أن قام بليغين ببضع حفرات تجريبية شق، ولفرط سعادته، طبقة عثر فيها على أرشيف يحتوي على 600 لوحة فخارية! وقد أحضرت اللقية إلى أثينا ونظفت اللوحات من الشوائب ولصّقت القطع المتناثرة. وعندما كانت آخر باخرة أمريكية تغادر مياه البحر الأبيض المتوسط عائدة إلى الوطن في حزيران سنة 1940، بعد أن أعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء، كانت اللقية التي تم العثور عليها تُحْمل إلى أمريكا تحت رقابة مسز ويس المشدّدة. وفيما بعد نشرت تلك الألواح بإشراف الباحث الأمريكي الشاب ايمينت د. بينّيت.

لكن القضية كانت تنحصر كلية في كون كتابة الألواح المستخرجة من بيلوس، من المقر القديم لنسطور تتطابق تطابقاً كاملاً مع الكتابة الخطوطية «ب»!

أحدث كشف بليغين أصداء مختلفة تماماً. فبعض العلماء وجدوا في مواد المكتشفات الجديدة مواد استحضرت من كنوس، ولهذا عدوا تلك الكشوفات برهاناً على نظرية ايفانس القائلة بـ «مركزية كنوس» ؛ إلا أن القلائل فقط افترضوا إمكانية أن تكون الألواح البيلوسية والكنوسية قد كتبت بلغة يونانية.

وهكذا ظهر من جديد، مثلما كان يحدث في كثير من الأحيان عند المراحل الأولى من حل الرموز، أن التحفظ الشديد كان ضمانة للوصول إلى أول النتائج الملموسة.

في الـ 16 من أيار سنة 1950 توفيت أليسا د. كوبير في بروكلين. وكانت سنة 1932 قد ناقشت أطروحة في الرياضيات في جامعة كولومبيا وحصلت على لقب الدكتوراه. وكانت إلى جانب عملها المباشر تشتغل بشغف شديد في حقل الدراسات اللغوية. وقد وضعت السنسكريت والحثية والفارسية القديمة وغيرها من اللغات الهندأوروبية الأخرى في دائرة اهتماماتها بالإضافة إلى اللغات السامية وأخيراً السّومرية والباسكية. كما أثارت مشكلة الكتابة الكريتية الميكينية لديها اهتماماً بالغ الشدة.

عندما كان الحديث يدور حول تلك الكتابة كانت أليسا كوبير لا تفتأ تكرر ان من المستحيل فك رموز أي شيء من لا شيء ولكن كم كان من الطريف أن يمنّ القدر عليها بالذات بمنّة وضع الأسس الثابتة الأولى من ذلك «اللاشيء».

«عند محاولة القيام بحل رموز الوثائق المجهولة اللغة، والمدونة بكتابة مجهولة، تتحصر الخطوة الأولى في تحديد تلك الحقائق التي تبرز من تلقاء نفسها عند دراسة الوثائق التي بين أيدينا. وتتحصر الخطوة الثانية في أن يكشف الباحث، عن طريق التحليل الدقيق الشامل والاستقراء المنطقي، تلك النتائج التي يمكن استخلاصها من تلك الوقائع الأساسية[1]» ذلك كان البرنامج الحذر والواعي الذي كان من شأنه أن يوقف عالم فك الرموز وبصورة واعية عن اتخاذ الخطوة الحاسمة - وهي إسقاط الدلالات اللفظية.

وانطلاقاً من هذا البرنامج بدأت أليسا كوبير بوضع جدول بالرموز يصلح للاستخدام العملي ويمكن التعويل عليه في ذلك، ثم انتقلت بعد ذلك إلى مقارنة المفردات المكتوبة. وعلى ذلك الطريق قامت بأول كشوفها المهمة: فقد أفرزت الكتابة لغة كان من خصائصها اشتمالها على التحول النحوي وفقاً لمواقع المفردات من الجملة.

أما الخطوة التالية فكانت اصطفاء تلك المفردات، التي يُلتقى بكل واحدة منها في الحالات الإعرابية المختلفة الثلاث، وبكلمة أخرى المفردات التي تسترعي النظر باشتمالها على مجموعة واحدة من الرموز باستثناء الرمز الختامي أو بضعة الرموز الختامية، وتكون بذلك مختلفة عن بعضها في النهايات فقط. وإن وجود جميع تلك الصيغ الثلاث في وثيقة من الوثائق أو التردد المتواصل لهذه الصيغ في داخل المجموعة الواحدة من الألواح وفي نفس التوضع ضمن النص كان يجب أن يكون برهاناً على أن الحديث في جميع هذه الأمثلة يدور، في كل حالة من الحالات المنفصلة، حول تحولات ثلاثة للكلمة الواحدة نفسها.

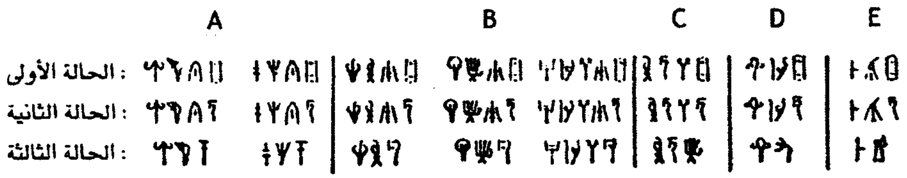

الشكل -76- مجموعات أليسا كوبير الثلاثية.

1- Ibid., p. 15.

وهكذا فإن أليسا كوبير قد وضعت من المفردات التي أخضعت للمقارنة لوحة منظمة أُخذ فيها بالحسبان طابع الوثائق التي يلتقي فيها بهذه المفردات (فقد حددت الأنماط وفقاً لمضمون الوثيقة والهدف من وضعها، وكان أساس ذلك يتحدد انطلاقاً من مكان العثور على المكتشفات، ومن البيكتوغرامات وغيرها من المعطيات القرينة).

وهكذا تتفتح أمامنا من جديد إمكانية النفاذ إلى «مختبر» العالم وتحديد مسار تفكيره. وإننا على ثقة من أن أحداً من القراء لا يمكن أن يقاوم المنطق الحديدي لتلك المحاكمات، والأدهى من ذلك أن القارئ، وهو يعود من نتائج الأبحاث إلى نقطة الانطلاق، وينقل خطواته فوق الطريق الذي مُهِّد، سيلاحظ دون شك، وكما هو معهود في كثير من الأحيان، تلك «البساطة» المتناهية للطريق الذي قطعته الباحثة.

فالقائمة (الشكل 76) تطرح ثماني مجموعات ثلاثية: اثنتان من نمط *A*، ثلاثة من نمط *B* وواحدة من كل من أنماط *C*، *D*، *E*. وهذه المجموعة الثلاثية تتضمن نفس الكلمة في ثلاث حالات إعرابية مختلفة يمكن التعرف عليها من خلال النهاية المتغيرة. أما الحالة الإعرابية الثالثة فتتميّز في كل واحدة من المجموعات بأنها أقصر صيغة للكلمة: أما في الحالة الإعرابية الأولى فيضاف دوماً الرمز الختامي ، بينما يضاف في الحالة الإعرابية الثانية رمز وفضلاً عن هذه الإضافات في الحالتين الأولى والثانية يخضع للتغيير أيضاً ذلك الرمز الذي كان يؤدي في الحالة الإعرابية الثالثة دور الرمز الختامي في نمط *A* يتحول إلى و في نمط *B* يتحول إلى ، ونلاحظ تحولات محدّدة في أنماط *C*، *D*، و *E*.

إن هذا التغير في الرمز يمثل، بحد ذاته، شيئاً بالغ الطرافة لأنه يتطابق وبصورة تامة مع تلك التبدلات التي تحدث في اللغات المتغيرة النهايات كما في تصريف الاسم مثلا. وكمثيل مشابه على ذلك قدمت الباحثة الأمريكية المفردات اللاتينية: *servus* «عبد» و *amicus* «صديق» و *bonus* «جيد» العائد إلى التصريف الثاني.

وبعد أن صرّفت كل واحدة من هذه المفردات وفقاً لجميع الحالات الإعرابية الأربع *(nominativus, genetivus, dativus, accusativus)* وقسمتها إلى مقاطع إذ كان لا بد من احتساب الطابع المقطعي للكتابة في الآثار الميكينية، أضافت إلى لوحتها المتضمنة المجموعات الثلاثية المجموعات اللاتينية الرباعية التالية:

ser-vu-s	**a-mi-cu-s**	**bo-nu-s**
ser-vu-m	**a-mi-cu-m**	**bo-nu-m**
ser-vi	**a-mi-ci**	**Bo-ni**
ser-vo	**a-mi-co**	**Bo-no**

وبالمقارنة الدقيقة للوحة أليسا كوبير الميكينية مع اللوحة اللاتينية المعطاة يغدو بإمكاننا التكهن بالخطوة التالية التي قامت بها الباحثة.

فلنحاول مقارنة *ser-vu-s* مع الصيغة الأولى من نمط *A*، وذلك بأن تنحصر المقارنة في الطابع فقط دون أن نفكر بأي صورة من الصور بالدلالات الصوتية الواقعية للرموز المقطعية الميكينية (ونضيف إلى هذا ملاحظة أخرى: مادام قد قدر لنا أن نبدأ الطريق الذي قطعته الباحثة من نهايته. فلنبدأ المقارنة أيضاً من نهايتها أي من طرفها الأيمن).

وبالنتيجة سنتوصل إلى المتطابقات التالية: = *S*، = *vu*، وبقايا الكلمة الميكينية = بقايا الكلمة اللاتينية *ser* وعلى نفس المنوال تكون *ser-vo* مكافئة لـ

ولكي نجعل المثال أكثر وضوحاً سنحاول عرض التكافؤ المفترض عن طريق سطرين أحدهما تحت الآخر:

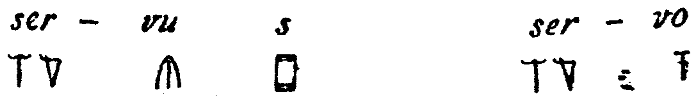

الشكل -77- المكافأة التجريبية.

فالمقطعان *vu* و *vo* يقدمان لنا نقطة انطلاق؛ وهما يحتويان نفس الساكن المشترك. وهو في المثال اللاتيني *v* أما ما يطابقه فغير معروف. وبما أننا لا نعرف بعد أي صوت من أصوات الرموز المقطعية الميكينية، فلنلجأ إلى الوسائل المساعدة فنسمي *v* من المثال المعطى بـ «الساكن 1» و *u* بـ «الصوتي 1» و *o* «الصوتي 2». وبتلخيص تصوراتنا المبدئية يمكننا التوصل إلى الجزء التالي من اللوحة:

	الصوتي 2	الصوتي 1
الساكن 1		

والآن نحن نعرف أن كلا الرمزين المقطعيين هنا يتضمنان ساكنات متطابقة وصوتيات مختلفة. وهذا بالطبع ليس كثيراً لكن كل أخصائي مجرب سيخبرنا فور نظرته إلى هذه القطعة بأن البداية ليست رديئة، بلى، بلى، إنها بداية اللوحة التي ينتظرون بفارغ الصبر أن يكملوها.

فلننظر الآن إلى العمود الواقع في أقصى اليمين «الصوتي 2». أن الصوتي 2 كان 0. فكلمة التي وازناها بـ *ser-vo* (وكان يمكن أن نقوم بالعمل نفسه بالنسبة لـ *ser-vi*)

تقع في الحالة الإعرابية الثالثة من نمط *A*. فإذا ما نظرنا الآن إلى السطر الأخير من اللوحة اللاتينية، أي إلى ما يطابق الحالة الإعرابية الثالثة، لوجدنا هناك *(ser)vo, (ami)co, (bo)no* أي المقاطع التي تتضمن الصوتي 2! ويمكن افتراض حدوث الأمر نفسه على ما يبدو بالنسبة للمقاطع الختامية لجميع المفردات الميكينية الواقعة في الحالة الإعرابية الثالثة وبالذات بالنسبة لـ [illegible]، [illegible]، [illegible]، [illegible] و [illegible] فجميعها تتضمن الصائت 2، إلا أنها جميعا تتضمن سواكن مختلفة. وهكذا نبدأ بملء لوحتنا بعمود «الصوتي 2» كما سبق أن قلنا وعليه فإنها ستتخذ الصورة التالية:

	الصوتي 1	الصوتي 2
الساكن 1	[illegible]	[illegible]
الساكن 2	[illegible]	
الساكن 3	[illegible]	
الساكن 4	[illegible]	
الساكن 5	[illegible]	

وبما أن القارئ قد أوضح لنفسه على ما هو بيّن مبدأ تنظيم اللوحة فإن الأمور ستسير بصورة أسرع بالنسبة لنا. ففي العمود الذي ما يزال فارغاً يجب أن تظهر الرموز المتضمنة الصوتي 1 وبكلمة أخرى الـ *u* وفقاً لما افترضناه. وهي في النظام اللاتيني مقاطع *vu* ، *su* و *nu*، أي الرموز التي تظهر في الحالتين الإعرابيتين الأولى والثانية من القائمة الميكينية، سابقةً للرموز الختامية من المفردات المختلفة. وهكذا نجد هنا رموز [illegible] (من نمط *A*)، [illegible] *(B)*، [illegible] *(C)*، *(D)* [illegible] و *(E)* [illegible] فلنضعها الآن في القائمة لتتضح الصورة كاملة.

هذه القائمة هي النواة التي ولدت خلية القراءة المقبلة للرموز، أو ما يسمى بـ «الشبكة» أو «الشبكة التنسيقية» في حالها الأولى التي لا يزال علماء حل الرموز الإنكليز وزملاؤهم الأمريكان يفيضون في الحديث عنها بكل رغبة. ومن الواضح أن شبكة التنسيق التي نظمت وفق المبدأ، الذي سبق أن فصلنا في عرضه، يمكن أن تتواصل في أي اتجاه يراد.

	الصوتي 1	الصوتي 2
الساكن 1	Ŧ	₳
الساكن 2	ϟ	Ⱥ
الساكن 3	Ӿ	Ϙ
الساكن 4	ʔ	Ɣ
الساكن 5	Δ'	Ʌ

والحق انه لم يقدر لأليسا كوبير التي توفيت في سن مبكرة أن توسع تلك الشبكة أو، إذا تحدثنا بلغة البلاغة، لم يتح لها أن تبسط شبكتها بحيث «تقع» فيها جميع الصوتيات والسواكن المجهولة، بل والدلالات اللفظية الحقيقية للرموز. وبالإضافة إلى ذلك فإنها أضافت سنة 1949 إسهاماً مهماً في قضية قراءة الرموز، إذ أثبتت أن مجموعات الرموز التي سبق أن أشار إليها كاولي ϘĦΨĹ ŦΥ Ì ϟ إنما هي صيغ المذكر والمؤنث لمفردات واحدة. وبالإضافة إلى كل ما سبق كان ذلك إشارة قيّمة بالنسبة لتحديد طابع تلك الكتابة الغامضة، إذ إن اللغات التي تبدل صوتي المقطع الأخير من اجل التعبير عن جنس المذكر والمؤنث (بدلاً من إضافة مقطع جديد) هي لغات هندأوروبية بصورة كلية تقريباً.

ربما يتراءى أن أليسا كوبير قد تركت لمن جاء بعدها حلاً جاهزاً للمشكلة، وان مهمتهم كانت تنحصر في إتمام هذا الحل ومن ثم استخدامه. وان أفضل دحض لهذه الفكرة هو أن أحداً لم يتمكن حتى سنة 1950 من أن يقرأ ولو مقطعاً واحداً أو كلمة واحدة دونت بتلك الكتابة المجهولة. واحتدمت كالسابق المجادلات العنيفة حول اشد الاقتراحات تضارباً لتحديد طابع لغة الآثار، ولم تدخل أي تبديل على القضية تلك الدراسات الرائعة من أمثال أطروحة الدكتوراه التي تقدم بها الأمريكي ايميت ل. بينّيت الصغير (سنة 1947) وعالج فيها مادة بيلوس وفق المبادئ التي طرحتها أليسا كوبير بالنسبة للوحات كنوس ثم نشْره لألواح بيلوس (1951) وكنوس (1953) ثم الشروح والتعليقات التي قدّمها ذلك المؤلف نفسه للمقاييس والأوزان (1950).

ومهما يبدو الأمر غريباً فإن الدفعة الحاسمة نحو حل الرموز قام بها السير ارثور ايفانس، وإن كان قد فعل ذلك دون وعي منه و «دون قصد». وعلى أيّ حال فإن ايفانس لم

يكن قادراً على أن يتنبأ بان عالم فك الرموز في المستقبل سيكون جالساً أمامه أثناء إلقاء تقريره حول الآثار المينوسية، والذي قرأه في المعرض اليوبيلي للمدرسة الاثينية البريطانية سنة 1936 في لندن، وأن ذلك الفتى كان يلاحق بكل توتر كشوفاته. وهل كان بمقدور ايفانس حتى أن يفكر بأن ذلك التلميذ ذا الأربعة عشر ربيعاً، والذي كان بكل ذهول يصغي اليه، وهو الذي كلل الشيب رأسه، سيقوم بعد 16 عاماً بفك رموز الكتابة الخطوطية الكريتية - المكينية ب!

إن مايكل فينتريس (1922-1956) لم يكن في ذلك المكان مجرد زائر، حضر عَرَضاً بدافع من حب الاستطلاع، ليستمع إلى التقرير العلمي وإلى رؤية حبيب الجمهور، الرجل الذي اكتشف قصر كنُوس. لقد أبدى منذ طفولته حباً جارفاً نحو اللغات المعروفة قليلاً والكتابات الغامضة. أما في صباه فكان يذهل أصدقاءه ومعارفه باستعداداته اللغوية الخارقة للعادة كما انه احتل قلوب الغرباء وهو يتحدث إليهم بطلاقة وحرية بلغاتهم الأم.

«واستقرت الكتابة «المينوسية»، وكانت تسمى بهذا الاسم في كل مكان آنذاك، في قلب الفتى وهو في سني الدراسة لكي لا تبارحه بعد ذلك أبداً. وفي سنة 1940. وبعد أن غادر الفتى المدرسة وانصرف إلى دراسة الفن المعماري أصدر، وهو في الـ 18 من عمره، «المدخل» إلى الكتابة المينوسية حيث أخذ يطالب بإخضاع اللوحات لامتحان في اللغة الإيتروسكية، وعلى الرغم من أن اللوحات بقيت مصرّة بعناد على صمتها فإنه لم يتنازل عن ذلك المطلب إلا بعد 12 عاماً.

وقطعت الحرب أعمال فينتريس. فخدم مدة أربع سنوات ضابطاً ملاحاً في القوات الجوية العسكرية الملكية البريطانية ثم في قوات الاحتلال البريطانية في ألمانيا. وكان خلال هذه السنوات بطولها يحمل معه صور آثار الكتابة المينوسية ونسخاً شمعية لها. وفي سنة 1946 وبعد أن نضا عن كاهله معطف مليكه الرمادي وعاد إلى دراسة الفن المعماري اكتشف أنه قد أتم الـ 24 من عمره. وسرعان ما تأقلم الطيار المجرّب مع محيطه الجديد، فراح يشارك أشد مشاركة في جميع المؤسسات الطلابية وصارت رسومه وتخطيطاته المعمارية تستأثر بالانتباه وتؤمن له المنحة الدراسية على مجرى العامين الأخيرين من دراسته.

لقد وقع اختيار فينتريس على العمارة بالذات كمهنة له، ويبدو لنا أن من الصعب أن تتطابق مع الواقع تلك الفرضيات التي جاء بها بعض من كتب سيرة حياته، ممن رغبوا بتصوير الأمر وكأن العمارة كانت مهمة عابرة بالنسبة له بينما كانت جميع أفكاره تنصب في ميدان الكتابة الكريتية. وعندما حصد منجل الموت في أيلول سنة 1956 في وقت «مبكر جداً»، أبكر مما فعل بالنسبة لشامبليون، ذلك البحاثة اللامع وعالم فك الرموز، قامت

الدوائر الرسمية والخاصة المنطلقة من أوساط الفن المعماري بنعي مايكل فينتريس - كواحد من أوفر المعماريين عبقرية وأحفلهم وعداً بالمستقبل الإبداعي بين الجيل الفتي.

كان بينّيت قد نشر في مقاله الذي سبق ذكره سبع لوحات جديدة من بيلوس، وبذلك زادت المجموعة الأثرية ثراء، وهو ما أهاب بفينتريس إلى الإقدام على سلسلة من المحاولات الجديدة، وأغرق نفسه في الدراسة التفصيلية للكتابة بعد أن ألقى عنه، ودون ندم، جميع قناعاته الخاصة السابقة. وهكذا كان عليه أن يمضي الليالي بطولها عاكفاً على العمل، كان يعمل على وضع تصميمات الأبنية المدرسية بطلب من قسم البناء المعماري في وزارة التربية، ونضيف بالمناسبة انه كان سنة 1952 قد بنى منزله الخاص الذي كان باعتراف الاختصاصيين «ثمرة معمارية بسيطة، متكاملة بصورة منطقية، مبهجة للعين ومجردة من كل ما لا ضرورة له». وقد عرض فينتريس نتائج سهراته الليلية بصورة مفصلة في «ملاحظات عمل» (*Work Notes*) التي طبع منها نسخاً عديدة ووزعها على أشخاص معينين، ثم وزعها، بين كانون الثاني سنة 1951 وحزيران سنة 1952 على الأخصائيين والمهتمين بهذا الموضوع. وبعد أن قام بإيضاح أفكاره وبحوثه قام بدعوة الآخرين إلى المساهمة في ذلك العمل المشترك.

والحق أنه، في «ملاحظات العمل» تلك، كان لا يزال يسير بادئ الأمر في الاتجاه الخطأ. ففي البداية كانت تدرس وتقابل إمكانية القراءة «الإيجية» والإيتروسكية للمفردات - فإن مجرد التفكير في اللغة اليونانية كان يعدّ في مفهوم التاريخ وعلم الآثار المدرسيين أمراً يقترب من الهرطقة. ومع كل ذلك كانت الملاحظات ذات الأرقام 2، 8، 10، 11 و 12 تتضمن البذور الجنينية لفك الرموز المقبل، إذ كانت تتضمن الملاحظات والمقترحات التي كان قد قال بها، إلى حد ما كل من أليسا كوبير، وجون تشيدويك عالم الفيلولوجيا الكمبريدجي الشاب واليوناني ك. د. كتيستوبولوس والأمريكي ايميت ل. بينّيت. أما الملاحظات ذات الأرقام 1، 13 و 14 فكانت مكرّسة لأسماء الأعلام وقد طرحت على الأقل ستة «تصاريف» تم التعرف عليها من خلال صوتي المقطع الأخير من الحالة الاسمية. وإلى هذا راح فينتريس يوسع من شبكة أليسا كوبير. أما الألواح الأخرى، وهي التي كانت تتضمن معطيات رقمية فقد أعطته المفتاح لفهم الفروق بين صيغ الجمع والمفرد. وفي الملاحظة رقم 9 يحاول من جديد أن يشرح الملاحظات التي تم التوصل إليها بواسطة الصيغ الإيتروسكية للتصريف إلا أن تحقيق هذه الفكرة كان يتجه إلى أن يكون أصعب فأصعب في كل مرة. وأخيراً فإن الملاحظات ذات الأرقام 1، 15 و 17 تستعرض مراحل وضع شبكة فينتريس واحدة تلو الأخرى، تلك الشبكة اتخذت في شباط سنة 1952 الصورة التي يظهرها (الشكل 78).

كان ذلك إنجازاً يبتعد إلى حد كبير عن الكمال. فالصورة تبين أن عدد الصوتيات لا يزال قيد الفرضية، وعلاوة على ذلك فقد وضعت بعض الرموز في خانتين مختلفتين من اللوحة إذ إن فينتريس كان يعتقد آنذاك بإمكانية وجود معنيَيْن في مثل هذه الحالات.

وبالرغم من كل شيء فإن ذلك المخطّط الأولي، ثمرة العمل المضني كان يتسم بميزتين كبيرتين، ونريد على التو أن نوجّه إليهما انتباه القارئ المشدّد آخذين بالحسبان تلك الهجمات التي وجهت فيما بعد إلى نتائج فينتريس. والسبب في ذلك أن مادة البناء التي استخدمت من أجل تلك الشبكة الناقصة، والتي لم تكن دقيقة إلى حد كاف، كانت مقصورة على الملامح الموضوعية التي تظهر من تلقاء نفسها للعيان عند رؤية الآثار المكتوبة؛ وبكلمة أخرى فإن الشبكة التي استعرضناها كانت قائمة فقط على تلك المعطيات التي يمكن التوصل إليها عن طريق تصنيف الألواح انطلاقاً من مكان العثور عليها وغير ذلك من قرائن اكتشافها، بالإضافة إلى طريقة

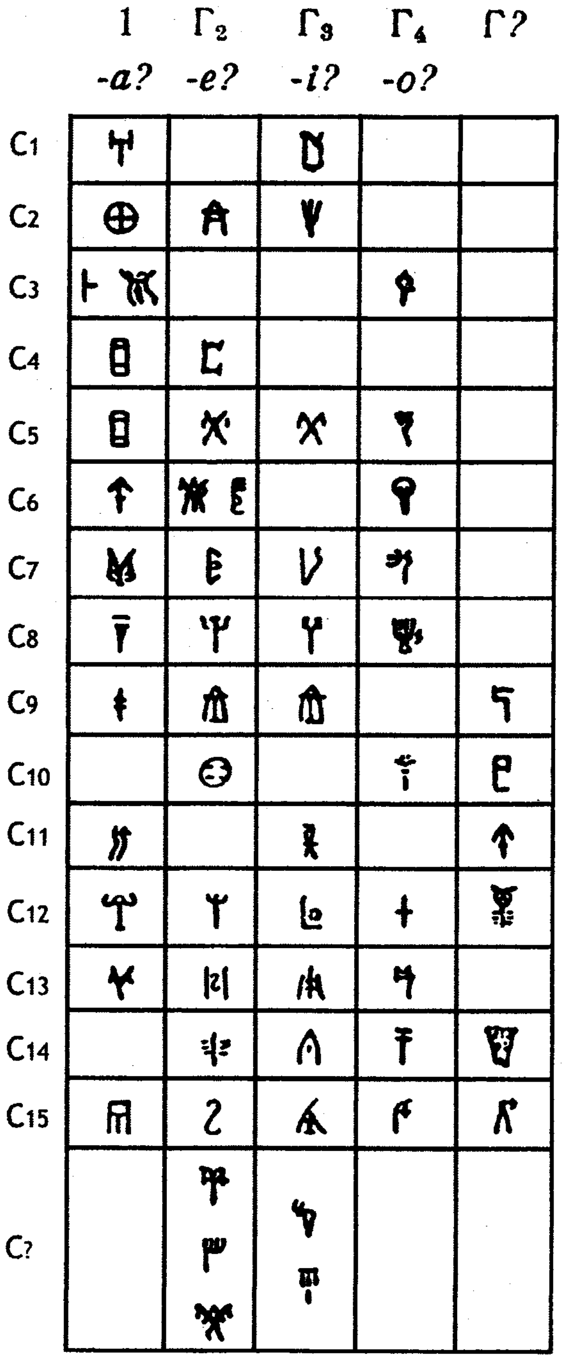

الشكل -78- «شبكة» فينتريس التي أنجزها في شباط (فبراير) سنة 1952 قبل عملية فك الرموز

الإحصاء العادي لرموز الكتابة والمقارنة بينها. إن أيّ نظرية متعلقة بنوعية اللغة الثاوية في اللوحات ما كانت لتلقي ضوءاً على هذا البنيان ولم يكن هناك أي خط قد وضع أو أُكمل بهدف التوصل إلى نتائج افضل وفقاً لنهج لغة محدَّدة ما!

ويجب الإشارة إلى هذا بشكل خاص، لأن على رأس النقاط، التي تعرّضت للهجوم ضد نظامه فيما بعد، كانت الفرضية القائلة بأن آثار الكتابة الخطية «ب» لا تشترك بأي شيء مع اللغة اليونانية، أما «اليونانية» التي يمكن قراءتها ضمن تلك الكتابة فقالوا بأنها من تضمين فينتريس نفسه.

وفي ذلك العام تراجع فينتريس عن النظرية الإيتروسكية، وقد اتجه في ذلك الطريق بكثير من الشعور باللارغبة والتشكك، إلى أن قامت الحقائق المتميّزة كما هو معروف بكثير من العناد والإصرار بإجباره على الاعتراف بأن الحديث يدور حول لغة يونانية.

وفي شباط من سنة 1952 قام بروفيسور جامعة اوكسفورد السير جون مايرز، كما أسلفنا، بإصدار «*Scripta Minoa II*» وهي تلك الألواح الكنوسية التي خلفها ايفانس وكانت تمثل مادة بقيت 50 سنة على الرف. وهل من الضروري القول أن مايرز قد شرع بعمل يتطلب الكثير من التضحية، وإن طريقه كان أبعد من أن يكون مغطّى بالزهور. ولعل هذا هو السبب الذي جعل عمله غير مبرأ من جملة من النواقص التي لفت إليها النظر بينّيت وتشيدويك في سنوات 1952، 1954، 1955.

أما بالنسبة لفينتريس فلم يكن ينتظر من المنشورة الجديدة غير شيء واحد: التأكيد الإضافي لدقة شبكته.

وبعد المقارنة بين المفردات المأخوذة من اللوحات التي أعيد طبعها واللوحات التي كانت بين يديه توصل فينتريس إلى فكرة كانت فيما بعد حاسمة بالنسبة لعمله في حل الرموز.

وفقاً للشبكة التنسيقية السابقة (الشكل 78) والتي سببت لواضعها كثيراً من المتاعب، مثلما سببت لآخرين ما لا يقل عن ذلك من الشكوك، بسبب الاختفاء الكامل للتناظر فيها، كانت بعض المفردات الوحيدة النمط تُختتم في نهاياتها بكتابات يمكن فهمها على أنها نهايات إعرابية. وفي الوقت نفسه كانت بعض كلمات النمط نفسه تتسم في كتابتها بتغيرات ملموسة لا يمكن فهمها وليس لها أيّ ضرورة إذا ما حكم عليها من خلال النص. فأين هو الخطأ؟ انه بالطبع لا يكمن في الألواح. ومن جديد أمسك فينتريس بالشبكة.

وكان لا بد من العودة إلى الفرضية التي سبق لفنتريس أن رفضها وهي فرضية التكافؤات الأربعة للرموز ومعانيها، وخاصة بالنسبة لفرضية أليسا كوبير، فلو كانت هذه

التكافؤات صحيحة لأمكن إضافة عناصر ملموسة إلى التناظر الذي تتضمنه الشبكة، ولارتفع إلى حد كبير مستوى صلاحيتها.

وها هي ذي تلك التكافؤات:

𐀀 = *a*, 𐀊 = *ja*, 𐀃 = *o*, 𐀍 = *jo*

فلو كانت هذه صحيحة لكان من الصعب تعداد جميع النتائج التي تنبثق عن ذلك، ولكانت النهاية التي كثيراً ما نلتقي بها في أسماء الأعلام المذكرة في حالة الإضافة وهي 𐀍 أو 𐀍𐀍 تلفظ على أنها ***jojo(i)*** و ***jo(o)***ولتطابقت في هذه الحالة مع نهايات الصيغ القديمة مثل *Autolykoio* و *Ikarioio* التي كانت معروفة قبل ذلك بكثير من أعمال هوميروس ؛ ولكانت النهاية المفترضة لحالة الإضافة لجمع المؤنث 𐀊𐀃 هي *(i ja-o)*، ولتطابقت مع الصيغ القديمة *gaiá on* و *theá ö n*! فإذا وضعنا هذه المعاني في مجموعات أليسا كوبير الثلاثية لوجدنا الخمس الأولى من بينها (نمطا *A* و *B*) تكوّن هياكل لكلمات مكونة من صوتيات وأنصاف صوتيات متلاحمة، ولتحدثت هذه الكلمات على الفور بلغة رموز لا تتطلب الكثير من الخيال من أجل ترميم السواكن الناقصة منها، ولوجدنا أسماء المدن الأكبر في كريت القديمة متوضعةً بترتيب دقيق ومن بينها اسم عاصمتها ليكتوس، فيست، تيليّس، كنوس وأمنيس {انظر الشكل 76، الحالة الإعرابية الثانية، نمطا *A* و *B*، ففي الكتابة الأصلية غير الكاملة، التي تذكّر بكتابة قبرص، تلفظ أسماء هذه المدن هكذا *ru-ki-to*: (الـ *r* تحل محل *L* وهي في اليونانية القديمة = *y*)، *ko-no-so, tu-ri-so, pa-ito, a-mi-ni-so*}.

ولكن لو كانت تلك المعاني صحيحة لظهر التفاعل المتسلسل بصورة لا مندوحة منها في الشبكة ولاتخذ ما لا يقل عن الـ 31 رمزاً معناه الأصلي والدقيق. وعلى الرغم من هذه المادة «الفاضحة» فإن فينتريس كان يميل في ملاحظة العمل الأخيرة لديه، ذات الرقم 20 إلى الفكرة القائلة بأن ذلك كله ما هو إلا ضرب من خداع النفس. ولكن ما كاد البريد يوصل هذه الملاحظة المرسلة في الـ 2 من حزيران سنة 1952 إلى الأشخاص الموجهة إليهم حتى كان فينتريس الذي انكب من جديد على عمله يطرح المعاني اللفظية الجديدة كضرب من التجريب في هذه اللوحة أو تلك وحتى أدرك أن اللغة اليونانية هي التي تؤدي إلى حل المشكلة، بل إنها كانت تطالب بأداء مثل هذا الدور. وهكذا بدأت الكلمات تطفو بصورة أكثر فأكثر من غياهب الظلمات وتستيقظ من سبات آلاف السنين فظهرت *po-me* وهي حالة الإضافة من *po-me-no* (وهي *poimé n* في اليونانية الكلاسيكية) وتعني «راع» و *ka-ke-u*

«حائك» (*gnapheú s*) *ka-na-pe-u* و «فخّاري» (*kerameus*) *ke-ra-me-u* و «حدّاد» (*chalkeú s*) وبالطبع فإن كلمتي *i-je-re-ja* (*hiereus*) و *hié reia i-je-re-ja* وتعني «كاهن» و «كاهنة» لم تسمحا بانتظارهما طويلاً!

ولكن في ذلك الوقت بالذات تكشفت انفصامات هائلة بين طريقة كتابة المفردات في الألواح الكريتية وبين صيغ اللغة اليونانية الكلاسيكية التي وصلت إلينا. وكان الكريتيون يكتبون اللفظ المقطعي والصوتي وكان اللفظ النهائي للمقطع يسقط فـ *pa-te* كان يمكن أن تعني *pater* «أب» وأيضاً *pantes* بمعنى «كل شيء» ؛ وكانت *stathmó s* «إسطبل» تكتب *ta-to-mo* (سقطت الـ *s* في بداية الكلمة). وبالإضافة إلى ذلك لم يكن هناك أي رمز للتعبير عن السواكن المنفصلة، وقد يتراءى انه كان يجب أن تنطبق القاعدة نفسها في حالة ورود الـ *th* قبل الـ *m*، بيد أن الأمور كانت تسير على عكس ذلك، وكانت الـ *th* تتلقى بالإضافة إلى ذلك الصوتي *o*. أما السواكن الطويلة والقصيرة فلم تكن تختلف فيما بينها، مثلما لم تكن تتمايز الـ *b* عن الـ *p*؛ الـ *ph* عن *g*؛ ولا الـ *k* عن *chk*؛ وقد أقنعنا مثال اسمي مدينتي ليكتوس وتيليس حتى بأن *r* و *L* قد تطابقتا!

إن فينتريس، الذي كان معمارياً في اختصاصه، ولم يكن بأيّ حال عالم لغات، قد أدرك على الفور أن بالإمكان في مثل هذه الحالات حدوث الكثير جداً بل وكل شيء بيد أن ذلك الـ «كل شيء» الذي هو، اقرب ما يكون إلى الـ «لا شيء»! وقد وعى بصورة جيدة بأن عليه أن يستدعي لمساعدته عالماً لغوياً حقيقياً مختصاً بصورة متعمقة في اللغويات.

كان عليه أن يتجه بطلب النصيحة إلى السير جون مايرز، الذي ساعده بالتعرف على شاب كان قد أنهى جامعة كمبريدج ثم اشترك في وضع المعجم اللاتيني وإصداره في أوكسفورد حيث تعرف على مايرز. وبعد حين، في بداية سنة 1952 استدعي إلى جامعة كمبريدج كأستاذ مساعد في قسم الفيلولوجيا الكلاسيكية. وهكذا تآلف ذلك الثنائي المرموق - مايكل فينتريس وجون تشيدويك. وهذان الاسمان يترابطان، أحدهما بالآخر، وبقراءة رموز الكتابة الخطوطية ب.

كان جون تشيدويك، المولود سنة 1920، ينحدر من أسرة أحد المستخدمين في الدولة. وكان يتردد في سني طفولته على كلية القديس بافل الشهيرة في لندن ثم انتسب إلى جامعة كمبريدج. وعلى الرغم من أنه كان يكبر فينتريس بعامين فإنه لم يتفاد المصير المشترك بينهما - فقد قطعت الحرب دراسته الجامعية أيضاً، فاستدعي إلى القوات البحرية المسلحة البريطانية حيث خدم مدة خمس سنوات.

وعلى نحو ما كان فينتريس كان تشيدويك يضمر اهتماماً حياً نحو اللغات، وقد استطاع د. بين، أستاذه المبدع للغة اليونانية في الكلية، وهو الآن أستاذ في استامبول، أن ينمي القدرات الوليدة لدى ذلك الطفل الموهوب.

لكن اللغات الغربية لم تكن كل ما يشغل طالبنا، فالكتابات المجهولة أو المعروفة قليلاً كانت تشده بجاذبية لا تقاوم. وإذا كان فينتريس ذو الثمانية عشر ربيعاً، قد انكب سنة 1940 على تفحص الألواح الكريتية من خلال ما أسماه بمضمونها الإيتروسي فإن تشيدويك كان قبل عامين من ذلك الموعد قد انكب على دراسة اللغة التيبتّية. «كنت خلال الحرب أستغل كل دقيقة فراغ من أجل دراسة اليونانية الحديثة والسنسكريت. كما أن الحرب هيأت لي فرصة دراسة اللغة اليابانية، وقد دفعتني معرفة هذه الكتابة (فهي كما أشرنا في الفصل الأول تعتبر أنموذجا للكتابة المقطعية - المؤلف) واللغة إلى إعادة النظر في قناعاتي المسبقة وقدمت لي عوناً كبيراً أثناء مجابهتي للغة مكتوبة بكتابة ايديوغرافية أو مقطعية[1]».

وفي سنة 1945 ودّع تشيدويك، ذو الستة وعشرين عاماً، السلاح وعاد إلى كمبريدج وفي العام التالي اجتاز بامتياز امتحانات التخرج في اختصاص الفيلولوجيا الكلاسيكية.

في ذلك العام نفسه بدأ بمعيّة اثنين من رفاقه في الجامعة «وعن طريق الجهد الشخصي» بدراسة النصوص الكريتية. ولم تجرِ الأمور على ما يرام في بادئ الأمر وسرعان ما انصرف الزميلان الآخران عن القضية. لكن انصرافهما لم يوهن من عزيمة جون تشيدويك، فراح يواصل نشاطه رغم أن دراسته لم تكن مقترنة دوماً بالتخطيط والمنهجية. فكان يتسقّط مختلف المقتطفات والملاحظات، ويقدم في بعض الأحيان على استنتاجات ذات حظ كبير من الجراءة، وكان في الأساس ينتظر ظهور المادة الجديدة، وعلى الرغم من أنه كان يقول في بداية عمله سنة 1946 بإمكانية وجود اللغة اليونانية في الألواح الكريتية فإن ذلك لم يسر به نحو أيّ نتائج ملموسة.

وقد باغتت الإخبارية المتعلقة بفك الرموز، والتي أرسلها فينتريس سنة 1952، تشيدويك الذي كان غارقاً بصورة كلية في اهتماماته الجديدة في القسم وعلى الرغم من انه كان خلال السنوات الست الماضية قد انصرف بصورة مشدّدة إلى دراسة الكتابة الكريتية - الميكينية.

1- رسالة جون تشيدويك الى المؤلف بتاريخ 22 شباط سنة 1957.

أَطْلَعَ السير جون مايرز تشيدويك على آخر «ملاحظات عمل» قام بها فينتريس. ولم تكن هذه قد تركت انطباعاً عميقاً في نفس مايرز كما أن تشيدويك نظر إليها نظرة ريبة بادئ الأمر على الرغم من أنه كان ينتمي إلى صف القائلين بالتفسير اليوناني للنصوص المينوسية وهو ما يعني أنه كان مهيأً لقبول استنتاجات فينتريس. وقد مكّن مايرز هذا زميله الشاب من استنساخ شبكة فينتريس في صورتها الأولى.

«كانت الأيام الأربعة التالية أشد الأيام توتراً في حياتي. فقد انغمست في العمل إلى درجة أنني نسيت بصورة نهائية يوبيل زواجنا وهو ما لاحظته زوجتي بكثير من الملامة[1]».

كان أول ما قام به تشيدويك هو أن ضمن في النصوص تلك المعاني التي اقترحها فينتريس وإذا به، ولدهشته الكبيرة، يكتشف فيضاً من المفردات اليونانية (وفق «كتابة» فينتريس) ألغت مجرد التفكير بأي شكل من أشكال المصادفة! واصطدم في الوقت نفسه بعدة معان كانت أفكارها قد لمعت في ذهنه أثناء دراساته الشخصية. إلا أن اكبر برهان على صحة استنتاجات المعماري الشاب كان التقاء تشيدويك بمجموعة كاملة من الصيغ «غير الكلاسيكية»، وهي بالذات تلك التي أثارت الشك عند فينتريس، بينما كانت منذ النظرة الأولى واضحة ومألوفة جداً بالنسبة لتشيدويك، العلاّمة في حقل اللهجات اليونانية. فهل من حقنا أن نندهش بعد ذلك لتلك المراسلة الحية التي توثقت عراها على الفور بين الباحثَين (وقد صارا فيما بعد يتراسلان أحياناً بالكتابة التي فكّا رموزها معا!) والتي لم تنقطع إلا بالنهاية المأساوية التي انتهى إليها فينتريس. أما تشيدويك فقد افترض من جانبه الدلالات اللفظية بالنسبة لعدد من الرموز التي لم تقرأ؛ فكانت الملاحظة الواحدة تكمل الملاحظات الأخرى أو تجر وراءها مجموعة كاملة من الملاحظات الجديدة. وبالمناسبة فقد كان تشيدويك أول من قدر له أن يقرأ أسماء الآلهة فوق واحد من الألواح الكنوسية. وبالمناسبة فقد كانت تلك واحدة من المناسبات القليلة التي كان فينتريس في بدايتها ينظر بعين الشك إلى ما تعرّف عليه صديقه.

«حاولت دوماً أن أؤكد أن فتح الثغرة كان من إنجاز فينتريس بمفرده، أما دوري فكان شبيهاً بدور فرقة المشاة الأولى وهي تتجه إلى توسيع الثغرة، أو إلى ذلك الدعم الضروري للهجوم الذي تقوم به طليعة الدبابات. فالتحديد البسيط للدلالات اللفظية لم يكن إلا البداية أما المهمة الصعبة إلى درجة خارقة للعادة - وهي ترجمة الكلمات المقروءة إلى لغة يونانية مفهومة - فقد عملنا عليها كشريكين متكافئين. فكنا دوماً نتبادل المقترحات عن

1- المصدر السابق.

طريق المراسلة. وكثيراً ما كنا نتوصل إلى نفس الفكرة بصورة يستقل فيها أحدنا عن الآخر...

كان العمل مع فينتريس متعة كبيرة، وحتى عندما كنا نختلف في نقطة من النقاط كان يتاح لأحدنا ودون أيّ صعوبة ان يفهم وجهة نظر الآخر وان يقترح قراراً قائماً على التنازل أو نعرض وجهتي نظرنا المتضاربتين»[1].

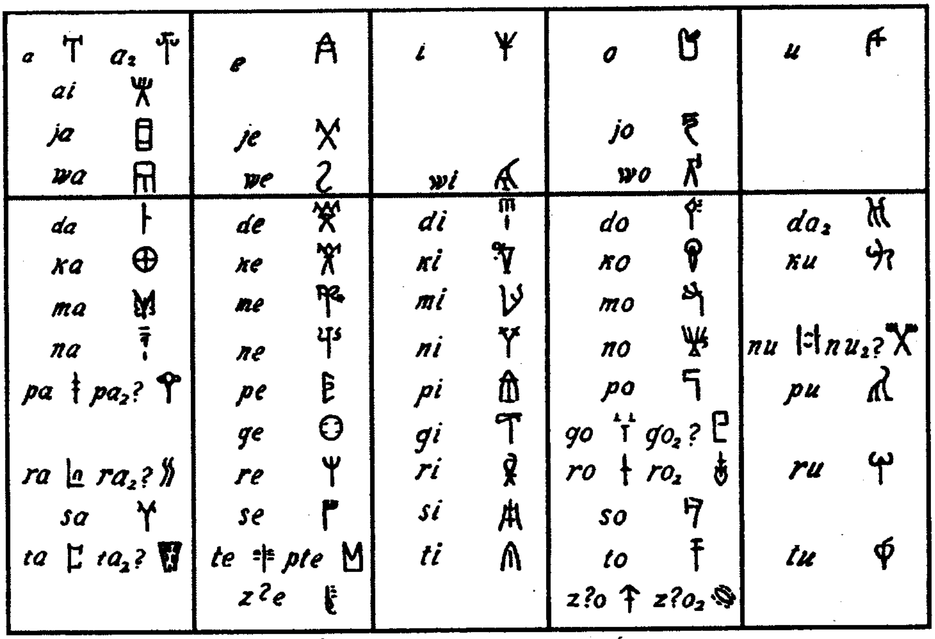

الشكل -79- الجدول الأساسي للرموز المقطعية (مأخوذ عن الـ «Evidence»)

حتى نهاية 1952 كان فينتريس وتشيدويك قد أنجزا أول منشور كبير وهو مقال بعنوان: «شاهد على اللهجة اليونانية في الأرشيفات الميكينية» «*Evidence for Greek Dialect in the Mycenaean Archives*» وقد ظهر في العام التالي في «*The Journal of Hellenic Studies (vol.LXXIII, 1953, pp, 84-103)*» وكان ذلك «منشوراً رائعاً، تميز بجودة المضمون ودقة السّبك، وقد صمد بصورة رائعة أمام نيران النقد، واستدعى خلال العامين التاليين ظهور نحو 100 دراسة عملية أخرى تتعلق بلغة اليونان الميكينيين وهو ما يؤكد من الناحية الظاهرية أيضاً أهمية الكشف»[2].

1- المصدر السابق.

2- H [ugo] M[ühlestein]- Basler Nachrichten , 20 Sept. 1956, Beilage No 400.

كانت المقالة تتضمن مفتاحاً للكتابة لكنها لم تكن مجرد جداول عديمة اللون تتضمن الصوتيات والسواكن المرموز إليها بالأرقام، بل جرداً بالدلالات اللفظية المجدّدة لـ 65 رمزاً مقطعياً (من 88 كانت قد حددت حتى ذلك الحين). إنها «الشبكة التجريبية» المعروضة في (الشكل 79) في صورتها الأولى التي لم تكن قد اكتملت بعد.

كان فينتريس وتشيدويك قد قاما بإذاعة قراءتهما للرموز في عدد من التقارير، وأرسلا موجزاً قصيراً لدراستهما وحظيا بأنصار بين مشاهير علماء إنجلترا والسويد. وكان ر. و. بارنيت و إ. د. غيلب، المعروفين لدينا من الفصول السابقة، من أوائل مؤيديهما.

إلا أن فئة صغيرة العدد فقط انضوت تحت لواء الـ «*Evidence*» بينما بقي الجانب الأعظم من العالم العلمي يلعب دور المراقب البارد المتحفظ وفتح النقد نيرانه وكان الأمريكي كارل أ. بليغين من بين علماء الآثار الذين وافقوا على نظرية فينتريس - تشيدويك من ناحية المبدأ، ووقفوا بحذر وريبة كبيرين من الحل المحدّد الذي طرحاه. وقد شرع في صيف سنة 1952 بالحفريات من جديد في بيلوس فعثر فيها على ما يزيد عن 330 من الألواح الجديدة. وبالطبع لم يكن هناك حتى مجال للحديث عن تحديد أهمية اللقية على الفور وفي عين المكان، وهكذا عاد بليغين ربيع سنة 1953 إلى اليونان حيث انكب على الدراسة المفصلة للألواح وإعدادها للنشر.

ويجدر هنا أن نتذكر ذلك الفوز الذي هزم به ليبسيوس أولئك الحساد والمتشككين الذين ارتابوا في صحة قراءة شامبليون عندما قدم لهم قرار كانوب وبأيّ طريقة رائعة تأكدت الدراسات في حقل الهيروغليفية الحثية بعد كشوفات هـ. ت. بوسّيرت في قره تيبي.

إن قرار كانوب وثنائية قره تيبي كانا بالنسبة للكتابة الكريتية - الميكينية ب لوحةً صغيرةً من بيلوس. وفي أيار من سنة 1953 كان ك. إ. بليغين يجلس أمامها ممتلئاً بالدهشة المتشككة وينظر إليها بانفعال متعاظم.

كانت اللوحة تبدو هكذا:

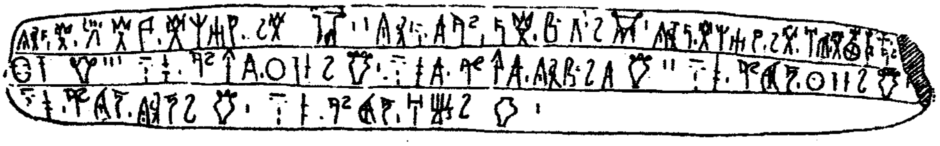

الشكل -80- لوحة الأدوات المنزلية من بيلوس.

وفي 16 أيار سنة 1953 جلس بليغين يخط رسالة إلى كلا الباحثين في فك الرموز فأنهى إليهما أنه عثر على لوحة وان الحديث «يدور فيها على ما هو واضح عن أوانٍ لبعضها ثلاثة أرجل ولأخرى أربع آذان ولثالثة ثلاث آذان وإن أخرى عديمة الآذان. أما الكلمة الأولى (وكان بليغين يقصد الايديوغراما - المؤلف) فهي وفقاً لنظامكما، تعني، على ما يبدو *ti-ri-po-de*، وهي تتردد مرتين كـ *ti-ri-po* (في المفرد؟). أما الإناء، ذو الأذان الأربع فتسبقه *qe-to-ro-we* وذو الأذان الثلاث *ti-ri-o-we-e* أو *ti-ri-jo-we* وتسبق الإناء عديم الأذنين *a-no-we*، وهذا كله يبدو أروع من أن يكون حقيقة، وربما لا يعدو الأمر مجرد الصدفة[1]».

لا لم تكن هناك صدفة. ويمكن الاقتناع بذلك إذا ما تتبعنا الباحث الفييني ف. ميرلينغين، الذي وزّع الكتابة على اللوحة وفقاً لنظام فينتريس ثم كتبها وفقاً للتدوين اللفظي، وللصيغة اليونانية الكلاسيكية والترجمة الألمانية[2] (الشكل 79).

وليحاول القارئ أن يعيد هذه المدونة وان ينفذ، مسترشداً في الحالات المريبة بجدول الرموز المقطعية (الشكل 79)، أول تمرين له في قراءة الكتابة الخطية ب. لقد كان ذلك تأكيداً رائعاً وفي الوقت نفسه برهاناً قاطعاً لا يدحض، وأخيراً فإن النصر الذي تحقق تحت راية الـ «*Evidence*» أخرج أخيراً عالم العلم من حال التشكك والريبة المتحفظة. ولم يتلكأ العلماء الموقّرون من جميع أنحاء العالم في الاعتراف بالمنتصرين فاستقبلوهما برَعْد من التصفيق حتى أن اشد المتشككين عبروا عن موافقتهم «المبدئية» فقط بالطبع. ومن بين من وقف إلى جانب القراءة الجديدة للرموز سواء بصورة «مبدئية» أو بلا تحفظ كان كل من يوهانيس فريدريك، بيرو ميريدجي، ويوهانيس سونّدَفالّ الممثل الممتاز للعلم الفنلندي، وايرنست زيتّينغ، بروفيسور توبينغين، وكان قد حاول دون أي نجاح حل رموز اللوحات عن طريق المنهج الكريبتوغرافي - الإحصائي الذي صيغ خلال الحرب العالمية الأولى؛ وقد تراجع عن نظريته وأعطى تأكيداً جديداً لنظرية فينتريس إذ حدد في إحدى اللوحات حيث تظهر بجانب الايديوغراما *di-po a-no-wo-to* قراءة *depas anouaton* «إناء عديم الأذنين»، أي نفس ما كان يعني في اللوحات الأخرى «دون آذان».

1- M. Ventris , J. Chadwick , Documents in Mycenaean Gaeek , P. 25.

2- W. Merlingen, Die Kretische Schrift entziffert , - Der Mittelschullehre- und die Mittelschule , No 9 , wien , 1954 , S. 12.

الايديوغراما	التدوين اللفظي والترجمة	رقم السطر من اللوحة
ثلاثية الأرجل : 2	*ti-ri-po-de ai-ke-u ke-re-si-jo we-ke* *tripode Aigeùs krēsios (w)érge* ثلاثي الأرجل، آيبوس صنعـــ(؟)ـه	1
ثلاثية الأرجل : 1	*ti-ri-po e-me po-de o-wo-we* *tripous heni podi oi(w)ōwēs* ثلاثي الأرجل، على رجل واحدة وبذراع واحدة	1
اوان ذات أربع آذان: 1....	*di-pa me-zo-e ge-to-ro-we* *dépas me(i)zon tetrōwes* إناء كبير ذو أربعة آذان	2
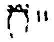 اوان ذات أربع آذان: 2	*di-pa-e me-zo-e ti-ri-o-we-e* *dépae meizoe triōwe* إناء(آن): كبيران ذوا ثلاث آذان	2
اوان ذات أربع آذان: 1	*di-pa me-wi-jo ge-to-ro-we* *dépas meîon totrōwes* إناء: صغير ذو أربع آذان	
اوان ذات ثلاث آذان: 1	*di-pa me-wi-jo ti-ri-jo-we* *dépas meîon triōwes* إناء: صغير ذو ثلاث آذان	3
اوان دون آذان: 1	*di-pa me-wi-jo a-no-we* *depas meîon ánōwes* إناء: صغير دون آذان	3

وفي سنة 1954 قام فينتريس وتشيدويك بصورة مشتركة بوضع خطة عمل كبير يتشعب إلى ثلاثة أقسام. وكان مفترضاً أن تدرس في الأول القضايا المتعلقة بالكتابة واللغة والثقافة الميكينية، أما الجزء الأساسي من الكتاب، أو ما يسمى بعموده الفقري، فكان الفصل الثاني وكان مزمعاً أن تنشر فيه 300 لوحة مختارة بصفة خاصة من كنوس، بيلوس وميكينا بكل

ما تستلزمه من تدوين لفظي وتعليقات؛ أما بالنسبة للفصل الثالث فكان المفروض أن يتضمن معجماً ميكينياً وفهارس مختلفة. وقد تضمن الكتاب مقدمة بقلم البروفيسور آلان فايس. وفي نهاية 1955 كان قد تم إعداد الكتاب بكامله على هيئة مخطوط وتضمن، إلى جانب ماذكرناه، مفتاحاً مزيداً ومنقحاً لقراءة الكتابة. ولم يبق بعيداً عن التفسير إلاّ عدد قليل من الرموز، وذلك بسبب الندرة الكبيرة لاستخدامها في الألواح التي تم اكتشافها.

استقبل فينتريس - المهندس المعماري عام 1956 وهو غارق في دراسة قضايا الهندسة المعمارية. إلا انه تلقى في عيد الفصح أثمن هدية بالنسبة لفينتريس - قارئ الرموز وهي الدعوة للمشاركة في المؤتمر «الميكيني» نظم في جيف - سور - إيفيت قرب باريس من طرف المركز القومي للبحوث العلمية. وتسنى لفينتريس وتشيدوفيك أن يتصلا هناك بصفة شخصية مع أشهر العلماء العاملين في ذلك الاختصاص. ورسخ ذلك اللقاء وإلى الأبد في ذاكرة العلماء الصورة الرائعة لفينتريس - العامل الذي لا يكل في حقل العلم.

وفي الـ 6 من أيلول سنة 1956 وفي غيتفيلد، القريبة من لندن، قتل فينتريس في حادث سيارة وهو في الـ 34 من العمر.

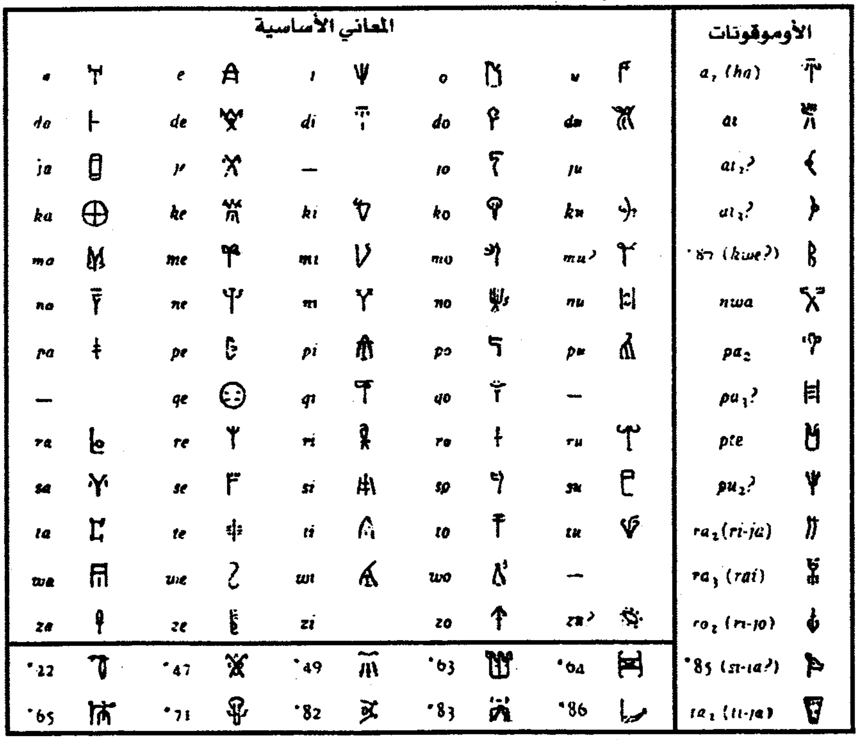

الشكل -81- الفهرس المقطعي الميكيني وفقاً لكتاب فينتريس وتشيدويك. «Documents is Mycenaean grcek»

«كانت سمته المميّزة هي التواضع. فهو لم يكن أبداً يبحث عن الشهرة وكان يتكلم من دون رغبة عن الأمجاد التي كانت من نصيبه (ولم يكن عددها قليلاً). وكان دوماً قاسياً على نفسه وغير عابئ بالتفاهات، أما طبعه الوديع وحدّة ذكائه ومرحه فجعلاه على الدوام محدثاً ورفيقاً محبباً. لقد كان على استعداد دائم لتقديم مساعدته للآخرين دون أن يرحم قواه أو وقته. ولعل من عرفوه فقط يمكن أن يدركوا عمق الكارثة التي وقعت بوفاته» (جون تشيدويك في «التايمز» بتاريخ 17 أيلول سنة 1956).

«إن شخصية فينتريس الألاقة ذات سحر خاص. لقد قدّر لكاتب هذه الأسطر أن يلتقي به في نيسان من هذا العام... في جيف - سور - إيفيت قرب باريس. ففينتريس الذي لوحته الشمس، كان قد جاء مباشرة من تسيرمات - إن ذلك الهاوي المشغوف برياضة التزحلق كان صديقاً كبيراً لبلادنا التي ارتبط بها منذ طفولته. كان بسيطاً وعفوياً في علاقاته وكان يعبر عن أفكاره بوضوح ودقة، ولم يكن أبداً يرفض الأفكار المناقضة لرأيه. وكان يتحدث عن أبحاثه الأخيرة بكل تفصيل، وكان يقدم نصائحه حول مختلف الموضوعات بكل سرور، ويقوم بذلك كله على انه الشيء الاعتيادي ودون أدنى أثر من التكبر. وأكثر ما يثير الدهشة معارفه العميقة والأصيلة في حقل الفيلولوجيا اليونانية، وهو المهندس المعماري، وتلك السرعة المدهشة والدقة التي كانت يمسك بها بماهية المشكلات الجديدة التي تنجم أمامه. ذلك المحدث البارع، كان بتلك الجاذبية التي تخصه وحده، يتحدث بكل سحر إلى اليوناني باليونانية الحديثة وإلينا بالسويسرية - الألمانية. انه تزاوج رائع بين حيوية الشباب والعقل الناضج - هو ذاك الانطباع الذي يحمله كلٌّ من لقائه مع ذلك الإنسان. لقد بقي حتى نهاية أيامه أنموذجاً للنبل السامي على الرغم من أنه بلغ في فترة مبكرة قمة المجد بفضل أعماله العبقرية» (ايرنست ريش في «نيي تسورخير تسايتونغ» بتاريخ 26 أيلول سنة 1956).

وفي مجلة «كاتيميريني» الأثينية كتب البرفسور الآن فايس، معلم فنتريس وحاميه، «إن مايكل فينتريس قد حقق خلال حياته القصيرة، التي انتهت بهذه الصورة المفاجئة الفاجعة، الخلود بقراءته لرموز الكتابة الميكينية ب واكتشافه لأقدم صيغة معروفة للغة اليونانية التي كانوا يتحدثون بها منذ 700 سنة قبل هوميروس».

ومن المستحيل الآن تثمين كل أهمية تلك القراءة.

والحق يقال إنه، وهذا ما يمثل خيبة أمل كبيرة بالنسبة للعلماء، هواة العالم الكلاسيكي القديم، لم تكن هناك آثار أدبية كبرى بين المواد المكتشفة، بل وإننا بأنفسنا قد اضطررنا إلى التراجع عن فكرة تزويد القارئ بنماذج أطول ديباجةً مما تمت

قراءته من جداول وجرود من بقايا تلك الأعمال الحسابية الضخمة. ولكن حتى بالنسبة لما تبقى منها نحن مدينون للظروف التي نعتبرها حتى في وقتنا الحاضر ظروفاً مأساوية. فالقضية أن اللوحات في مجموعها - هي بطاقات مؤقتة مساعدة، ومن الواضح أن مضمونها كان يُدْخل خلال فترات زمنية مؤقتة (لعلّه كان يتم عند نهاية كل عام جردي) ضمن جداول وجرود. أما اللوحات فكان يصار إلى إتلافها ولم تصل إلينا إلا بنتيجة الدمار المفاجئ للقصر، وهو ما قام به الأعداء حسب اكبر الاحتمالات، بل وقد بقيت في بيلوس آخر الأوامر المتعلقة بالتعبئة الشاملة لسكان المدينة من أجل صد زحف الأعداء! إلى أن ما هو رئيسي ولا جدال فيه هو كوننا «نقف أمام شواهد جديدة لم يسبق لها مثيل للعهد القديم من التاريخ الأوروبي وشهاداتها أقرب من شهادات جميع الآثار المشهورة لبابل ومصر وهي ترتبط بصورة أكثر مباشرةً بميلاد ما نسميه بـ الغرب[1]».

فلننتقل الآن إلى بقية الكتابات المينوسية، التي سبق أن تحدثنا عنها في بداية الفصل فكلا الكتابتين لم يقرأ بعد.

إذا كان الباحثون قد التفتوا في البداية إلى الكتابة الخطية ب، فلأن أسباباً منطقية مشروعة كانت تدفعهم إلى ذلك. فقد نقشت هذه الكتابة في وثائق أوفر عدداً وأجود نوعية من ناحية مستوى الحفاظ عليها مما هو عليه الأمر في الكتابة الخطوطية آ وفي الهيروغليفات الكريتية - الميكينية.

إن أول آثار الكتابة الخطوطية آ - لوحات وأدوات أخرى مغطاة بالنقوش (ونشير من بينها إلى الكؤوس التي نقشت على وجوهها الداخلية كتابات بالحبر) كان ايفانس قد عثر عليها في كْنوس. ومن الواضح أن هذه الكتابة كانت منتشرة بصورة أكثر اتساعاً من الكتابة الخطوطية ب وان كانت المكتشفات بكتابة آ لا تشكل في كنوس إلا جانباً زهيداً بينما يعود القسم الأعظم إلى كتابة ب الخطوطية. ولكن في مقابل ذلك عثر الإيطاليون في قصر صغير في مدينة آغيا - تريادا الواقعة غير بعيد عن فيست في الجزء الجنوبي من كريت (حيث لا يزالون يكتشفون حتى يومنا هذا مواد أثرية وافرة) على آثار مكتوبة بالكتابة الخطوطية آ على لوحات وأقراص فخارية. وفي سنة 1923 اكتشف الفرنسيون في مآليا أرشيفاً كاملاً من اللوحات الفخارية حيث عثر إلى جانب «الهيروغليفات» المتأخرة على الصيغة الأولية للكتابة الخطوطية أ. كما إن الكثير من مناطق الجزيرة وضع في أيدي العلماء مجموعة كاملة أيضاً من الكشوفات المنفصلة. وهذه الكتابة تكتسب

1- W. Merlingen , Die kretische Scrift entiffert , S. 12.

طرافة خاصة وذلك على الأقل لأنها تقترب في جانب من جوانبها بصلة نسب لا شك فيها من الهيروغليفات الكريتية القديمة، ويجب من جهة أخرى أن ينظر إليها على أنها سابقة للكتابة الخطوطية ب أو شقيقة لها. وفي الواقع فإن هاتين الكتابتين تتضمنان 48 رمزاً مشتركاً من بينها 20 واحداً تتحدر من الكتابة التصويرية القديمة. وفي العادة تؤرخ مكتشفات الكتابة الخطية آ بزمن يعود إلى سنة 1650 قبل الميلاد؛ أما ازدهار هذه الكتابة فيفترض أن يعود إلى سنة 1550، وربما تواصل استعمالها حتى سنة 1350 قبل الميلاد. والمعمول به الآن أن أساس الكتابة الخطوطية آ هو اللغة ما قبل اليونانية، لغة الشعب الأقدم في جزيرة كريت. ويرتبط هذا الرأي بالفرضية القائلة بأن الكتابة الخطية ب قد ظهرت على الأقل بصفة منفردة من الكتابة الخطوطية آ، وهي إلى جانب ذلك «تتلاءم» مع اللغة اليونانية الميكينية القديمة بنفس الرداءة التي تتلاءم بها بذلة أخذت عن كتفي شخص آخر.

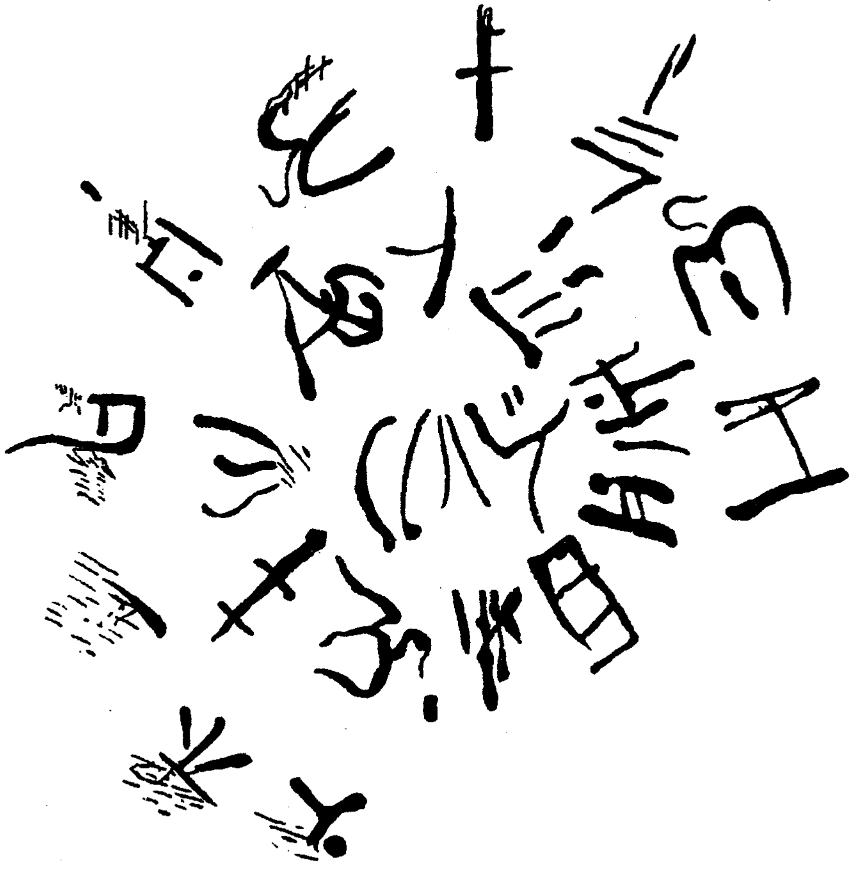

الشكل -82- رموز مكتوبة بالحبر على الوجه الداخلي لكأس من كُنوس.

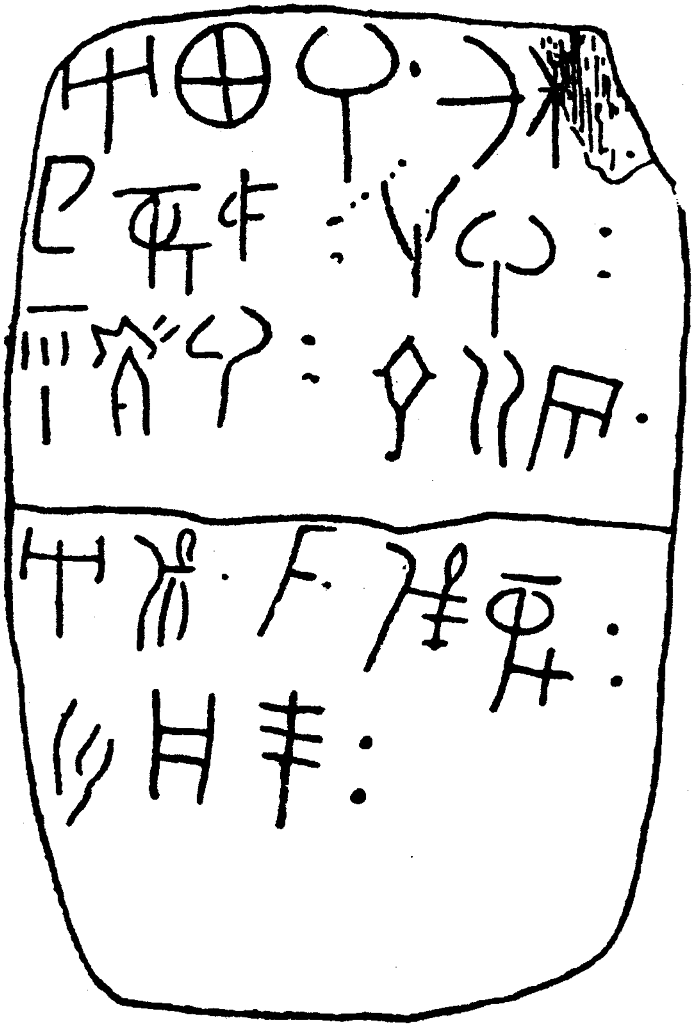

الشكل -83- لوحة فخارية صغيرة ذات مدونة بالكتابة الخطوطية آ. عثر في آغيا - تريادا.

فلنلتفت الآن إلى «الهيروغليفات» الكريتية التي دار الحديث عنها في بداية هذا الفصل وهي تقف في مستهل كل تطور الكتابة الكريتية. و (الشكلان 72 و 73) يعرضان أمام أنظار القارئ نماذج من هذه الكتابة كما تُعرض في (الشكل 84) لوحة «هيروغليفية» للأدوات. ويمكن أن نفترض أن السطر الأسفل يتضمن عشرين «وحدة» ونصف من كل من الفئات الأربع من المواد المعروضة التي تظهرها، كما يزعمون الايدوغرامات: 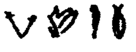 وهي، حسبما هو محتمل، القمح والزيت والزيتون والتين.

لـو تيـسّرت قـراءة الهيروغليفـات الكـريتيـة الخطـوطيـة آ لأمكـن بهـذه الطريقـة حـسم الموضوع المتعلق بلغة شعب كريت الأصلي القـديم، الغـامض الملفوف بالأسـاطير، ذلك الشعب المتحضر الذي كان يعيش على تلك الأرض قبل زحف اليونان الميكينيين عليها.

وهناك لقية لا تزال حتى الآن مستحيلة على القراءة؛ فها هـي ذي منذ 50 عاماً تجتذب إليها الأنظار وبصورة دائمة، ولكنها لا تـزال حتى يومنـا هـذا غامضة مثلما كانت في يومها الأول.

لقد كان اكتشاف هذه اللقيـة الفريدة من ضـربات الحظ السعيد للبعثة الأثرية الإيطالية سنة 1908 التي كان يرأسها البروفيسور ف. هالبْغيرّ والتي كانت، حسبما سبق أن ذكرنا، تعمل بالقرب من آغيا - تريادا. وقد تم الأمر على النحو التالي. في صيف 1908 اكتشف ل. بيرنييـه، عضو البعثة، تحت طبقـة من التراب في أحد مباني القصر حجرة مربعة لتخزين المؤن وفي ذلك المكان التقط ل. بيرنييه في الـ 3 من تموز وإلى جانب لوحة مكسّرة مغطاة بالكتابة الخطوطية آ، ذلك الشيء الغامض - وهو قرص فيست، الفريد من نوعه.

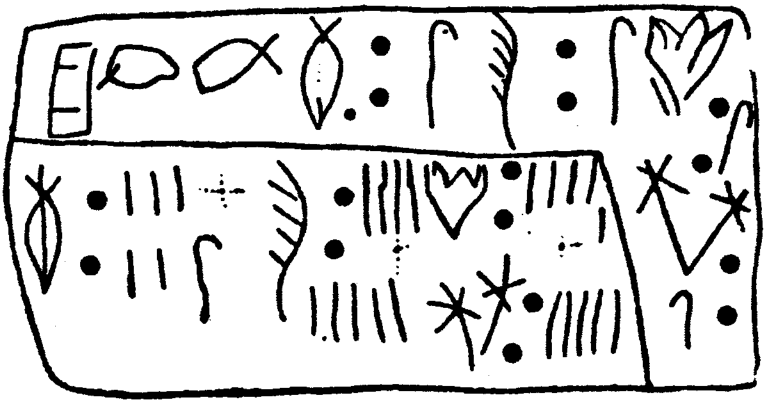

الشكل -84- جرد أدوات هيروغليفي عثر عليه في فيست.

كان القرص مصنوعاً من الفخار رفيع النوعية - يقول الأخصائيون إنه ليس من جزيـرة كريـت، والقـرص لا يتخـذ شـكلاً دائريـاً، فأبعـاده أقـرب إلى أن تكـون غـير صحيحة. وأقرب الاحتمالات ان الرموز قـد ضـغطت فوقـه بأختـام - قوالب خاصـة ومن الواضح أن قالباً خاصاً كان قد صب لكل واحد من الرموز. ومجموع عدد الرموز 45 وهي تظهر في (الشكل 85).

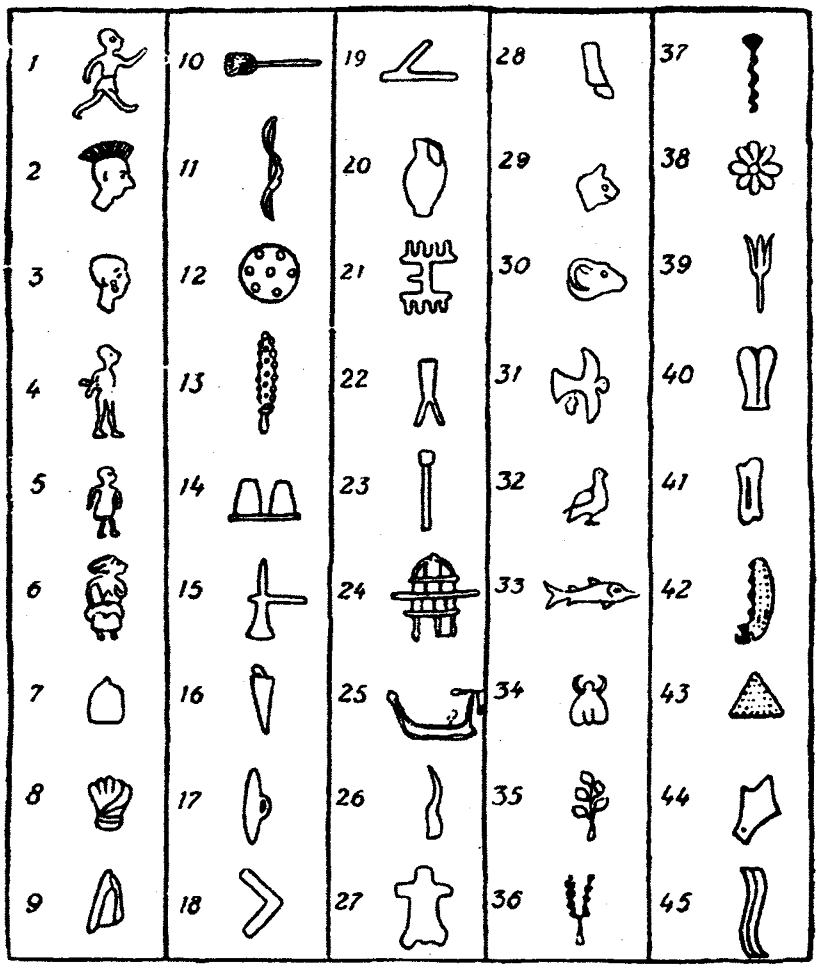

الشكل -85- الرموز المرسومة على قرص فيست

إننا إذا ما نظرنا إلى الأدبيات المتخصصة لانطلقت منها، مثلما تنطلق من قرن الخيرات، الفرضيات والمحاولات الرامية إلى تفسير كل واحد من الرموز الـ 45 تقريباً. ويفرد في ذلك كله دور خاص لغطاء الرأس المذكّر الطريف (رقم 2 في الشكل 85). ومن خلال احتساب عناصر الخوذة الحربية التي اكتشفها السير ارتور ايفانس في ذلك الغطاء (وبالمناسبة فإن بالإمكان ملاحظة هذه العناصر ودون التمتع بخيال خاص) ومن خلال بعض الملامح الأخرى لوصف الأعمال الحربية التي صورت في مختلف الرموز التصورية، توصل إلى القول بأنه يمثل نشيد نصر، وافتراض أن هذا النشيد يحمل طابعاً طقسياً.

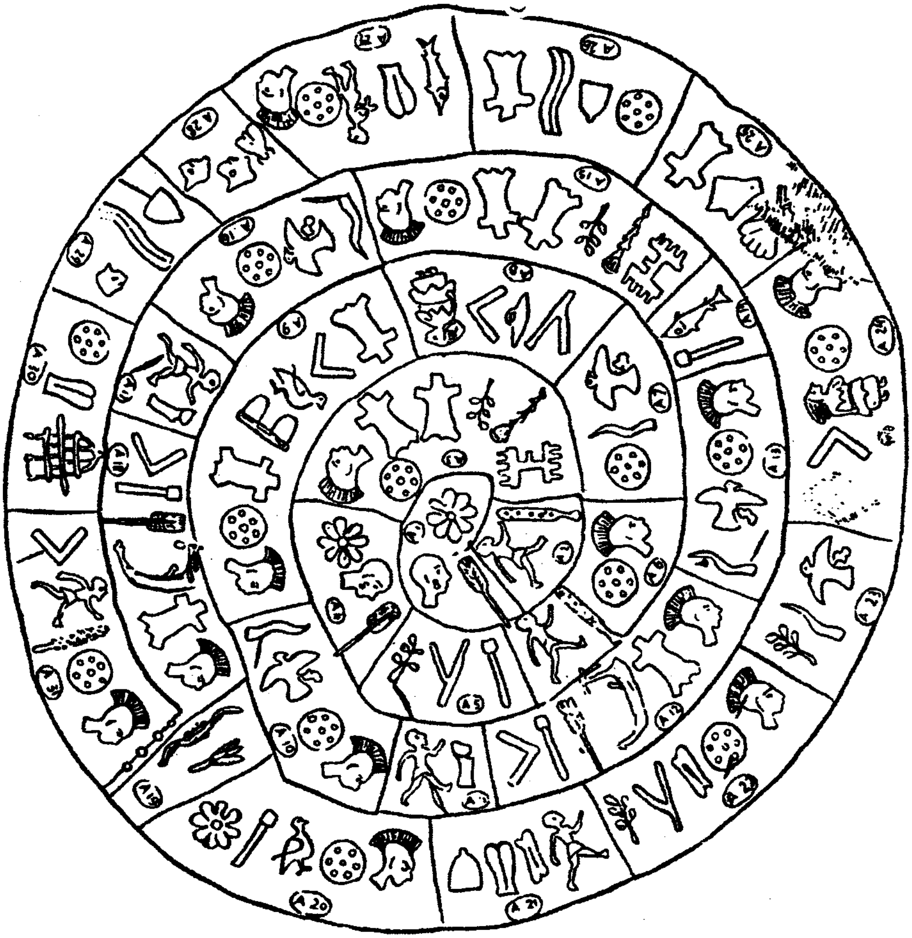

الشكل -186آ- قرص فيست. الوجه الأمامي.

ومنذ أيام ايفانس لم يجر التقدم خطوة واحدة نحو الأمام من أجل حل تلك الأحجية الكريتية القديمة (هذا إذا كانت كريتية، فهذا نفسه موضع جدل) وقد وضع في الحسبان المصدر أو التأثير الفلسطيني، الليكي، الكاري، القبرصي، الليبي، الأناضولي بل وحتى السامي[1]. والقرص لا يزال ينتظر، وجانباه لا يزالان

1- عبارة «وحتى السامي» تحمل معنى الاستبعاد الإنكاري للتأثير السامي على الجزيرة. ويصعب علينا هنا أن نجاري المؤلف اندفاعه الشديد نحو تجريد كريت، وقبرص أيضاً، من هذا التأثير. ذلك أن تاريخ الجزيرتين وما حولهما يبدأ بالساميين، وبيلوس الذي يرد اسمه في هذه الفصلة هو الإله «بعل» السامي؛ واشراقات الحضارة السامية وترسخها في كريت هو الذي جعل من هذه الجزيرة المهد الحضاري لـ ميلاد ما نسميه بالغرب ـ حسب تعبير المؤلف (المترجم).

يستأثران بالنظر ويستدعيان الأخصائيين للمشاركة في محاولة جديدة للتفسير، ويهيبان بغير ذوى العلم ممن لم تتشبع أدمغتهم بمختلف نظريات الانطلاق وتصوراته، إلى تذوق المتعة العظمى - متعة الخوض في لجة التفكير والتخمين. فانظروا كم يبدو هذا القرص بليغاً وراغباً بالكلام! بيد أنه كان أخرس ويظل أخرس حتى هذه اللحظة!.

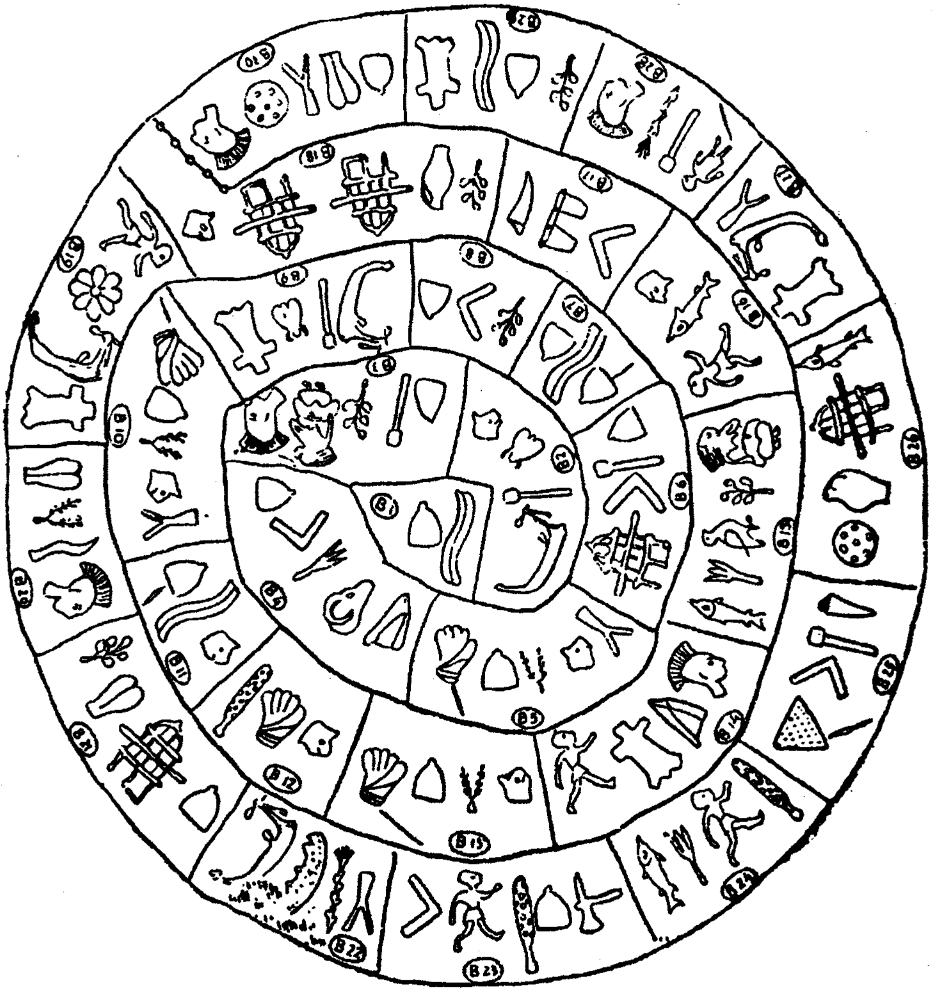

الشكل -86ب - قرص فيست. الوجه المقابل.

إننا نتقدم بكلا وجهي القرص إلى كل من يود أن يجرب فيه مواهبه في التجميع ويجرب حدة ذكائه وحظه.

من الممكن أن يقوم عاجلاً أو آجلاً واحداً من «أساطين» «ورشة» البحث المجيدة بوضع التاج الذي وعدت به هذه القطعة الفخارية المدورة الغامضة والمحفوظة حالياً في متحف مدينة هرقليون. وربما ينفذ هاوٍ عبقريٌ في أسرار هذه الأشكال اللولبية المغطاة بالرسوم، في هذه المتاهة من جزيرة مينوس، ويهتدي، كتيسيوس جديد، للوصول إلى مخرج منها.

ولكنه ربما كان مقدراً له أن يبقى على مدى العصور أثراً غامضاً أبكم من آثار ذلك العالم الذي تتضاعف أمامه صعوبات الاحتفاظ بأسراره؟

الأمير كيول تيكين، بيلكي خاقان وطونيوكوك الحكيم

قراءة رموز الكتابة التيوركية الرونية القديمة

أنا خاقان التيورك، الشبيه بالسماء، وليد السماء،
قد تسنّمت الآن [العرش]، فأصغوا إلى
خطابي...

مدوّنة اورخونيّة

كانت تسمية «تيورك» أو «تيوروك» تعني في بادئ الأمر «القوة» أو القلعة[1].

إن ظهور ذلك الشعب الذي اتخذ لنفسه تلك التسمية - ولم يكن هذا دون مبرّر وهو ما يؤكده تاريخه المبكر - فوق مسرح التاريخ لا ينعكس لأول مرة في صفحة التقاليد التاريخية إلا في منتصف القرن السادس للميلاد تقريباً. وآثاره المدونة لا يمكن أن ترقى بأعمالها إلى درجة أن تقارن بتلك الشواهد على تاريخ الشرق القديم الممتد عبر آلاف السنين، تلك الشواهد التي تحدثنا عنها فيما سبق حتى الآن. لكن هذه الآثار تنطلق من المنطقة التي تعتبر بالنسبة لكافة الحضارات الغربية «عالماً غيبياً» يمتد إلى قلب آسيا ويتصل بشعب بقينا زمناً طويلاً لا نعرف عنه أي شيء بل وإننا حتى الآن لا نعرف إلا القليل جداً، - وهذا ما يكسب تلك الآثار طرافة كبيرى.

وإذا كان مصدر هذا الشعب ومصيره وطابعه قد بقي مدة طويلة بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين، كتاباً مخبأً تحت سبعة أقفال، فلا بد أن نوضح ذلك قبل كل شيء بكون

1- هذا واحد فقط من تفاسير المصطلح الإثني، «تورك» انظر:
Всемирная история,т. 3, М., 1957.

المصادر نفسها التي تفصلنا عنها جغرافياً مسافات كبيرة كانت ولعلها لا تزال إلى حد بعيد محجوبة عن مجال رؤيتنا.

إن العهد الذي برز فيه قدماء التيورك ليظهروا على مسرح الحياة التاريخية، وعصرهم المشرق الأول السابق للإسلام، والذي تشكلت دولتهم خلاله، انعكسا في الأدبيات الصينية القديمة الثرية التي تكتسب أهمية خارقة للعادة بالنسبة لمجموع التاريخ القديم لآسيا الوسطى، لكنها تكاد تكون مجهولة بصفة كلية بالنسبة لنا. أما المعلومات المتعلقة بهذه الفترة فيمكن أن تُستمد من المصادر التاريخية البيزنطية المتلوّنة والغنية بالعبر، والتي لا تقل ثراء عن سابقتها، تلك المصادر التي تعيش الآن «اكتشافاً ثانياً» وتدخل الاستعمال في السنوات الأخيرة فقط!

إن الشعب الذي نجمعه تحت كلمة واحدة هي «التيورك» كان منذ أقدم العهود يستوطن المناطق القاصية في آسيا الوسطى. وكان يمثل قبائل رحل متفرقة ضعيفة الارتباط فيما بينها، تقتصر آفاقها على الخيمة والمرعى. ومن المحتمل أن تكون إحدى هذه القبائل أو أن يكون أحد رؤسائها لقّب نفسه باسم «قوة»، «قلعة». ومن الصعب الجزم فيما إذا كانت هناك أصول لذلك اللقب. وعلى أيّ حال فإن الحديث قد دار حول التيورك لأول مرة عندما كانوا خاضعين لشعب كان قوياً في عهده هو الشعب الذي يسميه المؤرخون الصينيون بالجوجان ثم سمي بعد ذلك بالجوان - جوان.

وحل عام 546 والإمبراطورية الصينية منقسمة إلى شمال وجنوب. أما في الشمال حيث تحكم أسرة ويّ فإن فن النحت البوذي في المعابد الكهفية يعيش أول فترات ازدهاره، أما في الجنوب، وخلال حكم أو - دي من الأسرة الليانية، فيبدأ ازدهار لم يعرف له مثيل في حقول الأدب والفلسفة البوذيين؛ الإمبراطور جوستينيان وزوجته الملكة تيودورا يقبضان بيد من حديد على مقاليد الأمور في الدولة والكنيسة البيزنطيين، وفي ذلك العام نفسه يتجرأ التيورك لأول مرة على الوقوف في وجه سلطان طغاتهم الجوان - جوان. فالقبائل التيوركية التي كانت تعيش في الشمال ويطلق الصينيون عليها اسم تي - لي تهاجم المناطق الجنوبية. لكن التيورك أيضاً كانوا يعملون في خدمة الحكام الغرباء ولهذا نراهم يتصدّون لأشقّائهم، وبقيادة طومين يردّونهم على أعقابهم. وفي الوقت نفسه أيقظ الانتصار في نفوسهم الشعور بقوتهم الخاصة، فلم تمض إلا بضع سنوات حتى انتفضوا من جديد يقودهم طومين نفسه (حسبما يسميه الصينيون، أما المدونات التيوركية فتسميه بومين) فأطاحوا بسادتهم جوان - جوان الذين أخضعوهم ذات يوم. وهكذا أضحى طومين - بومين مؤسس الدولة التيوركية القديمة. وتحت

السلطة العليا للأخ الأكبر شاركه الحكم أخوه الأصغر، حاكم التيورك الغربيين ومؤسس أسرتهم الحاكمة. وكان الصينيون يسمونه شي - دي - مي أما المدونات التيوركية فأسمته بـ ايستيمي.

وفي 552، وبعد وفاة بومين، تناوب العرش من بعده أولاده الثلاثة واحداً تلو الآخر. ويبرز من بينهم مو - خان وهو أبرز اسم بين جميع الخانات التيورك، كان قائداً عسكرياً وغازياً، ضاعف مساحات ملكه وأقام دولة أوصلها إلى درجة من الازدهار لم يعرف لها مثيل حتى عهده. فبعد أن أخضع الايفتاليين أو «الهون البيض» وسّع من حدود إمبراطوريته العظيمة، ففي الغرب امتدت حدود دولته بعيداً بعد أن عبرت حدود دولة الصغديين القديمة فوصلت إلى نهر ياكمسارت (سر - دار) الذي كان التيورك يسمونه يينتشو - أوغوز أو «نهر اللؤلؤ» وحتى «البوابات الحديدية» - أي الممر المعروف منذ القدم بين سمرقند وبلْخ، أما في الشرق فأوصل حدود سلطانه إلى الأرض المسماة حالياً بمنشوريا.

لقد تمكن هذا الشعب، الذي ترعرع من خلال التفاعل الدائم مع الشعوب المتحضرة القديمة، من الوصول في القرن السادس إلى مستوى مذهل من التطور. فهو يكف عن ممارسة سياسة الغزو القصيرة النظر ويستبدلها بسياسة إقامة العلاقات الطيبة مع جيرانه. فايستيمي من الناحية الشكلية تابع لأخيه أما في الواقع فهو الحاكم المطلق الصلاحية في المناطق التيوركية الغربية فهو، كحاكم مستقل، يقيم العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية، رامياً من وراء ذلك، إلى تركيز تجارة الحرير في يديه، تلك التجارة التي كانت قبل ذلك قصراً على «الهون البيض».

وأمام السفارة البيزنطية التي وجهت في آب سنة 568 م، بهدف دبلوماسي وتجاري، من طرف الإمبراطور جوستيان الثاني، ظهرت لوحة شديدة الحيوية والبهرجة، تتحفر طويلاً في الذاكرة، تمثل خليطاً باهراً من الوحشية البربرية والخرافات والوثنية ومن الأبّهة الشرقية المدققة والبذخ المغالى فيه. والمقطع التالي الذي يتحدث عن تلك السفارة إلى بلاد التيورك (وكانت برئاسة الوجيه البيزنطي العالي المقام زيمارخ) مأخوذ من الأثر الأهم في الأدب البيزنطي وهو - «التاريخ» لمؤلفه ميناندر - بروتيكتور.

«امتدت رحلة زيمارخ ومرافقيه طويلاً. وما إن وصلوا إلى بلاد الصغديين وترجلوا عن خيولهم حتى تقدم بعض التيورك الذين نصبوا عموداً في ذلك المكان على ما يبدو، فعرضوا على زيمارخ أن يشتري منهم حديداً، وأعتقد انهم فعلوا ذلك لكي يبيّنوا للروم أن بلادهم تحتوي على مناجم الحديد، إذ يُشاع في العادة أن من الصعب عليهم الحصول على الحديد.

ويمكن التكهن بأنهم تظاهروا أمام الرومان بتفاخرهم هذا بأن أرضهم تنتج ذلك المعدن. كما أن بعض أبناء تلك القبيلة القادرين، حسبما كان يؤكد، على التخليص من الشرور تقدّموا من زيمارخ فتناولوا المتاع الذي كان يحمله الروم فكدّسوه بعضه فوق بعض ثم أشعلوا النار بعيدان من شجر لبنان، وهمسوا ببعض الكلمات البربرية بلغة الصقالبة بينما راحوا في الوقت نفسه يقرعون بالأجراس ويضربون الطبل فوق الأحمال. وبعد ذلك أخذوا يدورون بغصن ذكي الرائحة يتطاير منه الشرر. وظهروا وقد أوصلوا أنفسهم إلى الهوس، وراحوا يطلقون التهديدات وكأنهم يطردون الأرواح الشريرة. إذ يقال إنهم يملكون القدرة على طرد هذه الأرواح وتخليص الناس من الشرور. وبعد أن أنجز طَقْس التخلص من جميع الشرور، حسب رأيهم، اخذوا زيمارخ نفسه فعبّروا به اللهب وبذلك كانوا قد طهّروا أنفسهم أيضاً، وبانتهاء هذه الطقوس سار زيمارخ بمعية من ضم إليه من التيورك إلى الجبل المسمى إكتاغ وهو ما يعني بالهيلينية «الجبل الذهبي» حيث يقيم الخاقان نفسه»[1].

أما «الجبل الذهبي» وهو في الحقيقة «الجبل الأبيض» (أقْداغ) فيجب البحث عنه في منطقة ألطاي.

فلنسمع الآن كيف استقبل السفراءَ ذلك الخاقانُ المسمى سيزابولوس أو سيلزيبولوس - فبهذا الاسم لقب هنا ايستيمي، وهو ما نعرفه من إخباريات المؤرخ البيزنطي فيوفيلاكْت الذي كان يعرف ذلك الحاكم باسم «ستيمبيز - خاقان».

«ما إن وصل زيمارخ ومرافقوه إلى وادي الجبل الذهبي حيث كان يقيم سيزابولوس حتى أحضروهم بين يديه للتو واللحظة. وكان الخاقان داخل خيمة يجلس على سرج ضخم ذي عجلتين تجرّه فرس عندما يراد ذلك. وبعد أن حيا زيمارخ الملك البربري حسب العادة قدم الهدايا التي تم قبولها من طرف من كانت مخصصة لهم، ثم قال: إن ملكنا العظيم، وقد جعلني رسولاً له، يرجو لك، يا ملك جميع هذه الشعوب، أن تظل السعادة ميّالة دوماً إليك ومتجهة نحوك، وان يتجه قلبك بالمودة نحو الروم. فلتكن دوماً منصوراً على أعدائك ولتجمع الأسلاب من مناوئيك! وليبتعد عنا كل حسد يمكن يؤدي إلى حل عرى صداقتنا![2] وإن قلبي يود قبائل التيورك وكل من هو خاضع للتيورك! وان مودتنا نحوكم لن تتغير أبداً. قال زيمارخ هذه الكلمات. فرد سيزابولوس بتحيات مماثلة، ثم بدؤوا بتناول الطعام، وأمضوا ذلك اليوم

1- انظر: المؤرخون البيزنطيون ديكسيب، ايفنابيوس، اوليمبيودور، مالْخ، ميناندر، كانديد، نونوّس وفيوفان البيزنطي في ترجمة س. ديستوبينسون عن اليونانية. سانت بطرسبرغ 1860، ص 375-376.

2- المصدر السابق 376-379.

بطوله في مأدبة داخل تلك الخيمة نفسها؛ وكانت مصنوعة من الأقمشة الحريرية المرقشة بمختلف الأصباغ. وشربوا خمراً يختلف مذاقه عن خمرنا المعصور من العنب. فالمشروب الذي يشربونه بربري، إذ إن أرض التيورك لا تنبت أشجار الكرمة؛ وهذه النبتة غير معروفة عندهم. وبعد ذلك انتقل الروم إلى حيث كانت مهيأة إقامتهم. وقد نقلوا في اليوم التالي إلى خيمة أخرى مغطاة ومرقشة أيضاً بالأغطية الحريرية وفيها كانت تقوم أصنام مختلفة الأشكال. وكان سيزابولوس يجلس على أريكة من الذهب الخالص. وفي وسط ذلك المكان توجد أوانٍ ذهبية وحوض للغسيل وبراميل من الذهب أيضاً. فأدبوا مرة ثانية وتبادلوا الأحاديث، أثناء شربهم، حول ما كان ضرورياً، ثم تفرقوا. وفي اليوم التالي دخلوا خيمة أخرى تقوم فيها العمد الخشبية المغطاة بالذهب وفيها الأريكة أيضاً مذهبة وتقوم على أربعة طواويس من الذهب. وأمام الخيمة وعلى مساحة كبيرة ووفق ترتيب طولاني كانت تقف العربات المحمّلة بكميات كبيرة من الفضة والأواني والسلال وكثير من أشكال الحيوانات ذوات الأربع وهي مصنوعة من الفضة وهي لا تقل في دقة صنعتها عما يصنعونه في بلادنا. وفي هذا يكمن ترف الخاقان التيوركي».

وبعد سبع سنوات اتخذت الأمور منعطفاً يناقض هذه الصورة مناقضة تامة. فعقْدُ الإمبراطورية الرومانية الشرقية الصلحَ مع الأفار، الذين كانوا لفترة قصيرة قبل ذلك خاضعين للتيورك، أثار حفيظة هؤلاء على بيزنطة وعندما وصلت إليهم السفارة البيزنطية الجديدة سنة 575 برئاسة فالنتين ثم استقبالها أسوأ استقبال: «قطع الروم كثيراً من الطرق الصعبة فوصلوا أخيراً إلى تلك الأرض التي كان توركسانف، أحد أمراء التيورك، يضرب فوقها راياته الحربية. أما أولئك الذين وقع عليهم حظ حكم القبيلة التيوركية فقد قسموا الممتلكات ثماني مقاطعات ويلقب أكبر حاكم للتيورك بأرسيل. وعندما وصل فالنتين إلى توركسانف الذي يصل المسافر إلى أرضه قبل أراضي غيره من الأمراء قدم إليه، فطلب من الأمير التيوركي أن يقدم تهانيه إلى القيصر الرومي الجديد... وإذا بتوركسانف يفاجئه بقوله: ألستم أولئك الروم الذين تستخدمون عشرة ألسنة ونفاقاً واحداً؟... وأنتم يا من تقفون أمامي في أردية الكذب، بل وإن من أرسلكم إلي منافق مثلكم. سأقتلكم على الفور دون أدنى تردد، فالكذب بعيد عن التيوركي وليس من شيمه. أما قيصركم فسينزل به القصاص في القريب العاجل... أما أنا فستخضع لي الأرض بطولها بدءاً من أول مشارق الشمس وحتى مغاربها. فانظروا أيها التاعسون إلى شعب آلان، وإلى قبائل اوتيغور الذين استسلموا لتهوّرهم المندفع، وغرّتهم

قوتهم فتجرؤوا على الوقوف في وجه شعب التيورك الذي لا يقهر، لكن خابت آمالهم فهم عبيد لنا الآن»[1].

ويستجمع رئيس البعثة البيزنطية، ذلك الدبلوماسي الرشيد، الذي حنكته تجارب التعامل مع التيورك، قواه لأجل تهدئة المهتاج. فيغيّر توركسانف (وقد وصلنا اسمه أيضاً في صيغة «توركساف» وهذه الكلمة التي تفهم خطأ على أنها اسم علم هي لقب تورك - شاد أي «رأس التيورك») لهجته ويوجه إلى السفراء الروم الشرقيين دعوته للمشاركة في الطقوس الطريفة (من وجهة النظر الايتوغرافية) التي سيكتشف نظيرها المطابق فيما بعد في المدونات التيوركية. فيصرح لهم بقوله:

«بما أنكم بوصولكم إلى هنا قد وجدتموني أسير حزن شديد بسبب وفاة والدي سيلزيبولوس منذ فترة قصيرة، فإن عليكم أيها الروم أن تجرّحوا وجوهكم بالخناجر جرياً على عادتنا في تأبين الموتى». فسارع فالنتين ومرافقوه إلى حزّ خدودهم بخناجرهم. وفي أحد أيام حزْن توركسانف جيء إليه بأربعة من الهون المقيدين بالأغلال ليقدمهم وخيولهم ضحايا لأبيه المتوفّى. ويسمي التيورك طقوس الجناز لديهم بلغتهم بـ دوخيا. وقد أمر توركسانف أولئك الهون التاعسين بلغته البربرية عند وصولهم إلى العالم الآخر أن يبلغوا سيلزيبولوس، أباه أي... (انقطاع في النص).

وبعد أن أنهى توكسانف الطقوس المتبعة لدفن أبيه تحادث ملياً مع فالنتين ثم أذن له بالتوغل في البلاد ليصل إلى شقيقه تاردو المقيم على جبل ايكتيل، وايكتيل تعني «الذهبي....»[2].

وخلال عهد تاردو، خليفة سيلزيبولوس - ايستيمي (وهو بالصينية تا - تاو) انشطرت دولة التيورك العظمى إلى شطرين - الشرقي والغربي. وكان الصينيون، الذين قدر عليهم أن يعانوا الكثير بسبب غزوات النهب المتكررة من جانب التيورك، يعملون بكل سبيل على إذكاء نار الشقاق بين شطري الدولة، وبفضل هذه السياسة الذكية الخبيثة وصلت قوى التيورك إلى درجة من الانهيار حتى أن أراضيهم أصبحت في منتصف القرن السابع ضواحي للإمبراطورية الصينية. إلا أن واحداً من المنحدرين من الأسرة القديمة تمكن بعد 20 سنة من التوصل إلى مركز خاقان مستقل للتيورك الشرقيين - وكانوا يسمونه بـ كوتلوغ، «السعيد» وبـ «ايلتيريش - خاقان» أي «خاقان التجميع» (أو

1- المصدر السابق ص 418-420.

2- المصدر السابق ص 421-422.

تأسيس الدولة») وقد تسنّى له بعد عدد كبير من الحروب المظفرة والإجراءات الحاسمة أن «يجمّع» الدولة ويقوي أواصرها.

وتوفي ايلتيريش - خاقان في حمأة هذا العمل البنّاء مخلفاً ولدين لم يدركا سن الرشد، فلم يكونا قد بلغا الثامنة والسادسة من العمر. فبدأ أخوه كاباغان - خاقان بالإحساس بأن يديه مطلقتان. وكان واضحاً أنه غير راضٍ عما تمّ إنجازه، فكان يهدهد آماله العظيمة بدولة تيوركية قوية ومزدهرة شبيهة بتلك التي كانت قائمة ذات يوم، وكان، شأن أجداده، يرغب في بسط سلطانه حتى إيران نفسها وفي أن يخضع لسلطته أولئك الأتراك الغربيين المتمردين الذين انقطعوا عن إخوتهم الشرقيين ثم انفصلوا عنهم بالصين. بيد أن كاباغان - خاقان لم يكن يملك لتحقيق هذه المطامع البعيدة حتى ولو بصفة تقريبية تلك الصفات التي يجب أن تتوفر في رجل الدولة اللائق الذي كان يمثله أخوه المتوفى. فقد كانت أعمال كاباغان - خاقان تتسم بالقحة والفظاظة حتى أنها صرفت عنه تابعيه المخلصين الذين كانوا يتدافعون جماعات لينضموا لجانب الصينيين. فلما قتل سنة 716 على أيدي الثوّار دقت تلك الساعة العظيمة بالنسبة لنسيبيه الفتيين، ولدي أخيه ايلتيريش خاقان ووريثيه الشرعيين. فتسنّم الابن الأكبر كاتلوغا العرش باسم بيلغي - خاقان «الخاقان الحكيم» ووقف إلى جانبه شقيقه الأصغر كيول تيغين (الأمير كيول) العاقل والممتلئ قوة والذي كان من الطبيعي أن يأمر بالقضاء على كل عائلة عمه الضخمة بما في ذلك، وبشكل خاص، أولئك الطامعين بالعرش - وهم أبناء عمه. ولم تشمل الرحمة أحداً من بين الحرس السابق غير واحد هو تونيوكوك الذي كان متميزاً منذ عهد ايلتيريش - خاقان. وكان في الوقت نفسه حماً لبيلغي - خاقان ولعله أصبح في نهاية حياته مستشاره أيضاً. أما بيلغي خاقان، «صنو السماء، وليد السماء الخاقان التيوركي الحكيم»، فقد استحق عن جدارة ذلك الاسم. إذ أكد نفسه حاكماً ليّن الجانب حذراً وحكيماً. فعاد القسم الأكبر من التيورك الفارين إلى بلادهم. وقد عقد أواصر الصداقة مع الإمبراطور الصيني، أما شقيقه كيول - تيغين الذي ربما كان يمتاز بطبع أشد قوةً من طبع الحاكم نفسه فقد كان عماد العرش سواء في الحرب أم في السلم، فلما توفي ذلك الأمير الفتي سنة 731 انقضّت تلك الكارثة ضربة هائلة على كاهل الأخ الأكبر.

ولم يعمّر بيلغي - خاقان طويلاً بعد الأمير. فقد توفي سنة 734 مسموماً بيد صفيّه الخاص، وحدث ذلك بالذات في تلك الفترة التي كان الإمبراطور الصيني قد وعده بتزويجه من إحدى بناته. وما هي إلاّ 11 سنة حتى استحالت كل العظمة التيوركية السابقة إلى تراب - والطريف أن الضربة القاتلة لم توجه إليها من جانب الصينيين - فقد تمكن بيلغي - خاقان في

حينه من تحقيق صداقتهم بمهارته - بل من جانب شعب تيوركي آخر هو الاويغور - الذين كانوا ينتوون أن ينقلوا إلى أيديهم أعنّة القيادة في آسيا الوسطى، وكان حكم بيلغي خاقان المعتدل البعيد النظر والحكيم سبباً في تحقيق الازدهار الأخير لآخر دولة تيوركية. ومثلما يدين له مواطنوه بالشكر فإن عِلْمنا أيضاً مدين بالشكر لسياسته البعيدة النظر على ما تركته للعلم من إرث ثمين.

عندما توفي كيول - تيغين لم يكن أخوه فقط من خلّد ذكراه. فانطلاقاً من علاقات الصداقة القائمة بين الدولة التيوركية العظمى، وبين صين الأسرة التانيّة، أمر الإمبراطور الصيني بأن يقام على ضريح المتوفّى نصب تذكاري مهيب، فلما لحق بيلغي نفسه بأخيه قام ابنه، بمعية الإمبراطور الصيني، بوضع نصب رائع ضخم، كشاهد فوقه.

وكان هناك كتابة على كلا النصبّين وكانا نفس النصبين اللذين مكّنا سنة 1896 من قراءة رموز الكتابة التيوركية القديمة.

ظل النصبان قائمين مدة ألف عام تقريباً منسيين شأن غيرهما من النصب في أصقاع أخرى من الإمبراطورية الروسية التي أخذت مع الزمن تبسط نفوذها على المناطق التي كانت مواطن للتيورك القدماء ذات يوم. ولم يثيرا انتباه أحد حتى ذلك اليوم الذي حرّك فيه بطرس الأعظم روسيا باتجاه التقدم. فبدأت الحياة بالتيقظ تدريجياً أيضاً حول ذينك الشاهدين من شواهد التاريخ البعيد. فبين 1719 و 1727 قام المسمى دانييل غوتليب ميسيّرشميدت، وهو عالم طبيعة من دانتزيغ برحلة في أرجاء سيبيريا بمهمة من بطرس. وتسنّى له أن يقطع المسافة من نيرتشينسك وحتى نهر آرغون - كيرولين المتاخم لمنجوريا. وإلى جانب ذلك فإنه شاهد في وادي نهر يينيسي الأعلى، وغير بعيد عن الضريحين القديمين على ضفة النهر صخرتين عجيبتين تغطيهما النقوش والرسوم الكتابية، وكانت الرسوم النافرة تمثل لوحات للصيد ولتقديم الضحايا وللحيوانات ووجوه الناس وتزيينات. أما بالنسبة للنقوش الكتابية فإن الأخيرة كانت تتكون من رموز تذكر بالرونات الشمالية. وفيما بعد فإن الصور التي استنسخت من هذه النقوش وغيرها، والتي كانت تعدّ صقلبية في ذلك الوقت وصلت إلى أوروبا بفضل أحد سفراء كاترين الثانية ونشرت هناك.

وعند بداية القرن التاسع عشر كانت أمثال هذه اللقى تزداد عدداً، وبدؤوا في باريس، عاصمة الاستشراق آنذاك، يدركون بالتدريج أهميتها بالنسبة لتاريخ آسيا الوسطى بأسرها. ويحل عهد المحاولات الأولى الباسلة لقراءة الرموز ونلتقي بين الرواد بـ آ. ريميوزا و ي. كلابروت المعروف بالنسبة لنا، وهو معاصر شامبليون ومناوئه. إن أعمالهما وجهودهما لا تزال

بعيدة عن الكمال، وتبدأ مختلف الفرضيات بالتجمع حول الكتابة الجديدة: فهي تحول مرة إلى كتابة صقلبية وطوراً إلى كتابة شعب تشود، وتبدو مرة أخرى نسيبة للرونات الشمالية، بل وتتجه بآخرين نحو الكلتيين والغوط. إلا أنه في نهاية الأمر ونتيجة لكون جميع محاولات التفسير قد بقيت دون نتيجة فإن الاهتمام بتلك الآثار صار يميل شيئاً فشيئاً إلى الاضمحلال، وهكذا غرقت من جديد في طيات النسيان.

وكان العالم الفنلندي م. آ. كاسترين واحداً من العلماء الذين قاموا في النصف الأول من القرن التاسع عشر بدراسة تلك الآثار ونَشْر الكتابات المنقوشة فوقها وخطوا أول الخطى في ميدان إيضاح مصدرها ولغتها، وقامت الجمعية الأثرية الفنلندية بمواصلة جهوده، وفي سنة 1875 أوفدت إلى ميتشورينسك بعثتها مرتين بهدف البحث عن هذه المدونات ودراستها. أما نتيجة ذينك العملين فكان الطبعة البديعة التي صدرت سنة 1889 في غيلسينغفورس بعنوان «*Inscriptions de l'Ié nissei*» («نقوش يينيسي الكتابية») وكانت تحتوي 14 صورة إيضاحية معززة بنصوص و 32 لوحة نقش كتابي و 8 صور فوتوغرافية. وبعد ثلاث سنوات زيدت تلك الطبعة وعززت بالمفردات والمصطلحات التي تم العثور عليها فصارت تشمل كل ما كانت تطمح إليه روح العالم الأثري. كل شيء باستثناء شيء واحد - وهو قراءة الكتابة.

ومع كل هذا فإن تلك الدراسة التي قدمت للقارئ وصفاً رائعاً للآثار التي تم العثور عليها أدت، إلى جانب نشر اللوحات الإيضاحية البديعة، المهمة الرئيسية الثانية التي تثوي في صلب كل طبعة مماثلة: وهي إحياء الاهتمام الحي بتلك الآثار.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى قام ن. يادرينتسيف في المؤتمر الثامن لعلماء الآثار في عموم روسيا، بلفت أنظار المشاركين إلى أن منطقة الحدود في منشوريا، والتي قام بزيارتها، غنية بمختلف القطع الأثرية وخاصة بتلك النقوش الكتابية التي عثر عليها في تلك المنطقة وفي وادي نهر اورخون على الخصوص. وبعد ذلك قام الباحث الفنلندي آ. غيكل برحلة إلى اورخون سنة 1890 فوصل، برفقة زوجته وأخيه إلى المجرى القديم لنهر اورخون، وعثر هناك في مكان غير بعيد عن بحيرة كوشو - تسايدام (جنوبي البايكال) على نصبين أثرت بهما الرياح ويمثلان منظراً بالغ الجمال. كان الدمار قد لحق بهما بصورة جزئية ولفهما النسيان عبر ألف من السنين وكانا مجهولين بصورة تامة من جانب العلم الأوروبي.

كانت هناك قطعة صخرية هائلة الحجم - كان من الواضح أنها صخرة شاهديّة قد سقطت من فوق قاعدتها وتمثل قطعة واحدة مخرزة من جوانبها الأربعة، وهي من نوع من أنواع الحجر الكلسي أو من المرمر السيئ غير النقي. كان ارتفاع الحجر يصل إلى 3.5 متراً ويبلغ

عرضه في الأسفل 1.32م وفي الأعلى 1.22م أما جوانبه الضيقة فكان عرضها يتراوح بين 44 و 46 سم. وقد تعرّض جانبان منه للحتّ الشديد وانتهت الصخرة المحدّبة نحو الأعلى بتزيينات لعلها كانت تصويراً رديئاً إلى حدّ بعيد لتينين. أما الجانبان العريضان فقد توضعت فوقهما لوحات صغيرة مخمّسة الزوايا وذات نقوش كتابية. أما الصخر نفسه فكان ينتهي في أسفله بزائدة طويلة وقوية تتطابق تمام التطابق مع الثقب المنقور في القاعدة التي لا تزال باقية حتى الآن والتي أعطاها النحاتون هيئة السلحفاة. وكان المظهر العام وطريقة أدائه يحملان السمات المميّزة بالنسبة للنصب الصينية المعاصرة لذلك النصب، فالعمل كان صينياً دون شك.

وكانت جوانب النصب بكاملها مغطاة بالنقوش الكتابية. أما الجانب المتجه نحو الغرب فكان يحمل نقشاً صينياً كبيراً، ونقشت على الجوانب الثلاثة الباقية كتابات وضعت بالأبجدية الرونية التي كانت معروفة من المكتشفات الينيسية وغيرها.

وعلى بعد 40 متراً تقريباً من الحجر كان ينتصب محراب أو مذبح كبير مربع الشكل، ويفصل بينه وبين النصب حاجز أرضي منخفض بطول 25 متراً يكشف عن خرائب مبنى كان يقوم تحته ذات يوم.

وبالفحص الدقيق تبينّ أن الحاجز كان بقية جدار أقيم بالقرميد الصيني. وبالقرب من ذلك المرتفع الترابي اكتشف الباحث سبعة تماثيل مرمرية صينية الصنع دون شك، وتدل ملابس الشخوص المنحوتة عليها وتوابعها على أنها تمثل تيوركاً، وكانت رؤوس التماثيل مقطوعة. وإلى الجانب الآخر من الأثر كان هناك هيكلان لحيوانين لحق بهما دمار شديد، وقد تقابل رأساهما ولعلهما كانا يمثلان مدخلاً إلى مبنى. وبداية من المدخل يبدأ خط مثير للنظر من الأحجار يمتد بطول 4.5 كيلو متراً (!) يمثل أشكالاً بشرية رتبت بمسافة يبتعد أحدهما عن الآخر بـ 10-12 متراً وتتجه وجوهها نحو الشرق. وقد مكنت الملاحظة من الاستنتاج بأن المبنى كان مكاناً للدفن أما القطع الحجرية فكان يجب أن تصوّر الأعداء الذين قضى عليهم الأموات خلال حياتهم.

وعلى بعد كيلو متر واحد من ذلك المكان عثر غيكل ومرافقاه على نصب آخر مماثل للأول وأعظم منه حجماً، وكان واضحاً أنه تعرض في حينه لأشد مما تعرض له الأول - فلم يكن قد سقط فقط عن قاعدته بل، وللأسف، كان قد تحطم إلى عدة قطع. أما النص المنقوش فوقه فكانت الريح فقد فعلت فعلها في كثير من مواضعه فأمحّى، أما ما تبقى منه فكان أيضاً منقوشاً بالهيروغليفات الصينية وربما صار مألوفاً من تلك الرموز الكتابية «المجهولة»، وفي المناطق المحيطة بذلك النصب عثر على منشآت شبيهة بما كنا قد شاهدناه عند «تفحص» النصب الأول.

كان غيكل ومرافقاه يقفون، دون أن يعرفوا، أمام ضريح كيول - تيغين وأخيه بيلغي - خاقان. وفي سنة 1892، وفي غيلسينغفورس، أصدروا النقوش الكتابية التي عثروا عليها. ولكن قبل عامين من عودة غيكل من سيبيريا كان العالم اللغوي الروسي الشهير ف. رادلوف قد قدم لأكاديمية العلوم الروسية مخططاً مفصلاً لدراسة المناطق التي عثر فيها على المكتشفات، وفي العام التالي ترأس بنفسه بعثة توجهت إلى هناك كان من بين أعضائها ن. يادرينتسيف الذي سلفت الإشارة إليه ود. كليمينتس المتخصص بالدراسات السيبيرية. واتجهت البعثة من كياختا إلى منغوليا بهدف دراسة الخرائب القديمة في حوض الاورخون وروافده ومعرفة الروابط التي كانت قائمة بين الكتابات الينيسية وتلك الكتابات المنغولية. وعند قره بالغاصون وحيث كانت تتألق قره قوم، عاصمة الخاقانات المنغوليين العظمى ذات يوم، اصطدموا بنصب غرانيتي هائل الحجم نقشت فوقه ثلاث كتابات: إحداها بالصينية والثانية بالاويغورية وكانت الثالثة منقوشة بالرموز الرونية «السيبيرية».

وفي سنة 1892 اتخذت نتائج هذه البعثة هيئة طبعة ضخمة وجيدة النوعيّة، وفي الـ 15 من كانون الأول سنة 1893 تقدم العالم الدانمركي ف. تومسين إلى الجمعية العلمية الملكية الدانمركية بـ «تقرير أولي» (لا يزيد حجمه عن خمس عشرة صفحة) بعنوان « *Dechiffrement des inscriptions de l'Orkhon et de l' Ié nissei* » وكان يتضمن في الأساس القراءة الكاملة لرموز الكتابة الجديدة بالإضافة إلى أبجدية لها!

لدى ترجمة المدونات الاورخونية الصينية وشرحها من قبل غ. غابيلينتس طفت على السطح تلك الظروف التي ارتبطت بها أيضاً إقامة ذينك النصبين المذكورين. ونقصد بذلك نقشي الضريحين: كان الأول منهما وهو الذي حفظ بصورة أفضل - لمن يسمى بـ كوي - تي - غين، ابن غو - دو - لو كي - خان والأخ الأصغر لمن يسمى بـ بي- كيا كي - خان «الحاكم الحالي». وفي الأسماء الصينية المذكورة يمكن، ودون عناء، التعرف على الحاكمين اللذين سبق ذكرهما وهما كوتلوغ «السعيد» وبيلغي - «الحكيم»، والأمير كول - تيغين. ومما يذكر أن الأدب الصيني يشير إلى إقامة هذين الضريحين. وفي مكان بعيد نسبياً عن النّصبين عثر فيما بعد على نقش كتابي حفر على ذكرى الوجيه الكبير، القائد الحربي التيوركي تونيوكوك وقد نقش فوق عمودين حجريين لم يكونا قد سقطا حتى أيام الكشف.

ولكن من أين كان لعلماء الآثار أن يعلموا، قبل قراءتهم للمدونات الصينية بطقوس الدفن المتعلقة بالشواهد التي اكتشفوها؟ إن علينا، انطلاقاً من هذا أن نلقي بأنظارنا إلى

أغوار التاريخ القديم، فهي وحدها القادرة على أن تعرض أمامنا، وبالضوء الصحيح، ماهية تلك العادات البربرية الشرسة التي كونت التربة التاريخية التي قامت عليها المنشآت الضرائحية التي تم العثور عليها في منغوليا. إن ما تحدى تتالي مئات السنين هنا في حوض الأورخون متجسداً في الصخر الأصم العديم الحسّ - ما هو إلا صدى ذلك الزمن الغابر الذي كانت نصب للأموات فيه لا تصاغ من قطع الحجر بل تقدّ من لحوم البشر.

أما كيف كان يتم ذلك فنعرفه من هيرودوت. فهو يصف في كتابه الرابع (الفصلين 71-72) طقوس الدفن الملكي عند الصقالبة (وهذه التسمية تشمل لديه أشد الشعوب تباعداً واختلافاً). ولنقارن هذا الوصف لدى هيرودوت بالإخبارية التي تعرفنا عليها لدى ميناندر حول الدفن الذي أعده لأبيه الابن توركسانف، ابن سيلزيبول - ايستيمي، ولنتذكر في الوقت نفسه المدافن الأورخونية، التي تتحدث أحجارها الصماء بكل بلاغة عن تلك العادة نفسها. ويغدو كل شيء مفهوماً من توه على الرغم من الألف السنة التي تفصل بين عهد هيرودوت وعهد إقامة النصب الأورخونية، تلك السنون التي جرّدت عادات الأجواء الوحشية من تلك الفظاعة البدائية المتوحشة التي كان توركسانف ممن دفعوا لها الضريبة.

وهكذا فإن هيرودوت يتحدث عن الصقالبة بما يلي:

«يقع مدفن الملوك في غيّرا التي تصلها السفن بطريق بوريس - فينيس» وهناك يعمدون فور وفاة الملك إلى حفر حفرة كبيرة مربعة الأضلاع وبعد أن ينتهوا منها يأخذون الميت فيغطون جسمه بالشمع، ولكنهم قبل ذلك يشقون بطنه وينظفونه ويملؤونه بالطيب المسحوق والبخور وبحب الكرفس واليانسون ثم يخيطونه ويحملونه في عربة إلى الشعب الآخر، فيقوم الشعب التالي الذي وصل إليه الميت بالعمل نفسه الذي قام به الملوك الصقالبة، أي هناك أيضاً، يقطع الناس جزءاً من آذانهم ويحلقون شعورهم بكاملها، ويجرّحون أذرعهم، ويخدشون جباههم وأنوفهم، أما أذرعهم اليسرى فيغمدون فيها السهام. ومن ذلك المكان ينقلون جثمان الملك إلى الشعب الآخر الخاضع لهم بينما يقوم الشعب الذي سبق أن جاءوا إليه بالسير وراء الجنازة. وبعد أن يطوف ملوك الصقالبة بالمرور على جميع الشعوب يصلون إلى أراضي أبعد الشعوب الخاضعة لهم وهم شعب الغيرّ حيث يقوم المدفن. وهناك يدفنون الجثة فوق مفرش من العشب وعلى كل جانب من الجثة يغمدون رماحاً ويضعون عليها العوارض المتقاطعة ويغطون ذلك بقماش الهبّاية. وفي بقية المتسَّع من القبر يدفنون واحدة من جواريه بعد خنقها بالإضافة إلى ساقيه وطباخه وسائس خيله ووصيفه المقرب ورسوله وأخيراً خيوله والأفضل من كل نوع من الماشية وأوانٍ ذهبية - فملوك

الصقالبة لا يستخدمون الفضة والنحاس على الإطلاق. وبعد ذلك يقوم الجميع معاً بإقامة رابية ترابية ضخمة ويبذلون جهداً خاصاً لتكون من أكبر الأحجام.

وبعد مرور عام يقوم الصقالبة بما يلي: يختارون ممن تبقى من الخدم خمسين شخصاً مناسبين للملك، وهؤلاء من الصقالبة فبناء على أمر الملك لا يقوم على خدمته إلا أمثال هؤلاء وليس لديه خدم مشترون بالنقود، كما يختارون أيضاً خمسين من أجود الخيل، ويقومون بخنق أولاء وأولاء ويخرجون أحشاءهم وينظفون بطونهم ويملؤونها بالنخالة ويخيطونها ثم يضربون في الأرض عمودين ويثبتون عليهما نصف عَجَلة بشكل يكون الطوق فيها متجهاً نحو الأرض ويثبتون النصف الثاني من العجلة على عمودين آخرين. وبعد ذلك يولجون في الخيل وبصورة طولانية رماحاً ثخينة تصل حتى الأعناق، وعلى هذه الحالة يرفعون الخيول على أطواق العجلات بشكل تكون أكتاف الخيل على الأنصاف الأمامية وعلى الأنصاف الخلفية تكون الأجسام من عند أصل الفخذين، وذلك ليكون كل زوجين من قوائم الخيل مدلى إلى الأسفل دون أن يبلغ الأرض، وأخيراً يطرحون على الخيل الألجم والأعنة... أما الشبان الخمسون... فيركبون واحداً واحداً على الخيل بالطريقة التالية: يولجون في جثة كل شاب وبطريقة طولانية، رمحاً مستقيماً بطول العمود الفقري حتى يصل إلى العنق ثم يدخلون الجزء السفلي البارز من ذلك الرمح في الجزء المفرّغ من الرمح الآخر الذي يخترق الحصان وبعد أن يضع الصقالبة هؤلاء الفرسان حول القبر على هذه الصورة يتفرقون»[1].

إن أولئك الفرسان هم أجداد ذلك الحرس الحجري الماثل بالقرب من المدافن الاورخونية.

لم يقدر لأي واحد من العلماء الذين أنفقوا الكثير من الجهود المضنية من أجل اكتشاف وتجميع آثار الكتابة الرونية أن يقرأ تلك الكتابة فلم تقترب من الهدف إلا بعض الملاحظات العامة التي قام بها رادلوف. أما بالنسبة للقراءة نفسها، والتي دخلت تاريخ العلم على أنها الصورة الأكثر نموذجية لقراءة من خلال «جلسة واحدة» (إلى طاولة العمل بالطبع) والتي تعدّ حتى وقتنا هذا، مثالاً للمأثرة العلمية الألاقة النى يقوم بها عالم واحد بمفرده، فقد بدئت وأنجزت وأعطيت صورتها العامة على يد أكبر الباحثين الإسكندنافيين.

بدأ ويلهيلم لودفيغ بيتر تومسين (1842-1927) وهو ابن تومسين، مأمور البريد في رانديرس، حيث أمضى طفولته وسني صباه المبكر، وحيث كان يحضر دروس المدرسة اللاتينية في المدينة، خطّه الجامعي، شأن الكثيرين من علماء جيله، بدراسة اللاهوت. إلا أنه

1- Геродот, История в девяти книгах,пер. Ф.Г.Мищенка, М., 1888.

سرعان ما انصرف عنه. وكان يتردد، في بداية عهده، بين دراسة اللغات والعلوم الطبيعية وبقي علما النبات والفيزياء يستميلانه على مدى فترة طويلة، إلا أن النصر كان في نهاية المطاف إلى جانب علم الكلمات الأثير إلى النفس فكرس حياته كلياً لذلك العلم، وقد التقى ذلك الطالب بالأعلام من الأساتذة الذين لم ينجحوا فقط في اجتذابه إلى دراسة هذا الميدان من المعرفة بل وفي أن يمنحوه تلك الأسس من المنهجية الممتازة ومن المعارف الواسعة التي ميّزته بدورها بين زملائه الكثيري العدد في العمل، تلك المعارف التي كان دوماً يحاول إثراءها وتعميقها كرحّالة وبحّاثة وعلاّمة. فقد قام مادفيغ الذي لا يزال يعد حتى الآن علماً مرموقاً بين أعلام الفيلولوجيا الكلاسيكية مثلما قام ن. م. بيترسين ثم ك. لينغبي من بعده، بإثارة حب تومسين نحو دراسة الفيلولوجيا الإسكندنافية، كما إن فيستيرهارد، المشارك في حل رموز المسمارية العيلامية، وسميث، عالم اللغات السلافية كانا في عداد أساتذته في الوطن. وفي وقت مبكر بدأ الشاب الإسكندنافي بإبداء الاهتمام نحو الشعب المجاور - شعب الفنلنديين ولغته. وجلبت إحدى الأعمال التي كتبها في هذا الموضوع وأصدرها عام 1869 الشهرة لاسمه على الفور. وقد قادته رحلاته خارج الوطن إلى برلين، لايبزيغ وبراغ (فقد راح يدرس التشيكية في براغ) وقد واصل دراساته في حقل اللغات السلافية تحت إشراف ميكلوشيتش في فيينا حيث عاش فترة لا بأس بطولها. كما إنه تحايل في الوقت نفسه من أجل تلقي دروس في اللغات العربية، البولونية والمجرية. وينتقل تومسين بعد ذلك إلى بودابست حيث يوصل معارفه في هذه اللغات حدّ الكمال، وقد اتسع مجال اهتماماته ليشمل العربية والفارسية والغجرية ثم اللغات اليابانية والصينية والتاميلية التي راح يدرسها تحت إشراف بريال في باريس. ولم يترك اللغات التوركية جانباً - بل إن هذه اللغات بدأت تثير اهتمامه بقوة متعاظمة.

وعلى الرغم من أن تومسين قد حقق الشهرة لاسمه وهو في سن الفتوة، فإنه ظل يعمل بداية من سنة 1870 عندما عاد إلى الوطن وحتى سنة 1878 مدرساً للاتينية واليونانية، ثم اخذ يشغل وحتى سنة 1887، منصباً رفيعاً ولكن ضمن الإدارة المدرسية. وفي سنة 1887 أصبح أستاذا في قسم اللغات المقارن في جامعة كوبنهاغن ولم يخلع مسوح الأستاذية حتى سنة 1913.

وعندما أصدر تومسين سنة 1877 دراسته التاريخية حول علاقات روسيا القديمة بإسكندنافيا وأصل الدولة الروسية، كان أكثر ما يشغل اهتمامه القضايا المرتبطة باكتشاف الآثار الكتابية في سيبيريا الجنوبية - وهي الآثار الينيسية وغيرها مما عثر عليه في منغوليا وحوض الأورخون، والقضية أن هذه الآثار كانت تتجاوب بصورة لا مثيل لها مع ميوله واهتماماته في موضوع تاريخ اللغة والثقافة.

وبما أنه قد تم التعرف وبصورة لا بأس بها من السرعة على أن الرموز المجهولة المستحضرة من ينيسي وأورخون - تمثل شكلين للكتابة «السيبيرية» الواحدة (كما كانوا يسمونها آنذاك بل وما زالت تسمى عند بعضهم حتى الآن) فإن تومسين قد ركز اهتمامه على أكبر النقوش الكتابية حجماً وأشدها اكتمالاً والتي تَعِدُ أكثر من غيرها بنجاح كامل في العمل. وكانت النقوش الضرائحية الأورخونية لكيول - تيغين وبيلغي من ذلك الطراز. أما التصوّرات التي وضعها تومسين إبان دراسته لتلك الرونات السيبيرية فإنها تذكرنا في كثير من وجوهها بالمراحل الابتدائية لغيرها من القراءات الناجحة.

فأول ما قام به هو أنه حدّد اتجاه الكتابة (وهو ما بدأ به غروتيفيند) وأوضح بذلك القضية المتعلقة بطريقة قراءة المدونة. وكان ف. رادلوف، ناشر النقوش الكتابية بنفسه قد ارتكب خطأً في ذلك. واستطاع تومسين، عن طريق المقارنة المنطقية المقنعة بين قطع كاملة من النص وأسطر منفصلة منه، البرهنةَ على أن قراءة الكتابة يجب أن تتجه لا من اليسار نحو اليمين على نحو ما نجد في المنغولية مثلا (حسبما افترض رادلوف)، بل من اليمين نحو اليسار حسبما تقرأ الأسطر العمودية من الكتابة الصينية.

وتمثلت الخطوة التالية في حساب «الحروف» فكانت النتيجة عدداً طريفاً هو - 38. وقد حدد ذلك بوضوح مكان هذا النظام الكتابي وهو مكان وسط بين الكتابة الأبجدية البحتة والكتابة المقطعية. فلنتذكر أن الكتابات المقطعية التي دار الحديث حولها حتى الآن كانت تتضمن كقاعدة عامة 50 رمزاً على الأقل بينما لم تزد رموز الأبجديات عن - 30 رمزاً. ومن ذلك توصل تومسين إلى نتيجة ذات أهمية كبرى: أننا، حسب أقرب الفرضيات نتعامل مع كتابة أبجدية تتبدل هيئات بعض رموزها الخاصة بهذا اللفظ أو ذاك وفقاً لبعض المنطلقات المحدّدة - أي وفقاً للصوت الذي يسبق ذلك الرمز أو يأتي بعده. وبعد أن درس تومسين المظهر الخارجي للكتابة أجرى تلك الدراسة التي كان من شأنها أن تظهر أن هذه أو تلك من السواكن تغير هيئاتها تحت تأثير ما يسبقها أو ما يليها.

وفي أساس تلك الدراسة كان يكمن تصوّر في غاية البساطة، فقد قال تومسين لنفسه: إن من بين سلسلة الرموز س ع س وبكلمة أخرى - من مجموعة الرموز التي يفصل فيها بين رمزين متكافئين برمز ثالث مختلف لا بد أن يكون س ساكن ويكون ع على عكسه صوتياً أو يكون ع ساكناً فيكون س صوتياً. وانطلاقاً من ذلك أجرى دراسة شاملة لأمثال هذه السلاسل من الرموز وتوصل في هذا الطريق إلى أول أهدافه. فميّز الصوتيات في رموز ᛏ. < و N. والحق أنه لم يتم تحديد كل شيء بالصورة الصحيحة ففي البداية فهم < ، وهو

o/ú على أنه *ü/ ö* وفهم الـ *ü/ ö* أي 𐰇 على أنه *ä*. وبصورة صحيحة فهم على الفور 𐰃 على أنه *i* إلا أنه كان عليه أن يتخلص من سلسلة من الأخطاء قبل أن يتوصل إلى تمييز الصوتي الرابع *a/ä* في رمز 𐰀.

ولكن لم تكن هناك بعد البراهين القاطعة بصحة النتائج، والشكوك المتعلقة بنقاء المعادلات التي تم وضعها - وهي شكوك ذات أساس بلا شك - لم تتخل عن ذلك العالم.

ولكي يتوصل تومسين إلى مثل هذه البراهين لجأ إلى الطرق الأثيرة والمجربة التي طالما استخدمت خلال جميع قراءات الرموز، فشرع بالبحث عن أسماء الأعلام وبخاصة منها تلك التي كان مصادقاً عليها، ولو عبْر الأداء الصيني، بنقوش كتابية صينية فوق النصب.

وكان لا بد من توقع أن تتخذ أسماء الأعلام هيئات مجموعات مقفلة من الرموز (أما بالنسبة للفاصل بين الكلمات المتخذ هيئة النقطتين فقد لفت إليه النظر مكتشفو النصين أنفسهم) فلا بد أن يلتقي بها في النص بصورة أكثر تردداً أو أن تكون أُبرزت بطريقة أخرى وفقاً لتوضعها في النص مثلاً - في بداية المقطع الجديد.

ولم يكن على العالم الدانمركي أن يشغل نفسه طويلاً في التمحيص فأول ما استرعى انتباهه مجموعة 𐱅𐰭𐰼𐰃 التي كثيراً ما كانت تظهر في كلا النقشين الكتابيين الأرخونيين. أما نقطة الانطلاق للبحث فكان الرمز الأخير، الرابع، في مجموعة الرموز (وهو الأخير إلى اليسار إذ إن اتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار) وهو 𐰃 وكان تومسين على ثقة من أن دلالته اللفظية هي *i*. أما كثرة التردد التي تلاحظ بالنسبة لهذه المجموعة من الرموز، ومكانها واحتواؤها على الصوت الأخير، فدفعت بتومسين نحو خطوة جريئة إلى حد ما. فاستنتج بأنه أمام نعت يستخدم لتبجيل اللقب الأميري أي أمام كلمة مألوفة بالنسبة للغة المنغولية وجميع اللهجات الغوريّة وهي تعني «سماء» أو «إله». وإلى جانب ذلك فإنه على أساس من جميع التصورات والاستنتاجات السابقة والتي تم التوصل إليها بمناسبة دراسة عدد رموز الأبجدية سمح بالافتراض بأن بالإمكان أن يكون الصوتي قد أهمل لفظه فاستُبعد. فطابق انطلاقاً من هذه النقطة بين مجموعة 𐱅𐰭𐰼𐰃 و *i -r-ng-ä t* أي مع كلمة *tä ngri* (على نحو ما يجب أن تقرأ به، وهي «سماء» أو «إله»).

كان يمكن قبول هذا التطابق في البداية على أنه فرضية ليس أكثر، وتواصل البحث عن أسماء أعلام جديدة. وقد استرعت اهتمام تومسين بشكل خاص مجموعة أخرى من الرموز هي 𐰚𐰇𐰠𐱅𐰃𐰏𐰤 فقد ترددت عدة مرات فوق الحجر الأول لكنها اختفت بصورة تامة من الحجر الثاني. لماذا يا ترى؟ لم يكن هناك غير قرار واحد: هو أن تكون تلك

المجموعة محتوية اسم الأمير الذي رفع ذلك النصب تخليداً له. ولقد ذكرنا أن اسم ذلك الأمير كان في النص الصيني كوي - تي - غين أما في القسم الثاني من الاسم فكانوا قد تعرفوا منذ وقت سابق على «تيغين» التيوركية أي «أمير» أما القسم الأول فقد حاول شليغل، العالم الهولندي المتخصص في اللغة الصينية، ومجموعة كاملة جاءت بعده من الباحثين، أن يفسّروه على غير أساس وبمختلف الوسائل، أما تومسين فتطرق للموضوع بطريقة جديدة. فقد وضع في اعتباره أن اللغة الصينية لا تعرف بين أصواتها المقطعية الختامية صوت *L* فهي تهملهه بكل بساطة أثناء كتابتها الكلمات الأجنبية، فقارن مجموعة 𐰚𐰇𐰠𐱅𐰃𐰏𐰤 بكاملها مع كلمة *Kü l-tegin* «الأمير كيول» وقد تأكدت هذه القراءة ليس فقط من جانب التقاليد الصينية بل وأيضاً من جانب رمزي 𐱅 (وهو *t* أمام أو بعد صوتيات *ü , ö , ä , I , e* و 𐰃 (وهو *i* و *j*) الذين كان قد اكتشفهما في كلمة *tä ngri*. وإن تلك النتيجة نفسها والناجمة عن انعدام *L* المقطعية الختامية في اللغة الصينية أفضت إلى تحديد المجموعة الأكثر وروداً من الرموز في الحجر الثاني فاتفقت بي - كيا الصينية مع 𐰋𐰃𐰠𐰏𐰀 «بيلغي»، «الحكيم».

اكتسبت استنتاجات تومسين مستوى عالياً من قوة الإقناع لكن بقيت هناك بعض المطاعن، فـ *tä ngri* أقيمت بالطريقة التركيبية كما أن الاسمين كانا يقومان على أساس المقارنة بالصيغ الصينية. ولكن هاهي ذي مجموعة رابعة من الرموز التي تَرْفع العالِم على الفور فوق كل الشكوك؛ لقد كانت كلمة 𐱅𐰇𐰼𐰜 الكثيرة الورود فوق كلا النصين الأرخونيين. وقد كان تومسين يعرف مسبقاً ثلاثة رموز من بين الأربعة التي تكون تلك الكلمة - بل ونحن نعرفها الآن فهي رموز (ونقرأ من اليمين إلى اليسار) 𐱅= *t* (من *tä ngri* و (من *kul - tegin*) 𐰇 = *ü* (من *kul-Tegin*) و 𐰼 = *r* (من *tangri*) ولكن يعني هذا أن الكلمة تقرأ *t-ü -r*؟ ولكن ما كان يمكن لهذه الكلمة أن تعني إلا كلمة «تورْك»! وبذلك تم التوصل إلى الرمز التالي وهو 𐰜، ولكن حتى هذا ليس بالشيء الأهم. الأهم هو أن لغة المدونات قد حدّدت وتم التعرف عليها بتطابق كامل مع متطلبات المنطلقات التاريخية المسبقة التي أكدتها أسماء الأعلام في النص الصيني: إنها لغة الشعب الذي كان الصينيون يطلقون عليها اسم تو - كوي، اللهجة التيوركية الصِّرْفة، والأقدم عهداً من جميع اللغات التوركية التي كانت معروفة حتى ذلك الحين!

وحتى ذلك الوقت كان قد تم التعرف على ما لا يقل عن تسعة رموز وتحديدها. وكان ويلهيم تومسين العالم المرموق في اللهجات التيوركية مستعداً كل الاستعداد لكي يقوم، بينما هو يزيح من أمامه جميع الحسابات التافهة الكثيرة العدد ودون صعوبات تذكر،

بتضمين المعاني التي تم التحصل عليها في كلمات أخرى وأن يعيد الأبجدية كلها خطوة بعد خطوة، منتزعاً إياها من مخالب النسيان المتشددة. وقد تَوَّجَ أعماله بعد ثلاث سنوات بدراسة «النقوش الكتابية الأورخونية المقروءة» (*«Insriptions de l'Orchon dechiffrees»*) غيلسينغفورس، 1896) حيث وضع في أيدي العلماء لا الأبجدية فقط بل وترجمة للنقوش كاملة ومعززة بالتعليقات.

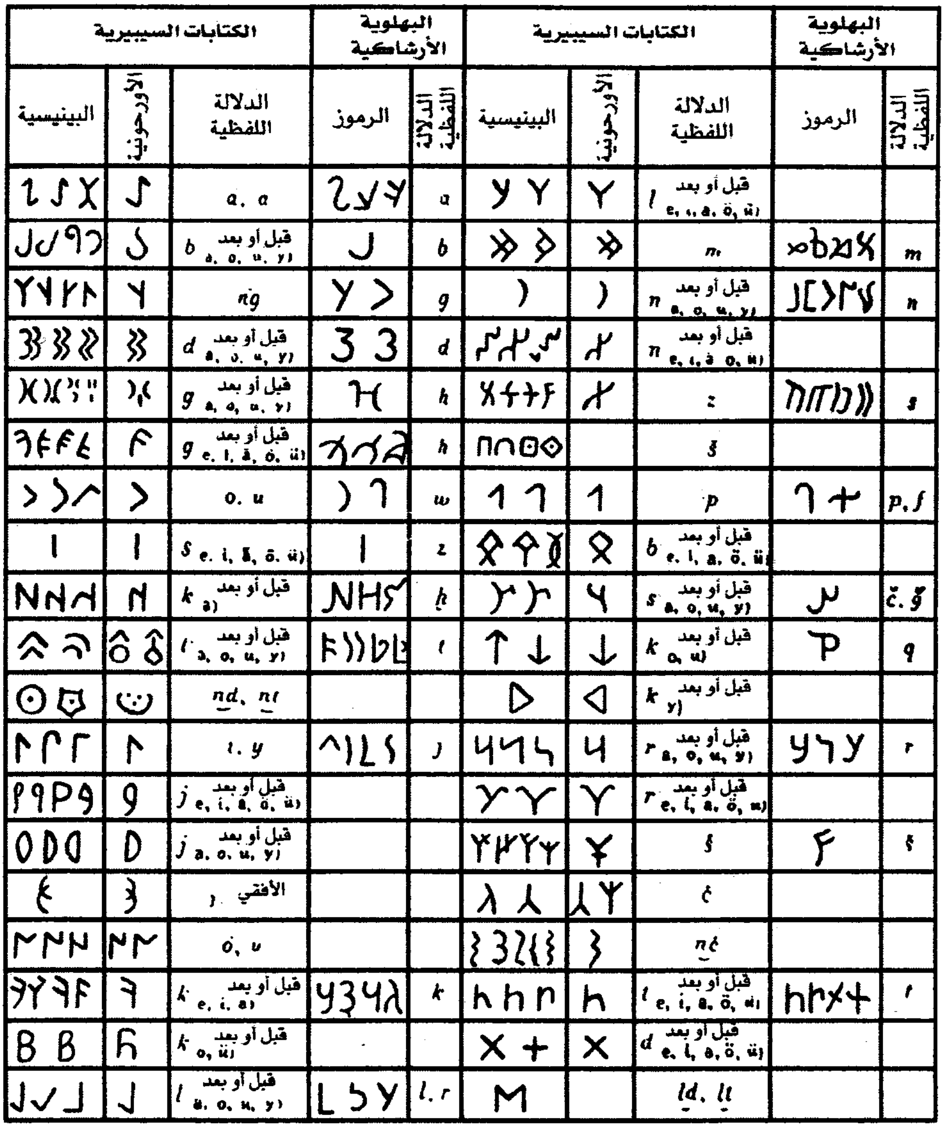

الشكل -87- الأبجدية الرونية لقدماء التيورك

تم النظر إلى ذلك الكشف اللامع من وجهة نظر تاريخ الكتبة على أنه مفتاح بالغ الأهمية بالنسبة لفهم تاريخ آسيا الوسطى بطوله. وقد اعتمدت هذه النظرة على الواقع الذي كان سابقاً، والقائل بأن الكتابة من حيث مصدرها نسيبة للكتابة البهلوية الارشاكيدية (الفارسية الوسطى) التي تنطلق بدورها من الكتابة الآرامية. ومثل هذا التطور حافل بالعبر بالنسبة لفهم تاريخ الثقافة، إذ إن الرأي الذي كان دارجاً في السابق كان يقول بأن مصادر هذه الكتابة تعود إلى فترة النشاط التبشيري للمانيين. أما فيما يخص علم اللغات فإنه مدين لتومسين قبل كل شيء بالتوسع المفاجئ في معارفه، إذ إن الكتابة التي أعيد اكتشافها بما فيها من غنى في تلون رموزها (الـ 138) كانت أقدر إلى حد كبير على أداء الألفاظ الصوتية للغة التيوركية القديمة من الكتابة الأويغورية ذات الحروف الـ 20 والتي زحمت كتابة قدماء التيورك بصورة نهائية سنة 800 م.

ونحن حتى في يومنا هذا لا يمكن أن ننظر نظرة لا مبالاة إلى لغة الآثار التيوركية القديمة وسواء اتجه الملك بيلغي - خاقان باستعلاء نحو شعبه أم راح يكابد لواعج الحزن بسبب موت شقيقه، سواء أتعاظم الشيخ الوجيه تونيوكوك بما لديه من جاه والذي لم يدخر وسعاً في أن يسجل على شاهد قبره أحجام تلك الكوارث الرهيبة التي كانت ستنزل بشعب التيورك لو لم يكن هو، تونيوكوك الحكيم، موجوداً في هذا العالم - فإن جميع هذه الأقوال قريبة إلى نفوسنا على الرغم من أنها تعود إلى ذلك الزمن الذي لم يكن فيه الشعب التيوركي يعرف الديانة السماوية.

لقد هتف توركسانف ذات يوم برسل بيزنطة قائلاً: «تخضع لي الأرض بطولها». وبهذه اللغة نفسها تحدث بيلغي - خاقان بعد مرور 160 عاماً فقال:

«أنا خاقان التيورك، الشبيه بالسماء، وابن السماء قد تسنّمت الآن [العرش] فأصغوا إلى خطابي [أنتم] أيها السائرون بقيادتي، أنسبائي الفتيان والشبان [وأنتم] أيتها القبائل والشعوب المتحالفة معي...

عندما خُلقت هناك في الأعالي السماء الزرقاء [و] وفي الأسفل الأرض المظلمة خلق [بينهما] أبناء البشر. وعلى أبناء البشر نصّب جداي بومين - خاقان وايستيمي - خاقان فلما جلسا [على العرش] دعّما اتحاد القبائل وتكوّن الشعب التيوركي. كانت أركان [العالم] الأربعة أعداء [لهما]؟ فزحفا بجيشهما وأخضعا جميع الشعوب التي تعيش في الأركان الأربعة وأرغماها جميعاً على التسليم. وأرغما كل ذي هامة على أن يحني [هامته] وكل ذي ركبتين على الركوع بركبتيه...

أخي الأصغر كيول تيغين توفي فغمرتني الأحزان، فكأن عيناي المبصرتان كفتا، وكأن ذهني المفكر تبلد [أما] أنا فاستسلمت للأحزان. الأعمار تقررها السماء [ولكن مهما يكن] فإن أبناء البشر جميعاً ولدوا لكي يموتوا»[1].

«أنا الحكيم تيونيوكوك تلقيت تربيتي بتأثير من آداب شعب تابغاتش [حيث إن جميع] الشعب التيوركي كان خاضعاً لدولة تابغاتش.. فلتكن السماء رحيمة: إنني إلى شعب [ي] التيوركي لم أوجه الجيوش المسلحة [جيداً] ولم أرسل الخيالة المدججة بالسلاح. ولو أن ايلتيريش - خاقان لم يحاول أن يمتلك ولو أنني [على أثره] لم أحاول أن أمتلك لما وُجدت الحكومة ولا الشعب... أما أنا فقد طعنت في السن وارتقيت. ولو كان الخاقان في أرض من الأراضي الخاضعة للخاقانات [واحداً] من الكسالى فما أشد مصيبة [لذلك الشعب].

أنا تيونيوكوكك الحكيم، أمرت بنقش [هذا] من أجل شعب بيلغي - خاقان التيوركي»[2].

وقد كان لتاريخ الرونات التيوركية القديمة تكملة مفاجئة لا تخضع حتى الآن لتفسير مقبول ولا تزال المساجلات العلمية الكثيرة العدد تدور حولها.

فمنذ ما يربو عن الـ 50 سنة صعقت الأوساط العلمية بفعل كشف المستشرق فيورتسبورغي (الميونخيني فيما بعد) فرانس بابينغر. ويرتبط هذا الاكتشاف مخطوط عثر عليه في الأرشيف العائلي والإداري لأمراء ولوردات فوغّير في اوغسبورغ: أما المخطوطة فكانت تمثل وصفاً رحلة قام بها هانس ديرنشفام الغراديتشيني، الوكيل التجاري للفوغير خلال سنوات 1553-1555، وقد تم التوصل إلى أن مؤلف المخطوطة بوهيمي من مدينة موستا وأنه تعلم في فيينا ولايبزيغ وأنه بقي على ذلك وعلى مدار 35 عاماً مدير المناجم الفوغيرية في بانسكا بيستريتسا. وقد دخل ديرنشفام هذا في عداد السفارة الشهيرة التي وجهها فرديناند الأول إلى قصر السلطان سليمان الأول، تلك السفارة التي ترأسها فيما بعد اوجي جيسلان دي بوسبيك، وهو نفس ذلك البوسبيك الذي اكتشف لأوروبا ذلك الأثر الأدبي الشهير «*Monumentum Ancyranum*»، الذي كان يتضمن إخبارية عن أعمال الإمبراطور أوغسطس. وقد راح ديرنشفام، طالب جامعة فيينا وخريج جامعة لايبزيغ، ينحو بكل غيرة منحى رئيسه، فاستطاع أن يجمع ويستنسخ عدداً لا بأس به من المدونات اليونانية واللاتينية الثمينة، التي

1- С.Е.Малов, Памятники древнетюркской письменности.Тексты и исследования. М.-Л., 1951.

2- المصدر السابق ص 64، 69-70.

لولاه لراحت ضحية الضياع حسب أقرب الاحتمالات، وفي نهاية المخطوطة المذكورة أعلاه يقدم ديرنشفام بكل موضوعية عدداً من النقوش الكتابية الرومانية واليونانية التي استنسخها في استامبول. إلا أن الشيء الأساسي الذي استأثر باهتمام بابينغير، الذي اكتشف هذه الآثار ثانية، من أجل العلم كان نقشاً منقولاً ذا مظهر غير طبيعي تماماً، ضاع بين النقوش الكتابية الرومانية، ويؤكد ديرنشفام أنه قدر له استنساخه من جدار الإسطبل الذي كان تابعاً لبيت السفراء في استامبول وهو ما يسمى بـ «خان السفراء» «الذي سمي فيما بعد بتسمية جديدة هي «خاني تاتار». وكان ذلك المبنى في بداية عهده مجرد سرايا للقوافل كان سلطان التيورك المطلق في العهود السابقة يؤوي فيها سفراء كافة الدول الأوروبية آمراً بالتحفظ عليهم كأسرى. وقد عاش بوسبيك أيضاً في ذلك المبنى؛ الذي أزيح من مكانه في القرن التاسع عشر بعد حريق. وبعد أن فرغ ديرنشفام من وصف ذلك «الخان الصغير» واصل حديثه قائلاً: «والكتابات المعروضة بعد كل هذا قد نسخت من قبلي عن حجر مرمري وقد ضرب هذا الحجر في جدار الإسطبل ويمكن أن يقرأ بصورة جيدة جداً»[1].

ولم يستطع فرانس بابينغير بأيّ صورة من الصور أن يفهم الكيفية التي وصلت بها هذه الكتابات - الرونية إلى استامبول، وأرسل صورة فوتوغرافية منها إلى قارئ الرموز الأشهر ويلهيلم تومسين في كوبنهاغن. وتعرف تومسين بدوره في النسخة على ما يسمى بالكتابة الهونية - الصقلبية باللغة المجرية. وتسنى له أن يميز بعض المفردات والمعنى التقريبي العام للمدونة أما بابينغير فإنه أنجز بالتعاون مع الباحث المجري إ. شيبيستين فك رموز المدونة وقراءتها. ونصّها يلقي ضوءاً ساطعاً على حدث تاريخي معروف بصورة جيدة من المحفوظات المجرية القديمة ويرتبط بمصير السفارة التي كان الملك البوهيمي لاديسلاف الثاني الذي كان بين 1490 و 1516 حاكماً على المجر أيضاً، قد أرسلها إلى بلاط السلطان سليم الأول (1512-1520). وقد كان على هذه السفارة، المكونة من خمسة أشخاص برئاسة بارانابا من بيل، أن تنفق مدة عامين على ساحل القرن الذهبي في المداولات الكلامية أما «كتابات الكفار» غيور يازيجي، التي نسخت من الحجر المضروب في جدار أحد إسطبلات العاصمة السلطانية فلم تكن سوى صرخة استغاثة صعّدها أولئك الذين كانوا من الناحية الواقعية أسرى في «خان السفراء» وهم رسل ملك بوهيميا والمجر!

1- F. Babinger, Eine neuentdeckte ungarische Kerbschrift aus konstantinopel vom Jahre 1515, - Ungarische Rundschau für historische und soziale Wissenschaften , III Jg., 1914, S. 44.

وقد وجد هذا النص الذي نقح ودوّن كتابياً وترجم من قبل ف. بابينغير[1] مكاناً في كتابنا (الشكل 88) وان أنظار القارئ الشديد الملاحظة لا بد وأن تتوقف أمام حقيقة كون الصوتي *e* في هذا النص أيضاً قد أسقط وأهمل على نحو ما هو الأمر في الكتابة التيوركية القديمة.

إن مدونة استامبول التي نسخها ديرنشفام لم تكن؛ بالمناسبة، الأثر الوحيد المعروف من آثار الكتابة الرونية التيوركية القديمة، التي تثوي الحزوز والتشريطات في أساس كتابتها. فهناك عدد كبير من أمثال هذه الآثار الكتابية معروف الآن على مدار مئات السنين وقد عثر على أقدمها في سنة 1501 في تشيكسينتميكلوشي. والحق أن إخبارية الملك لاديسلاف تتميز عن جميع الوثائق الأخرى بكونها مكتوبة من اليسار نحو اليمين بينما كتبت جميع المدونات الأخرى - من اليمين نحو اليسار. وعندما قام المؤرخ المجري تيليغدي سنة 1598 بكتابة دراسته عن لغة الهون (*«Rudimenta priscae hunnorum linguae...»*) رأى من الضروري أن يقول كلمته حول تلك الرموز دون موارية فقال بأنها كتابة قدماء الهون. وهذا الرأي ليس خاطئاً كما يمكن أن يتراءى للوهلة الأولى. والقضية أن جميع البقايا المعروفة لهذه الكتابة تنطلق من منطقة واحدة وهي - بلاد السيكيل في سيميغراد أما السيكيل فقد عدّوا أنفسهم منذ عهد بعيد (بل ويعدّونها حتى الآن) الأحفاد الحقيقيين للهون.

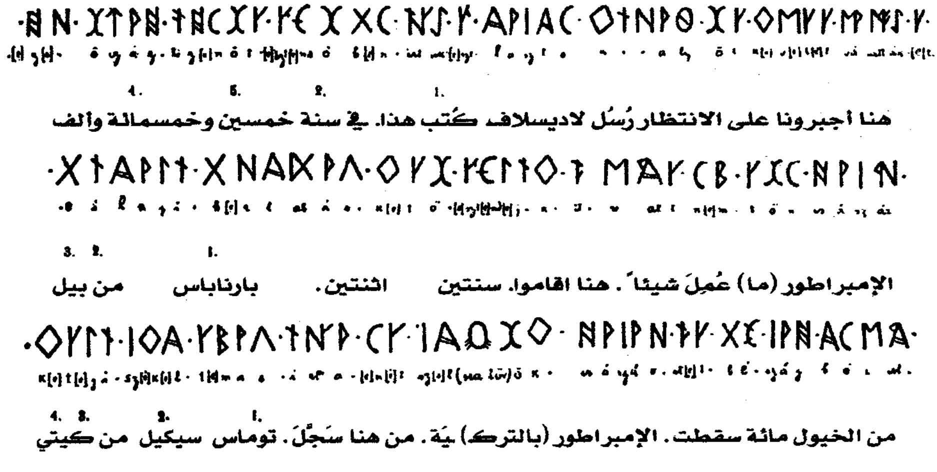

الشكل -88- المدونة الرونية باللغة المجرية القديمة من استامبول

وعندما تبيّن أن الرونات السيكيلية (التي لم يتفهمها ديرنشفام رغم إقامته 50 سنة في البلاد فأسماها بالمجهولة تماماً) تعود بمصدرها دون أدنى شك إلى الرونات التيوركية

1- Ibid., s. 51.

القديمة، كان طبيعياً أن يكون ذلك ضربة قوية للمشاعر الوطنية الهونية - المجرية الشديدة الاحتدام لدى سكان ترانسيلفانيا الأماجيد!

تم إثبات التشابه بين الكتابتين سنة 1890 بواسطة الآثار الأقدم عهداً وكان جارحاً إلى درجة أنه لم يترك مجالاً للمناقشات.

هناك على الأقل أربعة حروف (حسبما يظهره الجدول المقارن) قد صدرت من الكتابة اليونانية واثنان من الأبجدية السلافية القديمة، الغلاغوليتسا.

بيد أن ذلك الوضع، الذي يبدو واضحاً للوهلة الأولى، بقي في واقعه غامضاً إلى حد كبير. والحق أن وجود الحرفين السلافيين القديمين يمكن أن يفسر بتأثير الجيران السلافيين، أما استخدام الرموز اليونانية فلا يزيد على أن يبرهن على أن النظام الأولي للأحرف قد تكامل في أوروبا الشرقية على حساب الثقافة اليونانية، وهذا كله لا يستدعي صعوبات خاصة. ولكن ها هي تلك الرموز التي ينعدم أي مثيل لها تجبرنا على التفكير ملياً. أما المشكلة الأساسية التي لم تحل بصورة مرضية فتشكل في الوحدة التسلسلية فجوة حدثت بين المدونات التيوركية القديمة العائدة إلى القرن الثامن وبين الرونات السيكلية التي ظهرت للمرة الأولى في بداية القرن السادس عشر. وقد جرت محاولة لتفسير الكتابة المجرية القديمة بالحزوز على أنها كتابة السيكيل القديمة التي ظلت محروسة بكل غيرة كي لا تتسرب فتصبح في متناول الفئات العريضة من الناس. ولكن من الصعب أن نفترض أنه قد تسنى للسيكيل وعلى مدار مئات كاملة من السنين أن يحتفظوا، وبهذه الصورة الرائعة، بكتابتهم سراً.

هنالك شيء واحد ثابت وهو أن الحديث لا يمكن أن يتناول هنا كتابة الملك اتيلا وقطعانه البشرية وهو ما لا يؤكده أي واحد الآن بصفة جدية. إلا أن هناك نظريتين لا يمكن اعتبارهما بمنأى عن الطعن، تقول إحداهما بأن السيكيل - أحفاد الخزر التيورك الذين أخضعهم المادياريون (المجر) في القرن التاسع أي في تلك المرحلة الحرجة التي كان من الممكن خلالها تقبل الكتابة العائدة إلى الآثار الأورخونية (القرن الثامن!) وتتجسد الفرضية الأخرى بالاتجاه الذي يقف على رأسه العالم المجري ب. مونكاتشي؛ ويقول أنصارها بأن الوسطاء بين قدماء التيورك وقدماء المجريين كانوا هم الكومان وهم أقرب جيران السيكيل خلال القرنين الثاني عشر - الثالث عشر. وينحدر هذا الشعب من الأوغوز الذين كثيراً ما يرد ذكرهم بدورهم في المدونات التيوركية القديمة إما كخاضعين للخاقان أو كأعداء له، وبناء على هذه المدونات كان الأوغوز منقسمين إلى قبائل «الأوغوز التسعة» و «الأوغوز الستة» و «الأوغوز الثلاثة».

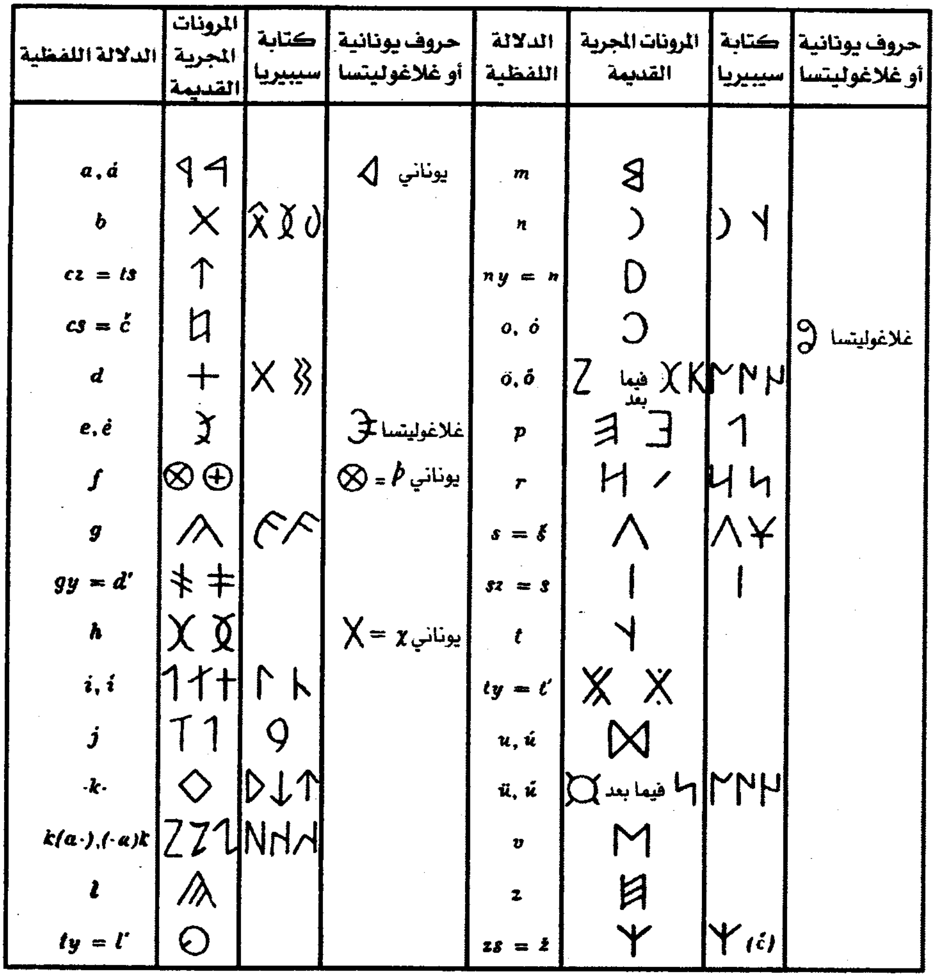

الشكل -89- الرموز الرونية في الكتابة المجرية القديمة بالمقارنة مع الرونات التيوركية القديمة ومع الحروف اليونانية والغلاغوليتسا.

وعلى أيّ حال فإن الكشوفات في ميدان تاريخ الكتابة والتي تمت نتيجة المآثر العلمية التي قام بها قراء الرموز من أمثال مأثرة العبقري ويلهيلم تومسين تظهر لنا، نحن الأوروبيين، العلاقات والروابط التاريخية التي كانت حتى الآن مجهولة بصورة تامة. وهذه الكشوفات لا تزال تشد فقط تلك الخطوط الغامضة التي تربط الشرق بالغرب وتلاحق تلك التيارات تحت المائية العميقة في الحياة المشتركة للشعوب التي تلعب هنا وهناك دوراً غير ملحوظ لكنه مهم - وهي تلعبه الآن وقد لعبته في تلك الأيام التي قام خلالها بومين - خاقان وايستيمي خاقان «باخضاع شعوب الأركان الأربعة القائمة بين السماء الزرقاء في الأعلى والأرض المظلمة في الأسفل...»

الفصل العاشر

قراءة الكتابات القديمة غداً

كتابة الإيتروسكيين ووادي الهندوس وجزيرة الصيام

ما أقل ما يحتاج إليه الناس الكلمات. فالمعاني
التي تتضمنها يتقبلونها دون تفكير.

غوته، فاوست.

تكاد تلك المشكلة الطافية على السطح من قاع
نهر الهندوس أن تكون بلا أمل وذلك على
الأقل من حيث قراءتها.

بيرو ميريدجي[1]

ورفعوا الصلوات إلى الإله رانغيتيا.

منقوشة على لوحة من جزيرة الصيام

لترجمة عن توماس بارتيلمّيو

نوّد، ونحن نختتم هذه الدراسة الموجزة للأحداث المهمة في تاريخ مملكة «الرموز والمعجزات» أن نُعرف القارئ بكبريات المشكلات التي لا تزال حتى يومنا هذا ممتنعة بهذه الصورة أو تلك على الدراسة. واثنتان منها - وهما الإيتروسكية ومشكلة قراءة كتابة جزيرة الصيام - قلعتان منيعتان وإن كانت بعض الثغرات قد أحدثت في جدرانهما وقد استسلمت مواقعهما المتقدمة وسقطت أبراجهما الخارجية ومع ذلك فإنهما لا تنويان التسليم. أما المشكلة الثالثة فهي مشكلة كتابة حوض نهر الإند - وهي لا تزال قلعة صامدة استطاعت أن تصد الهجمات المنفردة مثلما نجحت في صد الهجوم المشترك لجميع محاصريها. ولا تزال هذه

1- P. Meriggi, Zur Indusschrift, - Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, Bd 87 (N. F. Bd 12), 1934, S. 198.

المشكلات أحجيات وتبدو كمتاهات متداخلة لا أمل في حلها إلا أنها ستحل غداً وبذلك تثري معالم البشر عن بني البشر وتزيدها عمقاً.

وهناك واحدة من هذه الأحجيات تمتاز عن غيرها بكونها استطاعت أن تقاوم بعناد جميع محاولات القراءة واحتفظت بسرّها على الرغم من أنها ما زالت وعلى مدار أكثر من ألفين وخمسمئة سنة تغفو في شغاف قلب الحضارة القديمة. إنها أحجية «الأحاجي الإيطالية» - لغة الإيتروسكيين. ونقصد بالحديث اللغة الإيتروسكية بالذات وليس الكتابة فالكتابة نعرفها ونعرفها منذ زمن بعيد جداً. والحق إن رموز كتابة هذا الشعب المتحضر القديم الذي اقتبس عنه الكثير، وبلا حدود، جيرانُه الأقربون الرومان (ولعلهم اقتبسوا أكثر مما هو معروف بالنسبة لنا) قد انتزعت من مخالب النسيان العاتية في عصر اليقظة. ومنذ ذلك الوقت أخذ العلم ينتزع خطوة بعد خطوة رموزاً جديدة بعد رموز إلى أن تمكن ريتشارد ليبسيوس من تكملة الأبجدية التي تم التحصل عليها بواحد من أهم الأحرف وآخرها. وبذلك كانت عملية قراءة الرموز قد امتدت على مدى مئات السنين!

كانت الدفعة الأولى نحو الطرح العلمي للموضوع المتعلق بالكتابة الإيطالية القديمة هو أحد الكشوفات التي تمت سنة 1444. ففي ذلك العام وبصورة عرضية تماماً اكتشف في غوبيّو، وهي ايغوفيا القديمة التي كانت قائمة في اومبريا التي تضاهيها قدماً، وفي غور تحت الأرض، سبع لوحات برونزية نقشت بعض أجزائها من وجهيها؛ وفيما بعد أحضرت اللوحات لتحفظ في مبنى البلدية. وكان خمس منها يتضمن نقوشاً باللغة الأومبرية كتبت بالكتابة الاومبرية نفسها. وكانت رموز هذه الكتابة العامة بالنسبة لجميع الأبجديات الإيطالية القديمة الأخرى مدينة بوجودها لكتابة اليونان ولوساطة الإيتروسكيين الثقافية، وكانت تكشف أصولها بصورة كاملة. وكانت لغة المدونات تقترب بنسبها من اللاتينية. ومع ذلك فعلى الرغم من هذه المنطلقات في البحث ومن الوسائل المساعدة فإن قراءة رموز الكتابة الأومبرية وفوق ذلك تفسير تلك اللغة، واللذين لم يضمنا في حينهما لليبسيوس، ذي الاثنتين وعشرين سنة، قبعة الدكتور فقط بل وأمجاد القارئ الشهير للرموز، يبقيان مع كل ذلك مهمّة لم تحل بعد وذات أهمية من الدرجة الأولى.

وفي القرن الخامس عشر بل وبعد ذلك بزمن بعيد وبدراسة اللوحات الايغوفية انطلق العلماء من فرضية تجزم بأن ما أمامهم ليس أبجدية أومبرية بل كتابة الإيتروسكيين القديمة وهذا ما أحدث بالطبع ارتباكاً كبيراً في قراءة الرموز. وفي 1539 فقط تمكن تيزيو أمبروجو من بافيا وهو عالم مستشرق وكاتب كبير *(famoso autore)* من القيام بإسهام ملموس في دراسة اللغة الإيتروسكية. ففي دراسته الموحية بالاحترام والمكتوبة باللاتينية تحت عنوان: «مدخل إلى اللغات الخلدية والسريانية والأرمنية وعشر لغات أخرى» والتي صدرت قبل عام واحد من وفاة المؤلف كان

من بين ما طرحه فكرة ثمينة نثرت في طيات البحث ويمكنها أن تدفع إلى الأمام قضية حل مشكلة الكتابة واللغة الإيتروسكية، وهي تَطابُق رمز ε مع حرف *f* وقد رفضت هذه الفرضية فيما بعد وأدخلت غياهب النسيان ثم عادت لتعيش ميلادها الثاني. فبعد ما يقارب من 200 سنة ظهرت في فلورنسا دراسة «*Museum Etruscum*» لمؤلف اسمه انطون فرانتشيسكو غوري؛ وكانت تتضمن الأبجدية الإيتروسكية التي تم فيها تمييز 15 حرفاً والتعرف عليها بصورة صحيحة. وفي 1789 طابق الراهب لويدجي لانتسي بصورة صحيحة بين رمز *M* و *S* وذلك في كتابه المؤلف من ثلاثة مجلدات وبعد ما ينوف على الخمسين سنة استطاع ريتشارد ليبسيوس أن يبرهن على أن حرف *I*، المعروف من الصيغة الايتالية التي وصلتنا لاسم اوديسيوس لا يعني *x* بل *z*. ففي السابق كان هذا الاسم يقرأ خطأً وذلك انطلاقاً من صيغته اللاتينية *Uluxe*، فبرهن ليبسيوس على أن الاسم في هذه الكتابة التي يبدو الأصل اليوناني أقرب إليها، يلفظ كـ *Utuze* وفيما بعد، وبالاستناد على المعارف التي تم التوصل إليها والمتعلقة بالصيغ الأكثر قدماً لمختلف الأبجديات اليونانية تم التوصل إلى مطابقة ↓ بـ *x* اليونانية (*ch*) ثم الكشف أخيراً في المدونات عن الرمز الخاص بـ *q* (1880) والذي طالما طال انتظاره، وهكذا فرغ من قراءة رموز الكتابة الإيتروسكية وذلك على الأقل بالمعنى الحرفي للكلمة. ومنذ القرن التاسع عشر وبالخصوص خلال القرن العشرين لم تتبق غير مهمة تفسير تلك اللغة. لكننا، بالنسبة لتلك الجبهة من جبهات العلم، لا يمكننا الإشارة إلا إلى الهجمات المتفرقة وإلى إنجازات المخابرات العسكرية؛ أما المواقع الرئيسية للخصم فلا تزال مموهة بصورة جيدة ولا سبيل إلى القضاء عليها.

وتظهر الأبجدية الإيتروسكية مجموعة كاملة من السمات المميّزة. ولعل أكثرها وضوحاً رمز *f* = 8 المعروف بمعناه هذا في الأبجدية الليدية العائدة لآسيا الصغرى، وهذا واحد من الحجج التي تدعم النظرية القديمة المنسوبة إلى هيرودوت والقائلة بأن الإيتروسكيين نزحوا من آسيا الصغرى وأنهم ليسوا السكان الأصليين لإيطاليا. وقد كف الإيتروسكيون في كتابتهم عن استخدام الرموز القديمة X, O و 𐌅 (*ks,o* و *v*) أما الـ *h* فظلوا يكتبونها بصورتها القديمة 𐌇 وتختفي لديهم الرموز الخاصة بالصائتات الانفجارية *d, b* و *g* كما أن الكتابة تستخدم أحرف، Φ, ⊗ و ↓ (*ph, th* و *kh*) للتعبير أيضاً عن أصوات *p, t* و *k* - وأخيراً فإن اتجاه الكتابة (وهو في العادة من اليمين إلى اليسار) يشير إلى أن الأبجدية الإيتروسكية قد انحرفت عن البداية اليونانية منذ عهد مبكر لعله كان القرن الثامن قبل الميلاد أي في الفترة التي كانت الكتابات اليونانية تتجه في معظمها من اليمين إلى اليسار. فما هو السبب في كون الباحثين الذين بدؤوا بقراءة كل كلمة مكتوبة بالإيتروسكية ما زالوا يفهمون بصعوبة شديدة - والأصوب أنهم لا يفهمون تقريباً - هذه اللغة.

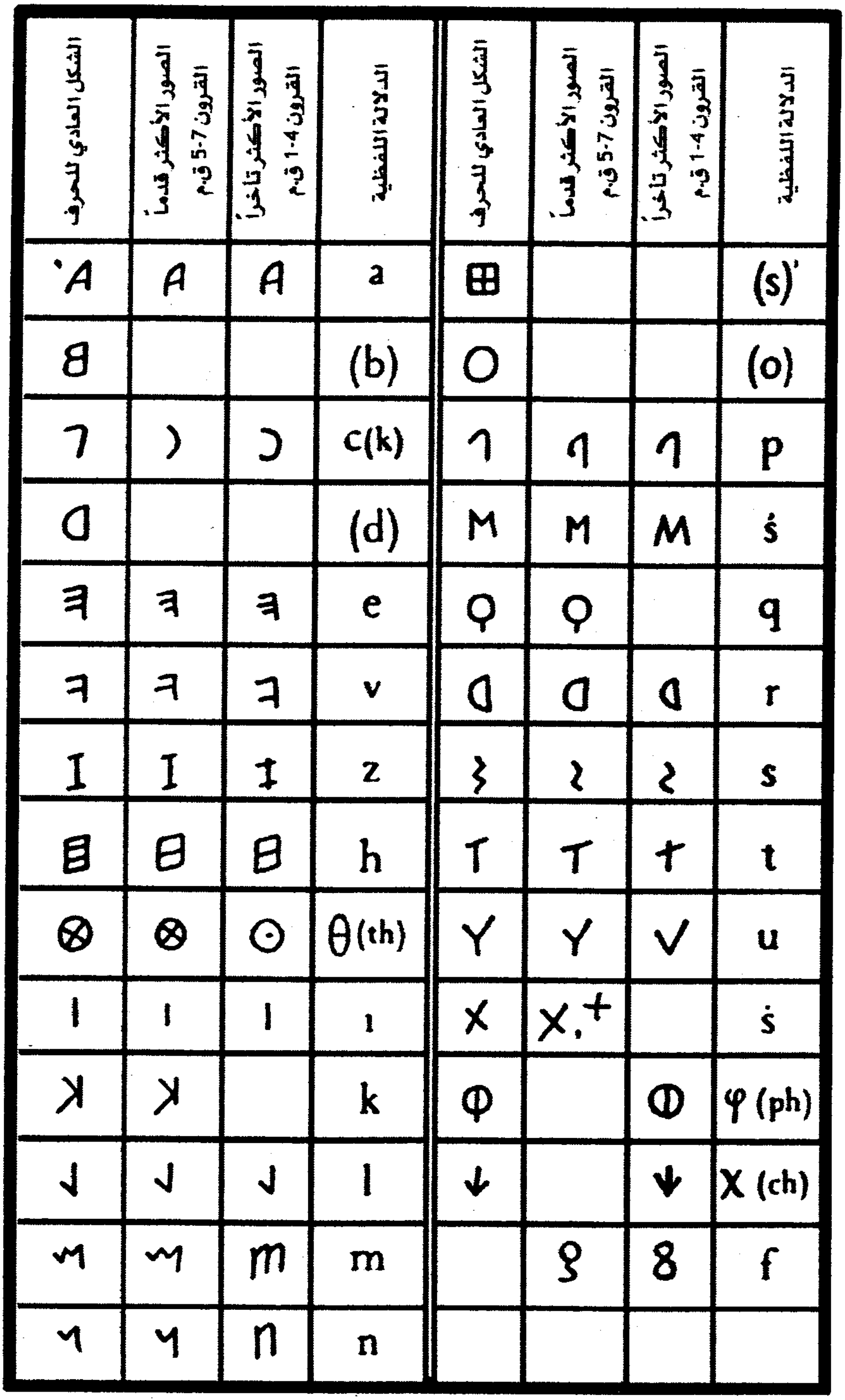

الشكل -90- الأبجدية الايتروسكية

هناك رأي واسع الانتشار يتهم في ذلك الكمية الزهيدة العدد من الآثار اللغوية التي تسنت دراستها. فلدينا 9000 نقش كتابي إيتروسكي وإن كان أربعة أخماسها يمثل نصوصاً لشواهد ضريحية قصيرة جداً لا تعطينا إلا أسماء الأعلام وبعض المصطلحات المتعلقة بالأنساب. أما بين الآثار الكبرى فعلينا أن نشير إلى اللوحة الطينية العائدة لسانتا ماريا دي كابوا وهي من القرن الخامس قبل الميلاد وتتضمن نحو 300 كلمة، ثم تلك المدونة (الأحدث عهداً) على الحجر وهي *(Cippus Perusinus)* المحفوظة في متحف مدينة بيروجيا والمتكونة مما يقارب الـ 120 كلمة، وتينك اللوحتين المتضمنتين اللعنات، وكعبي اللعب المتضمنتين أرقاماً من «واحد» إلى «ستة» وبالإضافة إلى اللوحة الرصاصية الطريفة من ماليانو (القرن السادس ق.م) والتي يشتمل نصها على 70 كلمة على الأقل متوضعة على هيئة لولبية؛ وأخيراً الكبد البرونزية الشهيرة التي كانت تستعمل، على ما هو واضح، «وسيلة إيضاحية» للمنجمين المبتدئين؛ وكثيراً ما يقارنونها بأشباهها من المواد العائدة للبابليين والحثيين. وهذه النقوش الكتابية منقوشة بمجموعها فوق الحجر، الفخار أو المعدن.

كما أن هناك مخطوطات، وهي في الحق مخطوطة واحدة إلا أنك لن تجد لها مثيلاً! وهي «الخرقة الزغربية» الشهيرة التي تكتسب أهمية كبرى ليس فقط بالنسبة للدراسات الإيتروسكية بل ولتاريخ الكتابة العام، إذ إنها النموذج الأوحد المتبقي للـ *liber ℓinteus* أي الكتاب المكتوب بخط اليد فوق قطعة من القماش. وكانت المخطوطة تتخذ في بادئ عهدها شكل اللفافة ثم قسموها بعد ذلك إلى شرائط واستخدموها لتقميط مومياء امرأة مصرية توفيت في القرن الأول قبل الميلاد على وجه التقريب؛ هذه المومياء العائدة لمصر الوسطى جرى تقديمها هدية إلى متحف زغرب من طرف رحالة كرواتي. وهناك «اكتشف» إ. كرالّ سنة 1872 هذه الكتابة على اللفافة. والنص الإيتروسكي المخطوط عليها والمتضمن ما يزيد عن 1500 كلمة - يعدّ أطول نص لدينا.

وهكذا يمكن القول إن لدينا ثروة كاملة وإن أكبر قطعة «ريعية» فيها هو النص المتضمن 1500 كلمة ويزيد، في حين فكت رموز كتابات كانت «مزاياها» أكثر تواضعاً من هذا بكثير - ولنتذكر على الأقل مدونة جبيل! بالإضافة إلى ذلك صورت «الخرقة الزغربية» سنة 1932 بالأشعة تحت الحمراء ويمكن الآن قراءة حتى تلك الأماكن الباهتة في المخطوطة النفيسة!

وهكذا فإن بين أيدي علماء الإيتروسكيات عدد معتبر من الآثار المخطوطة. إذن يمكن القول إن هناك، مع ذلك، عقبة تتحطم فوقها محاولات تفسير لغة الإيتروسكيين؟ بلى هناك مثل هذه العقبة وهي ليست وحيدة.

أولاً: جميع النصوص الكبيرة وحيدة اللغة. فالثنائيات اللغوية التي عادة ما «تقدم محصولاً وفيراً» في تاريخ فك الرموز لا تمثل هنا إلا في بعض المدونات اللاتينية - الإيتروسكية القصيرة أو البالغة القصر، فبالكاد يمكننا أن نجني من أغصانها المهيضة شيئاً غير أسماء الأعلام ومصطلحات الأنساب وألقاب المناصب والتواريخ وعبارة «توفي» أو «عند وفاته» التي تتردد بصورة دائمة. إن احتجاب النص اللاتيني - الإيتروسكي «الحافل بالثمار» والطويل بصورة كافية يعد واحداً من الأسباب الرئيسية التي تحول حتى الآن دون تقدم علم الإيتروسكيات نحو الأمام على الرغم من جميع محاولات الباحثين التصدي للنصوص وبخاصة «للخرقة الزغربية» معززين بكل أسلحة العلم.

ثانياً: استخدم حتى الآن وما يزال يستخدم منهجان رئيسيان في قراءة الرموز وهما المنهج التركيبي من ناحية، وهو الذي أكد نفسه في المرحلة المبتدئة من مجموعة كاملة من القراءات الناجحة، وهو أسلوب تفسير وشرح النقوش الكتابية على أساس القوانين المحددة المستنبطة من نص هذه النقوش نفسه، ومن الناحية الأخرى الأسلوب الايتيمولوجي المقارن مع اللغات القريبة حسبما هو مفترض. وفي هذا تكمن العقبة الأساسية.

وبالأخذ بالحسبان ذلك الشيء اليسير الذي تسنت معرفته عن لغة الإيتروسكيين لا بد لنا من اعتبارها لغة منعزلة بصورة تامة لا تجد لنفسها مثيلاً لا في إيطاليا ولا في غيرها من المناطق (ويجمجم بعض الباحثين بقرابة هذه اللغة من الليدية، بيد أن هذه اللغة أيضاً هي أقل وضوحاً بالنسبة لنا من أن تكون قادرة على مساعدتنا في العمل). وهكذا لم تقع في أيدي العلماء تلك الأداة الشاملة - ذلك المفتاح الذي كان يفتح بهذه الطريقة أو تلك، ولكن بصورة محتّمة النجاح، ولدى جميع القراءات المهمة، الطريقَ نحو الأسرار الكامنة في الكتابات. ومثل هذا المفتاح هو معرفة ما هي بالذات تلك اللغة التي يمكن أن تكون قريبة بنسبها إلى اللغة المطروحة للتفسير، أو حتى الفرضية البسيطة فيما يتعلق بتلك اللغة. لقد كانت هذه اللغة هي القبطية بالنسبة لشامبليون وهي الافستية بالنسبة لغروتيفيند أما هانس باوير وادوارد دورم فتسلحا بفرضيات انطلاق استمدّاها من ميدان علم اللغات السامية العام. ولكن حتى في تلك الحالات التي انكشفت فيها أسرار اللغة بصورة مفاجئة أمام قارئي الرموز وقد خطفها بريق الحدس كما حدث بالنسبة للغة

الهندأوروبية في الحثية المسمارية لدى غروزني وبالنسبة للغة اليونانية في المدونات القبرصية لدى سميث أو الكتابة الكريتية - الميكينية لدى فينتريس - وحتى هناك فإن هذا المفتاح كان يلعب بمجرد وقوعه في يد الباحث دوراً حاسماً في مواصلة العمل وإنجازه.

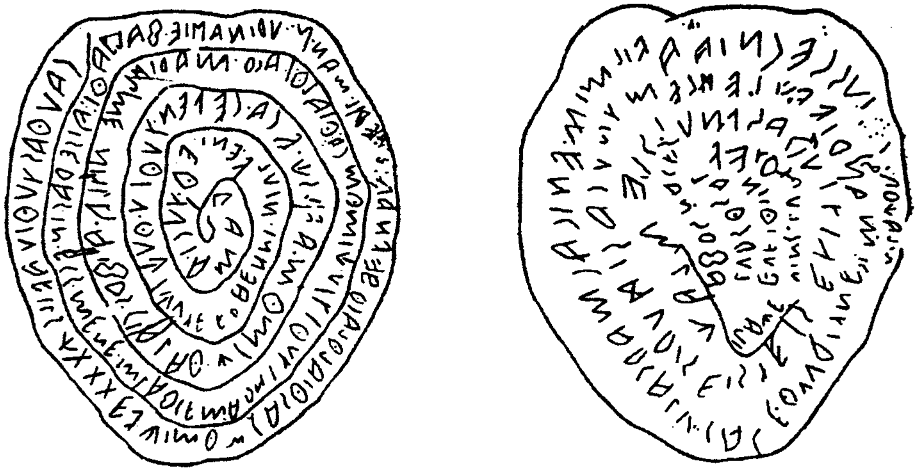

ب آ

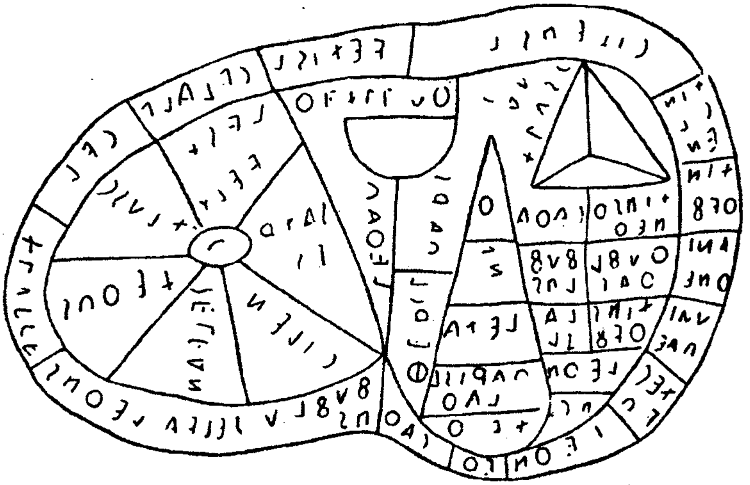

الشكل -91-

إلى الأعلى - لوحة ماليانو الرصاصية. كتب النص عليها بطريقة لولبية:

آ- الوجه الأمامي ب- الوجه الخلفي.

إلى الأسفل-الكبد البرونزية المكتشفة في بياتشينتسا

هو ذا ما تحطمت عليه حتى الآن كل المحاولات، هي ذي العقبة التي لا يمكن أن يساعد الباحث على تخطيها لا أسماء الآلهة والبشر ولا ألقاب المناصب ولا مصطلحات الأنساب. وقد تم التوصل إلى تجميع هذه المادة المعجمية اليسيرة قبل كل شيء بطريقة ذلك المنهج التجميعي و «الثنائي» أي بطريق المقارنة الدقيقة الشاملة بين النقوش الكتابية الإيتروسكية والنقوش اللاتينية واليونانية المماثلة لها في المضمون والغاية والشروط الارخيولوجية. وهناك تنقفل الدائرة التي لا مخرج منها حتى الآن.

وأعجب ما في أحجيتنا هذه هو ذلك النسيان الشامل الذي لفّ، كما ذكرنا، وعلى مدار آلاف السنين، لغة الإيتروسكيين الذين سكنوا منطقة تحتل المركز في العالم الكلاسيكي القديم ثم ابتلعهم وبصورة نهائية شعب ودولة الرومان. بل إن الرومان أنفسهم بما أُثر عنهم من حب واهتمام في رعاية الآثار القديمة، والذين كانوا يحافظون بكل فخر على شواهد ماضيهم، قد حفظوا أيضاً الآثار الروحية التي كانوا يجلّونها كثيراً لمعلميهم - الإيتروسكيين. وهناك ما يكفي من المعطيات الدالة على أن الحضارة الإيتروسكية لم تغرب في روما حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس وعلى أنهم كانوا يقرؤون بالإيتروسكية في معسكرات الجند الروماني حتى وبعد سنة 400. وإذا كانت اللغة الإيتروسكية قد ضاعت بالنسبة لنا فالذنب يقع في ذلك على نساخي العصور الوسطى الذين كانوا «بصورة مبدئية» ينسخون ويتركون للأحفاد النصوص اللاتينية قبل كل شيء واليونانية في حالات نادرة ولم يكونوا يعيرون أي اهتمام إلى ما عدا ذلك. والحق إننا لو أخذنا مثالاً على ذلك ميتسينات، الصديق الواسع النفوذ للإمبراطور أوغسطس والذي دخل الأمثال، حامي كبار شعراء روما، والذي كان شخصياً ينحدر من جنس الإيتروسكيين. فلو أنه أولى تراث آبائه - لغة الأجداد - على الأقل نصف ذلك الكرم والرعاية اللذين أولاهما للشعر والفن الرومانيين لكان بالإمكان إنقاذ نصيب أكبر من مجرد هذا التصور السطحي عن تلك اللغة. وعلى أيّ حال فإن الوضع الآن بالنسبة ليومنا الحاضر هو أن علم الإيتروسكيات لا يزال يتعطش رغبة بانتظار تلك اللحظة التي يمسك فيها أخيراً بتلك الثنائية المرغوبة - المدونة اللاتينية - الإيتروسكية الكبيرة ذات اللغتين. وقد سبق لماسيمو بالّوتينو الأخصائي الكبير في الدراسات الإيتروسكية في جامعة روما أن قال بهذا الصدد عام 1956: «إن اكتشاف واحدة فريدة فقط من أمثال هذه المدونات من شأنه أن يترك تأثيراً تثويرياً على الدراسات التي تجري في جميع ميادين الإيتروسكيات. فالمعطيات الخارجية التي يُتحصّل عليها نتيجة لهذا الكشف وذات الأهمية الكبرى لفهم

النصوص يمكنها وفق أكبر الاحتمالات أن تحل مرة وإلى الأبد القسم الأعظم من مجموع ركام الأسئلة التي تكدست على مر مئات السنين»[1].

فهل نعجب بعد هذا من ذلك الإصرار الذي يندفع به العلماء الإيطاليون مرة تلو المرة في البحث عن أمثال هذه المدونات. ففي شباط (فبراير) سنة 1957 ظهرت إخبارية تقول بأن المفتاح المنشود لحل الأحجية ربما يوجد، برأي الأثريين الطليان، في أسوار مدينة فولتشي الإيتروسكية القديمة الواقعة عند ذيل بركان مونتي - أمياتا الخامد جنوب توسكانا. وفي حدود معرفتنا فإن الحفريات ما زالت جارية، وجمع الآمال التي «لا يزال يعيشها» الأخصائيون على حد تعبير بالّتينو، رهينة بأن تكشف فأس الحفار أخيراً لا تلك المدافن التي لم تقدم حتى الآن أي شيء ملموس لحل الأحجية، بل الفوروم - مركز الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية للمدنية القديمة.

إن على من يريد التعرف بصورة ألصق على شعب الإيتروسكين الغامض، ويعرف أكثر عنه وعن سماته المميّزة، أن يكتفي حتى الآن بالفن الطريف الذي حفظته توابيت القبور والتي لم تعط الأهمية التي تستحقها إلا الآن. وقبل كل شيء تلك اللوحة الجدارية التي لا نظير لها والتي نشرت أمامها منظر المرح الذي لا تشوبه شائبة والذي غطته مسحة من الحزن «وأوصلت إلينا رسالة وداع» ملوك إيطاليا الوسطى[2] الذين كانوا جبابرة ذات يوم!

ولكن لقد حان الوقت للانتقال إلى الأحجية الثانية في الكتابة! وهي تثير الانتباه - على فكرة - بكون جميع الآثار المتبقية من هذه الكتابة تتخذ هيئة الأختام والتمائم المصنوعة من الستياتيت (الحجر الصابوني) وهي في كثير من الحالات روائع فنية حقيقية. وعلينا، في هذه الحالة أيضاً، أن نقوم بقفزة هائلة، في المكان، من إيطاليا إلى الهند الشمالية الغربية، وفي الزمان من منتصف الألف الأول قبل الميلاد إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. «إن عشرين سنة من الحفريات والبحوث والدراسات زادت تاريخ الهند غنىً بألفين من السنين - وهو الإنجاز الذي يمكن أن ينظر إليه على أنه الأكبر في علم الآثار»[3] أما الخمس والعشرون السنة الحاسمة والتي يدور حولها الحديث فكانت تلك الواقعة بين 1922 و 1947. فخلال هذه الفترة القصيرة إلى درجة مذهلة اكتشفت حضارة جديدة تمام الجدة وهي ما تسمى بحضارة الهارابا وموهينجو - دارو التي كانت سائدة ذات يوم في حوض الهندوس.

1- M. Pallottino, The Etruscans , Pelican Book A3102, London, 1956, P. 241.
2- Tarquinia. Wandmalereien aus etruskischen Grabern. Aufnahmen von W.Drayer, Einfuhrung von M.Pallottino, Muñchen, 1955, C. 48.
3- D. Diringes, The Alphabet, London, 1949, p. 81.

إن الهضبة الهائلة الواقعة في البنجاب والتي تتنصب على قمتها بلدة هارابا الصغيرة، مخفيةً خرائب السكان الأقدمين، قد اجتذبت إليها الأنظار منذ سنة 1820 وصارت في سنة 1853 مادة للدراسة، وفي سنة 1875 نشرت بعض الأختام التي تم العثور عليها هنا عبر عشرات السنين (وهي عادة تتضمن صور حيوانات ورموز كتابة تصويرية فوقها)، وقد أثار التعرف الأول عليها موجة من المشاعر المتحمسة الصادقة، وكان ذلك بالطبع ما دفع إلى طرح أشد الفرضيات جرأة فيما يتعلق بمصدر تلك المكتشفات. ولقد لقيت إحدى هذه الفرضيات - وهي القائلة بضرورة التماس جدّة الكتابة البراهمانية الهندية القديمة في هذه الكتابة المكتشفة - دفاعاً عنها إلى أحدث أيامنا من طرف بعض الأخصائيين (وإن كان ذلك لا يعد بأي أمل في النجاح).

وللأسف فإن هدايا هارابا لم تبدُ في أول عهدها على ذلك المستوى من الثراء الذي كان متوقعاً وكان عليها أن تقاسم مصير جميع المناطق الكلاسيكية للحفريات تقريباً: إذ إنها على مدار فترة طويلة من الزمن كانت مقلع حجارة للمدن والقرى المجاورة، وفي سنة 1856 عندما شرع الإنكليز ببناء الخط الحديدي كراتشي - لاهور صارت خرائب البلدة القديمة تستخدم في رصف ذلك الخط فصار تدمير الآثار، التي لا تقدر بثمن، يجري «على أوسع نطاق» وفقط في كانون الثاني سنة 1921 وبإشراف راي باهادور دايا رام ساهني بدأت الحفريات المبرمجة والقائمة على أساس المنجزات العلمية في ميدان علم الآثار فحققت بذلك نجاحاً ملموساً ثم تواصلت فيما بعد خلال سني 1926-1934 وبصورة أكثر نجاحاً على يدي مادهو ساروب واطسون.

وندين للمصادفة في العثور على المكان الثاني للمكتشفات وهو الذي أعطى فيما بعد الاسم لتلك الحضارة المختفية. فعند الحفر في سنة 1922 عن قدم بوذا (وهو معبد على هيئة برج) والدير التابع لها، والعائدين بتاريخهما إلى القرون الأولى الميلادية اكتشف ر. د. بينارجي أن هذه المنشآت القديمة تقوم بدورها على هضبة من الركام المعماري يتكون من نثرات وشظايا أكثر قدماً تعود إلى «ما قبل التاريخ». وعلى الفور أدرك السير جون مارشال مدير أعمال الحفريات الأثرية في الهند أهمية ميدان الكشوفات الجديد والمعروف باسم موهينجو - دارو أي «دار الموتى» (في السند الوسطى وعلى بعد 600 ك م ز تقريباً إلى الجنوب الغربي من هارابا وعلى بعد 40 ك م عن لاركانا). وبعد أن أدرك السير جون ذلك لم يتردد في أن يترأس بنفسه الحفريات التي راح يقوم بها منذ 1922 وحتى 1927 ثم تواصلت على يدي إ. مكيّ الذي عمل في ذلك المكان منذ 1927 وحتى 1931. وكانت منطقة تشاهنو - دارو (جنوب موهينجو - دارو) أكثر الأماكن أهمية بين غيرها من المناطق الأقل أهمية. أما ثمرة نشاط الباحثين فكانت بضع دراسات ممتازة:

J. Marshall, Mohenjo-Daro and the Indus Civilization Vol. I-III, London 1931; E.J.H. Mackay

كما تعود لقلم الأخير منهما دراسة

The Indus Civilization, London, 1935 ...Futter Exavations of Mohenjo-Daro, Delhi, 1937-1938

وبعد فترة قصيرة أضيفت إلى هذه الأعمال دراسة هنتر المهمة وهي

G. R. Hunter, The Script of Harappa and Mohinijodaro and its Connection with other Scripts, London, 1954.

تقدم هذه الأعمال الكثير دون شك إلى كل من يرغب في أن يدرس بتعمق كل مجموعة الظواهر التي فتحت أمام أعيننا عظمة الحضارة الهندية القديمة. وسنقوم في هذه العجالة بالتعرض فقط للكتابة فهي لم تقرأ بعد.

لقد سبق أن قلنا إن نماذج هذه الكتابة تتجسد فقط في الأختام. ويرى مكّي أن هذه ما دامت مثقوبة فقد كان ممكناً أن تستخدم كـ «تمائم» أيضاً والحق أنه لم يحدّد بعد السبب في إحداث هذه الثقوب: أهي من أجل حملها أم هي من أجل تثبيتها على المواد والأكياس وغيرها من الأشياء وبالإضافة إلى هذا فإن هذه النماذج تبدو إما مجرد نقوش كتابية أو كتابات مقرونة بصور الحيوانات.

وهذا الذي ذكرناه يسمح لنا أن نفهم سبب الفشل في قراءة هذه الكتابة الغامضة حتى الآن. إن العقبة الجدّية الآن - هي قِصرَ جميع النقوش الكتابية التي اكتشفت حتى الآن. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن الرموز التي عثر عليها كثيرة العدد ومختلفة الأشكال وإن العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من التوصل إلى رأي موحد حول عددها. فبعض الباحثين يميز 400 رمز بينما يرى هنتر السالف الذكر العدد الكبير منها صيغاً للرموز الأصلية التي يحصيها بـ 150 رمزاً. أما أنا فإنني أفترض، على أثر بييرومريدجي، بأن الحقيقة تقف في مكان متوسط ويصبح عدد الرموز في هذه الحالة 250 رمزاً على وجه التقريب.

والتعرف السريع على هذه الرموز يظهر أنها تتخذ طابع الكتابة التصويرية المبسطة أو الطابع الخطي. فإذا ما أخذنا بالحسبان عدد الرموز الذي يتجاوز بعدده إمكانية السماح بالحديث عن كتابة مقطعية والذي يبدو قليلاً جداً بالنسبة للكتابة «المفرداتية» المجرّدة فإن من الطبيعي أن يفرض علينا نفسه الاستنتاج القائل بأن الحديث لا بد وأن يدور عن مزيج بين الايديوغرامات والرموز اللفظية.

ومع هذا فإن أكبر معوّق في وجه القراءة المقبولة والمقنعة لرموز الكتابة وقراءة النصوص ليست هي ندرة عدد الآثار الكتابية المكتشفة بل وليس ذلك القصر في نصوصها. بل إن العقبة الأكثر جدية هي جهلنا الكامل بلغة هذه الكتابة.

وكلما تضاءلت كمية المعلومات الإيجابية كلما تزايد القوت لأجل أشد الفرضيات استحالة. فمثلاً وصول بعض المواد على ما هو واضح إلى منطقة ما بين النهرين بنتيجة التبادل التجاري استدعى نظرية خيالية بكل معنى الكلمة. كما إن التشابه الكتابي الظاهري البسيط بين بعض الرموز ورموز نظم أخرى من الكتابة كان نقطة انطلاق جديدة نحو فرضيات لا أساس لها. فبيدرجيخ غروزني، الذي تعرّضت لغاراته جميع الكتابات غير المقروءة، لم يحرم بالطبع مشكلة الكتابة ما قبل الهندية من عنايته. وكانت محاولته التي اقترحها لقراءة الرموز («فيما يخص الانتقال الأقدم للشعوب ونحو مشكلة الكتابة ما قبل الهندية» - براغ - 1939) تقوم أيضاً على أساس التشابه الظاهري المجرد لرموز الأختام ما قبل الهندية مع الهيروغليفات الحثية، وتتمثل في كون غروزني قد «قرأ» هذه الرموز طبقاً للدلالة اللفظية لما في الكتابة الحثية. ولكن... «القراءة العجيبة للكتابة ما قبل الهندية»، لم تكن، ويا لدهشته، قراءة!.

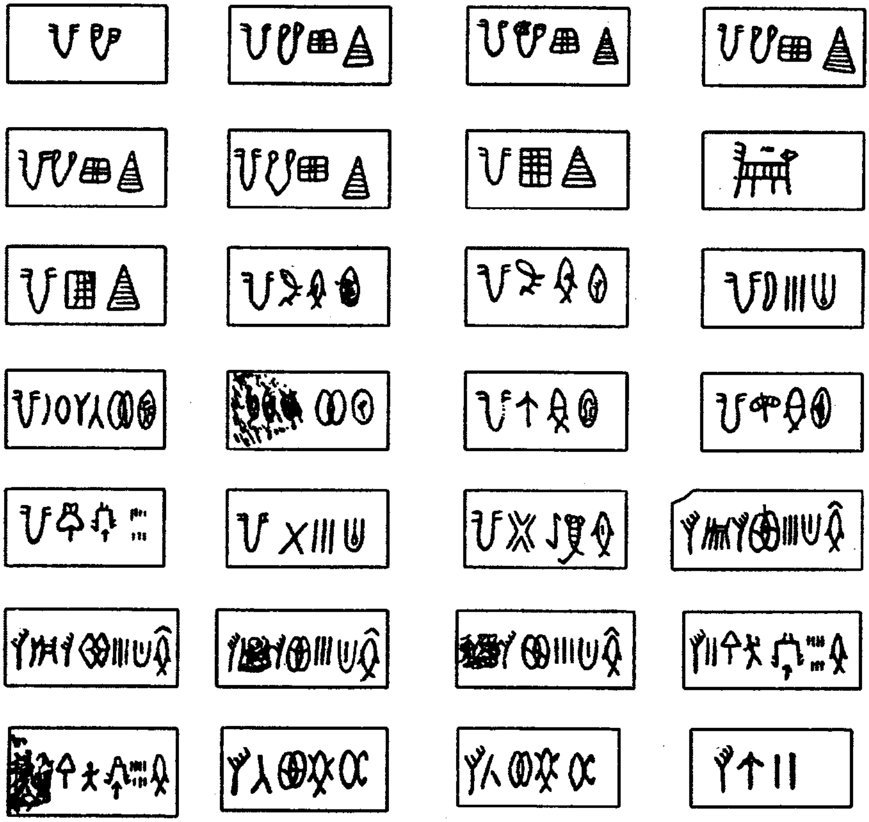

الشكل -92- نقوش كتابية ما قبل الهندية نقشت على أختام

ولعل الدراسة التمهيدية الجادة الوحيدة حتى الآن، وحسبما يرى يوهانيس فريدريك بكل موثوقية هي الدراسة الشاملة التي قام بها بييروميريدجي لتلك الآثار[1].

علينا أن نتعرف بإيجاز على مسيرة دراسة ب. ميريدجي ما دام من الضروري اعتبارها، حسبما يبدو، دراسة أنموذجية إذا ما ضربنا صفحاً عن النتائج المحددة التي تم التوصل إليها والتي من الصعب، على الأقل، مناقشتها. والقضية أن المؤلف قد حصر نفسه منذ البداية بالمنهج التركيبي أي منهج تفسير النقوش الكتابية على أساس قوانينها الضمنية وتسلح، كنقطة انطلاق له، بالفرضية القائلة بـ «انعدام الأمل» في محاولة القراءة اللفظية للنصوص. ولكن بما أن هذه المحاولة لم تتوج بالنجاح حتى الآن فلا بد لنا من التسليم بـ «انعدام الأمل» في الكتابة نفسها. ومع هذا فإن دراسة ميريدجي هي، على ما هو واضح، نموذج للطريق الذي يمكن أن يؤدي إلى قراءة الرموز. والحق أن هذا الطريق ليس الوحيد ولكننا لن نتحدث الآن عن الطريق الآخر - الذي يتصف إلى حد بعيد بالطرافة والجدة، والذي لا يزال يبدو بالكاد مطروقاً وما زالت ملامحه ترتسم في ضباب التخمينات.

ينطلق ميريدجي في دراسته من الملاحظات التي سبق ذكرها والمتعلقة بطبيعة الرموز وعددها ويخرج من ذلك بالنتيجة المتصلة بالنظام الايديو - فونوغرافي المختلط. ويعترف مع غيره من الباحثين بوجود الرموز العددية التي تلعب إزاء بعض الظروف دور الرموز اللفظية على ما هو واضح. ويلخّص في الختام تلك النتائج التي يعتبرها موثوقة: أولها معنى الرموز المساعدة (كالفواصل بين الكلمات ومحدّدات الايديوغرامات)، ثانيها - اكتشاف الرموز الخاصة بالنهايات الثلاث الأكثر تردداً بالنسبة للأسماء، وثالثها - تفسير (لا قراءة) - عدد كامل من الرموز المنفصلة.

ومن هذا «الحاصل» لا بد من تخصيص البندين الثاني والثالث على أنهما الإرشاديّين من وجهة النظر المنهجية.

1- J. Friedrich, Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen, S. 137: P. Miriggi, Zur indusschrift, S. 198; P. Miriggi, Uber wichtige Industegel aus vorderasien. Orientalistische Literaturzeitung 1937.

وعلى نحو ما قامت به أليسا كوبير عندما وضعت شبكتها الأولى للكتابة الكريتية - الميكينية ب، أخذ ميريدجي يقارن مجموعات الرموز التي تتمايز عن بعضها فقط بالرموز الختامية، وهو في الوقت نفسه يحدد النهايات الأكثر وروداً بالنسبة للأسماء القواعدية وهي رموز ، و التي يدونها، انطلاقاً من تصورات تقنية فقط على أنها a , u و $Y\ (\Psi)$ (وننبه على الفور إلى أنه لا يجوز على الإطلاق أن نقول بأنه أعطى لهذه الرموز المشار إليها الدلالات اللفظية (a، u و I أو ps). أما الآن وعلى أساس من تفسيره لمعطيات علماء الآثار (القائلين بأن الأختام وثائق للجرود الإدارية) وهي نوع من وثائق «الدَّخل والخرج» من دون ذكر لأسماء الأعلام، ينتقل قبل كل شيء إلى البحث في النقوش الكتابية عن الحالات الثلاث. وكان على الحالة الأولى منها - حالة الاسمية - أن تشير إلى المادة التي يدور الحديث عن تسجيلها، وعلى الثانية - حالة الإضافة - أن تشير إلى الملكية والاستحواذ (أو إلى الكمية في صيغة حالة الإضافة - التخصيص) وأخيراً الحالة الثالثة وهي حالة المقصود وكان يجب أن تشير إلى الهدف أو تابعية المادة المعطاة. ويرى أن نهايات هذه الحالات الثلاث بالذات هي التي عُبِّر عنها في الرموز الثلاثة المشار إليها (A = الاسمية، U = الإضافة و $Y\ (\Psi)$ = المقصود).

هي ذي السمات العامة لمسار تصورات ميريدجي القائمة على المعطيات الموضوعية، فقد قادته هذه التصورات إلى افتراض اشتمال النقوش الكتابية على تلك الروابط التي يعبر عنها في القواعد بحالات الاسمية والإضافة والمقصود. فلم يبق إلا تدعيم وعرض المنطلقات الأساسية بواسطة مركَّب آخر - وبالذات بطرق توضيح الرموز الأساسية. وهنا يحاول البروفيسور ميريدجي أن يعتمد التفسير الأكثر قرباً ومنالاً لدلالات بعض الرموز التصويرية وأن يحاول على أساس هذه الدلالات، أن يربط مجموعات رموز كاملة بصورة منطقية وقواعدية.

والأمثلة التي نعرضها فيما يلي للمقارنة بين الرموز الكتابية وشروحها يجب أن توضح الطريقة التي فسّر ميريدجي بواسطتها دلالات الرموز التصويرية.

إن أهم التكافؤات يظهر بالصورة التالية:

سمة (دمغة) ....

جرن (ومدقة)، حبوب ....

حمل ....

حمل من أربع قطع ....

حصان ....

فأس ....

منجل (حَصَدَ)، محصول ....

حصّاد، جاني المحصول ....

رجل يدق بالجرن، طحّان ....

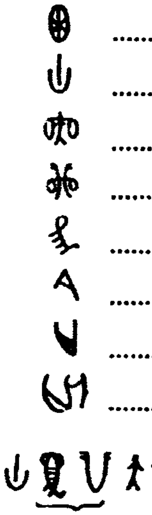

نهاية حالة الإضافة !

حبوب، غلال ....

بذور، بذار ....

بقول، ثمار ....

معسكر ....

بيت ....

معبد ....

منضدة ....

رجل ....

نابل، محارب ....

حارس ....

ضابط، قائد عسكري، موظف ....

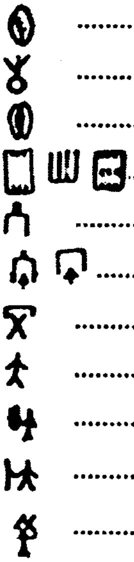

وبمساعدة هذه التكافؤات يمكن التوصل إلى قراءة مقنعة إلى حد بعيد. فمجموعة الرموز التي نلتقي بها مرتين وهي تعني وفق تكافؤات ميريدجي قمح - ضابط - معيَّن - منضدة فهي حسب تفسيره: «قمح لمطعم فئة الضباط» (؟).

ومن الطبيعي أن هذه الدلالات المستنبطة من الطابع التصويري للرموز لا تبرر إلا بصورة جزئية. إلا أن هناك شيئاً واحداً يضاعف على ما يبدو من صواب مثل هذا الفهم للنصوص.

فحيثما وضعنا المعاني التي يقترحها ميريدجي نجد أنها ملائمة وذلك على الأقل لأنها بتركيباتها لا تناقض العقل السليم. وعلاوة على هذا فإن مضمون جميع النقوش الكتابية الذي تم التوصل إليه نتيجة لتطبيق مبادئ ميريدجي يعود إلى الميدان نفسه من ميادين المعرفة - ميدان المصطلحات الزراعية المعبّر عنها بدقة، بداية من الحبوب والبذار والبقول وحتى المنجل والفأس والرحى والجرن.

إلا أن أكبر اعتراض على مثل هذا الفهم يمكن أن يكون التالي: ما دامت هذه الرسوم أقرب إلى التبسيط فمن الطبيعي أنها تسمح بالعديد من التفسيرات. ولكي نقدم مثالاً واحداً على هذا يكفي أن نعود إلى غروزني الذي كانت «بُقول» ميريدجي بالنسبة له مجرد تصوير لخاتم ذي شريط.

إن واحدة من أهم صعوبات قراءة الرموز تتمثل، حسب ما ذكرناه، في أن أحداً لا يعرف اللغة التي يجب التعامل معها في هذه الحالة. أما الأقدم من بين تلك اللغات الآرية المعروفة حتى الآن في الهند - وهي الويدية والسنسكريت - فإنها تسقط منذ البداية بسبب أن بقايا كتابة وادي الهند تعود إلى عهد يسبق النزوح الآري بزمن بعيد. كما أن استشهاد السير جون مارشال بلغة جزيرة براغوي الدراويدية (الدراوية) المجاورة لا يقدم جديداً. فبين لغة براغوي المعاصرة، ولغة النصوص المكتشفة في هارابا وموهينجو - دارو تثوي خمسة آلاف سنة - وهي هوة لا يمكن تجاوزها ولا يمكن أن تصل بين حافتيها حتى تلك الروابط التي كانت قائمة ذات يوم في الواقع، لا سيما وأن لغة البراغوي مشوبة بالكثير من العناصر الأجنبية.

حملت سنة 1934 إلى الاستشراق، الذي يمتاز تاريخه ودون ذلك بالفرضيات والنظريات المتطرفة، واحدة من أجرأ الفرضيات بل ويمكن القول واحدة من أكثرها تشبعاً بالمجازفة. ونسارع إلى لفت انتباه القارئ إلى أن غالبية الباحثين لا تزال حتى الآن ترفض هذه الفرضية باعتبارها ثمرة خالصة من ثمار الخيال وهو ما يعني أنها لا تكتسب أي معنى بالنسبة للهواة. ولا تتخذ هذه الفرضية المغامرة، هذه النظرية الخيالية بكل ما فيها، إلا صورة فرضية متواضعة - ونستعرض فيما يلي ذلك «الاثبات» الذي صعق الجمهور، والذي لا يمكن للوهلة الأولى دحضه، والقائل - بأن النظامين الكتابيين المقارنين في (الشكل 93) لا بد وأن يرتبطا بصلة النسب. ومن يستطيع أن يرفض ذلك إذا ما نظر إلى الرسم؟!

إن التشابه بين الرموز التي تم جمعها للكتابة الهندية وللرموز التي قورنت معها في كتابة جزيرة الصيام يبدو للوهلة الأولى على درجة من الوضوح والثبوتية حتى أنه يلغي أي ظل

من ظلال الشك. فما الذي يجعل الباحثين «لا يصدقون أعينهم»، لماذا ينظرون، على الأقل حتى الآن، نظرة سلبية إلى هذا الإثبات الذي لا يمكن دحضه على ما يبدو؟.

لكي نفهم هذا لا بد لنا من إلقاء نظرة تفصيلية بعض الشيء على مشكلة كتابة جزيرة الصيام.

وعلى نحو ما كان يحدث كثيراً في تاريخ قراءة الرموز فإن مصادفة سعيدة أوصلت العلماء إلى الوثائق الطريفة لهذه الكتابة الخاصة. أما القسم الأعظم من النقوش الكتابية «للشجرة الناطقة» - كوهاو رونغو رونغو فقد تم تدميره في العشرينيات الأخيرة من القرن الماضي (التاسع عشر) وذلك برعاية المبشرين الفرنسيين والبلجيك، المجتهدين في الدين الحق، والذين باشروا أعمالهم في هذه المنطقة بعد أن أوصلت الإبادة الجماعية سكان هذه الجزيرة إلى ما يقل عن 200 شخص. بيد أن بعض الألواح الخشبية المغطاة بالرموز الكتابية شقت، بالرغم من ذلك، طريقها إلى جوسين، أسقف جزيرة تاهيتي، الذي عرف قيمتها التاريخية، وبذل الكثير من الجهود في سبيل أن يقرأ ويترك للأجيال القادمة مخلفات حضارة أزيلت عن وجه الأرض. وقد كلف ذلك الكثير من المساعي والصعوبات بالطبع وبخاصة إذا أخذنا بالحسبان أن السكان المحليين الذين كانوا يعرفون الكتابة كانوا قد هلكوا عن بكرة أبيهم تقريباً. ولكن عند ذلك الوقت بلغت مسامع أسقفنا أن في تاهيتي نفسها يعيش ساكن وفد إليها من جزيرة الصيام وأنه من أصل معروف، فأمره أمير الكنيسة بالمثول بين يديه وطالبه بقراءة النصوص. فطافت ابتسامة الترفّع على وجه ميتورو الفتي عندما وقع نظره على النقوش الكتابية المألوفة، وأمسك باللوح المقدم إليه وراح يقرأ بنوع من الإحساس بالسّمو. والحق أن «القراءة» سرعان ما اتخذت منحى الترتيل الدوري. وكان ميتورو يتتبع السطر بإصبعه الذي كان عند بلوغ نهاية السطر يعود في الطريق المعاكس. أما الأسقف جوسين فبادر إلى تسجيل ذلك الغناء وبدا أن كل شيء على ما يرام.... إلا أن محاولة فهم ما تم سماعه وترجمته إلى اللغة الفرنسية باءت بفشل ذريع: إذ لم يكن بالمستطاع استنباط أي معنى من تلك الصيغة البولينيزية. ولم يتبق أمام الأسقف إلا تسجيل الكلمات حسبما استطاع فهمها ثم صياغتها بمساعدة مختلف التخمينات وغيرها من الوسائل، في هيئة ترجمة شعرية ذات معنى، إلى اللغة الفرنسية. فذلك الماجد ميتورو وقد أخذته العزّة بتلك المعارف التي تحصل عليها، والتي نسيها بصورة جذرية، قد أدى المهمة المشرفة التي ألقيت على كاهله بالصورة التي استطاعها، لكن القضية لم تمض على ما يبدو دون شيء من العبث، ولعله بالكاد كان يعي ما قام بتنفيذه.

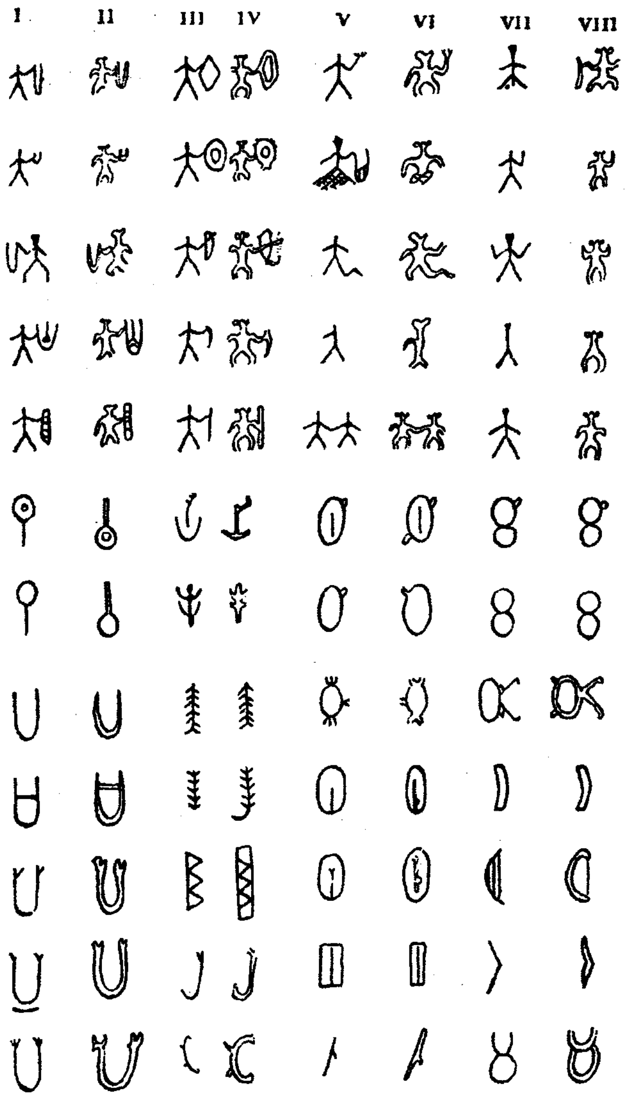

الشكل -93- لوحة مقارنة بين الرموز والكتابة لحوض الهند وبين رموز جزيرة الصيام. الأعمدة I , III , V , VII كتابة حوض الهند و II , IV,VI , VIII - رموز جزيرة الصيام

ومن الطبيعي أن المعجم القائم على مثل هذا المصدر والذي وضعه الأسقف جوسين بكل ذلك الحماس ما كان يمكن أن يهدي الباحثين إلا إلى الطريق الخطأ. وسرعان ما فُقد أيضاً أصل النص الذي غناه ميتورو دون أن يخلف أثراً.

وفي سنة 1954 جاء العالم الاتنوغرافي الهامبورغي الشاب توماس بارتل إلى روما للعمل في أرشيف جمعية الرهبان التي كان الأسقف جوسين ينتسب إليها. وقد قادته إلى ذلك

المكان فكرة البحث عن آثار ذلك النص واستقصاء ما إذا كان يتضمن شيئاً ذا قيمة. وهكذا، وفي كتاب مهمل غطاه الغبار، اكتشف أخيراً «ثنائية» جوسين - وهي أغنية ميتورو التي دونها الأسقف الناشط باللغتين البولينزية والفرنسية.

وباكتشافها فهم بارتل الشيء الذي سبب كل تلك الصعوبات لسابقيه: فـ «الثنائية» لم تكن في واقع الحال ثنائية. وبالإضافة إلى ذلك كانت تعطي بعض نقاط الانطلاق للبحث ويودنا أن نبيّن للقارئ وبإيجاز الطريقة التي توصل بها العالم الألماني الشاب إلى أول النتائج المترابطة.

إن كتابة جزيرة الصيام التي تتضمن حتى الـ 500 رمز التي جمعها بارتل ودرسها على مدى سنين بطولها - تقوم على ما يبدو في القسم الأعظم منها على المبدأ المعروف جيداً للنظام اللفظي. ففي أحد النصوص مثلاً وذي المضمون الديني (وهو ما تؤكده ترجمته الفرنسية والصيغة البولينيزية السابقة لتلك الترجمة) يوجد تصوير مكيف ومبسط جداً لصدفة مفتوحة الجانبين وكلمة «صدفة» تلفظ في اللغة البولينيزية *pure* و *pure* تعني أيضاً «الصلاة».

وبنتيجة العمل المضني بل والذي يقترن في دقته بأعمال الصاغة، وعن طريق المقارنة المتأنية والشاملة بين الصيغتين اللغويتين للنص التصويري في «الشجرة الناطقة» تمكن توماس بارتل حتى بداية عام 1955 من أن يتوصل، حسب رأيه، إلى التركيب الأساسي الموثوق للرموز التي لم يكن عددها كبيراً.

ويظهر (الشكل 94) الاقتراح المترجم الأول المعروض من جانبه.

إلا أن أكبر نتيجة مثيرة من نتائج قراءة بارتل كانت قراءته للعبارة التي تتردد كثيراً وهي «ورفعوا الصلوات إلى الإله رانغيتيا» ولكن «رانغيتيا» أو «الحقل الأبيض» هو اسم يطلق على إحدى جزر الوداد التي تبعد عن جزيرة الصيام بـ 3000 ك م! فلو تأكدت هذه القراءة لحلّت لأول مرة وبصورة محدّدة مشكلة أصل سكان جزيرة الصيام وهو الموضع الذي ما يزال يناقشه كثيراً وبحماس، على مدار عشرات السنين، علماء الآثار والمؤرخون والجغرافيون! وهنا لا نتحدث عن القضايا المرتبطة بهذه المشكلة والخاصة بسكان بولينيزيا بشكل عام وقضايا العلاقات القديمة بين جزيرة الصيام وتلك البلاد الواقعة إلى الشرق - وهي بيرو الأنك - التي تقول نظرية أخرى بأنها كانت المصدر الذي انطلق منه أحفاد السكان المعاصرين في الجزيرة. بلى، كان لهذه المشكلة أن تحل، فعالم الاختصاصيين أبعد ما يكون عن الرأي الموحد في كلمته الفصل في قراءة بارتل.

من المؤسف أننا لا نستطيع إلقاء الأضواء على هذه الأسئلة إلا في أضيق صورة. فلا يتبقى سوى أن نوضّح، من وجهة نظر تاريخ الكتابة، ذلك التشابه المذهل حقاً بين رموز كتابة حوض الهند وبين بعض الرموز الكتابية في جزيرة صيام.

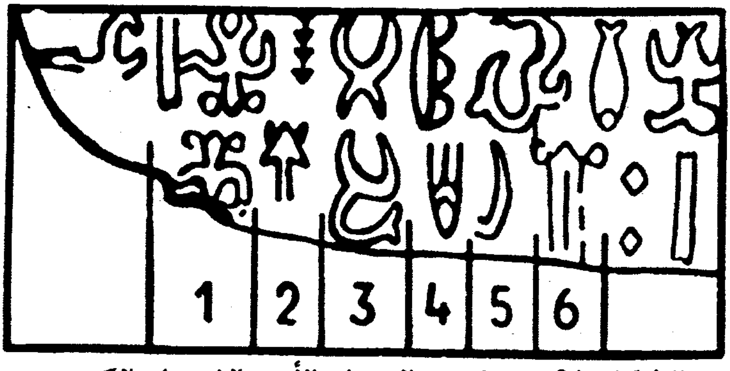

الشكل -94- «رونغو، رب السماء والأرض، الذي خلق الكون» - بداية نقش كتابي فوق لوحة من جزيرة الصيام. أخذت الترجمة عن توماس بارتل: 1- رب. 2- السماء. 3- رونغو (اسم الإله). 4- الأرض. 5- خلق. 6- الكون.

إن الفرضية القائلة بالعلاقة المباشرة أو غير المباشرة بين الكتابتين تصطدم بعقبات لا يمكن التخلص منها تقريباً «أما من لا يفكر بالعلاقات المختلفة الخارقة للعادة فالأفضل له أن يضع في اعتباره أن التشابه الظاهري بين كلتا الكتابتين هو لعبة الصدفة[1]»

فلنبدأ، كما يقولون «بكشف قناع» أول الإثباتات التي تبدو قتالة للوهلة الأولى. في (الشكل 93) تم عرض ومقارنة 48 رمزاً فقط من رموز الكتابتين. ولكن مئة من الرموز التي انتقاها صاحب النظرية ف. فون هيفيسي[2] من أجل هذه الغاية لا تمثل إلا جزءاً ضئيلاً، الخمس فقط من المجموع العام لرموز جزيرة الصيام. وعلاوة على هذا فمن أجل المقابلة تؤخذ جميع الرموز الملائمة بشكل من الأشكال للمقارنة. وأحياناً ما يكون في ذلك مخاطرة من وجهة النظر العلمية إذ يحدث بالنتيجة انتقاء مفتعل للرموز دون احتساب مدى تردد استعمالها واحتساب الأشكال النموذجية للرموز المنفصلة. أما في الحالات التي يلجأ فيها، جرياً وراء البراهين، إلى الأشكال المحوَّرة التي لا يُلتقى بها إلا نادراً وفي حالات فردية، فإن مثل هذه المقارنة تفقد قدرتها الإقناعية.

1- J. Friedrich , Entzifferung verschollener Schriften und Sprachen , S. 140.
2- W. von Hevesy , Osterinselschrift und Indusschrift, - Orientalistische Literaturzeitung, 1934.

اللوحة - 1 -
جُعل نقشت فوقه كتابة مصرية
تشير الى زواج الفرعون امنحوتب الثالث

اللوحة ـ 2 ـ

الكرنك، نصب تحوتمس الأول

اللوحة - 3 -
الكرنك، نصب الملكة حتشبسوت

اللوحة -4-

نموذج للكتابة الهيروغليفية المصرية

لوحة قداس لـ خونن الأسرة الحادية عشرة من الحجر الجيري

اللوحة - 5 -
تمثال نصفي لـ توم
في هيئة قرد البافيان

اللوحة - 6 -
كتابات على
قاعدة التمثال
النصفي لـ توم

اللوحة ـ 7 ـ

أخناتون ونفرتيتي

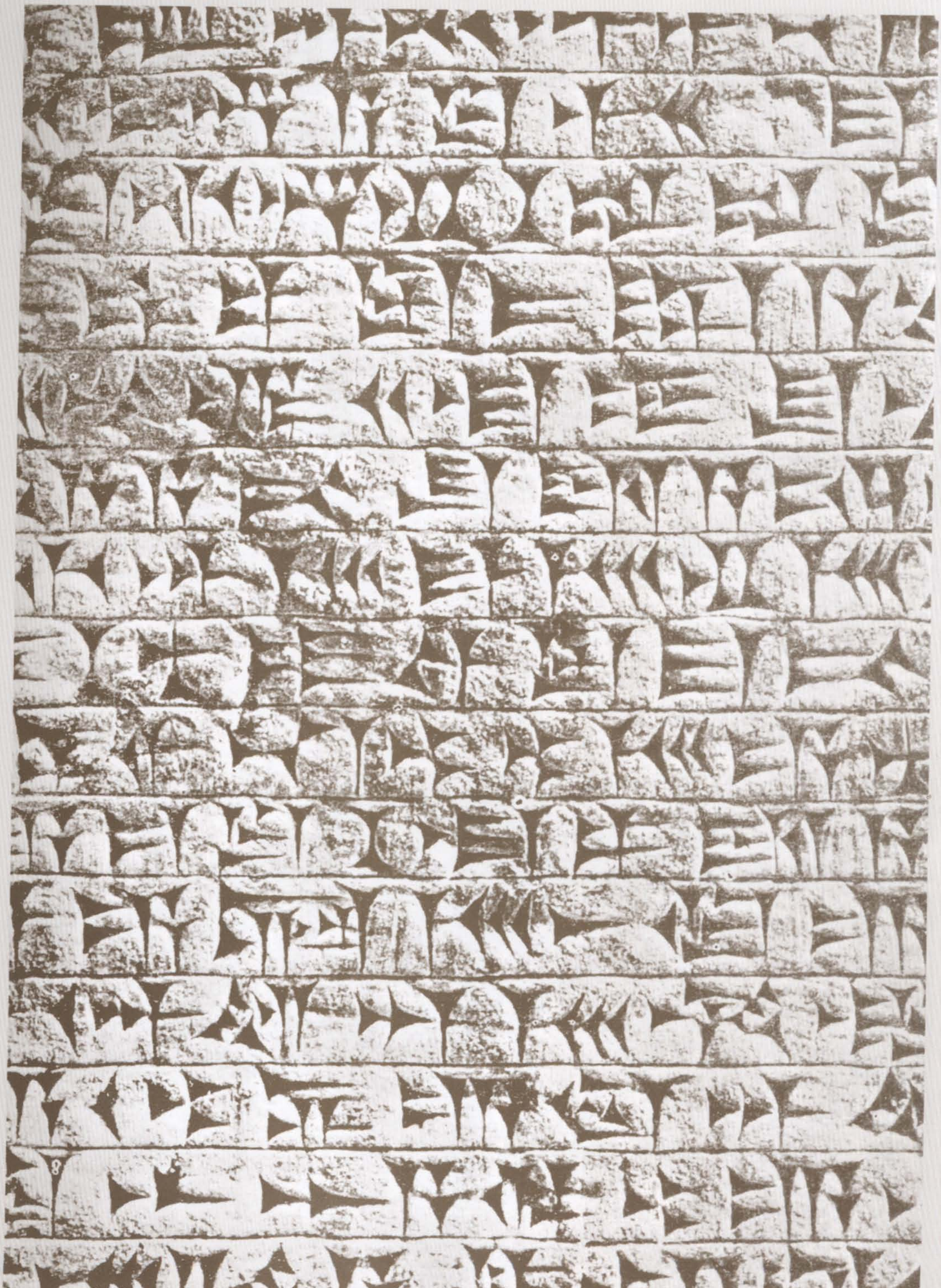

اللوحة ـ 8 ـ
كتابة إسفينية

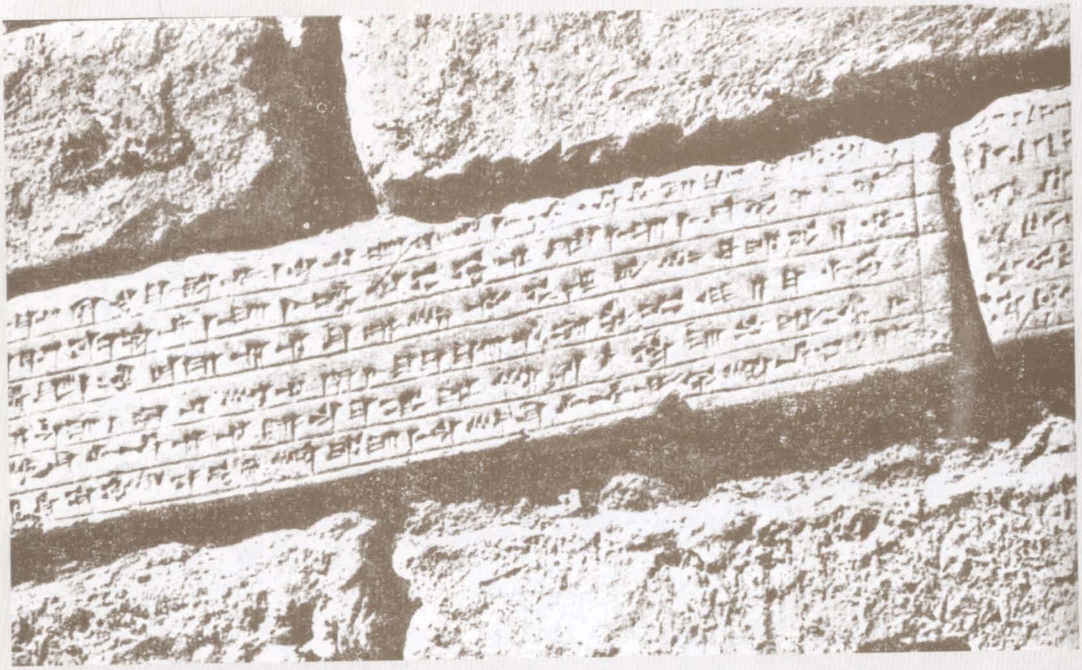

اللوحة - 9 - زقورة من تشونغا - زمبيل. كتابة مسمارية

اللوحة - 10 - غانج - نامة

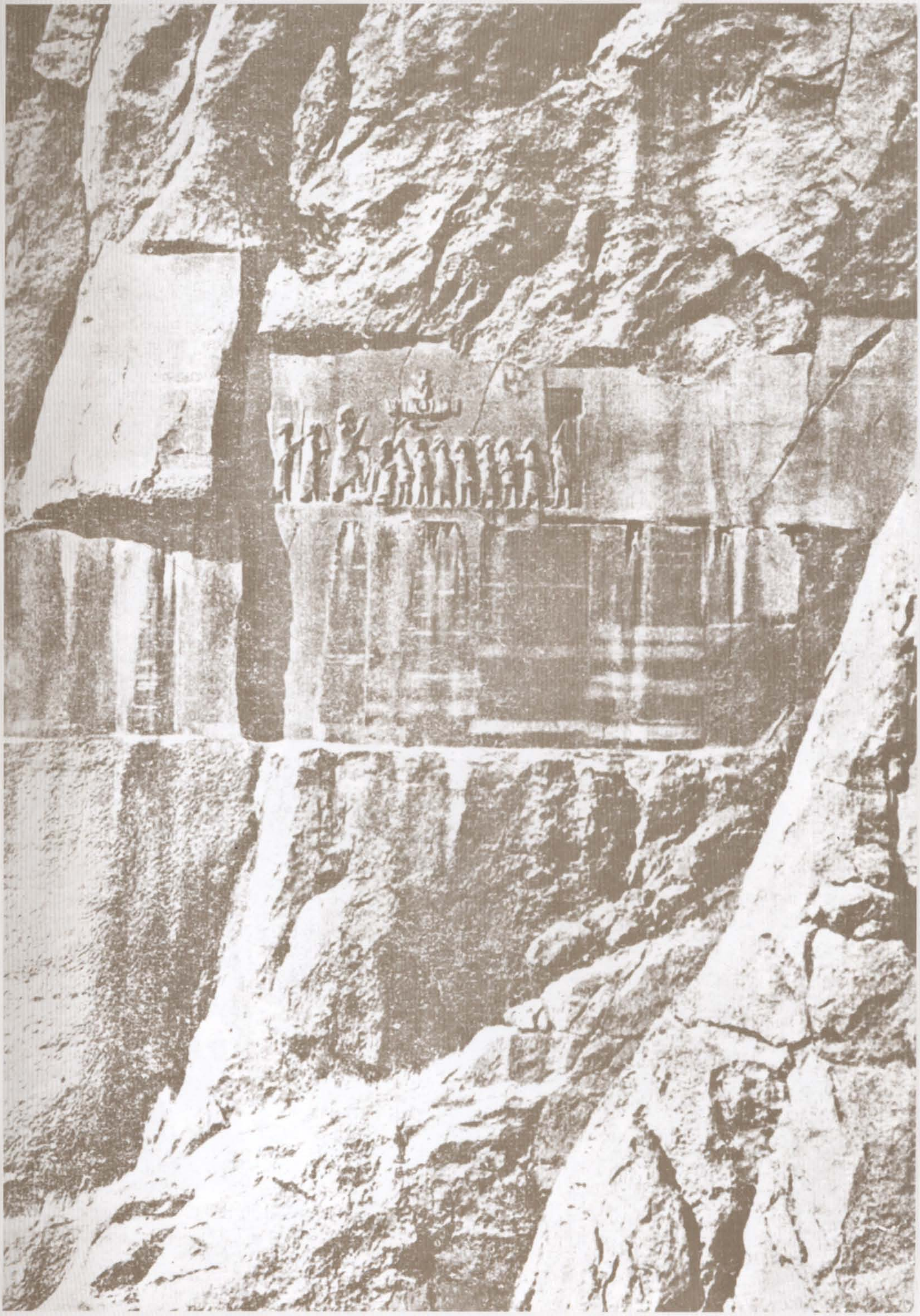

اللوحة - 11 -
بيهستون، مدونة داريوس الأول
المنقوشة في الصخر

اللوحة ـ 12 ـ
داريوس الأول

اللوحة - 13 -

مدونة هيروغليفية حثية من حماة

اللوحة ـ 14 ـ نموذج للخط الحثي الهيروغليفي.
بداية الألف الأول ق. م، كركميش

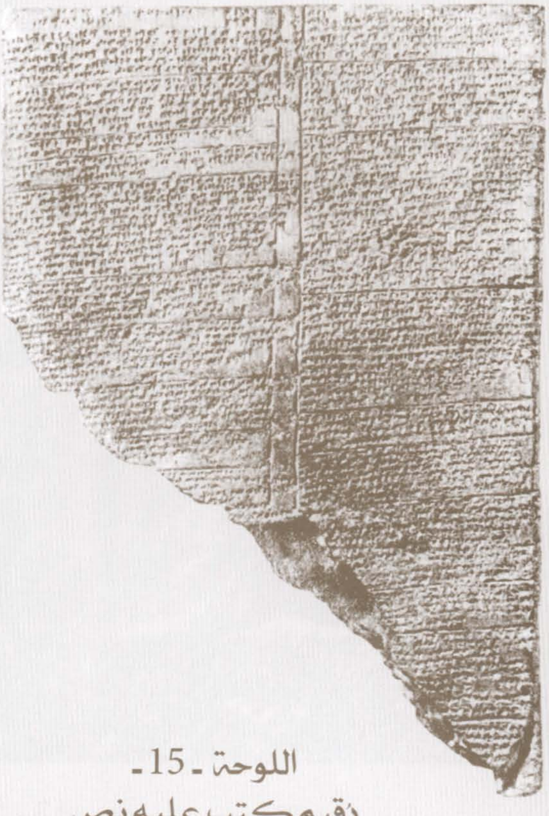

اللوحة ـ 15 ـ
رقيم كتب عليه نص
للقوانين الحثية، حماة

اللوحة ـ 16 ـ
شاهدة قبر حجرية عليها رسومات
تمثل فارسا وجملا، جنوب الجزيرة
العربية نهاية الألف الأول ق.م

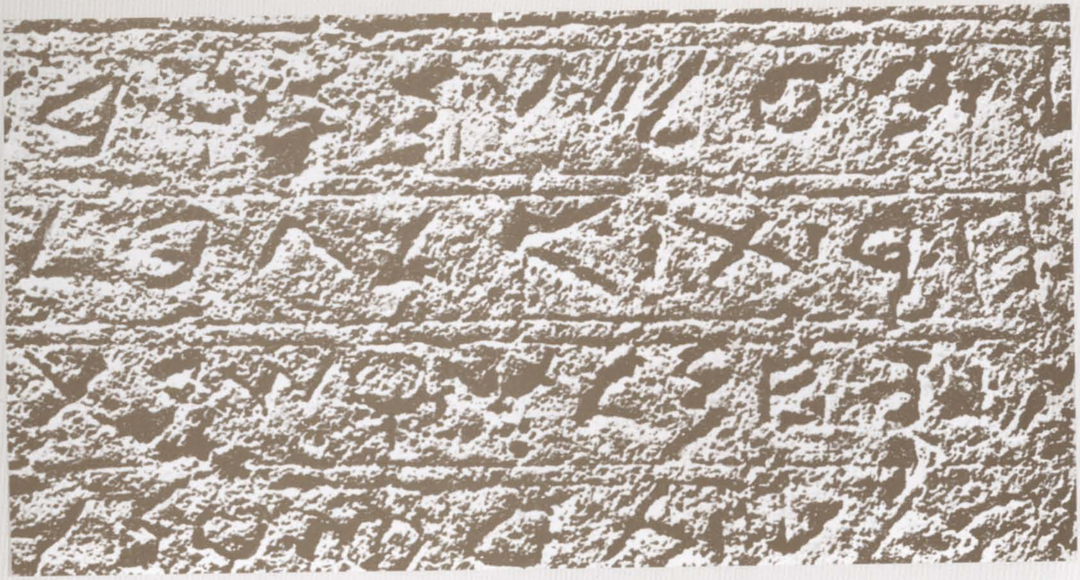

اللوحة - 17 -
مدونة فينيقية

اللوحة - 18 -
لوحة من جزيرة كريت

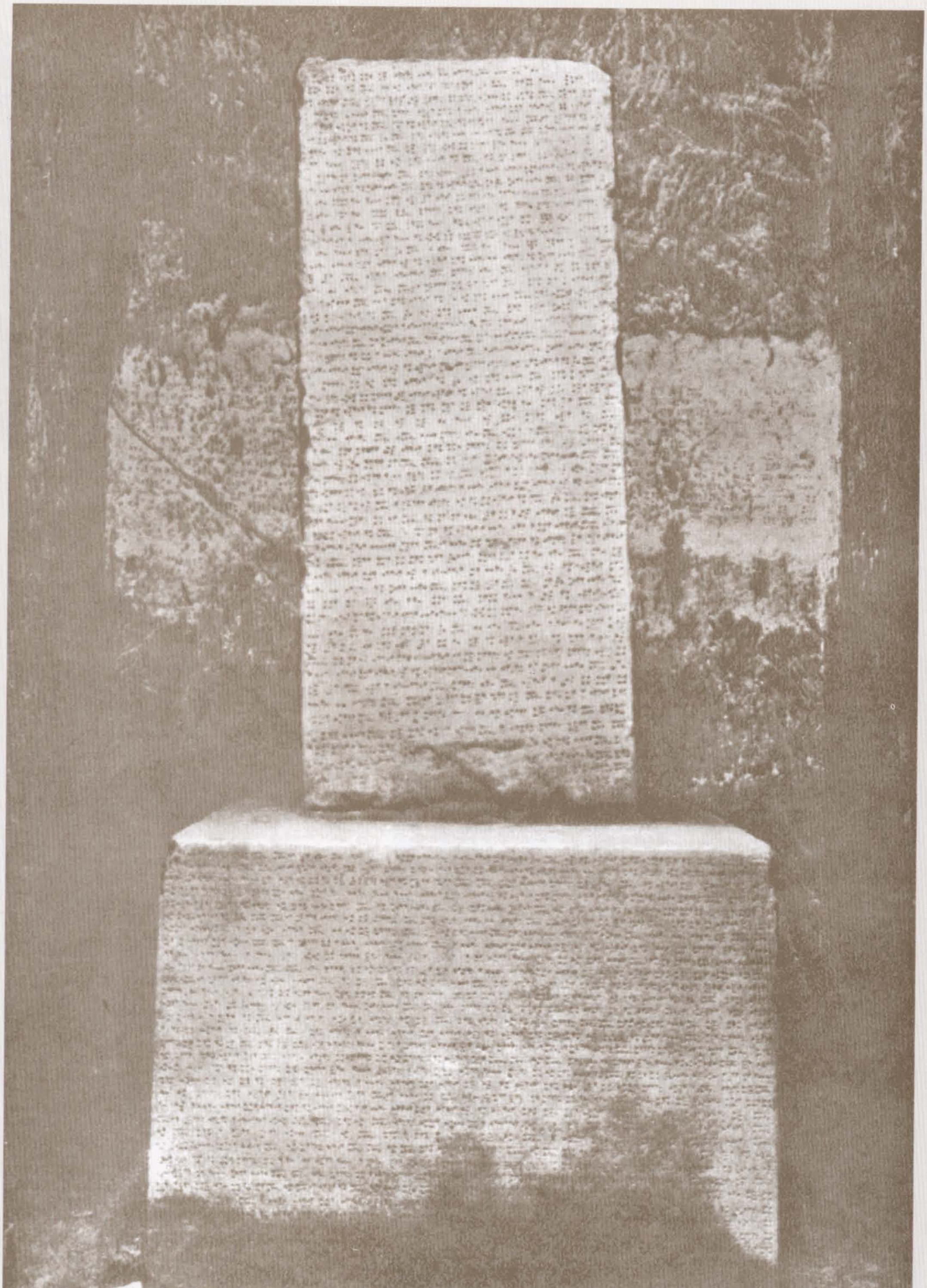

اللوحة ـ 19 ـ

السفر التاريخي للقيصر الأورارتي ساردوري الثاني

منقوشة على الصخرة الوانية في القرن الثامن ق.م

اللوحة ـ 20 ـ
تمثال من جزيرة الصيام

اللوحة - 21 -
نقش كتابي بلغة مايا

وحتى فيما لو أخذنا دون نقاش بوجود التشابه الظاهري فإن قضية معنى الرموز ولفظها لا تحل. ومن الرموز التي تتصاع بكيفية رديئة للبراهين ذلك الرمز الذي لقي انتشاراً واسعاً والذي يبدو مقبولاً ومفهوماً بصورة واسعة وهو الرمز الدال على الرجل، الإنسان، فإن هذا الرمز كلما ازداد تبسيطاً كلما قلت الإمكانات الخاصة بتفسيره: «ساقان، ذراعان ورأس فوقها!» وهذا في نهاية المطاف يتعلق أيضاً بالمناطق الشمالية، كما يتعلق بالمناطق الاستوائية؛ والرمز دوماً يظهر هكذا أو بصورة تماثل ذلك!

بل ويبدو من المستحيل قيام أيّ علاقة أمام وجه هذا البون الشاسع في الزمان والمكان والذي يفصل بين الكتابتين. ففي منتصف القرن التاسع عشر خبا استعمال كتابة جزيرة الصيام ومعرفتها بينما كانت كتابة حوض الهند مزدهرة منذ 2500 سنة قبل الميلاد! وهنا نلتقي بهاوية واسعة تمتد على مدار 4500 سنة! وحتى لو نظرنا بكثير من التسامح إلى آخر الإخباريات التي لم تتأكد بعد والقائلة بأن قِدَم كتابة جزيرة الصيام يمتد إلى 1000 سنة لبقي أمامنا فترة زمنية تمتد إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة. ويبحث العلماء عن الوسائل الكفيلة بالتغلب على العقبة الرئيسية الأخرى التي اصطدمت بها نظرية التقارب - وهي التباعد الجغرافي. إلا أن الفرضيات المختلفة الطراز والتي ينتظر منها أن تسعف الموضوع لا تستطيع حتى الآن أن تستقطب حولها الملاحظين غير المقتنعين.

وإذا لم تكن كتابة وادي الهند فمن المحتمل أن تتضح رموز كتابات «الشجرة الناطقة» في المستقبل القريب من أجل القراءة المقنعة والنهائية. وهاهو ذا توماس بارتل يقيم في جزيرة الصيام منذ شهور عديدة ويستفهم من الجميع عمّن بمقدوره أن يحل هذه الأحجية - من «الشجرة الناطقة» ومن المغائر والرسوم على الصخور وأخيراً من الأصنام الصخرية الشهيرة، على مستوى العالم بأسره، في أريكا وموهايا - أحجية سرّ جزيرة المحيط الهادي الصغيرة.

★★★

قمنا برحلة غير قصيرة من ضفاف النيل وحتى شطآن الجزيرة الصغيرة الضائعة في المحيط، وأمام أعيننا ظهر عدد غير قليل من البلدان والشعوب: سومر وجزيرة مينوس، بابل ومدافن الإيتروسكيين، مصر ووادي الهند، آشور وقدماء التيورك - فتلك هي المراحل الأساسية لهذا الخط غير المحدد الملامح والنافذ عبر الزمان والمكان. وما أكثر ما بقي جانباً دون نقاش! هناك الجزء الشرقي من آسيا الوسطى بمكتشفاتها التي تأسر النظر وهناك الشرق الأقصى، موطن ومهد حضارة كتابة لا يمكن أن يوجد لها مثيل وذات الطريقة الطريفة في الكتابة. وهناك أيضاً الوجوه المقطبة للهيروغليفات الأمريكية القديمة، بقايا

الحضارة ما قبل الكولومبوسية، وهناك أفريقيا الشمالية والداخلية، وأخيراً الجزيرة العربية التي تروّت رمالها المتلظية بدماء الباحثين البواسل الذين راحوا هناك يبحثون عن النقوش المدونة أو عن أثر للكتابة «أم الناطقين وأب الحكماء» حسبما يقول المثل السُومري.

ولكن يكفي إلى هنا [1] *non multa , sed multum*- كما كان يقول الرومان.

وسيراً على هدي هذا القول المأثور المجيد فإننا بدورنا لا نحاول أن نحشو رأس القارئ بخليط من النظم والرموز الكتابية فما أردناه هو أن تكون تلك النماذج القليلة والأكثر وضوحاً بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين، قد أنارت الطريق نحو وعي تلك المعجزة التي تجسدت في تلك الرموز من أجل أن تسمح بالنظر إلى ذلك المعين الذي لا ينضب من المداخيل التي أودعها الروح الإنساني أثمن ما اختزنه. إن هبة الكلام، اللغة، تميّز البشر عن الحيوانات وتسمو بهم عالياً فوق المخلوقات الأخرى على الأرض. لكن اللغة نفسها - ما هي إلا نَفَس نفحه الروح الإنساني صوته. فكان ذلك الصوت يتعالى ثم يخبو لأنه لم يكن يُمسَك ولم يقم أحد بحفظه، وظل ذلك متصلاً حتى الوقت الذي قامت فيه الكتابة، ذلك الوعاء البديع، بحفظ اللغة وبقائها على مدى اتصال الأجيال.

1- ليس بالكثير إلا انه كثير (باللاتينية)، اي ليس بالكثير في حجمه إلا ان كثير في معناه (المترجم).

الفصل الحادي عشر

قراءة الكتابات واللغات القديمة في منظور الواقع العربي الراهن

تمهيد

منذ قرابة نصف قرن (عام 1957) نشر الأستاذ الجامعي، الباحث النمساوي الكبير أرنست دوبلهوفر، كتابه المشهور «رموز ومعجزات»، وهو وفق ما يشير الجانب التوضيحي من عنوانه: «دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتب واللغات القديمة»، وسرعان ما ترجم الكتاب إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية كان من بينها اللغة الروسية التي صدر بها الكتاب عام 1963 بعنوان «Знаки и чудеса»، وعن هذه اللغة كان لكاتب هذه السطور شرف نقل الكتاب إلى اللغة العربية وتقديمه إلى الأستاذ الدكتور خليفة محمد التليسي، الأمين العام «للدار العربية للكتاب» في الجماهيرية العربية الليبية، والذي تفضل بنشره عام 1983.

ويشهد مترجم هذا الكتاب، والذي كان له شرف نشر مجموعة من الكتب المؤلفة والمترجمة في «الدار العربية للكتاب» بان الأستاذ الدكتور التليسي، الشاعر، الأديب، المفكر، الناقد، المؤرخ، اللغوي، والذي ساهمت مؤلفاته الأدبية، اللغوية، النقدية والتاريخية، بنصيب راجح في الفكر العربي المعاصر، قد كان في إدارته «للدار» وفي تعامله مع من نشروا أعمالهم عن طريقها، المثل الأعلى للمثقف الأصيل الصادق النبيل، الذي يعرف الحق وينصره، ويعين في الوصول إليه.

ومنذ أن نشر الكتاب، سواء في أصله الألماني أم في ترجمته العربية، جرت مياه كثيرة واغتنى علم الآثار الذي ينتسب إليه الكتاب، بدراسات ومعلومات جديدة، لم تؤثر على فرادة الكتاب في ميدانه. أما على الصعيد العالمي فيمكن الإشارة إلى تبدل واضح

وعلني في حركية التاريخ الحديث. فقد تعرضت المفاهيم والمسلمات السابقة إلى خلل يكاد يعصف بما تواضع عليه البشر من قيم وأعراف يستقر عليها البنيان الخلقي للعامل المعاصر.

فبعد انتهاء ثنائية القطبين وبداية الاستقطاب الواحد تدفق سيل «الأفكار» الجديدة المتجهة نحو الترسيم الجديد لخارطة العالم وفق أساس جديد تفرضه «الجيوبولتيكا» يحول ثروات الأرض فريسة في أيدي الأقوياء وبدئ بتلميع أفكار جيوبولتيكيي القرن التاسع عشر وبدايات العشرين: ف. راتسيل، هـ ماكندر، ك. هاوسهوفر، أ. ماهان، ك. شميدت وسواهم وتستوقفنا من بينها قوانين ف. راتسيل السبعة والتي عدت في حينها «الدليل المرشد للإمبرياليين» وينص السادس منها على أن (الباعث على التوسع يأتي من الخارج، إذ إن الدولة تثار للتوسع على حساب الدولة «أو الأراضي «ذات الحضارة الأدنى»)[1]. وطرحت مفاهيم العولمة الجديدة و«المليار الذهبي» من البشر - وأخذت تتردد «القيم الأمريكية» و«نمط الحياة الأمريكي» واستيقظت نظرية التفوق وما تجره وراءها من التوجهات العنصرية ورفض البعض ما اتفقت عليه الأغلبية الواسعة من دول العالم بل وأعلنوا حصانتهم من العقاب في حال ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، كما أعلن «صراع الحضارات» «لتحويل العالم إلى دوائر حضارية متجاورة ومتصارعة على مستوى الثقافات لإخفاء الصراع حول المصالح والثروات»[2]، ووزعت خرائط جديدة على العالم يهمنا من بينها «ما نشرته جريدة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية يوم الأربعاء 30-7 بأن الرئيس الأمريكي بوش قد أهدى رئيس الوزراء الإسرائيلي آرئيل شارون خارطة «للأراضي المقدسة» تعود إلى 1678 وتشمل العديد من دول المنطقة». وقد عبر شارون فور وصوله إلى البيت الأبيض عن شكره لبوش على الخارطة التي تظهر فيها أيضاً بابل وقال: «يمكنني أن أؤكد لكم سيدي الرئيس أن هذه الخارطة كانت ستحصل على موافقة حكومتي بدون مشكلة[3]. وتعالت الدعوات على تحرير الإنسان من القيود التي زعم أنها تكبل انطلاقته فتبين أن ذلك لم يكن إلا تحريراً للجانب الغريزي البهائمي فيه وتوجهاً إلى القضاء على المثل والأخلاق وعلى روح التسامي التي توصلت البشرية إلى زرعها في الإنسان على مدى مئات القرون من التطور. ولم يتحرج

1- الكسندر دوغين. أسس الجيوبوليتيكا. تر د. عماد حاتم دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004 ص97.

2- د. حسن حنفي. الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية. مجلة المعرفة. دمشق، شباط، 2004 ص 64.

3- د. بثينة شعبان. خارطة قديمة حديثة. صحيفة «تشرين»، زاوية «آفاق»، دمشق 4-12-2003.

بعضهم من أن يعلن «نهاية التاريخ» وكأن التاريخ قد تحقق والزمن قد انتهى والقيامة قد قامت»[1]!.

كانت حرب أمريكا على العراق آخر الممارسات التطبيقية لهذه المنظومة من التفكير الجديد وأشدها ضراوة وفتكاً، وقد خرجت مظاهرات شعوب العالم ضد تلك الحرب حتى قبل أن تشتعل. فأية علاقة لهذا كله بكتاب يتطرق للكشوفات الأثرية في أعماق التاريخ السحيقة؟!

الأسلاب و«الغنائم» الأولى للحرب الأمريكية تستعرض هذه العلاقة، وتبسط دوافعها وأهدافها وأولوياتها التي لم تخطر على بال أحد. إننا نتذكر «الإرهاصات» الأولى والخطب المسعورة التي رافقت الاستعدادات المبكرة لتلك الحرب، والحماسة المتلظية، الشبيهة بالجذب الصوفي تتردد في نداءات المتدافعين لتخليص البشرية من أسلحة الدمار الشامل في العراق ورفع راية الديمقراطية خفاقة على ربوعه! ولكن لم تمض إلا الأيام الأولى على هذه الحرب حتى سقطت الأقنعة والذرائع ووجدنا بلاد الرافدين تخوض حرباً لا تختلف بأي شيء عن حرب الصهاينة ضد «الإرهاب في فلسطين بل وتكرر كل ما فيها من وحشية ومنافاة للمنطق، «فالحرب على العراق كالحرب على فلسطين، حرب صهيونية في جوهرها، قاتلة وحاقدة ومدمرة في أحداثها ووقائعها اليومية»[2].

في رسالة من باريس كتبها الدكتور غسان الرفاعي ونشرت في «تشرين» بتاريخ 29-3-2003 تحت عنوان «أمريكا العالم لا عولمة أمريكا» استهلها المؤلف بنوبة الضحك الهستيري الذي استقبلت به مذيعة تلفزيون إسرائيلية قصف بغداد بالصواريخ، ثم قامت «بإنجاز حضاري آخر بعد ليلتين من القصف المتواصل لمعالم بغداد الحضارية، إذ قدمت للمشاهدين مصمم مدن إسرائيلياً يفاخر بأنه قد تبرع بتقديم خرائط مفصلة عن الأماكن الأثرية الحضارية في العراق إلى طياري التحالف دون مقابل وتوجهت إلى المشاهدين قائلة: «ينبغي أن يبادر طيار التحالف على قصف هذه الأماكن الأثرية من البر والبحر والجو لأنها أخطر من أسلحة الدمار الشامل. لا يمكن التخلص من الإرهاب الشرقي إلا بتدمير كامل للتاريخ. احرموا سكان هذا الجزء من العالم من تاريخهم الحضاري الكامل وحرروهم من تراثهم. ثم يشير الدكتور رفاعي إلى مثقف أمريكي جديد يجري تلميعه بدأب واهتمام، ومن أهم مقولاته: «الذاكرة

1ـ د. حسن حنفي الهامش رقم واحد، ص 63.

2ـ د. بثينة شعبان حربان ومحوران. صحيفة «تشرين» زاوية «آفاق»، دمشق 29-5-2003.

الوطنية هي سلاح التدمير الشامل الذي يتوجب القضاء عليه. أتسأل لماذا لا نكون فريقاً من المفتشين على غرار مفتشي الأسلحة النووية للكشف عن أماكن اختباء هذه الذاكرة الوطنية»[1]؟.

ولم يمض إلا يومان على الإعلان الرسمي لاحتلال بغداد حتى تشكل هذا الفريق من أرتال من اللصوص والمشبوهين قاموا جميعاً، وتحت حماية القوات الأمريكية، باقتحام «مخابئ» الذاكرة الوطنية في المتاحف وحقول التنقيب، وهذا ما سيجري الحديث عنه في الجزء الرابع - التوثيقي - من هذه الدراسة والذي يتناول المصير الذي انتهت إليه الآثار المجيدة التي خصص لكتابتها المسمارية جزء من هذا الكتاب. أما بقية الأجزاء فيتناول أولها «الرموز ومناهج قراءة الكتابات القديمة» والثاني «المركزية الغربية وقراءة الكتابات القديمة» ويتطرق الثالث إلى «المعاني البعيدة للكشوفات الأثرية».

1- د. غسان الرفاعي أمريكية العالم لا عولمة أمريكا. صحيفة «تشرين». دمشق 29-3-2003.

1

الرموز ومناهج قراءة الكتابات القديمة

اغتنى التاريخ الإنساني في القرنين الأخيرين بأسفار معرفية جديدة ومهمة ويرجع الفضل في وجودها لقراءة الكتابات واللغات التي كانت مجهولة قبل ذلك أو كان ينظر إلى نقوشها كمجموعة من الأحاجي التي يعد مجرد التفكير في حلها ضرباً من التعامل مع المستحيل، ولذلك كان حل تلك الرموز وقراءة نصوصها ميلاداً جديداً للتاريخ البشري.

وإذا كانت هذه الكشوفات والقراءات بالغة الأهمية بالنسبة للتاريخ الإنساني فإنها تكتسب أهمية مضاعفة بالنسبة لتاريخنا العربي، فأهم الكتابات الدارسة وجدت في منطقة ما بين النهرين ووادي النيل وأوغاريت وجبيل وبوغازكوي وجميعها تصلنا بخيوط كثيرة بأول المناهل التي استقت منها شخصيتنا الكثير من مقوماتها عبر التاريخ.

وإذا كان الباحثون العرب قد احتجبوا لأسباب كثيرة عن هذه الكشوفات والقراءات ولم يشاركوا في حل رموز تلك الرقم والنقوش والمدونات التي خطها الأجداد، فإنهم احتجبوا أيضاً عن التأريخ لهذه الإنجازات العلمية الكبرى والتعريف بها والكتابة عنها، فلم يصدر وحتى الآن - في حدود علمنا -الكتاب الذي يتناول بالدراسة تلك الموضوعات المهمة، وهو ما يعد نقصاً في المكتبة العربية، استطاع أن يعرض بعضه كتاب العالم النمساوي

أرنست دوبلهوفر[1]. الذي عرض فيه لتاريخ الكتابة الإنسانية وطبيعتها كنشاط بشري ثم تناول قراءة ثماني كتابات هي المصرية القديمة، الفارسية والبابلية المسماريتين، الحثية - المسمارية منها والهيروغليفية - الفينيقية من خلال أبجديتي رأس الشمرا وجبيل، المقطعية القبرصية، كتابة «ب». الكريتية الميكينية والتيوركية الرونية القديمة، ثم ختم كتابه بفصله عن مستقبل الكتابة. وينهج المؤلف في كتابه المنهج التاريخي، ولا نقصد بذلك فقط أنه يتتبع مصير كل رقيم مكتوب منذ أن تم العثور عليه وإلى أن قرئ، بل ويحاول أيضاً أن يلاحق مسيرة التفكير لدى كل عالم، فيواكب خطواته ويدخل بنا مختبره العلمي ويجعلنا نلمس الصعوبات المتلونة التي كانت تعترض قراءة الكتابة الغامضة وتعايش الجهود المضنية و«الليالي الساهدة» التي انتهت ببعض العلماء إلى اليأس واعتزال العمل بينما انتهت بآخرين إلى تحقيق النصر العلمي العظيم.

1- نأمل أن نكون قد وفقنا إلى نقل الكتاب إلى اللغة العربية بكل ما تتطلبه الأمانة العلمية من دقة ونزاهة، وأن نكون نجحنا في جعله مستساغاً بالنسبة للقارئ العربي ولا بد من الإشارة إلى أننا أبقينا على بعض المفردات العائدة إلى ميدان الدراسات اللغوية دون ترجمة وذلك بسبب إلفها وترسخها في ذلك الميدان كمصطلح «الكتابة البيكتوغرافية» (الكتابة بطريق الصور) و«الإيديوغرافية» (الكتابة بطريقة نقل كلمة أو فكرة من خلال تصويرها) كما أبقينا على كلمتي جمنازيوم وليسيه بسبب شيوع استعمالهما بلفظهما هذا في اللغات الأوروبية واستحالة إيجاد المعاهد التربوية المطابقة لهما بصورة كلية في بلدنا. أما كلمة «محدد» فهي ترجمة لكلمة Determinative التي تكرر ورودها في الكتاب لتعني ذلك الرمز المساعد الذي كان يضعه قدماء الكتبة أمام كلمات كثيرة التردد مثل «إله»، «بلاد» و«ملك بغية تحديد معناها وتمييزها عن الكلمات الأخرى كما ترجما كلمة Bilingua بكلمة «ثنائية» ويقصد بها تلك المنقوشات التي كانت تتضمن نصوصاً بلغتين أو أكثر (كحجر رشيد مثلاً) وكانت ضالة كل قارئ للرموز وأقصى ما يتطلع للتوسل به في عملية قراءة الرموز المطروحة امامه. كما أننا لم نتقيد في الترجمة بمصطلح واحد «الإسفيني أو المسماري» حيث إن ذلك المصطلح لم يستقر بعد في الأدبيات العربية هذا ولما كانت كل كتابة خطية في حد ذاتها قد استعملنا مصطلح الكتابة «الخطوطية» في الفصلين السابع والثامن للإشارة إلى الكتابتين القبرصية والكريتية - الميكينية اللتين تقومان على نقاطع خطوط وحزوز معينة بأشكال مختلفة وآثرنا استعمال هذا المصطلح رغم معرفتنا بصرامة القاعدة التي تفرض النسب إلى المفرد لا إلى الجمع.

أما الفصل الحادي عشر الذي أضيف إلى المتن فقد بدئ ليكون مقدمة للكتاب، إلا أن تداعيات الأحداث المعاصرة وما استدعته من التأملات والخواطر وتزايد الاهتمام بالكنوز الأثرية العربية وجلال مناسبة صدور هذه الطبعة من «رموز ومعجزات» لم تلبث أن تحولت بالمقدمة لتصبح فصلاً مستقلاً يجدر به أن يقرأ بعد الفراغ من قراءة الكتاب (المترجم).

ولهذا فإننا نحيي الجهد الكبير الذي بذله أرنست دوبلهوفر في كتابه، ونقدر له بكل إكبار ما اتسم به من دقة المحاكمات وجاذبية العرض. على أن وقفتنا هذه ليست عرضاً للكتاب ولا نقداً له (وقد أغنتنا عن ذلك مقدمة الأكاديمي ف. ستروفي للطبعة الروسية للكتاب) بل هي وقفة سريعة أمام ما يمكن أن نسميه «ما بعد القراءة» أي أمام بعض الخواطر التي أثارتها قراءتنا للكتاب وبخاصة في هذه الظروف الراهنة التي تعيشها أرضنا العربية وبصفة خاصة العراق، أرض العراقة الحضارية وموطن واحدة من أهم الكتابات الإنسانية، وقد اختص المؤلف قراءتها بالفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب.

إن مرحلة الكشوفات التاريخية في الزمان، والمرحلة السابقة لها، وهي الكشوفات الجغرافية في المكان، ترتبطان في التاريخ الأوروبي بمرحلة «النهضة»، والتي كان من سماتها يقظة الوعي والتفكير والمغامرات العقلية الجريئة والبحث عن المناهج العلمية الجديدة والاستزادة من المعارف والتوصل إلى التراكم المعرفي الذي تمخض فيما بعد عن الثورة الصناعية، التي كانت في وجهها الإيجابي تتويجاً للفكر الإنساني إذ طبقت العلم على الصناعة، لكنها لم تلبث أن اتخذت وجهها السلبي إذ كانت واحداً من أهم الأسباب التي مهدت للاستعمار بمعناه العسكري وبوارجه ومدافعه وعنصريته وما جره من مآس على القسم الأكبر من الكوكب الأرضي.

وكيفما كانت نظرتنا إلى هذه المرحلة التي كشفت صفحات مشرقة في تاريخنا القديم فإننا لا نستطيع أن ننسى ارتباطها بظاهرتين تفضي كل منهما على الأخرى وتكملها: بالاستعمار في صورته المباشرة المجردة من الأقنعة. وبالتراكم المعرفي الذي أفاد العلماء من ذخائره حتى توصلوا إلى كشوفهم التي تثير الإعجاب. ولدوبلهوفر في كتابه عبارة تصف شركة الهند الشرقية التي أسهمت بدور ملموس حتى في الكشوف فهي «منظمة قوية لا تقصر حاجتها على قطاعي الرؤوس السفلة والمغامرين، وكانت تقوم بنفسها على تربيتهم بكل اهتمام، بل وعلى رجال الفكر أيضاً». ويبدو لنا أن هذا الوصف يسم الاستعمار كله الذي اشتملت جيوشه على ضربين من الرجال: القتلة والعلماء، ولكل منهم ميدانه ومهمته. فعندما تنتهي مهمات قطاعي الرؤوس المذكورين و«تنتهي فترات الاستباحة ويرفع السيف عن المناطق المنكوبة بالغزاة، كانت تجمع التحف والكنوز والنفائس والآثار الفنية والمعمارية.. وتوجه جميعاً في موكب حربي عجيب يبدأ في الأرض المسلوبة وينتهي في عاصمة المحتلين»[1].

1- د. عماد حاتم. الكتاب وطموحات الواقع العربي مجلة الناشر العربي طرابلس (ليبيا) العدد 1، 1983 ص 23.

وقد لا يكون ثمة جديد في كل ما ذكرناه فالآلة الاستعمارية هيمنت في حينها على كل ما سواها من النشاطات الأخرى، ومن ذلك النشاط الاستشراقي الذي لقي تطوراً واسعاً في ظل الاستعمار وكان من نتائجه قراءة الرموز الكتابية. وقد أغناها كتاب «الاستشراق»[1] للدكتور إدوارد سعيد و«أساطير أوروبا عن الشرق»[2] لرنا قباني عن البحث في هذا الارتباط العضوي بين الاستعمار والاستشراق[3] إذ بينا الآفاق الواسعة التي كان يفتحها النشاط الاستعماري أمام المستشرقين[4]، وهو ما أكده كتاب دوبلهوفر أيضاً وأضاف إلى ذلك الارتباط بين الدراسات اللاهوتية وهذا النشاط إذ كانت دراسة اللاهوت تفضي بطبيعتها إلى دراسة اللغات الشرقية. ومهما يكن من أمر فإن أي استعراض لتاريخ الاستعمار لا بد وأن يمر بلوحات أولئك المكتشفين والجنود المجهولين «وكان بينهم الباحث والمبشر والعسكري والتاجر والمغامر والعالم والباحث عن الأحاسيس العنيفة والرسام والعالم الاجتماعي.. فكانوا يقطعون المسافات الطويلة ويخوضون ضروباً من المغامرات.. على أنهم كانوا حريصين جميعاً على تسجيل المذكرات ورسم الخرائط وتقديم النصائح والمشورات للهيئات المختصة، وقد دون

1- إدوارد سعيد. الاستشراق. ترجمة د. كمال ديب، ط 4، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1995.

2- رنا قباني أساطير أوروبا عن الشرق، فرق تسد. تر. د. صباح قباني دار طلاس للدارسات والترجمة والنشر. دمشق 1988.

3- يتحدث دوبلهوفر بكثير من التعاطف والإعجاب عن سلفستر «دي ساسي العظيم» الذي كان مظهره يوحي بالإخلال بما يشع به من الإلهام «وهو في ذلك يجاري العلماء الغربيين الذين يشيدون دوماً بجهده في ميادين الاستشراق بينما يتحدث إدوارد سعيد عن سلفستر دي ساسي أبي الاستشراق الفرنسي فيبرزه رمزاً مبكراً للتعاون بين المستشرق وجيوش الغزو. لقد شغل دي ساسي منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان يستشار بانتظام في المسائل المتعلقة بالشرق في تلك الوزارة إلا أن جهوده لم تقف عند محض الاستشارة وإنما تعدتها إلى أمور أخرى كان فيها المستشرق الكبير ضالعاً في أعمال الغزو. فقد جمع دي ساسي إلى وظيفة المستشرق وظيفة المترجم، ذي المكانة العالية، وساهم بوظيفته هذه في توجيه الحملة على الجزائر عام 1830، وترجم بيانها الموجه إلى الجزائريين. وقبلها، عام 1806، كان دي ساسي قد ترجم بيان نابليون الذي أريد به استثارة العصبية الإسلامية ضد الروس الأرثوذكس كجزء من حرب الإعلام التي رافقت حملة نابليون على روسيا. هادي العلوي. الاستشراق عارياً. مجلة الكرمل. نيقوسيا. العدد 10، 1985. ص 185.

4- أما الانحرافات الفكرية العنصرية التي تمخضت عنها أعداد كبيرة من الدراسات الاستشراقية المضللة فربما كان الدكتور محمد نجيب البهبيتي واحداً من أفضل من تصدى لها في أعماله الصادرة عن «دار الثقافة» - الدار البيضاء ومنها: «المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ، القسم الأول والثاني، 1981، المعلقات سيرة وتاريخاً، 1982 «المدخل على دارسة التاريخ والأدب العربيين، 1985».

هؤلاء انطباعاتهم وأوصافهم ومشاعرهم ومذكراتهم في مجلدات كبيرة كانت جليلة الفائدة بالنسبة لعلماء الاجتماع والجغرافيا ودارسي عادات الشعوب ومخططي الحملات العسكرية، فكانت بمجموعها تصطبغ بالصبغة النفعية وتستظل براية المد الاستعماري[1].

وكثيراً ما كانت العلاقات بين الغزاة المستعمرين - والتي تتقلب بين التناهش والتعاون - تنعكس على مصير التحفة الأثرية. فمن الأمور ذات الدلالة أن مكتشفي حجر رشيد، مفتاح قراءة الهيروغليفية، كانوا جنوداً في الحملة الفرنسية على مصر يحفرون خنادقهم القتالية. أما وصوله إلى المتحف البريطاني بعيد اكتشافه فيعكس الصراع الفرنسي - الإنكليزي على تلك الأرض وإصرار الإنكليز على سلب المهزومين الفرنسيين أسلابهم في مصر وقد عدوا ذلك الحجر - حسب تقريرهم - «مفخرة أسلاب السلاح البريطاني الذي لم يؤخذ عن طريق نهب السكان العزل من السلاح بل عنوة في حرب شريفة»!. أما «حجر حماة» مفتاح قراءة الحثية، فقد لفت أنظار رحالة ألماني قديم كتب عنه، ثم التفت إليه القنصل الأمريكي وأخيراً جاء دور صبحي باشا الحاكم العثماني، والكلمة لمؤلف الكتاب إذ يقول: «فلما سمع بقصة الحجر رأى أن يتجه إليه بنفسه فدعا القنصل البريطاني في دمشق كوربي غرين والمبشر الإيرلندي ويليام رايت ليرافقاه في زيارته فوجدوا ذلك الحجر وعثروا على أربعة أحجار أخرى.. وكان الكاهن ويليام رايت والحاكم يعرفان مسبقاً أن الحجر لن يقدم لهما طوعاً. ولكن ما معنى أن يكون صبحي باشا حاكماً وما جدوى وجود العسكر لديه إذاً؟ وأخيراً تم تطويق ساحة العمل بعدد من الحرس الجيدي التسليح «ثم نقلت إلى اسطنبول ونقلت نسخ منها إلى المتحف البريطاني. وتتصل كشوفات ما بين النهرين اتصالاً مباشراً بالغزو الاستعماري الإنكليزي. أما رولينسون الذي ساهم في قراءة الفارسية القديمة فكان له إسهامه في عدد من المذابح الاستعمارية الكبرى في أفغانستان وسواها، والتنقيبات عن أوغاريت وجبيل جرت في فترة ما يسمى بالانتداب الفرنسي على سورية. وقد زحف القارئون المبشرون على جزيرة الصيام في رحلة مشابهة ولكن بعد أن كانت حراب الاستعمار وبنادقه قد أجهزت على أهل الجزيرة حتى كادت تنتهي بهم إلى الصفر، وهو ما يعوق حل رموز كتابتهم حتى الآن.

1- من مقدمة د. عماد حاتم لكتاب: «البرتو مورافيا. رسائل من الصحراء» دار الفرجاني. طرابلس، ليبيا، 1995 ص 5.

أما التراكم المعرفي فنقصد به ذلك التحشد الكمي الكبير لمختلف أنواع المعرفة (واللغويات من بينها) والذي أدى إلى تحول نوعي في مختلف ميادين العلم وإلى ظهور مناهج جديدة في الدارسة أدت في مجموعها إلى ما نسميه الثورة العلمية التي نشهد آثارها اليوم. فقد كانت المحصلة العلمية المتزايدة سببا في ظهور مناهج جديدة في الدارسة ومنها «المنهج المقارن» الذي ترك أثره في مختلف العلوم، فبتأثير منه ظهر جدول مندلييف للعناصر وأفاد منه داروين في كتابه المشهور «أصل الأنواع»، أما في ميدان الدراسات الإنسانية فالمنهج المقارن بدل من نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى حضارته بصورة عامة، وقد جرى تطبيقه بصفة خاصة في علوم الكتابة والتراكيب الكتابية والهيروغليفات والبنية اللغوية، ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان واحداً من الأسباب الرئيسة التي انتهت بتحقيق «معجزات قراءة الرموز».

ومن المتفق عليه أن الكتابة نقلة للإنسان من الهمجية إلى مرحلة الحضارة، مكنته من نقل تجاربه إلى الأجيال التالية التي أفادت من التجربة ورفدتها بإسهامها لتورثها من يأتي بعدها. ولدينا في العصر الحالي ما يقارب الأربعمئة نمط من أنماط الكتابة، وقد توقف المؤلف بشيء من التفصيل أمام المراحل الأساسية التي مرت بها الكتابة فأعاننا بذلك على فهم عملية تفكيك رموزها المكتوبة فيما بعد. أما المرحلة الأولى مما يمكن أن نسميه «التدوين» فتمت باستعمال الأشياء، البيركا وصولجانات الرسل والشرائط والمسابح والكيبو وما سوى ذلك.

وقد نجح المؤلف في عرض الصور التي اتخذتها الكتابة لدى الإنسان خلال تاريخه الطويل - الكتابة التصويرية، الإيديوغرافية، الكتابة بالكلمة اللفظية ثم الانتقال إلى الكتابة المقطعية وهكذا، وبذلك هيأ القارئ لفهم المراحل التي مرت بها عملية فك كل من الرموز ومنطقية تلك المرحلة. على أن ما سجله المؤلف في كتابه من «رموز ومعجزات» علمية فما كان له أن يتحقق لولا توفر العنصر البشري الذي اجترح هذه المعجزات عن جدارة. ومهما كان نظرتنا إلى العهود الاستعمارية وأسبابها ونتائجها فلا يمكننا إلا أن نضع في الحسبان قبل كل شيء - الاستعدادات العلمية الكبرى التي تسلح بها العلماء قبل أن يواجهوا الرقم الكتابية القديمة، وما قدمته لهم سلطاتهم من تسهيلات حتى حققوا مآثرهم. ولعل معجزتهم الأولى جميعاً هي الخلفية المعرفية الواسعة التي دخلوا بها عالم اللغات. كان كل منهم يعرف أعداداً من اللغات وعندما كانت قناعة أحدهم توصله إلى ضرورة معرفة المزيد كان لا يتردد في تعلم مجموعة جديدة من اللغات بدءاً من حروفها الأولى. يضاف إلى هذا أنهم كانوا مدفوعين إلى كشف أستار المجهول متشوقين إلى الترحل والاكتشاف واختراق حجب الزمان والمكان.

واستعراض حياة مجموعة قليلة من هؤلاء العلماء يؤكد لنا ما كان يضطرم في قلوبهم من حب المعرفة وما تزودوا به من معارف: فحياة شامبليون مثال نادر لتكريس الذات من أجل الغاية العلمية التي تطلع إلى تحقيقها. نشأ بين الكتب، بدأ يكتب وهو في الخامسة من عمره، تعلم اليونانية واللاتينية صغيراً واستظهر هوميروس وفرجيليوس وفي الثانية عشرة من عمره بدأ تأليف كتاب عن مصر واختارته أكاديمية غرونوبل للعلوم عضواً فيها وهو في السادسة عشرة من عمره إذ نظرت بعين التقدير لا إلى ما حققه بل إلى ما سوف يحققه في ميدان العلم، تعلم العربية حتى حسبوه من أبنائها، وعددا كبيراً من لغات الشرق.

البروفيسور إيبنسين - تعلم الأرمنية وعدداً من اللغات القريبة منها بالإضافة إلى عدد من اللغات الأوروبية قبل أن يبلغ العشرين ثم درس اللغات الهندية والإفريقية ولغات البولونيز ثم الفارسية القديمة أما اللغات الإفريقية فلم يكن مطلعاً فقط على عدد منها بل وكان يتكلمها بطلاقة. جورج سميث الذي بدا طارقاً على النحاس في المتحف البريطاني، تعلم قراءة الرقم الآشورية واكتشف سطور ملحمة جلجامش. أرتسيبالد سايس - تعلم العبرية القديمة والقبطية والفارسية والسانسكريت وصار أستاذاً في جامعة أكسفورد. أمضى حياته في الأسفار العلمية فهو يستنسخ تارة إشارات الري الكنعانية في القدس ثم كتابات الجزيرة العربية ثم يجوب جزر المحيط الهادي لدراسة حضارة البولونيز وتجتذبه حضارات جاوة، وديانات غينيا والبوذية في اليابان ودخول المسيحية إلى الصين على أيدي النساطرة وآخر سؤال طرحه قبل وفاته كان يدور حول صدور نصوص جديدة من رأس الشمرا، وأمثال هذا كثيرون... تلك هي إذا نوعية الشخصيات التي ساهمت في قراءة الرموز القديمة ونوعية الخلفية المعرفية التي أهلتهم لدخول عالم القراءات الصعب المليء بالعثرات. والكاتب يتناول كل واحدة من هذه القراءات بمفردها ويبين ما تعرض له العلماء من صعوبات وخطوات الخطأ والصواب التي سلكوها وما عاشوه من آمال ومعاينات جعلت الكثيرين منهم ينصرفون عن هذا النشاط يائسين. فقد كانت الرموز المعروضة للقراءة تتحدى معارف العلماء وثقافتهم المتلونة وحماستهم للعمل، وقد فرضت كل كتابة تحدياتها الخاصة وكان من الضروري استنباط منهج لكل قراءة، و«المراحل التمهيدية» العامة لقراءة الرموز كانت تمتد أحياناً عشرات السنين، وكان قطع كل مرحلة فيها يعد انتصاراً علمياً في حد ذاته. كان لا بد في البداية من البرهان على أن النقش المطروح للقراءة ليس مجرد نقش جمالي بل كتابة تحوي نصاً إخبارياً ذا مضمون. ثم يتم الانتقال بعد ذلك إلى التعرف على طريقة القراءة وإثبات الاتجاه الذي تسير فيه، أنتجه بطريق عمودي أم أفقي، من اليمين إلى اليسار أم من اليسار إلى

اليمين، ما نمط الكتابة وما الأسرة المحتملة التي ينتمي إليها النص، فتحديد الأسرة سيؤدي إلى التفاؤل بالحصول على حروف ساكنة فقط (كما في الساميات) أو حروف ساكنة وصائتة (كما في الهندوأوروبيات مثلاً) وما النصوص التاريخية التي تعين على تحديد ذلك؟ وكانت هذه الأمور وما يليها تستغرق مناقشات طويلة بين العلماء وقد تفضي إلى عقد المؤتمرات العلمية.

وطالما شغلت اهتمام العلماء قضية الرموز التي أسماها شامبليون بالمحددات وهي تلك الرموز التوضيحية المعينة على فهم الكتابة، وكانت واسعة الانتشار في الكتابة الأكادية أيضاً. كما أفادوا من الخصوصية التي اتخذتها بعض المفردات في النص المكتوب، فأسماء الملوك في الكتابة المصرية تحاط بأطر خاصة. وقد يستوقف نظر العالم تكرار كلمة معينة (الكلمة الثلاثية الأحرف في نص من رأس الشمرا، وقد خمن باوير فيها اسم بعل وصح تخمينه). كما أن توضع السوابق واللواحق في الكتابة العربية السامية والحروف الوحيدة الحرف كبعض حروف العطف والجر والتشبيه أعان باوير نفسه على قراءة النص الأوغاريتي الأول. وأفاد العلماء حتى من توضع الرسم المجهول الهوية واتجاه نظرة العين في الكتابة المبهمة المعززة برسم أحد الملوك لمعرفة كيفية قراءة النص المرسوم كما حدث بالنسبة لخاتم تاركومووا الحثي، واستعانوا بالنمطية المتكررة في افتتاحيات الرسائل وتكرار ألقاب الملوك وديباجات القوانين ونوعية «الدعوات» التي يستنزلونها على الجناة، فكانت في مجموعها عوناً على القراءات، كما وضع العلماء في الحسبان الإخباريات التاريخية التي دونها الأقدمون والتي ساعدت على إعطاء الجو العام للنصوص كإخباريات هيرودوت التي لعبت دوراً حاسماً في قراءة الفارسية القديمة ومعلومات المصادر الصينية التي لعبت ذلك الدور في قراءة الرونية التيوركية القديمة.

توقف المؤلف بالتفصيل المطلوب أمام كل كتابة تصدى لها في دراساته، وناقش بكثير من المنطقية الخطوات التي سار عليها القارئون حتى توصلوا إلى النتائج العلمية المهمة، ولا يمكننا إلا أن نجازي المؤلف أسفه لأنه لم يتمكن من التوقف أمام مجموعة غير قليلة من الكتابات في أمريكا (قبل كولومبوس) وفي أفريقيا الشمالية وجزيرة العرب والشرق الأقصى بالإضافة إلى كتابة موهينجو - دارو وما يوافقها من تشكيلات كتابية في جزيرة الصيام. وربما عوضتنا عن ذلك كله تعليقات المؤلف على بعض الأحداث التي أدت إليها كشوف الكتابات القديمة والتي لم يكن الكاتب ملزماً بإيرادها، إلا أنها أضفت على كتابه طرافة وأهمية كبيرتين وبينت مدى خطورة العمل الذي تم إنجازه بقراءة الرقم والرموز القديمة.

2

المركزية الغربية وقراءة الكتابات القديمة

على الرغم من القيمة العلمية الكبرى لكتاب أرنست دوبلهوفر الذي تتضمن الكثير من المواد المعرفية مضافة إلى لحظات الدهشة التي ترافقت مع إنجاز كل من الاكتشافات وإلى تقييم كل منها في الميزان العلمي فلا يمكن للقارئ إلا أن يلاحظ تحيز المؤلف المبالغ فيه للمركزية الغربية موقفه الخاص من العرب والذي يصل حدود التحامل إذا لم يتجاوز ذلك. ويتجلى هذا في موقف المؤلف من الدراسات العربية ومن كل ما جاء لدى الرحالة العرب في هذا السياق. فبشيء من السخرية يستعرض في كتابه ما يسميه - بـ «أكثر التخيلات هذياناً» وذلك «الفيض من شبه العلمية» لدى عدد من الأوروبيين ويسوق آراء متباينة تتنافس في قصورها ومحدوديتها بدءاً بتصورات غورأبولون، فالمستشرق جوزيف ديغين الذي قال بأن «الصينيين - مستعمرون مصريون» وكوخ الذي استنتج استخدام المصريين لأبجديات خمس! فالكونت بالين الذي جاء بـ «النتائج الباهرة في ترجمته لحجر رشيد»! أما المؤلفات العربية في هذا المضمار فيدحضها جميعاً بعبارة واحدة تقول: «لعل النقوش على الآثار استرعت أنظار العرب أكثر من مرة غير أن تفاسيرها لم تكن تخرج عن حدود الأخيلة الخالية من المعنى «ويمكن للباحث المدقق في هذا الموضوع أن يتلمس الجهود الجادة للعلماء العرب في مؤلفاتهم التي نقل معظمها على اللغات الأوروبية وأحمد بن وحشية واحد من هؤلاء، وقد تحدث عنه ابن النديم في «الفهرست» بكثير من التفصيل. والدراسة المفصلة التي نشرها الدكتور عكاشة الدالي تحت عنوان «مصر في المؤلفات العربية في العصور الوسطى» تذكر أعداداً من كبار الجغرافيين العرب كالإدريسي والمسعودي والغرناطي والقزويني والمقريزي والصاوي وسواهم والدور المميز الذي احتلته مصر في مؤلفاتهم جميعاً حتى إن الإدريسي، الذائع الصيت يصف أرض الأهرامات بالمقدسة ولهذا كانت فيها مدافن الفراعنة. أما اهتمام العرب بالأهرامات

فتؤكده الحادثة التالية: تحدث الإدريسي عن فقيه اجتمع في مصر مع رجل «من فضلاء المغاربة» كان يختلف في بلاده إلى أحد العلماء لطلب الحكمة والأدب، ثم ودعه ليسافر لقضاء فريضة الحج، فلما عاد حضر مجلس شيخه العالم الحكيم: قال: «فتلقاني بالترحيب والإكرام والتوجيب. ثم قال:

«حدثني عن أهرام مصر بما رأيته واضرب صفحاً عما من أخبارها رويته. فقلت له يا أستاذ ما عندي من المعاينة فيها ما أرويه وأسوق إليك حديثاً صحيحاً فيه. فقال: أخس بهمة لطالب علم وحكمة لا يثير من عزمه لرؤية مثلها ساكناً ولا يهيج من تشوقه وتشوفه إلى معاينة ما يمكنه معاينته من عجب كامناً. وهل كان بينك وبين الإخبار عنها والشهادة عندي بما شاهدته منها، سوى ركضة راكب أو دفعة قارب، واخلق بكل ساقط الهمة ألا يكون أهلاً لتقليد جواهر الحكمة، فلا تعد بعد يومك هذا إلي، لقراءة كتاب من كتب الحكمة والأدب علي! فرحلت على الفور إلى مصر لا لغرض أرمي إليه من قوس المرام، سوى رؤية الأهرام»[1].

وإذا كانت كتابة النص الواحد بأكثر من لغة عاملاً حاسماً بالنسبة لقراءته، وهو ما دلل عليه حجر رشيد بصفة خاصة، فالحقيقة التي يقدمها الدكتور عكاشة الدالي في نهاية دراسته تطرح أجرأ الفرضيات في أن يكون العرب قد قرؤوا المصرية بصورة من الصور إذ يقول ما ترجمته: «ثمة احتمال ممكن جداً أن يكون أكثر من واحد من النصوص المصرية القديمة قد تمت معرفته من قبل عرب القرون الوسطى المبكرة. فهناك عدد وفير من المواد والنصوص القديمة التي تحمل كتابات مصرية هيروغليفية أو من الموضوعات التي تتضمن واحداً أو أكثر من النقوش القبطية، اليونانية، الكارية، اللاتينية، العبرية، الآرامية، الأكادية، العيلامية والفارسية القديمة وهو ما قد يكون واحداً ممن يعرفون أي واحدة منها من تجريب فك رموز المصرية القديمة. والمواد المشتملة على النقوش تتراوح بين نصوص طويلة مثل حجر رشيد (بالهيروغليفية، الديموطيقية واليونانية) وبين مزق صغيرة كالرقع التي كتبت لترافق المومياء (بالديموطيقية واليونانية) أو لوحات تأسيس البناء (بالهيروغليفية واليونانية - الإمبراطورية 1998:97) وهناك أيضاً نصوص مصرية بحروف يونانية. والأمثلة الأخرى على النصوص المتعددة اللغات تتضمن رقية العقرب حيث كتب النص بالديموطيقية

1- الشريف أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الحسيني الإدريسي أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام. تحق الريش هارمان. بيروت 1991. يطلب من دار النشر فرانتس شتاينر. شتوتكارت ص 15.

مع عناصر عربية يسهل التعرف عليها (بورتين 1992)، والبردية الرباعية اللغات وتتضمن اليونانية واللاتينية والديموطيقية وكتابة لم يجر التعرف عليها (كوليس 1981) كما استعملت الهيراطيقية المصرية أحياناً مع العبرية (أهاروني 1966)[1].

ولا يختلف عن هذا موقف المؤلف من كبار العلماء الجغرافيين العرب - ياقوت والاصطخري وابن حوقل. كما يظهر تحيزه للمركزية الغربية في موقفه من المعلومات المتعلقة بدفن الملوك وما يتبع ذلك من دفن للبشر والحيوانات والتي قدمت فائدة ملموسة في كشف الكتابة الرونية التيوركية القديمة في سيبيريا فالمؤلف يعود فيها إلى هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد واستمدها من مصادر سماعية وتتعلق بشعب يسميه (الصقالبة) وهي تسمية غير واضحة لدى هيرودوت، بينما وردت هذه المعلومات بتفاصيل شديدة لدى عالمين عربيين شاهدي عيان (وهما ابن فضلان - القرن العاشر الميلادي وابن بطوطة - الرابع عشر الميلادي) والكتابان منشوران بعدد من اللغات الأوروبية، وقد لقي كتاب ابن فضلان اهتماماً استثنائياً من طرف الباحثين الأوروبيين[2]. أما رحلة ابن بطوطة فربما لا تنافسها في شعبيتها لدى الأوروبيين إلا «ألف ليلة وليلة».

كان مما رآه ابن فضلان في رحلته مشهد إحراق ملك الروس داخل سفينته: «فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه من يموت معه فقالت إحداهن أنا فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت حتى إنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما»، ثم جعلوا للملك قبة على السفينة وأحاطوه بمظاهر التكريم» وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بيد يديه وجاؤوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السفينة ثم جاؤوا ببقرتين فقطعوهما أيضاً وألقوهما فيها، ثم أحضروا ديكاً ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها... أما الجارية التي تريد تقتل فقد أخذ ستة رجال الجارية ثم أضجعوها إلى جانب مولاها وأمسك اثنان رجليها واثنان وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت

1- Okasha EL-Daly. Ancient Egypt in medieval Arabic Writings in: The Wisdom of Egypt - changing vision through the Ages UCL Press. Institute of Archeology, University College, London 2003, p59.

2- أ. بد كواليفسكي كتاب احمد ابن فضلان عن سياحته لنهر فولغا 1921-1922. خاركوف، دار جامعة خاركوف للنشر، 1956. والفصول الأولى من كتاب: Ingvar Andersson. A Historg of Sweden. Natur OCH Kultur. Stockholm. Second Edition. 1970.

في عنقها حبلاً. ثم راحت تطعنها بخنجر عريض النصل والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت»[1].

ويقدم ابن بطوطة هذه اللوحة بصورة «أكثر غنى» وتفصيلاً فيقول إنه وصل إلى خان بالق في الصين وكان «القان» غائباً في الحرب: «ولما خرج خالف عليه أكثر الأفراد واتفقوا على خلعه لأنه كان قد غير أحكام السياق، وهي الأحكام التي وضعها جنكيز خان، جدهم الذي خرب بلاد الإسلام. فمضوا إلى ابن عمه القائم، وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه وتكون مدينة الخنسا إقطاعاً له، فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل. وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك، فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأنفار، واستعمل اللعب والطرب مدة شهر. ثم جيء بالمقتول وبنحو مئة من المقتولين، بنى عمه وأقاربه وخواصه. فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الأرض، وفرش بأحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه، وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة، وجعل معه أربع من الجواري وستة من خواص المماليك معهم أواني الشراب. وبني باب البيت، وجعل فوقه التراب حتى صارت كالتل العظيم. ثم جاؤوا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت، ونصبوا خشباً على القبر وعلقوها عليه، بعد أن أدخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل أقارب القان المذكورون في نواويس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم، وصلبوا على قبور كبارهم، وكانوا عشرة، ثلاثة من الخيل على كل قبر، وعلى قبور الباقين فرساً. وكان هذا اليوم مشهوداً، لم يختلف عنه أحد من الرجال ولا من النساء المسلمين والكفار. وقد لبسوا جميعاً ثياب العزاء. وهي الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين. وأقام خواتين الخان وخواصه في الأقبية على قبره أربعين يوماً، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة. وصنعت هناك سوق يباع فيها ما يحتاجون إليه من طعام وسواه. وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم في هذا العصر»[2].

وهكذا فقد كان من الأكثر موضوعية بالنسبة لدويلهوفر أن يعتمد شهادتي ابن فضلان وابن بطوطة فهما أحدث عهداً وأكثر مصداقية إذا اعتمدنا على المشاهدة العينية وارتبطت الثانية منهما ارتباطاً مباشراً بالعادات التيوركية القديمة.

1- من كتاب أحمد بن فضلان بن العباسي بن راشد بن حماد، رسول المقتدر الى ملك الصقالبة. (مصدر سبق ذكره) ص 314.

2- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. مؤسسة الرسالة. بيروت 1401 هـ، 1981 م ط 3 ج 2، ص 735-736 (وخانت بالق هي بكين حالياً والخنسا هي هانك شو).

وأخيراً فربما كانت هذه «المركزية الغربية» هي التي صرفت ذهن المؤلف عن نقطة أساسية في معرفة وقراءة معظم اللغات التي تناولها كتابه وهي معرفة القارئين للغة العربية كطريق إلى فك رموز الكتابات القديمة فوق أراضينا. فهو يلح على معرفة هؤلاء بالعبرية والقبطية والسريانية ولا يذكر العربية إلا عرضاً. وقد أثبتت قراءة شامبليون للهيروغليفية المصرية وباوير للأوغاريتية ودورم لأبجدية جبيل وقراءة البابلية القديمة والحثية أن معرفة العربية كانت القاسم المشترك بين جميع القارئين. ويتهيأ لنا أن المستشرقين قد أدركوا هذه الحقيقية عندما فتحوا القمقم فسارعوا إلى إغلاقه بمجرد أن أدركوا ما يحتوي عليه من قوة وجبروت، وحاولوا ترويض «المارد» أو توجيهه الوجهة التي يريدون وبخاصة من ذلك وضع الفاصل الذي يلغي أي علاقة بين العربية وهذه اللغات القديمة على العموم، وبين المصرية القديمة بشكل خاص، وقد أثبتت التحليلات السياسية المعاصرة أن أهم ما تسعى الأوساط الاستعمارية إلى تحقيقه هو إحداث أكبر فجوة بين مصر والعرب.

فعلى الرغم من أن اكتشاف المصرية قد تواكب مع بدايات التنافس على الثروات العربية (والأثرية من بينها) فقد اتفق المستعمرون جميعاً على ضرب الحصار على المصرية وإعلانها لغة فريدة متفردة نبتت وأورقت وأزهرت ثم قضت وبادت ضمن حدود وادي النيل[1]. والمعجم الرائد الذي كتبه العالم المصري أحمد كمال شاهد على هذا الحصار. لقد تعلم أحمد كمال في مدرسة الألسن وعمل في مصلحة الآثار حتى أصبح أميناً للمتحف المصري ودرس المصرية القديمة ونال عضوية المجالس اللغوية، وقد أعلن في بداية هذا القرن الأصل الواحد للمصرية والعربية. وبدأ كتابة معجمه الذي استغرق عشرين سنة من البحث وأخرجه في 22 جزءاً يتضمن كل منها أحد الحروف

1- لإضفاء المزيد من الخصوصية على المصرية القديمة وقطع علاقتها بالعربية تعلن الأدبيات الأوروبية، والدراسات المصرية الدائرة في فلكها، أن هذه اللغة تعود إلى الأسرة السامية - الحامية أو هي تحتوي عناصر من اللغات الحامية (على حد تعبير الأكاديمي ف ستروفي في مقدمته لهذا الكتاب). وقد تصدت دراسة الدكتور على فهمي خشيم «آلهة مصر العربية» لهذه الأقاويل ودحضتها فأثارت بذلك ولا تزال تثير عواصف من الاستنكار لأنها قلبت الدراسات السابقة رأساً على عقب أي بمعنى آخر - أعادتها إلى نصابها وأعادت المصرية إلى أرومتها الأولى وافترضت انها ربما كانت المنبع الأول للغات العروبية. انظر دراستنا حول الكتاب في مقال: «آلهة مصر العربية» أو «رحلة البحث عن الجذور والأصل الواحد». مجلة «الموقف الأدبي». دمشق 1994 العدد 279 ص 22-46.

الهيروغليفية، أما حرف السين فتضمن المجلد الخاص به 1072 صفحة من القطع الكبير حافلة بالمعلومات والمقارنات والملاحظات ودفع بالمعجم لوزارة المعارف لطبعه فاحيل جزء منه (وهو المتضمن حرف القاف) على مدير المطبوعات، وكان إنكليزياً فأحاله إلى كبير الأمناء بمصلحة الآثار وكان إنكليزياً وأشرك في الموضوع عالماً فرنسياً كان يشتغل في مصلحة الآثار، فكان ذلك كله سبباً في القضاء على المعجم وطيه في زوايا النسيان[1]. بل لقد عوقب المؤلف نفسه بالنسيان والإهمال، وعندما توفي سنة 1923 تفردت دمشق بتأبينه وبإحياء ذكراه، بينما تواصلت الجهود من أجل إعادة الحياة إلى عمله العلمي الجليل. وقد نشرت «الأهرام» بتاريخ 12-3-1992 رسالة في صفحة «بريد الأهرام» بعنوان «نداء الأحفاد» وهذا نصها: «ترك المرحوم أحمد باشا كمال، أول عالم آثار مصري، قاموساً أبجدياً لكلمات اللغة الهيروغليفية ومعانيها باللغتين العربية والفرنسية يشتمل على أكثر من عشرين جزءاً. ورغم مضي وقت طويل على وفاة المؤلف ما زال القاموس مخطوطاً. ويعلم العديد من علماء الآثار المصريين بوجود هذا المخطوط ويدركون أهمية نشره.

ويقتضي نشر هذا المخطوط مراجعته في ضوء ما حدث من تقدم في علم اللغة المصرية القديمة منذ تأليفه وحتى الآن، كما يقتضي توفر التحويل اللازم. ولا يمكن أن يتولى هذا الأمر سوى جهة قادرة علمياً ومالياً على تحمل أعباء نشره. وقد رحبت بعض الجهات الأكاديمية بنشره، غير أن عدم توفر التمويل اللازم لديها وقف عقبة في سبيل النشر. ويهيب أحفاد المؤلف رحمة الله عليه، بالجهات المعنية أن تبادر إلى تحمل مسؤولية إخراج هذا العمل العلمي الضخم الذي بذل المؤلف في إعداده ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً ليخرج إلى حيز الوجود خشية اندثاره.

من الأحفاد

هدى عمر البارودي

ثم ظهرت بشائر هذا «الإحياء» في أعمال ندوة «الوحدة والتنوع في اللغات العروبية» التي عقدها مجمع اللغة العربية الليبي في طرابلس بتاريخ 25-28-2004 في الورقة التي تقدم بها الدكتور لؤي محمد سعيد محمود (مصر) بعنوان «أحمد كمال باشا ومنهجه الرائد في

1- انظر: د. علي فهمي خشيم؟ آلهة مصر العربية. المجلدان 1-2، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ودار الآفاق الجديدة - الدار البيضاء. ط 1، 1990، ص 190-193.

التقريب بين العربية والمصرية القديمة» ثمن فيها عالياً جهود العالم الكبير واتساع علومه ونفاذ نظرته، كما أكد على الأهمية الخارقة للعادة للعمل الكبير الذي قدمه والذي، على الرغم من توالي السنين، لم يطبع منه إلا الجزء الأول فقط. وقد حمل الباحث نسخة منه ليقدمها إلى الندوة.

ومثلما طمس كتاب أحمد كمال طمست أي فكرة للعودة بالمصرية إلى أصولها المنطقية وعكف العلماء على دراستها كنبت عجيب لا علاقة له بما يجاوره. وساعد على ذلك، أو أسس لذلك، الهيمنة الطاغية للدراسات الأوروبية «ولقد بلغ من سيطرة اللغات الأوروبية على البحث في تاريخ مصر وحضارتها أن المجلة الرسمية التي تصدر عن هيئة الآثار المصرية في القاهرة تنشر البحوث فيها باللغات الأوروبية، وبأقلام دارسين عرب حتى يومنا هذا. وقد اعتبر تقديم ملحق قصير بالعربية لبعض ما نشر من دراسات في هذه المجلة «ثورة» جديرة بالتقدير والإعجاب[1]. وهكذا صارت الرموز الهيروغليفية التي تكتب من اليمين إلى اليسار أو من الأعلى إلى الأسفل تكتب من اليسار إلى اليمين وهو ما عكس صورها، وأبدلت ضادها وظاؤها بالدال والزاي.

وبما أن المصرية تعتمد في كتابتها - شأن جميع الكتابات العروبية - على الصوامت فقد حرك العلماء الأوروبيين هذه الصوامت على هواهم. أما الأسماء العروبية العريقة فأسقطت عليها طرق غريبة في اللفظ وصيغت صياغة يونانية فـ رع - مس (ابن الراعي) وازر وعزة ومنف وحر أصبحوا بمشيئة العلماء الأوروبيين ومن جر جرهم من محبي الجرس «الخواجاتي» من العلماء العرب رمسيس، أوزيريس، إيزيس، منفيس وحورس حتى لو سمعها أصحابها القدماء لسألونا مستنكرين: ما المقصود بهذه الأسماء؟ ومع توالي السنين ترسخ في أدبياتنا وعقولنا ما يشبه المسلمة وهي أن المصرية لغة غريبة عنا، ذاتية في ذاتها، ننظر إلى نقوشنا بإعجاب ودهشة وإنكار دون أن نشعر بأنها جزء منا. فكان ذلك بمجموعة أساساً للنظرية «الفرعونية» التي حاولوا غرسها في التراب المصري وغرس «الفينيقية» على الساحل اللبناني.

والغريب أن هاتين المنطقتين من أصفى المناطق عروبة إن صح التعبير فالتوضع الجغرافي وحقائق التاريخ تثبت أن الأرض الأكثر عروبة فوق الخارطة العربية هي مصر، فهي تقع من الجسد العربي في الصميم، ولعها الأرض الوحيدة التي تحيط بها الأراضي العربية من جميع

1- د. علي فهمي خشيم آلهة مصر العربية (مصدر سبق ذكره)، المجلد الأول، ص 8.

جهاتها، ومع ذلك فلعالم الغربي الذي يقطع، في تحليل كلمة من اللاتينية أو الإنكليزية، مسافة تمتد من لندن أو باريس إلى كلكوتا بحثاً عن الأصل السنسكريتي للكلمة، يستثقل قطع هذه المسافة القصيرة بين مصر وجارتها في ليبيا أو اليمين أو الشام لتحقيق الهدف نفسه وهو البحث عن أصل الكلمة المصرية. أما بالنسبة للساحل اللبناني فإن قارئ كتابته (في جبيل) انطلق من مسلمة لم يعرضها لي نقاش، وهي أن المنطقة سامية أصيلة لم تخضع لأي تأثيرات غريبة وانطلاقاً من هذه المسلمة استطاع قراءة الحروف العربية لأبجدية جبيل في أيام معدودات.

ومما يستوقف النظر في قراءة الأبجديتين - الأوغاريتية وأبجدية جبيل - هو السرعة القياسية التي تمت بها تلك القراءة، والذي يحيي في الذاكرة كتاب كبير المؤلفين العرب في تاريخ الكتابة وفنونها، أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، المصري (1355-1418 م) الذي عاصرت حياته شواهد الحضارة المصرية العريقة ومناظر كتاباتها ونقوشها الجميلة، وفيها ألف كتابه الأشهر «صبح الأعشى في كتابة الإنشا» في أربعة عشر مجلداً. وهو «موسوعة» وافية بكل ما يتعلق بالكتابة، بداية من المواد المستعملة فيها وحتى فنونها البلاغية والأسلوبية وقد نشر الكتاب سنة 1913، أي قبل زمن طويل من قراءة الأبجديتين المذكورتين.

وفي المجلد التاسع من «صبح الأعشى» يطرح المؤلف قضية «افتراضية» تتعلق بكيفية التصرف إزاء نص كتب بحروف مجهولة ويسمي ذلك بالتعمية[1] ويعتمد فيه على ابن الدريهم. وسواء أكانت كتابة النص حديثة أم انتهت إلينا من خلال الحفريات الآثارية فهي قد أنجزت - وفق تعريف القلشندي - «بقلم اصطلح عليه المرسل والمرسل إليه لا يعرفه غيرهما[2]. وقبل أن يستعرض المؤلف مناهج قراءة النص يتوقف بكثير من التفاصيل أما «مذاهب التعمية» وطرقها كـ «أن يكتب النص بالأقلام القديمة التي ليست متداولة بين الناس ص (231) أي ما نسميه بالأبجديات القديمة أو أن يصطلح الإنسان مع نفسه على قلم يبتكره (ص 232) الخ. ويرى أن الناظر في الحل يحتاج إلى أصلين: الأول معرفة الأس الذي يترتب عليه الحل (ص 234) وهو ما يحتاج إلى سبعة أمور وتبدأ بمقادير حروف الكلمة

1- القلشندي كتاب «صبح الأعشى». المجلد التاسع. دار الكتاب الخديوية طبع بالمطبعة الأميرية (1330 هـ، 1913 م). ص 230.

2- المصدر السابق، ص 231.

فأحرف الزيادة العشرة وتنتهي بأن يعرف القارئ أكثر الحروف دوراناً في اللغة، والثاني «كيفية التوصل بالحدس إلى حل المترجم: قال ابن الدريهم - إذا أردت حل ما ترجم لك فأبدأ أولاً بعدد الحروف وكم تكرر كل شكل منها مرة فأثبته أولاً فأولاً. قال وأول ما تستخرج الفاصلة (ص 239) قال وينبغي أن يكتب للمبتدئ أولاً كل كلمة على حدتها منفصلة، وأن يكتب له الشعر دون النثر فإن الوزن يساعده على ظهور بعض الحروف كهاء التأنيث وتاء التأنيث الساكنة وتاء المتكلم والساكن الذي لا يمكن أن يكون إلا أحد حروف العلة الدائرة في الكلام[1].

فإذا رأيت هذه الأسطر مكتوبة بهذا القلم:

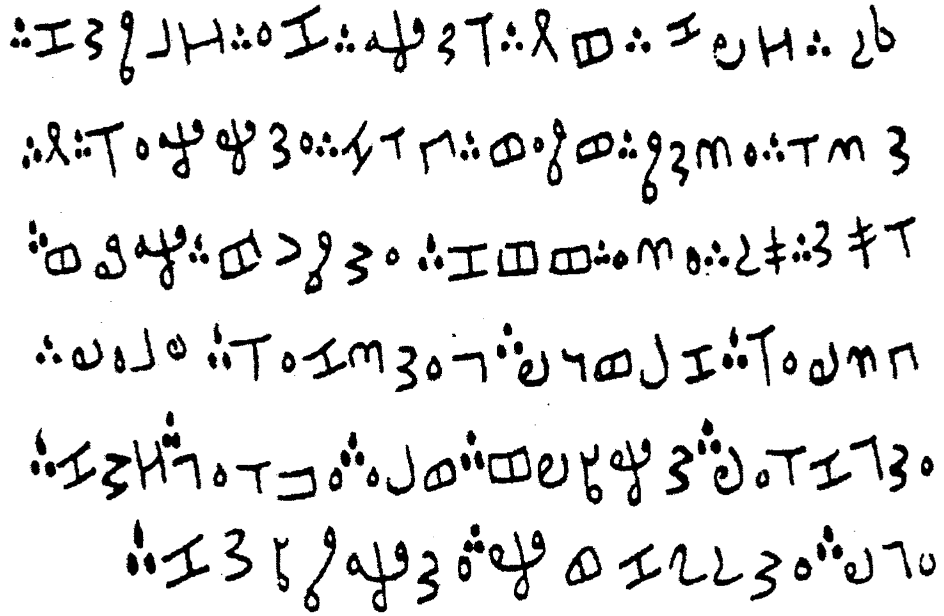

ثم يمضي المؤلف بتحليل هذا النص باستفاضة وبمنطق حديدي يقنعنا بالسبب الذي يجعل كل رمز من الرموز المكتوبة الحرف أو اللفظ المطلوب بعينه حتى ينتهي بنا إلى قراءة النص التالي، الذي قد يستغرب صياغته الشعرية. لكن الشعر - ديوان العرب -كان على مدى قرون طويلة مادة الاستشهادات الفكرية لديهم. والنص بشطريه المنظوم والمنثور معاً يقرآن هكذا:

1- المصدر السابق، ص 239-240.

صُدّ عنّي فلا تلُمْ يا عذولي		لستُ أسلوْ هواهُ حتى المماتْ

لا تَقُلْ قد أسا ففي الوجه منه		حَسنات يُذهِبْنَ بالسيّئات

هذا البيان لمصنف هذا الكتاب، علي بن الدريهم الموصلي[1].

ويضيق بنا المجال عن إيراد تفاصيل ما ذكره القلقشندي حول هذه النقطة في كتابه، ويمكن لمن يأنس في نفسه الرغبة في الاستزادة من هذه التفاصيل العودة إلى المصدر المذكور لكننا نؤكد - ونحن نؤدي اصدق واجبات الاحترام والتقدير لكل من العلماء الأجلاء باوير وفيرولو ودروم الذين حدسوا منذ البداية بأنهم يتعاملون مع لغة سامية - على أن مناهج قارئي الأبجديتين القديمتين - الأوغاريتية وأبجدية جبيل - قد تشابهت حتى حدود التطابق تقريباً مع الطريقة التي نصح بها صاحب «صبح الأعشى» لقراءة النص المعمى الافتراضي المكتوب بالعربية - اللغة السامية في أعلى ذرى تطورها. فهل يفسر هذا بالمصادفة أم بالتداعي أم بوقوع الخاطر على الخاطر وقوع الحافر على الحافر؟

الأبجدية هي المرحلة الختامية في مراحل تطور الكتابة الإنسانية عبر العصور. وكان الوصول إليها انعطافاً حضارياً بالغ الأهمية، فتحديد هذا العدد القليل من الرموز المعروفة بالأحرف يسر الكتابة ومكن بالتالي من تدوين المعرفة الإنسانية وتوريثها للأحفاد ليستفيدوا منها ويطوروها ويضيفوا إليها معارف وخبرات جديدة جيلاً بعد جيل، وبهذا يتحقق التراكم العلمي المعرفي - أساس التقدم الحضاري الإنساني. وبهذا يكتسب ابتكار الأبجدية أهميته وخطره. وإذا كان يبدو لنا الآن أمراً في غاية البساطة التي تجعل بعضهم يسميه «اكتشافاً» فإن في ذلك سر عبقرية ذلك الابتكار المصيري الذي يتوحد، في بساطته وعفويته، مع البداهات الكبرى التي قامت عليها أهم النظريات العلمية. «يقول الباحث العالمي جورج بيرو إن اكتشاف الأبجدية كان حدثاً مهماً جداً لا يمكن مقارنته بأي حدث آخر من تاريخ الجنس البشري وهو أعظم من ابتكار الطباعة، إذ إن تحليل الكلام وإرجاعه إلى عناصره الأولية، يحتاج إلى عمل فكري عظيم»[2].

والحق إن هذه العملية بإرجاع الكلام إلى عناصره الأولية يمثل آخر عمليات التجريد في مسيرة التطور الطويلة التي قطعتها الكتابة منذ بواكير المرحلة التصويرية (البيكتوغرافية) وحتى مرحلة التحليل الذي عبر عن الصوت برمز.

1- المرجع السابق، ص 244.

2- أبجدية أوغاريت، حدث مهم في تاريخ البشرية. «تشرين»، دمشق، 28-4-2004.

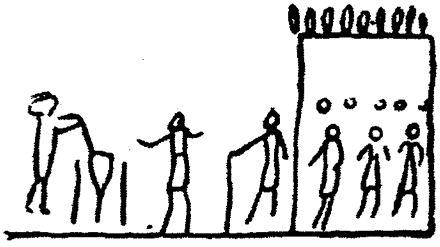

أ ب ج

وبحظ أوفر من التبسيط يمكننا أن نمثل على ذلك بالنسبة لكتاباتنا المحلية بالصورة المعروضة في الكتاب، والتي تم التعبير فيها عن إخبارية «بنى كبير الموظفين قاعة» بتصوير النشاط نفسه أي (بالكتابة التصويرية الأولى، انظر صفحة 102 من الكتاب). وبعد تطور امتد أحقاباً زمنية طويلة اتخذ التعبير عن هذه الإخبارية صورة أخرى لدى تحليل أصوات هذه العبارة وإعطاء كل صوت رمزاً خاصاً به بحيث يتكرر هذا الرمز نفسه في الكلمات المختلفة كرمز الباء في كلمتي «بنى» و«كبير». وذاك هو المنطلق الأساسي لابتكار الأبجدية التي تقلصت رموزها إلى عدد قليل جداً يعادل الأصوات المنطوقة في اللغة، وبغض النظر عما إذا كان الرمز الذي يمثل الصوت المنطوق واحداً في اللهجات أو التنوعات المختلفة للغة الواحدة. فالكنعانية الواحدة في أوغاريت وجبيل اتخذت أبجديتين، والمصرية القديمة المرتبطة بأشد أواصر القربى بالكنعانية اتخذت لأبجديتها رموزاً خاصة أيضاً فاتخذ حرف الباء هذه الصورة في الأوغاريتية في أبجدية جبيل وهذه في المصرية. كما صارت الأبجدية الواحدة تستخدم في عصرنا لكتابة أشد اللغات اختلافاً كالأبجدية اللاتينية (المنحدرة من الكنعانية القديمة) التي تكتب بها الإنكليزية والتيوركية والفيتنامية وما يعادل ثلث كتابات العالم.

غير أن ما يجب مراعاته هنا هو أن هذا التحليل الذي «يحتاج إلى عمل عظيم» لم يكن طفرة مفاجئة ولا حدث بالمصادفة، بل قام على أساس من التجارب والخبرات الطويلة وعلى «أكوام» لا نهاية لها من المخطوطات التي كتبت أو نقشت على الحجر أو الخشب أو المعدن أو الطين المشوي أو ما لا نعلمه من مواد كتابية أخرى «تراكمت» فوقها تجارب الكتابات التصويرية فالإيديوغرافية فالمقطعية وما سواها حتى انتهت بالكتابة الأبجدية التي ظهرت في فترات متقاربة لدى أجدادنا في مناطق مختلفة من الأرض العربية،

وكانت تنوعات لكتابة عريقة واحدة تعود بدورها إلى تنوعات لهجوية للغة العروبية القديمة الأولى.

كان من الصعب أن يتحقق كل هذا التراكم إلا لدى أمة عريقة تعد الكتابة والتوثيق ونقل التجارب إلى الأجيال واحداً من أسباب وجودها ولهذا ولدت الأبجدية أو «الأبجديات» في أرض العرب فكانت الحصاد الحضاري لجهود كثيرة تواصلت عبر الزمان. وبهذا يلتقي ابتكار الأبجدية بسبب من الأسباب مع ابتكار الصفر الذي كان بدوره خلاصة جهود طويلة بذلها الأجداد في تطوير العلوم وبخاصة الرياضيات. ومنذ نهاية عهود ما قبل التاريخ عكف علماء مصر على هذا العلم وكانت مشكلاتهم الرياضية عملية قبل كل شيء، وبدا التعميم والتجريد لديهم منذ أوائل معلوماتهم الرياضية خلال زياراتهم لمصر. واستطاع المصريون بطرقهم الخاصة حساب حجوم الأهرامات وحسبوا مساحة الدائرة وعرفوا الـ π وطبقوا الرياضيات على العلوم الفكرية، وخطا علماء ما بين النهرين خطوات واسعة في هذا المضمار وتوصلوا إلى ما اصطلح عليه بنظرية فيثاغورث وحلوها قبل أكثر من ألف سنة من مولد ذلك العالم اليوناني الجليل، وعرفوا بدقة الأشكال الصحيحة المتعددة الزوايا وحلوا من خلالها عدداً من مشكلات الهندسة، واقتربوا من فهم الصفر في الترقيم ودرسوا جبر المعادلات الخطية والتربيعية، ولا يزال نظامهم الستيني في حساب الكسور وتقسيم الدائرة. ثم تواصل ذلك التراكم المعرفي الكبير في جهود العلماء العرب المسلمين الذين جعلوا العلم نوعاً من العبادة. أما من الناحية العملية فقد كانت الدواوين المتطورة وحركة التجارة العالمية الواسعة وأعمال البناء والزراعة والري تتطلب جهوداً رياضية كبرى.

وتميزت مدرسة بغداد الرياضية بكونها المركز الذي تنتهي إليه مساهمات أعداد كبيرة من مشاهير العلماء. وبهذه المدرسة يرتبط النظام العشري للأعداد ويعد واحداً من أكبر إنجازاتها. وينسب رسم الصفر في صورة دائرة صغيرة «*0*» لأبي عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي (787- حوالي 850 م). وكان وضع الصفر حجر الأساس في ترسيخ النظام العشري الذي يقوم عليه نظام الترقيم العالمي الحديث.

فـ «ثورة الصفر» في الترقيم شبيهة بـ «ثورة الأبجدية» في الكتابة بفضل ما وصل إليه كلاهما من التجريد. وبفضلهما صارت الكتابة مبسطة مكثفة تستخدم أعداداً محدودة من الحروف والأرقام تقل بكثير عما كان معمولاً به في السابق. ومما يشار إليه بهذه المناسبة أن التعصب كان أحد الأسباب التي أخرت استخدام الترقيم العربي الجديد في أوروبا إلى أن قام العالم الإيطالي ليوناردو البيشاني (1180-1240 م) والمعروف باسم فيبوناتشي (*Fibonacci* تعني

ابن بوناتشي)، وقد ولد في بيزا، المركز التجاري الكبير في تلك الأيام. وفي نهاية القرن الثاني عشر كان أبوه تاجراً في بجاية (بالجزائر)، وهناك تعلم ليوناردو الرياضيات على أيدي المعلمين العرب، وزار بعد ذلك مصر والشام وبيزنطة وصقلية، وكان مؤلفه الأساسي الأول «*Liber abaci*» وقصد به «كتاب الحساب» وجعله وسيلته لنشر علم الحساب الجديد وغيره من المعلومات الرياضية في أوروبا. ويتضمن خمسة عشر فصلاً خصص الخمسة الأولى منها للحساب على أساس الترقيم الجديد، ولكي يطلع المؤلف قارئه على أفضليات هذا الحساب قدم بعض الأعداد المكتوبة بالطريقة والأرقام اللاتينية التي تعبر عن العشرة بـ X والمئة بـ C والألف بـ M بالطريقة العربية:

MI	**MMMXX**	**MCXI**	**MMMMCCXXI**
1001	**3020**	**1111**	**4321**

فكيف إذا كانت الأرقام بالملايين[1].

وأخيراً فقد تعرض أ. دوبلهوفر في كتابه هذا للكشوفات الآثارية في أراض يقع معظمها في بلاد العرب وتطرق للغات أعانت اللغة العربية على اجتلاء أسرارها، ولهذا نتساءل عن سبب هذا الموقف المتحامل الغريب الذي يقفه المؤلف من العرب. وإذا كان المؤلف، على العموم يبدي إعجابه وتعاطفه مع تربية الإنسان الشرقي فإنه يقصر الجانب التطبيقي لهذه التربية على الإنسان التركي أو الإيراني. وإننا نقر المؤلف على ذلك التوكيد على التربية الخلقية الإسلامية التي يتلقاها إخوتنا في تركيا وإيران وتتجلى في مسلكهم نحو الغريب. ولكن أتختلف تربيتنا العربية حقاً عن تربية جيراننا وأبناء أرضنا وأخوتنا في الدين؟ وما الذي يدفع المؤلف إلى تبديل لهجته بمجرد أن يتحدث عن أرض العرب التي يصف أبناءها - في سورية ومصر - بالتعصب الشديد، ويصف جزيرة العرب بالأرض غير المضيافة والموصدة الأبواب أما عرب ما بين النهرين فيشير إلى أيديهم الممدودة بطلب البخشيش بينما يميز اليمن بعدوانية سكانها المحليين، ولهذه الأسباب لا يخرج - في رأيه - غير رحالة قلائل من «جحيم» الجزيرة العربية. وفي الصفحة الأخيرة من الكتاب يودعنا بصورة «الجزيرة العربية التي تروت رمالها المتلظية بدماء الباحثين البواسل» وهذه الصفات والمواقف التي وسمنا المؤلف بها وسجلها علينا تتناقض مع كل شهادات الزوار والأوروبيين إلى بلادنا في

1- انظر الفصول الثلاثة الأولى «عهود ما قبل التاريخ»، «مصر القديمة وبابل» ما بين النهرين القديمة من الباب الأول، والفصلين الثالث «بلاد الإسلام، الخلافة العربية»، والرابع «أوروبا العصور الوسطى» من الباب الثاني في المجلد الأول من: تاريخ الرياضيات في ثلاثة مجلدات (بالروسية). دار نشر «ناووكا»، موسكو، 1970.

العصر الحديث، ومن كتبوا عنها حتى إبان الحروب الصليبية، مثلما تتناقض جذرياً مع رقة وشاعرية وأخلاقية المقتطفات الموجزة التي أوردها في كتابه هذا عند ختام كل فصل فتحدثت عن الأجداد في مصر، ما بين النهرين أوغاريت، وأسست لـ «مكارم الأخلاق» منذ أقدم العصور. أما الباحثون «البواسل» الذين تروت رمال جزيرتنا بدمائهم فالكاتب لم يكلف نفسه ذكر اسم واحد منهم على الأقل، أما نحن فنتذكر جيداً أن لقاءات العرب بهؤلاء «البواسل» لم تنفصل عن لقاءاتهم بجميع الحملات الغربية التي ابتلينا بها منذ بدايات العصر الحديث، وبدأت بالغزو النابليوني لمصر لتتواصل في كل المذابح التي أسس لها «وعد بلفور» وتضاعفت ضراوتها بعد «وعد بوش» وأخيراً فيما يجري في العراق حيث تختلط مذابح البشر بمذابح الآثار.

3

الكشوفات الأثرية ومعانيها البعيدة

كانت «المركزية الغربية» حاضرة في كتاب أ. دوبلهوفر وفي موقفه من العرب، لكنها لم تلبث أن تراجعت بعد قراءة الآثار المكتشفة وبعد أن تبين أن هناك مركزية أخرى يمكن أن نسميها «مركزية الشرق العربي» التي تفرض نفسها بتلقائية وموضوعية عندما يدور الحديث عن الإشراقات المبكرة للحضارة والبدايات الأولى للتاريخ الإنساني. ويضيق المجال إذا ما أردنا الحديث عن الإسهام المصري في الحضارة الإنسانية، عن أصالة ذلك الإسهام وإعجازه. حسبنا القول إن هناك من يلتمس لذلك تفاسير «انتحارية» وصلت إلى القول باحتمال أن تكون ثمة مخلوقات كونية أعلى قد هبطت إلى الأرض فأقامت حضارة مصر ثم غابت. أما ما بين النهرين فـ «إذا كانت الرياضيات والعجلة.. والشكل الأول للكتابة.. قد ولدت في سومر، فإن تنظيم الإمبراطورية إدارياً وتعيين الحكام والولاة كان من نصيب الآشوريين. أما البابليون فقد أورثوا الإنسانية أول شريعة في العالم[1].

وقد صارت هذه الحقائق من المسلمات ومن الحجج التي يتقدم بها العقلاء عندما يضطرب ميزان العدل وتعمي القوة عيون البعض عن رؤية الحق. فقد قدم السيد دوفيلبان نصيحة ثمينة للإدارة الأمريكية في «مشروع الديمقراطية» لمنطقة سمتها «الشرق الأوسط الكبير» وذكر في مجموع ما قاله «بأن قيم الديمقراطية عريقة في الثقافة العربية نضيف إلى ذلك أن حضارة ما بين النهرين وبلاد الشام أسست للحضارة القديمة التي تلتها. فحجر حمورابي المعروض في متحف اللوفر يسجل أول القوانين الإنسانية، وملحمة جلجامش تسجل

1- جوان فارشاك عشية غزو العراق العراق بين الآثار واللصوص ترجمة عبود كاسوحة. مجلة «الآداب الأجنبية» عدد خاص عن حضارة العراق دمشق العدد 116، خريف 2003، ص 157.

أسطورة الطوفان، وفي متحف بغداد شواهد عن دراسة المثلث قبل فيثاغورث وعلى حساب محيط الدائرة»[1]. أما أوغاريت فعلى وفرة ما عثر عليه من مكتشفات أثرية في أرضها. فقد تميزت بمآثرها الكتابية، ومكتبتها العامرة ووفرة نصوصها الدينية والأدبية والعلمية والحقوقية والدبلوماسية الذي يعد تكريماً للمدينة المجيدة التي امتدت مملكتها على الساحل الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. تحدثت هذه النصوص بموثوقية وصدق بحقائق قلبت فيما بعد الكثير من المسلمات والمفاهيم وأثبتت «أن الكنعانيين هم أسمى من أن يكونوا مجرد رجال تجارة وملاحة كما كان الاعتقاد سائداً حتى اليوم[2]. لقد كانوا أهل فكر وتأمل وعلم وشعر. ومأثرتهم لا تنتهي أيضاً عند حدود الكتابة الأبجدية على الرغم من عظمة هذه المأثرة وأهميتها في تاريخ البشرية الحضاري فـ «الأطفال اليوم في عدد كبير من بلدان المعمورة يتعلمون استظهار الأبجدية بالترتيب الذي اختاره لهم كاتب من أوغاريت منذ أربعة وثلاثين قرناً»[3].

كما أن نصوص أوغاريت العريقة كشفت أيضاً «وبصفة نهائية تلك التربة الكنعانية التي ترعرعت فوقها ديانة قدماء الموسويين وبكلمة أدق انكشف المصدر الأول والأساس الفكري والفني لما كان يعد بداية كل البدايات وهو «العهد القديم» وكان المؤرخ فيليب حتي قد أشار إلى ذلك في كتابه (تاريخ سوريا) بقوله:

«.. الكثير من خير ما تركه الأدب الكنعاني اقتبسه العبرانيون ودخل في كتاباتهم المقدسة. وينطبق هذا خاصة على القطع الغنائية والحكم التي استعارها سفر المثال والمزامير ونشيد الإنشاد.. ولم يكن هذا الأمر معروفاً إلى أن اكتشفت أوغاريت»[4].

وقد تنبه العالم الفرنسي هـ أ. ميديكو إلى هذه الحقيقة منذ أول كشوفات أوغاريت، وعلى أساسها ألف كتابه «التوراة الكنعانية *Bible Cananneene*» وقدم له ر. جويلان أستاذ تاريخ الحضارة البيزنطية في السوربون. ويقول المؤلف في مقدمة كتابه: «لم يكن السبب في اختيار عنوان هذا الكتاب يكمن فقط في أن العديد من المواد الواردة في كتابات رأس شمرا عادت ووردت في التوراة العبرانية. لم يكن هذا وحده هو السبب، بل لوحظ أن الكاتب

1ـ د. ناديا خوست نصيحة ثمينة. صحيفة «تشرين»، زاوية «آفاق»، دمشق 28ـ2ـ2004.

2ـ جبرائيل سعادة. أبحاث تاريخية وأثرية. تر سلمان حرفوش. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. دمشق 1982 ص 88.

3ـ المصدر السابق ص 94.

4ـ أخذ المقتطف من كتاب: فايز مقدسي، بعل وموت (ترجمة). دار الأبجدية، دمشق 1990 ص 26.

الكنعاني كان يعتبر، على الأغلب، أن هذه النصوص تشكل توراة. فهناك ملاحظة تقول إن هذه النصوص كتبت «لكي يتعلم الشباب»[1] أي ذلك الكتاب الموجه لتعليم الشبيبة وتحديد مسلكها نحو مختلف مواقف الحياة وقضاياها من العمل والعبادات والحرب والسلام والمسكن والخدمة والملابس والحلي والزواج والولادة والموت وتقديم القرابين ومن الأطعمة والأشربة والأسفار وما إلى ذلك وهو ما يؤكد الأصل الكنعاني لا للنصوص المأخوذة فقط بل وللجنس الفني نفسه. وهذا ما يدخل بمجموعه في سياق ما استقاه أو انتحله أو سطا عليه اليهود ثم ادعوه لأنفسهم ضمن ما ادعوه من الإرث العروبي القديم، وقد نبه اكتشاف أوغاريت إلى ذلك بصفة لم تعد تناقش فـ «لم يتردد مؤلفو الكتاب المقدس، حسبما تشير الترجمة المسكونية للكتاب المقدس.. أن يستقوا معلوماتهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من تقاليد الشرق الأدنى القديم، ولا سيما من تقاليد ما بين النهرين ومصر والمنطقة الفينيقية الكنعانية»[2]، وهذا الأخذ أبعد من أين يكون اقتباساً لفكرة. يقول كرامر، أحد أكبر المختصين في هذا الموضوع، إن «المطابقة بين نشيد الإنشاد وأصوله السومرية - الكنعانية ليست إجمالية أو عمومية بل تمس طبيعة الجمل والصور والموضوع والفكرة»[3]. وهذا ما يفسر ظاهرة أخرى تتمثل في الحكم والأمثال والصور والتشابيه الفنية التي نلتقي بها على صفحات هذه الأسفار الدينية القديمة ونستغرب لماذا تبدو لنا مألوفة مأنوسة فإذا تعمقنا في محاولة تعليل ذلك تبين لنا أنه الموروث الشعبي الأوغاريتي القديم الذي لا يزال حاضراً في تكويننا الروحي والمعرفي توارثناه عبر الأجيال مثلما لا تزال حاضرة في لهجتنا تراكيب ومأثورات ومقولات وأمثال لا تزال مستخدمة منذ آلاف السنين كخصوصية استخدام الجمع السالم (المذكر والمؤنث) وضمير أتٍ بديلاً من أنت واسم بت بدلاً من بنت وأفعال عين بدلاً من نظر وظغر بمعنى طرد وشلح بمعنى خلع وزت بمعنى رمى ولطش بمعنى ضرب ومثل الأرض البعلية أي غير المروية والتي تعتمد في ريها على الرب بعل القديم، وما ذقت الدجن منذ الصباح، هو القمح، وكان له إله، بمعنى: ما ذقت قمحاً أو شيئاً من مشتقاته» وهكذا.

1- انظر هـ ا. ديل ميديكو «التوراة الكنعانية» (من خلال النصوص المكتشفة في رأس الشمرة)، تر جهاد هواش وعبد الهادي عباس. دار دمشق. دمشق 1988 ص 27. وقد وجدنا عنوان الكتاب بالفرنسية (مع إغفال عام النشر) في الهامش رقم 58 من ترجمة فايز مقدسي (بعل وموت) انظر الهامش السابق، ص 63 وهو Le Bible Cananeenne H.E Del Medci. Payot Paris.

2- عن فايز مقدسي. بعل وموت (المرجع السابق) ص 26-27.

3- (المرجع السابق) ص 34.

والعودة إلى الموروث الشعبي، المخزون النفيس العريق الباقي من تاريخ الأجداد الطويل، تمثل لفتة بالغة الدلالة وردت في دراسة الباحث الدكتور خالد الناشف ضمن حديثه عن تفرد الغربيين، ولفترة طويلة، ببحوث وادي الرافدين، وهو ما تمخض عنه ألوان من المعرفة «غير أن هذه المعرفة كانت نتاج الدراسات الغربية، ولم يكن للعراقيين أو للعرب إلا دور ضئيل في الضلوع بها. ربطت حضارة وادي الرافدين في هذه الدراسات بالحضارة الغربية، ولا شك أن جزءاً من هذا الربط جاء بتأثير الإيديولوجية المسيحية، التي استوعبت أيضاً، تراث العهد القديم، أي عملياً التوراة، وبالتالي كثيراً ما تقيم حضارة وادي النهرين من هذا المنظور، وبالأخص فيما يخص الجوانب الفكرية، من باب المقارنة، وأحياناً التفضيل، كالتوحيد أمام تعدد الآلهة، ومن خلال التفسيرات اللغوية. باستخدام العبرية القديمة في الدرجة الأولى، وإلى حد أقل بكثير العربية الفصحى. وكثيراً ما يخرج المرء بانطباع أن الصورة المركبة الناتجة هي ما يريده الغرب لحضارة وادي الرافدين أن تكون، في حين أنه لا تجري قط أي مقارنات مع التراث الشعبي العراقي أو اللهجة المحكية في العراق»[1].

ويعد كتاب أ. دوبلهوفر «رموز ومعجزات» شاهداً محزناً على المركزية الغربية التي أشار إليها الباحث وعلى مركزية العهد القديم فيها. أما المخزون التراثي الشعبي الذي أشار إليه فهو النبع الأصيل الذي كان له دوره في تحديد الشخصية الحضارية لما بين النهرين على قرون طويلة، والذي تسري سماته وملامحه، كالنسغ الخفي، في الأجيال عبر القرون. وربما بهذا السبب يجري تجاهله من قبل الغربيين الذين يعرفون جيداً قيمة شهادة التراث الشعبي ورجاحتها. ونترك أمر مقارنة التراث الآثاري بهذا التراث الشعبي، باللهجة المحكية لأشقائنا في العراق لأنهم الأقرب إليهما. لكن من الصعب ألا تقفز إلى الأذهان بعض اللوحات التراثية التي دونها المؤرخون بالفصحى عندما يدور الحديث في هذا المضمار.

تتحدث الصحفية، باحثة الآثار العراقية، جوان فارشاك، عن كبار ملوك آشور القديمة وعن التركيبة النفسية التي ميزت تصرفاتهم، وحددت طرقاً معينة في تعاملهم مع الغرباء ومسلكهم نحو زوارهم، وبعد أن تعدد أسماء كبار ملوك آشور وصورة من حملاتهم الحربية حتى بنوا أول إمبراطورية في التاريخ تقول: «وتميز الآشوريون بميلهم إلى البذخ. فكانت قاعات قصورهم ومعابدهم ذات أبعاد هائلة. أما النقشيات التي تصور شجاعتهم في الحروب وقوتهم في نزهات الطرد والقنص فقد نحتت من الرخام الأخضر أو الحجر الكلسي

1- د. خالد الناشف دلالات العدوان على الجذور الحضارية للعراق. الآداب الأجنبية، دمشق، العدد 116 ص 22.

الأبيض. وكانوا يضعون نصب أعينهم بث الرعب في قلب زائرهم وجعله يرى مدة قوة السلاطين الكبار، وكان هؤلاء وعائلاتهم يرفلون في أبهى الحلل المزركشة والموشاة بالجواهر الثمينة والعاجيات الجديدة التي كأنها صنعت على أيدي أعظم الحرفيين المهرة في عصرنا. وعلى كل حال فإنهم كانوا يستقدمون الحرفيين من المدن السورية الفينيقية لإنجاز تلك الأعمال الفنية الصغيرة لصالح العائلات الملكية. إلا أن الثيران المجنحة تظل العناصر المعمارية النموذجية لفن هذه الحضارة. فقد كان من شأن الكائنات الأسطورية، وهي توضع عند مداخل المدن، أن تؤمن حمايتها من كل هجوم، حسب معتقدات تلك الشعوب»[1].

وربما كانت هذه اللوحة من أحداث سنة خمس وثلاثمئة من تاريخ «البداية والنهاية» لابن كثير الصورة التطبيقية لتفاصيل ما كان يقوم به الأشوريون لتحقيق غاياتهم التأثيرية. فبعد آلاف السنين استخدم الخليفة العباسي المقتدر، في بغداد، الطريقة التي ورثها، ولو من خلال التراث الشعبي المختزن في العقل الجمعي الباطن، عن ملوك آشور، فيستعرض المشهد البالغ التنوع والثراء المؤدي إلى «بث الرعب» و«الإرهاب» في نفوس الزائرين. والذي تتضافر لصياغته العناصر الكثيرة المتنوعة من البشر والجيوش والأسلحة والعدة التامة والمراكب النهرية وارتال السباع والأفيال والزرافات والملابس المترفة والمفارش والآلات ومختلف الآنية المصنوعة من الذهب وعناقيد الجواهر الفاخرة ودقة الصناعة والتركيب في كل شيء وتقنية تسليط المياه على السحرية، كل ذلك مضافاً إلى تسيير الحوار ومخاطبة الضيوف قبل أن تجري الخلع عليه وإكرامهم:

«وفيها قدم رسول ملك الروم في طلب المفاداة والهدنة، وهو شاب حديث السن، ومع شيخ منهم وعشرون غلاماً. فلما قدم بغداد شاهد أمراً عظيماً جداً، وذلك أن الخليفة أمر الجيش والناس بالاحتفال بذلك ليشاهد ما فيه من إرهاب الأعداء، فركب الجيش بكماله وكان مئة وستين ألفاً، ما بين فارس وراجل، غير العساكر الخارجة في سائر البلاد مع نوابها، فركبوا في الأسلحة والعدد التامة وغلمان الخليفة سبعة آلاف... وهم في غاية الملابس والعدد والحلي والحجبة يومئذٍ سبعمئة حاجب، وأما الطيارات التي بدجلة، والسمريات فشيء كثير مزينة، فحين دخل الرسول دار الخلافة انبهر وشاهد أمراً أدهشه، ورأى من الحشمة والزينة والحرمة ما يبهر الأبصار، وحين اجتاز الحاجب ظن أنه الخليفة فقيل له: هذا الحاجب. فمر بالوزير بأبهته فظنه الخليفة، فقيل له: هذا الوزير. وقد زينت دار الخلافة بزينة لم يسمع

1ـ جوان فارشاك عشية غزو العراق (مصدر سابق) ص 159.

بمثلها، كان فيها من الستور يومئذ ثمانية آلاف ستر، منها عشرة آلاف وخمسمئة ستر مذهبة، وقد بسط اثنان وعشرون ألف بساط لم ير مثلها، وفيها من الوحوش قطعان مستأنسة بالناس، تأكل فيها ماء من أيديهم ومئة سبع من السابعة. ثم أدخل إلى دار الشجرة، وهي عبارة عن بركة فيها ماء صاف وفي الأغصان الشماريخ والأوراق الملونة من الذهب والفضة واللآلئ واليواقيت، وهي تصوت بأنواع الأصوات من الماء المسكوب عليها، والشجرة بكمالها تتمايل كما تتمايل الأشجار بحركات عجيبة تدهش من يراها، ثم أدخل إلى مكان يسمونه الفردوي، فيه من أنواه المفارش والآلات ما لا يحد ولا يوصف كثرة وحسناً. وفي دهاليزه ثمانية عشر ألف جوشن مذهبة. فما زال كلما مر على مكان أدهشه وأخذ ببصره حتى انتهى إلى المكان الذي فيه الخليفة المقتدر بالله، وهو جالس على سرير من أبنوس، قد فرش بالدبيقي المطرز بالذهب وعن يمين السرير سبعة عشر عنقوداً معلقاً وعن يساره مثلها وهي جوهر من أفخر الجواهر، كل جوهرة يعلو ضوؤها على ضوء النهار، ليس لواحدة منها قيمة ولا يستطاع ثمنها. فأوقف الرسول ومن معه بين يدي الخليفة على نحو من مئة ذراع، والوزير علي بن محمد بن الفرات واقف بين يدي الخليفة، والترجمان دون الوزير، والوزير يخاطب الترجمان والترجمان يخاطبهما، فلما فرغ منهما خلع عليهما وأطلق لهما خمسين سقرقاً في كل سقرق خمسة آلاف درهم، وأخرجا من بين يديه وطيف بهما في بقية دار الخلافة، وعلى حافات دجلة الفيلة والزرافات، والسباع والفهود وغير ذلك. ودجلة داخلة في دار الخلافة. وهذا من أغرب ما وقع من الحوادث في هذه السنة»[1].

وتزداد الصورة اكتمالاً إذا أضفنا إلى هذا ما كان يختلقه الآشوريون من القصص المبالغ فيها حول ضراوتهم وقسوتهم التي لا ترحم في التعامل مع الأعداء، وحرصهم على إذاعة هذه القصص المخيفة وتناقلها لتؤدي دورها في ترهيب النفوس قبل بدء المعارك. وهي الطريقة التي قد يكون استخدمها أيضاً المعتصم العباسي، جد المقتدر قبل أن يغزو عمورية ليحظى بمدحية أبي تمام الفريدة «السيف أصدق أنباءً من الكتب» ويرصعها البيت التالي الذي ربما اغترفه الشاعر من مخزون التراث الشعبي المتراكم عبر آلاف السنين:

لم يغزُ قوماً ولم ينهد إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب

فلنعد إلى أوغاريت قبل أن تذهب بنا بعيداً هذه التأملات.

1- الحافظ بن كثير. البداية والنهاية. أحداث سنة خمس وثلاثمئة. المجلد 11، مكتبة المعارف، ط 2، بيروت، 1977، ص 127-128.

يقول أ. دوبلهوفر: الكشوفات الأثرية الأوغاريتية أظهرت تطابقات مذهلة بين عالم آلهة رأس الشمرا وبين البانتيون الهوميري. وهكذا تأكدت فجأة التقاليد القديمة حول التأثير الفائق القوة لتعاليم الفينيقيين المتعلقة بأصل العالم والآلهة على أساطير اليونان» وفي هذا شيء من «تجاوز الخوط الحمراء» بالنسبة «لأولوية»! الحضارة اليونانية وآلهة اليونان وأساطيرهم بدءاً من أكثر الأسماء اليونانية حميمية - بوسيدون - أبو الصيد، أثينا - الإلهة الأنثى، هيا - الإلهة هي، هرمس - حرمس: ابن الحر، وصولاً إلى زيوس، كبير الآلهة الذي لا يزال بعض العلماء ينفقون الوقت في تحليل اسمه وكان الأولى لو عادوا إلى الكلمة الكنعانية الأصيلة ضوء، ضياء والتي سمي بها هذه «الإله» المخلد[1].

ومؤلف «رموز ومعجزات» يختم الفصلة الخاصة بقراءة الهيروغليفية الحثية بتعليق طريف ومهم ناول الصيغة لنص قره تيبي ويسارع إلى مصادرة توهمنا حول مؤلف النص أزيتا وطاس فيقول: «إنه لم يكن فينيقياً». لكن جميع الدلائل التي يقدمها الكاتب تشير إلى عكس ذلك. فأزيتا وطاس من الداناويين (الدانون «الذين تشير إليهم رسائل تل العمارنة») أي من الصميم الفينيقي و«وهوميروس يسمي اليونانيين السابقين لمرحلة طروادة بداناواي، الدانائيين وجدهم داناوس (مؤسس سلالة أرغوس وكان ابناً لبيلوس (عند حذف السين اليونانية يتبقى اسم بيل أو بعل). وأزيتا وطاس ينسب نفسه إلى *MPS* وهو اسم يحمله عرافان في الملحمة اليونانية، فهو إذاً شخصية تاريخية تثبت مدونة قره تيبي وجوده. وهذه المعلومات تجعل من أرغوس امتداداً لدانون وتحيل الحرب الطروادية إلى صراع داخلي بين هؤلاء الداناويين الفينيقيين (الكنعانيين) وبين أبناء طروادة وتبين أن المنطقة الممتدة من البحر الأسود وإلى الجنوب كانت كنعانية أو شدة التأثر بالكنعانية. فآغا ممنون (ويشي اسمه بأصله الكنعاني) هو ملك أرغوس التي أسسها داناوس أو دانون بن بعل، فهو داناوي أيضاً، وهو الذي رفض رد الفتاة السبية إلى أبيها خريس، كاهن أبولون، على الساحل الطروادي وسخر من صولجانه، بل وزاد على ذلك فحذره الاقتراب من أسطول الداناويين وقال له بان ابنته (أي ابنة الكاهن) ستعامل في قصر أغا ممنون بآرغوس معاملة السبايا، وبذلك استنزل غضب أبولون على أبناء دانوا الكنعانيين، فكان ذلك فاتحة أحداث طروادة. كل ذلك في اللوحة الطويلة التي يعبر عنها النشيد الأول من الإلياذة إذ جاء خريس يفتدي ابنته من آغا

1- انظر: د. علي فهمي خشيم زيوس عربياً. في كتاب: د. علي فهمي خشيم، بحثاً عن فرعون العربي ودراسات أخرى. الدار العربية للكتاب طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية 1985 ص 111-128.

ممنون بالهدايا النفيسة، فيعنفه آغا ممنون بكلام قاس جعله يخرج من المجلس صامتاً ليبتهل بعد ذلك للإلهة أبولون ويستعديه على الداناويين، ويذكره بما قدمه له في الماضي من خدمة وأضاح. يبدأ الموقف بكلمات آغا ممنون:

قَالَ: «يَا شَيْخُ فَاحذَر اَلْقُرب مِنْ فُلْـ ـكِي سَوَاءٌ رَجَعْتَ أَمْ أَنْتَ بَاقِي
لَيْس فِي اَلصَّوْلَجَان هَذَا وَلا فِي ذِي عِصَابَاتِ رَبِّه لَك وَاقِي
لَنْ تَنَالَ اَلْفَتَاةَ بَلْ سَوْفَ تَبْقَى بِبِلاَدِي أَرْغُوْسَ مِثْلَ اَلْبَوَاقِي
تُدْرِكَ اَلْعَجْزَ وَهْيَ تَنْسُجُ قُطْناً ضِمْنَ صَرْحِي بِغُرْبَةٍ وَانْسِحَاقِ
وَتَلِيْ مَضْجَعِي فَقُمْ وَاخْش غَيْظِي إنْ تَرُمْ آمِنًا لحَاقَ اَلرِّفَاقِ
ذُعِرَ اَلشَّيْخُ فَأَنْثَنَى وَاجِماً فِي جُرُفِ بَحْرٍ يَعَجُّ فِي الأفَاقِ
ثُمَّ فِي عُزْلَةٍ دَعَا وَدعَاهُ لاِبْنِ لاَطُوْنَةٍ آفُلُّونَ رَاقِي
«رَبّ يَا ذَا قَوْسِ اَلُّلجَيْنِ[1] اَسَتَجِبْنِي حُقَّ مَوْلَى تِنِيذْسٍ إحْقَاقِي
يَا وَلِيَّ اَلسمِنْث يَا عَوْنَ كِلاً وَخَرِيْسٍ يَا رَبَّ خُذْ بنطَاقِي
إنْ أَكُنْ قَدْ زَيَّنْتُ هَيْكلَكَ اَلْوَهَّا جَ أوْ مَا ضَحَّيْتُ بِالإحْرَاقِ
ولِسوَقِ السِّخَالِ وَاَلثَّوْرِ زَكِّيْـ ـتُ فَسَالتْ بِشَحْمِها الْمُهْرَاقِ
فبأَبْنَاءِ دَانَوٍ نَبْلُكَ الصُّـ ـمُّ لِتَفْتُكْ بِدَمْعِ هَذِي الْمَآقِي»

وهذه القصة تنتهي بنا على التساؤل حول حجم الإسهام الكنعاني في النشاط اليوناني كله، وإلى أي درجة كانت الثقافة اليونانية امتداداً للكنعانية القديمة، لقد رمى الكاتب اليوناني الكبير كازنتزاكي «بالتنكر للتراث القومي» عندما أعلن حقيقية الحرب الطروادية. فلنقرأ ما جاء في مذكراته عندما أشرفت مهمته في القوقاز على نهايتها: «وفيها كنت على وشك الصعود إلى السفينة جاءني عجوز من بونتوس.

- قيل لي إنك مثقف يا ريس وأحب أن أسألك سؤالاً إن لم يكن لديك مانع. هل كان الليديون الذين شاركوا في حرب طروادة يونانيين؟

1- ذو قوس اللجين: لقد من القاب أبولون، هذ بنطاقي: أعني وأجرني ولي السمنت من القاب أبولون والمسنت (سمننتا) بلدة كلا وخريسا - بلدتان، ويقول سليمان البستاني بعد ذلك «اراد بأبناء دانوس - جماعة اليونان وسبب ذلك هو أن الكشوفات الحديثة لم تكن قد عرفت بعد. الأبيات ماخذوذة من الياذة هوميروس معربة نظماً بقلم سليمان البستاني الأبيات 19-30 من النشيد الأول نشر دار أحياء التراث العربي بيروت لات ص 208-209.

صعقت. لم أحلم أبداً أن يكون هذا الأمر بين الأمور كلها مشكلة تعذب الرجل.

أجبته «يونانيين؟ لا. أبداً. كانوا ليديين من آسيا الصغرى».

هز العجوز رأسه: «كان الآخرون على حق إذاً حين أخبروني أنك تتنكر لتراثنا القومي. وداعاً»[1].

ويبدو أن ذلك العجوز قد عبر عن رأي الكثيرين ممن لا يقبلون - حتى الآن - بأن تتحول حرب طروادة عن سمت المركزية الغربية الذي رسم لها.

تلك هي بعض التداعيات التي تثيرها الكشوفات القديمة في أرضنا العربية المترامية الأطراف، والحية أبداً بنبض التاريخ، تمد أبناءها دوماً بالقوة والثبات وتثبت في نفوسهم مشاعر الأصالة والتجدد. وهناك أمر كنا نتردد في تسجيله ويتعلق باللغة الإيتروسكية التي تقنعنا حجج أ. دوبلهوفر بالصعوبات الكثيرة المختلفة التي تقطع الطريق على قراءتها. على أن عودة للغات التي تحدث الكتاب عنها وبدت مذهلة في صعوبتها ثم استسلمت للقراءة تدفعنا للتساؤل: ألهذه الدرجة تبدو الإيتروسكية منيعة على الحل أم ثمة سبب آخر يشير إليه اكتشاف ثم موثوقية عودة اللغتين التيوركية والمجرية المعاصرة إلى أرومة واحدة، وهو ما أثبتته القصة التي أوردها المؤلف في كتابه وختمها بتورية ساخرة قائلاً: «وعندما تبين أن الرونات السيكلية تعود بمصدرها دون أدنى شك إلى الرونات التيوركية القديمة كان طبيعياً أن يكون ذلك صدمة قوية للمشاعر الوطنية الهونية - المجرية الشديدة الاحتدام لدى سكان ترانسلفانيا الأماجيد»!.

فهل تستعصي الإيتروسكية حقاً على القراءة أم يكتنف قراءتها شيء من التلكؤ تفرضه المركزية الأوروبية لاتي قد تؤذيها نظرية «هيرودوت» والقائلة بأن

1- مذكرات كازنتزاكي 1-2. تقرير إلى غريكو. ترجمة ممدوح عدوان. الجندي للطباعة والنشر. لا تاريخ. لا مكان للنشر الكتاب الثاني ص 160 وفي هذه الترجمة الجيدة للأديب المبدع نسب الليديون سهواً إلى آسيا الوسطى والصواب «آسيا الصغرى» فليديا القديمة تقع غربي آسيا الصغرى، خضعت بين القرنين السادس فالرابع ق.م للفرس ثم دخلت إمبراطورية الإسكندر المكدوني، ثم كانت - ككل سورية - جزءاً من الدولة السلوقية. ومن طرائف المصادفات أن آخر الكشوفات الأثرية لهذه الدولة (السلوقية) كانت في 11-5-2004 بقرب إدلب ومن أهمها سراج نقش عليه شعار الدولة السلوقية - مرساة سفينة وسنبلة «قمح» انظر: علام العبد. اكتشافات أثرية جديدة في كفر نبل بإدلب «تشرين» دمشق 15-5-2004، ص 3.

الإيتروسكيين نزحوا من آسيا الصغرى وأنهم ليسوا السكان الأصليين لإيطاليا» وثبوت «دور الإيتروسكيين ذوي الأصل الشرقي»، والذي أكد عليه كبار المؤرخين في «.. تمدين وعمران إيطالية»[1] واستيطانها. وربما كان في هذه العودة إلى الأصول «صدمة لمشاعر» الذين يضخمون في هذه المرحلة التاريخية الحاضرة حضارة «روما الأوروبية» وإرادتها وحبذا لو تأملوا قليلاً في مصدر ومعنى اسمي «روما» و«أوروبا» وفقاً للمناهج العلمية التي وضعها العلماء الأوروبيون لدراسة اللغات والحضارات القديمة!.

1- د. محمد محفل. عولمة أمريكة. وحداثة إنسانية، مجلة المعرفة. دمشق. شباط 2004 ص 140.

4

جريمة الفرن

أكان الكاتب الكبير مؤنس الرزاز يسبر الزمن ويرى إلى ما سيجري بعدما يقارب العشرين عاماً عندما نشر قصته النبوئية الطريفة «حياتي العاشرة»[1] في مجلة الكرمل عام 1986؟

في عمله هذا يستلهم الكاتب القصة المعروفة التي وردت بين الآيتين الـ 65 و 82 من سورة الكهف» في القرآن الكريم ومؤداها أن النبي موسى كان قد رافق عبداً صالحاً ليتعلم منه بعد أن وعده ألا يسأله عن أي شيء، لكن حب الاستطلاع مضافاً إلى استنكار ما رآه غلباً على المتعلم وحالا دون التزامه بما وعد، فقد خرق مرافقه سفينة كان أصحابها قد أكرموهما، وقتل غلاماً وأقام جداراً متداعياً في قرية كانا قد استطعما أهلها فأبوا.. وقد اعتمد فولتير هذه القصة القرآنية في فصل «الناسك» من روايته المشهورة «صادق»[2] وضمنها بعداً فلسفياً عميقاً مؤكداً في ذلك على العبرة القرآنية وهي - قصور الإنسان عن إدراك ما تضمره العناية الإلهية وما تخبئه المقادير. كما أبقى على السمت الأساسي للقصة وهو أن القدر يجري على سنة العدل، والنتائج التي نراها أمام أعيننا تتطابق والأفعال التي تأسست عليها بغض النظر عن تقبلنا أو استنكارنا.

أما الرزاز فقد صاغ قصته بطريقة مغايرة تحدد بعدها الفلسفي منطلقات واقعنا الفاجع المعاصر: مجموعة تسير خلف «سيد» تأتمر بأمره وتلتزم بطاعته ولا تسأله عما يفعل. ويكشف المشهد الأول في القصة عن بلاد الرغد والخير والأمن والسعادة. «المرأة تمشي من بيتها وعلى رأسها إناء فلا تصل إلى بيت جارتها إلا وهو ملآن بالفواكه «ورأينا قوماً مسالمين.. تصدح حناجرهم بالغناء ويضيء وجوههم ألق البهجة». يعمد السيد إلى تدمير ذلك العالم عن

1- مؤنس الرزاز. حياتي العاشرة. مجلة الكرمل، نيقوسيا. قبرص. العدد 19-20، 1986، ص 245-249.

2- فولتير. صادق أو القدر. ترجمة يوسف غصوب. اللجنة الدولية لترجمة الروائع. بيروت، 1961، ص 94-100.

آخره «فلم يصادف صرحاً إلا هدمه ولا طريقاً إلا أخفى رسومه ولا قصراً إلا محا أعلامه ولا شجراً إلا اقتلعه. أما القوم فقد أحاطهم قتلاً وذبحاً وأسراً وسبياً، ثم فرقهم في الأرض بدداً، وترك ديارهم خراباً يباباً» ثم أرم بقتل المحتج على ذلك فصدعت المجموعة بالأمر وقتلت المحتج وتابعت طريقها «.. حتى أدى بنا المطاف يوماً إلى مفازة مترامية الأطراف، وقد أجدبت أرضها.. مد كل منا بصره فإذا بصبية كالدرة السنية تنفي عن القلب كل هم وغم وبلية، تجلس تحت شجرة عارية عبوس. وكانت تغرد بصوت فاتن رقصت له وحوش القفار وضواريها. ودنا منها السيد فتبعناه. تأملنا الصبية عن قرب فإذا هي حامل في شهرها التاسع وضيئة الوجه..

لما رفعت عينيها ورأت السيد انتفضت كالملسوعة، ولاح في نظرتها رعب غريب.. لكنها واصلت الغناء الفتان السحر.. حاولت أن تنهض.. فما كان من السيد إلا أن شهر مسدساً كاتماً للصوت وأطلق رصاصة أشبه بنحلة هامسة وشوشت ثم عقصت بطن الصبية، فإذا بها تسقط مضرجة. وإذا بصوتها يتساقط فوقها ثم ينقطع.. وإذا بوحوش البرية التي كانت تتمايل طرباً وتردد.. آه.. آه تهرب ثم تختفي». وعندما استفظع أحدهم فعلة السيد وأمر بقتله فقتل.

تحتم القصة بالمشهد الثالث: «ثم رأينا السيد يفتح فتحة في الأرض ويهبط إلى سرداب مظلم فهبطنا وراءه. لفحت وجهينا ريح باردة رطبة، وباغتنا ظلام. أشعل السيد شمعة، فرأينا بعدما اعتادت عيوننا على الظلام نقوشاً بابلية، وفرعونية، وسومرية، ونبطية، وفينيقية، وعربية على جدران السرداب، ولاح لنا السيد وهو يمحو هذه النقوش والكلمات فيبدلها تبديلاً، ويزورها تزويراً، ويزيفها تزييفاً.

ثم هبطنا إلى دهليز سحيق، فغاصت أقدامنا في غبار غابر وشقت خطواتنا طريقها بعناء بين الجثث المحنطة والكتب القديمة، وسمعنا زعيقاً مرعباً، ورأينا أشلاء غيلان الدمشقي وفرج الله الحلو وجسد صبية كان قد وئد ورأينا آلاف الأجساد المحنطة لأبطال قتلوا وجبناء عاشوا.

وضع السيد شمعته جانباً وبدأ ينقل أجزاء الجثث. رأس هذا الجسد لذلك، وسيف ثان لكفن ثالث، وعينا رابع يزرعهما في وجه خامس، وهكذا واصل التزوير والتحريف وراح يطلق ضحكة مجلجلة ويقول: تاريخنا سحيق.. سحيق».

ولما احتج الأول ورفض الثاني منتحباً قتل أخيه وطلب تبرير ما حدث أطلق السيد رصاصة على الجميع، والذي هالهم في تلك اللحظة أنه «لن يبقى ثمة رفيق ليسمع المبرر في نهاية الرحلة. لن يبقى أحد».

لكل قصة فنية من التأويلات ما يعادل قارئيها عدداً. أما تفسير القارئ العربي لهذه القصة فلا بد أن يتأثر بالمسلك الصهيوني نحو فلسطين: لقد فرغ الصهاينة من تمزيق فلسطين وتشتيت الأجيال الأولى من أهلها ثم التفتوا إلى الجيل الثاني الفتي «فبرعوا» في تقتيل أطفاله بأسلحة «ذكية» لا تخطئ وتكفلت الآليات الجبارة بتدمير البيوت وتقطيع الأشجار وتجريف الأراضي ومصادرة المستقبل أمام صمت العالم الذي قد يستمتع بالغناء الجماعي ويشارك فيه، لكنه سرعان ما يختفي في ساعة المحنة. وقد آن أوان الآن للخطورة الثالثة - خطوة محو التاريخ بتزويره، بتسفيهه، بتشويهه باقتلاع كنوزه الروحية المكنونة في الصدور وفي أعماق الأرض. وما أدق ملاحظة الكاتب عندما أشار إلى عمليات التبديل والتزوير والتزييف بدأت بالطبقات الأولى من التاريخ، بالنقوش البابلية والفرعونية والسومرية والنبطية والفينيقية والعربية قبل البدء بتاريخ غيلان الدمشقي (العصر الأموي) وفرج الله الحلو (العصر الحديث) لأن الاقتلاع الاستئصالي الشامل يبدأ بالجذور، ويسهل بعدها اقتلاع الطبقات التالية، فإذا ما ألغي التاريخ ألغي كل شيء ولا تعود ثمة حاجة لإطلاق الرصاصة الأخيرة، إذ لن يبقى شعب ليتم إلغاؤه. وإذا كانت مهمة الفن تنتهي في العادة عند وصف الظاهرة والتنبيه إليها فإن مؤنس الرزاز لم يتوقف عند ذلك. بل حاول إيجاد حل لهذه المسألة المصيرية في الرسالة التي وجهها إلى الشيخ حسن نصر الله عندما لم يكن قد بقي إلا القليل على بداية القرن الحالي. فكتب في زاوية «ضوء» في صحيفة «الرأي» الأردنية بتاريخ 10-10-2000 «رسالة إلى الشيخ نصر الله». أناشدك افتح باب التطوع للمقاتلين العرب والمسلمين! أعرف أنكم غير محتاجين إلى العنصر البشري، وأن أبطالكم «يكفون ويوفون».. لكننا نحن العرب بحاجة إليكم، لعل تطوعنا يحررنا من الإحساس بالعجز والذنب والتقصير!

فضيلة الشيخ المناضل: من حقكم أن تعترضوا وتقولوا لنا: ولماذا لا يفتح العرب غير اللبنانيين جبهاتهم فيتطوع شباب كل دولة عربية ليقاتلوا من حدودهم؟ تعلمون يا سيدي أن هذا المطلب شبه مستحيل لأسباب خارجة عن إرادتنا. من حقكم أن تقولوا لنا: هذه مشكلتكم لا مشكلتنا. لكنني لا أتكلم عن حقكم وحقنا وواجبكم وواجبنا.. وإنما أناشدكم مساعدتنا، نحن العرب والمسلمين المقيدين بعجزنا، المضرجين بوجعنا، ساعدونا علينا.. يا سيدي.. وافتحوا لنا باب التطوع من أجلنا لا من أجلكم فأنتم لستم بحاجة لنا.

سيدي فضيلة الشيخ المناضل: أنقذونا منا.. وافتحوا باب التطوع»[1].

1- صحيفة الرأي عمان، 10-10-2000.

هل كان الأديب الكبير يرى بعينيه آنذاك أحداث الأسبوع الثاني من نيسان من العام الماضي 2003 في بغداد، وهل كان يسمع بأذنيه الضحكة الهستيرية فرحاً بقصف بغداد تطلقها المذيعة الإسرائيلية التي عبرنا بها في بداية هذه الدراسة والتي قدمت للمشاهدين إسرائيلياً يفاخر بأنه تبرع، دون مقابل بتقديم خرائط مفصلة عن الأماكن الأثرية الحضارية في العراق لطياري التحالف الصهيو - أمريكي لشن الحرب الأولى على الماضي العربي العريق قبل شنها على الحاضر الراهن. هناك «تواريخ» قشرية هشة يسهل اقتلاعها كـ «تاريخ» الصهاينة في فلسطين، فمخترعوه أول المقتنعين بكذبة وتهافته، وهناك التاريخ - التاريخ، الأصيل المتجذر في أعماق الوعي واللاوعي، المكان والزمان، وهو ذاك الذي لا يؤمن غير المغرورين بالقوة بإمكانية اجتثاثه بقنابل النار والحقد وغطرسة العنصرية، بينما لا يزداد أبناء ذلك التاريخ إلا تمسكاً وإيماناً به وانتماءً لأرضهم وتذواباً معها. لهذه الأسباب جميعاً دارت الأحداث التالية التي نكتفي بسردها في صفحات قليلة تتضمن مقتطفات قصيرة اجتزأناها من شهادات وأقوال شهود عيان مضافة على تحليلات لبعض الباحثين المتخصصين في الآثار العراقية ووردت في مجلة «الآداب الأجنبية (مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب)». دمشق العدد 116، خريف 2003.

في دوامة الاستعدادات الأمريكية لحرب العراق صرح مسؤول عراقي بقوله: «لا يطمع الأمريكيون في نفطنا فقط بل يطمعون في تاريخنا أيضاً. إنهم بحاجة إلى روائعنا الجديدة كي تمتلئ بها متاحفهم، كما أظهرت جامعاتهم، وما تزال، اهتماماً خاصاً بحضارات ما بين النهرين»[1]، ولم يمض إلا قليل من الوقت على ذلك التصريح حتى «نشر مقال» في مجلة أخبار الفن الأسبوعية، في تشرين الثاني 2002 عنوانه: «تاريخ العراق هو تاريخنا أيضاً»، لا بد أن يثير الظنون.

فالحديث يدور في ذلك المقال عن مستقبل التراث العراقي على إثر الغزو البري الذي ستقوم به الجيوش الأمريكية. ويؤكد الكاتب أن الجمعية الأمريكية واسمها (المجلس الأمريكي للسياسة الثقافية» التي أسسها أشتون هاوكينز، المحامي السابق لمتحف نيويورك، تستعد لتولي مهمة «المنقذ للآثار العراقية. وتقول الجمعية إنها على استعداد للتعاون مع إدارة الآثار العراقية من أجل ترميم المواقع، وتعرض مساعدتها لتدريب اختصاصيين عراقيين انقطعوا عن كافة التقنيات الحديثة منذ أكثر من عشرة أعوام. ومن سخريات القدر أن يتوافق تاريخ عرض الجمعية مع بداية الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة من الحكومة الأمريكية»[2].

1- جوان فارشالد العراق بين الآثار واللصوص (مصدر سابق ص 164).

2- المصدر السابق 164-165.

هذا ما كنا نسمعه. أما ما حدث من الناحية التطبيقية فقد غطته مجلة «الاروش» الالكترونية للدراسات السياسية بكثير من التفصيل على لسان دوني جورج، مدير المتحف الوطني للآثار في بغداد. وتبين من حديثه كمشارك وكشاهد عيان أن المتحف العراقي الذي ادعوا رغبتهم في إنقاذه كان الفريسة الأولى التي خططوا لاقتناصها. ويوميات الحرب تسمي الأربعاء (9 نيسان 2003) يوم دخول بغداد الرسمي. وتؤكد تصريحات شاهد العيان ذاك على أن الأمريكيين كانوا متلهفين جداً على بدء معركة المتحف من أجل السطو عليه وأن العملية بدأت قبل دخول العاصمة وبعدها. ولم تصل الحراسة إلى المتحف إلا يوم الأربعاء 16 نيسان. يقول دوني جورج: «في صباح الثلاثاء، اليوم الثامن (من نيسان)، عند الساعة الخامسة صباحاً استيقظت على أصوات الدبابات الثقيلة والقصف المدفعي الشديد. كان القتال قريباً جداً، بجانب وزارة الإعلام، ومحطة الإذاعة والتلفزيون، التي لا تبعد أكثر من 400-500 متر عن المتحف. بدأ هذا الصوت يقترب أكثر من المتحف، ومن جديد بدأنا نلاحظ إطلاق النار من الجانب الآخر للمتحف، وكان ذلك من منطقة الحافلات المركزية. وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً بدأنا نسمع أصوات طائرات الأباتشي المروحية المقاتلة فوقنا.

كان هذا كله يحدث وكنا واثقين من أن الأمريكيين لن يضربوا المتحف لأنهم يعرفون بالتأكيد أن هذا متحف، وعلمنا أنهم تلقوا تحذيراً من العلماء في الولايات المتحدة وبريطانيا. لكننا رأينا بعض أعضاء الحرس الوطني المسلحين العراقيين، الذين يمكن تسميتهم بالفدائيين، وقد راحوا يقفزون عائدين إلى حديقتنا ورأيناهم يطلقون النار على الدبابات، وكان هذا يعني أن متحفنا قد أصبح هدفاً..

ذهبنا عبر النهر إلى الجانب الشرقي إلى متحف صغير آخر، وانتظرنا هناك، ومن جديد كانت الساعة الثالثة بعد الظهر حين أردنا العودة إلى المتحف. لقد أردنا البقاء بعيدين قليلاً فقط، حتى تهدأ الأمور، وحاولنا عبور جسر السابع عشر من تموز، أو جسر المدينة الطبية، وهو أقرب جسر إلى المتحف. وحين أصبحنا في منتصف الجسر تقريباً، كان الناس يأتون من الجانب الآخر، وطلبوا منا أن نعود، لأن الأمريكيين كانوا هناك، وكان القتال ناشباً هناك تماماً ولم يدعنا أحد نعبر.

كان الأمريكيون قد استولوا على منطقة المتحف وعبروا عن تلك المنطقة. لذلك كان من المستحيل أن نذهب إلى المتحف في ذلك اليوم.

وبعد ذلك، أعتقد أنه كان مساء السبت (12 نيسان) حين سمعت في الأخبار أن المتحف قد نهب، بعد ذلك (كما عرفنا) كان اللصوص قد دخلوا المتحف يوم الخميس. ولا نعرف

بالضبط ما حدث يوم الأربعاء، ولكن في أيام الخميس والجمعة والسبت (10-11-12 نيسان) كان اللصوص يتجولون داخل المتحف وداخل منطقة إدارتنا. وفي صباح الحد قررت الذهاب إلى مقر قيادة مشاة البحرية في بغداد لأننا عرفنا أن لديهم مقراً عاماً لقيادتهم المركزية في فندق فلسطين. قررت الذهاب إلى هناك وطلب أي نوع من المساعدة لحماية المتحف. وقرر الدكتور جبار (رئيس المتحف) أن يأتي معي.

في الصباح التالي، ذهبنا إلا مقر قيادة مشاة البحرية. واستغرقنا بضع ساعات حتى استطعنا مقابلة شخص ما هناك. ثم قابلنا العقيد ساركوني. كان من مشاة البحرية، من الشؤون المدنية. أخبرناه عما كان يحدث للمتحف وطلبنا منه المساعدة في حماية البناء والمنطقة هناك. فقال «طبعاً، إنه واجبنا، وهذا مهم جداً، ويجب أن نحميه». أريناه موقع المتحف. وقلنا، إننا ذاهبان إلى المتحف. فقال «حسن، ربما ستذهبان وتريان السيارات المدرعة هناك الآن. سأتصل على الفور وسيكونون هناك بالتأكيد». لكننا ذهبنا على هناك ولم تكن هناك أي حراسة».

وفي صباح الأربعاء (16 نيسان) فقط وصلت الحراسة إلى المتحف:

مجلة لاروش: وذلك بعد أسبوع كامل من دخولهم بغداد رسمياً في 9 نيسان.

دوني جورج: بالضبط..

وما سمعته لاحقاً من ذلك الصديق الذي يقيم في منطقة المتحف: إن اللصوص يوم الخميس (10 نيسان) وعددهم حوالي 300-400 كانوا خارج سور المتحف.. ذهب صديقي إلى دبابة كانت قريبة جداً من المتحف.. وراح يتوسل إليهم ليأتوا وينقذوا المتحف، وأن يحركوا الدبابة فقط على أمام المتحف ليوقفوا هؤلاء الناس كلهم وقال إن بعضهم قد اتصل. وبعد ذلك قال: «إنني آسف، فهذا ليس واجبنا».

ثم دخل هؤلاء الناس.. وما رأيناه لاحقاً كان مروعاً طبعاً. لقد بدا وكأن إعصاراً ضرب البناء من الداخل وما لم يستطع اللصوص أخذه حطموه..

ثم اكتشفنا أنهم حطموا المخازن أيضاً..

أنا بالذات كانت لدي فكرة بأن هناك ثلاث مجموعات من الأشخاص دخلت المتحف..

المجموعة الأولى، كانت اللصوص العاديين فقط، واعتبر أنهم الأشخاص الفقراء الأميون الذين يبحثون عن أي شيء يبيعونه بالمال. المجموعة الثانية، كانت الأشخاص الذين دخلوا غرف المخازن، ويبدو أنهم درسوا طريق الوصول إلى هناك، لأنهم ذهبوا وحطموا باباً زجاجياً ودخلوا عبره وباباً ذا ستارة حديدية، وباباً حديدياً مقفلاً بالآجر. أما أفراد المجموعة الثالثة، فراحوا

يلتقطون أشياء كانوا يعرفون بأمرها مسبقاً. لقد عثرنا على أدوات لقطع الزجاج، وهذا يعني أنهم كانوا مستعدين للحضور إلى المتحف. كما عثرنا على رزمة مفاتيح في مكان ما قرب غرفة مديرة المتحف، بدا أحدها شبيهاً جداً بمفتاح خزنة المديرة التي كانت تحتوي على مفاتيح المتحف. إن رزمة المفاتيح تلك ليست لنا. هذا مستحيل، فنحن نعرف مفاتيحنا.

.. قد يكون هناك ارتباط بين المجموعتين الثانية والثالثة.. لأن أفراد المجموعتين كانوا يعرفون ما يريدون.

مجلة لاروش: كتب عالم الآثار الألماني البروفيسور سومرفيلد في إحدى مقالاته إن الأمريكيين طلبوا من الناس أن يدخلوا وينهبوا، وحطموا البوابات لهم. كان ذلك تقريراً حصل عليه من أشخاص آخرين.

دوني جورج: إنني لا أعرف ذلك، حقاً. ولكن ما أنا متأكد منه هو ما قاله صديقنا ذاك، عالم الآثار. لقد قال إنه ذهب وتوسل إليهم ليأتوا ويحموا الأعمال الفنية، فقالوا: ليست لدينا أوامر. حسن، كان هذا يعني هيا استمروا، وخذوا ما تريدون[1].

كان الأديب الدكتور عبد السلام العجيلي واحداً من أوائل من عبروا عن الألم والحسرة لما جرى في العراق. جاء ذلك ضمن مقالة له بعنوان «حجر في بغداد» وهو قطعة لا يتجاوز حجمها حجم الكف، كان الكاتب يحرص على رؤيته خلال زياراته إلى بغداد، ويحدد أماكن لقائه بالحجر إلى أن استقر في المتحف الواسع في الكرخ. أما سر الحجر فهو «.. الشكل الهندسي المرسوم عليه والذي تفسره الكتابة المسمارية إلى جانبه، وكأن الشكل والكتابة منقولان من كتاب الرياضيات من تلك التي تلقينا دروسنا الثانوية فيها ثم على جانب عمر ذلك الحجر وتاريخ الشرح المرافق له، وهما يرجعان إلى أربعين قرناً خلت، أعني إلى أربعة آلاف سنة قبل اليوم. الشكل يمثل مثلثاً قائم الزاوية أقيم من زاويته القائمة عمود على وتره والكتابة إلى جانبه هي مطالبة بالبرهان على أن المثلثين القائمين إلى جانب العمود متشابهان»[2].

ويحسن المؤلف استغلال المناسبة للحديث عن أولوية أبناء ما بين النهرين في العلوم وبخاصة الرياضية منها، وتقدمهم بعشرات القرون على ما ينسب ظلماً لقدماء الأوروبيين. وندرك حسرة الكاتب على الحجر الذي لا بد وان يكون قد أخفي أو اختفى. فأي شيء يمكن أن يبقى بعد الاستباحة الجهرية للمتاحف العريقة أياماً بلياليها؟ كل ما يمكن أن

1- مقتطفات من: علماء الآثار يتهمون الولايات المتحدة بجريمة القرن عن مجلة «لاروش» الالكترونية للدراسات السياسية ترجمة رشا حداد. مجلة «الآداب الأجنبية» (المرجع السابق ص 168-174).

2- د. عبد السلام العجيلي حجر في بغداد. صحيفة «تشرين» زاوية «آفاق». دمشق، 17-4-2003.

«نطمئن إليه» هو أن اللصوص وحماتهم قد بَشِموا ، وصالات بيع التحف القادمة من الشرق الأوسط في أوروبا وأمريكا قد عملت بكامل طاقاتها (ص 190) كما نفترض أن «المؤرخين قد استنفروا لكتابة التاريخ» «على الهوى». أما أحجام المسروقات فيجهلها حتى اللصوص:

«قال الخبراء إن هناك من بين المواد التي فقدت مجموعة تضم 80000 لوح من الكتابات المسمارية التي تحتوي على نماذج من بعض أقدم الكتابات في العالم» (الآداب الأجنبية ص 167)، «من المعرض الأكدي فقدنا تمثال بارزيكي الشهير، الذي يزن أكثر من 160 كغ. إنه قطعة ضخمة وأروع ما فيها أنها واحدة من أقدم النماذج الكبيرة عن الصب التي صنعت بواسطة «تقنية الشمع المفقود» التي تستعمل حتى الآن. وأقدم تمثيل لهذا يرجع إلى فترة أوائل السلالة السومرية الحاكمة. وربما تكون هذه أكبر قطعة تم صنعها بهذه الطريقة. لذلك إنها حقاً خسارة عظيمة لتاريخ الفن».

وما لم يستطع اللصوص أخذه حطموه. لقد حطموا بعض الأسود الفخارية التي حصلنا من تل الحرمل من الفترة البابلية القديمة: وكان لدينا خزانة عرض لنماذج من الآجر المختوم تعود إلى مرحلة مبكرة من العصور الرومانية. لقد أخذوا تسعة من نماذج الآجر تلك، ويبدو أنهم انتقوا تسع قطع.. ولم يأخذوها بشكل عشوائي. وفي المعرض الآشوري، لاحظنا أن تمثال شلمنصر الثالث مفقود ، وتمثال آخر محطم. وفي معرض منطقة حترا أخذوا رأس تمثال وحطموا ثلاثة تماثيل رومانية.. وأخذوا رؤوسها. كما أخذوا رأس نايكي، إلهة النصر.. ثم اكتشفنا أنهم حطموا المخازن أيضاً. وذهبوا إلى ما ندعوه بالمخازن القديمة التي كانت في أقبية المتاحف. ولا نعرف حتى الآن ماذا. ولا كم قطعة أخذوا من تلك الأقبية(171).

«وها هناك تنتصب خزانة زجاجية ضخمة تحتوي لقى تعود لأربعين ألف سنة خلت تحطمت وأفرغت من محتوياتها.. وما من أحد يعلم أين اختفت المجسمات الآشورية التي تعود للقصر الملكي الموجود في «خورسبالد» والأختام المعدنية والحجرية والصلصالية التي ترجع لأربعة آلاف سنة أو الأقراط الذهبية التي دفنت مع أميرات سومر وعمرها 45000 سنة.. متحف بغداد ويضم أكثر من 150 ألف قطعة أثرية عبثت بها أيدي لصوص محترفين. لم يسموا النسخ وإنما سرقوا القطع الأصلية مما يؤكد أنها عملية قرصنة منظمة.. (186) وعلى إثر زيارة روبير فيسك للعاصمة العراقية بعيد وقوع جريمة المتحف نشرت الاندبندنت البريطانية قوله: «وطئت أقدامنا بقايا تماثيل من رخام عمرها خمسة آلاف سنة إلى جانب جرار وقوارير ولقى صمدت أمام حصار بغداد عشرات المرات عبر التاريخ ليتم تحطيمها مع مجيء الأمريكيين للتحرير، «رأيت لوحات من النقوش الحجرية يعود تاريخها إلى 27000 سنة مقطعة

الأوصال وأقنعة عمرها 700 ق. م وتماثيل صلصالية تعود لألفي سنة ومزهريات تعود لأكثر من 5000 ومجسمات رخامية تعود لـ 800 ق. م ورؤوس ملوك آشور وبابل تعود لـ 2250 سنة ق.م تم تحطيمها بعد سرقة ما خف حمله وارتفع ثمنه وقد «عثر مزاحم (محمود، عالم الآثار العراقي) خلف تلك البوابة كما أخبر فلاندران، على مقبرة امرأة يرقد رأسها فوق طبق من الفضة وقد زين تمثالها بأقراط وعقد ذهبيين إلى جانب أساور وخواتم مطعمة بالأحجار الكريمة.. وتم استخراج تلك المكتشفات وأرسلت إلى متحف بغداد لتتعرض للسرقة خلال شهر نيسان الماضي 2003 على غرار كنوز «فالاسار» واكتشفها مزاحم محمود في آذار عام 1989 داخل بئر تؤدي إلى صالة مغلقة بحجر كبير كتب فوقه: «تتذركم الملكة إبابا وابنتها أتاليا بألا تلمسوها وألا تسرقوا مجوهراتها. وإلا لن تروا الجنة وستصيبكم الأمراض القاتلة (189).

وقفت الدبابات الأمريكية أمام البوابة الرئيسية لمتحف بغداد الوطني في الوقت الذي قام به اللصوص بنهب محتوياته تحت أنظار تلك القوات وبمباركتها[1]...

يسرد المؤرخ والمهندس الفرنسي هنري سيترلين مسيرة حضارات ما يسميه معجزة التراث الإنساني فيقول: «من ينابيع دجلة والفرات نهلت الحضارة الغربية ثقافاتها.. فعلى ضفافها ابتدع السومريون الخط والبابليون القانون المدون وذلك قبل 5200 سنة من الآن إلى جانب الرياضيات وعلم الفلك والزراعة - وظهرت في الألف العاشر ق. م.. ولدت صناعة التماثيل الصلصالية منذ 3300 سنة ومعها صياغة المجوهرات والحلي لتواكب تعاقب الثقافات في منطقة الرافدين ليعمل القصف الأمريكي الهجمي للمناطق الأثرية على إبادتها شكلاً ومضموناً وتأتي - يتابع هنري سيترلين - عمليات السرقة المنظمة لتترجم تهديدات جورج بوش الابن ومبادراته التخريبية في العراق على أرض الواقع» (187).

في ملف خاص بالباري ماتش أشرف عليه فيليب فلاندران ورد ما يلي: «وعلى مقربة من الموصل - وتبعد 400 كم شمال بغداد تقع مدينة نمرود وتطل على سهول خصبة ترويها مياه دجلة وروافده الزاب الأكبر.. وعلى غرار نيبور - 250 جنوب بغداد - حاصر الجنود الأمريكيون - أفاد فيليب فلاندران وتعرف عل لهجتهم التابعة لولاية تينيسي - مدينة نمرود منذ وصولهم إليها منتصف حزيران 2003 وأطبقوا بدباباتهم على مداخل قصورها الملكية وقاموا بتفتيش كل بقعة فيها ولا أحد يدري ماذا وجدوا وعلى أية آثار استولوا؟!..

1ـ مقتطفات من: شهود عيان أجانب وعرب يؤرخون: عمليات نهب الآثار العراقية. إعداد هدى أنتيبا. «الآداب الأجنبية» (المرجع السابق ص 185-186).

وتعرضت تلك الكنوز هي الأخرى للنهب والاختفاء خلال سرقة المصرف المركزي العراقي حيث نقلت قطع أثرية أخرى تعود لزوجة آشور غاسيربال كالمجوهرات واللآلئ وكاد مزاحم محمود (عالم الآثار العراقي) كما يقول فيليب فلاندران يفقد صوابه حين رأى الصواريخ الأمريكية تدمر مصرف بغداد المركزي حتى علم أن قوات البنتاغون عثرت في خزائن المصرف المذكور على 650 قطعة أثرية و 70 كغ من الذهب وأحجار كريمة تزن أطناناً تم عرضها أمام كاميرات الصحفيين لفترة لا تتجاوز الثلاث ساعات فقط..

تحولت الحاضرة الأثرية بابل العريقة إلى قاعدة أمريكية عسكرية بعد أن دمر جزء من متحفها الخالي من محتوياته اليوم. وفي محافظة الناصرية - يدون فيليب - استعاد مدير آثارها حفنة من القطع الأثرية المسروقة من متحفها.. وتنسب تلك الكنوز لـ «لاغاش» العاصمة القديمة لـ «غوديا».. وكانت محتويات معبد نينكرشو، المدينة المجاورة لـ «فيرسو» قد تعرضت هي أيضاً للنهب والسرقة ولم يتبق سوى بضعة ألواح في متحفها تعود للعصر الذهبي لسومر (قبل 42 قرناً) وصل إليها لصوص الآثار على غرار قصر نورقداد في «لارسا» ومعبد شمس في «سيبار» ومعبد إنليل شقيقة عشتار وتقع في نيبور[1].

وهكذا ظهر أحد الأسباب الحقيقية لحرب العراق منذ أيامها الأولى، وتكشف ذلك لا من خلال أعمال النهب والسرقة فقط بل وأيضاً من خلال الحقد المسعور الذي تمت به تلك الأعمال. ويشركنا الباحث الدكتور خالد الناشف في تساؤلاته حول أسباب ما جرى إذ يقول: «لا يوجد تفسير واحد للإحاطة بما حصل، لا سيما وأن طبيعة هذا التدمير لم تقتصر على النهب والسرقة ولم تكن مجرد رد عفوي كما أراد الرئيس بوش أن يوحي لنا، فقد رافق عملية النهب تخريب متعمد انتهى بالحرق، كما حصل في المكتبة الوطنية ومكتبة الأوقاف، أو تهشيم القطع الأثرية التي لم يتمكن اللصوص من حملها في المتحف العراقي. وحصل هذا كله تحت أعين الجنود الأمريكيين الذين لم يحركوا ساكناً لإيقاف المعتدين. ولهذا يسود الاعتقاد بأن عملية التدمير كانت مدبرة وأنها نفذت بعد تخطيط مسبق ومقصود»[2]. أما أسباب هذا العدوان على المؤسسات الثقافية ونهبها ثم تدميرها وإحراقها فيحاول الباحث أن يجد لها تفسيرات أخرى بعيداً عن الدوافع الاقتصادية ويذكرنا بالبعدين الجيوسياسي والحضاري الذي يتفرد بهما العراق ويرثهما في الوقت نفسه عن حضارات الأجداد. فالأول تعكسه الخارطة الحديثة للعراق «بمركز ثقله بغداد، وبشكل مطابق للوضعية الجيوسياسية

1- المصدر نفسه ص 187-190.

2- د. خالد الناشف دلالات العدوان على الجذور الحضارية للعراق مجلة «الآداب الأجنبية» المرجع السابق ص 20.

في العالم القديم، وبشكل خاص في فترة الهيمنة الأكدية في الألف الثالث والثاني الذي يشبه في بنيته واقع الغرب اليوم، فقد كان يعتمد على المواد الخام ويقوم بتصدير ما يصنع منها، وهو ما يشابه الوضع اليوم لتصدير البضائع الاستهلاكية الغربية إلى دول العالم الثالث»[1]. ويطرح الباحث عدة احتمالات ترد على تساؤله «فيما إذا كان هذا العدوان على الجذور الحضارية للعراق هو مواجهة لما كان يمثله العراق جيوسياسياً من قوة حضارية في الماضي أو، إن عُكس ذلك على المستقبل، ما يمكن أنت يصبح عليه العراق من قوة إقليمية تهدد مصالح الولايات المتحدة في المنطقة، وبخاصة أمن حليفتها إسرائيل «لكنه لا ينسى أن ينبهنا، قبل ذلك، على مشروعية «المقارنة بين ما فعله غزاة العراق وغزاة فلسطين فلعل التدمير الذي طال المؤسسات الحضارية في العراق ينطوي على نزعة أمريكية تتمثل بإلغاء التاريخ.. وبالمقابل يعمل الغزو الصهيوني على استعادة التاريخ وربطه بالغزاة الغرباء من جهة، ومن جهة أخرى على إلغاء الشعب الفلسطيني، الذي يمتلك حضارياً الحق الفعلي بهذا التاريخ»[2]. ربما كانت كل الاحتمالات التي طرحها الباحث ممكنة وأن الغزو الأمريكي قد جاء في محاولة لتحقيقها جميعاً.

أما وقع هذه الأحداث في نفوس أبناء العراق فلخصه دوني جورج في نهاية حديثه إلى صحيفة لاروش معقباً على قوانين الآثار في العراق وإمكانية تخفيف وطأة أجزاء من القوانين العراقية بحيث يصبح الأمريكيون قادرين على تصدير بعض المواد خارج البلاد فيقول:

«أعتقد أن هذا مستحيل! لا أحد سيقبل ذلك. هل تعرف لماذا؟ سأخبرك بنوعية الصدمة التي أحدثها المتحف والقطع الأثرية على الشعب العراقي. كنت أقابل أنواعاً مختلفة من الناس، من اللحام إلى البقال، إلى بائع الفاكهة، إلى أستاذ في الجامعة. وقد توصلوا جميعاً إلى نتيجة واحدة وهي أن كل ما حدث للبلاد، يمكن أن يحدث، ولكن لا أحد يقبل ما حدث للمتحف. لأن هذا المتحف يمس قلوب الناس. لذلك من المستحيل أن يتغير القانون! فهذا يتعلق بالشعب العراقي كله.

«إذا قال شخص ما للعراقيين، «حسن، اسمعوا إن الأمريكيين يريدون أن يغيروا قانون الآثار ويريدون أن يقوموا بتصدير بعض آثاركم بشكل قانوني للخارج ما رأيكم»؟

إنني أعتقد أنه ستقوم ثورة أخرى في العراق ضد الأمريكيين! لأن هذا مستحيل ولا يحتمل أن يتم»[3].

1- المرجع السابق ص 21.

2- المرجع السابق ص 22، 23.

3- علماء الآثار يتهمون الولايات المتحدة بجريمة القرن رشا حداد (مرجع سابق ذكره) ص 182.

فلنتأمل، أخيراً، في قراءة اثنين من الباحثين في الآثار العراقية لهذه «الصدمة» التي تحدث عنها السيد دوني جورج، والكلمة الختامية التي لخص كل منهما دراسته بها وجسد من خلالها إيمانه الإنساني العميق ونبل نظرته الواثقة إلى مستقبل العراق. فعلى الرغم من هول الجريمة والصدمة يؤكد الباحث، الدكتور خالد الناشف على الأمل والتفاؤل، فالجذور العميقة لتلك الحضارة العريقة التي انتهبت آثارها باقية في كيان الإنسان العراقي نفسه: «إن وعي الشعب العراقي لتاريخه الحضاري يزداد عمقاً مع وجود هذا التاريخ الحضاري في متاحفه بالقرب منه. غير أنه لا يمكن لتخريب القطع التي تمثل الإنجازات القديمة أو محاولة إخفائها بسرقتها، أن يقضي على الإنسان العراقي، الذي تجسدت فيه هو الجذور الحضارية للعراق قبل تجسدها في مقتنيات المتاحف. والمهمة التي تقع على عاتق العراقي اليوم، هي في العودة إلى نفسه.. والبداية تتمثل بدحر الاحتلال»[1].

أما جوان فارشاك فتختم دراستها بكلمات موجزة، ناطقة بالكبرياء والثقة والإيمان، تلخص فيها الحضارة العريقة وتجارب الأجداد عبر آلاف السنين والجريمة التي لا تنسى وحكم التاريخ على مسلك الغزاة وعنجهيتهم الفارغة، وترد في الوقت نفسه على من بلغ بهم التبجح حد إعلان «نهاية التاريخ»، الذي لم ولن يتوقف، وصفحاته لا تزال تكتب وتعد الشعب الأصيل المؤمن العريق... بالكثير.

«ليست هذه الحرب بالنسبة للعراقيين سوى مرحلة من تاريخهم الطويل الذي يعد بآلاف السنين. إنهم لا يستطيعون أن ينهبوا كافة المواقع، ولا أن يقتلوا جميع العراقيين، ولا أن يهدموا في أيام حضارة آلاف مؤلفة من السنين. فالسومريون والبابليون والآشوريون.. هم أجدادنا. لقد حاربوا فربحوا معارك وخسروا أخرى. وتاريخنا مكتوب بالدم فليس من شأن نقاط أخرى أن تغيره. ولا يمثل جورج بوش الأب والابن والحصار سوى فترات مؤرخة في تاريخنا. ولا يمكن لسني الشقاء هذه، لهذه السنين العجاف أن تدوم إلى الأبد. والتاريخ لا يتوقف. إنه يكتب كل يوم والزمن يأتي على كل شيء حتى على الهيمنة الأمريكية»[2].

1- د. خالد الناشف دلالات العدوان على الجذور الحضارية للعراق (مرجع سبق ذكره) ص 23.

2- جوان فارشاك عشية غزو العراق العراق بين الآثار واللصوص (مرجع سبق ذكره) ص 165.

خاتمة

تكتشف الحفريات الأثرية المتواصلة في الأرض العربية على مدى ما يقارب القرنين عن كنوز فكرية وفنية أفردت لأبناء هذه الأرض واحداً من المراكز الريادية في العالم في مضمار الأصالة والعراقة وعمق الجذور التاريخية. فهذه الأوابد المعمارية والآثار الجليلة والقصور والأسوار والمدافن، وهذه التماثيل والقطع الفنية واللوحات وشتى أنواع المزهريات والتحف والمجوهرات والحلي واللقى المتنوعة وعشرات آلاف البرديات والصفائح الحجرية والمعدنية والألواح الطينية المشوية والنصوص التي طرقت ونقشت وخطت بأشكال وأبجديات مختلفة الرموز والصور، وما اختزنته من المشاعر الإنسانية ومن الحكم والمواعظ والإخباريات والتجارب وضروب المعرفة والحياة، تنطق - من خلال صمتها وصرامتها وحيادها - بألسنة العصور الموغلة في القدم. وتعيد نبض الحياة الإنسانية وحركتها جيلاً بعد جيل، وتصلنا بالصور الأولى لوجودنا وتطورنا في مدار الأحقاب. وعبر الأنساغ الخفية للموروث الحضاري يتصل الماضي البعيد بالحاضر المتدفق الحي فتستعيد الحياة دفأها ونمطها ومسارها في عادات الأحياء، في مباهجهم وأعيادهم وأغانيهم وأحزانهم، مثلما تجدد نفسها في لغة الأحفاد، في مفردات الكلام وطريقة النطق وإيماءات الأيدي وفي قسمات الوجوه ولون العيون.

مضى زمن طويل على هذه الكشوفات التي اختصها آرنست دوبلهوفر بكتابه هذا. وآن لنا، بعد قراءة هذه الآثار واطلاعنا اليقيني، ومن خلال النصوص مدونة في أصولها الأولى على الأسفار الكبرى التي أضافتها الكشوفات الأثرية إلى التاريخ الإنساني العام وإلى تاريخ أرض العرب بصفة خاصة، أن نؤسس لنظرية جديدة إلى الآثار العربية تعتمد على نتائج الدراسات والبحوث العربية والأجنبية وتنطلق من الواقع العربي الذي نعيشه وتتطلع إلى المستقبل الذي نطمح في الوصول إليه. أما تصورنا لما يمكن أن يستقر في أساس هذه النظرة المشتركة إلى التراث الآثاري فنجمله في النقاط التالية:

1 - الإقرار بأن هذا التراث البالغ الغنى والتنوع والذي يتوزع في الأراضي العربية المترامية الأطراف من مصر إلى أقاصي الشمال الإفريقي إلى ما بين النهرين فالشام فجزيرة العرب فأقاصي بلاد اليمن هو تراث واحد، وهو الشهادة الأولى على وحدة شعوب هذه المنطقة منذ أقدم عصور التاريخ. وهذه حقيقة لا تقررها أسباب عاطفية أو ضرورات تدعيم فكرة الوحدة العربية التي نحن في أشد الحاجة إليها الآن، بل تقررها الحقيقية الثابتة والمناهج العلمية التي وضعت لتحديد الأسر اللغوية والقرابة الإثنية - العرقية بين تنوعات اللغة الواحدة، تلك المناهج التي انطلقت من الأسس الثلاثة المتعارف عليها في دراسة كل لغة وهي «الأصوات» و«النحو» و«المفردات»، واتفقت على أن التشابه أو التقارب بين عناصر كل من هذه الأسس شاهد على وحدة الأرومة. فبالنسبة «للأصوات» تم الاتفاق على أن لهجات العروبية تتميز جميعاً بغلبة الأصوات الساكنة فيها وبتوفرها على الأصوات الحلقية.ع، غ، ه، ق، الهمزة وعلى ثلاث صور من حرف الـ S وهي: ث، س، ص، وثلاث أخرى لحرف الـ Z وهي: ز، ذ، ظ، وبتفخيمها بعض الأصوات حتى الوصول بالمفخم إلى استقلاليته كحرف كما في د، ض، ت، ط، ز، ظ، وهكذا كما تقل فيها مراتب الصائتات: أ، و، ي حتى إنها لم تكن تدون في المراحل القديمة من الكتابات العروبية. أما في «النحو» (ويعد المعيار الأساسي للقرابة» فمن المتفق عليه تماثل الطبائع النحوية للغات العروبية والوحدة المشتركة في بناها التركيبية، كتشابه أجزاء الكلام وطبائع الأسماء والحروف، ومقولاتها النحوية كالتذكير والتأنيث - دون المحايد، ومقولات الأفراد والتثنية والجمع، والعاقل وغير العاقل - (مقابل الحي وغير الحي في أسر لغوية أخرى)، والاشتقاق وفق موازين متقاربة وأوزان الجموع، وحروف الزيادة لدى تحقيق التحولات البنيوية والإعرابية وما يتعلق بالنسب والتصغير وأزمنة الفعل وصيغ الأمر والأصل الثنائي أو الثلاثي للفعل وما على ذلك. أما بالنسبة للمفردات فلا يتفق فيها على وحدة الأرومة إلا إذا غاصت معايير القرابة إلى أعماق زمنية بعيدة تصل حتى المراحل الجنينية المبكرة من حياة اللغة، أو البدايات الأولى للمفردات الأولى التي لا تزال واحدة في لهجات العروبية كما في مسميات: أعضاء جسم الإنسان - الرأس، اليد، العين، الرجل، الأسنان، الأصابع؛ أعضاء الأسرة: رجل، امرأة، أب، أم، أخ، أخت، ابن، ابنة، الضمائر: أنا، أنت، هو، هي، نحن، هم، عناصر الطبيعة في أوسع معانيها: الأرض، السماء، الشمس، القمر، النهار، الليل، الجبل، النهر،

الماء، النار، الشجر، التراب، الحديد، الذهب، النحاس، النور؛ أسماء الجهات والفصول والألوان: شمال، شرق، يمين، يسار، ربيع، صيف، أبيض، أحمر، أسود، أسماء الحيوانات، المدجنة منها والوحشية: الثور، البقرة، الغنم، الماعز، الكلب، الحمام، الدجاج، السبع، النمر، الأرنب، الفأر، النحل، النمل، الأفعى، العقرب، ألعداد حتى العشرة، أسماء الأيام والشهور وما إلى ذلك كما أن لوحدة الحروف: لـ، بـ، كـ، مع، عن، من، إلى، حتى، أهمية كبرى في هذا السياق، وتضاف إلى هذا ألفعال ذات الأهمية الكبرى لاستمرار الحياة: أكل، شرب، نام، سار، عمل، ذهب، حصد وما إلى ذلك.

كانت «ندوة الوحدة والتنوع في اللغات العروبية» المنعقدة في طرابلس في مطلع العالم الحالي من أوائل من نبهوا إلى هذه النقطة، ونوجز فيما يلي أهم منطلقات هذه الندوة وتوصياتها: فانطلاقاً من المتطلبات الثقافية والفكرية للمرحلة العربية الراهنة، ومن ضرورات الإفادة من الإرث الثقافي العربي البالغ التنوع، ووفاءً من الأحفاد نحو ما قدمه الأجداد في مختلف ميادين الفكر والحضارة، وحرصاً على إنهاء بعض الظواهر الثقافية الشاذة في النظرة إلى هذا التراث الذي أدى فهمه المغلوط إلى بعض مظاهر التشتيت وظهور ما يشبه المدارس المتنافرة بدلاً من أن يكون وسيلة لتعميق الإحساس القومي بالانتماء إلى الأرومة الواحدة، ورداً على التوجهات الاستعمارية الجديدة التي لم تعد تكتفي بالأرض وثرواتها بل تحاول التسلل إلى مضامين روح الأمة وتجريدها من شخصيتها تمهيداً لتطويعها النهائي وترويضها لقبول ما يملى على أبنائها من فروض، عقدت الندوة الأولى للغات العروبية بحضور كوكبة من العلماء من مختلف الأقطار العربية لتتدارس قضية لم يجرِ الانتباه إليها بشكل كاف بعد وهي وحدة أرومة اللغات العروبية، التي يتوهمها البعض لغات مستقلة مختلفة من خلال النظرة السطحية إلى كتاباتها المختلفة بينما تتفق جميع الدراسات على أن هذه تنوعات أو تجليات للغة واحدة تمثل الطبقة الحضارية الأولى في وجودنا العربي.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع بالنسبة للتركيبة القومية للأمة العربية، ولأهمية ذلك بالنسبة لبناء مستقبل الأجيال والتصدي لمخططات الأعداء ودسائسهم، تقدم المشاركون بعدد من التوصيات منها:

- العمل على تأصيل مدرسة «آثارية» جديدة تتغذى بالعلم اليقيني الراسخ وتوظف الكنوز الأثرية والمواد العلمية واللغوية التوظيف الصحيح مؤكدة على الأصل الواحد والتوجه

الواحد - إصدار دورية علمية تعنى بشؤون التوجه الوحدوي بين اللغات العروبية وعودتها جميعاً إلى الأرومة الواحدة وحث المؤسسات التربوية على إدخال هذه النقطة بالذات بين البرامج التربوية للأطفال، وحبذا لو تمت الاستعانة بالفنانين العرب لصياغة الأعمال الفنية التي تخدم هذه القضية، وتشجيعهم - مثلاً - على رسم «الكلمة العروبية» الواحدة بالخطوط و«الأبجديات» المختلفة ليعرف الطفل العربي منذ صغره أنه يتعامل مع الجوهر الواحد رغم تعددية الأشكال التي يتخذها في الرسم.

- تشجيع طبع المعاجم العروبية المختلفة بمختلف الخطوط العروبية القديمة لإزالة «القطيعة» بين هذه الخطوط[1].

لقد كان العلماء الغربيون أول من تنبه إلى هذه الوحدة منذ اللحظات الأولى لقراءة المصرية القديمة. ويبدو أن النية في حرف التاريخ أو «الاستئثار به» بدأت منذ ذلك الحين. ويكفي أن نتذكر ما انتهى إله أحمد باشا كمال ومعجمه الذي لم يطبع حتى اليوم لا لشيء سوى لأنه عرف حقيقية هذه الوحدة ونبه إليها. وفي الوقت نفسه لا تزال حية الجهود التي بذلها منظرو الاستعمار ومفكروه من أجل تفتيت اللغة العربية الواحدة إلى «لغات» وترسيخ لهجات القطر الواحد وإعلانها «لغات» مستقلة. وهذا كله لا يدخل في إطار دراستنا هذه، غير أننا لا نستطيع إغفال حقيقة تاريخية مهمة وهي أن تعرب المنطقة العروبية، بعد ظهور الإسلام، بصورة تتطابق ومناطق الكشوفات الأثرية القديمة - شهادة على وحدة الأصل. فقد اعتنقت الإسلام شعوب من مختلف العروق والألوان والألسنة، بل وكان من بين هذه الشعوب من أظهر نحو الإسلام غيرة لا تقل في صدقها عن غيرة العرب، فحملت رسالة الدين الجديد وسارت بها نحو أراض جديدة واستشهد أبناؤها في سبيل مجده كما فعل الفرس والغزنويون والترك لكنها لم تتعرب. أما الشام والعراق ومصر والشمال الإفريقي فكان لها مسار آخر. وتتحدث كتب التاريخ عن أن أهالي هذه المناطق كثيراً ما وقفوا وتتحدث كتب التاريخ عن أن أهالي هذه المناطق كثيراً ما وقفوا إلى جانب العرب المسلمين رغم خلافهم الديني معهم واتفاقهم في الدين مع الفرس والروم. إلا أنهم اعتنقوا الإسلام والعربية بنوع من «التلقائية التاريخية» التي لا يفسرها غير وحدة الأرومة والأصل اللغوي الواحد القديم.

1- اعمال وتوصيات ندوة «الوحدة والتنوع في اللغات العروبية» المنعقدة في مجمع اللغة العربية الليبي، طرابلس (الجماهيرية العربية الليبية) 25-28-1-2004.

2- حماية التراث من التزييف والانتحال في زمن صار فيه التزوير والكذب صناعة تجري المحاولات لاستغلال منتوجاتها في رسم مصائر الأمم. والمسافة طويلة بين حاضرنا المعاصر وماضينا البعيد، هي بهذا تثير افتخارنا بتوكيدها على عراقة تاريخنا وامتداد جذوره في أعماق الزمن. إلا أن هذا ما يضاعف في الوقت نفسه من إغراءات الطامعين في هذا التراث إذا لمسوا تقاعسنا في حمايته وفي تأصيله. وهناك من يستعد لاختراق هذه المسافة البعيدة بغية أن يحرف مسيرة التاريخ على هواه.

بلى هذه أرضنا وهذا تراثنا، والبديهيات ليست في حاجة إلى البراهين. وما أدق المتنبي تعبيراً حين قال:

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومن المخزن أن نقول إن النهار، في المعركة على التراث، في حاجة إلى دليل، وانطلاقاً من هذا يجب أن نفهم النهب العلني المكشوف لآثارنا في العراق على حقيقتها، فقد يكون مقدمة لحملة تشويه كبرى تؤسس لفبركة تاريخ مصنوع. ومن هذه الزاوية أيضاً ينبغي قراءة الوحشية الاستثنائية التي يطبقها الصهاينة الدخلاء على ارض فلسطين. وبينما تبذل الجهود لتناسي أو طمس تاريخ الخزر في منطقة بحر الخزر (قزوين) يبذل ما يضاهيها لغرس تاريخ لهم في أرض فلسطين.

في المقال الافتتاحي من العدد 166 من مجلة الآداب الأجنبية تنبه الدكتورة ناديا خوست بإيجاز غني بالمعاني وبكل دقة وإحساس بالمسؤولية - إلى ما يقوم به الصهاينة في أرضنا وما يخطط له من مشاريع وإلى ما يؤدي إليه غيابنا عن الساحة العلمية العالمية، وتحدد معالم المشروع الذي نحن مطالبون بالقيام به ثم تختم ذلك كل بالإشارة إلى أثمن ما ينبغي أن تعلمه الأجيال من شواهد حضارتنا القديمة وتراثنا العريق.

تقول الدكتورة ناديا خوست:

«فالصهيونية التي غرست دول حملت لها مستوطنين غرباء من أنحاء العالم جهدت بالتنقيب عن الآثار كي تسندهم بعمق تاريخي. واخترعت أساطير تبرر احتلال فلسطين التاريخية لتدعي عمقاً تاريخياً. مع أن يهود الخزر غرباء، على كل حال، عن المنطقة كلها».

التقى مشروع المحافظين الجدد الصهيونيين الذين يحكمون الإدارة الأمريكية للسيادة على العالم باحتلال نفط الخليج، بالمشروع الصهيوني للسيادة على المنطقة. فقفز المشروع الصهيوني للسيادة على الأرض العربية من النيل إلى الفرات، إلى مرحلة خطرة باحتلال العراق.

في هذه الخريطة الجديدة التي تصاغ للعالم ولمنطقتنا، نقرأ نهب المتاحف والمواقع الأثرية العراقية، واكتشاف القطع الأثرية المهربة إلى إسرائيل.

وسنلاحظ في تقرير كتبه الدكتور فاروق إسماعيل لهذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية، غياب الباحثين العرب عن مؤتمر لندن للدراسات الآشورية، وحضور الإسرائيليين. ويجب أن نتوقع، إذا استمر استسلام العرب للغزو الأمريكي، أن تؤول حضارات المنطقة تأويلاً تلمودياً وأن تزور الحقائق التاريخية، وينبهنا هذا إلى ضرورة مشروع واسع مؤسس على رؤية استراتيجية، يعد خبراء في لغات حضارتنا القديمة ومؤسسات تنشر تراثها، وبرنامجاً يربي تلاميذنا على فهم الاستمرار الحضاري وعلى معرفة الآثار وزيارتها. وسيؤهل ذلك، في سياق، لتربية فنية وفكرية، تستلهم التراث الوطني العريق وتفهم، من شواهد الحضارة، أن التجديد كان دائماً موجوداً كضرورة روحية وواقعية، فردية وجماعية، لكنه كان مستمداً من الصلة الحية بالإرث الحضاري الوطني، لا من غزو طارئ يفرض رؤيته. كما سيساهم ذلك، لو تحقق، في فهم مدى العلاقات بين الحضارات القديمة[1].

ولعل التزامنا بالنقطتين التاليتين- الثالثة والرابعة- من هذا التصور يمكن أن ينهض بجزء وافٍ من حق التراث علينا في جانبه التطبيقي العملي:

3- الارتفاع بالدراسات العلمية في موضوع الآثار إلى مستوى أكاديمي أوسع ميداناً وأكثر جدية وعمقاً. وإننا إذ نثني على الجهود الكبيرة التي بذلها علماء اللغات والقارئون حتى فكوا رموز تاريخنا القديم وقدموا للإنسانية أسفاراً مهمة لا يمكن قراءة التاريخ البشري من دونها، نتساءل: - ومتى نبدأ نحن إسهامنا الجاد في قراءة تاريخنا المجيد؟

لقد أدى أولئك العلماء واجبهم فمتى نؤدي نحن واجبنا؟ لقد حققوا «معجزات» فك الرموز فمتى نستلم الراية ونعكف على الأسفار الخالدة التي تركها الأجداد فنستخرج ما فيها من كنوز ووثائق وأقاصيص وأحداث وحكم فنعرض، من خلال رؤية واقعية موضوعية، تاريخنا الذي لا يزال، في كثير من جوانبه، نهباً بين الأغراب والمغامرين.

إننا لا ننتقص من الجهود الكبرى التي قدمها العلماء العرب في مصر وما بين النهرين في هذا المضمار ولا من أهمية ما نشرته وتنشره «الحوليات الأثرية العربية السورية» وغيرها من الدوريات العربية الرائدة على مدى عشرات السنين، لكننا نؤكد على أن آثار الأرض العربية

1- ناديا خوست. حضارة العراق. افتتاحية العدد 116 من مجلة «الآداب الأجنبية» دمشق. خريف 2003، ص 11- 12.

تستحق جهوداً أكبر ودراسات أكثر حضوراً على الصعيد العالمي؛ ويكفي أن نتصفح «ثبت المراجع» في كل دراسة جادة، عربية أو أجنبية، تصدر في هذا الميدان حتى يتضح لنا ما الذي نعنيه بهذا الحضور واللا حضور.

وقد لا يكون من المبالغة القول إن الموضوع على الصعيد العربي يستحق إنشاء المجلس القومي للدراسات الآثارية العربية، ويكون من مهماته دراسة ما تتكشف عنه المعطيات الآثارية الجديدة، والإفادة منها في تأصيل وحدة الأرومة العروبية للهجات والتنوعات اللغوية التي يتم اكتشافها، بالإضافة إلى ترسيخ هذا التوجه في الأدبيات التربوية العربية المخصصة للأجيال الفتية والمراحل التي تليها. كما يكون من مهماته أيضاً التنسيق بين العلماء العرب وحثهم، إذا لم نقل توجيههم، للمشاركة الفاعلة في الندوات والمؤتمرات العلمية، المحلية منها والعالمية، وعلى ترجمة أفضل الأعمال العربية ومنها في كافة فروع المعرفة الآثارية.

ولنتذكر أن هذا الحضور العلمي على مستوى العالم ليس مطلوباً فقط من أجل ترسيخ الحقيقة العلمية، ولمضاعفة الاعتزاز بهذا التراث، بل وأيضاً من أجل أن تترسخ في الذهنية العالمية حقيقة انتماء هذا التراث لنا، ارتباطنا به، وارتباطه بنا وجدارتنا به واعتزازنا بصفحاته.

ما الذي يقوله المتخصصون في موضوع الكشوفات الأوغاريتية؟

في الاحتفال الذي أقيم في القاعة الشامية في المتحف الوطني بدمشق بمناسبة مرور 75 سنة على اكتشاف أوغاريت تحدث الدكتور بسام جاموس عن بداية ذلك الاكتشاف وأهميته فقد «اكتشف فيها أبجدية تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ق.م وفيها أكثر من 800 كلمة عربية. وأوغاريت تبعد نحو 11 كم شمال اللاذقية وعاصمتها رأس الشمرا ويتبع لها أكثر من 280 مملكة ويمتد تاريخها من الألف الثامن ق.م وحتى القرن الثاني ق.م وتمتد فوق هضبة ارتفاعها عشرون متراً ومساحتها ستة وثلاثون هكتاراً على مقربة من شاطئ البحر.. والتنقيبات ما زالت مستمرة وقد تم العثور على ستمئة رقيم مسماري منها لقى بحجم الإصبع نقشت عليه أبجدية أوغاريت المكونة من ثلاثين حرفاً، ولقى أخرى فيها مقطوعة موسيقية ذات سلم موسيقي لحنها زياد عجان من اللاذقية.

وهناك مجموعة مهمة من اللقى الأثرية منها رقيم مسماري عبارة عن ختم وتمثال الإله إيل 1400- 1300 ق.م من البرونز والذهب موجود في المتحف الوطني بدمشق، وكذلك تمثال آخر للإله بعل أيضاً من الحجر الكلسي موجود في متحف اللاذقية. وكذلك تمثال قارع

الطبل ورأس لأمير أو أميرة من العاج والذهب والصدف واللازورد وغطاء علبة تجميل من العاج وختم ملكي حثي باسم الملك مورسيل الثاني وخاتم ملكي من الذهب دونت عليه كتابة هيروغليفية حثية من القرن 13 ق.م ومجموعة كبيرة من الجرار والقموع والأواني الفخارية المستوردة من مصر»[1].

وقد أكد الباحث جمال حسن حيدر على الغنى الفكري الذي تميزت به أوغاريت في قوله:

«زودتنا نصوص أوغاريت بوثائق مهمة عن الحياة الفكرية والثقافية. هذه النصوص التي كتبت في أوغاريت بتناول موضوعات تتعلق بمختلف جوانب الحياة السياسية والميثولوجية والأخلاقية والفلسفية والفنية والاقتصادية والحقوقية والعلمية وهناك رسائل متبادلة بين ملوك أوغاريت ومعاصريهم ملوك كركميش وجبيل وأمورو والحثيين ومصر وقبرص وغيرها، مما يدل على علاقات دبلوماسية متطورة شهدها عصر أوغاريت، وهناك نصوص تتحدث عن عالم الآلهة الكنعانية التي تجسد قوى الطبيعة وهي تحمل فكراً ميثولوجياً ذا طابع إنساني وتذكر الأرباب إيل وأثيراً وبعل والرب موت الذي يجسد الجفاف وعناة ربة الخصب وكوثار إلهة الصناعة ورشف وحورون ودجن غيرهم إضافة إلى نصوص تدل على فكر أخلاقي وإنساني تتعلق بالتعليم والمعلمين والتواضع والكرم ونصائح أخلاقية منها: لا تسخر من إله لم تبتهل إليه. أطعم اليتيم. أنقذ المظلوم»[2].

أليس من حقنا - وصدور هذه الطبعة من «رموز ومعجزات» تترافق مع مرور ثلاثة أرباع القرن على قراءة أبجدية أوغاريت- أن نسال: أين هي الدراسة الجادة المسؤولة المدققة، المشفوعة بالشواهد والشروح والإحالات والتي بينت أصول هذه اللغة، وخصوصية القلم الأوغاريتي وعلاقته بالمسمارية وخصائص الأبجدية نفسها ومسار تطورها على الصعيد العالمي. وماذا عن التراث الأوغاريتي الذي تؤكد الدراسات على أنه من أثمن ما عرفه العالم القديم؟ فمتى تصدر الترجمات الجادة لذلك التراث أو لبعض من أصوله معززة بما يستحقه من الإيضاحات والهوامش والمقارنات وتبين الأبعاد الإنسانية والآفاق الفكرية للإبداعات

1- أخذ المقتطف من مقالة: سهيل الذيب أوغاريت (رأس الشمرة) جغرافياً تاريخياً وأثرياً. «تشرين» 27-5- 2004 ص 9.

2- جمال حسن حيدر. أوغاريت، التاريخ والآثار. دار المرساة للطباعة والنشر والتوزيع. اللاذقية، 2003 ص 21.

الأوغاريتية التي عبرت، من خلال تجسيدها لآلهتها في صورة الإنسان الخارق للعادة، أو تصويرها للإنسان البسيط في مسار حياته اليومي، عن معاناة الإنسان، كل البشر، في تطلعاتهم، مشاعرهم، اهتماماتهم، أفراحهم وأحزانهم، علاقاتهم بأنفسهم وللآخرين وبالمحيط الذي يعيشون فيه.

الملاحظ أن معظم ما نشر حتى الآن ترجمات متواضعة تتباين مستوياتها وتشف في تضاعيفها الجهود الفردية الصادقة والتي كان يمكن أن ترتفع إلى مستوى أفضل لو توفرت المرجعية العلمية التي تشارك في اختيار العمل وتحديد مداره والإشراف على مراحله، والوصول به إلى المستوى العلمي المنشود، فهل آن الأوان لإحداث كرسي الدراسات الأوغاريتية في قسم التاريخ بجامعة تشرين وإعداد المتخصصين الجادين في فروع هذا العلم الجديد الذي لا يزال يثير الدهشة وكل الاحترام بطرافة مكتشفاته وأهميتها وقيمتها العلمية بالنسبة لمجموع التراث الإنساني العظيم.

- نقل التراث القديم من سكون المتاحف وبردها إلى نبض الصدور الإنسانية ودفئها، أي أن نجعل منه جزءاً صميمياً في التركيبة الروحية للأجيال التي يمكنها وينبغي لها أن تحقق التواصل مع تراثنا الآثاري الذي يفرد لنا الصفحات الأولى في أسفار التاريخ والعلم العالميين، والذي تغبطنا- إذا لم نقل تحسدنا- عليه كل الأمم. لقد آن الأوان لإلغاء القطيعة غير المبررة مع التراث الأثري القديم. فلحكمة إلهية وعلم بما تنطوي عليه طبقات الأرض وما يختزنه صدرها من الدروس والعبر تحضنا الآيات القرآنية التالية على السير والتأمل والإنصات إلى صوت الزمان والمكان:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (1)

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (2)

1- سورة الحج: الآية 46.

2- سورة العنكبوت: الآية 20.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]

وتعريف الأجيال الصاعدة على التراث والماضي وتقريبهما إلى نفوسهم ليس بالأمر الصعب. فتخصيص ساعات دراسية معينة لزيارة مواطن الحفريات والمتاحف العربية يمكن أن ينهض بهذه المهمة. لكن ما نصبوا إليه يتجاوز المعرفة على المستوى السياحي البسيط، ولو كان الأمر بيدنا لفرضنا صياغة مادة دراسية موحدة (ليس فقط لأن توحيد المنهل المعرفي يؤدي إلى توحيد القلوب) تقدم بكيفية ما في المدارس العربية، وتتجاوز في طموحاتها جميع أشكال الحدود المضروبة بين الإقطار والتي يجري ترميمها وتعميقها بصورة مستمرة، على أن يستلهم برنامج هذه المادة تأصيل البديهية التي سلفت الإشارة إليها ونعيد تكرارها وهي أن الكتابات واللغات القديمة- تنوعات لنظام خاص من الكتابة تم إبداعه على أرض العرب باسم الأبجدية وما اللغات إلا لهجات وتنوعات للغة واحدة هي العروبية القديمة، وهذا ما ينبغي أن يتعلمه أبناؤنا وما يمكن أن يزيدهم تقارباً وإحساساً بوحدة الانتماء، كما أن الأخذ بهذه البديهية ييسر لنا كيف نشرح لأبنائنا عدداً من المفاهيم القديمة- الحديثة المتعلقة بالتجديد، بالتواصل مع الماضي، بالتنوع من خلال الوحدة وما إلى ذلك.

أما وسائل التعريف بالتراث وتحقيق التواصل مع الأجداد فكثيرة متنوعة ويمكن للوسائل التربوية الحديثة أن تقدم مساعدات كبيرة في هذا الميدان. فيمكن تخصيص مساحة معينة في الكتب التعليمية للحديث عن الأوابد التراثية المرتبطة بمآثر الماضين، ونقل بعض آثارهم الأدبية إلى صفحات هذه الكتب، وإخراج صفحات التاريخ القديمة وبعض أحداثه وقصصه في الأعمال السينمائية وفي القصص والمسرحيات وأعمال النحت والرسم التي «تعيد إنتاج» تلك الصفحات بطريقتها الفنية فتضمن لها النفاذ إلى القلوب بما عرف عن الفن الأصيل من القدرة على التأثير. كما يمكن تقديم بعض النصوص في صورتها وكتابتها الأصلية لاستغلال دهشة التلاميذ وحب الاستطلاع لديهم وتحويل ذلك إلى نوع من الفضول العلمي الذي يثير ألواناً من

1- سورة غافر: الآية 82.

التساؤلات تزيل «عدوانيتهم» نحو هذه المواد المجهولة وتفاجئهم بأنها تعيدهم إلى الجذور الثقافية الأولى وتثير اهتمامهم بتلك العهود القديمة وبما كان يتسم به أهلها من العادات والأعراف، ويمكن أن يكون ذلك وسيلة لإزاحة ولو جزء من جهل أبنائنا بهذا التراث وبالتالي باللامبالاة نحوه. كما أن للوسائل الحديثة دورها في هذا المضمار، فقد شجعت، ولو عن طريق الدعاية السياحية تقريب عالم الآثار ومعطياته واستطاعت، بطرق فنية متنوعة أن تعرض مشاهير أبطال الحكايات الأسطورية والقصص الشعبية والأحداث التاريخية البارزة وحروف الكتابات القديمة ومقولات الحكماء الماضين حتى على أعمدة الشوارع وجدرانها، في معمارية المباني وعلى مختلف أنواع المزهريات والحلي والقطع النقدية وأوراق النقود وعلى المفارش وأدوات الزينة والطعام والملبس وحاملات المفاتيح وكل ما اصطلح على ترصيعه بشواهد الماضي، كما نشرت نماذج منحوتاتها وتماثيلها ونصبها التذكارية في الميادين والساحات والحدائق العامة وما إليها. ومن قدرت له زيارة بلاد ذات نصيب يقل كثيراً عن نصيب بلادنا من إرث الأجداد الغابرين، كاليونان وإيطاليا، سيدرك جيداً صدق ما قلناه.

مرة واحدة لقيت أوغاريت التكريم الذي تستحقه. كان ذلك عام 1990 عندما تألقت صورة الأبجدية الأولى، للمرة الأولى، يومذاك، على الورقة النقدية السورية من فئة الخمسمئة ليرة، إلى جانب لقى أوغاريتية أخرى، من بينها كأس قديم من قبل التاريخ ورأس بشري منحوت من العاج، وإناء من الذهب، وتوزعت مئات الألوف منها لتجوب البلاد كلها وتدخل كل بيت في رحلة مكرورة لا تنتهي، إلى أن صدرت بعدها ورقة أخرى من نفس الفئة تحمل صورة البطلة المجيدة زنوبيا فمالت الورقة الأولى إلى قليل من الانكماش وإن كانتا لا تتداولان في تجاور ودي يؤكد انتماء المملكتين الشقيقتين، تدمر وأوغاريت إلى وطن واحد. وحبذا لو يتواصل هذا التجاور في المستقبل القريب وتبعث الورقة النقدية «الأوغاريتية» من جديد.

ومن المحزن أن نشير اليوم، ونحن نحتفل بالعيد الماسي لقراءة الأبجدية الأوغاريتية إلى أن اللاذقية، راميتا القديمة، حفيدة أوغاريت وجارتها اللصيقة بها لم تنل أي حظ، مهما صغر، من التكريم، باستثناء ما ذكرناه، ولم تلق أي اهتمام بتخليد ذكراها التي تبقى مخلدة على الرغم من ذلك. لقد وصف شامبليون الدراسات القديمة بأنها «فتاة رائعة الجمال لكنها بلا صداق» وكأنه كان يشير بذلك إلى اللاذقية وهي لا تجد ما

تتجمل به في عيدها الماسي. ربما كان السبب في ذلك أن عطايا أوغاريت الآثارية كانت غير مألوفة. فقد تكتشف الركام والأتربة في مدن أخرى عن الثيران المجنحة والتماثيل المهولة الأبعاد والأحجام للبشر والحيوانات، وعن القصور الفاخرة تزهو بالقاعات والأبهاء التي تتنافس في زخارفها وزيناتها، وعن الأواني الذهبية والأسلحة المذهبة وعن بوابات المدن التي انتصبت عمودية بشموخ وتكبر لتبعث الرعب والدهشة في نفوس الداخلين، فرقشت بمزيج من الجميل والمخيف وتلاقتا على واجهاتها أوراق الأعناب والأفاعي المنسابة على ارتفاع الأعمدة ذات التيجان، وأفواف الزهور مع العقارب المتربصة في كل زاوية، ورؤوس الغزلان الوديعة مع أنياب النمور المكشرة، وزينت تلك البوابات بصور الوحوش والطيور، وصفحت ألواحها وطعمت بمختلف المعادن الثمينة. أما القطاف الأوغاريتي فكان مختلفاً عن ذلك كله. كان أثمن ما فيه وما عد واحدة من أثمن اللقى الأثرية في تاريخ الإنسانية رقيم صغير لا يغطي بحجمه إلا جزءاً من راحة الكف الواحدة، نقشت فوقه رموز عرفت فيما بعد بالأبجدية التي حظيت بشهادة كلود شيفر فـ «كان يرى أن الشعب الذي صنع هذه الأعجوبة له الحق أن يكون له مكان في العالم»[1]. كما اكتشفت رقم كثيرة تشكل فيما بينها مكتبة كبيرة سطرت أسفارها على الألواح المشوية فأبطلت الكثير مما عد مسلمات قبل قراءتها وأضاءت العديد من الحقائق بأنوار جديدة، كما أضافت الكثير من المعارف الأسطورية منها والدينية والأدبية وما إليها، حتى عدت مرحلة انعطافية في التاريخ فصار يقال وفقاً لما جاء في حديث العالم الباحث، الدكتور عدنان البني: «العالم ما قبل أو بعد أوغاريت»[2].

فهل استعصى التعبير عن المأثرة الأوغاريتية الفريدة (مأثرة الحرف والكلمة) لا لشيء إلا لأن مصير المدينة الجمالي وضع في أيدي مقاولين[3] لا يريدون أو لا يحسنون تجسيد أمثال

1- وردت هذه العبارة في حديث الدكتور عدنان البني عن كد شيفر (1898-1982) وقد لقبه بالمكتشف السوبرمان، الذي ظل يبحث في أوغاريت واحداً وأربعين عاماً وأصدر عنها مؤلفاً في خمسة أجزاء سماه «أوغاريتا». انظر: سهيل الذيب أوغاريت (رأس الشمرة) جغرافياً تاريخياً واثرياً. «تشرين» 27-5-2004 ص 9.

2- أخذ المقتطف من الهامش السابق.

3- أخذ مصطلح «مقاولون» من مقال متميز للدكتورة ناديا خوست نشر بعنوان «سجل التاريخ» في زاوية «آفاق»، في صحيفة «تشرين». دمشق 5-6-2004.

هذه المآثر؟ ومهما يكن، فالحفريات لا تزال مستمرة، وقد يطرأ تطور تقني في الفن تتفجر عنه طريقة جديدة في التعبير عن هذه المسألة التي تبدو - حتى الآن - مستحيلة!. وهكذا فقد نتوصل إلى تدارك هذا التقصير نحو المدينة في يوبيلها المئوي القادم عام 2029، فما خمس وعشرون سنة في الامتداد النسبي للزمن، وللزمن الأوغاريتي، بصفة خاصة، إلا جزيئة من ثانية!

5- النظر إلى التراث على أنه جزء صميمي عريق من أجزاء الوطن، جزء ثمين، فريد، لا يتكرر ولا يعوض، ومن هذا المنظور يجب حمايته والدفاع عنه. وقد يبدو هذا بدهية لا تستحق المناقشة، لكن محنة الآثار في بغداد أثبتت أن الكنوز الأثرية مطمع يحتل الصدارة بين ما يبحث عنه الغزاة. وهو ما يتطلب الاستعداد لذلك بكل ما استطعنا من قوة. فلم يعد كافياً في عصرنا العجيب هذا، عصر البدايات المرعبة للقرن الحادي والعشرين، أن نطمئن لقوة الحق الفطري الطبيعي الذي نملكه في أن تكون أرضنا لنا وتراثنا لنا. لقد سيطر حق القوة وأصحابه لا يتسترون على ذلك ولا يتحفظون في إعلان قانون راتسيل الذي أشرنا إليه في مستهل هذه الدراسة ذريعتهم إلى العدوان وانتهاب ثروات الأمم. أما الطامعون الذين يعبثون بتراث بلادهم الآثاري مدفوعين بالجشع وتحقيق المكاسب المالية فينبغي محاسبتهم ومعاقبتهم بكل صرامة وحزم وعلى أساس أن عملهم جريمة تتساوى في حطتها ولا أخلاقيتها وضررها مع الخيانة الوطنية والتفريط بتراب الوطن.

وأخيراً، فليس لدينا ما نعترض به على الشعراء عندما يؤكدون على أن عناصر الطبيعة نفسها تقف على جانب الشعب المتحد المتضامن الصادق مع نفسه، فتؤازره مكونات الوجود كلها: أرض الوطن وسماؤه والحجر والشجر والبحر والرياح والغيوم. أما أرضنا العربية فتضيف أمراً جديداً إلى ذلك، إذ دأبت - منذ بواكير التاريخ - على إعانة أبنائها بالثروات والنفائس المكنونة في أعماقها، وهو ما نجم عنه انتشار فن طريف جداً في تاريخنا الأدبي هو «أدب السحر والتنجيم» وقراءة الطلسم وإزالة الرصد، وتكررت صوره في «ألف ليلة وليلة» وعلى آلاف صفحات «السير» العربية الشهيرة. ويخيل لنا أن أرضنا المباركة، التي منها أتينا وإليها نعود، لم تقبض يوماً

أيادي كرمها السخي، ولا تزال أخبار كنوزها الأثرية المكتشفة تتوارد بين الحين والآخر على مساحة مترامية الأطراف تمتد بين أقاصي المشرق والمغرب العربيين، وأثمن ما في هذه الكنوز أنها تترافق بنصوص صارت - بعد تجاربنا الطويلة في تعلم اللغات وتطبيقاتها - تقرأ في عين المكان بلهجات وتنوعات اللغة - الأم العروبية الأولى التي تعود بنا إلى الأصل الواحد وتهيب بنا أن نقف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص مهما تفاقمت الأمور واضطربت العواصف وتلبدت الأجواء بنذر الحقد والتهديد والأعاصير.

أ. د. عماد حاتم

فهرس الأشكال

الشكل -1- الاينكا توباك يوبانغي يصغي إلى اخبارية ينقلها اليه واحدٌ من أتباعه (يقرؤها بواسطة الكيبو)........ 23
الشكل -2- قامبوم بين العائد لقبيلة ليني - لابي........ 25
الشكل -3- «أروكو» ييبو (شمال لاغوس، نيجيريا)........ 26
الشكل -4- النقش الصخري في كهف باسيبغا........ 28
الشكل -5- صور منفصلة من «جرد فصول الشتاء» العائد لقبيلة «الكلب المنفرد»........ 29
الشكل -6- الطلب الذي وجهته القبائل الهندية السبع إلى كونغرس الولايات المتحدة الأمريكية........ 30
الشكل -7- «مرسال» الحب اليوكاغيري........ 31
الشكل -8- تطور الكتابة السومرية من الرموز التصويرية القديمة نحو المسمارية........ 35
الشكل -9- كتابة هيراطيقية على بردية إيبيرس وصيغتها بالهيروغليفية........ 37
الشكل -10- كتابة كاتاكانا اليابانية المقطعية في تطورها عن الكتابة الصينية العادية........ 40
الشكل -11- الأبجدية السامية القديمة........ 43
الشكل -12- الأبجديات اليونانية وتطورها بعد استعارة رموز الكتابة الفينيقية........ 45
الشكل -13- تطور الأبجديات من الهيروغليفات المصرية حتى الحروف الرومانية........ 46
الشكل -14- أفاناسي كيرخير........ 51
الشكل -15- dd - jn W sjr «اوزيريس يقول»........ 52
الشكل -16- اللقب الإمبراطوري «اوتوكرات» مكتوباً بالهيروغليفيات........ 53
الشكل -17- غوتفريد ويلهيلم ليبنيتس........ 57
الشكل -18- إطار يحتوي اسم بطليموس........ 64
الشكل -19- إطار يتضمن اسم بيرينيكا........ 65

الشكل -20- تطوّر الكتابة المصرية........................78
الشكل -21- تحليل اسم بطليموس وفق قراءة شامبليون........................79
الشكل -22- الشكل المتضمن لاسم كليوباترة وتحليل هيروغليفاته........................81
الشكل -23- اسم الكسندر........................82
الشكل -24- محددات مصرية........................82
الشكل -25- الكتابة الهيروغليفية لاسم رمسيس........................83
الشكل -26- الكتابة الهيروغليفية لاسم توتموس........................84
الشكل -27- هيروغليفات مصرية تعني أشياء ملموسة........................91
الشكل -28- ايديوغرامات هيروغليفية تعبر عن أعمال تتم يمكن مشاهدتها........................92
الشكل -29- هيروغليفات مصرية كانت تعبر عن المفاهيم المجردة........................92
الشكل -30- كتابة هيروغليفية مصرية........................92
الشكل -31- رموز لفظية من ساكنين........................93
الشكل -32- «الأبجدية» المصرية........................94
الشكل -33- الأبجديتان الميرويبيتان (الهيروغليفية والديموطيقية) ومنقوشة ميروييه........................96
الشكل -34- المحددات الأكثر استعمالاً........................97
الشكل -35- نص هيروغليفي مصري........................98
الشكل -36- رموز اسفينية نشرها بيترو ديلا فالي........................106
الشكل -37- كلمة «ملك» في الإسفينية الفارسية القديمة........................117
الشكل -38- نقشا داريوس الأول وكسيركس بالفارسية القديمة........................119
الشكل -39- نقشا داريوس الأول وكسيركس كما يقرآن ويترجمان في الوقت الحاضر........................122
الشكل -40- الأبجدية المسمارية الفارسية القديمة........................135
الشكل -41- نص مسماري عيلامي حديث من مدونة بيهستون مع تدوين لفظي وترجمة........................141
الشكل -42- مدونة كسيركس باللغة الفارسية القديمة (إلى الأعلى) وبالبابلية (إلى الأسفل) زفق التدوين اللفظي والترجمة........................144

الشكل -43- تحولات الرموز المقطعية بطريقة الكتابة المركبة و «المقطعة»........ 146
الشكل -44- رمزان كان يمكن استخدامهما كايديوغرامات، وكمحدّدات وكرموز مقطعية147
الشكل -45- رموز مقطعية بوليفونية........ 148
الشكل -46- طبعة من خاتم الملك نارام - سين على قطعة من الاجر عثر عليها في نيبور (2270-2233ق.م)........ 158
الشكل -47- أقدم الأشكال الايديوغرافية للرموز المسمارية........ 159
الشكل -48- رموز تصويرية مركبة........ 160
الشكل -49- منقوشة معمارية باللغة الاكاديمية القديمة........ 161
الشكل -50- رمزان سومريّان يستعملان في الوقت نفسه كايديوغرامتين ورمزين مقطعين........ 162
الشكل -51- ايديوغرامتان سومريتان تعنيان: «أب»، «أرض» و «جبل»........ 162
الشكل -52- كلمة «بلاد» في كتابة مختلطة........ 164
الشكل -53- مفردات تحددها المحدّدات........ 166
الشكل -54- طبعة من خاتم تاركوموفا الذي كان نقطة الانطلاق لقراءة رموز الكتابة الهيروغليفية الحثية........ 178
الشكل -55- القراءة اللفظية لخاتم تاركوموا........ 181
الشكل -56- الرمز الهيروغليفي «أنا» في الكتابتين - المصرية والحثية الهيروغليفيتين........ 183
الشكل -57- اسم مدينة كركميش مكتوباً بالهيروغليفيات الحثية........ 185
الشكل -58- بداية النصين في كتابتي كركميش........ 203
الشكل -59- اسم «واربالاواس» مكتوباً بالحثية الهيروغليفية........ 214
الشكل -60- أختام هيروغليفية ومسمارية حثّية........ 219
الشكل -61- الجمل 19-22 و 38-50 من ثنائية قره تيبي........ 222
الشكل -62- مدونة هيروغليفية من كركميش........ 226
الشكل -63- رموز هيروغليفية حثية كانت تعني مفردات «بيت» و «شمس» و «إله»... 227
الشكل -64- فأسان طرقت عليها كتابة أوغاريتية........ 242

الشكل ـ65ـ ابجدية رأس الشمرة..246
الشكل ـ66ـ آـ بلاطة تحمل نقشاً تذكارياً بكتابة جبيل. بـ لوحة برونزية مغطاة بنقوش من جبيل..253
الشكل ـ67ـ جدول رموز جبيل الكتابية..255
الشكل ـ68ـ الوجه المقابل من اللوحة البرونزية من جبيل..257
الشكل ـ69ـ الثنائية الفينيقية ـ القبرصية. وثيقة ايداليون..264
الشكل ـ70ـ رموز الكتابة القبرصية المقطعية..272
الشكل ـ71ـ رموز كتابية قبرصية ـ ميكينية..273
الشكل ـ72ـ الختم العقيقي الرباعي الجوانب من جزيرة كريت (من سبارطة)..276
الشكل ـ73ـ بعض الهيروغليفات الكريتية..278
الشكل ـ74ـ لوحتان كريتيتان من كنوسّ..281
الشكل ـ75ـ لوحة 1ـ «العربة الحربية» من كنوسّ..282
الشكل ـ75ـ لوحة 2ـ بعض ايديوغرامات الكتابة الكريتية ـ الميكينية..283
الشكل ـ76ـ مجموعات اليسا كوبير الثلاثية..286
الشكل ـ77ـ المكافأة التجريبية..288
الشكل ـ78ـ «شبكة» فينتريس التي أنجزها في شباط (فبراير) سنة 1952 قبل عملية فك الرموز..293
الشكل ـ79ـ الجدول الأساسي للرموز المقطعية (مأخوذ عن الـ «Evidence»)..299
الشكل ـ80ـ لوحة الأدوات المنزلية من بيلوس..300
الشكل ـ81ـ الفهرس المقطعي الميكيني وفقاً لكتاب فينتريس وتشيدويك..303
الشكل ـ82ـ رموز مكتوبة بالحبر على الوجه الداخلي لكأس من كنوس..306
الشكل ـ83ـ لوحة فخارية صغيرة ذات مدونة بالكتابة الخطوطية آ، عثر في آغيا ـ تريادا..307
الشكل ـ84ـ جرد أدوات هيروغليفي عثر عليه في فيست..308
الشكل ـ85ـ الرموز المرسومة على قرص فيست..309

الشكل -86 أ - قرص فيست الوجه الأمامي.. 310
الشكل -86 ب - قرص فيست الوجه المقابل.. 311
الشكل -87- الأبجدية الرونية لقدماء التيورك.. 330
الشكل -88- المدونة الرونية باللغة المجرية القديمة من استامبول.. 334
الشكل -89- الرموز الرونية في الكتابة المجرية القديمة بالمقارنة مع الرونات التيوركية القديمة ومع الحروف اليونانية والغلاغوليتسا.. 336
الشكل -90- الأبجدية الإيتروسكية.. 340
الشكل -91- لوحة ماليانو الرصاصية - الكبد البرونزية المكتشفة في بياتشينتسا.. 343
الشكل -92- نقوش كتابية ما قبل الهندية نقشت على أختام.. 348
الشكل -93- لوحة مقارنة بين الرموز والكتابة لحوض الهند وبين رموز جزيرة الصيام 354
الشكل -94- «رونغو، رب السماء والأرض، الذي خلق الكون».. 356

قائمة اللوحات

اللوحة -1- جُعْلٌ نقشت فوقه كتابة مصرية تشير الى زواج الفرعون امنحوتب الثالث

اللوحة -2- الكرنك، نصب تحوتموس الأول.

اللوحة -3- الكرنك نصب الملكة حتشبسوت.

اللوحة -4- نموذج للكتابة الهيروغليفية المصرية، لوحة قداس لـ خونن الأسرة الحادية عشر من الحجر الجيري.

اللوحة -5- تمثال نصفي لـ توم في هيئة قرد البافيان.

اللوحة -6- كتابات على قاعدة التمثال النصفي لتوم.

اللوحة -7- أخناتون ونفرتيتي.

اللوحة -8- كتابة إسفينية.

اللوحة -9- زقورة من تشونغا - زمبيل كتابة مسمارية.

اللوحة -10- غانج - نامة.

اللوحة -11- بيهستون مدوّنة داريوس الأول المنقوشة في الصخر.

اللوحة -12- داريوس الأول.

اللوحة -13- مدونة هيروغليفية حثية من حماة.

اللوحة -14- نموذج للخط الحثي الهيروغليفي، بداية الألف الأول ق.م، كركميش.

اللوحة -15- رقيم كتب عليه نص للقوانين الحثية، حماة.

اللوحة -16- شاهدة قبر حجرية عليها رسومات تمثل فارسا وجملا، جنوب الجزيرة العربية، نهاية الألف الأول ق.م

اللوحة -17- مدونة فينيقية.

اللوحة -18- لوحة من جزيرة كريت.

اللوحة -19- السفر التاريخي للقيصر الأورارتي ساردوري الثاني منقوشة على الصخرة الوانية في القرن الثامن ق.م

اللوحة -20- تمثال من جزيرة الصيام.

اللوحة -21- نقش كتابي بلغة مايّا.

الفهرس

مقدمة 5

الفصل الأول 19

نبذة عن الكتابة

بديلاً عن المدخل

الفصل الثاني 47

أحجية أبي الهول

قراءة رموز الكتابة المصرية القديمة

الفصل الثالث 101

أهورامزدا أعانني

قراءة رموز الكتابة المسمارية الفارسية القديمة

الفصل الرابع 137

أنَّى نظرت لِقيت إسفيناً

فك رموز الكتابة المسمارية في ما بين النهرين

الفصل الخامس 169

إسفين وصورة في بلاد الحثّيين

قراءة لغة المدونات الحثية الإسفينية وحل رموز النقوش الهيروغليفية الحثية

الفصل السادس 231

«رأس الشمرة» في «مينة البيضا» وجبيل، مدينة الورق

قراءة رموز رأس الشمرة وجبيل

الفصل السابع 261

آلهة و تجار

فك رموز الكتابة المقطعية القبرصية

الفصل الثامن 275

عربة حربية وكأس

قراءة رموز كتابة «ب» الكريتية - الميكينية المخطوطية

الفصل التاسع 313

الأمير كيول تيكين، بيلكي خاقان وطونيوكوك الحكيم

قراءة رموز الكتابة التيوركية الرونية القديمة

الفصل العاشر 337

قراءة الكتابات القديمة غداً

كتابة الإيتروسكيين ووادي الهندوس وجزيرة الصيام

الفصل الحادي عشر 359

قراءة الكتابات واللغات القديمة في منظور الواقع العربي الراهن

تمهيد

1- الرموز ومناهج قراءة الكتابات القديمة 363

2- المركزية الغربية وقراءة القديمة 371

3- الكشوفات الأثرية ومعانيها البعيدة 385

4- جريمة القرن 359

خاتمة 407

فهرس الأشكال 421

قائمة اللوحات 426